

التاريخ القوي

لِكَّة وَبَيْتِ اللَّهِ الْكَرِيمِ

تأليف

محمد طاهر الكردي المكي

الجزء الخامس

طبع على نفقة

معالي الدكتور عبد الله به وفيس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة للجَرِيق
د. عبد الله بن دهيش

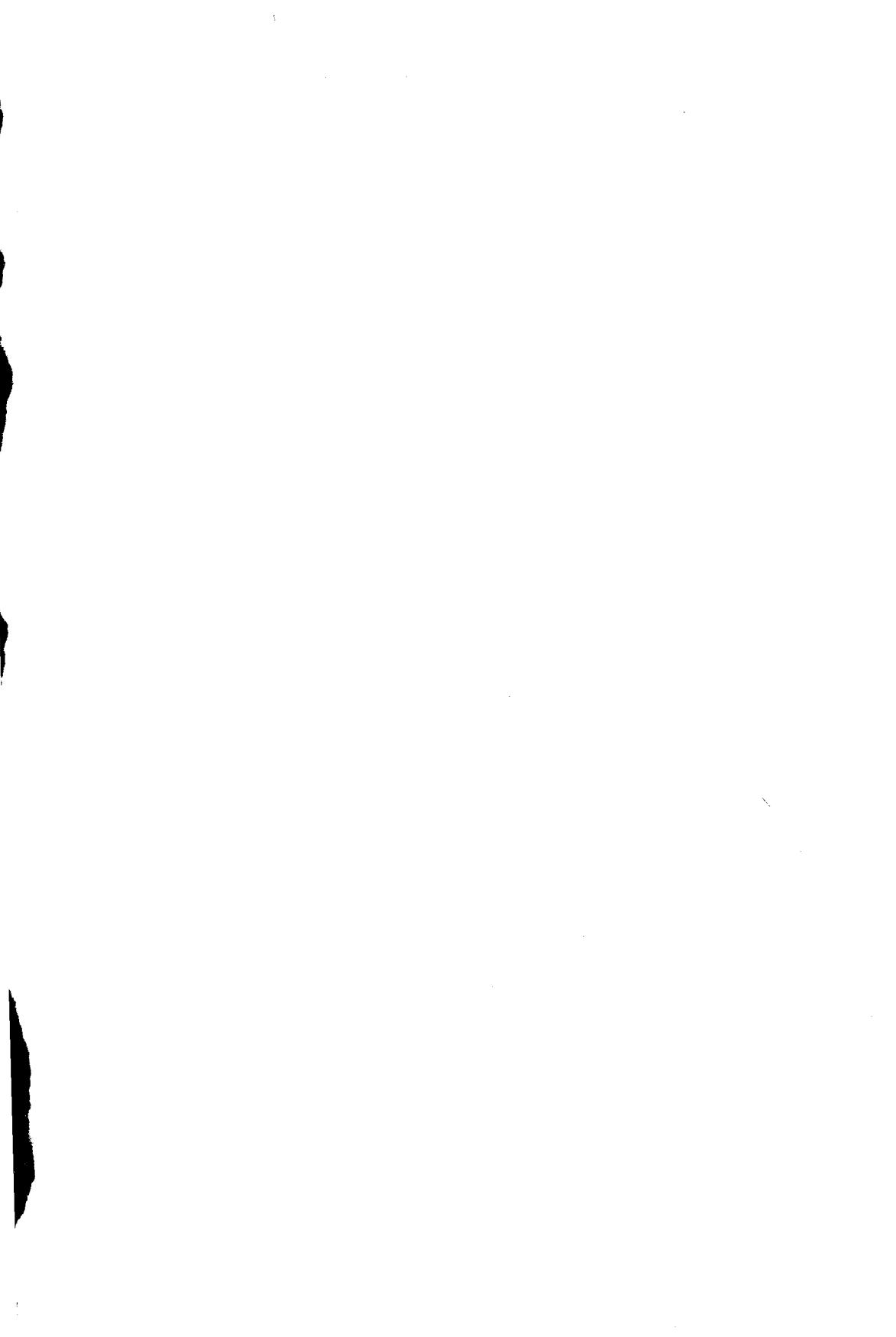
الطبعة الأولى

١٤٢٠ - ٢٠٠٠ م

ويطلب من مكتبة النهضة الحديثة
مكة المكرمة هاتف ٥٧٤٤٥٩٥

طَارِيْكُوْنِي
لِلطبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْرِيْعِ
ص.ب. ١٢/٦٦٦١
بَيْرُوتُ ، لَبَانَ

الْتَّارِيخُ الْقَوْمِيُّ
لِكَّةٍ وَبَيْتٍ اللَّهِ الْكَرِيمِ



صيغة الدعاء بالمسجد الحرام ملوك الحجاز سابقاً

بعد أن انقضى حكم الأتراك من الحجاز ، واستقل الشريف حسين بن علي بالحجاز ، سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف ، تقرر أن يدعى له في خطبة الجمعة فوق منبر المسجد الحرام بدعاة خاص وإليك صيغته :

قال الغازى في الجزء الثالث من تاريخه : وفي سنة (١٣٣٦) تقرر الدعاء في خطبة الجمعة بعد الترضية على الآل والصحب بهذا العنوان «اللهem وقتلـس أرواح الأئمة المجتهدـين ، الذين قـضـوا بالحق وبـهـ كانوا عـامـلـين ، اللـهـمـ أـدـمـ نـصـرـكـ وـعـونـكـ وـأـيدـ حـفـظـكـ وـصـونـكـ ، لـعـبـدـكـ وـابـنـ عـبـدـكـ ، الـخـاضـعـ لـجـلـالـكـ وـمـجـدـكـ ، حـامـيـ بلدـكـ الـأـمـيـنـ ، وـمـدـيـنـةـ جـلـدةـ سـيـدـ الـمـرـسـلـيـنـ ، شـرـيفـ مـكـةـ وـأـمـيرـهاـ ، وـمـلـكـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ قـرـةـ كـلـ عـيـنـ سـيـدـنـاـ وـمـوـلـانـاـ الشـرـيفـ الـحـسـنـ ، اـبـنـ سـيـدـنـاـ الـمـرـحـومـ الشـرـيفـ عـلـيـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـمـعـيـنـ بـنـ عـونـ ، وـكـنـ لـهـ حـافـظـاـ وـأـمـيـنـاـ ، وـنـاـصـرـاـ وـمـعـيـنـاـ ، وـوـقـفـهـ اللـهـمـ لـمـ فـيـهـ صـلـاحـ الـبـلـادـ وـالـعـبـادـ ، وـشـؤـونـ مـنـ مـنـ بـرـكـ وـبـحـرـكـ مـنـ أـمـةـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ أـجـمـعـيـنـ ، عـلـىـ مـاـ تـحـبـهـ وـتـرـضـاهـ ، اللـهـمـ أـصـلـحـ جـمـيعـ وـلـةـ الـمـسـلـمـيـنـ ، وـأـهـلـكـ الـكـفـرـ وـالـمـبـتـدـعـ وـالـمـشـرـكـيـنـ ، وـكـلـ مـنـ أـرـادـ السـوـءـ بـعـبـادـكـ الـمـؤـمـنـيـنـ ، اللـهـمـ اـغـفـرـ لـمـؤـمـنـيـنـ وـلـمـؤـمـنـاتـ ، وـالـمـسـلـمـيـنـ وـالـمـسـلـمـاتـ ، الـأـحـيـاءـ مـنـهـمـ وـالـأـمـوـاتـ ، فـيـ مـشـارـقـ الـأـرـضـ وـمـغـارـبـهـ آـمـيـنـ يـاـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ .

انتهى من تاريخ الغازى . ونحن أيضاً كنا نسمع حال الصغر هذا الدعاء ، فرحم الله الغازى الذي كان يسكن معنا بباب الزرايدة بمكة ، وكان يقيـد كل شيء يراه في تاريخه المذكور .

النور في المسجد الحرام

لا بأس بالنوم في المساجد بشرط أن لا يحصل ضرر من ذلك لأحد ومع مراعاة حرمتها ، كأن لا ينام وقد مدّ رجليه إلى القبلة ، وأن لا ينام في البقعة التي يكثر فيها المصلون ، وأن لا ينام وليس عليه سروال خوفاً من انكشف عورته ، وأن لا ينام في مكان يحصل منه ضرر لغيره ، فالنوم فيها مع أمن الضرار ومراعاة الحرمة لا بأس به .

روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن عمرو بن دينار قال : كنا ننام في المسجد الحرام زمان ابن الزبير ، وعن ابن حريج قال : قلت لعطا : أتكره النوم في المسجد الحرام ؟ قال : لا ، بل أحبه . انتهى منه .

وعن ابن عمر أنه كان ينام وهو شاب عزب لا أهل له في مسجد رسول الله ﷺ . رواه البخاري وأبو داود والنسائي وأحمد ولفظه : كنا في زمان رسول الله ﷺ ننام في المسجد وتقليل فيه ، والترمذى وصححه ولفظه : كنا ننام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ ونحن شباب . رواه مسلم . معناه ، قوله في رواية : أبىت في المسجد .

نقول : إن نوم الصحابة رضي الله تعالى عنهم في مسجد رسول الله ﷺ غير نومنا نحن في المساجد ، فأولئك كانوا يحرصون على أداء الصلوات خلف رسول الله ﷺ لذلك كانوا ينامون في مسجده حتى إذا حان وقت الصلاة قاموا إليها . فإذا قصد الإنسان بالنوم في المسجد إدراك صلاة الجمعة عند إرادة الصلاة كان له في ذلك الأجر والثواب ، لأنه لو نام في غير المسجد قد لا يجد من يوقفه لأداء الصلاة ، فما دام الإنسان يراعي عند النوم في المسجد مراعاة حرمته فلا بأس عندئذ من نومه فيه حتى يأخذ لنفسه قسطاً من الراحة خصوصاً إذا كان لا يجد له مأوى . نسأل الله التوفيق للخيرات والمبرات آمين .

الشحاذة في المسجد الحرام

قال في رسالة «كشف الزور والبهتان من صنعة بني سasan» ما يأتي : أعلم أن هذه الصنعة السفلة الدنيئة المحرمة شرعاً تسمى بالشحادة وبالشحاذة وبالكُدوية وبصنعة بني ساسان وبصنعة الشيخ فلحسن .

قال في شفاء الغليل للشهاب الخفاجي : شحّات اسم للسائل ، وسموا شحّاته بالثلثة وصوابه شحّاذ وشحاذة من شحد السيف صقله شبه به الملح ، قاله أبو منصور في الذيل لكن في شرح الدرة قال إنه حسن على البدل كما قالوا جثا وجثنا وقثمتُ الشيء وقدمنته ولا بدُّع في أمثاله .

وقال الشيخ أبو الوفا نصر الموريني : أما شحّات بالثلثة فهو إيدال من الذال أو المثلثة ولا مانع منه في القياس .

وقال فيه أيضاً كدّي بكاف مفتوحة ودال مهملة مشددة بمعنى سأل وأكثر أهل الشرق يقولون المكدية للسؤال الطوافين على البلاد من قولك حضر فأكدي إذا بلغ الكدية ولم ينبط ماء . انتهى .

وأما صنعة بين ساسان فقال فيه أيضاً : إنهم طائفة كذابون محتالون على الشحادة بكل ما أمكنهم من الكذب والخيل والغدر ودعوى النسب الكاذب والبكاء المتصنع وقد ذكرهم الحريري في آخر المقامات وبينهم وبين حيلهم وأحسن من وصف بين ساسان وبين حيلهم وأكاذبهم أبو دلف الخوزجي في قصيدة التي لم يسبق على منهاها أنظرها في يتيمة الدهر في الجزء صفحة ١٢٦ .

وأما تسميتهم بين فلحس فقال في المزهراً أنه فلحساً أسألاً رجل مُلح في العرب كان يسأل لنفسه ثم يسأل لزوجته ثم يسأل لابنته ثم يسأل لبنته ثم وثم وثم إلى أن يسأل لحماره فلنذلك ضرب به المثل في السفالة والنذالة وكل من شابهه يسمى بين فلحس .

وعند عرب العالية يعني عرب البحرين والقطيف والكويت والحسا وما والاها تسمى الشحادة بالطراوة والمفرد طرار ولعلها معرفة في الاشتقاء عن الاضطرار . انتهى من الرسالة المذكورة .

ثم أورد صاحب الرسالة بعض الأحاديث الواردة في تحريم السؤال والشحادة ، وتكلم عن أحوال الشحاذين وقصصهم وبعض حيلهم ما أحينا سردها حتى لا يطول بنا الكلام ، ونظن أن هذه الرسالة هي الأولى من نوعها ، فهي على صغر حجمها قد أوقفت بالمراد وأتت بالحكمة والسداد ، كما وهي مطبوعة سنة (١٣٠٥) هجرية .

فالشحاذة ، بالذال المعجمة ، من أقبح وأرذل العادات ، ويكتفي أن صاحبها مقوت مطرود من المجتمع الإنساني ، والشحاذة غير السائل ، فكل شحاذ سائل ولا عكس ، لأن السائل يكون مضطراً للسؤال فإذا وصل إلى حاجته استكشفى وقنع ، وأما الشحاذ فقد نبذ الحياة واتخذ السؤال أبدية لا يتركها إلا إذا تركته الحياة ، وكلما أعطى نشط في الشحاذة وازداد في الطمع ، وكم من الشحاذين من له ثروة طائلة وأموال عظيمة ودور وعقارات متعددة .

وللشحاذة في بعض البلدان كمصر أصول وأنظمـة يعرفها أصحابها ويعيشون بمحاجتها ولهم رئيس ، ولكل قسم منهم جهة و محلات وأسكنـة مخصوصـة بجلسـون

فيها للسؤال ، وهم في صنعة الشحادة طرق وكيفيات يعجز عنها إبليس ليستدرّوا بها عطف الناس وشفقتهم .

ولقد ورد النهي عن السؤال والشحادة ففي الصحيحين عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : "لأن يأخذ أحدكم جبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيه كل ويصدق خير له من أن يسأل الناس " .

وروى البخاري عن الزبير رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : "لأن يأخذ أحدكم ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكتف الله بها وجهه - وفي رواية - : فيستعين بثمنها خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه " .

وجاء في الحديث الصحيح : "ما تزال المسألة بالعبد حتى يلقى الله وما في وجهه مُزْعَة" ، بضم الميم وسكون الراي أي : ليس في وجهه قطعة لحم .
سأل الله السلامة والعافية مما تبلي به كثيراً من خلقه .

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند الحديث المتقدم : لأن يأخذ أحدكم جبله ... إلخ ما يأتي :

واعلم أن الأصل في المسألة عدم الجواز إلا لأحد ثلاثة مذكورين في حديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة ، ولفظه بعد ذكر إسناده عن قبيصه بن مخارق الهمالي ، قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها . فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، قال ثم قال : يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيّب قواماً ثم يمسك ، ورجل أصابته حائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيّب قواماً من عيش أو قال : سداداً من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيّب قواماً من عيش أو قال : سداداً من عيش ، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً . اهـ بلفظه .

قال النووي : الحمالة بفتح الحاء ، هي المال الذي يتحمله الإنسان أي يستدinya ، ويدفعه في إصلاح ذات بين كالإصلاح بين قبيلتين ونحو ذلك وإنما ت محل المسألة ويعطى من الزكاة بشرط أن يستدinya لغير معصية .

وقال أيضاً : معنى قوله : قواماً أو سداداً القوم والسداد بكسر القاف والسين وهما يعني واحد وهو ما يعني من الشيء وتسد به الحاجة وكل شيء سددت به شيئاً فهو سداد بالكسر ومنه قوله سداد من عوز ومعنى حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا ، أي يقومون بأمر صاحب الفاقة ، فيقولون : لقد أصابته فاقة والحجاج بالقصر العقل . وإنما قال عليه الصلة والسلام من قومه لأنهم من أهل الخبرة بياطنه . والمآل مما يخفي في العادة فلا يعلمه إلا من كان خبيراً بصاحبها . وإنما شرط الحجاج تبيهها على أنه يشترط في الشاهد التيقظ ، فلا تقبل الشهادة من مغلق . وأما إشهاد ثلاثة فقال الجمهور : لا يشترط بل يقبل من عدلين كسائر الشهادات غير الزنى وحمل الحديث على الاستعجاب . وقال بعض الشافعية : يشترط إشهاد ثلاثة في بينة الأسعار فلا يقبل إلا من ثلاثة لظاهر هذا الحديث . وهذا كله محمول على من عرف له مال فلا يقبل قوله في تلفه ولا عسارة إلا ببينة ، وأما من لم يعرف له مال فالقول قوله في عدم المآل . وقوله عليه الصلة والسلام : مما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتا... إلخ هو في جميع نسخ مسلم هكذا بالنصب كما قاله النووي ، ورواية غير مسلم سحتا بالرفع وهو واضح ، قال النووي : ورواية مسلم صحيحة وفيه إضمار أي اعتقده سحتا أو يؤكّل سحتا والله أعلم . انتهى ملخصاً منه .

انتهى من شرح زاد المسلم .

فإن كانت الشحادة قبيحة في أي مكان كانت ، فإنها أقبح ما تكون في المساجد وأشد قبحاً في المساجد الثلاث "المسجدين الحرامين والمسجد الأقصى" .
وأمسح ما يكون الشحاذ إذا كان قدرأً ووقدراً وقيحاً وقيح المنظر وكريه الرائحة إن طردته لا يذهب وإن زجرته لا ينصرف ولا يتأثر ، ولقد ابتلى المسجدان الحرامان بمكة والمدينة بمثل هذا الصنف القدر والت نوع الواقع من الشحاذين ، في موسم الحج ، فتراهم يقفون على أبواب المسجد في صفين عن اليمين وعن الشمال بحالة قدرة يسلّون الطريق على الناس بل يوذونهم بكثرة إلحاحهم في الطلب ويسكون ثيابهم النظيفة بأيديهم القدرة الواسعة ، ومهمماً زجروههم وطردوهم لا ينصرفون ، فهذا غير جائز شرعاً ولا يستساغ ذوقاً ، ونكون عرضة للاتقاد في مواسم الحج ، فمثل

هؤلاء لا يتركون هذه الصنعة بالوعظ والإرشاد وإنما يجبرون على تركها بالقوة والقهر .

فحبذا لو أن بعض الجهات الرسمية نظرت إلى علاج حاسم لهؤلاء ، فمن كان منهم صالحًا لبعض الأعمال جعلته يشغله فيما هو قادر عليه ، ومن كان عاجزاً جعلته في دار العجزة والضعفاء ، ومن كان مريضاً عاجلته بما أصابه ، فكل صنف منهم له حكم خاص في الشريعة الإسلامية الغراء .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه صلاح العباد والبلاد آمين .

الإيقاد في المسجدين الحرميَّن

بمناسبة تطور الإضاءة والتنوير في المساجد والمنازل في جميع أقطار الأرض ، نذكر هنا تطورات الإضاءة في المسجدين الحرامين وبالاخص في المسجد الحرام بمكة المشرفة لأن تاريخنا هذا يتعلق بها فقط . فلقد كان الناس في العصور الماضية يكتفون ليلاً بنور القمر ثم يستضيفون بإشعال الحطب والنار ثم بسعف التخل وغضون الأشجار اليابسة ، ثم صاروا يستضيفون بالشموع وبالريليت ، ثم بالغاز بالكهرباء في عصرنا الحاضر . والله تعالى أعلم بما سيحدث في مستقبل الأيام . وفي ذكر الإيقاد بالنار يقول الشاعر العربي القديم : "كأنه علم في رأسه نار" ويقول أحدهم في النم :

قوم إذا است炳ع الأضياف كلبهم
قالوا لأمهم بولي على النار
وها نحن نذكر أولًا نبذة صغيرة في الإيقاد بالمدينة المنورة في صدر الإسلام ، ثم نذكر بالتفصيل الإيقاد في المسجد الحرام بمكة المشرفة ، فنقول وبما لله تعالى التوفيق ، فهو الهادي إلى سوء الطريق .

إيقاد الشموع في المدينة على عهد ﷺ

جاء في كتاب الترتيب الإدارية في الجزء الأول ما نصه : في السنن عن ابن مسعود قال : رأيت ونحن في غزوة تبوك شعلة من نار في ناحية العسكر فأتبعها أنظر إليها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات وإذا هم حفروا له ورسول الله ﷺ في حفرته . وفي جامع الترمذى في باب

اللعن بالليل عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل قبراً ليلاً فأسرج له سراج . . . الحديث . قال الحافظ السيوطي قوله : شعلة نار أي ضوء الشمعة وذلك أنه أحب من سأله هل الشمع وقد عنده ﷺ وأفرد ذلك برسالة سماها مسامرة السموع في ضوء الشمع . انظر الفتاوی الحديثیة لابن حجر الهیثمی ص ۱۲۱ والسیرة الخلیلیة . وفي باب الصلاة على الفراش ، من الصحيح عن عائشة ، قالت : كتت أنام بين يدي النبي ﷺ ورجلان في قبته ، فإذا سجد غمزني ، فقبضت رجلي ، فإذا قام بسطتها . قالت : والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح . قال الحافظ في الفتح ، وقولها : والبيوت ليس فيها يومذ مصابيح ، كأنها أرادت به الاعتذار عن نومها على تلك الصفة . قال ابن بطال : وفيه إشعار بأنهم صاروا بعد ذلك يستصبحون هـ ص ۱۴ من الجزء الأول ، وفي السیرة الشامیة جاء أنه ﷺ كان لا يجلس في بيت مظلوم إلا أسرج له فيه أخرج البزار وأبو الحسن بن الضحاك عن عائشة كان ﷺ لا يجلس في بيت مظلوم إلا أسرج له فيه سراج ، وأنخرج ابن سعد عنهمما نحوه ، وفي البيان والتبيین للحافظ أن جنيبة الأبرش آخر ملوك قضاة بالحيرة هو أول من رفع الشمع . وفي شرح النهج للمنجور : أن البرزلي سئل عن جعل الثريا والقناديل في المسجد فأحاب : أن جعل الحصر ومطلق الاستصبح من باب ترفع المساجد . وقد ورد ثواب جزيل في استصبحه . وحكى الرمخشري في تفسیر قوله تعالى : **﴿إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسَاجِدُ اللَّهِ... الْآيَة﴾** عن أنس: من أسرج في مسجد إسراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوء . وقال : العمارة تتناول تحديد ما استرم منها وتنظيفها وتتويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتبارها للعبادة والذكر . وأما كثرة المصابيح في رمضان فقد طعن فيه بعض المغاربة بأنه بدعة والصواب أنه من باب ترفع المساجد . اهـ . انظر بقیته في نوازل البرزلي وشرح النهج ولا بد . انتهى من الكتاب المذکور .

إيقاد المساجد بالرثيٰ في عهد النبي ﷺ

جاء في كتاب التراتیب الإداریة ص ۸۴ من الجزء الأول ما نصه :

في الاستیعاب : سراج مولی تمیم الداری ، قدم على النبي ﷺ في خمسة غلمان تمیم وأنه أسرج للنبي ﷺ بقدیل الرثیٰ ، وكانوا لا يسرجون قبل ذلك إلا سعف النخل ، فقال رسول الله ﷺ : من أسرج مسجداً؟ فقال تمیم : غلامی

هذا، فقال : ما اسمه؟ قال : فتح، قال النبي ﷺ : بل اسمه سراج ، قال : فسماني رسول الله ﷺ سراجاً .

(وقلت) وخرج الخطيب بسند ساقه في الإصابة في ترجمته ، وفيه كان يسرج مسجد رسول الله ﷺ بسعف التخل ، فقدمنا بالقناديل والزيت والحبال ، فأسرجت المسجد . راجع ترجمته في الإصابة . وترجم في الإصابة أيضاً لأبي البراد غلام تميم الداري فقال : ذكره المستغري في الصحابة .

وأخرج من طريق محمد بن الحسن بن قتيبة عن سعيد بن زياد بن فائد عن أبيه
عن جده عن أبي هند قال : حمل تميم الداري معه من الشام إلى المدينة قناديل وزيتاً
ومقطاً ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك يوم الجمعة ، فأمر غلاماً له يقال له أبو
البراد فقام فشد المقط " وهو بضم الميم وسكون القاف وهو الحبل " وعلق القناديل
وصب الماء فيها وجعل فيها المقتل ، فلما غربت الشمس أسرجها ، فخرج رسول
الله ﷺ إلى المسجد فإذا هو يزور فقال : من جعل هذا ؟ قالوا : تميم يا رسول الله
قال : نورت الإسلام نور الله عليك في الدنيا والآخرة ، أما أنه لو كان لي ابنة
لزوجتكها ، فقال نوفل بن الحرب بن عبد المطلب : لي ابنة يا رسول الله تسمى أم
المغيرة بنت نوفل فاقعف فيها ما أردت ، فأنكحه إياها على المكان ، وستنه
ضعيف . اهـ . وفي التجريد للنثبي : أبو البراد غلام تميم الداري ذكر في حديث
منكر . اهـ .

وفي سنن ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري قال : أول من أسرج في المساجد تميم الداري ، وقد ذكر الحديث السابق عنه أيضاً عيسى بن إسماعيل الرعيني في كتابه الجامع لما في المصنفات الجموع ، قال في تحفة الأكابر : عليه يؤخذ منه أنه إذا وردت مصايح من عند الكفار وقد كانت معلقة في كنائسهم وعلى رؤوس صليانهم ، جاز تعليقها في مساجد المسلمين ، ومعتمد الجواز بإباحة الارتفاع بأواني أهل الكتاب كما هو مقرر في الشريعة ... الخ . انظر بقيةتها فيها . (زقلت) . انتهى من الترتاتيب الإدارية .

المصايح في المسجد الحرام وإضاءتها بالزينة

قال الغازى في تاريخه ما ملخصه : وأول من أجرى للمسجد زيتاً وقناديل
معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه .

وقال الأزرقي : أول من استصبح لأهل الطواف في المسجد الحرام عقبة بن الأزرق بن عمرو الغساني وكانت داره لاصقة بالمسجد الحرام من ناحية وجه الكعبة والمسجد . مئذ ضيق ليس بين جدر المسجد وبين القائم إلا شيء يسير فكان يضع على حرف داره وجدر داره وجدر المسجد مصباحاً كبيراً يستصبح فيه فيضيء له وجه الكعبة والمقام وأعلى المسجد فلم يزل يضع ذلك على حرف داره حتى كان خالد بن عبد الله القسري الذي كان والياً على مكة فوضع مصباح زمرم مقابل الركن الأسود وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان .

فلما كان محمد بن سليمان على مكة في خلافة المؤمن سنة ست عشرة ومائتين وضع عموداً طويلاً مقابلة بجذاء الركن الغربي ، فلما ولّى مكة محمد بن داود جعل عمودين طويلين أحدهما بجذاء الركن اليماني والآخر بجذاء الركن الشامي ، فلما ولّى هارون الواثق بالله أمر بعدم من شبه (وهو ضرب من النحاس) طوال عشرة فجعلت حول المطاف يستصبح عليها أهل الطواف . وأمر بشمان ثريات كبيرة يستصبح فيها وتعلق في المسجد الحرام في كل وجه اثنتان . اهـ .

وقال في صحيفة ٣٣٠ : وقال ابن فهد في حوادث سنة ست وثلاثين وسبعمائة : وفيها جعلت الأساطين التي حول المطاف وجعل بعضها بالحجارة المنحوتة الدقيقة والباقي آخر مجصص وجعل بين كل من الأساطين خشبة ممدودة راكبة عليها وعلى المقابله لها لأجل القناديل التي يعلق لأجل الاستضاعة حول الكعبة عوض الأخشاب التي كانت في هذا المكان على صفة الأساطين .

وقال في حوادث سنة تسع وأربعين وسبعمائة : اجتهد الأمير فارس الدين في إصلاح المسجد الحرام وجود الأعمدة المتخذة حول المطاف . انتهى .

وقال في تحصيل المرام نقاً عن القرشي : قال عز الدين بن جماعة : والأساطين التي حول المطاف الشريف أحدها للاستضاعة بالقناديل التي تعلق بينها بعد العشرين وسبعمائة وكانت من خشب ثم جعلت من حجارة سنة تسع وأربعين وسبعمائة ثم ثارت ريح عاصفة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فألقتها ، ثم جددت فيها . انتهى من ذكره القرشي .

وفي درر الفرائد أن السلطان سليمان العثماني غير الأساطين التي حول المطاف وكانت من حجارة بأعمدة من نحاس في سنة تسعمائة واثنين وثمانين وسبعين وأخشاب ممدودة لتعلق فيها القناديل حول المطاف .

ثم ذكر الغازي في صحيفة ٣٣١ وما بعدها ما يتعلّق بعدد الأعمدة النحاس والرخام .

قال الغازي صحيفة ٣٣٢ ما ملخصه : أقول وقد بطل تسريع القناديل في الحرم الشريف من رابع شعبان سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثلاثين وجعل بدله الكهرباء والأتاريك ، وعلقت المصايد التي يظهر منها الضوء الكهربائي في المطاف الشريف اثنان وسبعون ، وفي مقام إبراهيم سبعة ، وفي الرواق الذي يجهة الصحن دائري ما يدور الحرم مائة وعشرون وفي المقام الحنفي أربعة ، وفي المقام الشافعي أيضاً أربعة . . . إلى آخر الكلام .

ثم أورد الغازي بالصحيفة المذكورة ما ذكره الشيخ حسين باسلامة في تاريخ عمارة المسجد الحرام عن إضاعة المسجد بالكهرباء وملخصه :

أن الشريف الحسين رحمة الله تعالى أتى بـماكينة الكهرباء وأمر بوضعها بمدرسة أم هانئ أمام دار الحكومة . ثم في سنة (١٣٤٠) أتى بـماكينة أخرى وضعت في دار بأجياد ، وكان ابتداء الإنارة بها في غرة رمضان سنة (١٣٤٠) ثم نقلت إلى المستودع الذي خلف دار الحكومة الذي يسمى سابقاً (فرن الميرى) أي محل الحبس الآن . وابتدأت الإنارة منه في ٢٨ شوال من السنة المذكورة . ثم في عصر جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود تبرع أحد التجار من أهالي رانكون بـماكينة كبيرة للمسجد الحرام في سنة (١٣٤٥) وكانت الإنارة بها في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة .

ثم في شعبان سنة (١٣٤٧) أمر جلاله الملك عبد العزيز بتجديـد عموم اللumbas التي بالمسجد الحرام وبزيادتها حتى تبلغ الألف لبـة فعمل ذلك ولم يهل شهر رمضان من السنة المذكورة حتى صار المسجد الحرام مضـاء عمومـه بالكهرباء .

ثم صدر أمر جلالـة الملك أيضاً في سنة (١٣٤٩) بـشراء ماكـينة قوية تضمـ إلى المـاكـينة الكـبـيرـة الأولى . ثم في سنة (١٣٥٠) وضع على حـجر إسـمـاعـيل شـمـعـدانـات من التـحـاسـ الأـصـفـرـ وـعـمـلـ عـلـىـ كـلـ شـمـعـدانـ منـهـ ثـلـاثـةـ أـغـصـانـ وـعـلـقـ عـلـىـ كـلـ غـصـنـ مـصـبـاحـ كـهـرـبـائـيـ ، وـوـضـعـ أـيـضاـ ستـةـ وـعـشـرونـ أـسـطـواـنـةـ فيـ حـصـاوـيـ المسـجـدـ الحـرـامـ صـنـعـتـ بـالـإـسـمـنـتـ الـمـسـلحـ طـولـ الـأـسـطـواـنـةـ نـخـوـ ثـلـاثـةـ أـمـتـارـ وـعـلـقـ عـلـىـ الـأـسـطـواـنـةـ أـرـبـعـةـ مـصـايـحـ كـهـرـبـائـيـةـ .

وفي سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وخمسين أهدي للمسجد الحرام نواب بهادر بالهند الحاج سر محمد مزمل ماكينة كهرباء عظيمة وتم تركيبها في أواخر شعبان (١٣٥٤) وأضيء بها المسجد الحرام في ابتداء شهر رمضان من السنة المذكورة .

هذا ولما عمّ إدخال الكهرباء في مكة المشرفة بواسطة المكرمين الشيخ إبراهيم الجفالي وإنحوانه : أنير المسجد الحرام ومكة كلها في تاريخ (١٤) شهر صفر عام (١٣٧٣) ووُضعت المراوح الكهربائية بالمسجد الحرام ليستريح الناس من الحر . وانظر مسألة الإنارة أيضاً في عنوان "إضاءة المسجد الحرام بالأتأريخ والكهرباء" .

جاء في مجلة الملال المصرية بتاريخ سنة (١٩٣٢) ميلادية عن عيدان الكبريت ما يأتي :

كان إشعال النار بواسطة ضرب الفولاذ على الحجر الصوان وفوقه قطعة من صوف أو قطن فتشتعل من الشراراة الخارجية من أثر الاختناق .

ثم إنه في سنة (١٨٢٩م) اخترع رجل اسمه (دوكر) من أهل ستوكتن من إنكلترا ولكنها لم تستعمل إلا في سنة (١٨٣٤م) وأول معمل تأسس لاصطناعها أسسه (روين بارترودج) سنة (١٨٤٢م) في إنكلترا وسنة (١٨٤٥م) تأسس معمل آخر في فيينا بالنمسا . ثم كثرت معاملها في أوروبا .

تدرج الإنسان في الإضاعة

قال في صبح الأعشى : أول من حُمل معه الشمع على البغال في الليل من ملوك الديار المصرية محمد بن طفع الإخشیدي . وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفراش راكب أمامها ، وهو يتلتفت في كل قليل يصلاحها ، فأندھا الملوك بعده بهذه الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام ملوك الديار المصرية في الليل .

بمناسبة إضاءة المسجد الحرام أخيراً بالكهرباء ، رأينا أن نتكلّم على تدرج الإضاعة منذ بدء الخليفة إلى عصرنا هذا والله تعالى أعلم بما يكون في مستقبل الزمان . فنقول : إن النار يكون من الحطب ، والضوء المبدئي من النار ، قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَتَمْ مِنْهُ تُوقَلُونَ﴾ قيل :

كل الشجر إلا العناب ، وقالوا : هو شجر المرخ والعفار فيجعل كالزنك يضرب به على المرخ . ففي الخازن فمن أراد النار قطع منها غصين مثل السواكين وهم خضراون ، يقطر منها الماء فيسحق المرخ على العفار ، فتخرج منها النار ، بإذن الله تعالى . وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، فسبحان القادر على كل شيء ، فالنار كما هو يمكن في الشجر ، يمكن أيضاً في الحجر وذلك باحتكاكه بالحديد ، فهذا الله الإنسان لإيقاد ناره في بدء الخليقة ، بأن يأتي بقطعة منه نحو القماش ، فيوضعه فوق الحجر ، ثم يضربه بقطعة من الحديد فتخرج منه شرارة يحرق القماش منه فيشعرون به النار وغيره . ولا تزال هذه الطريقة ، في كافة الأحياء ، مستعملة خصوصاً في توليع السجاائر وتسمى "بالولاعة" ولها أنواع وأشكال مختلفة ، ثم تدرج الإنسان إلى اختراع أعداء الكريت لإيقاد والإشعال ، وقد كثرا استعماله في زماننا وشاع شيئاً كبيراً لرخصتها وكثرتها وسهولة استعمالها .

فإلاضاعة منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا سبعة أنواع وهي كما يلي بالترتيب :

الأول : الخطب ، وهو الوسيلة الطبيعية السهلة للإلاضاعة والوقود لكثرة وجود الشجر على وجه الأرض . وقد أشرنا إلى قوله تعالى : **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِنَّمَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾**.

روى الأزرقي في تاريخه : كان قصي بن كلاب قد أوقد بالمزدلفة ناراً حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة ، وروى أيضاً عن نافع عن ابن عمر قال : كانت النار تؤخذ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعثمان رضي الله عنهم . اهـ . أي بالمزدلفة . وفي تاريخ الأزرقي : كان عمر بن عبد العزيز يأمر الناس ليلة هلال المحرم يوقدون النار في فجاج مكة ويضعون المصايح للمعتمرين خافة السرق . اهـ . هذا ولا يزال العرب إلى اليوم في البدية والجبال يوقدون النار ليلاً في أماكنهم للاتفاص بها واحتداء الضيف عليهم . وإلى هنا يشير الشاعر بقوله : « كأنه عَلَمَ في رأسه نار » .

الثاني : الشمعة ، وهذه أيضاً وسيلة سهلة للإلاضاعة تأتي في الدرجة الثانية لأن الشمع يستخرج من عسل النحل ، فيجمع على بعضه ويعمل على شكل العصا ثم يغمر بوسطه طولاً ذبالة ثم تشعل رأسها فتثير ما حولها وكانت تؤخذ شموع العنبر بين يدي الخلفاء والأمراء ، وتحتفظ طولها وغلوظها بحسب الحاجة وكم كان

الشعراء يتغزلون بالشمع و يقولون عنها : " إنها تلك الحبيبة الرقيقة التي يندوب جسدها في قطرات من الدموع المحرقة ولكنها تظل وفية مضيئة حتى آخر رمق من حياتها " . ويشبه الناس من يتعب نفسه لخدمة غيره ، بالشمعة تضيء للناس وتحرق نفسها . قال الأزرقي في تاريخه عند ذرع مسجد المزدلفة : والكلام على قزح وهو أكمة مرتفعة كان يوقد عليها في خلافة هارون الرشيد بالشمع ليلة المزدلفة وكانت قبل ذلك توقد عليها النار بالحطب فلما مات هارون الرشيد أمير المؤمنين كانوا يضعون عليها مصابيح كبيرة يسرج فيها بفتح جلال فكان ضوءها يبلغ مكاننا بعيداً ثم صارت اليوم توقد عليها مصابيح صغيرة وقتل رقاد ليلة المزدلفة . انتهى من الأزرقي .

نقول : والشمعة كانت توضع في آنية خاصة جوانبها كلها زجاج وأسفلها وأعلاها من الصفيح " التتك " حتى لا تطفئها الهواء وتسمى هذه الآنية " بالفانوس " وقد تفنن الناس في اختراع أنواع الفوانيس بأشكال مزخرفة بدعة قد تبلغ مئات الأنواع .

ثم بعضهم يضع في الفوانيس لمبات الكاز بدلاً من الشمع ، وبعض الفوانيس خاصة لللمبات الكاز فقط وتسمى بالفوانيس الهندية ، وقد سبق أن ذكرنا التسريح بالشمع في داخل " اللاله " وقد كان الطلبة يستعملونها ليلاً عند حضورهم للدرس في المسجد الحرام . وإليك صورة بعض هذه الأنواع .

انظر: الصور أرقام ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤ ، وهي لقمرية ، وبعض أنواع الأثاريك والفوانيس التي كان الحرم يضاء بها قديماً ، بعضها يضاء بالقار والبعض الآخر بالشمع .

الثالث : الزيت ، وهو أيضاً وسيلة سهلة للإضاعة تأتي في الدرجة الثالثة لأنه مستخرج من بعض الحبوب كالسمسم وبعض الثمار كالزيتون ، والإضاعة به قدية العهد أيضاً . فقد قال الله تعالى في سورة النور : ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ مِثْلُ نُورٍ كَمِشْكَاهٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ فِي زُجَاجَةِ الرُّجَاجَةِ كَانَهَا كَوْكَبٌ دُرْرِيٌّ يُوقدُ مِنْ شَجَرَةِ مِبَارِكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقَيَّةٍ وَلَا غَرْبَيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ روی أن أول من استصبح الحرم فأجرى له

القناديل والزيت من بيت المال : معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه . وروى الأزرقي : أن أول من أثقب النفاطات بين الصفا والمروة في ليالي الحج وبين المؤذمين - مأزمي عرفة - أمير المؤمنين أبو إسحاق المعتصم بالله الطاهر بن عبد الله بن طاهر سنة حج في سنة تسع عشرة ومائتين ، فجرى ذلك إلى اليوم اهـ . ومعنى أثقب : أفقد ، والنفط دهن قاله في مختار الصحاح . وقال في المنجد : النفط دهن معدني سريع الاحتراق توقد به النار ويتداوي به اهـ .

وإلى الإضاعة بالزيت يشير الشاعر الفكاهي في زماننا الأستاذ محمود بيرم التونسي بقوله :

زمان يوقد المصباح فيه بنور الزيت لا بالكهرباء
ولا تتحرك النساء حتى إلى المرحاض إلا بالغطاء
نعم كانت منازلنا ظلاماً ولكن القلوب على صفاء
وكان طعامنا أبداً كثيراً فيعرف في القصاع وفي الدلاء
زمان كان فيه لكل عين حمار ملكه لا بالكراء
وشاء الله أن عشنا وجئنا إلى زمن الملائكة والفلاء

نعم صدق والله هذا الشاعر الفاضل فإننا بقدر ما نقدم في إيجاد الوسائل الكمالية الدنيوية ، تتأخر أضعاف ذلك في عاداتنا وأخلاقنا وأمورنا الدينية ، فتحن والحالة هذه يصدق علينا قول الشاعر الحكيم :

زيادة المرء في دنياه نقصان وربما غير محظى الخير خسران
اللهم أصلح أحوالنا ويسر أمورنا ووقفنا لما تحبه وترضاه واعف عنا واغفر لنا
وارجعنا ... إلخ السورة .

الرابع : القاز ، أو الكاز أو الغاز ، وهو البرتول المستخرج من الأرض وهو كالماء في اللون ، يوضع في إناء من الزجاج أو الصفيح يعمل على شكل مخصوص ، وها رأس لولي يدخل فيها فتيلة كالشريط عرضها من واحد سنتي إلى خمسة سنتيمترات أو أكثر حسب كبرها أو صغرها ثم تغمس الفتيلة في الإناء ويشبت الرأس عليها ثم تشعل طرف الفتيلة الخارجة من الرأس ثم تتوضع عليها زجاجة خاصة ، وهذا الإناء تسمى باللمبة وها أشكال مختلفة معروفة لدى الجميع . وهذا النوع من الإضاعة شائع في زماننا بكثرة لرخص ثمنها وسهولة الحصول عليها .

الخامس : القمرية ، وهي تشعل بالقاز والفتيل فقط و لها شكل واحد خاص لا يختلف أبدا طولها نحو ثلائين سنتيمتر ، وبداخلها آلة صغيرة أسطوانية الشكل كآلة الساعات تملأ برمبلن وبغير هذه الآلة لا تشتعل .

و هذه القمرية لا تنطفئ من الهواء وليس لها زجاجة في رأسها . فالقمرية كانت شائعة الاستعمال في الحجاز إلى ما قبل ثلائين سنة ثم بطل استعمالها بتاتاً .

السادس : الأتريك ويسمى باللوكس ، وهو شائع الاستعمال كثير الديوع في الحجاز وغير الحجاز ، وهو يشتعل بالقاز وله فتيلة خاصة منسوجة كالكيس الصغير بالخيوط الحريرية بمادة خاصة ، ونور الأتريك أيضاً قوي الضوء ، وهو نوعان منه ما يعلق في السقوف ومنه ما له قاعدة يوضع على الأرض أو على شيء مرتفع .

السابع : الكهرباء ، وهي اختراع عجيب يتولد نورها من الاحتكاك لا بالقاز ولا بالزيت ، ويرتبط بها أسلاك وترتبط بهذه لمبات عديدة من الزجاج المفرغ من الهواء وبداخله جزء صغير من سلك رفيع أرفع من الشعرة . وهذا السلك هو الذي يعطي الضوء القوي . فالكهرباء أهم مسألة أثرت في حياتنا العامة ، ولها من القوة ما لا يتصوره العقل ، وإذا مس التيار الكهربائي إنساناً قضى على حياته في الحال .

فعلى قدر قوة التيار الكهربائي تكون قوة نورها ، وليس يعادل النور الكهربائي نور آخر ، وأن آلاف المصباح المصايبع الكهربائية يمكن إثارتها أو إطفاؤها في لحظة واحدة بإدارة أزرار خاص . فالنور الكهربائي آخر ما توصل إليه العقل البشري في عصرنا الحاضر .

قال في كتاب القراءة الرشيدة في الجزء الرابع عن الكهرباء ما يأتي :

من جملة القوى العظيمة التي استخدمها الإنسان في قضاء حاجاته وماربه روح من الأرواح الخفية وسر من أسرار الباري المبدع لا هي بالجسم فتحس ولا بالريح فتشم بل هي كالروح من أمر رب لا يظهر منها إلا أثراها وما تأتيه من حلائل الأعمال ويزعمون أنها في كل كائن وظهور فيه بالاحتكاك والعرك وبوسائل أخرى كمية غير آلية وتسلل وتجري جرياً سريعاً في بعض الأجسام وبطيئاً في غيرها ومن الأجسام ما يصدها ويوقفها فلا تبعد تلك القوة هي الكهرباء التي استخدمت في سائر الأعمال كبيرة وصغرها عظيمها وحقيرها وتفرد من غيرها من القوى باحتياز الأبعاد النائية وشق غمار البحار حتى لقد

أصبح بها الإنسان قادر على أن يحادث صديقه بالتلفون وبينهما بزخ بعيد المدى وأن يكتبه بالتلغراف في لحة مصداقاً لقول العامة : "غمض عينك وافتتحها تر الأمر قد وقع".

والكهرباء صنفان لا يكاد يؤثر الواحد منهما على انفراده ومتى اجتمعا باللامسة لم يقو شيء على صد تيارهما الجارف بل احتاز كل ما يعيشهما من العقبات طوع أمر المدير لهما .

ولما أدرك الناس من صنفي الكهرباء شدة ميلهما إلى التواصل والاجتماع صنعوا العدد والآلات بحيث يجمع بين الصنفين متى طلب العمل ويفرق بينهما متى طلب الوقوف فيسران في سلكين دقيقين مجتمعين في النهاية مفترقين في المبدأ الذي قد ركب عليه زر إذا حرك جمع بين السلكين وأثرت الكهرباء تأثيرها المطلوب وإذا أعيد فرق بينهما فانقطع العمل وتغّلف الأسلاك والعدد التي تمر فيها الكهرباء بغلاف من الحرير أو المطاط لكيلا تؤذى الناس إذا مسوها . انتهى من الكتاب المذكور .

ومن عجيب الاختراعات ما قرأناه في إحدى مجلات الملال ، أنهم اخترعوا مصباح تضيء بلا كهرباء ، بواسطة مادة إذا طلي بها الزجاج ثم أرسلت إليها أمواج لاسلكية ذات ذبذبات عالية توهّجت المادة وأضاءت زجاجها كما يضيء المصباح بلا كهرباء ولا أسلاك ، وقالت الجلة: ومن طريق ما استكشفه المحترعون صبّ النور كما يصبّ الماء من إناء إلى إناء ، وذلك أنهم كشفوا مادة متفسفة جديدة إذا وضعوها في السوائل في الليل أضاءت وهم يسكنونها من وعاء إلى وعاء ، فينسكب السائل مضيئاً فكأنما يسكنون نوراً .

كما أنهم اهتدوا إلى صنع مصباح تخرج منه أشعة يركزونها في نقطة فتحز احترازاً كثيراً ومن هذه النقطة الحارة يشعرون السجائر وغيرها ، كالعدسات التي تفعل هذا في ضوء الشمس . ولكن الجديد أن هذه الأشعة أشعة تقع من الطيف دون الأحمر ، وهي تعرف بالأشعة دون الحمراء ، وهي تحس ولا ترى ، وهي التي تترج بأشعة النور الأخرى فتعطيها الدفء وتعطيها الحرارة . وهكذا ذكرت مجلة الملال وكان غلافها مفقوداً لذلك لم نعرف تاريخها ولا رقم عددها ، ونظن أنه عدد يناير عام (١٩٥٠) أو الشهر الذي قبله .

وقد بلغنا في وقتنا الحاضر أن الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تستعدان في استخدام الذرة لتوليد الكهرباء ، ولقد سبقهما إلى هذا الإتحاد السوفياتي فقد أضيئت بعض مدنها بالكهرباء الناتجة من استخدام الذرة .

هذا ولا ندري ماذا يكون من الاختراعات في المستقبل ، فإن الإنسان لا يزال يستمر في التقدم والاختراعات التي لم يكن يحلم بها ، حتى تستكمل الدنيا جميع زخرفها وزيتها ، فعندئذ ، تأخذ في الفناء ويأتي أمر الله وکأن لم تكن بالأمس . «ويقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» .

استعمال غاز الاستصباح

يعنق على غاز الاستصباح كلمة «النَّفْطُ» بفتح النون وسكون الفاء ، وفي مصر يطلقون عليه "كيروسين" ، ويكتب غاز الاستصباح أحياناً ، "غاز" بالغين ، وأحياناً "غاز" بالقاف ، وأحياناً "کاز" بالكاف ، وأما كلمة "البترول" فهي كلمة شاملة المعنى غاز الاستصباح والبنزين وغيرهما . وأما كلمة "القير" بكسر القاف أو "القار" بفتح القاف المسمى "بالإسفلت" وهي المادة السوداء اللزجة ، فهو ما يرسب ويقى بعد تصفية المواد البترولية والذي يستعمل الآن في سفلة الشوارع والطرقات .

جاء في الجزء الأول من كتاب كنز الرغائب في منتخبات الجواهير المطبوع سنة (١٢٨٨) ثمان وثمانين ومائتين وألف من المحررة بالآستانة ، عن أول استعمال غاز الاستصباح ما يأتي : لا خفاء في أن هذا النور يتخذ من الفحم أو الحطب إذا أوقدا ، وإنما المخفاء في أصل اختراعه فنقول على سبيل الإيجاز : إن أول من حرب استغرابه من الفحم قسيس من الإنكلترا يقال له : كلاتون أو كليتون ، وذلك سنة (١٧٣٩) ميلادية إلا أن تجربته هذه لم ي عمل بها إلى أن قام رجل من كورنوول اسمه مردوخ ، فباشر هذه العملية وأجرى الغاز في قصبات من حديد وذلك في سنة (١٧٩٢م) . وبعدها بست سنين أتم عملية نور بها أحد العامل في برمنجهام ، إلا أنه كان يعرض لها الخلل أحياناً ، ثم في سنة (١٨٠٢) تنبأ الناس إلى إتقان ذلك وإلى تعميم المنافع منه . وبعدها بستة نور ملهي الليسيوم بلندنرية بالنور المذكور ، وفي سنة (١٨٠٤م) وما بعدها وسع مردوخ دائرة عمله في منشستر قال : وزعيم الفرنسيس أنهم هم مخترعوه ، إلا أن الغاز لم يعرف عندهم إلا في سنة (١٨٠٢م)

وقد عرفت أن مروحاً صنعه قبل هذا التاريخ بعده سنين، ثم من سنة (١٨٠٢م) إلى سنة (١٨٢٢م) اشتهر استعمال هذا النور وأعجب الناس به جداً، حتى أن رأس المال الذي جمع لتمويل لندرة فقط بلغ مائة مليون ليرة، وشغلت قصباته الممتدة إلى موضع مختلف منها مسافة مائة وخمسين ميلاً. قلت: ولكرة الأنوار فيها يكون الليل في الشتاء أدقاً من النهار فإن عدد فوانيس طرقها فضلاً عن أنوار الحوانيت والديار بلغ في سنة (١٨٤٩) ميلادية (٣٦٠٠٠٠) فانوس. قال: وبعد سنة (١٨٢٢) بستين قليلة اشتهر استعمال الغاز فيسائر مدن المملكة، فنورت به الطرق والديار والدكاكين والملاهي وغيرها، وهو على يقائه وعدم تقاضه أرخص سعراً وأخف كلفة من الشمع والزيت، فإن رطل الشمع الدون مثلاً يساوي ثلاثة أرباع الشلين، ومدة اتقاده لا تزيد على أربعين ساعة، وغالون الزيت (كل غالون يملاً نحو خمس زجاجات من القدر المعتاد) يساوي شلين، وينير ما تثير ستمائة شمعة في ساعة واحدة. والشمع العال أغلى من الدون بثلاثة أضعاف، وألف مكعب من الغاز يساوي تسعة شلينات، فحاصل ذلك أن ما قيمته من الشمع العال مائة، يكون من الدون خمسة وعشرين، وما قيمته من الزيت خمسة يكون من الغاز ثلاثة.

وقد عده الإنكليز من أجل النعم السماوية التي يتنعم بها الإنسان في الليل، ومن أعظم الأسباب الموجبة للأمن والسلامة، ولا سيما في المدن الحافلة. فإن لندرة كانت في الزمن القديم منية باللصوص بعد العتمة، فكانت الأولاد تحمل بأيديها مشاعيل وتجري بها بين أيدي المحتازين، وكانت عادة العسس في أيام الملكة ماري أن يكون معهم أحراس، ينقسون بها تحذيراً للصوص وتخوفياً، وفي سنة (١٧٦٢) ميلادية وضع الفوانيس في طرق المدينة وأوقدت بالزيت فقللت اللصوص. انتهى من الكتاب المذكور.

بعض ماجاه من الوصف في آلات السرج والإيقاد

ومناسبة ما تقدم من أنواع الإضاءة يستحسن أن نذكر هنا شيئاً مما ورد من أوصاف آلاف الإضاءة كالكهرباء والسراج والقنديل والشمعة ونحو ذلك، لما بذلك من التلميح والطراوة الأدبية. ولقد نقلنا أكثرها من كتاب "نهاية الأربع في فنون الأدب" للعلامة التبريري رحمه الله تعالى فنقول وبالله التوفيق:

بعض ما جاء من الوصف في آلات السرج والإيقاد

قال السيد عبيد المدنى من أهل عصرنا الحاضر في الكهرباء ما يأتي :
لا بدَّعْ أَصْبُو إِلَيْكَ فَيُبَشِّنَا سُلْكَ بَتِيَارِ الْقُلُوبِ مَكْهُرَب
إِنْ كَنْتَ لَا تَدْرِي الْحَقِيقَةَ فَاسْمَعِي هَا أَنْتَ "سَالَةً" وَقَلِيلٌ "مَوْجَبٌ"
إِنْ كَنْتَ "نَافِيَةً" هَوَى إِلَيْنِي أَنَا "مَثَبَّتٌ" فِي الْحَبِّ لَا أَنْذِبْذِبْ
لَمْ لَا نَكُونَ الْكَهْرَبَاءَ وَهَذِهِ آثارَهَا فِينَا تَجَهَّدُ وَتَلْعَبْ

قال السري الرفقاء في وصف النار :

يَغْنِيكَ عَنْ كُلِّ مُنْظَرٍ عَجَبْ
وَالْتَّهَبْتَ نَارَنَا فَمُنْظَرُهَا
عَلَى ذَرَاهَا مَطَارِدُ الْلَّهَبْ
إِذَا رَمَتْ بِالشَّرَارِ فَاطَّرَدْتَ
تَطَيِّرَ عَنْهَا قَرَاضَةُ الْذَّهَبْ
رَأَيْتَ يَاقُوتَةً مَشَبَّكَةً

وقال عبد الله بن العتز :

كَأَنَّ الشَّرَارَ عَلَى نَارِهَا
وَقَدْ رَاقَ مُنْظَرُهَا كُلَّ عَيْنِ
سُحَالَةً تَسِيرُ إِذَا مَا عَالَ
إِلَيْمَا هَوَى فَقَاتَ اللَّجَنِ

وعلى معناه قال العسكري :

أَوْقَدْتَ بَعْدَ الْمَدْوَنَارَا
لَهَا عَلَى الطَّارِقَيْنِ عَيْنِ
شَرَارَهَا إِنْ عَلَا نَصَارَا
لَكَمَّهِ إِنْ هَوَى لَجَنِ

وقال أبو الفتح كشاجم :

كَأَنَّا النَّارَ وَالرَّمَادَ وَقَدْ
كَادَ يَوْارِى مِنْ نُورِهَا النُّورَا
وَرَدْ جَنِيُّ الْقَطَافَ أَحْمَرَ قَدْ
ذَرَتْ عَلَيْهِ الْأَكْفَافَ كَافُورَا

وقال تاج الملوك ابن أيوب :

أَمَا تَرَى النُّورَ وَهِيَ تَضْرِمُ فِي
أَحْشَاءِ كَانُونِهَا وَتَلْهَبْ
كَأَنَّا الْفَحْمَ فَوْقَهَا قَضَبْ
مِنْ عَنْبَرٍ وَهِيَ تَحْتَهُ ذَهَبْ

قال سيف الدين المشد في الفانوس :

انْظُرْ إِلَى الْفَانُوسِ تَلْقِي مَتِيمًا
ذَرْفَتْ عَلَى فَقَدِ الْحَبِيبِ دَمَوْعَهِ
يَسْلُوا تَلْهَبَ جَسْمَهُ لَنْحُولَهِ
وَمَا قَبِيلَ فِيهِ أَيْضًا :

وَكَأَنَّا الْفَانُوسَ فِي غَسْقِ الدَّجَى دَنْفَ بَرَاهِ شَوْقَهُ وَسَهَادَهُ
أَضْلَاعَهُ خَفِيفٌ وَرَقَ أَنْدَهُ وجَرَتْ مَدَاعِهِ وَذَابَ فَرَؤَادَهُ

ما قبل في السراح

من رسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال ، جاء منها ما يأتي :

عذراً إليك أيدك الله ، فإنني خططت والنوم مُغازل ، والقرآن نازل ، والريح
تلعب بالسراح ، وتصول عليه صولة الحجاج ، فطوراً تبرزه سناناً ، وتحركه لساناً ،
وآونة تطويه جنابه ، وأخرى تنشره ذوابه ، وتارة تقيمه إبرة هب ، وتطفه بُرَّة
ذهب ، وحيثنا تقوسه حاجب فتاة ، ذات غمرة ، وسلطه على سليطه ، وتديله
على خليطه ، وربما نصبه أذن جواد ومسخته حَدَقة جراد ، ومشقته حروف برق ،
بكف ودق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطاشه منديله ، فلاحظ منه
للعين ، ولا هداية في الطرس للدين . انتهى من نهاية الأرب .

وماجاء في الشمعة

قال بعض الشعراء :

ورشيقه بيضاء تطلع في الدجى صبحاً وتشقي الناظرين بدائها
شابت ذوايدها أوان شبابها واسود مفرقها أوان فانها
كالعين في طبقاتها ودموعها وياضها وسودادها وضيائها
وقال آخر :

بيضاء أضحكـت الظلام فراعـها فبكت وأسلـلت الدمـوع بـوادرـا
حـفت دمـوع جـفونـها فـكـأـنـا كـسيـتـ منـ الـطـلـعـ التـضـيـدـ ضـفـائـرا
وقـالـ غيرـه :

جائـتـ بـجـسـمـ كـأنـهـ ذـهـبـ تـبـكيـ وـتـشـكـيـ الـهـسـوـيـ وـتـلـهـبـ
كـأنـهـ مـنـ أـكـفـ حـامـلـهـاـ رـمـعـ لـجـينـ سـنـانـهـ ذـهـبـ

وقـالـ الصـاحـبـ بنـ عـبـادـ :

وـشـعـةـ قـدـمـتـ إـلـيـنـاـ تـجـمـعـ أـوـصـافـ كـلـ صـبـ
صـفـرـةـ لـوـنـ وـذـوبـ جـسـمـ وـفـيـضـ دـمـعـ وـحـرـ قـلـبـ
وقـالـ بـعـضـهـمـ :

حـكـتـيـ وـقـدـ أـوـدـيـ بـيـ السـقـمـ شـمـعةـ وإنـ كـنـتـ صـبـاـ دونـهـاـ متـوجـعاـ

ضئي وشهاداً واصفراراً ورقة وصبراً وصمتاً واحتراقاً وأدمعا
وقال السري الرفاء :

مفتوللة بجدولة تحكي لنا قد الأسل
كأنه اعمى الفتى والنار فيها كالأجل
وفتيله المصباح تحرق نفسها وتناثر كذاكا
وقال أبو مروان بن أبي الحصال :

لابنة الزند في الكوانين جمر كالدراري في دجى الظلماء
خبروني عنها ولا تكتموني الذيها صناعة الكيماء
سبكت محمها صفاتي تبر رصعتها بالفضة البيضاء
كلما رفف النسيم عليها رقصت في غاللة حمراء

وقال أبو طالب المأموني :
ما نرى النار كيف أسمقها القمر
وغدا الجمر والرماد عليه في قميص منهب ومعنير

وقال أحد الشعراء يمدح بعض الملوك :
وقيت نار الجحيم يا ملك أربع تسيرانه له نسق
نار شباب تروق نضرتها . نار راح كأنه شفق
ونار سلطان تقارنها نار قرى لا تزال تألق

وقال ابن الرومي :
له ناران قرى وحرب ترى كلتيهما ذات التهاب

وقال إبراهيم بن هرمة :
إذا ضلّ عنهم ضيفهم رفعوا له من النار في الظلماء ألويةً حمرا

وقال محمد بن أبي الثابت شاعر اليتيمة :
وتجدوله مثل صدر القناة
تعرت وباطنها مكتسى لها مقلة هي روح لها
وتاج على الرأس كالبرنس لساناً من الذهب الأملس
إذا غازلتها الصبا حرقت ضياء بجلبي دجى الخناس
وتتشجع من حيث ما ألقحت فحن من النور في أنسعد وتلوك من النار في أنسعد

وقال أبو القاسم المطرز من حملة أبيات :

تظلمت من يديها أنجم الغسق
لللشمع عيون كلما نظرت
من كل مرهفة الأعطااف كالغضن
إني لأعجب منها وهي وادعة تبلى وعيشتها من ضربة العُنق

ومن جيد ما قيل في الشمعة ، قول الأدجاني :

نَّمَتْ بِأَسْرَارِ لَيْلٍ كَانَ يَخْفِيهَا
وَأَطْلَعَتْ قَلْبَهَا لِلنَّاسِ مِنْ فِيهَا
إِلَى بُرْقِيَّةِ نَارٍ مِنْ تَرَاقِيهَا
سَقِيمَةً لَمْ يَزِلْ طَولَ اللِّسَانِ لَهَا
غَرِيقَةً فِي دَمْوعٍ وَهِيَ تَحْرُقُهَا
تَنْفَسَتْ نَفْسُ الْمَهْجُورِ إِذْ ذَكَرَتْ
يَخْشَى عَلَيْهَا الرَّدَى مَهْمَا أَلَمْ بَهَا
بَدَتْ كَتْحَمْ هَوَى فِي إِثْرِ غَفَرِيَّةِ
نَحْمَ رَأْيِ الْأَرْضِ أَوْلَى أَنْ يَوْهَمَا
كَأَنَّهَا غَرَّةٌ قَدْ سَالَ شَادُهَا
أَوْ ضَرَّةٌ خَلَقَتْ لِلشَّمْسِ حَاسِدَةَ
وَحِيلَةَ كَشْبَاهِ الرَّمْحِ هَازِمَةَ
مَا طَبَتْ قَطْ فِي أَرْضِ مَخِيمَةَ
هَلَا غَرَائِبَ تَبَدُّو مِنْ مَحَاسِنِهَا
كَصَعْدَةَ فِي خَشَا الظَّلَمَاءِ طَاعِنَةَ
فَالْوَجْنَةَ الْوَرَدَ إِلَّا فِي تَنَاهِهَا
صَفَرَاءَ هَنْدِيَّةَ فِي اللَّوْنِ إِنْ نَعْتَتْ
وَالْقَدْ وَاللَّيْلِ إِنْ أَتَمَّتْ تَشْبِيهَا
وَعِنْدَهَا أَنْ ذَاكَ الْقَتْلُ يَحْبِيهَا
تَجْنِي عَلَى الْكَفِ إِنْ أَهْوَيْتَ تَجْنِيَهَا
وَمَا عَلَى غَصْنِهَا شُوكٌ يُوقِيَهَا
مَا إِنْ تَزَالَ تَبِيتُ الْلَّيْلَ سَاهِرَةَ
صَفَرَ غَلَائِلَهَا حَمْرَ عَمَائِهَا

تحي الليلالي نوراً وهي تقتلها بئس الجزاء لعمر الله تجزيها
قدت على قد ثوب قد تبطنها ولم يقدر عليها الثوب كاسيها
غراء فرعاء ما تنفك قالية تقس لها طوراً وتقلها
شباء شعفاء لا تكتسي غدائها لون الشبيبة إلا حين تبليها
فقاء ظلماء لا تنفك يأكلها سنانها طول طعن أو يشظيها
مفتوحة العين تغنى ليلها سهراً نعم وإنما ها إيه يغنىها
ورعما نال من أطراقها مرض لم يشف منه بغير القطع مشفيها

مفاخرة بين القنديل والشمعدان

جاء في الجزء الأول من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» تأليف شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب التوييري ، ما نصه :

رسالة القنديل والشمعدان ، من إنشاء المولى الفاضل البارع البليغ ، تاج الدين عبد الباقى بن عبدالمحيد اليماني ، سمعتها من لفظه وقرأتها عليه وأجاز لي روایتها عنه . وهي الموسومة بزهر الحنان في المفاخرة بين القنديل والشمعدان ابتدأها بأن قال :

الحمد لله الذي أنار حالك الظلماء ، بأنوار بدر السماء ، وحلى جيدها بعقود النجوم ، وحرس مشيدها بسهام الرجموم ، وجعلها عبره للاستبصر ، ونزلها للأبصار ، غشاها لازورد مكمل بنضار ، أو أقاحي خميلة تفتحت فيها أزرار الأزهار ، تهدى الساري بسواريها ، وترى بالدرر أنوار دراريها ، كرع في نهر مجرتها النسران ، ورتع في مراعي رياضها الفرقدان .

أحمده على نعمه التي لا يقوم بشكرها لسان ، ولا يؤدي واحب حقها إنسان ، حمدًا يجلب إلى الحامد أنواع الإحسان ، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحسان .

وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذي أنار الله بوجوده ظلمة الوجود ، وأظهر بظهوره أفعال الركوع والسجود ، صلى الله وسلم عليه وعلى آلـه الواقفين بالعهود ، وعلى أصحابه أهل الأفضال والجود ، وصلاة وسلاماً دائمين إلى اليوم الموعود .

وبعد فإن فنون الآداب كثيرة الشعوب ، متباعدة الأسلوب ، طالما تلاعب الأديب بفنونها بين جد وجون ، وكيف لا والحديث ذو شجون . و كنت بحمد الله من هو قادر على إبراز ملح الأدب ، وعلى إظهار لطائف لغة العرب ، فتمثل في خاطري المفاحرة بين الشمعدان والقنديل ، ولا بد من إبراز المفاحرة بينهما في أحسن تمثيل ، لأنهما آلتا نور ، ونديعا سرور ، طالما مزقا جلباب الدجى بأضواهما ، وحسما مادة الظلمة بأنوارهما ، وطلعا في سماء المجالس بدورا ، وأخجلوا نور الرياض لما أصدرا من جوهرهما نورا . سما كل واحد منها إلى أنه الأصل وأن مدحه يحسن الفضل والوصل ، وأنه الجوهرة اليتيمة ، والبدرة التي ليست لها قيمة ، سارت بمحاسنه ركائب الركبان . ونظمت في جيد مجده قلائد العقيان .

انظر : الصورتين رقم ١٤٥، ١٤٦ وهي للإثارة بواسطة الشموع والشمعدان التي توضح في كل جانب منه شمعة ثم زجاجة كي لا يطفأها الهواء .
فأحييت أن أظلّلها في ميدان المناظرة ليحرز كل واحد منها خصائصه الواضحة ويظهر نعائص صاحبه الفاضحة ، وليسن غارب الاستحقاق بالفضيلة ، ويوكل في تقرير فضائله الراجحة دليله ، مع أنه لا تقبل الدعاوى إلا بالبرهان ، لعمري لقد قيل قدماً :

من تحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان
فأطلع الشمعدان جيده للمطاولة ، وعرض سهريه التجيني للمناضلة . وقال :
«استنت الفصال حتى القرعى ».

لست بنديم الملوك في المجالس ، كلا ولا الروضة الغناء للمجالس . طالما أحذقت بي عساكر النظار ، ووقفت في استحسان هياكل رؤية الأ بصار ، وحملت على الرؤوس إذا علقت بأذانك ، وجلبت كحلاء المرهفات إذا اسود وجهك من دخانك .

ففضضض لسان القنديل نضنضة الصل ، وارتفاع ارتفاع البازى المطل . وقال : إن كان فخرك بمحالسة السلاطين ، فافتخاري بمحالسة أهل الدين طالما طلعت في أفق المحراب بجما ازداد علا ، وازدانت الأماكن المقدسة بشموس أنواري حلا ، جمع شكلي جموع العناصر ، فعلى مثلبي تعقد الخناصر ، بحسبني الرائي جوهرة

العقد الثمين ، إذ رأى اصفارار لونك كصفرة الحزين ، ولقد علوتك في المجالس زماناً ، ومن صير على حر المشقة ارتفع مكاناً .

فنظر إليه الشمعدان مغضباً ، وهم بأن يكون عن جوابه منكباً . وقال : أين ثمك من ثني ، ومسكك من مسكنى صفائحي صفحات الإبريز ، فلذا سوت عليك بالتسريز ، تزه العيون في حمائي النهبية ، وتسر النفوس بزوغ أنواري الشمسية ، ولا يملكون إلا من أوطته السعادة مهادها ، وقربت له الرئاسة جيادها ، ولقد نفعت في الصحة والسلام ، وزادت قيمتي إذا نقصت في القيم إن انقصمت عراك فلا تشعب ، ولا تعاد إلى سبك نار فنصب وتقلب ، لست من فرسان مناظري ، ولا من قرناه مفاخرتي .

فالتفت القنديل التفات الضرغام ، وفوق إلى قرينه سهام السلام . وقال : أنت عندي كثعالة ، لا محالة ، طالك العنقدود ، فأبرزت أنواع الحقدود وأين الثريا من يد المتناول . أم أين السها من كف المتناول . تالله إإنك بـ صرفك بصفرك مغلوط . لقد خصصت بالعلوٍ وخصصت بالهبوط . ترى باطني من ظاهري مشرقاً وتخالي لخراين الأنوار مطلقاً ، فحديث سيادتي مسلسل ، وتابع فضائي بجوهر العلو مكمل .

فلحظة الشمعدان بطرف طرفه ، وأرسل في ميدان الماظرة عنان طرفه .
وقال : إن افتخارك بالعلو غير مفيد ، ومزية اختصاصك به ليس له أبهة مزيد ، طالما علا القتام وانحاطت الفرسان ، ومكث الجمر وسم الدخان ، ولقد صيرتك كنظرك المشنوق حاله ، وكضوء السها ذباله ، وأنت الخلق بما قيل ، وقلب بلا بـ وأذن بلا سمع وسلاملك تشعر بعقلك ، وعلوك يبني عن غلو إسقاط كمثالك ، عادلت التبر كفة بكفة ، وزورته إذ كان فيه فقه ، فاصفع لمفاحري الجليلة ، واستمع مناقبي الجميلة . أطارد جيوش الظلماء برمحي ، وأمزق أنوار الديجور بصبحي ،
جمع عالمي بين طلع النحل ، وحلوة النحل ، يتلو سورة النور لسانى ، ويقوى في مصادمة عساكر الليل البهيم جناني ، أسامر الملوك خلواة ، ويستجلب من محاسني أحسن جلوة والله در القائل :

أنظر إلى شمعدان شكله عجب كروضة روشت أزهارها السحب
يطارد الليل رمح فيه من ورق سنانه هب من دونه الذهب
فمثل هذه المناقب تتلى ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتحلى .

فأضسرم نار تبيّنه في أحشاء قرينه . فعندما قال القنديل : لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك ، لما وقفت في الماناظرة ركائب سيرك ، فاشكر اليدين البيضاء من شمعك ، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك ، وأما افتخارك بتلاوة سورة النور ، فأنا أحق بها منك إذا ملئ الجوامع ، والفرقان يبني وبينك مع أنه ليس بيننا جامع ، ففضيلتي فيه بينة ، وآية نوري في سورة النور بينة فاقطع مواد الحاجة ، واقرأ الآية المشتملة على الرجاجة ، يظهر لك من هو الأعلى ، ومن بالافتخار الأولى تخالني درة علقت في الهواء أو كوكبًا من بعض كوكب الجوزاء والله در القائل :

قنديلنا فاق بـأنواره نور رياض لم تزل مزهره

ذبالة فيه إذا أوقدت حكت بحسن الوضع نيلوفره

لا يحمل الأقداء خاطري ، ولا يغتم مشاهدي وناظري ، فأنا حللاصة السبك ، والتبير الذي لا ينقر إلى الحك ، اشتقادك أسلك من النحوس ومن حرمك تقام هياكل الفلوس ، لقد عرضت نفسك للمنية ، وانعكست عليك مواد الأممية ، مع أن الحق أوضح من لبة الصباح ، وأسطع من ضوء المصباح ، والآن غصت بريفك وخفيت لوعم بروقك ، فهذه الشهباء والحلبة ، وهذه ميادين المناضلة رحمة .

فحار الشمعدان في الجواب ، وجعل ما أبداه أولًا فصل الخطاب فقال القنديل : لا بد من الإقرار بأن قدحي المعلى ، وأنى عليك بالتقديم الأولى ، وأن مقامي العالي ، ونوري المتوالي .

فقال الشمعدان : لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك ، وكونك الكوكب الدرى الذي قصر عن بلوغك باع مثيلك .

فجح الشمعدان للسلم ، وترفع عن استيطران مواطن الإثم ، وشرع ييدي شعائر الخضوع ، وينشر أعلام الأولية عما قال والرجوع ، وقال : لولا حمية النفوس ، ما تحملت بمخاينا صفحات الطروس ، ولو لا القال والقيل ، ما ضمننا معرض التمثيل ، ولكن أين صفاوك من كدرى ، وأين نظرك من نظري ، حشك الله بنوره ، وذكرك في فرقانه وزبوره .

فعندما تهلهلتْ أسارير القنديل ، وتبسّم فرحاً بالتعظيم والتبحيل ، وقال : حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف ، وإظهار محاسن الأوصاف ، ففضلك لا يبارى ، ووصفك لا يجارى يحسبك الرأى حميلة نور تفتحت أزهارها ، وحديقة نرجس

أطربت أنهارها ، تسرّ بك النفوس ، وتدار على نضارتك الكؤوس ، وأن اللائق بحالنا طيّ بساط المنافسة ، وأحمد شرر المقابلة ، والاستغفار فيما فرط من كلامنا ، والرجوع إلى الله في إصلاح أقوالنا وأفعالنا . انتهى كل ذلك من كتاب نهاية الأرب للنويري .

إضاءة المسجد الحرام بالقناديل الزيتية

ذكرنا أعمدة المطاف ما وضعت إلا لتعلق عليها المصايد والقناديل للطائفين ، وهنا نذكر إضاءة عموم المسجد الحرام فنقول : القناديل هي آنية من الرجاج شبه الكورة الكبيرة لها قاعدة صغيرة ولها فتحة متسعة من أعلى بغير غطاء تدخل فيها اليد بسهولة ، وفي جوف هذه الآنية توضع كأس نصفها مملوء ماء وربعها مملوء زيتاً والزيت يطفو على الماء وفي وسط هذه ذبالة وفتيلة رفيعة تضاء عند إقبال الليل وعند حافة الآنية ثلات عروات تربط في كل منها سلسلة فتعلق في الأماكن المخصصة لها ، وإليك صورة القناديل .

انظر : صورة رقم ١٤٧ ، القناديل التي كانت تثير المسجد الحرام بالزيت سابقاً قبل استعمال الكهرباء .

والإضاءة بهذه الكيفية قديمة العهد ، فلما توصلوا إلى استخراج البترول (النفط أو القاز) بطلت تلك العادة في عموم المالك والبلدان . ولقد أحصى الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى في كتابه تاريخ عمارة المسجد الحرام جميع قناديل المسجد الحرام ما عدا قناديل المنارات فكان جموعها (١٤٢٢) قنديلاً ، فكانت الإضاءة بالمسجد بالقناديل الزيتية من قديم الزمان إلى سنة (١٣٣٥) ثم أبدلت بالأتأريك والكهرباء كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى . ويقول أιوب صيري في كتابه مرآة الحرمين : أما القناديل التي كانت في الحرم قبل هذا فقد كان عددها (١٨٢٢) قنديلاً .

وأول من أجرى للمسجد الحرام زيتاً وقناديل معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله تعالى عنه ، وأول من استصبح بين الصفا والمروة خالد بن عبد الله القسري في خلافة سليمان بن عبد الملك في الحجّ وفي رجب كما ذكره الأزرقي ، وقد ذكرنا عند الكلام على أساطير المطاف وأعمدته أول من استصبح لأهل الطواف فراجعه إن شئت .

قال أبو جعفر البّنّي بتقدیم الباء الموحدة في وصف قندیل :
وقدیل كأن الصّوء فيه محسن من أحب وقد تجلّى
أشار إلى الدجى بـلسان أفعى فـشمر ذيله خوفاً وولى
والـبّنّي بكسر أوله نسبة إلى حصن بالـأندلس وإليه ينسب إلى جعفر المذكور ،
وبنة أيضاً مدينة بل وبنة أيضاً قرية من قرى بغداد . انتهى من كتاب قاموس
الأمكنة والبقاء .

وذكر الفاكهي : أن أول من استصبح في المسجد الحرام في القناديل في الصحن محمد بن أحمد بن عيسى بن منصور ويعرف "بكعب البقرة" سنة (٢٥٧) سبع وخمسين ومائتين وجعل عمداً من خشب في وسط المسجد وجعل بينها حبلاً وجعل فيها قناديل نستصبح فيها اه .

قال الأزرقي : وعدد قناديل المسجد الحرام (٤٥٥) أربعين قنديل وخمسة وخمسون قنديلاً ، والثريات التي يستصبح بها في شهر رمضان وفي الموسم ثمان ثريات ، أربع صغار وأربع كبار ، يستصبح بالكبار منها في شهر رمضان وفي الموسم ، ويستصبح منها بواحدة في سائر السنة على باب دار الإمارة ، وهذه الثريات في معالق من شبهه (وهو نوع من النحاس) ولها قصب من شبهه تدخل هذه القصبة في حبل ثم تجعل في جوانب المسجد الأربع في كل جانب واحدة يستصبح فيها في رمضان فيكون لها ضوء كثير ثم ترفع في سائر السنة ، اه .

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه تاريخ المسجد الحرام : والقناديل التي ذكرها الأزرقي هي وضعت في خلافة محمد المهدي العباسي فنecessit مرور الزمن وعدم التفقد لما يطرأ عليها من النقص والubit وتلاعيب الأيدي . اهـ . ومحمد المهدي هو الذي أمر سنة (١٦٤) بتوسعة المسجد الحرام التوسيعة الثانية له فجزاه الله خيراً .

وذكر التقى الفاسي عدد القناديل التي كانت في المسجد في زمانه وعن الجهات التي كانت فيها : لم نأت بها هنا خوف التطويل وعدم الحاجة إليها .

ومن اللطائف ما قيل :

تراث فناديل المطاف لناظري على بعد والظلماء ذات تناهي
ك دائرة من خالص التبر وسطها فقية مسك وهي بيت إلهي

وقد وضع في حضرة المسجد الحرام مفرقة في جهاته أعمدة مشجرة على صورة النخلة كانت تعلق فيها القناديل ، قال الصباغ في تحصيل المرام : وما أحدث في الحرم من الأعمدة التحاس ستة أعمدة أرسلتها والدة السلطان عبدالجبار خان في رأسها صورة نخلة من صغر طول كل عمود نحو خمسة أذرع مفرقة بالمسجد الحرام ، فأربعة في مقابلة أركان المسجد وواحدة خلف مقام الحنفي وأخرى مقابلة في جهة باب الصفا ، وركب كل عمود على قاعدة من حجر طولها نحو ذراع ويعلق في رأس كل عمود ستة قناديل وذلك في سنة ألف ومائتين ونيف وخمسين . انتهى .

وكانت هذه الأعمدة المشجرة الستة باقية إلى نحو سنة (١٣٦٠) أي في عهد جلاله الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالى ، ثم أزيلت عند تعيم إضاعة المسجد بالكهرباء .

ثم قال الصباغ في تحصيل المرام أيضاً : وقد جعلوا في عمارة آل عثمان للحرم الشريف في كل قبة من قبب السقف وفي كل طاجن سلسلة ترخي يعلق فيها القناديل فتعلق في تلك السلال . والآن في زماننا في دولة السلطان عبد العزيز خان ومن قبله في دولة أخيه السلطان المرحوم عبدالجبار خان يعلق في جميعها برم بلور داخلها قناديل صغار . وزاد السلطان عبدالجبار خان عوارض من حديد وضفت بين الأساطين الأمامية المطلة على الحصاوى ، وعلق في كل عارضة بين الأسطوانتين خمسة قناديل توقد من ابتداء رمضان إلى عشرين من ذي الحجة وذلك في سنة (١٢٧٤) أربع وسبعين ومائتين وألف ، وحملتها ستمائة بrama كل بrama داخلها قناديل ، وأما ما كان من البرم في الأروقة فحملتها ثلاثة وأربعة وثمانون بrama ، وأما التي حول المطاف فحملتها مائتان وثمانية وثلاثون ، وذلك خلاف ما في المقامات وعلى أبواب المسجد وخارج الأبواب وعلى المنائر في أشهر الحج ورمضان . انتهى .

وكان بعض الأماكن في المسجد تضاء بالشمع إلى أول دخول الملك عبد العزيز آل سعود الحجاز وذلك سنة (١٣٤٣) اكتفاءً بالمصابيح الكهربائية ، فقد ذكر المرحوم الشيخ حسين باسلامة نقاً عن الأرجح المسكي أنه يسرج في المسجد الحرام كل ليلة أربعة وعشرون شمعة لكل مقام من المقامات الأربعه اثنان والباقيه في المطاف وفي الحجر وهي تسرج من أذان العشاء إلى الساعة الثالثة من

الليل ثم تنقل إلى قبة الفراشين وتطفأ ثم تسرج بعد أذان الفجر إلى الإسفار ثم تنقل إلى قبة الفراشين ، وهذا يستمر من أول الشهر إلى الليلة الثانية عشر منه ثم يكتفى بضوء القمر إلى الليلة السادسة عشر من الشهر ثم يعاد سراجها في أول الليل ويترك في الصباح أكفاء بضوء القمر إلى نهاية الشهر وعلى ذلك طيلة السنة . انتهى .

فاعلم من كل ما تقدم أن الإضاءة بالقناديل كانت إلى سنة (١٣٣٥) ثم استبدلت بالأثاريك والكهرباء كما سيأتي بيانه . ولا يفوتنا أن نسجل هنا أن الطلاب الذين يحضرون الدرس بالليل حلقات حلقات على أسانتذهم ومشايخهم كان غالبيهم يأتي معه بشمعة يضعها أمامه ويشعلها عند ابتداء الدرس ليلاً ليرى على ضوئها كتابه ، وهذه الشمعة كانت توضع داخل آلة تشبه المصباح (تسمى باللاله) ولها زجاجة خاصة توضع عليها حتى لا تطفئ الشمعة من الهواء ، لأن ضوء القناديل الزيتية ضعيف ، فلما استبدلت القناديل بالكهرباء ترك الطلبة استعمال الشمعة "أي اللاله" لقوة ضوء الكهرباء .

وإليك صورة اللاله . راجع منظر ٢٠٢ ، وهو صورة اللاله توضع فيها شمعة ثم يوضع فوقها زجاجة حتى لا تطفأ .

أما الإضاءة في حوف الكعبة إذا فتحت ليلاً عند إرادة دخول أحد الكبراء فيها ، فإنها تضاء بالشمعة وكان السلاطين يهدون إليها شمعدانات ومبادر كلها من القضاة الخالصة ، وكان آخر من أهدى إلى الكعبة ذلك السلطان عبدالحميد خان من سلاطين آل عثمان وذلك سنة (١٣٠٢) اثنين وثلاثمائة وألف . وإليك صورة بعض من الشمعدانات والمبادر .

انظر : الصور رقم ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٤٦ توضع بداخلها شمعة وفوقها زجاجة حتى لا تطفأ ، وشمعدان ومبادر ، وصورة رقم ١٥٠ لرسم بديع لمبنى السلطان سليمان خان ، وصورة رقم ١٥١ للمصابيح الغازية والكهربائية المختلفة .

إضاءة المسجد الحرام بالأثاريك والكهرباء

سبق في الفصل الذي قبله أن تكلمنا على إنارة المسجد بالقناديل ، ونقول هنا : إنه قد أبطلت الإضاءة بالقناديل في المسجد الحرام واستبدل بها بالأثاريك والكهرباء من سنة (١٣٣٥) كما سترى تفصيل ذلك .

قال الغازى رحمه الله تعالى في تاريخه : أقول قد بطل تسريع القناديل في الحرم الشريف من رابع شعبان سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف وجعل بدله الكهرباء والأتأريخ ، وعلقت المصايب التي يظهر منها الضوء الكهربائي ففي المطاف الشريف اثنان وسبعون ، وفي مقام إبراهيم سبعة وفي الرواق الذي يجهة الصحن في دائرة الحرم مائة وعشرون وفي المقام الحنفي أربعة وفي المقام الشافعي أيضاً أربعة وفي المقام المالكي ثلاثة وفي المقام الحنفي ثلاثة وفي باب زمزم واحدة وفي داخله واحدة وفي زيادة باب الزيادة أربعة وفي زيادة باب إبراهيم أربعة ، فحملة المصايب الكهربائية المعلقة في المسجد الحرام مائان وثلاثة وعشرون ، وأما الأتأريخ فواحدة منها موضوعة في المطاف الشريف قبل مقام إبراهيم واحدة فوق الحجر قبل المقام الحنفي وثلاثة معلقة على أعمدة الحديد إدحاماً خلف مقام المالكي والثانية خلف المقام الحنفي والثالثة خلف حصبة باب النبي . انتهى .

وقال الشيخ حسين باسلامة في كتابه تاريخ المسجد الحرام ما نصه : لما استقل الشريف الحسين بن علي بالحجاز ترك إضاءة المسجد الحرام بالزيت ، أي بالقناديل ، وأضاءه بمصايب اللوكسات وتسمى "الأتأريخ" من سنة (١٣٣٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثين إلى منتصف سنة (١٣٣٨) ثم إنه في ٢٨ رجب سنة (١٣٣٨) أنار الشريف الحسين دائرة المطاف بالكهرباء فهو أول من أدخل بالمسجد الحرام اللوكس "الأتأريخ" والكهرباء ، مع أن الدولة العثمانية قد أضاءت المسجد النبوي بالمدينة المنورة بالكهرباء عام (١٣٢٨) أي قبل المسجد الحرام بعشرين سنوات . . . إلخ ثم قال الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى : وقد أتى الشريف الحسين بماكينة قوتها ثلاثة كيلو وات ، فوضعت في مدرسة أم هانئ أمام دار الحكومة "الحميدية" وكان جموع عدد اللumbas التي وضعت حول المطاف (١٠٥) وقوه بعض اللumbas خمس وعشرون شمعة وبعضها خمسون شمعة ثم أتى الشريف الحسين أيضاً في سنة (١٣٤٠) بماكينة أخرى قوتها ست كيلو وات ونصف ، وبمأمور بقوة ١٣ حصاناً فوضعت في أحياط في الدار التي صارت الآن "مدرسة المعهد السعودي" وكان ابتداء الإنارة بهما في غرة رمضان سنة (١٣٤٠) ثم نقلنا إلى المستودع الذي به دائرة الكهرباء في الوقت الحاضر "أي في الفرن الميري" وابتداط الإنارة منه في ٢٨ شوال من السنة المذكورة وكان عدد اللumbas نحو ثلاثة لمبة ، منها حول المطاف ١١٥ لمبة والباقي موزع بصورة متناسبة في

عموم المسجد الحرام فوضع بعضها في الأروقة وبعضها على الأبواب ودامت إشارة المسجد الحرام على ذلك المنوال إلى سنة (١٣٤٦) من الهجرة ، اهـ .

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه المذكور ما ملخصه : وفي عصر جلاله الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود تبرع أحد تجار المهنود المدعو الحاج (داود أباً) من أهالي رانكون للمسجد الحرام بماكينة كبيرة ذات قوة ثلاثون كيلو وات وذلك سنة (١٣٤٦) وتم تركيبها في الفرن المبردي أيضاً بجوار مطبعة الحكومة خلف الحميدية وكانت الإنارة بها مع سابقتها في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة .

ثم أمر جلاله الملك عبد العزيز في شعبان سنة (١٣٤٧) بتجديف عموم اللumbas التي بالمسجد الحرام وبرياتتها وبلوغها ألف لمبة فصار جميع المسجد الحرام مضاءً بالكهرباء لكن ظهر أن هذه الماكينة لا تحمل إضاءة ألف لمبة كما ينبغي فأمر جلاله بوضع ثلاثة لوؤسات "أتاريك" في المسجد الحرام فاستمرت الإضاءة على ذلك إلى سنة (١٣٤٩) ثم صدر أمر جلاله بشراء ماكينة قوية تضاف إلى الماكينة السابقة فزادت الإضاءة في المسجد الحرام ، وأمر جلاله بوضع ست شمعدانات على جدار حجر إسماعيل من النحاس الأصفر على كل شمعدان ثلاثة أغصان في كل غصن مصباح كهربائي . ووضع أيضاً ستاً وعشرين أسطوانة صنعت بالإسمنت المسلح في حصاوي المسجد الحرام طول كل أسطوانة نحو ثلاثة أمتار يعلق على كل منها أربع مصابيح كهربائية وبذلك استغنوا عن اللؤسات .

ثم في سنة (١٣٥٣) أهدى للمسجد الحرام نواب بهادر الحاج سر محمد مزمل الله خان بهادر رئيس أعظم بهيكم بور بالمهند ماكينة كهرباء عظيمة بكامل آلاتها وأدواتها ، فتم تركيبها في أواخر شعبان من السنة التالية ، وبلغ عدد اللumbas الكهربائية بالمسجد الحرام من كافة الجهات نحو ألف وثلاثمائة لمبة على اختلاف أحجامها وتقاوتها . انتهى .

نقول : ولا يزال المسجد الحرام إلى يومنا هذا يضاء بالكهرباء ، وقد استبدلت الشمعدانات الست التي كانت على جدار حجر إسماعيل التي لكل منها ثلاثة أغصان المذكورة هنا بخمس شمعدانات من النحاس الأصفر فوق كل شمعدان فانوس واحد يضاء بالكهرباء وذلك سنة (١٣٧٥) هجرية . ولقد زادت فيه الإنارة الكهربائية زيادة عظيمة حتى صار الحرم الشريف باهراً بالأأنوار حساً

ومعنى ، وذلك منذ أن قام حضرات الفضلاء آل الجفالى بإئارة بلدة مكة المشرفة عامة والمسجد الحرام خاصة بالكهرباء وشركتهم تسمى بـ "الشركة السعودية للكهرباء" . وقد كانت إئارة المسجد الحرام بأكمله بالمصايد الكهربائية عند غروب الشمس من يوم الخميس ١٤ شهر صفر عام (١٣٧٣) ثلاث وسبعون وثلاثمائة وألف . وإن شاء الله سيأتي الكلام عن احتراق الكهرباء .

الحرائق في المسجد الحرام

الحريق الأول للمسجد الحرام

لقد احترق المسجد الحرام بمكة المكرمة مرة واحدة فقط ، وذلك قبل تجديد بناء المسجد الحرام بالقباب ، أي أنه احترق في سنة (٨٠٢) اثنين وثمانمائة هجرية ، ظهرت نار من رباط "رامشت" ، بالجانب الغربي من المسجد الحرام ، فتعلقت بسقف المسجد ، ومشي الحريق من الجانب الغربي إلى الجانب الشامي (أي الشمالي) وانتهى الحريق إلى باب دار الصحابة ، (أي عند باب الباسطية) .

ولقد ذكر بعض المؤرخين هذا الحريق ، فقال الفاسي في "شفاء الغرام" عن احتراق المسجد الحرام عند الكلام على ربط مكة المشرفة ما يأتي :

ومنها رباط رامشت عند باب الحَزُورَةِ (أي باب الوداع) ورامشت هو الشيخ أبو القاسم واسعه إبراهيم بن الحسين الفاسي ، وقفه على جميع الصوفية الرجال دون النساء أصحاب المرقعة من سائر العراق ، وتاريخه سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ظفرت بنسخة كتاب وقته ، وكان قد احترق جانب كبير من هذا الرباط في الليلة التي احترق فيها المسجد الحرام ، وهي ليلة الثامن والعشرين من شوال سنة اثنين وثمانمائة .

وأول ما كان الحريق في البيت الذي على بابه الذي بالمسجد ، ثم خرجت النار من شبابكه حتى تعلقت بسطح المسجد ، ثم وفق الله غير واحد للتقرب بعمارته ، فعمّر منه جانب كبير من سفله ، الذي يلي المسجد ، وبعض الجمجم الذي فوقه ، ثم صرف الشريف حسن بن عجلان أمير مكة مائتي مثقال ذهباً لعمارته ، في أوائل سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، فعمّر بها جميع ما كان محترقاً من الرباط المذكور ، من البيوت العلوية ، وغير ذلك مما يحتاج إلى العمارة علواً وسفلاً ،

وصرف من ذلك جانباً فيما يحتاج إليه أمن أبواب بيوت الرباط ، وغير ذلك من مصالحة ، وجاءت عمارته حسنة . انتهى من شفاء الغرام .

وجاء تفصيل هذا الحادث في كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" للشيخ باسلامة فقال رحمة الله تعالى عنه ما نصه :

مضى على عمارة الخليفة المهدى للمسجد الحرام ستمائة وثمان وثلاثون سنة ، وهو عروس زمانه ، ومفخرة المسلمين ، يمثل عظمة العصر الذى تشييد فيه ، وضخامة الدولة ، التي أنشأته على تلك الصفة ، من مтанة بنائه ، وبهجة منظره ، وجمال رونقه ، وبديع زخرفه ، لم يعتريه خراب طيلة هذه المدة إلا ما كان من حدوث شيء بسيط ناجم عن انهيار دار زبيدة زوج الرشيد عليه ، ففتح من سقوطها عمودين من الجهة الغربية كما تقدم .

حتى كانت ليلة السبت الثامن والعشرين من شهر شوال سنة (٨٠٢) اثنتين وثمانمائة ظهرت نار من رباط "رامشت" ، الواقع بين باب إبراهيم ، وباب الوداع ، في الجهة الغربية من المسجد الحرام ، ورامشت هو الشیخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي قد وقف هذا الرباط على رجال الصوفية في سنة (٥٢٩) ، وسبب ذلك : أنه ترك بعض السكان الخلاوي سراجاً موقداً في خلوته ويرز عنها ، فسحبت الفأرة الفويسقة فتيلة السراج منه إلى خارجه ، فاحتقت الخلوة ، واشتعل الهب في سقف الخلوة ، وخرج من شبابكها المشرف على المسجد الحرام ، واتصل بسقفه ، والتهب به ، وعجز الناس عن إطفائه لعلوه ، وعدم وصول اليديه ، فعمّ الحرائق الجانب الغربي من المسجد الحرام ، واستمرت النار تأكل من السقف وتسرير ، ولم يتمكن الناس من إطفائها لعدم الوصول إليها بوجهه من الوجه ، إلى أن وصل الحرائق إلى الجانب الشمالي ، واستمر يأكل من سقف الجانب الشمالي إلى أن انتهى إلى باب العجلة (باب الباسطية) .

وكان من لطف الله تعالى بإخماد تلك النار المؤججة ، أنه كانت هناك أسطوانتان هدمهما السيل العظيم المهول ، الذي دخل المسجد الحرام في اليوم الثامن من جمادى الأولى من تلك السنة ، بما عليها من عقود وسقوف عند باب العجلة ، فكان ذلك هو السبب الوحيد لوقوف الحرائق عند ذلك الحد ، حيث ذلك السقوط كان فصل النار من الاتصال بباقي سقف المسجد الحرام ، وبذلك سلم باقي السقف ، فصار ما احترق من المسجد الحرام أكواهاً عظاماً ، تمنع من وراعها ،

من رؤية الكعبة الشريفة ، ومن الصلاة أيضاً في ذلك الجانب من المسجد الحرام .
هذا حاصل ما ذكره مؤرخوا مكة من حادثة الحريق المذكور .

وجاء في "الإعلام" نقاًلاً عن ذيل دول الإسلام للحافظ السعراوي خلاصة ما تقدم ذكره ، وزاد عليه بقوله : واحتراق من العمد الرخام مائة وثلاثون عموداً صارت كلها كلسماً ، ولم يتفق فيما مضى مثله . قال الفاسي : ثم قدر الله تعالى عمارة ذلك في مدة يسيرة على يد الأمير ييسق الظاهري ، وكان قدومه إلى مكة لذلك في موسم سنة (٨٠٣) ثلات وثمانمائة ، وكان هو أمير الحاج المصري وتختلف بمكة بعد الحج لتعمير المسجد الحرام ، فلما رحل الحاجاج من مكة شرع في تنظيف المسجد الشريف من تلك الأكواام التراب ، وحفر الأرض وكشف عن أساس المسجد الحرام ، وعن أساس الأسطوانات ، في الجانب الغربي من المسجد ، وبعض الجانب الشامي منه ، إلى باب العجلة ، ظهرت أساس الأسطوانات ، مثل تقطيع الصليب ، تحت كل أسطوانة ، فبنها وأحکم تلك الأساسات على هيئة بيوت الشطرنج تحت الأرض ، وبنها حتى رفعها إلى وجه الأرض ، على أشكال زوايا قائمة ، وقطع من جبل الشبيكة على يمين الداخل إلى مكة . وهذا الجبل يسمى في العصر الحاضر (جبل الكعبة) حيث كانت حارة الباب والشبيكة حارة واحدة قبل انفصالهما : أحجاراً صواناً صلبة منحوتة على شكل نصف دائرة ، يصير على آخر منحوت مثله دائرة كاملة ، في سمك ثلاثي ذراع ، وصففت على قاعدة مربعة منحوتة على محل التقاطع الصليبي ، على وجه الأساس المرتفع على الأرض ، ووضع عليها دائرة أخرى مثل الأولى ، ووضع بينهما بالطول عمود حديد منحوت له بين الحجرين المدورين ، وسبك على جميع ذلك بالرصاص ، إلى أن انتهى طوله إلى طول أساطين المسجد ، فيوضع عليه حجر منحوت من المرمر ، هو قاعدة ذينك العمودين ، من فوق طاق يعقد إلى العمود الآخر ، وبين ما بين ذلك بالأجر والجص إلى أن يصل إلى السقف .

وسار على ذلك المنوال إلى أن تم الجانب الغربي من المسجد الحرام على هذا الحكم . وبقيت من عمد الرخام ، التي تحطمت من الحريق والهدم ، فأوصلوها بالصفائح من الحديد إلى أن تم الجانب الشامي واتصل بالجانب الغربي ، وذلك لعدم القدرة على إيجاد الأعمدة الرخام ، فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بأعمدة الرخام ، والجانب الغربي وحده بالأعمدة المعمولة بالحجر الصوان

المنحوت ، المدور على شكل عمد الرخام . وكملت هذه الأعمدة في أواخر شعبان سنة (٨٠٤) ولم يبق غير عمل السقف ، فأغار عمله لعدم وجود خشب بمكة يصلح لذلك ، حيث لا يوجد غير خشب الدوم ، وخشب العرعر ، وليس لذلك الخشب طول ولا قوة ، ويحتاج الأمر إلى خشب الساج وهو لا يوجد إلا بالهند ، أو خشب الصنوبر وهو لا يوجد إلا في بلاد الروم ، فاضطرر الأمر إلى تأخير السقف لحينما يجلب الخشب اللازم لذلك من أي القطرين .

وشكر الناس الأمير بيسبق على سرعة إتمام هذا القدر من العمل في هذه المدة اليسيرة ومبادرته إلى تنظيف المسجد الحرام وجعله صالحًا للصلوة فيه ، وكان ذا همة عالية وحسن توجه ، وكان كثير الصلة والإحسان ، ثم حج الأمير بيسبق في ذلك العام وعاد إلى مصر ، لتجهيز ما يحتاج إليه من الخشب ، لإكمال سقف المسجد الحرام ، فوصل إلى مصر في أوائل سنة (٨٠٥) هجرية .

ثم في سنة (٨٠٧) قدم إلى مكة الأمير بيسبق ، لعمارة سقف الجانب الغربي من المسجد الحرام مما تشعب من سقف المسجد الحرام ، من بقية الجوانب الأخرى ، فنهض إلى هذه الخدمة الشريفة والمنقبة الكبيرة ، التي خلدها التاريخ له ، طيلة هذه القرون ، وذلك بعد أن أحضر الأخشاب المناسبة لذلك ، وجلبها من بلاد الروم ، وهيأها للسقف ، ونقشها بالألوان وزوقها ، واستعان أيضًا بكثير من خشب العرعر ، الذي يؤتى به من جبال الطائف ، من جهة الحجاز ، لعدم كفاية الخشب الذي أتى به ، وبذل همه واجتهاده إلى أن سقف جميع الجانب الغربي من المسجد الحرام ، والجانب الشامي إلى باب العجلة ، فتم عمارة المسجد الحرام على تلك الصورة ، وعلق في تلك السقوف سلاسل من نحاس وحديد ، لتعليق القناديل في الرواق الوسطاني ، من الأروقة الثلاثة ، على حكم سائر المسجد الحرام . غير أن الجانب الشرقي ، واليماني ، وأكثر الشامي إلى باب العجلة ، كان في كل عقد من العقود ، التي على صحن المسجد الشريف ، ثلات سلاسل : أحدها في وسط كل عقد ، والثاني عن يمينه ، والثالث عن شماله ، لتعليق القناديل ، كما أنه كان بالجانب الغربي ، قبل احتراقه مثلها ، فلما عمر لم تعلق فيه السلاسل على حسب ما كان فيه سابقاً ، بل علق فيه حسبما تقدم ذكره ، وعمر مع ذلك في الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة من سقفها ، كان قد انكسر أعموادها وأتقن عملها . وعمر في صحن المسجد من المقامات الأربع ، على الهيئة القديمة ، وبذل

في ذلك الأموال العظيمة ، وتم ذلك في سنة (٨٠٧) في أيام الناصر زين الدين أبي السعادات فرج بن برقوق بن آنص الجركسي ، ثاني ملوك الجراكسة . وأما رباط "رامشت" ، الذي صدر منه الحريق ، فقد عمره أمير مكة يومئذ الشريف حسن بن عجلان ، وجعله رباطاً للفقراء كما كان ، وصرف عليه من ماله إلى أن عاد أحسن من الأول .

هذا حاصل ما ذكره التقى الفاسي ، والقاضي ابن ظهيرة ، وقطب الدين الخنفي في "الإعلام" وغيرهم . فظهر لنا مما تقدم ، أن ملوك الجراكسة ، الذين هم ملوك مصر ، في ذلك العصر ، لم يكن في استطاعتهم نقل الأساطين المرمر الرخام من مصر إلى مكة المكرمة ، لأجل أن يضعوها في الموضع ، التي احترقت بالمسجد الحرام ، كما فعل ذلك الوليد بن عبد الملك ، وأبو جعفر المتصور و محمد المهدي العباسي ، ولو كان في استطاعتهم لما تأخروا عن نقلها . وهذا أعظم دليل على قوة عزم الخلفاء الأمويين والعباسيين ، أولئك الذين هم غرة جبين ملوك الإسلام ، حيث من أتى بعلهم من الملوك ، سواء كانوا عرباً أو عجماء ، لم يصلوا من القوة والعزم إلى ما وصل إليه الأمويون والعباسيون ، وسيأتي ما يؤيد ذلك من خبر عمارة سلاطين آل عثمان للمسجد الحرام ، وهي العمارة التي لا تزال إلى العصر الحاضر ، فإنهم رغمما عن أن عمارتهم للمسجد الحرام كانت على غاية من المثانة والإتقان إلا أنهم لم يأتوا بالأساطين الرخام من مصر أو الشام ، لإكمال ما نقص من الأساطين الرخام ، فقد عملوا عوضاً عنها الأعمدة التخينة المثمنة والمسدسة والمربيعة ، وبنوها بالحجر المنحوت من الصوان والشمشي ، مع أن مصر والشام ، في ذلك العصر ، كانتا من ضمن ممالكهم ، وربما كانت أدوات النقل في عصرهم أرقى مما كانت في العصورين الأموي والعباسي والله أعلم .

انتهى من "تاريخ عمارة المسجد الحرام" للشيخ باسلامة رحمه الله تعالى .

عمارة المسجد الحرام بالقباب بشكله الحاضر في زماننا

تقدّم أن الخليفة "محمد المهدي العباسي" ، رحمه الله تعالى ، وأجزل ثوابه ، هو الذي وسّع المسجد الحرام ، هذه التوسيعة العظيمة ، وهو الذي جعله مربعاً بشكله الحاضر اليوم ، وذلك في توسعاته الثانية التي بدأت سنة (١٦٤) أربع وستين ومائة من الهجرة ، وأنه رحمه الله تعالى ، أمر بجلب الأساطين والأعمدة الرخام من الشام

ومصر ، فنقلت بحراً إلى أن وصلت إلى "جدة" يعني إلى الشعيبة ، التي يقربها وجوارها حيث كانت ساحلاً لمكة منذ أيام الجاهلية ، ومنها حملت تلك الأساطين والأعمدة الرخام إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، بواسطة العربات ذوات العجل .

وقد جعل رحمة الله تعالى للمسجد الحرام سقفين : السقف الأول كان من الدوم اليماني ، والسقف الثاني كان من خشب الساج . وقد نقشه بالقر على نفس الخشب ، وزخرفه بالذهب والألوان ، حتى صار آية في الجمال . وكان ما بين السقف الأول والسقف الثاني ، فرجة قدر النراعين تقريباً ، وكان السقف الأعلى مُطْبَطَّاً ، أي بخصائص التراب والنورة ، لحفظه من ماء المطر . وقد تقدم عند الكلام على بنائه سبب جعل سقفين للمسجد الحرام . وكان وقوف الأساطين والأعمدة بواسطة بناء العقود على رؤوسها ، لكن لم يكن عليها قباب ، وإنما جعل السطح مستوياً ، من الخشب القوي الجيد ، مُطْبَطَّاً بالنورة ، فيكون بناء الخليفة "محمد المهدي" للمسجد الحرام كبناء مسجد الشافعي بمقدمة والجامع الأزهر بمصر القاهرة في عصرنا الحاضر .

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه "تاريخ عمارة المسجد الحرام" : وقد ذكر العمري في مسالك الأبصار : ارتفاع جدار المسجد الحرام "أي في عمارة محمد المهدي" ولم يذكره أحد من وقت على تواريختهم وإنما للفائدة نذكرها فقال : وارتفاع جداره في السماء مما يلي المسعى ثمانية عشر ذراعاً ، وما يلي الوادي والصفا اثنان وعشرون ذراعاً ، وما يلي باب بني جماع "وهو المسمى الآن بباب العمرة" اثنان وعشرون ذراعاً ، وما يلي دار الندوة سبعة عشر ذراعاً ونصف . انتهى .

قال الشيخ حسين باسلامة ، رحمة الله تعالى : وهذا يدل على أن أرض المسجد الحرام لم تكن متساوية ، وأما ارتفاع السقف فهو واحد في عموم جهات المسجد الحرام الأربع ، والله تعالى أعلم . اهـ .

نقول : هذا كلام مطابق للحقيقة فأرض مكة كلها غير متساوية ، لكونها جبلية وصخرية . ففي بعض الجهات عالية وفي بعضها منخفضة ، وفيها بل في كل محله ومكان ، مرتفعات ومنحدرات من أصل الخلقة ، وما نراه من الشوارع وال محلات المستوية فقد عمل بفعل فاعل .

ولقد بقيت عمارة "محمد المهدى" على حالها من سنة (١٦٤) هجرية إلى سنة (٩٨٠) أي دامت عماراته مئات وست عشرة سنة . ففي هذه السنة تجدد عمارة المسجد الحرام بالقباب ، على هذه الصفة الموجودة في وقتنا الحاضر ، أي دامت عمارة "محمد المهدى" مئات وست عشرة تماماً ، وبطبيعة الحال ، لا بد أنه حصل في عمارته ما يوجب إصلاحه وتقويته ، كما حصل في العمارة الجديدة ، التي بالقباب ، إصلاحات أيضاً ، وهذا سنة الكون . وكان تجديد بناء المسجد الحرام بالقباب في زمن العلامة المؤرخ قطب الدين الحنفي صاحب كتاب "الإعلام بتاريخ بيت الله الحرام" المتوفى سنة (٩٨٨) هجرية ، رحمة الله تعالى .

واعلم : أن السبب في تجديد عمارة المسجد الحرام ، وبنائه بالقباب ، كما هو في وقتنا الحاضر ، هو : أن الرواق الشرقي مال إلى جهة الكعبة المشرفة ، بحيث برات رؤوس خشب السقف الثاني عن محلها ، من جدار المسجد الحرام بمنحو ذراع ، والمراد بالرواق الشرقي هو من بعد باب علي إلى قرب باب السلام ، وقد مال وجه الرواق الشرقي إلى صحن المسجد ، أي إلى جهة المقصورة ميلاً بيّناً واضحاً حتى خشوا سقوطه .

رفعوا الأمر إلى خليفة المسلمين إذ ذاك وهو السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان ، فأمر رحمة الله تعالى بتجديد بناء المسجد الحرام جميعه ، بناءً محكماً متقدماً ، وأن يكون سطحه قباباً قوية ، بدلاً عن السقفين الخشبيين . فشرعوا في منتصف شهر ربيع الأول سنة (٩٨٠) تسعمائة وثمانين من الهجرة . وقد استمر العمل أربع سنوات ، فتم على أكمل وجه . وهذه العمارة لا زالت باقية بقوتها وممتانتها إلى يومنا هذا ، فرحم الله الأقدمين الذين كانوا مخلصين ، في أعمالهم ، غاية الإخلاص ، بدون غش ولا تدليس .

هذا ولقد يرى القارئ الكريم في تاريخ القطبي ، عند الكلام على هذه العمارة قوله : "بحيث برات رؤوس خشب السقف الثالث منه" فقوله : "السقف الثالث" خطأ من الناسخ وغلطة مطبعية ، وال الصحيح : "السقف الثاني" حيث لم يكن للمسجد الحرام سقف ثالث وإنما كان له سقفان فقط . وحصل مثل هذا الخطأ أيضاً في كتاب "تاريخ المسجد الحرام" للشيخ حسين باسلامة ، فإنه رحمة الله تعالى ، نقل عن تاريخ القطبي ولم يتتبه لهذه الغلطة ، فتأمل .

وهنا يستحسن أن نذكر ما أورد العلامة القطبي المكي ، في تاريخه عن هذه العمارة الجديدة للمسجد الحرام وبناه بالقباب ، لأن هذه العمارة وقعت قبل وفاته بنحو عشرة أعوام ، فهو أعرف بها من غيره من المؤرخين ، فقد قال رحمه الله تعالى في تاريخه ما نصه :

اعلم أن عمارة المسجد الحرام ، زاده الله تعالى شرقاً وتعظيمًا ومهابة وتكريماً ، من أعظم مزايا الملوك والخلفاء ، وأشرف أكابر السلاطين العظام ، وقد يسر الله تعالى ذلك لسلاطين آل عثمان ، أيد الله تعالى نصرهم ، وخلد سعادتهم مدى الزمان ، فوقع الشروع فيها في أيام السلطان الأعظم ، والخاقان الأكرم الأفخم ، خليفة الله في أرضه ، القائم بإقامة ستة وفرضه ، ملك البرين والبحرين ، سلطان الروم والترك والعرب والعجم والعرaciين ، وصاحب المشرقين والمغاربيين ، خادم الحرمين الشريفين المحترمين ، عامر البلدين المكرمين المنيفين ، واسطة عقد ملوك بني عثمان ، السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان ، أمطر الله تربتها سحائب الرحمة والرضاون ، وجعل قبرهما روضة من رياض الجنان ، وجعل السلطنة كلمة باقية في عقبهما إلى يوم الحشر والميزان .

إلى أن يعود العارضان كلاهما ويحشر في القتلى كليب لوائده

وبسبب الأمر الشريف بعمير المسجد الحرام ، أن الرواق الشرقي ، مال نحو الكعبة الشريفة ، بحيث بزرت رؤوس خشب السقف الثاني منه ، عن محل تركيهما من جدر المسجد ، وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباي ، وجدر مدرسة الأفضلية ، التي هي الآن من أوقاف المرحوم ابن عباد الله ، في شرقى المسجد الحرام ، وفارق خشب السقف عن موضع تركيه في المذكور أكثر من ذراع ، ومال وجه الرواق إلى صحن المسجد ميلاً ظاهراً بيّناً ، وصار نظار الحرم الشريف يصلحون الخل الذي قد فارق خشب السقف ، إما بتبديل الخشب بأطول منه أو نحو ذلك من العلاج ، وأما الرواق الذي ظهر ميله إلى صحن المسجد ، فترسوا بأخشاب كبيرة حفروا لها في المسجد يمسكه عن السقوط ، واستمرّ الرواق الشرقي متمسكاً ، على الأسلوب المتقدم في أواخر دولة المرحوم السلطان سليمان خان وصدرأً من دولة المرحوم السلطان سليم خان .

ثم لما أفحش ميلان الرواق المذكور ، عرض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية السليمية ، سنة تسع وسبعين وتسعمائة ، فبرز الأمر الشريف السلطاني

بالمبادرة إلى بناء المسجد الحرام جميعه ، على وجه الإتقان والإحكام ، وأن يجعل عوض السقف الشريف قبأً دائرة بأروقة المسجد الحرام ، ليأمن من التأكل ، فإن خشب السقف كان متآكلًا من جانب طرفه بطول العمود ، وكان يحتاج بعض السقف إلى تبديل خشبة بخشبة أخرى من كل قليل ، إذ لا بقاء للخشب زماناً طويلاً ، مع تكسر بعضه .

وكان له - أي للمسجد - سقفات بين كل سقف نحو ذراعين بذراع العمل ، وصار ما بين السقفين مأوى للحيات والطيور ، فكان من أحسن الرأي تبديلها بالقبب ، لتمكنها ودفع مواد الضرر عنها ، ووصلت أحکام شريفة سلطانية إلى بكلربكي مصر يومئذ "الوزير المعظم والمشير المفخم حضرة سنان باشا" ، أadam الله تعالى سعادته وإقباله ، وضاعف عظمته وإجلاله ، أن يعين هذه الخدمة من أمراء السناجق المستحفظين بمصر ، من يخرج من عهدة هذه الخدمة الشريفة ، ويكون في غاية الديانة والأمانة والمعرفة والخير والصلاح .

فأمر البكلربكي يومئذ وهو سنان باشا أمراء مصر أن يقبلوا هذه الخدمة ، فما أقدم أحد على تلقيتها بالقبول ، لكثرة مشقتها واحتغالهم بأمور دنياهם ، والتوغل فيما يعود عليهم نفعه عاجلاً من غير مشقة .

نقول : إن الكلمة المتقدمة "بكلربكي" هي كلمة تركية تدل على حسب اصطلاح زماننا على "رئيس البكوات" وهو حاكم مصر من قبل الدولة التركية كما هو ظاهر من كلامه ، و"اليك" بكسر الباء و"باشا" من ألقاب الحكومة التركية تعطى للكراء والممتازين من رجالها ، ثم بطل استعمال هذه الألقاب لديهم منذ أن صارت تركيا جمهورية ، وكنز تلك الحال في الحكومة المصرية فقد كانت هذه الألقاب مستعملة لديها إلى أن قاموا بثورتهم المعروفة في سنة (١٣٧١) هجرية .

ثم قال القطبي : وكان من جملة الأمراء الحافظين بمصر كتخدي المرحوم اسكندر باشا الجركسي بكلربكي مصر سابقاً ، أفحمر الأمراء العظاماء والكراء ذوي الإحترام "أحمد بك" بارك الله فيه وفي ذويه ، وأن الله من خيري الدنيا والآخرة ما يرجحه ، وكان من اجتمع فيه هذه الخصال المحمودة المطلوبة ، من حب الخير والتوجه إلى الله تعالى وقلة الميل إلى الدنيا وزخارفها ، والميل إلى الفقراء والضعفاء

والعلماء، والتواضع مع الناس وحب المعدلة والاستقامة ، مع صدق الخدمة وكمال الديانة ، والأمانة والإقدام ، وعلو الهمة ووفور الاهتمام .

فطلب منه حضرة الوزير المشار إليه هذه الخدمة الشريفة ، وأضيف إليه عمل بقية دبل عين عرفات ، من الأبطح إلى آخر المسفلة بمكة المشرفة . فإن السلطة الشريفة أمرت أن يبني لها دبل مستقل ولا تجري في دبل عين حنين ، فعينت هذه الخدمة أيضاً للأمير أحمد المذكور ، وعرض له ذلك إلى الباب الشريف العالي ، فوردت الأحكام السلطانية الشريفة له بذلك ، حسب ما عرض له ، وأضيف إلى الخدمة سنجق جدة العمورة تعظيماً لشأنه وتوفيراً لقدرها ومكانه .

وبعد ورود الأحكام الشريفة السلطانية إليه ، أخذ في أهبة السفر وتوجه من مصر ، عن طريق البحر ، إلى بندر جدة ، ثم وصل إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، في أواخر سنة تسع وسبعين وتسعمائة ، مهتماً غاية الاهتمام ، سائلًا من الله تعالى الإعانة والإمداد التام ، وكانت الأوامر الشريفة السلطانية ، والمتكلم عليه ، من جانب السلطانية المنيفة الحاقانية ، هو سيدنا ومولانا ناظر المسجد الحرام ومدرس مدرسة أعظم سلاطين الأنام ، بدر الملة والدين ، حسين الحسینی ، خلد الله سعادته ، ففرح بهذه الخدمة الشريفة الفرح التام ، وشدّ مناطق حزمه ، على مناطق عزمه ، وقام له في ذلك أحسن قيام ، وحصل بين مولانا الناظر والأمير أحمد المشار إليه كمال الملاعة والاتفاق ، وبذلك يحصل تمام النجاح والاتفاق ، وجرت عادة الله أن الخير كله في الوفاق ، والشر جمیعه في الشقاوة ، ولم يكن الرفق في شيء إلا زانه ، ولم يكن العنف في أمر إلا شانه ، ومن أراد الرفق بعبد الله وفق الله تعالى به وأعانه .

ووصل لهذه العمارة الشريفة معمار دقيق الأنظار ، جليل الآثار ، تقدّم له مباشرة الأبنية العظيمة ، وحصلت له بالتجربة خبرة تامة ومعرفة مستقيمة ، أجمع المهندسون على تقدّمه في هذه الصناعة ، ودقة نظره في لوازم هذه البضاعة ، اسمه المعمار محمد جاويش الديوان العالى ، وهو إنسان من أهل الخير ، عظيم الأمانة ، كثير الديانة ، مستقيم الرأى ، منور الباطن ، مشكور السيرة ، زاد الله توفيقه وأرشد طريقه .

فاتفق الناظر والأمير والمعمار على الشروع في هدم ما يجب هدمه ، إلى أن يوصل إلى الأساس ، فشرع أولاً في إكمال الدبل المستقل ، لإجراء عين عرفات ،

والبناء من جهة المدعى ، ثم من جهة سويقة ، ثم انعطف به إلى السوق الصغير وأكمله إلى منتهاه ، وبنى قبة في الأبطح ، جعل فيها مقسم ماء عرفات ، وركب في جداره بزايـز من النحاس ، يشرب منها الماء ، ثم بني مسجداً وسيلاً ، وحوض ماء للدواب ، على يمين الصاعد إلى الأبطح ، في قبلي بستان بيرم خوجة الصابر ، إلى المرحومة الخاـصـكـيـة أم سلاطين ، طاب ثراها ، وبنى مسجداً آخر وسيلاً ومتواضاً ، في انتهاء سوق المعلـاة على يسار الصاعد ، وكل ذلك من أعمال الخير الجارية النافعة للمسلمين ، وعرض ذلك على أبواب السلطنة الشريفة ، فأنـعـمـتـ ، على الأمير المشار إليه ، بسبعين ألف عثماني ترقـياً في علوـقـهـ في مقابلة هذه الخدمة .

ثم شرع في تجديد أروقة الحرم الشريف ، بدأ فيه بالمدام من جهة باب السلام ، في منتصف ربيع الأول سنة مائتين وتسعمائة ، وأخذت المعاول تعامل في رأس شرفات المسجد وطبعات سقفه ، إلى أن ينكشف السقف ، فتنزل أخشابه إلى الأرض ، وتبـعـمـ في صحن المسجد الشريف ، وينـظـفـ الأرض من نقض البناء وأتربيـتهـ ، ويـحملـ على الدواب ويرمى في أسفل مكة ، في ناحية جبل الفلق ، ثم تقام الأساطين الرخام ، إلى أن تنـزـلـ بالرفق إلى الأرض . واستمرـواـ في هذا العمل إلى أن نظـفـواـ وجه الأرض من ذلك ، من باب علي إلى باب السلام ، وهو الجانب الشرقي من المسجد ، ثم كـشـفـواـ عن أساسه فوجـدـوهـ مختـلـاً ، فـأـخـرـجـواـ الأساسـ ، وـكـانـ جـدـارـاًـ عـرـيـضاًـ نـازـلاًـ في الأرضـ ، على هـيـثـةـ بـيـوتـ رـقـعـةـ الشـطـرـنجـ ، وـكـانـ مـوـضـعـ تقـاطـعـ الجـدـرانـ ، على وجـهـ الأرضـ ، قـاعـدةـ تـرـكـيبـ الأـسـطـوـانـةـ عـلـىـ تـلـكـ القـاعـدةـ ، فـشـرـعـ أـوـلـاًـ في مـوـضـعـ الأـسـاسـ ، على وجـهـ الإـحـكـامـ وـالـإـقـانـ ، من جانب بـابـ السلامـ لـسـتـ مـضـيـنـ من جـهـةـ الـأـوـلـىـ سـنـةـ مـائـيـنـ وـتـسـعـمـائـةـ ، وـاجـتـمـعـتـ الأـشـرـافـ وـالـكـبـراءـ وـالـأـمـرـاءـ وـالـفـقـرـاءـ وـالـمـشـاـيخـ وـالـصـلـحـاءـ ، تـبـرـكاًـ وـتـيمـنـاًـ ، بـالـحـضـورـ فيـ هـذـاـ الـخـيـرـ الـعـظـيمـ ، وـقـرـئـتـ الـفـوـاتـحـ بـالـإـلـهـاـلـ ، الصـمـيمـ ، وـذـبـحـتـ الـأـبـقـارـ وـالـأـنـعـامـ وـالـأـغـنـامـ ، وـتـصـدـقـ بهاـ عـلـىـ الـفـقـرـاءـ وـالـخـدـمـ ، وـوـضـعـ الـأـسـاسـ الـمـبـارـكـ ، بـإـعـانـةـ اللهـ تـبارـكـ وـتـعـالـىـ ، وـكـانـ يـوـمـ مـبـارـكـاًـ مشـهـودـاًـ متـيمـنـاًـ مـيـمـونـاًـ مـسـعـودـاًـ ، وـلـهـ الـحـمـدـ عـلـىـ هـذـاـ الـإـكـرـامـ ، وـلـهـ الشـكـرـ وـالـثـنـاءـ الـحـسـنـ في الـمـبـدـأـ وـالـخـتـامـ .

وكانت الأساطين ، المبنية سابقاً ، على نسق واحد في جميع الأروقة ، فظهر لهم أن ذلك الوضع لا يقوى على تركيب القبب عليها ، لقلة استحكامها ، إذ القبة يجب أن يكون لها دعائم أربعة قوية تحملها من جوانبها الأربع ، فرأوا أن يدخلوا بين أساطين الرخام الأبيض دعامات أخرى تبني من الحجر الشمسي ، يكون سماكتها مقدار سمك أربع أسطوانات من الرخام ، ليكون مقيماً لها من كل جانب ، فتقوى على تركيب القبب من فوقها ، ويكون كل صنف من أساطين الأروقة الثلاثة في غاية الزينة والقومة .

ففي أول ركن من الرواق الأول دعامة قوية مبنية من الحجر الشمسي ، ثم أسطوانة رخام كذلك ، ثم دعامة من الحجر الأصفر الشمسي ، وعلى هذا المنوال إلى آخر هذا الصنف من أساطين الرواق ، ثم الصنف الثاني من الرواق الثاني كذلك على هذا المنوال إلى آخر هذا الصنف من أساطين الرواق ، ثم الصنف الثالث من الرواق الثالث على هذا المنوال ، وبنبت القبب على تلك الدعائم والأساطين في دور المسجد جميعه ، وشروعوا من ركن المسجد الشريف ، من جهة باب السلام ، كما تقدم ، وcasوا تلك الصنوف بخط مستوي ، وأزالوا ما كان قبل ذلك من الأزورار والاعوجاج ، والحجر الشمسي نسبة إلى شميس تصغير شمس جبل بقرب بئر شمسي ، وهي حد الحرم من جانب جدة به جبيلات صفر ، تكسر منها هذه الأحجار ، وتحمل إلى مكة مسافة ما دون ليلة .

فكان في إدخال هذه الدعائم الصفر ، ما بين أساطين البيض ، حكمة أخرى غير الاستحكام والزينة ، وهي أن أساطين الرخام ، الباقية من المسجد ، كانت لا تفي بجوانبه الأربع ، لأن الجانب الغربي احترق أساطينه الرخام وسقفه ، أيام الجراكسة ، في دولة الناصر فرج بن برقوق في سنة اثنين وثمانين ، وأرسل من أمرائه الأمير سيف الظاهري إلى مكة المشرفة فعمرا الجانب الذي احترق من المسجد الحرام بالحجر الصوان المنحوت ، كما قدمنا ذكر ذلك في محله ، وصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بالحجر وهي "الجانب الشرقي والجانب اليماني والجانب الشامي" على نسبة واحدة أساطينها من الرخام الأبيض .

وأما أساطين الجانب الغربي جميعها فمن قطع الحجارة المنحوتة من الحجر الصوان ، غير مناسبة للجوانب الأخرى الآن ، فيإدخال هذه الدعائم الصفر

صارت الأساطين كلها على نسبة واحدة ، وهي أن كل ثلات أساطين من الرخام الأبيض يكون رابعتها دعامة واحدة من الحجر الأصفر الشمسي ، وذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربع من المسجد الشريف ، وكلها قائمة على أقدمها بغاية الإحكام ، كأنها صنفوف واقفة بالأدب ، حول صحن مسجد بيت الله الحرام ، من جهاته الأربع ، وهي أعلى من الارتفاع السابق وأرفع ، كأنها تشد بلسان حالمها مفتخرة على أمثالها بل تفوق على ما سواها وتطول :

إن الذي سمل السماء بني لنا بيتأً دعائمه أعز وأطول

واستمر أمير العمارة الشريفة ، حضرة الأمير أحمد المشار إليه ، شكر الله سبحانه وبارك له وعليه ، في غاية بذل الجد والاجتهاد ، مقرنون الحركة بال توفيق والسداد ، يتلطف بالخدم والعمال ، ويتفضل عليهم بأنواع الأفضال ، ويوصلهم أجورهم كاملة لا يقطع منها مقطعاً من أحد ، ولا يضر بحالة ، بل يزيد them من عنده ويسأحthem به ، مع كمال الدقة في الأموال السلطانية ، والحرص على حفظها وعدم التبذير فيها ، وأما مال نفسه فهوسع به على الفقراء ، ويزيل لهم وللخدم والعمال ما أراد ، ويحسن إلى أهل البلاد ، مع التواضع وحسن الخلق ولبن الكلام ، ومواصلة الناس في جميع المهام ، والمتشي في تشيع الجنائز معهم ، وعيادة مرضاهم وسلم القديوم واستجلاب رضاهم ، بحيث ترك عظمة الإمارة ، وصار من جملة فقراء الناس ، لكترة تواضعه ، فأحبه الناس وحمدوه ، وشكروا جميله وإحسانه ، وذكروا كثرة تحمله ولطفه ، ولقد جاءني إلى منزلٍ متفضلٍ مراراً ، وأنا من آحاد الفقهاء ، بل من أدنى الفقراء ، وما فعل ذلك إلا محبة في الله أحبه الله ، لا لأمر يناله مي ، فإنه أجمل قدرًا وأعظم خطراً من ذلك ، وما ذكرته إلا ليعلم حسن تواضعه وتحلّقه ، وتلبسه بالأوصاف الجميلة وتحققه ، فلا جرم أن الله تعالى وفقه لهذه الخدمة السنوية الفاخرة ، وأتمَّ عمل هذا الخير العظيم على يده ، فيكفيه ذلك سعادة في الدنيا والآخرة ، فكم من وزير كبير نبيل ، بل ملك عظيم حليل ، يتمنى الوقوف في هذه الخدمة مع جلالته ، ويدعها من أكبر سعادة دنياه وآخرته ، وما قدرها الله تعالى إلا ملن ظهرت العناية الأزلية في حقه ، فاحتاره الله تعالى لذلـك من بين عباده واصطفاه من خلقه ، وهو هذا الأمير الكريم الصفات ، فالله تعالى يعينه على فعل الخيرات ، ويسندـه في أفعاله وأقواله ، ويوفقه للباقيات الصالحات ، فلما كمل جانبان من المسجد ، وهما الجانب الشرقي والجانب الشمالي ، وحصل خبر انتقال حضرة السلطان سليم إلى دار النعيم ، رحمـه الله وطـيب ثراه وأحسن

إليه في الدار الآخرة ، استمر الأمير أحمد ، المشار إليه ، أحسن الله تعالى إليه في عمله المبرور ، وفعله المعمور ، بالمعمور مستعيناً بالله ولي الأمور .

ثم قالقطي ، بعد ذكر وفاة السلطان سليم ، رحمة الله تعالى ، وتولية ابنه السلطان مراد بن سليم على عرش السلطنة : كان أول عمل عمله اهتمامه بتكاملة عمارة المسجد الحرام ، فierz أمره الشريف العالى إلى أمير العمارة الشريفة ، المشار إليه سابقاً ، افتخار الأماء الكرام "أحمد بك" أن يبذل جده وجهده في بناء المسجد الحرام ، ويسرع في إنجاز عمارته بكمال السعي والاهتمام . فبادر الأمير المشار إليه ، إلى بذل الجد والاجتهد ، وتوجه بكليته إلى إتمام تمام العمارة في خير البلاد ، فأعانه الله على إتمامها ، ومدد بذلك سائر خدامها ، إلى أن تم بناء الجابين الغربي والجنوبي من المسجد الحرام ، بجميع شرافاته وأبوابه ودرجاته ، من داخل المسجد الحرام وخارجها ، في أيام هذا السلطان الأعظم الأكرم ، حلس الله ملكه الأقوم ، وأيد سلطانه الأفخم ، وأفاض عليه سوابع الفضل والنعم ، فتمَّ وَلَلَّهُ الْحَمْدُ بسعد طالعه السعيد كل هذا على الوجه الحميد ، بحسن توجيهه الشريف وقوته عزمه المشيد ، وكان ذلك في آخر سنة أربع وثمانين وتسعمائة ، وصار المسجد الحرام نزهة للناظر وبغية للخاطر ، وجلاء للنواظر ، وصفاء للقلوب والخواطر ، بحيث ما عمره الخلفاء العباسيون قبل ذلك لا يحسن عنده أن يذكر ويوصف ، لأن هذا البناء الشريف أمكن وأزين ، وأعلى وأشرف ، فكانه الآن إرم ذات العمام ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، بعقود عالية كأطواق الذهب في الأجياد ، وقبب سامية كقباب الأقلال الشداد ، وشرافات شريفة مشرفة على المهد والوهاد ، بل أعلى وأشرف ، وأجل وألطاف ، وأرفع وأتحف ، فبني ذلك بالرخام الأبيض المرمر ، والحجر الشمسي المنحوت الأصفر ، كأنه سبك الذهب أو سبك العسجد والجوهر ، مكتوب على الأبواب ، وصدر الأروقة آيات الكتاب ، والاسم السامي السلطاني المستطاب ، بحلبي الذهب بخط كسلسل الذهب ، على كل موضع ما يناسب من الآيات الشريفة القرآنية ، وبالكتابة المنسوبة الفائقة الجميلة ، واحتزاع الفضلاء لذلك تواريخ عديدة بكل لسان ، واحتزرت أحصراها لأنه خير مساجد الله ، ثم رأيت بعض الفضلاء جعل هذه العمارة الشريفة تاربخاً في بيت مفرد ، فأعجبني نظمه لحسن سبكه واستيفاء المعنى فيه فذكرته وهو هذا البيت :

جَدَّدَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ مَرَادَ
دَامَ سُلْطَانَهُ وَطَالَ أَوَانَهُ

ثم رأيت تاريخاً جعله سيدنا ومولانا شيخ الإسلام، وناظر المسجد الحرام، ومدرس أعظم مدارس سلاطين الأنام، سيد السادات العظام، بدر الملة والدين مولانا السيد القاضي "حسين الحسيني" قاضي المدينة المنورة سابقاً، أadam الله إجلاله، وضاعف فضله وإقباله، فأثبته هنا بحسن إنشائه ولطف مبناه، وسلامة لفظه وبلاعه معناه، وهو هذا باسمه سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهُ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ﴾ . شرع في عمارة هذا الحرم الشريف وبتحديده، من اختاره الله من خلفائه وعيشه، المقلّس المرحوم السعيد، المبرور المغفور له الشهيد، سلطان الإسلام والمسلمين، خاقان حروقين العالمين ، المستظل بفضل الله في ظلال دار النعيم ، حضره الملك الأعظم السلطان سليم ، نور الله تعالى ضريحه ، وروح بروائع الجنان روحه ، بناء وأكمله وأتقنه وحسنـه وجملـه ، وارث الملك الأعظم الإمام الأفخم ، الخليفة الأكـبر الغـطـطمـم ، والملك القـاهر العـرمـم ، من ملكـه الله شـرقـ البـلـادـ وـغـربـهاـ ، وـجـعـلـ طـوعـ يـدـهـ بـلـادـ عـجمـ الرـعـاـيـاـ وـعـربـهاـ ، وـأـطـلـعـهـ سـراـحـاـ مـنـيرـاـ فيـ المـشـارـقـ وـالـمـغـارـبـ ، وـمـلـكـاـ مـرـفـوعـاـ عـلـىـ هـامـ الكـواـكـبـ ، وـصـيـرـهـ لـلـإـسـلـامـ حـصـنـاـ حـيـطاـ ، وـجـعـلـ ظـلـهـ الـمـدـيدـ عـلـىـ كـافـةـ النـاسـ بـسـيـطـاـ ، وـعـدـلـهـ الفـرـيدـ فيـ جـمـيعـ الـوـجـودـ مـبـسوـطاـ ، وـقـعـ بـسـلـطـتـهـ الشـرـيفـ طـوـافـ الـكـفـرـ وـالـعـنـادـ ، وـجـمـعـ لـهـ يـنـ الـمـلـكـ فـيـ الـدـنـيـاـ وـالـفـوزـ فـيـ الـمـعـادـ ، خـلـيـفـةـ اللهـ عـلـىـ كـافـةـ الـعـبـادـ ، وـرـحـمـةـ اللهـ الشـامـلـةـ جـمـيعـ الـبـلـادـ ، سـلـطـانـ سـلاـطـينـ الزـرـمانـ ، خـلـاصـةـ آـلـ عـثـمـانـ ، السـلـطـانـ اـبـنـ السـلـطـانـ اـبـنـ السـلـطـانـ ، الـخـنـكـارـ الـأـعـظـمـ "مرـادـ" لـاـ زـالـ الـوـجـودـ بـدـوـامـ خـلـافـتـهـ عـامـراـ ، وـلـاـ بـرـحـ الإـيمـانـ فـيـ أـيـامـ سـلـطـتـهـ قـوـياـ ظـاهـراـ ، وـزـادـهـ اللهـ قـوـةـ وـنـصـراـ ، وـشـدـ عـلـاتـكـتـهـ الـكـرـامـ أـزـرـاـ ، فـتـارـيـخـ تـامـهـ قـدـ جـاءـ (أـطـالـ اللهـ لـمـ أـتـهـ عـمـراـ) . اـنـتـهـىـ مـنـ تـارـيـخـ الـقطـيـ .

نقول : الحقيقة أن بناء المساجد وغيرها بالعقود والقباب أقوى وأمن بكثير من التسقيف بالأختشاب ، ومثل العقود والقباب ما يسمى عندنا في الحجاز بـ"الغمـسـ" بضم فـسـكونـ ، وهذا الغـمـسـ لا يـكـونـ إـلـاـ فـيـ بـنـاءـ الدـورـ الـحـجـرـيةـ ، وـيـكـونـ فـيـ الطـبـقـةـ السـفـلـيـةـ مـنـهـ ، وـلـاـ يـزالـ هـذـاـ الغـمـسـ مـوـجـودـاـ إـلـىـ الـيـوـمـ مـنـ بـنـاءـ أـهـلـ الزـمـنـ الـقـدـيـمـ ، وـجـمـيعـ الـبـنـيـاتـ الـمـتـصـلـةـ بـالـمـسـجـدـ الـحـرـامـ مـبـنـيةـ بـ"الـغـمـسـ" كـخـلـاوـيـ الزـماـزـمـةـ وـمـاـ تـحـتـ الـحـكـمـةـ الـشـرـعـيـةـ وـمـدـرـسـةـ مـحـمـدـ باـشاـ وـمـدـرـسـةـ الـدـاـوـدـيـةـ وـمـدـرـسـةـ السـلـيـمانـيـةـ وـغـيـرـهـ .

ومع الأسف قد بطل في عصرنا هذا استعمال البناء بـ "الغمس" باتاناً، مع أنه قوي يتحمل مئات السنين كما هو مشاهد فيما بقي من البنيات القديمة ، بل نعتقد أنه أقوى بكثير من البنيات المسلحة بالحديد والإسمنت .

ما كتب على جدار المسجد الحرام من الخارج من جهة المسعى

ولما تم تجديد عمارة المسجد الحرام ، الذي أمر به السلطان سليم ، والذي أتتها بعد وفاته ابنه السلطان مراد ، صدر الأمر السلطاني بكتابه نبذة في تاريخ تجديد هذه العمارة ، فكتب هذا التاريخ في جدار المسجد الحرام من الخارج من جهة المسعى من الجهة الشرقية ، أي من باب العباس إلى آخر باب علي .

وإليك نص الكتابة كما ذكرها العلامة القطبي في تاريخه وهو :

ثم ورد من الباب الشريف العالى تاريخ ، منظومه كدر النحور وغرب البحور ، ونثره كالدر المنشور والزهر المنشور ، بخطبة وتعريفات السلطان الأعظم ، في آخره ثلاثة أبيات بالعربي لا أعلم من أبدعه واحتزمه ، وأنشأه ونظمه ورصفه ، وورد معه حكم شريف سلطاني ، يتضمن الأمر بكتابته على بعض أبواب المسجد الحرام ، فامتثل الأمر الشريف ، وكتب هذا التاريخ البديع اللطيف ، على باب سيدنا العباس إلى باب علي ، رضي الله عنهمَا ، في الجانب الشرقي من المسجد الحرام ، ونقر له في الحجر الشمسي وطلبي بحلبي الذهب في ذلك المقام ، ليقرأه المخاص والعام ، ويقى ذلك التقر في الحجر على صفحات الليالي والأيام ، وهو هذا :

الحمد لله الذي أسس بنيان هذا الدين المبين ببني الرحمة والإرشاد ، وخصه بزيادة الفضل والكرامة والإسعاد ، وجعل حرم مكة مطافاً لطوائف الطائفين الحاجين من أقصاصي البلاد ، صلى الله عليه وعلى الله وأصحابه الأجلة الأمجاد ، ووفق عبده المعتمد ، بأحكام الأحكام الشريفة وتشييد أركانها على الوجه المراد ، المدخر في ذخر الآخرة المزید من زاد المعاد ، أدام الله ظله الممدود على مفارق العباد ، السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن "مراد" جعل الله الخلافة فيه وفي أعقابه إلى يوم النناد ، لتجديد معالم المسجد الحرام الذي سواء العاكف فيه وبالبلاد ، فتم في افتتاح سلطنته العظمى لا زال للحرمين المحتزمين خادماً ، ولأساس الجور والاعتساف هادماً ، بتجديد حرم بيت الله عز وجل ، بأمره المعزز البجل ،

وعمر عامر جوده ، ما تضيع من أركانه ، بعد ما كان ينقض عوالي جدارنه ، فجند جدران البيت العتيق وسوره ، بأكمل زينه وصوره ، بعدما أبلأه الجديدان ، وأكل عيدان أرضها الأرضة والديدان ، فرفع القباب ، موضع السطوح المبنية بالأحشاب وابتهر بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب فأذعنوا له بالشرف الباهر ، والمجد الفاخر ، تالين قوله تعالى : **إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** وداعين الله له بالجميل والآخر الزاهر ، قائلين : اللهم أدمه في سرير الخلافة محروساً بمحظتك من آفة ، وظافراً على من يريد خلافه ، مشيداً للمساجد والمدارس ، بجدداً لكلٍّ خير منهم ودارس ، واجعل بابه للراجحين حرماً آمناً ، وجنابه للمحتاجين كفيلاً ضامناً ، يأتون إليه من كل فج عميق ، لحرمة البيت العتيق ، تقبل الله معطي السؤال هذا الدعاء الحرفي بالقبول ، فلما أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه ، جاء مشيد الأركان حاكياً روضات الجنان ، وصار عنوان خلافته وبراعة استهلاله لمنشور سعادته ، في أوائل سنة أربع وثمانين وتسعمائة الهجرية ، وكان الابتداء بذلك التجديد ، بأمر والده الدارج إلى مدارج الملك الجيد ، السلطان السعيد "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" السلطان سليم بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان أورخان بن السلطان عثمان ، مكتهم الله على في دار الجنان ، وأثيل أخلاقهم في مسند الخلافة إلى انقراض الزمان ، وكان الشروع في الرابع عشر من ربيع الأول من شهر سنتي مائتين وتسعمائة ، فلما سلم السلطان سليم وديعه بأحسن تسليم وارتاحل من دار القصور ، إلى ما هيأ الله له في الجنة من القصور ، قبل تمام مaram ، من تجديد المسجد الحرام ، وأجلس الله على سرير الخلافة بخله التحبيب أحسن إجلال ، وجعل حرمته مثابة للناس ، يسر الله له الإتمام بطلعة إقباله وجوده الليالي والأيام ، وأنام في مهد عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام ، ونظم رقم هذه الأرقام ، تاريخاً يليق أن يكتب في هذا المقام ، وهو هذا :

جدد السلطان مراد بن سليم مسجد البيت العتيق الحرام

سرّ منه المسلمون كلهم دار منشور اللواء والعلم

قال روح القدس في تاريخه عمر سلطان مراد الحرام

انتهى من تاريخ القطبي .

مقدار ما صرف في تجديد عمارة المسجد الحرام بالقباب

بأمر السلطان سليم وابنه السلطان مناد

وهنا يستحسن ذكر ما صرفة السلطان سليم خان وابنه السلطان مراد خان ، رحهما الله تعالى ، على جميع تجديد عمارة المسجد الحرام بالقباب ، من ابتداء هدمه إلى انتهاء عمارته ، مع ما يلحق ذلك من تهبيط محل السبيل حتى لا يدخل المسجد الحرام ، وغير هذا من تعميرات وإصلاحات ، مع ملاحظة ما كان في ذلك الزمان من الرخاء والرخص ، ومقدار تفاوت قيمة الجنيه الذهب والريال الفضة والعملة الدارجة في تلك الأيام وفي عصرنا الحاضر . وإليك بيان ما صرف في هذه العمارة ، كما ذكره القطبي المكي في تاريخه ، الذي كان متصلةً اتصالاً وثيقاً بحكام الأتراك والولاة ، والذي كان تجديد العمارة في زمانه وهو حاضر بمكة المشرفة . فإنه قال رحمة الله تعالى ، في تاريخه ما نصه :

وأحرني الأمير المشار إليه ، أعظم الله شأنه ، وأحسن إليه ، أن الذي صرفة في عمارة المسجد الحرام ، هدماً وبناءً ، وقطعاً لأرض المسيل ، من جهة الجنوب إلى آخر المسفلة ، ومن جهة باب الزيادة إلى آخر مجرى سراديب العنبة ، من خاصة أموال السلطنة الشريفة ، نصرها الله تعالى "مائة ألف دينار ذهب جديد سلطاني" وذلك غير ثمن الأخشاب الحمولة من مصر إلى مكة المشرفة ، وغير ثمن الحديد الصلب لآلات العمارة ، كالمساحي والمجارف والمسامير وال الحديد المحدد رأسه ، بطول الرواقين وبين الأسطوانيتين تحت كل عقد ، كيلا مجلس طير الحمام عليه وغيره فيلوث المسجد بذرقة ، وهذا الحديد لتحديد رأسه وتواصله يمنع من جلوس الطير عليه ، وغير أهلة القبب التي عملت بمصر من النحاس ، وطلبت بالذهب ، وجهزت إلى الحرم الشريف ، فركبت على أعلى القبب ، فصار لها منظر حسن وزينة عظيمة ، كأنها صفووف بالأساكف من الذهب ، بغاية السكون والأدب ، حول بيت الله تعالى ، زاده الله تعالى رفعة وعظمة ومهابة وإجلالاً ، وأثمان ذلك خارج عن القدر المتصور في العمارة الشريفة ، وكان عمل أهلة قبب المسجد الحرام بمصر بأمر "بكلربكي" مصر الآن ، نائب السلطنة الشريفة بها في هذا الزمان ، أمير الأمراء العظام ، كبير الكبير الفخامة ، محبي البلاد والعباد بعدله ، سمي

"روح الله المسيح" والأسماء تنزل من السماء زاد الله شأنه عظماً ، وأنعش بإحيائه العلماء ، والسدادات الأجلاء الكرما ، وأفاض على أهل الحرمين الشريفين من فيض نيل كرمه الفياض ما يزيد على القياس ، وزرع بسحائب معداته ورحمته بذر محبه وموذته في قلوب الناس ، وأعانه على البر والتقوى ، وصانه وحماه عن جميع الأسواء ، وأفاض عليه جلال نعمه الباطنة والظاهرة ، وجمع له بين سعادتي الدنيا والآخرة .

ولما كان هذا المسيح "يعني الأمير عيسى" نائب السلطنة المذكور أحيا موات مصر وعمر ما فيها من الخيرات ، أبدأ جميع ما بها وبأهلها من الأوّاصاب ، وأنعش أهل الحرمين الشريفين ، كما أحيا الموتى روح الله المسيح ، وجهز إليهم الصدقات المبرورة السلطانية المرادية ، وسرحها إليهم أحسن تسریع ، فهم داعون بدوام معداته ، خلود ملك السلطان الأعظم الحسن الجزيل للإحسان حيث ولّى رعاياه من يرأف بهم ، وينعم عليهم بالخيرات الحسان ، أدام الله سعادته وإقباله ، ورقاه وحفظه ورعاه وحماه من الأسواء ووقاه . انتهى من تاريخ القطبي .

عدد أساطين المسجد الحرام وقبابه وعقوده

أما بيان عدد أساطين المسجد الحرام وأعمدته وعقوده وقبابه وشرافاته ، فإننا لم نتعرض لذكرها حتى لا يطول بنا الكلام ولا نرى ضرورة توجّب ذكرها . فمن أحب الوقوف على تفاصيل كل ذلك فليراجع كتب التاريخ ، وبالاخص كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" فقد أتى مؤلفه الشيخ حسين باسلامة المكي ، رحمة الله تعالى ، بتفصيات وافية عن كل ذلك من صحيفة (١٠١) إلى صحيفة (١١٢) .

ملحوظة : لما وقع الحريق المذكور في السنة المذكورة أمر السلطان برقوق سلطان مصر بعمارة المسجد الحرام وسقفه بخشب الساج كما كان ثم كثّر فيه التزييم والإصلاح حتى آل الخراب فعمره بالقباب السلطان سليم ابن السلطان مراد الثالث .

الحريق الثاني بقرب المسجد الحرام

مناسبة ما ذكرناه عن الحريق الذي وقع بمكة سنة (٨٠٢) اثنين وثمانمائة من الهجرة ، في رباط "رأمشت" الكائن في الجهة الغربية من المسجد الحرام بين باب إبراهيم وباب الوداع ، قال الفاسي : هو عند باب الحزورة ومنه امتدت النار إلى المسجد الحرام فالتهب سقفه وعجز الناس عن إطفائها فأخذت النار الجانب الغربي من المسجد ، ولا زالت ما حولها حتى إلى الجانب الشمالي إلى أن انتهت إلى باب العجلة "أي باب الباسطية" وهنا خمدت بإذن الله تعالى ولطفه العظيم كما سبق تفصيل ذلك .

بهذه المناسبة نذكر أيضاً الحريق الثاني الذي وقع بمكة بقرب المسجد الحرام ولم يلحقه شيء والله الحمد ، وذلك في ليلة الاثنين الرابع من شهر محرم سنة (١٣٧٨) ثمان وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية ، فإنه في هذه الليلة بينما الناس في صلاة العشاء بالمسجد الحرام ، شبّت النار بسبب "إتريلك" كان معلقاً بدكان في شارع "قاعة الشفا" عند باب الباسطية وباب العتيق ، والإتريلك بكسر المهمزة والتاء والراء ، هو سراج يوضع بكاز النفط له فتيلة من الحرير الصناعي يقدر ببضعة الدجاجة عند إيقاده يكون ضوءه أبيض ، وهو شائع الاستعمال في زماننا ، فتعلقت النار من هذا الإتريلك بستارة الدكان وخشبها وبالضاعة التي فيها ، ومنه انتقلت إلى البيت الذي فوقه ، ثم إلى البيوت والدكاكين التي حوله ، وبسرعة فاقفة التهمت النار هذه البيوت والدكاكين عن اليمين والشمال ووصلت إلى قرب باب العمرة ، ولقد حضرت جميع المعدات الخاصة بإطفاء الحرائق ، مع رجال الإطفاء وجندو الشرطة وأهل النجدة من مكة في تلك الليلة ، إلى شارع قاعة الشفا وأخذوا يكافحون النيران من جميع الجهات ، حتى أنهما أدخلوا سيارات الإطفاء والسيارات ، التي تحمل الماء وغيرها ، إلى نفس المسجد الحرام ، ومنه مدّوا خراطيم المياه إلى الحالات ، التي يقع فيها الحريق لإطفائها ، وهذه هي أول مرة تدخل السيارات أي "الأوتومبيلات" إلى المسجد الحرام من جهة المسعى من "باب علي" المقابل لبئر زرم ، ومن حسن المصادرات كان العمل قائماً في توسيعة المسجد الحرام فبطبيعة الحال كان الطريق غير عسير للدخول هذه السيارات من هذا الباب .

وانضم إلى مطافئ مكة مطافئ جدة ومطافئ المطار، وأرسلت إدارة عين زبيدة وإدارة القصور ووزارة الدفاع معداتها ورجالها ونقالات الماء، لتنضم إلى فرق المطافئ لحصار النار وإطفائها، فبذلوا جهوداً جباراً في مكافحة النيران القوية التي كانت تلتهم كل شيء في سرعة فائقة لا تتصور، حتى حمدت وإنطفأت قبل فجر تلك الليلة بساعة واحدة، ولولا لطف الله تعالى ورحمته لاحتقت محلة سويدة وما يجاورها من محلة الشامية "إن الله رؤوف بالعباد" لكن لا تزال النار مشتعلة قليلاً تحت المنازل المهدومة وتحت الدمار، ولا يزال الجنود ورجال المطافئ بمعادتهم يحاصرن الحرائق نحو خمسة أيام إلى يوم الجمعة.

ولقد خرجت النساء والأطفال والرجال من المنازل التي احترق وهم مذعورون، بعضهم أخذ ما قدر من ماله وأمتعته، وبعضهم خرج بنفسه وبأهله لا يلوى على شيء، ووصلوا بأمتعتهم إلى المسجد الحرام ليتحجّون إليه. وبعضهم فقد أهله وولده فاحتقرّوا بالنار أو ماتوا تحت هدم الدور والمنازل.

ويقدر عدد الذين أصيروا في هذا الحرائق نحو اثنين عشر شخصاً، وعدد الذين ماتوا فيه نحو عشرة أنفس، وعدد ما احترق من المنازل بأمتعتها وأثاثها أربعة وأربعون منزلًا، وعدد ما احترق من الدكاكين سبعة وأربعون دكاناً بما فيها من البضائع المختلفة، وقد عمّ الحزن والأسى أرجاء مكة.

وما هو جدير بالذكر والشكر، أنه تكونت، إثر هذا الحرائق، عدة بجان في مكة وجدة والطائف وغيرها، لمساعدة المنكوبين في هذه الكارثة بجمع التبرعات من أهل الخير والفضل.

وإن من أعظم لطف الله تعالى بعباده في هذه الحادثة، هو وقوف الهواء في هذه الليلة وقوفاً تماماً، فلو تحرك الهواء لاشتعلت النار أكثر فامتدّ الحرائق إلى جهات متعددة في البلدة، فالحمد لله الذي قدر هذا أو لطف فيه "والله رؤوف بالعباد".

فيكون ما بين هذا الحرائق الثاني الذي وقع في زماننا، وبين الحرائق الأول الذي وقع في رياط "رامشت" الذي احترق منه المسجد الحرام فعمره أحد سلاطين آل عثمان بالحجر والقابب بدلاً عن الأخشاب، هو (٥٧٦) سنة خمسماة وست وسبعين سنة تماماً، ولقد قلنا أن هذا الحرائق هو الحرائق الثاني والحرائق الذي وقع في سنة (٨٠٢) هو الحرائق الأول، بالنظر إلى أن الحرائق كان عظيماً هائلاً التهمت النيران فيما نحو مائتي منزل ودكان بما فيها من الأثاث والبضائع، ولم نعد الحرائق

الصغرى التي يحترق فيها منزلان أو ثلاثة ، ولا ما يحترق فيها من مساكن القش والعشاش والصناديق الصفيح ، فإن ذلك من الحوادث الصغيرة التي لا تسلم منها مكة ولا بلدة من البلدان في كل زمان ومكان .

نَسَأَ اللَّهُ الْلَطِيفُ الْخَبِيرُ أَنْ يَحْفَظَ بَلْدَهُ الْأَمِينَ وَسَائِرَ بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُثْلِ
هَذِهِ الْكَوَارِثِ الْعَامَةِ وَالخَاصَّةِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، إِنَّهُ بِعِبَادَتِهِ لَطِيفٌ خَبِيرٌ وَبِإِجَابَةِ
جَدِيرٍ ، وَهُوَ سَبَحَانُهُ وَتَعَالَى عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ .

انظر: صورة رقم ١٥٢ ، للحريق الذي حدث في قاعة الشفا بالشامية بمكة المكرمة

انظر: صورة رقم ١٥٣ ، لسيارات إطفاء أثناء الحريق وهي داخل المسجد الحرام

الحريق الثالث

لقد وقع حريق في يوم الأحد السادس من ربيع الثاني سنة (١٣٨٦) ألف وثلاثمائة وست وثمانين هجرية قبل صلاة الظهر بساعة واحدة ، لقد شبّ هذا الحريق ، واشتعلت النيران بسرعة فاقعة ، في أحشاب السقال ، الموضوعة بباب السلام ، في العمارة الجديدة السعودية للمسجد الحرام ، فالتهمت النيران جميع أحشاب العمارة الموجودة هناك ، ولحقت الأعمدة الجديدة السعودية للمسجد الحرام حتى سقط منها المرمر المزین بها ، وكانت أضرار هذا الحريق جسمية ، وذهب ضحيته بعض الأشخاص ، ولم يحصل والله الحمد في عمارة المسجد القديم أقل ضرر . وقد ساهمت جمعيات فرق المطافئ ، في مكة وجدة والطائف ، في إطفاء النيران ، بعد أن ظلت مشتعلة مدة ساعتين ، ثم طفت وخدمت قبل عصر ذلك اليوم ، حتى لم يبق لها أثر والله الحمد . نَسَأَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَ بَلْدَهُ الْأَمِينَ
وأهْلَهَا الْكَرَامَ مِنَ الْأَذَى وَالْأَضْرَارِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ آمِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

إطفاء الحرائق قديماً وحديثاً

كانت العادة الجارية منذ قديم الأزمان في كيفية إطفاء الحرائق بواسطة السقائين ، فكانوا يحملون القرَبَ والصفائح من التوك المملوقة بالماء إلى مكان الحريق ، ويصعدون إلى المنازل المحترقة فيطفيئون النار ولو في الليل ، أما الذين ينظرون إلى الحريق فكانوا يرفعون أصواتهم بالدعاء والتكبير ، لحديث : إِذَا رأيْتُمْ
الحريق فكِّبُرُوا فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ . رواه ابن عساكر وغيره .

وكان السقاوون بمكة المكرمة على أتم الاستعداد لطوارئ الحريق ولو ليلاً، وبيوتهم معروفة في الحرارات والمحلات ، فإذا حدث حريق ليلاً أو نهاراً في محلة ، سارع أهلها في إخبار السقاين ، هؤلاء يحضرن بقربهم إلى الآبار والبازارات ، فيفتحونها ويملؤن منها قربهم ويهرولون إلى محل الحريق ، يساعدهم في ذلك ذوي المروعة والشهامة من أهل الحرارات ، فلا تمضي برهة إلا وقد أطفئ الحريق بإذن الله تعالى وقلما تقع أضرار جسمية ، وأكثر الحرائق تقع في فصل الصيف لجفاف الأعواد والأخشاب فتشتعل فيها النار في لمح البصر ، وأغلب أسباب الحرائق تافهة ، إما من عود كبريت أو عقب سيجارة أو شارة طارت من الهواء ونحو ذلك .

وطلت الحال كذلك بمكة المشرفة وبالحجاز عامـة حتى سنة (١٣٦٥) ألف وثلاثمائة وخمس وستين هجرية ، ثم في هذه السنة أرسلت الحكومة السعودية بعثة من مكة المشرفة ، مكونة من بضعة أشخاص إلى مصر للتخصص في طريقة إطفاء الحرائق ، من ضمنها : الزعيم فايز العوفي وهذه صورته ، والقائد محبي الدين الصواف ، فمكثت البعثة الإطفائية بمصر عاماً واحداً ثم رجعت إلى مكة للعمل بها ، وبعد ذلك استوردت الحكومة سيارات إطفاء ، وصار لإطفاء إدارة مستقلة ، بها جميع أدوات الإنقاذ .

وليبيان الحقيقة كتبنا لمدير عام المطافئ ، الزعيم فايز العوفي ، وهو أول شخص للبعثة المذكورة ، أن يكتب إلينا نبذة عن تاريخ وجود المطافئ بالطرق الحديثة ، فأرسل إلينا حفظه الله تعالى ورجاله من كل سوء ، نبذة وافية بالغرض المنشود ، وذلك في ٢٧ جمادى الثانية سنة (١٣٨٢) وبرقم ١١٢٩٤ وهذا نص خطابه :

حضرـة الفاضـل الأخ طـاهر الـكردي الـحـترـم ،

بعد التحية ، إشارة لخطابكم حول طلبكم نبذة عن مراحل المطافئ التي تدرجـت فيها نحو التقدـم . فعليـه نعلمـكم أنـ المطـافـئ تأسـست منـذ زـمن بـعيد ، وـكـانـت تـعتمـد عـلـى الطـلـمـبـات الـيـدوـيـة ، ذاتـ العـجلـات ، وهـيـاتـ الـبلـدـيـة بـعـثـة إـلـى القـاهـرـة عـام ١٣٦٥ ، مـكونـة مـن : السـيد فـايـز العـوفـي ، والـسـيد محـبـي الدـين الصـوـاف ، والـسـيد

على عزيزه ، والسيد عبد العزيز مراد ، والسيد محمد فرات ، والسيد عبد الكرييم مرتا ، لمدة سنة . وبوصول أول شخص منبعثة ، وهو السيد فايز العوفي ، أي في عام (١٣٦٦) استوردت سيارات حريق تدفع الماء بواسطة ماتور خاص للدفع الماء ، وتتبع هذه السيارات سيارات وايت لحمل الماء ، وفي عام ١٣٦٨ ارتبط هذا الجهاز بمديرية الأمن العام ، وأخذ يتقدم بخطى واسعة ، بفضل عنابة ولاة الأمور ، وقائده المخلص الزعيم فايز العوفي ، الذي ابتعث إلى الولايات المتحدة الأمريكية لمدة ستة شهور ، استقى خلالها فن الإطفاء والإنقاذ ، وتحصل على شهادة من واشنطن ، وشهادة من نيويورك بولاية كونيكت ، وما لهذا الجهاز من أهمية فقامت هذه المصلحة باستيراد السيارات ذات المثانة والسرعة الفائقة ، بحيث تدفع مائة غالون في الدقيقة ، بسرعة مائة كيلوًّا . ومن الممكن أن تدفع الماء إلى قمم الجبال بواسطة الخراطيم الكاوتشوك ذات المثني (الونان) والوايات سعة (٢٠٠٠) غالون . وفي عام (١٣٧٤) قامت المصلحة باستيراد المواد الكيماوية المضادة للمواد المتهبة ، وهي بودرة (AB) ، ومادة ثاني أكسيد الكربون ، والمادة الرغوية المضادة للبترزين ومشتقاته ، والآلات الفنية الحديثة ، وسلام الكلال ، وحبال الإنقاذ ، وأحزمة الشنكل ، وملاءة الوثب ، وكمامات الأكسجين . وبينما كان تعداد فرق المطافئ خمس فرق بالنسبة لأمهات المدن وهي : مكة ، جدة ، الرياض ، المدينة المنورة ، الطائف . بلغ تعدادها في العام سالف الذكر أثنتي عشرة فرقة . وفي عام (١٣٧٥) قامت المصلحة باستيراد سيارة حريق مزودة بسلم آوتوماتيكي طوله ستون قدماً ، لإنقاذ الأرواح بواسطته ، بلغت قيمتها ثمانون ألف ريال ، كما قامت المصلحة بتأسيس مدرسة الإطفاء والإنقاذ ، تخريج منها عشرون ضابطاً في الدورة الأولى ، وتخريج منها أيضاً في دورتها الثانية عام ١٣٧٧ سبعة عشر ضابطاً وقام الزعيم فايز العوفي بتأليف كتاب "الإطفاء والإنقاذ" درس بمدرسة المطافئ ، ويدرس حالياً بمدرسة الشرطة . وفي عام (١٣٧٨) قامت المصلحة باستيراد البدلات المضادة للنار ، وهي من نوع الاسبستس ، والتي يمكن رحل المطافئ ، بعد ارتدائها ، اجتياز النار والدخول في وسطها وحمل الأشخاص الذين حالت النار دون خروجهم من المنزل أو المكان الذي نشب فيه النار . وبلغ تعداد الفرق إلى ست عشرة فرقة . وفي عام (١٣٧٩) بلغ تعداد الفرق سبع عشرة فرقة . وفي عام (١٣٨٠) تفضل صاحب الجلالة الملك المعظم بإهداء ثمانين سيارات ، من نوع مرسيليس للمطافئ ، مزودة بسلم ضخم ، وأصانصير

ومستحضرات طبية . وهذه السيارات تعتبر أضخم سيارات عرفها المطافي ، حيث يبلغ طول كل سلم فيها (١٢٠) قدماً وكانت هذه المدرية أثراها الفعال . وفي العام نفسه ضم إلى هذه المصلحة الدفاع المدني ، وانتدب الزعيم فائز العوفي على رأس وفد إلى سويسرا ، لتمثيل بلاده ، وأصبحت المملكة العربية السعودية عضوا في منظمة الدفاع المدني الدولي . وفي عام (١٣٨١) انتدب الزعيم فائز العوفي والقائد محبي الدين الصواف لحضور مؤتمر الدفاع المدني . وأخذت المنظمة تولي إرسال النشرات الشهرية ، منذ أصبحت المملكة عضوا فيها . وفي عام (١٣٨١) انتهى رباط هذه المصلحة بمديرية الأمن العام وأصبحت مديرية عامة مرتبطة بوزارة الداخلية رأساً . وقد بلغ تعداد الفرق بالملكة ثمانين عشرة فرقة . وفي عام (١٣٨٢) رصدت هذه المديرية موازنة خاصة بالدفاع المدني ، وعند موافقة الجهات العليا على ذلك سيجري إحداث جهاز الدفاع المدني وإلحاقه بالمطافي ، وفي النية ، إن شاء الله ، إنشاء شبكات المياه التي توزع الحنفيات على طول الشوارع العامة ، في أمهات المدن ، وقد تفضل مجلس الوزراء وأصدر أمره بتقفيذ ذلك ، ضمن مشاريع شبكات المياه العامة للمدن . وفي هذا العام رصدت مديرية المطافي في ميزانيتها مبلغ مائتين وخمسين ألف ريال لشراء زورق بخاري متوسط الحجم ، مزود بأحدث الآلات لمقاومة الحرائق التي تتشب في البوادر والمستودعات التجارية . بمبناء جلة . فضلاً عن وجود فرق مطافي بحرية بمبناء جدة . وبجرى شراء زورق مماثل لميناء الدمام في العام القادم . كما قامت هذه المديرية باستصدار أمر من المقام السامي ، بإلزام أصحاب محطات البترول ، والورش الميكانيكية ، وورش النجارة ، بوضع المضخات الازمة والإسعافات الأولية في محلاتهم ، وذلك درءاً بينما تصل المطافي إلى مكان الحادث . وطبق بالفعل ، والمطافي مستعدة لتمرير عمال المحطات والورش على استعمال المضخات ، وسيطبق ذلك بالنسبة لسيارات الأتوبيس وسيارات النقل على اختلاف أنواعها وأحجامها .

وما تقدم يظهر جلياً تقدم المطافي المستمر في بلادنا . هذه نبذة حاطفة عن تاريخ المطافي وتدرجها نحو التقدم ، والله نسأل التوفيق والسداد للجميع .

مدير عام المطافي

عنه

القائد: محبي الدين الصواف

هذا هو وصف تدرج حالة إطفاء الحرائق عندنا بعكة المشرفة ، بل إن هذه الحالة في الإطفاء قديماً وحديثاً هي حالة جميع المالك والبلدان ، ففي مصر في القاهرة اشتروا في سنة (١٨٨٥) ألف وثمانمائة وخمس وثلاثين ميلادية آلات بخارية للإطفاء ، واستبدلوا جماعة السقائين ب الرجال من البوليس . ولم تعرف مصر سيارات الإطفاء إلا في سنة (١٩١٣) ألف وتسعمائة وثلاث عشرة ميلادية ، ثم مضت فرق المطافئ في القاهرة تسير قدماً نحو استكمال معداتها حتى أصبحت تضارع أحسن فرق الإطفاء في البلاد الأوروبية .

ولقد وقعت في جميع البلدان حرائق كثيرة وكبيرة ، في مصر والشام والعراق واستانبول والمدينة المنورة أيضاً ، لكن لا نتعرض لذكر شيء غير ما كان بعكة من الحرائق الشهيرة ، وما ذكرنا نبذة عن تاريخ الحرائق إلا بمناسبة ما وقع من الحريق العظيم في قاعة الشفاعة بعكة المكرمة في عصرنا الحاضر ، كما ذكرنا وصفه في هذا الفصل ، نسأل الله تعالى عفوه وعافيته ولطفه ورحمته إنه بعباده لطيف خبير .

تحية المسجد الحرام: الطواف

يسن لداخل أي مسجد من مساجد الدنيا ، ولو كان المسجد النبوى بالمدينة ، أن يصلى ركعتين ، بنية تحية المسجد ، أما داخل المسجد الحرام بعكة فإنه يسن له الطواف وهو تحية بيت الله المعظم ، لكن إذا دخل المسجد غير مرید الطواف فإنه يصلى ركعتين تحية المسجد .

وبهذا يمتاز حكم المسجد الحرام عن سائر المساجد ، فتحية الطواف لأجل البيت الشريف الواقع بوسط المسجد ، فالمسجد الحرام محيط بالبيت المطهر وتبع له . روى الأزرقي عن عطاء أنه قال : لما دخل النبي ﷺ مكة لم يلو ولم يعرج ولم يلغنا أنه دخل بيتنا ولا لوى لشيء ولا عرج في حاجته هذه وفي عمره كلها ، حتى دخل المسجد ولم يصنع شيئاً ولا ركع حتى بدأ بالبيت فطاف به ، وهذا أجمع في حاجته وعمره كلها . انتهى .

تحية المسجد الحرام وما يطلب في دخوله

يسن للإنسان ، إذا دخل أي مسجد من المساجد ، في جميع الأقطار ، حتى المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، أن يصلى ركعتين ، قبل أن يجلس أو يستغل

بشيء، إلا المسجد الحرام بمحكمة فإن تحيته الطواف، فإذا دخل الإنسان فيه فلا
تطلب منه الصلاة وإنما يطلب منه الطواف إن تمكن من ذلك، فلو دخل وقد
منعوا الناس من الطواف لحدث كثرة طواف أحد الملوك صلى ركتين تحية
المسجد.

روى الإمام الأزرقي في تاريخه، عن عطاء، قال: لما دخل النبي ﷺ مكة لم
يلو ولم يعرج ولم يلتفنا أنه دخل بيته ولا لوى لشيء ولا عرج في حجته هذه وفي
عمره كلها حتى دخل المسجد الحرام ولم يصنع شيئاً ولا ركع حتى بدأ بالبيت
فطاف به وهذا أجمع في حجته وعمره كلها. انتهى.

والسبب في عدم طلب صلاة ركعتي التحية للمسجد الحرام بمحكمة وطلب
الطواف بدلًا عنها، هو ما يأتي:

(١) الإقتداء بفعل رسول الله ﷺ والصحابة.

(٢) أنه يوجد في داخل المسجد الحرام بيت الله المعظم، فمن الأدب أن القادر
إذا وصل إلى بيت الله أن يلوذ به ويلحًا إليه، وأن يظروف حول بيته، عسى أن
يحظى بعفوه وغفرانه ورحمته وإحسانه، والطواف كالصلاحة كما في الحديث.

(٣) طلب الطواف من الداخل للمسجد الحرام ليتميز عن بقية المساجد في
جميع الأقطار، كما تميز عنها بالأمن والأمان ومضاunganة التواب والحسنات.

ويستحب إذا وقع بصر الحاج على البيت الحرام، أن يقف ويرفع يديه للدعاء
ويقول: «اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريراً ومهابةً، وزد من شرفه
وعظمته من حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريراً وتعظيماً وبراً. اللهم أنت السلام
ومنك السلام فحيينا ربنا بالسلام» ويدعو بما أحب من أمور الدنيا والآخرة.

ذكر الفقهاء أن القادر من أعلى مكانة يدعوه بهذا الدعاء، إذا عاين البيت، من
الموضع الذي يقال له: رأس الردم وهو المسمى بالمدعا، فهذا كان في الزمن
السابق، قبل حدوث الأبنية بالمدعا، أما الآن فإن الكعبة لا ترى من هذا الموضع
لارتفاع الأبنية، وإنما ترى من باب المسجد، فعليه يأتي القادر بهذا الدعاء إذا
عاين الكعبة من أي أبواب المسجد كان ومن أي مكان كان.

ويستحب الدخول للمسجد الحرام لكل قادم من أي جهة كان، من باب بني
شيبة المسمى قليلاً بباب السلام، وهو العقد القائم عند مقام إبراهيم، المقابل لباب

الكعبة ، لأن البيوت تؤتي من أبوابها ، فمكان العقد المذكور مكان باب السلام في الأزمنة السابقة ، قبل اتساع المسجد ، فالقادم إذا دخل الآن من أي أبواب المسجد ومر للطواف من العقد المذكور فقد أتى بالسنة ، لأن النبي ﷺ كان يدخل منه إلى المسجد وينخرج منه .

ويسن بعد أي طواف ، أن يصل إلى ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام ، الذي يقول الله تعالى فيه : ﴿هُوَ الَّذِي تَعْرَفُونَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّى﴾ ويقول : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ والحنفية والمالكية يرون ركعتي طواف الإفاضة واجباً ، وفي تركها هدي عند المالكية .

والحكمة في سنية ركعتي الطواف : كأن الإنسان يقول كما أتني طفت بالبيت الحرام امثالاً لأمر الله تعالى ، كذلك أصلني إليه امثالاً وإطاعة له جل جلاله .

إدارة المسجد الحرام

كانت إدارة المسجد الحرام بمكة المشرفة في عهد الأتراك العثمانيين منذ قديم الزمن ، تسند عادة إلى الوالي التركي بلدة ، فيكون الوالي له حق الإشراف التام على إدارة الحرم المكي ، وكان يطلق عليه لقب «شيخ الحرم أو مدير الحرم» .

وبطبيعة الحال ، ما كان الوالي يقدر على النظر في جميع شؤون المسجد الحرام ، وهو يقوم بجدة غالباً ، ومناط به الأمور المهمة ، فكان من الطبيعي أن ينبع عنه من يقوم بالإشراف على جميع أمور المسجد الحرام ، من نظافة وكتنس وخدمة واستقبال كبار الزوار ، والنظر في أمور الموظفين ، الذين يرتبطون بهذه الإدارة ، من الأئمة والخطباء والمؤذنين والأغوات والكتبة والخدمة والبوابين والمشددين والزمامرة والكناسين والفراشين .

فوكييل الوالي بمكة المشرفة ، الذي ينظر إلى شؤون المسجد الحرام ، كان من أهالي مكة المشرفة ، فإذا ما كان هناك مسألة كبيرة كان من اللازم عليه أن يراجع رئيسه المباشر وهو الوالي ليتلقي أوامره .

فكانت نيابة الحرم سابقاً مخصوصة في عائلة «نائب الحرم» الشهيرة بمكة اليوم ، وذلك منذ زمن طويل أكثر من مائة سنة . كم اطلعنا على المستندات

والتقارير الرسمية التي لا تزال موجودة لديهم إلى الآن ، فمن ضمن ما أطلعنا عليه حجة شرعية مسجلة تحت ختم وتوقيع قاضي مكة ، حرسها الله تعالى ، فضيلة الشيخ محمد سعد الدين الحنفي ، مؤرخة في غرة محرم الحرام سنة (١٤٨١) إحدى وثمانين ومائة وألف ، تتضمن أن أمير مكة الشريف مساعد بن سعيد ، قد أقام السيد أحمد بن محمد ، قائم مقام شيخ الحرم الحالي ، شيعاً على السادة الأئمة والخطباء بالمسجد الحرام ، وعلى جميع خدام الحرم من أغوات ومشدّية وزمامرة وفرّاشين وكتّاسين وجميع خدام الحرم ، بدون معارضة أحد منهم ولا مخالفة له ، مع توقيضه في استلام ما هو مخصوص من أوقافات وخلافها ، كما كان عليه أسلافه السابقون .

فضيلة قاضي مكة ، شرفها الله تعالى ، أثبت وأيد هذا الإقرار والإقامة من شريف مكة وأميرها المذكور ثبوتاً شرعاً في الحجة الشرعية المذكورة .

ولما تولى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، على الحجاز في سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، أيد إقامة عائلة نائب الحرم على خدمة إدارة المسجد الحرام ، كما كانوا في العهد السابق ، فهم ما يزالون في وظائفهم إلى اليوم ، لا يعارضهم في ذلك معارض .

ويقوم الآن بإدارة المسجد الحرام السيد حسن بن سليمان بن أحمد نائب الحرم . فقد تولى هذه الإدارة في شهر ذي القعدة سنة (١٣٧٤) بعد وفاة أخيه السيد هاشم نائب الحرم ، وهو يقوم بمساعدة ابنه الأكبر السيد عبد القادر نائب الحرم ، في كل ما يتعلق بالإدارة في خدمة المسجد الحرام من مراقبته ونظافته وشؤون خدمته .

ففي المسجد الحرام من المراقبين والفراشين والكتناسين (٢٢٥) شخصاً ، ومن البوابين (٦٥) شخصاً ، وللمسجد الحرام من المؤذنين والمكربين (٢٢) شخصاً وذلك في وقتنا الحاضر ، أما منذ خمسين سنة فأكثر فإليك ما ذكره صاحب كتاب مرآة الحرمين :

يقول إبراهيم رفت باشا رحمه الله تعالى ، صاحب كتاب «مرآة الحرمين» الذي حجَّ مراراً قبل تأليفه للكتاب المذكور ، وقد كان آخر حجته سنة (١٣٢٥) خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ، عن موظفي المسجد الحرام ما يلي :

له شيخ هو الوالي عادة (أي الوالي التركي) ونائب، ووكيل للنائب، ومدير يقوم بشؤونه، وفيه من الموظفين ما يقارب سبعمائة منهم (١٠٧) مدرساً يتلقى مدرساً (٤٤) منهم مرتبًا يتراوح بين (٥٠٠) و (١٠٠) قرش والباقي متبرعون بالتدريس، ومنهم (٧٩) إماماً وخطيباً للحنفية، المتبرعون منهم (٣٤)، ويتقاضى (٤٥) منهم مرتبًا . وللشافعية (٢٤) إماماً وخطيباً، المتبرعون منهم (٦٦) والباقيون بمرتب . وأئمة خطباء المالكية (١٤)، المتبرعون منهم ثمانية . وللحنبلية (٥) المتبرعون اثنان منهم، والإمام أو الخطيب يتلقى مرتباً مختلفاً بين (٤٠) و (١٠٠) و (٢٠٠) قرش، ومنهم (٥٢) خصياً (آغا) من بينهم رئيس ونقيب لهم، ومن ذلك (٤١) مؤذناً و (٨) وقادين و (١٢) فرشاً و (١٠) محافظين على النظام (مشائين) و (٢٠) كناساً و (٣٠) بواباً و (١١) جباداً (ملاء للماء) و (١٨١) غسالاً لقناديل المسجد و (١٨) خادماً خدمة سائرة ومن ضمنهم (٢٠) لهم مرتباً قدية ، و (١٥) موظفاً في سقاية زمزم إلخ ، أما الذين يقومون بخدمة الكعبة فلسنتها من بني شيبة . والخدمة في المسجد الحرام وراثية في الأكبر . انتهى من الكتاب المذكور .

فانظر رحمك الله تعالى إلى مقدار المرتبات والمعاشات الشهرية التي ذكرها هنا صاحب «مرأة الحرمين» والتي هي بالقرش ، أدناها أربعون قرشاً وأقصاها مائتا قرش ، وبين ما نحن اليوم عليه ، بحساب الريال لا بحساب القرش ، فما أرخص تلك الأيام وما أغلى هذه الأيام ، حتى لقد أصبح قرش ذلك الرمان في مقابل ريال هذا الزمان بل أكثر ، فقد ارتفعت البركة من الأرض ، وعم الغلاء جميع الأقطار ، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهل فهو أرحم الراحمين واسع الفضل والإحسان آمين .

قال الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة ، في كتابه «تاريخ عمارة المسجد الحرام» عن إدارة المسجد الحرام ما نصه : كانت إدارة المسجد الحرام في العصور المتقدمة يقوم بها أمراء مكة المكرمة وولاتها ، وذلك في عصر الخلفاء الراشدين ، والخلفاء الأمويين والعباسيين وسلطانين الجراكسة ، وكانوا هم المسؤولين ، عن كل قصور يحصل من خدمة المسجد الحرام ، أمام الخلفاء والملوك والسلطانين . فلما صار أمر الحرمين الشريفين بيد سلطانين آل عثمان ، عهدوا بذلك أيضاً إلى ولاتهم

على مكة المكرمة ، وأعطوهنـم لقباً خاصاً وهو «شيخ الحرم» وعيّنوا لهم نائباً ينوب عنـهم في مراقبة عموم خدمة المسجد الحرام من مؤذنين ، وفراشين ، وكتـاسين ، وبـوابـين ، ووـقادـين ، ومشـدـية ، وغـيرـهم ، ثم عـيـنـوا دائـرة للأوقـافـ ووضـعـوا لها رئـيسـاً لـقبـوهـ «ـ مدـيرـ الأـوقـافـ» وـ وظـيفـةـ هـذاـ المـديـرـ معـ دـائـرـتهـ ، الـقـيـامـ بـجـبـاـيـةـ ماـ هـوـ مـوـقـوفـ بـمـكـةـ الـمـكـرـمـةـ عـلـىـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ ، وـ صـرـفـ الـعـوـائـدـ السـنـوـيـةـ ، الـيـ تـأـتـيـ مـنـ الـخـارـجـ ، لـعـمـومـ مـوـظـفـيـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ ، وـ صـرـفـ الـعـوـائـدـ السـنـوـيـةـ ، الـيـ تـأـتـيـ مـنـ الـخـارـجـ ، حـسـبـ شـرـطـ وـاقـفـهـاـ مـنـ مـرـورـ ، وـ مـخـصـصـاتـ وـعـوـائـدـ وـحـنـطـةـ الـجـرـاـيـةـ وـمـاـ أـشـبـهـ ذـلـكـ ، وـلـهـاـ دـفـاتـرـ خـاصـةـ تـسـجـلـ فـيـهاـ أـسـمـاءـ الـمـوـظـفـيـنـ مـنـ أـئـمـةـ ، وـخـطـبـاءـ ، وـمـؤـذـنـينـ ، وـوـقـادـينـ ، وـكـتـاسـينـ ، وـفـراـشـينـ ، وـمـشـدـيـةـ ، وـبـوـابـينـ ، وـغـيرـهـمـ . وـكـذـلـكـ سـدـنـةـ الـكـعـبـةـ الـمـعـظـمـةـ وـأـبـاعـهـمـ مـنـ أـهـلـ الـوـظـائـفـ ، وـأـغـوـاتـ الـحـرـامـ ، وـتـقـوـمـ أـيـضـاـ بـصـرـفـ عـوـائـدـ رـئـيـسـ السـدـنـةـ الـذـيـنـ هـمـ بـنـوـ شـيـعـةـ بـنـ عـثـمـانـ الـحـجـيـ منـ طـيـبـ وـبـخـورـ ، وـمـاـ يـلـزـمـ لـغـسـيلـ الـكـعـبـةـ الـمـعـظـمـةـ ، كـمـاـ تـقـدـمـ ذـكـرـهـ فـيـ تـارـيـخـ الـكـعـبـةـ ، وـدـائـرـةـ الـأـوقـافـ مـرـتبـطـةـ ، مـنـ الـجـهـةـ الـإـدـارـيـةـ ، بـشـيـخـ الـحـرـامـ ، الـذـيـ هـوـ وـالـيـ مـكـةـ ، وـمـنـ الـجـهـةـ الـمـالـيـةـ بـنـظـارـةـ الـأـوقـافـ بـالـأـسـتـانـةـ الـعـلـيـةـ ، أـيـ القـسـطـنـطـنـيـةـ .

وهـكـذـاـ الـعـمـلـ ، مـنـذـ عـهـدـ السـلـطـانـ سـلـيمـ خـانـ الـأـوـلـ إـلـىـ أـنـ اـسـتـقـلـ الـمـلـكـ الشـرـيفـ الـحـسـيـنـ بـنـ عـلـيـ ، فـيـ ٩ـ شـعـبـانـ سـنـةـ (١٣٣٤) أـرـبـعـ وـثـلـاثـةـ وـأـلـفـ هـجـرـيـةـ ، بـالـحـجـازـ . ثـمـ فـيـ عـهـدـ الشـرـيفـ الـحـسـيـنـ ، سـارـ عـلـىـ هـذـاـ الـعـمـلـ ، وـزـادـ عـلـىـ خـدـمـةـ الـحـرـامـ دـائـرـةـ شـرـطـةـ ، وـعـيـنـ فـيـهـاـ رـئـيـسـاـ وـجـنـودـاـ غـيـرـ الـشـرـطـةـ الـمـعـادـيـنـ ، وـجـعـلـ مـهـمـتـهـمـ مـرـاقـبـةـ الـلـصـوصـ وـأـهـلـ الـفـسـادـ ، وـجـمـعـ مـاـ سـقـطـ مـنـ الـحـجـاجـ ، بـالـمـسـجـدـ الـحـرـامـ ، وـالـإـعـلـانـ عـنـهـ .

ثـمـ لـمـ تـولـيـ جـالـلـةـ مـلـكـ الـمـلـكـةـ الـعـرـبـيـةـ السـعـوـدـيـةـ الـإـلـامـيـةـ عـبـدـالـعـزـيزـ بـنـ عـبـدـالـرـحـمـنـ الـفـيـصـلـ آلـ السـعـوـدـ عـلـىـ الـحـجـازـ ، فـيـ سـنـةـ أـلـفـ وـثـلـاثـةـ وـثـلـاثـ وـأـرـبـعـينـ هـجـرـيـةـ ، جـعـلـ لـلـمـسـجـدـ الـحـرـامـ إـدـارـةـ خـاصـةـ ، وـجـعـلـ رـئـيـسـهـاـ نـائـبـ الـحـرـامـ ، وـسـمـيـتـ هـذـهـ الـإـدـارـةـ «ـ بـجـلـسـ إـدـارـةـ الـحـرـامـ» ، وـوـظـيـفـتـهـاـ الـقـيـامـ بـإـدـارـةـ شـؤـونـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ ، مـعـ مـرـاقـبـةـ عـمـومـ خـدـمـةـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ ، وـالـقـائـمـ بـشـؤـونـ هـذـهـ إـدـارـةـ الـآنـ هـوـ السـيدـ هـاشـمـ بـنـ سـلـيـمانـ بـنـ أـحـمـدـ نـائـبـ الـحـرـامـ .

وـعـمـاـ أـنـ رـيـعـ أـوقـافـ الـحـرـمـينـ الشـرـيفـيـنـ انـقـطـعـ وـرـوـدـهـ إـلـىـ الـحـجـازـ ، مـنـ عـمـومـ الـمـالـكـ الـإـسـلـامـيـةـ ، الـذـيـ كـانـ يـرـدـ خـزـيـنـةـ نـظـارـةـ الـأـوقـافـ الـعـثـمـانـيـةـ ، وـكـانـ يـصـرـفـ

منه عموم عوائد الخدمة وغيرهم ، فقد أصدر إرادته جلالة الملك عبدالعزيز السعود المعظم ، بصرف عموم مرتبات خدمة المسجد الحرام من صندوق المالية ، بعد أن صار تعديلها وزاد في مرتب البوابين والمؤذنين وغيرهم ، ضعف ما كان يصرف لهم في زمن الحكومة العثمانية .

وأما إدارة الأوقاف ، فصارت وظيفتها الآن هي عمارة ورمادة المسجد الحرام ، وإدارة شؤون الأوقاف العمومية ، وإدارة عموم المساجد الموجودة بعكة المكرمة ، والقيام بالطبعي السعدي ، وتوزيع ما يصدره من الخبر إلى كافة المستحقين من الفقراء وغير ذلك . فهذا ملخص إدارة المسجد الحرام إذ التفصيل يحتاج إلى جزء خاص . انتهى من تاريخ عمارة المسجد الحرام .

من أقبية المسجد الحرام

جاء في تاريخ الخميس ما نصّه : وكان العباس بن عبد المطلب في الجاهلية رئيساً في قريش ، وإليه أمر عمارة المسجد الحرام والسقاية ، بعد أبي طالب ، أما السقاية فمعروفة ، وأما عمارة المسجد الحرام ، فكان لا يدع أحداً يشتبّب فيه ، ولا يقول فيه هجراً ، وكانت قريش قد اجتمعت وتعاقدت على ذلك ، فكانوا له عوناً ، وأسلموا ذلك إليه ، ذكره الزبير بن يكاري وغيره من علماء النسب ، حكاه أبو عمرو . والتشبيب ترقيق الشعر بذكر النساء ، وكأنه أراد إنشاد ذلك في المسجد . والهجر بالضم الهذيان والقول الباطل ويطلق على الكلام الفاحش ، وذكر شهوده بيعة العقبة ، سيعجيء في الركن الثاني . انتهى من تاريخ الخميس .

شرطة المسجد الحرام

الشرطة بضم الشين المعجمة ، هي في اصطلاح عُرفاً : جنود مختصون بحفظ النظام والأمن داخل البلدة ، والشرطة معروفوون من قديم الأزمان ، فجميع الحكومات الصغيرة والكبيرة ، لا بدّ لهم من اتخاذ الشرطة .

أما الشرطة في المسجد الحرام ، فأول من أنشأها الشريف حسين بن علي ، بعد أن استقلَّ بالحجاز ، فإنه رحمه الله تعالى ، أصدر أمره في سنة (١٣٣٧) سبع وثلاثين وثلاثمائة ألف هجرية ، يجعل قسم من جنود الشرطة في الحرم الشريف باسم «شرطة المسجد الحرام» ينأى بها أمر مراقبة المسجد من اللصوص والسلفة ،

والمحافظة على راحة الحاج والطائفين ، والاحتفاظ باللقطات ، وما يسقط من الناس من الدرهم ونحوها ، في المسجد الحرام ، وتسليمها لأصحابها .

وما زال مركز شرطة المسجد الحرام موجوداً من ذلك العهد إلى اليوم ، وقد ازداد عددهم ، وتوسّع أعمالهم ، في العهد السعودي ، لكثره الحاج الواردين في كل عام ، وقد تعزّزت قوة شرطة المسجد الحرام ، بمركز هيئة الأمر بالمعروف ، وجندوها المنتشرين في المسجد أيضاً ، وذلك للمحافظة التامة على من في المسجد الحرام ورعايته حرمة وعدم التشويش فيه ، ولشرطة المسجد الحرام وجند الهيئة فيه فائدة عظيمة جداً في موسم الحج ، وله فراسة ودقة نظر في المحرمين والشّالين واللصوص ، وقد أمسكوا بكثير منهم من يأتي مع الحاج بقصد السرقة والنشل في وسط المسجد الحرام ، فإنهم يندسون بينهم ، خصوصاً في وقت ازدحامهم في الطواف ، واستلام الحجر الأسود ، وعند المسعى ورمي الجمرات ، لأن هذه مواقع الازدحام وغفلتهم عن أنفسهم ، ولكن أعين الشرطة والجواسيس لهم بالمرصاد ، ولو لا ذلك لاستفحلاً الأمر ، واحتلّ الأمن والنظام ، فالحمد لله على ذلك .

صورة بعض ما كتب على جدران أروقة المسجد الحرام

من الداخل من جهة الحصوة

لما تم عمارة جميع المسجد الحرام بالقباب ، كتب على جدرانه من الداخل والخارج بعض الآيات القرآنية ، وأسماء من قام بعمارة المسجد الحرام من الملوك والسلطانين . ونحن نذكر هنا إن شاء الله تعالى ، كل ذلك ، وإليك بيان ذلك :

جاء في كتاب « تاريخ المسجد الحرام » للشيخ حسين باسلامة المكي ، رحمه الله تعالى ، ما نصه : ثم كتب على بعض أبواب المسجد الحرام ، وبعض صدور الأروقة ، آيات من القرآن الحكيم ، بعض الملوك والسلطانين ، الذين قاموا بعمارة المسجد الحرام ، بخط كنظم الدر ، على كل موضع ما يناسبه من الآيات الشريفة .

وكتب تاريخ هذه العمارة الذي حرره وأنشأه قاضي المدينة السيد حسين الحسيني بداخل المسجد الحرام ، فكتب نصفه في الوسط الأعلى من صدر الرواق الشرقي ، المقابل لجهة الكعبة الشرقية ، التي بها الباب ، بخط بارز جميل ، نفراً على

الجدار ، والنصف الآخر كتب في صدر الرواق الأمامي الغربي ، المطل على جهة الكعبة الغربية ، بعلو الرواق .

وهذا نص ما كتب في الجهة الشرقية باسمه سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَاتَّقَى الزَّكَةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهُ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنَّ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ شرع في عمارة هذا الحرم الشريف وبتحديده ، من اختاره الله من خلفائه وعيشه ، القليس المرحوم السعيد المبرور المغفور له ، الشهيد سلطان الإسلام وال المسلمين ، خاقان خواقين العالمين ، المستفيء بفضل الله ، ظلال دار النعيم ، حضرة الملك الأعظم ، السلطان سليم نور الله تعالى ، ضريحه وروح برؤائع الجنان روحه ، بناء وأكمله وأنقذه وحسناته وحملته ، وارث الملك الأعظم ، الإمام الأفخم وال الخليفة الأكابر الفطمطم والملك القاهر العرم ، من ملكه الله شرق البلاد وغربها ، وجعل طوع يده بلاد عجم الرعايا وعربها ، وأطلعه سراجاً منيراً في المشارق والمغارب ، وملكاً مرفوعاً على هام الكواكب .

هذا ما كتب على الجهة الشرقية من هذا التاريخ ، وكتب الباقى منه على الجهة الغربية ، وهو بنصه : «وصير للإسلام حصنا محيطاً ، وجعل ظله المديد على كافة الناس بسيطاً ، وعدله الفريد في جميع الوجود مبسوطاً ، وقمع بسلطنته الشريفة طواف الكفر والعناد ، وجمع له بين الملك في الدنيا والفوز في المعاد ، خليفة الله على كافة العباد ، ورحمة الله الشاملة لجميع البلاد ، سلطان سلاطين الزمان ، خلاصة آل عثمان ، السلطان ابن السلطان ، السلطان الخنكار الأعظم مراد ، لا زال الجود بذوام خلافته عامراً ، ولا يرجح الإيمان في أيام سلطنته قريباً ظاهراً ، زاده الله قوة ونصرة ، وشيد بملائكته الكرام أزراً ، فتاريخ تمامه قد جاء : أطال الله لمن أنه عمرأً». انتهى من تاريخ "عمارة المسجد الحرام" .

انظر: الصور أرقام : ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧ وهي للحفريات المكتوبة على الجدران الخارجية للمسجد الحرام في البناء القديمة . والصورتين رقم ١٥٨، ١٥٩ لأحد الحفريات على مدخل أحد أبواب المسجد الحرام وأحد الجدران الخارجية للمسجد الحرام ، والصورة ١٦٠ لباب الصفا من الخارج في البناء القديمة ، والصورتين رقم ١٦١، ١٦٢ لأحد الحفريات التي على أحد الأبواب والجدران للمسجد الحرام في البناء القديمة .

انظر : الصور أرقام ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، وهي لبعض الحفريات التي على بعض أبواب وجدان المسجد الحرام قديماً ، والصورة رقم ١٦٧ لأحد أبواب المسجد الحرام قديماً من الأعلى ، والصورة رقم ١٦٨ لما كان مكتوباً على جدار باب على من الجهة الغربية للصفا ، والصورة رقم ١٦٩ للحفريات الخطية الواضحة لأحد أبواب المسجد الحرام من الخارج في البناء القديمة ، والصورة رقم ١٧٠ لباب السلام ومداخله الثلاثة من الخارج من البوابة القديمة .

بناء درج أبواب المسجد الحرام قبل عصرنا الحاضر

إذا رجعنا إلى الوراء ، أي إلى صدر الإسلام ، نجد أن أرض مكة ، شرفها الله تعالى ، قد ارتفعت عن حالها الأصلية ، بمقدار مترين أو ثلاثة ، وبعبارة أصح ، أن أرض مكة كانت مساوية لأرض المطاف التي حول الكعبة تماماً ، وقد كانت بيوت أشراف قريش حول المطاف ، وكانت جدران ظهرها بمثابة السور للمسجد الحرام ، وسبب ارتفاع الأرض ، هو نزول الأمطار وجريان السيول ، من أعلى مكة ، فتمليء شوارعها وأزقتها من الأحجار والأترية والرمال الآتية مع السيول والأمطار ، وبحرور مئات السنين ارتفعت الأرض شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى هذه الحالة التي هي عليها اليوم .

ولقد كانت العادة في البلدان منذ أربعين سنة أن يرفعوا كل عشر سنوات الأترية التي جات بها السيول والأمطار ، من الجهة الشمالية ، وهي باب الزيادة ، ومن الجهة الجنوبية وهي باب أجياد ، حتى لا تدخل السيول في المسجد الحرام ، ثم أهمل ذلك . فارتقطعت الأرض أكثر مما كان . ولا نزال نشاهد اليوم ارتفاع بعض الجهات والأراضي ، بسبب ما يهدم ويُردم من البيوت والمنازل وال محلات .

ولقد كان الخارج من المسجد الحرام ، من باب إبراهيم ، ينزل نحو خمس عشرة درجة ، حتى يصل إلى أرض الشارع ، ثم ارتفعت الأرض ، فدفن منها نحو أثنتي عشرة درجة ، فلم يبق إلا سوى أربع درجات . وكان الداخل من باب السلام الكبير ، من جهة المسعى ، إلى المسجد الحرام ، ينزل خمس عشرة درجة ، ولا ندري هل كان عدد درجاته من الخارج مثلها أم لا ، فإنه لما ارتفعت أرض

المسعى صار الظاهر من الدرجات الخارجية هو درجة واحدة فقط ، وذلك قبل التوسيع السعودية ، فلما جاءت هذه التوسيعة هدم كل ذلك .

والخارج من المسجد ، من باب الزيادة ، كان ينزل ثلاث عشرة درجة ، حتى يصل إلى أرض الشارع ، ثم ارتفعت الأرض ، فدفن منها ست درجات ، وذلك نحو سنة ثلاثة وألف ، والباقي ، وهو سبع درجات ، كانت موجودة في زماننا . وقد أدركناها ، وكنا نرقى عليها حتى نصل إلى باب المسجد ، إلى أن كان آخر شهر شعبان سنة ست وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، ففي هذا التاريخ ، فرشت أرض باب الزيادة من خارج المسجد بالتراب والحصى والشورة الإفرنجية المسماة بـ « الإسمنت » وبذلك دفن أربع درجات ، فصار الباقى منها الآن درجتين يصعد الناس منها إلى المسجد الحرام ، وهكذا بقية أبواب المسجد الحرام .

بل إنه دفن من درج المسجد الحرام ، بسبب السيول أيضاً ، في القرن الثالث للهجرة ، سبع درجات ، كما ذكره الأزرقى ، في الجزء الثاني بالصحف ٧١ و ٨٩ من تاريخه ، وذلك في خلافة المعتصم بالله .

انظر: صورة رقم ١٧١ ، رسم لمكة والحرم بالفوتوفغرافيا من جهة أبي قبيس

فبناء المساجد في جميع الدنيا يكون على أربعة أنواع :

١) مسجد أرضي ، كالمسجد النبوى بالمدينة المنورة وكالجامع الأزهر ، والمسجد الحسيني ، والمسجد الزيني ، بمصر بالقاهرة . فهذه ليس فيها درج ، لا من الداخل ولا من الخارج .

٢) ومسجد نازل في الأرض ، له درج من داخله ، وليس عليه درج من خارجه ، وذلك كمسجد الشافعى بجدة ، فعلى أبوابه درج من داخل المسجد ، وليس له درج من الخارج ، غير درجة واحدة .

٣) ومسجد مرتفع عن الأرض ، كمسجد العمار ومسجد عكاش بجدة ، وكمسجد المؤيد والممسجد الغوري والممسجد الرفاعي بمصر ، ففي أبواب هذه المساجد درج من الخارج ، وليس لها درج من داخل المسجد .

٤) ومسجد كالبركة والخوض . يصعد إليه من الخارج بدرج ، ويحيط فيه من الداخل بدرج . وهو المسجد الحرام بمكة المشرفة ولا ندرى هل له مثيل أم أنه مفرد حتى في شكله وبنائه .

ولقد ذكر الإمام الأزرقي صفة أبواب المسجد الحرام وعدها وذرعها ، في الجزء الثاني من تاريخه ، وذكر في هذا البحث عدد درجات كل باب من أبواب المسجد الحرام ، في بنائه الذي كان في زمانه ، فمنها أربع درجات ومنها ست درجات ، ومنها سبع درجات ، ومنها ثمان درجات ، ومنها عشر درجات ، ومنها اثنتا عشرة درجة . ونحن لم نذكر جميع ذلك خوف التطاويل .

فالذى نستتぬج من كلام الأزرقى ، رحمة الله تعالى ، المتوفى قبل متصف القرن الثالث ، أن درج أبواب المسجد الحرام كانت في زمانه ، وكان بعضها مدفوناً ، عندما أغرق السيل المسجد وما حوله ، من المسعي والواadi والطريق ، كما هو صريح عبارته بصحيفة ٧١ من الجزء الثاني .

ثم الذي نذهب إليه ، أن درج الأبواب كان أول بنائه في زمن عبد الله بن الزبير ، الذي وسع المسجد الحرام ، بعد عمر وعثمان ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ثم كان في زيادة أبي جعفر المنصور كما كان بناء درج الصفا ودرج المروة لأول مرة في عهده وخلافته كما ذكرنا ذلك في محله ، ثم كان في زيادة الوليد بن عبد الملك ، ثم كان في زيادة أمير المؤمنين محمد المهدي العباسى ، رحم الله الجميع ورحمنا معهم ، فكل واحد من هؤلاء ، الذين زادوا في المسجد الحرام ، بني درج أبواب المسجد الحرام من الناحية التي زاد فيها ، أما محمد المهدي فقد زاد في المسجد زيادة عظيمة جداً ، من جميع جهاته ، وجعله مربعاً كما هو في شكله الحاضر اليوم ، وذلك سنة (١٦٠) مائة وستين ، وسنة (١٦٤) مائة وأربع وستين ، فعليه يكون بناء درج أبواب المسجد الحرام ، من جميع الجهات الأربع ، من عمل محمد المهدي سنة (١٦٤) وهذا مما لا شك فيه .

ورب قائل يقول : لماذا لم نسند عمل درج أبواب المسجد الحرام إلى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، اللذين زادا في المسجد أيضاً ، نقول : يجوز أنهما بانيا درجاً لأبواب المسجد الحرام ، ويجوز أنهما لم يبنيا درجاً مطلقاً ، وقد رجحنا الرأي الأخير لقلة زيادتها في المسجد ، وصغرها في عهدهما ، بالنسبة للزيادات العظيمة التي حصلت بعدهما ، وما دام التاريخ لم يذكر لنا أي خبر عن ذلك كله ، فالحقيقة الثامة بجهولة لدينا . ولا يعلم الغيب إلا الله الواحد القهار ، الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت الشري .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن أرض مكة لم ترتفع ، في زمان الخلفاء المذكورين ، الذين زادوا في المسجد الحرام ، كما ارتفعت أرضاها في زماننا هذا ، وبين زماننا وزمانهم أكثر من ألف سنة ، ومعنى هذا أن عدد درج أبواب المسجد الحرام كان قليلاً لقلة ارتفاع الأرض في زمنهم .

ونشير أيضاً إلى أن بناء محمد المهدي العباسي للمسجد الحرام قد تغير وتحدد بالبناء العثماني الحاضر ، بالأعمدة الرخامية والحجيرية وبالقباب ، وإن لم يخرج عن حدود بناء محمد المهدي . فعلى هذا وقد تقادم العهد تكون قد ارتفعت الأرض كثيراً عما قبل ، وهذا يستلزم بناء درج كثيرة على أبواب المسجد الحرام ليمنع دخول السيل إليه .

وجاء في تاريخ الغازي نقاًلاً عن ابن فهد : أنه في سنة (٨٣٠) ثلاثة وثمانمائة بني شاهين العثماني درجاً على أبواب المسجد الحرام ، ترد السيل عنه فبني على باب الزيادة والعجلة والندوة وإبراهيم وباب الرحمة وأجياد والصفا وبقية الأبواب . انتهى كلامه . فباب العجلة هو المسمى الآن بباب التكية المصرية بجوار باب أم هانئ .

و جاء في تاريخ الغازي أيضاً ، نقاًلاً عن السنحاري : أنه في سنة (١٠١٩) تسعة عشرة وألف في رابع شعبان ، ورد مكة سليمان آغا ، ميرياخور السلطان محمد خان ، برسوم سلطاني لعمير العين - إلى أن قال - : ثم شرع وصرف همته إلى العين إلى أن أتم كل حخل وجده ، وعمر بقية الأماكن المأثورة بمكة كمسجد الخيف وقبة حراء ، وزاد في درج أبواب المسجد الحرام ، من خارجه ، حتى تمنع السيل من الدخول . انتهى كلام الغازي .

و جاء في هامش تاريخ الأزرقي ، بصحيفة ٦٩ من الجزء الثاني ، ما نصّه : أما درجات هذه الأبواب من الداخل والخارج فقد ذكر أیوب صيري ، أن أول من أنشأها ميرخور سليمان وذلك عام (١٠٩٢) . انتهى .

فالظاهر أن هذه العبارة هي توافق عبارة الغازي الذي نقله عن السنحاري ، غير أن بينهما اختلافاً في التاريخ . فتأمل .

وهنا نقل من تاريخ القطي ، عن مسألة درج المسجد الحرام ، حيث أنه جدد بناء المسجد الحرام بالقباب في زمانه ، وقد رأى كل ذلك في أوانه ، فقال رحمة الله تعالى ما نصّه : ومن حملة عمارة الحرم الشريف ، حفر خارج المسجد الحرام ،

من الجانب الجنوبي ، الذي هو بجري السيل الآن ، فإن الأرض على ، وامتلاك السيل كله ، إلى أسفل مكة بالتراب ، إلى أن لم يقل للدخول إلى المسجد من الأبواب ، التي في تلك الجهة ، إلا في ثلاثة درجات ، بعد أن كانت نحو خمس عشرة درجة ، يقصد منها إلى أن يدخل من الباب إلى المسجد ، وكان هذا السيل يقطع ويحمل ترابه إلى خارج البلد من جهة المسفلة ، في كل عشرة أعوام مرة ، فغلق عنه نحو ثلاثين عاماً ، فعلت الأرض ، فجاءت سيل طافحة ليلة الأربعاء ،عاشر جمادى الأول ، سنة ثلاثة وثمانين وتسعمائة ، فدخلت من أبواب المسجد وامتلاك المطاف الشريف ، ووصل الماء إلى حول الكعبة الشريفة ، وعلا إلى أن غطى الحجر الأسود وجدار الحجر الشريف ، ووصل الماء والطين إلى عتبة الكعبة الشريفة ، وعلا إلى أن قرب من القفل الباب الشريف ، ووقف الماء في الحرم الشريف يوماً وليلة ، وما أمكن أداء الصلوات الخمس فعطلت الجمعة سبعة أوقات ، وبادر مولانا شيخ الإسلام ناظر الحرم الشريف ، والأمير المعظم المكرم «أحمد بك» أمير العمارة الشريفة ، بخدامهم وعيدهم وسائل المشددين وخدم الحرم الشريف ، والفقهاء والأعيان والتجار إلى فتح طريق الماء من أسفل مكة .

ثم نظفت وغسل داخل البيت الشريف ، ثم نظف وغسل المطاف الشريف ومقام الحنفي ، ثم أخرجت الأوسع من الحرم الشريف وكوم الطين أكواها في المسجد ، ثم أخرج ثم فرش المسجد الشريف بالحصباء الجديدة وتعب في ذلك حضرة الأمير أحمد بك وصرف من ماله مبلغاً كبيراً .

ثم شرع في قطع السيل وتهبيط أرضه إلى أسفل عشر درجات أو نحوها ، من الجانب الجنوبي ، من المسجد الحرام ، إلى آخر المسفلة ، وهو متر سيل أعلى مكة ، فصار السيل إذا سال درج بسرعة ، ولم يصل إلى أن يمكنه الدخول إلى المسجد الحرام ، وفعل ذلك أيضاً من جهة باب الزيادة ، في الجانب الشمالي ، وهو متر سيل قعيقان وحواليه ، وجرى إلى باب الزيادة ولا يصعد إلى باب المسجد ، بل يدخل سردايا واسعاً يسمى العبة ، ويجري فيه ، إلى أن يخرج من قرب باب إبراهيم ، فيسيل إلى أسفل مكة مع السيل الكبير ، وصان الله المسجد الحرام بذلك ، وصارت السيول بعد ذلك تسيل ولا تصل إلى باب المسجد ولا تقرب منه ، وهذا رأي سديد وعمل مهم نافع ، فيصان به المسجد الحرام عن دخول السيول إليه ،

غير أنه يحتاج إلى أن تتعقد ، في كل عامين أو ثلاثة أعوام ، فيقطع ما علا من الأرض ، قبل أن يعلو كثيراً فيحتاج إلى قطع كثير ومصرف زائد .

فاللازم على ولـي الأمراء سلطان الإسلام والمسلمين ، نصره الله تعالى وشيد به قواعد الدين ، أن يسنـ لـذلك قانوناً فيقطع هذا السـيل في كل عامين مـرة ، ليسـتمر المسـيل منهـبطـا دائمـاً ، بـجريـان السـيل فيهـ ، صـونـاً لـالمسـجد الحـرام ، عن دخـول مـاء السـيل إـلـيهـ ، في كل سـيل يـأتـيـ ، ويـكون ذلك قـانـونـاً مستـمرـاً لـالـسـلاـطـينـ ، وـيسـطـرـ ثـوابـ ذـلـكـ فيـ صـحـائـفـ هـذـاـ السـلـطـانـ الأـعـظـمـ نـصـرـهـ اللهـ تـعـالـىـ .

وـكـانـ الـيـدـ الـبـيـضـاءـ فـيـ هـذـهـ الـخـدـمـةـ الشـرـيفـةـ لـلـأـمـيرـ الـعـظـمـ (ـأـمـهـدـ بـكـ) الـمـشـارـ إـلـيـهـ ، أـنـعـمـ اللهـ عـلـيـهـ ، وـأـكـرمـ مـنـزـلـتـهـ لـدـيـهـ ، وـأـجـرـيـ كـلـ خـيرـ بـيـدـيـهـ ، وـيـكـفيـهـ عـنـدـ اللهـ هـذـهـ الـرـتـبةـ الـعـظـمـيـ ، وـالـمـثـوبـاتـ الـجـسـامـ الـكـبـرـيـ . اـنـتـهـىـ مـنـ تـارـيخـ القـطـيـ .

هـذـاـ مـاـ كـانـ مـنـ أـمـرـ بـنـاءـ درـجـ المسـجـدـ الحـرامـ ، فـالـحـمـدـ للـهـ عـلـىـ تـوـفـيقـاهـ المـتوـالـيـةـ وـنـعـمـائـهـ الـمـتـالـيـةـ ، وـنـسـأـلـهـ الـمـزـيدـ مـنـ فـضـلـهـ الـوـاسـعـ وـإـحـسـانـهـ الـعـمـيمـ ، وـصـلـىـ اللهـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ (ـمـحـمـدـ) أـبـيـ الـقـاسـمـ الـأـمـيـنـ وـعـلـىـ آـلـهـ وـصـاحـبـهـ أـجـمـعـينـ .

الـمـسـاجـدـ الـتـيـ بـكـتـ

تـوـجـدـ بـمـكـةـ وـحـوـالـيـهـ ، شـرـقـهـاـ اللـهـ تـعـالـىـ ، مـسـاجـدـ كـثـيرـةـ قـدـيمـةـ وـحـدـيـثـةـ ، وـقـدـ ذـكـرـ فـيـ كـبـرـ التـارـيـخـ مـسـاجـدـهاـ الـقـدـيمـةـ ، أـمـاـ الـمـسـجـدـ الـحـرامـ فـهـوـ أـشـهـرـ مـسـاجـدـهاـ وـأـقـمـسـهاـ عـلـىـ الإـطـلاقـ ، فـهـوـ مـوـجـودـ مـنـذـ وـجـودـ بـيـتـ اللـهـ الـحـرامـ ، أـيـ مـنـذـ عـمـارـةـ إـبـراهـيمـ خـلـيلـ اللـهـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ الـكـعـبـةـ .

أـمـاـ الـمـسـاجـدـ الـأـخـرـىـ فـكـانـتـ بـعـدـ ظـهـورـ الـإـسـلـامـ ، وـقـلـتـهـ وـكـثـرـتـهـ تـبـعـ لـكـثـرـةـ سـكـانـ مـكـةـ وـتـفـرـقـ مـسـاكـنـهـاـ فـيـ الشـعـابـ وـالـأـوـدـيـةـ ، هـذـاـ كـثـرـ بـنـاءـ الـمـسـاجـدـ بـهـاـ ، فـيـ عـصـرـنـاـ هـذـاـ ، فـيـ كـلـ حـلـةـ وـمـنـطـقـةـ ، كـثـرـةـ لـمـ يـسـبـقـ لـهـاـ مـثـيلـ مـنـ قـبـلـ ، لـزـيـادـةـ الـعـمـرـانـ وـالـسـكـانـ .

نـسـأـلـ اللـهـ أـنـ يـزـيـدـهـاـ مـنـ الـخـيـرـاتـ وـالـبـرـكـاتـ وـالـأـمـانـ وـالـأـمـانـ ، ظـاهـراـ وـبـاطـناـ إـنـهـ عـلـىـ مـاـ يـشـاءـ قـدـيرـ . هـذـاـ وـلـاـ نـرـيدـ الإـطـالـةـ فـيـ ذـكـرـ وـإـحـصـاءـ مـسـاجـدـهـاـ كـلـهاـ ، إـنـماـ نـكـفـيـ بـذـكـرـ أـشـهـرـهـاـ وـهـوـ كـمـاـ يـأـتـيـ :

مسجد الراية

سمى هذا المسجد بمسجد الراية ، لأن النبي ﷺ ركز في موضعه رايته ، يوم فتح مكة ، وصلّى فيه أيضاً .

ذكر الغازى في تاريخه ما نصّه : ومنها مسجد الراية قال في الإعلام : فيه مئذنة ذات دورين ، تهتم رأسها الآن ، ويقال لها منارة أبي شامة . وأمامه إلى جانب اليسار بفرع معطلة الآن ، يقال أنه بئر جبير بن مطعم ابن عدي بن نوفل . ويقال أن النبي ﷺ ركز رايته يوم الفتح في هذا المسجد . انتهى .

وفي تحصيل المرام : ومنها مسجد بأعلى الردم ، عند بئر جبير بن مطعم ، يقال أن النبي ﷺ صلّى فيه ويعرف اليوم بمسجد الراية كما ذكره الحبّ الطبرى . قال الأزرقى : وقد بناه عبد الله بن عباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وذكر السيد يحيى المؤذن في حاشيته ، مسجداً بأعلى مكة ، على يمين الصاعد إلى المعلا ، أمّام زاوية الرفاعي ، الذي بسوانها دبل عين زبيدة ، قال : وهذا هو المسجد الذي شائع عند أهل مكة أنه مسجد الراية . انتهى .

قال الفارسي : وفيه الآن لوحان مكتوبان أحدهما كوفي لا يعرف ، والآخر فيه ، أن المستنصر العباسى أمر بعمله في شعبان سنة أربعين وستمائة ، وعمّره في أوائل سنة إحدى وثمانمائة الأمير قطبلك الحسامي ، عمارة التي هو عليها الآن .

قال الغازى : وفي أول سنة (١٣٦١) لقد أمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود بتجديد عمارة هذا المسجد ، وقد عمر ووسع من جهته الشرفة ، ومقدار الزيادة (٤) ذراعاً تقريباً بذراع اليد . وبينما كان العمل يحرثون الأساس ، ويهدمون أحد الجدران عثروا على حجرين من رخام مكتوب في أقدمها ما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمَلُ مَسَاجِدُ اللَّهِ مِنْ آمَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهُ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ .

هذا ما أنشأ من فضل الله وهو هذا المسجد المبارك ، المعروف بمسجد راية النبي ﷺ على التحقيق ، وجلد ما كان يجواره من مسجد عتيق الشيخ الصالح ، مربى المريدين ، قدوة الصلحاء والمحديين ، العارف بالله أبو العباس أحمد سنية الشهير بأبي شامة ، نفع الله تعالى به في الدنيا والآخرة ، ابتقاء رضوان الله العظيم ، ورجاء لما جاء عن سيدنا ومولانا ، عليه الصلاة والسلام : من بنى

مسجدًا لله ولو كمحض قطاة بني الله له يبتأ في الجنة ، تقبل الله منه بمنه وكرمه و كان الفراغ منه رابع عشر رجب سنة ثمان وتسعين وثمانمائة تقبل الله منه .

وفي الثاني ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل من القربات تعمر المساجد والمأثر وزيتها بإعلان الشهادتين على فلك المنابر ، وقال عز من قائل : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْهِ الْآخِرَة﴾ وبعد وقد قدم عبد الأعتاب السلطانية بتشييد مئذنة ومسجد راية النبي عليه أفضلي الصلاة والسلام ، بيد الله الحرام ، وجعل رب السموات ذلك في صحائف مولانا السلطان محمد خان ، عز نصره وحرسه خلد الله ملكه ، في شهر شعبان سنة (١٠٠٠) انتهى . وقد انتهت عمارة هذا المسجد في شهر ربيع الأول سنة (١٣٦١) وكتب على بابي المسجد تاريخاً وهذا نصه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْهِ الْآخِرَة﴾ أمر بعمير هذا المسجد حضرة صاحب الجلالية ملك المملكة العربية السعودية عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود في ربيع الأول سنة (١٣٦١) .

كنا كتبنا مقالة عن مسجد الرایة ، في جريدة "البلاد السعودية" ، بتاريخ ٢٥ جمادى الثانية سنة (١٣٧٤) وهذا نصها :

بمناسبة تجديد عمارة مسجد الرایة ، الذي بالجودية ، بمكة المشرفة في هذا العام ، أححبنا أن نكتب عنه بذلة صغيرة تاريخية فنقول :
سمي هذا المسجد مسجد الرایة لأن النبي ﷺ ركز في موضعه رايته يوم فتح مكة ويقال صلى فيه أيضاً .

ولقد اختلف العوام في موضع مسجد الرایة ، فمنهم من يطلق على المسجد الواقع بالشارع العام ، على عين الصاعد إلى المعلى قبل المدرسة السعودية ، أنه هو مسجد الرایة ، وهذا غلط كما لا يخفى ، وال الصحيح مسجد الرایة هو المسجد الواقع عند بئر جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل ، وكان الناس في قديم الزمان لا يجاوزون هذه البئر في السكن ، وما بعدها خال من الناس .

وهذه البئر واقعة بالجودية ، بين المسجد والزنقة الضيق الصغير النافذ إلى الطريق العام ، قال الإمام الأزرقي : هذه البئر حفرها في الأول قصبي ثم دثرت فاستخرجها جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وأحياناً .

وهذه البئر في عصرنا الحاضر مهجورة . فجبداً لو تولتها إدارة عين زبيدة واعتنت بتصليحها وتنظيفها ، حتى تكون صالحة للاستعمال ، فإنها بئر أثرية ، لها مكانها في التاريخ .

ومسجد الراية يسمى أيضاً مسجد الجودية . وقد حدثت فيه عمارات كثيرة في أزمان مختلفة ، وحصل تعميره في أيامنا مرتين : المرة الأولى : كان في أوائل عام (١٣٦١) ، ففي النصف من ربيع الثاني من هذا العام صلينا فيه العصر ، وكانت العمارة فيه جارية ، فرأينا في ساحتة حجرين مكتوبين ، عثروا عليهما في أساسه ،مضمونهما أنه أمر ببناء هذا المسجد السلطان فلان وأنه بعد إجراء التحقيق ثبت أن هذا المسجد هو مسجد الراية .

وأحد الحجرين مؤرخ سنة (٨٩٨) من الهجرة وثانيهما مؤرخ سنة (١٠٠٠) ألف ، لكن مع الأسف لم ننقل نص الكتابة عليهما ، حيث لا توجد لدينا جهة مختصة ، تعنى بمثل هذه الآثار التاريخية . والمرة الثانية : العمارة القائمة فيه الآن عام (١٣٧٤) وهي عمارة تفوق العمارات السابقة بكثير في قوة البناء فقط ، ولكن لنا في هذه العمارة رأي ونظريّة نذكره في آخر المقترنات الآتية إن شاء الله تعالى .

ويبين مسجد الراية الذي بالجودية بقرب المدعى وبين مسجد الراية الذي بالشارع العام بالمعلى نحو (٢٥٠) مائتين وخمسين متراً تقريباً ، ومسجد الراية الذي بالشارع العام الذي بالمعلى قد هدم مع ما يجاوره من المنازل لتوسيعة الشوارع ، وذلك في سنة (١٣٧٩) هجرية ، فلم يبق لهذا المسجد من أثر .

ولنا بهذه المناسبة جملة اقتراحات ، وهي :

- ١) إنشاء إدارة خاصة تحفظ بالآثار التاريخية عندنا .
- ٢) منع العمال من تكسير الأحجار والصخور المكتوبة حرضاً على حفظها وأخبار الجهة المختصة بذلك .
- ٣) عمل سجل خاص من قبل مديرية الأوقاف العامة يدون فيه أسماء المساجد والرباطات والتكميات ، مع نبذة تاريخية عن منشأها وعن كل ما يطرأ عليها من تغيير أو تعمير ، ليرجع إلى هذا السجل المؤرخون وأرباب المصالح .
- ٤) عمل سجل خاص من قبل أمانة العاصمة يدون فيه أسماء الشوارع القديمة والجديدة والأراضي القفرة التي تحيا فيما بعد ؛ كما يدون فيه كل ما يحدث بتفصيل تام .

فأمثال هذه السجلات مما ينفع المؤرخين وأصحاب المصالح . ومثل هذا معمول به في جميع المالك ، فإنه يوجد بمصر في قلم خاص بالمحافظة سجلات تبحث عن أسماء الشوارع وال محلات والماركات القديمة والجديدة ، وينذكر فيها أي تبدل أو تغير .

(٥) أن يكون لدى وزارة الحج والأوقاف العامة مشرف في يكون من اختصاصه النظر إلى جميع العمارت والترميمات والإصلاحات ، التي تجري في المساجد والأماكن الأثرية ، بل يكون من اختصاصه حتى ضرب البويات بألوانها المختلفة على المنابر (المآذن) والجدران ، فإن ضرب البويات فن وذوق ، كما أن فرش الرخام الملون في المساجد له هندسة دقيقة وذوق كبير ، ومساجدنا وعمارتنا مرموقة بأنظار عموم العالم من مختلف أجناس الحاجاج الذي يكون بينهم العلماء والفنانون والمهندسوں والمعماريون .

(٦) إن العمارة الحديثة لهذا المسجد الأثري القديم ، التي كانت سنة (١٣٧٤) هجرية هي مختلفة تمام الاختلاف عن بناء المساجد في جميع الأقطار ، فموقع الصلاة في هذا المسجد من داخله عبارة عن غرفة مستديرة ، أما منارتہ أي مئذنته فلا تشبه مآذن المساجد مطلقاً ، فهي عبارة عن عدة حلقات مسطحة ، بعضها فوق بعض ، يفصل بين كل حلقة وأخرى نحو نصف متراً ، والحلقة السفلی أكبر الحلقات ثم ما فوقها أصغر منها ثم تصغر كل حلقة بما تحتها حتى تكون الحلقة العليا أصغر الحلقات . وهذه المئذنة تقع على الشارع العام ، يراها كل الناس ، والحجاج إذا نظروا إليها يظنون أن هذه العمارة من دور الملاهي ، وهذه المئذنة لا يصعد فوقها أحد للأذان ، وإنما يؤذنون عند دخول وقت الصلاة في داخل المسجد ويسمع صوته بواسطة الميكروفون الموضوع على هذه الحلقات .

فتقترح على وزارة الحج والأوقاف أن تهدم هذا المسجد وتجدد عمارته على عادة المساجد المعروفة ، ونعتقد أن هذا من أوجب الواجبات حتى لا تكون عرضة للمعترضين .

هذا ما طرأ علينا الآن من الاقتراحات . ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد في جميع أمورنا والله المادي إلى صراط السواء .

مسجد خالد بن الوليد رضي الله عنه

قال الغازي في تاريخه : مسجد خالد بن الوليد هو في الموضع الذي غرز فيه رايه يوم فتح مكة ، قال العلامة الشيخ جمال المكي : وقد بني في هذا الموضع مسجد على يمين الصاعد إلى التعميم بحارة المسماة الآن بحارة الباب ، وهذه العمارة الموجودة الآن عمرت سنة (١٢٨٠) ثمانين ومائتين وألف بناها حسن أفندي ، ناظر التكية ، ثم وسّعه رجل هندي في السنة المذكورة . ذكره في تحصيل المرام . انتهى من الغازي .

نقول : وفي سنة (١٣٧٦) ستة وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية هدم مسجد خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، الذي بحارة الباب ، وبني بناية جديدة فخمة ، بمنارة ظريفة جميلة ، بواسطة مديرية الأوقاف العامة . وتم في السنة التي بعدها وهي سنة (١٣٧٧) وأصبحت الصلوات تقام فيه .

مسجد الجن

ذكر الغازي في تاريخه : ومنها مسجد بأعلى مكة ، يقال إنه مسجد الجن ، قال الأزرقي : وهو الذي يسميه أهل مكة مسجد الحرس ، وإنما سمي مسجد الحرس لأن العرس يجتمعون عنده ليلاً ، قال : وهو فيما يقال : الموضع الذي خطه رسول الله ﷺ لابن مسعود ، ليلة استمع عليه الجن . وإن الجن بايعوا رسول الله ﷺ فيه . ذكره في الإعلام .

وفي إتحاف فضلاء الرمن : وفي سنة اثنا عشر ومائة وألف عام إبراهيم بيك مسجد الجن بالمعلاة ، لأنه درس ودفن تحت الأرض ، مع كثرة السيول وتطاول الأزمان ، حتى أنهم غرسوا في ذلك المخل بعض أشجار وبيستان كتبق وبعض الريحان ، وكانتا يسمونه الجنينا ، فأحضروا المهندسين والعلماء وحرفوا عن ذلك الموضع ، وظهر محراب المسجد ، الذي أسلموا الجن فيه ، من تحت الأرض ، وبادروا بقطع تلك الأشجار وتنظيف تلك البقعة ، ثم بني فيه مسجد صغير على حدّه الأصلي ، ووضع المحراب على ما كان عليه ، وجعلوا على أعلى المسجد قبة ، ثم بنوا مسجداً آخر على سطح المسجد المأثور ، مسجداً كبيراً بقبة عظيمة ، وجعلوا في جانب القبة طاجنين ومحراباً ، وسلوا القبة ، وفتحوا من أطراف القبة

لأجل الماء ، وجعلوا بجانبه جنينة لطيفة ، بابها من داخل المسجد المذكور ، الذي خطّ فيها النبي ﷺ عبد الله بن مسعود ونهاه أن يخرج عن هذا الخط والدائرة ، وعمّروا بذا الحلل أحسن مسجد بأحسن البناء . انتهى .

وقال السيد أحمد دحلان في سالنامته الحجازية : مسجد الجن على يسار الصاعد إلى المعلا ، قريب من شعب الحجون ، بوسط الطريق ، وهو معروف مشهور ، وهو فيما اشهر موضع الخط الذي خطّه رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، ليلة استمع عليه الجن وبايده ، والمأثور هو المحراب ، الذي يتغوص الأرض ، الذي ينزل إليه بدرج ، لا الذي فوقه . انتهى .

وقال في تحصيل المرام : وفيه نزلت : **﴿فَقُلْ أُوحِيَ...﴾** إلى آخر السورة وهو الآن عمار ، وعليه قبة صغيرة . انتهى .

أقول : هدمت هذه القبة في سنة (١٣٤٣) .

نقول : لقد حصلت عمارات أخرى في مسجد الجن وقد شاهدنا العمارة التي حصلت بها في سنة (١٣٦٢) أو في التي قبلها ورأينا المحراب القديم الذي كان في غرفة تحت الأرض وهذه الغرفة صغيرة وهي اليوم غير ظاهرة للعمارة التي حصلت فوقها اليوم .

انظر : صورة رقم ١٧٢ ، مسجد الجن

مسجد أبي قيس

على رأس جبل أبي قيس ، وفي قمّته ، مسجد صغير ، يطل على المسجد الحرام ، ظاهر لعموم الناس ، ومن جميع الجهات . فهو كما يقول الشاعر : « كأنه علم في رأسه نار » ولما كان جبل أبي قيس أول جبل وضعه الله تعالى في الأرض ، وهو الجبل العظيم المطلّ المشرف على المسجد الحرام ، وكان هنا المسجد ، الذي على قمته قاتماً عليه كالعلم ، فقد رأى الشريف الحسين ، ملك الحجاز الأسبق ، أن يجعل من هذا المسجد ، الذي على جبل أبي قيس علامة أي « ماركة » في شكل خاص ، توضع على بعض الأوراق الرسمية الحكومية ، كحوازات السفر وبعض أنواع الطوابع ، وإليك صورة هذه العلامة « الماركة » .

وبناء هذا المسجد على قمة جبل أبي قبيس قديم جداً، يرجع إلى القرن الأول في الإسلام ، لأن الإمام الأزرقي المولود في القرن الثاني للهجرة قد ذكر هذا المسجد في تاريخه ، فقد قال عنه ما نصه :

مسجد على جبل أبي قبيس ، يقال له مسجد إبراهيم ، سمعت يوسف بن محمد بن إبراهيم ، يسأل عنه : هل هو مسجد إبراهيم خليل الرحمن ، فرأيته ينكر ذلك ويقول : إنما قيل هذا حديثاً من الدهر ، لم أسمع أحداً من أهل العلم يثبته .

قال أبو الوليد (أبي الأزرقي يعني نفسه) : وسألت أنا جدي عنه ، فقال لي : متى بني هذا المسجد إنما بني حديثاً من الدهر ، وقد سمعت بعض أهل العلم ، من أهل مكة ، يسأل عنه : أهذا المسجد مسجد إبراهيم خليل الرحمن ، فينكر ذلك ، ويقول : بل هو مسجد إبراهيم القبيسي ، لإنسان كان في جبل أبي قبيس .

فقلت بله : فإني سمعت بعض الناس يقول : إن إبراهيم خليل الرحمن حين أمر بالأذان في الناس بالحج ، صعد على جبل أبي قبيس فأذن فوقه ، فأنكر ذلك ، وقال : لا ، لعمري ما بين أصحابنا اختلاف .

إن إبراهيم خليل الرحمن حين أمر بالأذان في الناس بالحج قام على مقام إبراهيم ، فارتفع به المقام حتى صار أطول من الجبال وأشرف على ما تحته فقال : أيها الناس أجيروا ربكم . قال : وقد كنت ذكرت ذلك عند موضع ذكر المقام مفسراً . انتهى من تاريخ الأزرقي .

فعلم مما تقدم أن المسجد ، الذي بأعلى جبل أبي قبيس ، مسجد قديم ، بني في القرن الأول للهجرة ، لأن الإمام الأزرقي المولود في القرن الثاني قد سأله جده عن هذا المسجد ، فأجابه بما تقدم ، فإذا فرضنا أن الإمام الأزرقي ولد في سنة (١٦٠) من الهجرة ، وأن أبياه ولد في سنة (١٣٠) وأن جده الذي أخبره عن هذا المسجد ، ولد في آخر المائة الأولى ، فإنه مما لا شك فيه أن بناء المسجد تكون في النصف الثاني من القرن الأول ، لكن لا نعلم في أي سنة بني بالضبط ولا نعلم اسم الشخص الذي بناه .

ولقد ذكر هذا المسجد ابن جبير الأندلسي في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسين من الهجرة ، فقد قال عنه : «وفي أعلى جبل أبي قبيس رباط مبارك فيه مسجد وعليه سطح مشرف على البلد الطيبة ومنه يظهر حسنها

وحسن الحرم - أي المسجد الحرام - واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه ... ألح». اه.

ولقد ذكر هذا المسجد أيضاً ابن بطوطة في رحلته ، التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعيناً من الهجرة ، فقد قال عنه عند ذكر جبال مكة : « وبأعلى جبل أبي قبيس مسجد وأثر رباط وعمارة ، وكان الملك الظاهر ، رحمه الله تعالى أراد أن يعمره ، وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ، ومنه يظهر حسن مكة ، شرفها الله ، وجمال الحرم واتساعه والكعبة العظيمة » ... ألح.

وقال عنه في موضع آخر : إن أهل مكة من عادتهم أن يوقدوا المشاعل في أول ليلة من شوال ، ويصرجون المصايح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وتوقد السرج في الصوامع ، من جميع جهاتها ، ويوقد على سطح الحرم كله - أي سطح المسجد الحرام - ويوقد على سطح المسجد ، الذي بأعلى جبل أبي قبيس ، ويقيم المؤذنون ليلاً لهم تلك في تهليل وتكبير وتسبیح » ... ألح. اه . وهذه صورة المسجد الذي بأعلى جبل أبي قبيس في عصرنا الحاضر .

انظر: صورة رقم ١٧٣ ، المسجد الذي بأعلى جبل قبيس

ولا يخفى أن البناء الأول للمسجد غير باق ، ولكنهم يجدونه كلما قدم عهده وتهدم ، وقد ذكر هذا المسجد أيضاً المؤرخ الكبير الشيخ عبد الله غازى ، المترفى في عصرنا هذا في شعبان سنة (١٣٦٥) خمس وستين وثلاثمائة ألف ، رحمه الله تعالى في تاريخه المسمى « إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام » نقاً عن تحصيل المرام ، قال عنه ما يأتي : وفوق جبل أبي قبيس مسجد مشرف على الكعبة العظمة والحرم ، بناه رجل هندي ، كما أخبرني بذلك والدي سنة ألف ومائتين وخمس وسبعين ، وكانت حجارته مرضومة في ذلك الحال ، يقال أنه مسجد إبراهيم وليس هو خليل الرحمن إنما هو رجل آخر . انتهى منه .

فعلم مما تقدم أن المسجد الذي بأعلى جبل أبي قبيس قديم يرجع عهده إلى القرن الأول ، ولا يزال محله معروفاً ، وإن تجدد بناؤه في كل عصر وزمن ، ولا يزال هذا المسجد عامراً يصلى فيه إلى اليوم ، وحوله على الجبل بيوت كثيرة يسكن الناس فيها .

ونقترح أن يبني هذا المسجد العريق في القدم بناءً جميلة المنظر ، مبتكرة الوضع والشكل ، وأن تشتري الحكومة ما حوله من البيوت والمنازل فتهاها وتعبد

مواضعها ، حتى لا يرتفع البناء حوله فيحجب جمال المسجد ، لأن هذا المسجد مطل على المسجد الحرام ، وأينما كان الإنسان يراه ، لأنه على قمة جبل أبي قبيس ، وتحمّل مناظر البلدة مطلوب . والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمتأب .

هذا ولقد طلبنا من وزارة الحج والأوقاف أن تعطينا بياناً بجميع المساجد الموجودة بمكة المشرفة سوى المسجد الحرام فجاءنا منها البيان الآتي ، فلها منا حزيل الشكر . فإليك أسماء جميع المساجد بمكة المشرفة مع بيان محلاتها و مواقعها وهي :

بيان مساجد مكة المكرمة

العدد	اسم المسجد	الموقع	الملحوظات
١	مسجد الشهداء	الشهداء	
٢	مسجد الدهسة	العبادة	
٣	مسجد ربع المiskin	ال العبادة	(الملاوي)
٤	مسجد أبو وادي	ال العبادة	(الملاوي)
٥	مسجد خندمة (علي حجازي)	ال العبادة	(الخانسة)
٦	مسجد السنوسى	ال العبادة	
٧	مسجد حارة بيشر	ال العبادة	
٨	مسجد عودة المرديسي	ال العبادة	
٩	مسجد علي بن ستر	ال العبادة	
١٠	مسجد بن شويفش	ال العبادة	
١١	مسجد المصوم	ال العبادة	
١٢	مسجد الخليفي	ال العبادة	
١٣	مسجد الجعدة	ال العبادة	
١٤	مسجد الأمير بندر بن عبد العزيز	ال العبادة	(حي الشستة)
١٥	مسجد مؤمنة	ال العبادة	
١٦	مسجد الخانسة	ال العبادة	(حي الشستة)
١٧	مسجد الراجحي	ال العبادة	
١٨	مسجد ربع ذاخر	ال العبادة	

العدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
١٩	مسجد بن شليوط	المعابدة	(حي الروضة)
٢٠	مسجد النافع	المعابدة	(حي الروضة)
٢١	مسجد الهمزاني	المعابدة	(الخانسة)
٢٢	مسجد الأمير تركي العبد الله	المعابدة	
٢٣	مسجد الملاوي	المعابدة	
٢٤	مسجد الزهيري	المعابدة	
٢٥	مسجد الأميرة منيرة	المعابدة	(حي الروضة)
٢٦	مسجد عجلان	المعابدة	(حي الروضة)
٢٧	مسجد سيف بن غافم	المعابدة	
٢٨	مسجد العدل	المعابدة	
٢٩	مسجد بني عامر	المعابدة	
٣٠	مسجد سعد الجودي	المعابدة	(الخانسة)
٣١	مسجد الإجابة	المعابدة	
٣٢	مسجد الجميزة	المعابدة	
٣٣	مسجد الحبشي	المعابدة	
٣٤	مسجد بن عبيد	المعابدة	(اللؤلؤي)
٣٥	مسجد الوذانين	المعابدة	(الملاوي)
٣٦	مسجد الأميرة شاهة	المعابدة	(حرق العشر)
٣٧	مسجد الأمير عبدالله بن سعود	المعابدة	(حرق العشر)
٣٨	مسجد القصر العالي	المعابدة	(النوق)
٣٩	مسجد الشيخ محمود	جرول	
٤٠	مسجد ربع الكحل	جرول	
٤١	مسجد الصواعد	جرول	
٤٢	مسجد الجهي	جرول	(العتيبة)
٤٣	مسجد الراهن	جرول	
٤٤	مسجد ربع الحجون	جرول	
٤٥	مسجد بن سويم	جرول	(ربع اللصوص)
٤٦	مسجد ربع اللصوص	جرول	(ربع اللصوص)

بيان مساجد مكة المكرمة

عدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
٤٧	مسجد الجزرة	جرول	(العتيبة)
٤٨	مسجد دحالة حرب	جرول	(جوار مطابع الندوة)
٤٩	مسجد أبو دافع	جرول	(جوار مطابع الندوة)
٥٠	مسجد العيوني	جرول	(العتيبة)
٥١	مسجد المراز (عبد الله السلمان)	جرول	(الراهن)
٥٢	مسجد الطنباوي	جرول	(الراهن)
٥٣	مسجد الشهداء	جرول	(الراهن)
٥٤	مسجد ريع الكحل	جرول	(الراهن)
٥٥	مسجد أبو دافع بالشعبة	جرول	(الراهن)
٥٦	مسجد الكائن خلف القشلة	جرول	(الراهن)
٥٧	مسجد الحجلة	جرول	(العتيبة)
٥٨	مسجد علي جميل	جرول	(العتيبة)
٥٩	مسجد أبو عويس	جرول	(العتيبة)
٦٠	مسجد العرفاء	جرول	(العتيبة)
٦١	مسجد بن نهشان	جرول	(العتيبة)
٦٢	مسجد صالح بوقري	جرول	(العتيبة)
٦٣	مسجد الجزرة	جرول	(الراهن)
٦٤	مسجد الطبيشي	جرول	(الراهن)
٦٥	مسجد الأمير متعب	جرول	(الراهن)
٦٦	مسجد عيد بن محمد	جرول	(الراهن)
٦٧	مسجد ملقية العليا	جرول	(الراهن)
٦٨	مسجد محطة الراهن	جرول	(الراهن)
٦٩	مسجد الملك عبد العزيز	جرول	(الراهن)
٧٠	مسجد التكارنة	جرول	(العتيبة)
٧١	مسجد السد	جرول	(العتيبة)
٧٢	مسجد عبد المحسن	جرول	(ربيع أبي هب)
٧٣	مسجد البخارية	جرول	(الهنداوية)

العدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
٧٤	مسجد جبل حبيشة (الكعكي)	جرول	(قرب المنطقة الخامسة)
٧٥	مسجد سوق البرنو الجديد	جرول	
٧٦	مسجد منصور قرب النافورة	جرول	
٧٧	مسجد ريع الكحل	جرول	
٧٨	مسجد دحلاة حرب بسفوح الجبل	جرول	
٧٩	مسجد أبو تراية	الحجون	
٨٠	مسجد ريع الحجون الجديد	الحجون	
٨١	مسجد المدابقة	الحجون	
٨٢	مسجد حمدان الفرج	العتيبة	
٨٣	مسجد الحفائر	الحفائر	
٨٤	مسجد الدلهلي بالحفائر	الحفائر	
٨٥	مسجد جبل العبادي	الفلق	
٨٦	مسجد الفلق	الفلق	
٨٧	مسجد ريع الحجون	جبل السيدة	
٨٨	مسجد النقا	الحلقة بالنقا	
٨٩	مسجد الحلقة	بالنقا	
٩٠	مسجد بن سليم	الشعب	
٩١	مسجد بركة الشامي	الشعب برحة مكرر	
٩٢	مسجد الديشاني بمندمة	الشعب	
٩٣	مسجد الجبرت	الشعب	
٩٤	مسجد الرایة	شعب عامر	
٩٥	مسجد البدرى	شعب عامر	
٩٦	مسجد طويرق	شعب عامر	
٩٧	مسجد بئر الحمام	الشعب	
٩٨	مسجد زاوية الجيلاني	المدعى	(القرارة)
٩٩	مسجد شعبة التور	السليمانية	

بيان مساجد مكة المكرمة

العدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
١٠٠	مسجد الجن	السليمانية	(الحفائر)
١٠١	مسجد الجندراوي	السليمانية	
١٠٢	مسجد الجيلاني	السليمانية	
١٠٣	مسجد رباط السليمانية	السليمانية	
١٠٤	مسجد بصير	السليمانية	
١٠٥	مسجد البدوي	الجودرية	
١٠٦	مسجد جبل أبي قيس	القشاشية	
١٠٧	مسجد السبع الأياض	سوق الليل	
١٠٨	مسجد السد بأجياد	أجياد	
١٠٩	مسجد المصافي بأجياد	أجياد	
١١٠	مسجد بئر الفسال بأجياد	أجياد	
١١١	مسجد المراغنة	الشيشكة	
١١٢	مسجد جعفر ميرك	الشيشكة	
١١٣	مسجد المحجوب	الشيشكة	
١١٤	مسجد جبل عمر	الشيشكة	
١١٥	مسجد غندورة	حارة الباب	
١١٦	مسجد الهندي بريع الرسام	حارة الباب	
١١٧	مسجد الموارعة	حارة الباب	
١١٨	مسجد خالد بن الوليد	حارة الباب	
١١٩	مسجد أم الحاضر	زقاق الحفرة	
١٢٠	مسجد أبو شدادين	المسفلة	
١٢١	مسجد الكعكي	المسفلة	
١٢٢	مسجد سعد بن مسحور	المسفلة	
١٢٣	مسجد بئر سعيدة	المسفلة	
١٢٤	مسجد عبد الباقي بخاري	المسفلة	
١٢٥	مسجد دحالة الرشد	المسفلة	
١٢٦	مسجد حمزة	المسفلة	
١٢٧	مسجد جامع شارع المنصور	شارع المنصور	العدد مكرر

العدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
١٢٨	مسجد سعد بن سويلم	شارع المنصور	
١٢٩	مسجد النهاري	شارع المنصور	
١٣٠	مسجد بن معن		
١٣١	مسجد علي حجازي		
١٣٢	مسجد المغاربة		
١٣٣	مسجد باحويث		
١٣٤	مسجد بن ناجي		
١٣٥	مسجد أبو سودان		
١٣٦	مسجد عباد بن ناشئ		
١٣٧	مسجد إبراهيم السليمان		
١٣٨	مسجد الكمالية		
١٣٩	مسجد عبد ربه إلياس		
١٤٠	مسجد بن مليس		
١٤١	مسجد الحوازم		
١٤٢	مسجد حي التوفيق		
١٤٣	مسجد الرحلة		
١٤٤	مسجد حوض أبو طالب		
١٤٥	مسجد طلبة البخاري		

١٤٥ هذا هو جموع المساجد بمكة المشرفة ، والمسجد الحرام لم يدخل في هذا العدد .

أما المساجد الموجودة بمنى ومزدلفة وعرفات فهي كالتالي :

١) في منى مسجدان مسجد الخيف ومسجد الكوثر .

٢) وفي مزدلفة مسجد واحد هو مسجد مزدلفة .

٣) وفي عرفة مسجدان مسجد نمرة ومسجد الصخرات . وتوجد بوسط جبل الرحمة قطعة صغيرة من الأرض الميسورة يصلّى الناس فيها إذا كانوا على الجبل .

المقامتات الأربع التي كانت في المسجد الحرام

يوجد بالمسجد الحرام أربع مقامات ، ينسب كل واحد منها إلى أحد الأئمة الأربع ، أصحاب المذهب ، وهي : «المقام الشافعي ، والمقام الحنبلي ، والمقام الحنفي ، والمقام المالكي». يقول الشيخ حسين باسلامة ، صاحب كتاب «تاريخ عماره المسجد الحرام» ، رحمه الله تعالى ، أنه بحث كثيراً في الكتب ، عن اسم أول من أحدث هذه المقامات ، وعن سنة حدوثها ، فلم يعثر على شيء ، والذي ظهر له ، بعد البحث الطويل ، أنها حدثت بين القرنين الرابع والخامس. قال : وذلك لأن ابن عبد ربه الأندلسي ، حينما وصف المسجد الحرام ، في كتابه العقد الفريد : ذكر كل ما احتواه من أروقة وأبواب وسقاية العباس ، وغيرها مما أزيل من المسجد الحرام ، ولم يذكر ١٣١١ - الأربعه . وقد توفي ابن عبد ربه سنة (٣٢٨). فدل ذلك على عدم وجودها في ذلك العصر .

وقد ذكر ابن جبير الأندلسي ، في رحلته المقامات الأربع ووصفها ، وكان ذلك في السنة التي حج فيها ، وهي سنة (٥٧٨). فدل ذلك على أنها أحدثت قبل ذلك التاريخ . ظهر من ذلك أن حدوث المقامات كان في القرن الرابع أو الخامس ثم ساق الشيخ باسلامة خبر المقامات تفصيلاً . اهـ .

ونحن لا نزيد أن نأتي هنا بوصف المقامات وشكلها وما حرر لها من التعميرات والبناءات بالتفصيل ، ففي ذلك ضياع للوقت ولافائدة فيه ، بعد أن هدمت في زماننا عام (١٣٧٧) من الهجرة ، وكان آخر المقامات هدماً هو المقام الشافعي ، الذي كان فوق بئر زمرم ، لقد هدم وهدم بناية هذه البئر المباركة في سنة (١٣٨٣) هجرية ، لأنها ليست بذلك بال ، فلا هي مقامات الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، ولا هي مقامات نفس الأئمة ، أصحاب المذهب الأربع ، أي نفس الإمام الشافعي والحنفي والحنبلاني والمالكى ، وإنما هي مواضع وأماكن أئمة الصلوات الخمس ، في المسجد الحرام ، على المذهب الأربع ، وإنما يلزم أن نأتي بما لا بد منه ، مما يهتم به الناس ، فنقول وبالله التوفيق :

إن ما نراه في مقام الحنفي أنه أحدث ، أول ما أحدث ، على أربع قوائم ، عليها سقف يطلع عليه سلس ، أي على شكل المكربة التي توجد في عموم مساجد مصر وغيرها ، لتلبيغ الناس حركات الإمام ، ووجود المكربة أمر ضروري في كل

مسجد كبير وجامع متسع ، فالمقام الحنفي ، أول ما اتّخذ ، كان بمثابة المكيرية للتبلیغ ، والدليل على ذلك صورته ، التي هي عليه اليوم ، رغم تجدد التعمیرات فيه ، بخلاف بقية المقامات ، وأيضاً ، لا يزال يرقى عليه المکبرون ، الذين يلغون الناس حرکات الإمام ، وموقعه في طرف حاشية المطاف ، مقابل لمیزاب الكعبة ، ولم يكن ، في ابتداء الأمر ، ينسب للحنفي ، بل كان يطلق عليه لفظ «المقام» فقط أي مكان إقامة الصلوات ، أو مقام مبلغ حرکات الإمام ، ولما كان المقام ، بطبيعة الحال ، مسقوفاً ، كان إمام المسجد الحرام يصلّي تحته ، ولا يبعد أنه كان حنفي المذهب ، فنسب المقام إليه ، فأطلقوا عليه «المقام الحنفي» فرقاً بينه وبين مقام إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، ثم عمرو الأيام وتولى السنين ، والتشریع للمذاهب ، أحدثوا أربعة أمكنة حول حاشية المطاف : لكل منذهب من المذاهب الأربع مکان خاص ، وأطلقوا عليها اسم المقامات الأربع ، لكن ليس بينها ما يأخذ صفة المکبرية إلا المقام الحنفي .

ولما كان هذا المقام له أهمية كبيرة في تبلیغ الناس حرکات الإمام إلى عصرنا هذا ، فقد اهتم السلاطین والملوک بتعمیره وزخرفته وحسن بنائه ، وبالأشخاص سلاطین آل عثمان ، الذين كانوا على منصب الإمام أبي حنيفة ، رحمة الله تعالى .

جاء في تاريخ القطي المسمى «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» عن تجديد بناء المقام الحنفي ، بواسطة الأمير مصلح الدين بك ، الذي أرسله السلطان سليم خان ، إلى مکة ، بالصدقات والهبات ، لأهل الحرمين ، وذلك في شهر القعدة سنة (٩٢٣) تسعمئة وثلاث وعشرين هجرية ؛ ما نصه :

وما جدده الأمير مصلح الدين المذكور بناء مقام الحنفية ، فإنه كان مسقاً على أربعة أعمدة ، في صدره محراب عمل سنة (٨٠١) أحد وثمانمائة ، فأراد أن يوسعه ويجعله قبة ، فأمر بعدد مجلس حضر فيه القضاة الأربع والأئمة والعلماء والأعيان ، وقال لهم : إن الإمام الأعظم أبو حنيفة ، روح الله تعالى روحه الشريف بروائع الروح والريحان والرحمة والرأفة والرضوان ، جدير بأن يكون له في هذا المسجد الحرام مقام يجتمع فيه أهل منذهبه ومقلدوه ، يكون أوسع من هذا المقام . فقال بعض العلماء : إنه لا شك في عظم كل واحد من الأئمة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، غير أن تعدد المقامات في مسجد واحد ، لاستقلال كل منذهب بإمام ، ما أجازه كثير من العلماء ، وإن تعدد هذه المقامات ، في وقت حلوله ، أنكره العلماء

غاية الإنكار في ذلك العهد ، ولهُم في ذلك العصر رسالات متعددة باقية بأيدي الناس إلى الآن ، وإن علماء مصر أفتوا بعدم جواز ذلك وخطأوا من قال بجوازه ، ثم انقضَّ المجلس على غير اتفاق .

ثم ذكر القاضي بديع الزمان ابن الصياغ الحنفي : أن حلهُ القاضي أبو البقاء ابن الصياغ أفتى بجواز ذلك ، فشرع الأمير مصلح الدين في إتمام ما قصدهُ ، وهدم تلك السقيفه ووسع المكان وعمل فيه قبة عالية من الحجر الأصفر والأحمر والشمعيسي ، وصرف على ذلك ذهباً كثيراً ، واستمر مقاماً يصلّي فيه إمام الحنفية بالحنفيين ، إلى أن غيرهِ الأمير خوش كلدي أمير بندر جدة ، وهدم القبة وبني المقام مربعاً ذا طبقتين ، جعل الطبقة العليا للمكرين ، لتصل أصواتهم إلى سائر المسجد الحرام ، لارتفاع مكانهم ، وهو باق إلى الآن على هذا الحكم . انتهى من كتاب تاريخ القطبي .

أما مقام الشافعي ، فقد كان موضعه خلف مقام إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، وصفته بترنان عليهما عقد لطيف مشرف من أعلىه ، وفيه خشبة معرضة فيها خطاطيف ، تعلق عليها القناديل ، بني بهذه الصفة عام (٨٠٧) ثم أزيل المقام الشافعي عن هذا المكان وحوّل إلى فوق بناء بئر زمم ، ليتسع ما وراء مقام إبراهيم ، عليه السلام ، للمصلين وحسناً ما فعلوا . ولم يقف على سنة إزالته ، وتحويله إلى فوق بناء بئر زمم ، الذي لا يزال عليه إلى عصرنا الحاضر .

هذا رأينا الخاص في اتخاذ المقامات الأربع ، والله تعالى أعلم بغيره ، ولا نريد إطالة الكلام على ما حصل فيها من التعميرات والتجديفات ، لأنها بدعة مستحدثة ، وليس بذات أهمية ، ومن أراد الاطلاع على ذلك فليراجع كتب التاريخ .

انظر: صورة رقم ١٧٤ ، المسجد الحرام وقد ظهرت فيه المقامات الأربع قبل

هدمها في سنة ١٣٧٦ هـ

أما كيفية الصلاة في هذه المقامات الأربع ، فقد ذكرها ابن بطوطة ، في رحلته ، لما حج ، وذلك سنة (٧٢٨) ، فقال ما خلاصته : أن يصلّي أولاً إمام الشافعية ثم يصلّي بعده إمام المالكية ، ويصلّي إمام الحنبليّة معه في وقت واحد ، ثُم يصلّي إمام الحنفية ، كل واحد في محاباته ، وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع ، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد كل إمام يصلّي بطائفه . ويدخل

الناس من ذلك سهو و الخلط ، فربما ركع المالكي برکوع الشافعي ، وسجد الحنفي بسجود الحنفي ، وترام مصيغين كل واحد إلى صوت المؤذن ، الذي يسمع طائفته ، لئلا يدخل عليه السهو . انتهى .

وقال القاضي ابن طهيرة في تاریخه في كيفية صلاة الأئمة الأربعة في المقامات : وأما كيفية الصلاة فيما تقدم من الزمن ، فكانوا يصلون مرتبين ، إلا أن المالكي كان يصلبي قبل الحنفي مدة ، ثم تقدم عليه الحنفي بعد التسعين وسبعيناً ، ثم قال : ونقل الفاسي ، عن ابن جبير ، ما يقتضي أن كلاً من الحنفي والحنفي كان يصلبي قبل الآخر ، ثم قال : أما صلاة المغرب فكانوا يصلونها جميعاً ، أعني الأربعة في وقت واحد ، فيحصل للمصلين بسبب ذلك لبس كثير ، من اشتباه أصوات المبلغين ، واختلاف حركات المصلين ، فأنكر العلماء ذلك ، وسعى جماعة من أهل الخير عند ولي الأمر إذ ذاك ، وهو رَّاجِر بن برقوق الجركسي صاحب مصر فبرز أمره في موسم سنة (٨١١) بان الإمام الشافعي ، بالمسجد الحرام ، يصلبي المغرب بمفرده ، فنفذ أمره بذلك ، واستمر الحال كذلك إلى أن تولى الملك المؤيد ، صاحب مصر ، فرسم بأن الأئمة الثلاثة يصلون المغرب ، كما كانوا قبل ذلك ، فابتدأوا بذلك في ليلة ٦ ذي الحجة سنة (٨١٠) واستمرروا يصلون كذلك . انتهى .

فانتظر رحمة الله إلى هذا التعصب الزائد في المذاهب الأربعة ، الذي خرج عن حده ، حتى أدى إلى تفرقة الجماعات في الصلوات ، في نفس المسجد الحرام ، وهذا خلاف ما كان عليه السلف الصالح ، وأهل القرون الثلاثة الأولى ، وهم خير القرون بنص الحديث الشريف ، وفي الصحيحين : « خير الناس قرنٍ ثم الذين يلونهم ثم يحيٍءُ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته » .

على أن علماء الإسلام لم يسكنوا عن هذا الأمر ، في ذلك الوقت ، فإن الشيخ الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي أفتى في سنة (٥٥٠) بمنع الصلاة بأئمة متعددة ، وجماعات مرتبة ، بحريم الله تعالى ، وقال : وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة . وقد أنكر أيضاً كثيراً من العلماء هذا الأمر حينما وصلوا إلى مكة للحج سنة (٥٥١) من أصحاب المذاهب الأربعة . ذكر أسمائهم الشيخ عبد الله باسلامة في « تاريخ عمارة المسجد الحرام ». فراجعه إن شئت .

قال صاحب كتاب «مرأة الحرمين» : وأما الوقت الذي حدث فيه تعدد الأئمة في الصلوات المفروضة ، فقال الفاسي : لم أعرفه تحقيقاً ، ثم نقل ما يدل على أن الحنفي والمالكي كانوا مع الشافعى في سنة (٤٩٧) سبع وتسعين وأربعين هجرية ، وأن الحنبلي لم يكن في ذلك الوقت وإنما كان إمام الزيدة ، ثم قال : ووُجِدَتْ مَا يدل على أن إمام الحنبليَّة كان موجوداً في عشر الأربعين وخمسة وراجم الرسالة ، التي كتبها الشيخ جمال الدين القاسمي ، في بدعة تعدد الأئمة .

انتهى من «مرأة الحرمين» هذه خلاصة مفيدة وافية عن المقامات الأربع .
والذي أبطل هذه البدعة السيئة وأزالها تماماً الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، رحمة الله تعالى ، وأحسن إليه ، وذلك حينما تولى على الحجاز سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، فإنه أمر غفر الله لنا وله أن يصلى إمام واحد بالناس في الصلوات الخمس ، وهذه حسنة يؤجر عليها ، إن شاء الله تعالى ، ولا تزال الصلاة على هذه الحال إلى يومنا هذا ، والله الحمد ، ومن أراد الوقوف على وصف المقامات الأربع ، وما حصل فيها من التعميرات فعليه بمراجعة كتاب «مرأة الحرمين» مؤلفه إبراهيم رفت باشا رحمة الله تعالى .

كيفية صلاة الأئمة في المقامات الأربع التي كانت سابقاً

وذكر الفاسي ، في الجزء الأول ، من تاريخه «شفاء الغرام» عن ذلك ، ما يأتي : أما كيفية صلاتهم فإنهم يصلون مرتين ، الشافعى ثم الحنفى ثم المالكى ثم الحنبلى . وذكر ابن حبير ما يقتضى أن المالكى كان يصلى قبل الحنفى ، وأدركته كذلك ، ثم تقدم عليه الحنفى ، بعد التسعين ، (بتقدم النساء على السيدن) وبسبعينه ، واضطرب كلام ابن حبير ، في الحنفى والحنبلى ، لأنه ذكر أن كلَّاً منهما يصلى قبل الآخر ، وهذا كله في غير صلاة المغرب ، وأما هي فإنهم يصلونها جميعاً في وقت واحد .

وبسبب اجتماعهم في هذه الصلاة : أنه يحصل للمصلين لبس كثير ، بسبب التباس أصوات المبلغين ، واختلاف حركات المصلين ، وهذا الفعل ضلال في الدين ، لما فيه من المنكرات ، التي لا تخفي إلا على من غلب عليه الهوى . ولم يزل العلماء ينكرون ذلك ، قديماً وحديثاً ، نسأل الله زوال البدعة .

ثم زالت هذه البدعة ، بسعى جماعة من أهل الخير فيها ، عند ولي الأمر ، أثابهم الله تعالى ، وذلك أن في موسم سنة إحدى عشرة وثمانمائة ورد أمر السلطان الملك الناصر فرج ، نصره الله تعالى ، بأن الإمام الشافعى بالمسجد الحرام يصلى المغرب بمفرده ، دون الأئمة الباقين ، فنفذ أمره الشريف بمكة كما رسم به ، واستمر هذا الحال إلى أن ورد أمر الملك المؤيد أبي النصر شيخ صاحب مصر بأن الأئمة الثلاثة يصلون المغرب ، كما كانوا يصلون قبل ذلك ، ففعلوا ذلك ، وأول وقت فعل فيه ذلك ليلة السادس من ذي الحجة من سنة ست عشرة وثمانمائة ، و كذلك تجتمع الأئمة الثلاثة غير الشافعى على صلاة العشاء ، في رمضان ، ويجتمع أيضاً هؤلاء الأئمة الأربعه وغيرهم من الأئمة ، بالمسجد الحرام ، في صلاة التراويح في المسجد ، ويحصل بسبب اجتماعهم في ذلك المنكر القبيح ، الذي كان يقع دائماً ، في صلاة المغرب ، وأعظم لكثرة الأئمة فلا حول ولا قوة إلا بالله . انتهى من شفاء الغرام .

نقول : لقد بطلت هذه العادة والله الحمد ، وهي تعدد الجماعات في المقامات ، وذلك منذ تولي الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، على الحجاز سنة (١٣٤٢) ثلات وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، كما ذكرنا تفصيل ذلك في غير هذا الموضوع .

حكم صلاة الأئمة المتعددة في المقامات

قال الفاسي في كتابه «شفاء الغرام» ما يأتي :

وأما حكم تعدد صلاة الأئمة في الفرائض في المقامات ، فقد ذكر الفاسي في «شفاء الغرام» بعد أن ذكر كيفية صلاة الأئمة في المقامات ، ما نصه :

وأما حكم صلاة الأئمة الثلاثة : الحنفي والمالكى والحنفى فى الفرائض على الصفة التي يصفونها ، فاختلَفَ فيه آراء علماء المالكية ، لأن شيخ الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب المالكى ، أفتى في سنة خمسين وخمسمائة ، بمنع الصلاة بأئمة متعددة وجماعات متربطة بحرام الله تعالى ، وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعه .

ثم إن بعض الناس استفتى في ذلك بعض علماء الإسكندرية ، فأفتوا بخلاف ما رأى ابن الحباب ، والذي أفتى بذلك شداد بن المقدم وعبد السلام بن عتيق

والشيخ أبو طاهر بن عوف بن الزهرى . ولما وقف ابن الحباب على فتاویهم أملأى في الرد عليهم أشياء كثيرة حسنة ، ونقل إنكار ذلك عن جماعة من العلماء الشافعية والحنفية والمالكية حضروا الموسم بمكة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، فمن الشافعية أبو النحيب ، مدرس النظمانية ، ويوسف الدمشقي صاحب أسعد البهتى ، ونقل عنهما أنهما قالا : وأما صلاة المغرب فهي أشنع وأبغض ، وحضره العطاري في بعثة فقهاء نيسابور ، ومحمد بن جعفر الطائى يعني صاحب الأربعين . ومن الحنفية الشريف الفزنوى ، ومن المالكية عمر المقدسى ، وأقام الدلالة على فسادها ، وأنها خالفة لرأى مالك وأصحابه . وذكر ابن الحباب : أن أبا بكر الطرسوسى وبحنى الزياتى ، شيخ شداد بن المقدم ، لم يصليا خلف إمام المالكية ، بالحرام الشريف ركعة مع كونه مغموضاً عليه . قال : ولا شيء أভى بن جهل الإنسان بحال شيوخه .

وأما وقت حدوثهم فلم أعرفه تحقيقاً ، ورأت ما يدل على أن الحنفي والمالكى كانوا موجودين في سنة سبع وتسعين وأربعين ، وأن الحنبلي لم يكن فيه موجوداً ، وذلك لأن الحافظ أبا طاهر السلفي حج في هذه السنة ورأى فيها أبا محمد بن العرضي القروي المقرئ ، إمام مقام الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام ، وذكر أنه أول من يصلى من أئمة الحرام المقدس قبل : المالكية والحنفية والزيدية . انتهى .

ووجه الدلالة ، من هذا على ما ذكرناه ، من أن الحنبلي لم يكن موجوداً في هذه السنة ، عدم ذكر السلفي له وذكره لإمام الزيدية ، ولو كان الحنبلي موجوداً حيثن ذكره السلفي ، فإنه أولى بالذكر من إمام الزيدية . والله أعلم . ورأيت ما يدل على أنه كان موجوداً في عشر الأربعين وخمسمائة ، وقد ذكرت ذلك في أصل هذا الكتاب . والله أعلم . وكان بعض المتعصبين على الخانبلة يقطع حطيمهم من مكة ، لأن أبا المظفر سبط أبي الفرج ابن الجوزي قال في كتابه «مرآة الزمان» : إن مرجان خادم المقتفي العباسي بعد أن ذكر عنه أنه قال : قصدي أن أقلع منذهب الخانبلة ، لأنه لما حج قلع الحطيم ، الذي كان خمسة بمكة ، وبطل إمامتهم بها . اهـ .

ثم جاء في هامش الكتاب ما يأتي :

صفة الحطيم خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم ، تقابلتهنـ . خشبتان على تلك الصفة ، قد عقدت هذه الخشبـ على رجلين من الجـنس ، غير بائنة

الارتفاع ، واعتراض في أعلى الخشب فيها خطاطيف حديد ، فيها قناديل معلقة من الرجال . انتهى من «شفاء الغرام» .

هدم المقامات الأربعـة التي كانت بالمسجد الحـامـر

لما صدرت المواقـة الملكـية بـتوسـعة المـطـاف ، وهـدم المـقامـات الـأـربعـة ، في زـمانـاـناـ ، قـامـواـ بـتفـيـد الرـغـبة الملكـية ، فـهـدمـواـ أـولـاـ «المـقامـ الحـنـبـليـ» الـذـيـ هوـ بـقـرـبـ بـئـرـ زـمـزـ ، وـذـلـكـ فيـ لـيـلـةـ الـثـلـاثـاءـ الـحادـيـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ شـهـرـ شـعـبـانـ سـنـةـ (١٣٧٧) أـلـفـ وـثـلـاثـةـ وـسـبـعـ وـسـبـعينـ هـجـرـيـةـ .

ثـمـ هـدمـواـ «المـقامـ المـالـكـيـ» الـذـيـ يـقـعـ بـيـنـ المـقامـ الحـنـبـليـ وـالمـقامـ الحـنـفـيـ ، أـيـ كـانـ مـقـابـلاـ لـظـهـرـ الـكـعـبـةـ ، وـذـلـكـ فيـ لـيـلـةـ الـأـربـاعـاءـ الثـانـيـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ شـهـرـ شـعـبـانـ مـنـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ سـنـةـ (١٣٧٧) هـجـرـيـةـ .

ثـمـ هـدمـواـ «المـقامـ الحـنـفـيـ» الـذـيـ يـقـعـ فـيـ الجـهـةـ الشـمـالـيـةـ وـيـقـابـلـ مـيزـابـ الـكـعـبـةـ ، وـذـلـكـ بـعـدـ عـيـدـ الـفـطـرـ ، أـيـ فـيـ يـوـمـ السـبـتـ الثـامـنـ مـنـ شـهـرـ شـوـالـ مـنـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ سـنـةـ (١٣٧٧) هـجـرـيـةـ .

وـكـانـ فـيـ هـذـاـ المـقامـ مـكـبـراتـ الصـوتـ المـسـمـاةـ «مـيـكـرـفـونـاتـ» ليـصـلـ إـلـىـ النـاسـ صـوتـ الـذـيـ يـقـيمـ الصـلـاـةـ ، وـيـكـبـرـ لـدـىـ حـرـكـاتـ إـلـاـمـ ، فـعـنـدـ هـدمـ هـذـاـ المـقامـ نـقـلـواـ هـذـهـ مـيـكـرـفـونـاتـ إـلـىـ المـقامـ الشـافـعـيـ الـذـيـ هوـ فـوقـ سـطـحـ بـنـاءـ بـئـرـ زـمـزـ .

أـمـاـ المـقامـ الشـافـعـيـ ، فـقـدـ تـأـخـرـ هـدمـهـ عـنـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ سـنـةـ (١٣٧٧) هـجـرـيـةـ ، لـأـنـهـ لـيـسـ لـهـ بـنـاءـ مـسـتـقـلـ وـحـدـهـ ، كـلـمـاقـمـاتـ الـأـخـرـىـ ، فـهـوـ يـقـعـ فـوـقـ بـنـاءـ بـئـرـ زـمـزـ ، فـهـدمـهـ لـاـ يـكـوـنـ إـلـاـ بـإـزـالـةـ هـذـاـ الـبـنـاءـ ، ثـمـ النـاسـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ مـنـ يـلـغـهـمـ حـرـكـاتـ إـلـاـمـ ، وـمـكـبـراتـ الصـوتـ فـوـقـ هـذـاـ الـبـنـاءـ ، فـلـاـ يـمـكـنـ إـزـالـةـ لـتـوـسـعـةـ الـمـطـافـ ، إـلـاـ إـذـاـ بـنـيـ لـكـبـرـاتـ الصـوتـ مـوـضـعـ خـاصـ ثـابـتـ ، وـلـمـ يـتـقـرـرـ ذـلـكـ لـدـخـولـ مـوـسـمـ الـحـجـ وـوـصـولـ بـوـادـرـ الـحـاجـ ، ثـمـ إـنـهـمـ هـدمـواـ «المـقامـ الشـافـعـيـ» مـعـ بـنـاءـ بـئـرـ زـمـزـ فـيـ سـنـةـ (١٣٨٣) هـجـرـيـةـ .

المزاول وال ساعات في المسجد الحرام

كان معرفة الناس بوقت الزمن وال ساعات ، في بدء الأمر ، بواسطة الشمس ، فكانوا يضعون عصاً أو نحوها في الأرض ، فإذا ظهر ظل الشمس على العصا في الأرض ، يعرفون الوقت بموجب هذا الظل طال أم قصر .

أما معرفتهم للوقت بالليل حيث لا شمس عندئذ، فلهم علامات خاصة ب بواسطة بعض الأشياء ، فبعضهم كان يعرف الوقت بواسطة الشمعة ، بأن يقسمها إلى اثنتي عشرة خانة ، ويوضع على كل خانة رقمًا خاصاً من (١-١٢) باعتبار أن الليل أثنتا عشرة ساعة وأن النهار مثله أيضًا .

بقدر احتراق المخانات في الشمعة يكون عدد الساعات ، التي مضت ، وكذلك كان يعرفون الوقت بواسطة ماعون من الزجاج كالكأس ، يقسمونه إلى أثني عشرة خانة كالشمعة ، ويضعونه تحت موضع نزول الماء ، فينزل الماء في الماعون نقطة نقطة ، فبمقدار ارتفاع الماء في خانات الماعون يكون عدد الساعات التي مضت .

و كذلك كانوا يعرفون الوقت بواسطة الساعات الرملية ، وهي من الزجاج ،
مقسم إلى قسمين ، على شكل غروط كالمخن المسمى بمصر «القمع» ، ويتصلان
بعضهما من قاعهما المستدق المخروق بثقب صغير ، فيما الأعلى منهما برمل
ناعم وبقدر مخصوص ، ثم يترك لينزل الرمل شيئاً فشيئاً إلى القسم الآخر ، فبقدر
ارتفاع الرمل في الخانات يكون عدد الساعات التي مضت ، هذا بعد تقسيم
الزجاج إلى اثنى عشرة خانة ووضع الأرقام عليها كالشمعة .

انظر: الصور أرقام ١٧٥ ، الشمس والعصا ، والصورة رقم ١٧٦ للساعة الرملية،

والصورة رقم ١٧٧ ، للساعة الشمعية .

إن معرفة الزمن والوقت أمر لازم لكل إنسان عاقل ، يدرك عوائق الأمور ، ويفهم الخير والشر ، أما الجنون والمعتوه والنائم والحيوان غير الناطق ، فهو لا يمر عليهم الزمان وهم لا يشعرون بمروره ولا بمقداره .

وإن أشد من يعنفهم مرور الزمن هو: العاشق المترقب الوعد من محبوبه ، والمترقب لبيان نتيجة الأطباء في إجراء عملية خطيرة لعزيز عليه ، والمحبوس الحبس الانفرادي في مكان ضيق محدود ، والتلامذة في نتيجة الاختبار ، والقائد الأعلى في

انتظار اللحظة الحاسمة في الحرب بإشارة الاتصار ، والموعد من سخي كريم بقضاء حاجته في موعد محدد ، والصائم في اللحظات الأخيرة عند المغرب ، والقائم بالأذان لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة ، والمتضرر لأمر بهم في وقت معين . كل هؤلاء ومن يعطف عليهم بهم معرفة الوقت والزمن . نسأل الله الكريم الملئ آن يجعلنا من ينتظرون بشائر الخير والفرح والسرور آمين .

جاء في كتاب «الرتايب الإدارية» بصحيفة ٧٨ ، من الجزء الأول ما نصه : فائدة قال الحافظ السيوطي في «التوسيع» ، في تاريخ ابن عساكر ، بسند ضعيف : إن أول من قدر الليل والنهر اثنى عشرة ساعة نوح عليه السلام حين كان بالسفينة ، وفي الإكيليل له على قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ... الْآيَة﴾ أصل في علم المواقف والميئنة والتاريخ هـ . وفيه أيضاً على قوله تعالى : ﴿وَقَدْرَةُ مَنَازِلِ﴾ أصل في علم التوقيف والحساب ومنازل القمر والتاريخ . اهـ .

وقد أخرج أبو الشيخ ، بسند فيه بجهول ، عن ابن الزبير ، قال : أخذ الأذان من أذان إبراهيم ، وأذن في الناس في الحج ، فأذن رسول الله ﷺ ، قال الشيخ زروق ، في حواشى الصحيح : لا يبعد أن يكون أحد المؤويات لرؤياهم ، حتى سكن إليها دون آرائهم المتقدمة ، إذ لا منافاة ، وسواء قلنا جاء به الوحي أم لا ، لاحتمال أن يكون الوحي ورد بعد ذلك ، مؤكداً لما عندهم من الرؤيا والنظر . اهـ .

وفي خطط مصر للتقى المقرizi ، قال أبو عمرو الكندي ، في ذكر من عرف على المؤذنين بجامع عمرو بن العاص مصر : كان أول من عرف على المؤذنين أبو مسلم سالم بن عامر بن عبد المرادي ، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ وقد أذن لعمر ، ثم عرف عليهم أخوه شرحبيل بن عامر ، وكانت له صحبة وذكر عن عثمان أنه أول من رزق المؤذنين . (زقلت) . انتهى من الكتاب المذكور .

جاء في «مجلة الوحي» ، التي تصدر بمصر ، بالقاهرة ، مقالة بعنوان : «الرسم التوضيحي في المخطوطات الإسلامية» بقلم الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد موسى المصري ، تناول فيها عدة مسائل ، كان من ضمنها مسألة التوقيف ، ولقد نقلنا ما كتبه عن هذه المسألة ، وتركنا المسائل الأخرى ، لعدم الحاجة إليها ، في كتابنا هذا . وإليك ما كتبه عن مسألة التوقيف :

وما يثبت نجاح المسلمين في العلوم الفلكية والميكانيكية ، التي بني عليها فن التوقيت بالساعات بعد المزاول ، ما تراه في الصورة الرابعة الموجودة في كتاب علم الساعات والعمل بها ، تأليف رضوان بن محمد الخراساني ، والتي تمثل دائرة ساعات الليل نظيرتها في النصف الأعلى من الدائرة ، حيث ترى قديلاً معلقاً بسلك رفيع ، وإلى اليسار ثقلان معلقان بسلك آخر ، أحدهما توسيط ارتفاع الصورة والأخر قريباً من أسفلها وهم متصلان بالسلك المرتكز على بكرة في الركن الأعلى الأيسر . وعند التقلل الأسفل تشاهد طيراً ، كان المقصود منه ، أن ينقر بمنقاره لتحديد الوقت . أما الجاري الرقيقة ، التي توسيطت الصورة ، حيث النقط البيضاء المستديرة ، فهذه كانت طريقاً لأنقال تمّ منها في أوقات معينة ، مارة بفتحة في رأس الطائر ، الذي ترى عند قدميه وعاء نصف مستدير لجمع هذه الأنقال . انتهى من المجلة المذكورة ، ومع الأسف كان غالاتها مقطوعاً ، لذلك لم نعلم تاريخ صدورها ورقم عددها .

والصورة التي تكلم عنها الأستاذ المذكور فهي تمثل دائرة الساعات . وقد نقلها من كتاب «علم الساعات والعمل بها» تأليف رضوان بن محمد الخراساني ، وهذا الكتاب موجود بدار الكتب العربية بالقاهرة .

انظر: صورة رقم ١٧٨ ، الساعة المائية

وللتوصيل إلى معرفة الزمن ، طويلاً كان أم قصيراً ، طرق عديدة ، ووسائل شتى ، منذ العصور القديمة ، فكانوا يعرفون الصبح من صباح الديكة ، ويعرفون بعض الأوقات من قيامهم ببعض الأعمال ، كالغزل والنسيج والقراءة والتسبيح ، ثم اخترع المفكرون عدة آلات لضبط الوقت ، كالساعات الرملية وتسمى بـ "المن Kapoor" وهي عبارة عن قطعتين متصلتين من الزجاج مخروطيتي الشكل ، مجوفتين ، بينهما فتحة ضيقة ، تملأ إحداهما برمل ناعم فيمر الرمل من الفتحة الضيقة ، ويسقط داخل القطعة الأخرى ، فإذا فرغت الأولى تقلب الثانية عليها ، وقد وضع علامات على كل قطعة ، فإذا وصل الرمل إلى علامة منها عرفوا الوقت بالضبط ، وفهموا منها أجزاء الزمن .

ثم استبدلوا الماء عوضاً عن الرمل في القطعتين المذكورتين ، لأن الماء أسهل جرياناً في الفتحة الضيقة من الرمل ، فتكون سرعة سيلانها مناسبة لمرور الزمن ،

وهذه الساعات الرملية أو المائية كانت معروفة قبل الميلاد ، وكانت تستعمل إلى بعد الإسلام أيضاً .

ثم توصل الفلكيون إلى اختراع المزاول ذوات الشاخص المائل ، إذ بواسطته يحصل على معرفة ساعات النهار . والمزاول هي آلات تعرف بها الساعات الشمسية الحقيقة ، بواسطة الظل المحنوف بشاشخص على سطح ، حيثما اتفق ، أي سواء كان مستوياً أو منحنياً .

وكانت هذه المزاول مستعملة ، في جميع البلدان ، إلى القرن الثاني عشر للهجرة تقريباً ، بل ولا تزال مستعملة إلى اليوم بقلة ، في بعض البلدان كمصر والهجاز ، فقد رأينا في مصر مزولة بالجامع الأزهر ومزولة على جدار جامع المؤيد بباب زويلة من جهة شارع الغورية ، وتوجد أيضاً بالمسجد الأقصى مزولة شميسitan : إحداهما في الناحية القبلية الغربية ، من مسجد الصخرة ، وثانيةهما على واجهة القنطرة ، التي في الجنوب الغربي ، من سطح الصخرة ، وكلاهما وضعتا في عصرنا الحاضر كما في تاريخ الحرم القدسي .

و كذلك توجد بمكة مزولة بمقام الشافعي ، فوق بئر زمم ، ويعمل بها اليوم رئيس المؤذنين إذا كان الوقت بالنهار صحيحاً لا غيم فيه ، وهذه صورة المزولة التي فوق بئر زمم .

انظر: صورة رقم ١٧٩ ، مزولة بئر زمم

ثم إنه حدث إنقلاب عظيم في معرفة الأوقات بالضبط والانتظام التام ، وذلك بسبب اختراع الساعات الآلية ، التي توضع في الجيب وفي المعصم وفي الحوائط والمكاتب ، وقد كثرت وتنوعت أشكالها وألوانها وأنواعها ، وزرخت أثمانها رخصاً جعلتها في متناول الغني والفقير والكبير والصغير .

وأضبط من جميع أنواع الساعات الحركات الفلكية والنقاط القلبية ، وهذه مما لا شك فيه راجع إلى خلق المولى سبحانه وتعالى ، ويخضرنا في هذا المعنى بيت من الشعر وهو :

دقّات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان
اللهم أمتنا على الإسلام ونور قلوبنا وبصائرنا وارزقنا الصحة والعافية بفضلك
ورحمتك يا رحمن يا عظيم يا حليم يا الله .

ولنذكر الآن ما جاء في التاريخ عن المزاول وال ساعات التي كانت موجودة بالمسجد الحرام ، فنقول : جاء في تاريخ الغازي ، نقلًا عن الفاسي : إن الوزير الجواد وضع مزولة ، وهي التي يقال لها ميزان الشمس ، في صحن المسجد الحرام ، بينها وبين ركن الكعبة الشامي ، الذي يقال له الركن العراقي ، ثلاثة وأربعون ذراعاً وثمان ذراع ، بنرداع الجديد . اهـ . نقول : الوزير الجواد هو جمال الدين المعروف بالوزير الجواد الأصفهاني المتوفى سنة (٥٥٩) تسع وخمسين وخمسماة وله أعمال بمحفظة بالحرمين الشريفين ذكرناها في ترجمته .

وجاء فيه أيضاً نقلًا عن الأرجح المスキكي : إن السيد بركات المغربي وضع في سنة (١٠٢٤) أربع وعشرين ألف مزولة بالبناء الخيط بيتر زمم ، وفي سقف هذا البناء قبة كبيرة ، وبهذا المثل يوزن رئيس المؤذنين للأوقات .

وجاء فيه أيضاً نقلًا عن السنجاري : إن الشيخ محمد بن سليمان المغربي صنع مزولة ووضعها في المسجد الحرام ، في محل مزولة الوزير الجواد المذكور ، حيث خربت هذه المزولة ، وقد بنى الشيخ محمد مزولته بترة ، بقدر القامة ، حيال الركن الشرقي ، على ممشى باب السلام ، وذلك في السادس ذي الحجة سنة (١٠٧٩) تسع وسبعين ألف ، وقال العصامي : وضع العلامة الشيخ محمد بن سليمان المزولة في اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة ، ثم إنه في سنة (١٠٨٤) وقع مطر في ليلة الصاف من شعبان ، فقام جماعة من العسكري فهمموا بترة المزولة ، التي بناها الشيخ محمد بن سليمان المذكور فلم يعترض على هدمها . انتهى كل ذلك من تاريخ الغازي .

نقول : إن المزولة المذكورة ، التي عملها السيد بركات المغربي ، لا زالت موجودة إلى يومنا هذا بالمسجد الحرام ، بالمقام الشافعي فوق بيتر زمم ، ولا يزال العمل عليها أيضاً إلى اليوم .

ولقد قمنا بالكشف عليها ومعرفة حقيقتها ، وكان طلوعنا إلى سطح بيتر زمم للنظر إليها ، في يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الثانية سنة ست وسبعين وثلاثمائة ألف من المجرة .

فهذه المزولة هي من الرخام المرمر الأبيض ، طولها نحو ستين سنتيمتراً وعرضها نحو خمس وأربعين سنتيمتراً ، يقسمها إلى نصفين متباينين تماماً خط الاستواء الرأسى ، فنصفها الذي على اليمين مكتوب فيه أسماء البروج الاثنى عشر ، التي

هي : السرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والحمل ،
والثور ، والجوزاء ، والجدي ، والدلو ، والحوت .

ومكتوب في النصف الذي على الشمال ما يأتي : «أذن في وضع هذه الوزير
حسن باشا ، وبأن تكون من عمل الفقير بركات السيد بن محمد الفطري التونسي
سنة (١٤٢٣) ثلاثة وعشرين ألف ، وذلك بإشارة الرئيس محمد بن أحمد» .
انتهى .

أما جوانب المزولة فمقسمة إلى ساعات ودقائق ودرجات ، ولقد اشتراك
معنا ، في نقل ما هو مكتوب بهذه المزولة ، حضرة الفاضل الختم الشيخ أسعد
حسين الرئيس ، المؤقت والمؤذن ، في المقام الشافعي ، بأعلى بتر زمز .

أما الساعات في المسجد الحرام : فلا نعلم بالضبط متى كان وضع أول ساعة
حائطية ، في المسجد الشريف ، وقد ذكر الغازى ، في تاريخه المخطوط بخط يده ،
رحمه الله تعالى ، بصحيفة (٢٥١) أنَّ السلطان عبد المجيد خان أرسل ساعات
للمسجد الحرام من الآستانة ، وإليك نص عبارته :

وفي السالنامة الحجازية : وفي سنة (١٤٥٩) تسع وخمسين ومائتين ألف ،
صدر الأمر ، من مولانا السلطان عبد المجيد خان ، بوضع كبخانة في المسجد
الحرام ، وأرسل من دار السلطنة كتب كثيرة فوضعت في القبة ، التي كانت في
المسجد ، وكانت تلك القبة تسمى سقاية العباس ، وصدر الأمر أيضاً ، من مولانا
السلطان عبد المجيد ، بوضع ساعات فلكية في المسجد الحرام ، أرسلت من دار
السلطنة ، في قبة أخرى في المسجد ، وكانت تلك القبة تسمى قبة الفراشين .
انتهى .

وقال الغازى بصحيفة (٢٥٢) : وذكر السيد أحمد دحلان في سالناته ، وفي
سنة ثلاثة وألف هدمت القبة الكائنة في المسجد ، وهما قبة الكتب وقبة
الساعات ، وذلك لتضييقهما المسجد ، وللخوف من السيل لأنَّه دخل سنة ثمان
وسبعين ومائتين ألف ، وحصل تلف في الكتب ، ووضعت الساعات بمحل عمل
لها في هواء المسجد الحرام ، بين باب علي وباب بازان ، ونقلت الكتب في القبة
المتعلقة بمدرسة السليمانية ، عند باب درية ، وهذا في إمارة الشريف عون باشا ابن
المرحوم محمد بن عون ، وولاية الوزير المفخم السيد عثمان نوري باشا . انتهى .

وباب بازان المذكور هو الذي كان يسمى بباب بني عائذ، ويسمى بباب الجنائز ثم سمي بباب الكراكون، وهو الباب الذي يلي باب علي من جهة الصفا.

وقال الغازى في صحيفة ٢٥٢ ما ملخصه : وفي سنة ألف وثلاثمائة وواحد جاء عثمان باشا بساعتين كبيرتين ، يبلغ طول الواحدة منها نحو مترين ، ووضعهما مع الساعات المنقوله من القبة ، وهما موجودتان إلى الآن ، غير أنهما غير صالحتين لعدم تعهلهما بالإصلاح وطول الزمان . قال : وفي سنة ١٣٥٢ أمر جلاله الملك المعظم عبد العزيز آل سعود بإحضار ساعة كبيرة مضبوطة ، ترى حركاتها من مسافة بعيدة ، ويسمع صوت دقاتها كل من بالمسجد الحرام ومن حوله ، وهي ذات واجهتين : إحداهما مطلة على المسجد الحرام ، والأخرى مطلة على محلة أجياد ، وتضاء ليلاً بالكهرباء .

وقد بني للساعة المذكورة قاعدة فوق دار الحكومة (الحميدية) وتم كل ذلك سنة ١٣٥٢ . انتهى من « عمارة المسجد الحرام » للشيخ باسلامة ، نقول : لقد هدمت دار الحكومة المذكورة (أي الحميدية) في سنة ١٣٧٥ (ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية لأجل توسيعة المسجد الحرام ، وإن شاء الله تعالى ، سنذكر بعد انتهاء هذه التوسعة عن عدد الساعات التي توضع في المسجد وموقع أمكتتها .

هذا ونحن قد افترحنا ، في جريدة البلاد السعودية بتاريخ ٦ صفر عام ١٣٧٦ وضع عدة ساعات كبيرة ، في كل جهة من داخل المسجد الحرام وخارجها ، وكذلك عدة ساعات كبيرة في نفس المسعي ، بين الصفا والمروة ، وفي شوارع مكة المكرمة وسidiyinها ومرافقها ، وذلك بعد الانتهاء من عمارة توسيعة المسجد الشريف ، وتوسيعة الشوارع إن شاء الله تعالى .

الساعات الكبيرة وساعة الجيب

جاء في كتاب « المختارات وليدة المصادرات » عن الساعات ما يأتي :

عند انشاق فجر التاريخ ، لم يكن للإنسان الأول مأوى ، سوى الكهوف والمغار ، ولم يكن له عمل سوى أن يطارد الحيوانات الأبدية ، وأن يولي بين يديها هارباً ، إن هي كررت عليه مهاجمة ، لذلك لم يكن به حاجة كبيرة إلى استعمال الساعات ، لإحصاء مرور الزمن ، لكن رجل الكهف هذا ، كان بالضرورة يلاحظ سير الشمس في قبة الفلك ، ويرى ظلال الأشياء كالأشجار

والصخور العالية ، وهي تمتد أو تقلص ، فكان يكتفي بأن يغرس عصاً في الأرض ، ثم يضع من حولها حصيات على مسافات معينة ، بحيث يمر عليها ظل العصا شيئاً فشيئاً ، وبذلك كان يستطيع أن يعَيِّن الوقت من النهار ، وكانت هذه أول خطوة نحو اختراع الساعة . وكانت الخطوة الثانية ، ولم تأت إلا بعد انتهاء عدة قرون ، هي صنع الساعة الشمسية ، وهي عبارة عن رقعة ترسم فيها دوائر مقسمة تقسيماً هندسياً ، وفي وسطها قضيب رفيع ، يقع ظل طرفه على هذه الدوائر ، واحدة فواحدة ، تبعاً لحركة سير الشمس ، وكان هذا هو البدء الحقيقي في عمل الساعة ، التي تطورت على مر الأجيال ، حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم .

لكن الساعة الشمسية لا يمكن أن يعرف بها إلا عدد ساعات النهار ، في حالة صفاء الجو ، أما إذا غامت السماء ، فإنها تكون عديمة الفائدة . ولما تدرج الإنسان في سلم المدنية شعر بحاجته إلى آلية تضبط الأوقات بدقة وعلى جميع الحالات ، فجاء دور الساعة المائية «سيليرا» وهي عبارة عن جرة تملأ ماء ، وله ثقب صغير في أسفلها ، بحيث ينزل منها الماء قطرة قطرة على نسب مخصوصة ، فإذا ما نفَّدَ الماء عرف مقدار الزمن ، الذي انقضى ، من حين ملئت الجرة إلى حين فرغت ، على حسب حجمها . ثم زيد في هذا الاختراع أن اختراع أن اختراع جرتان : الواحدة ، وهي ذات الثقب ، فوق أخرى أكبر منها . وجعل في الجرة السفلية عمود مقسم إلى درجات ، ويجانبه شارة (عقرب) من جسم خفيف كالفلين ، فإذا ما أخذ الماء يتجمع ، في هذه الجرة السفلية ، ويرتفع حمل الشارة معه تدريجياً وبذلك يمكن تعين الوقت .

غير أنه ظهر أن هذه الساعة المائية لا تنفع إلا في المناطق الحارة ، أما في المناطق الباردة ، التي يتجمد فيها الماء في فصل الشتاء ، فإنها تكون عديمة الفائدة أيضاً . وحيثند ظهرت الساعة الرملية ، التي لا يزال لها بقايا مستعملة إلى هذه الأيام ، وما زلنا نراها في الصورة المأخوذة عن الجيل الماضي مقرونة إلى ذلك المنجل الكبير الغليظ .

ولستا نستطيع أن نحدد بالضبط العصر الذي صنعت فيه ساعة ذات دوالib وميناء . والراجح أن ذلك كان في القرن الثاني عشر للميلاد . وقد تقدمت العلوم بسرعة ، ففي سنة ١٢٨٨ كانت قد ركبت ساعة كبيرة في أحد أبراج وستمنستر ، وفي سنة ١٣٣٦ كان رئيس دير القديس «سانت البانس» قد زَيَّن

جدارن الدبر بساعة كبيرة لا تبيّن الساعات وال دقائق فحسب بل كانت تبيّن حركات الأجرام السماوية بكل وضوح . وبعد روح طويلاً من الزمن ، اخترع الساعات ذات الرقص ، وكان السبب في ذلك أن شاباً إيطالياً يدعى « جاليليو غاليلي » كان موجوداً يوماً في كاتدرائية « بيزا » وكان المصباح الكبير المعلق في سقف الغرفة ، ينحني في فضائه رائحاً غادياً ، بعد أن تركه الخادم الذي كان ينظفه ، وكانت المسافة ، التي يقطعها في مسيره ، تتراصراً تدريجياً ، وكان جاليليو يلاحظ حركة ويفيسها على نبض يده ، وهنا اكتشف تلك الحقيقة الرائعة ، وهي أنه إذا علق جسم في الفضاء ثم جذب إلى جهة ما ، وترك يهتز ، فإن الزمن الذي يقضيه في قطع المسافات الطويلة هو عين الزمن الذي يقضيه في قطع المسافات القصيرة ، وكانت هذه الفكرة هي التي أوجت فيما بعد بالخاذ البندول .

وقد استعملت ساعات الجيب من عصر متقدم يرجع إلى القرن السادس عشر ، وفي عهد الملكة « إليزابيث » كانت صناعة الساعات قد تقدمت تقدماً عظيماً ، وصارت تصنع من التلوك ، وتعيش طويلاً . ولم تكن في غاية النقاء والإحكام فحسب ، بل كانت أيضاً آية في الرونق والجمال ، وشاع استعمالها شيئاً كثيراً حتى أن « شاكسبير » وهو يمثل دور « تشتون » في رواية « كما أحببته » عندما أراد أن ينظر إلى ساعته الشمسية لم يخرج إلا ساعة جيده . انتهى من الكتاب المذكور .

وجاءت تصريحات وافية عن « الساعة » بقلم الأستاذ أحمد عابدين نشرت في « مجلة قافلة الزيت » التي تصدر بالظهران بالمملكة العربية السعودية ، في العدد الصادر في شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة ألف ، بعنوان « قصة اختراع الساعة » وهي كما يأتي :

الساعة كما هو معروف عنها ، تبيّن لنا الوقت الذي نعمل ونسير بمقتضاه ، وقد يقال : « الوقت من ذهب » . . . ولعل قائل هذه الحكمة كان من رجال الأعمال ، الذين يقدرون قيمة الوقت ، أو الذين كانوا يشعرون لا إرادياً بقدوم هذا العصر الذري ، الذي أصبحت فيه النقطة الواحدة تساوي ألف ريالات . فرجال الأعمال اليوم هم الذين يقدرون هذه الحكمة حق قدرها . . . فإذا ما فات أحدهم موعد قيام الطائرة أو القطار ، أدى ذلك إلى إصابةه بخسارة فادحة في الأموال بما قدرت بملايين الريالات . . . ولتعلم القراء الكرام أهمية الوقت ،

نضرب هذا المثل البسيط . . . لقد أعلنت إحدى شركات التليفونات الكبيرة في أمريكا أنها تتلقى في كل يوم حوالي ٤ ألف مكالمة تليفونية يستفسر أصحابها عن الوقت ، ويعطي الوقت للسائل مضبوطاً إلى أقرب جزء من عشرين من الثانية .

كانت أول ساعة أو أول أداة استخدمها الإنسان لتعريف الوقت هي الساعة الشمسية أو المزولة . . . فقد لاحظ الإنسان أن ظله يطول ويقصر ، حسب دوران الأرض حول الشمس ، فهذا إلى احتراز الساعة الشمسية . وكانت هذه الساعة في أشكال مختلفة بالنسبة للأمم التي استخدمتها ، كالמצרים القدماء والمهدود والبابليين .

وبالرغم من أن هذه الساعة قد أفادت مخترعها ، بأن سهلت لهم معرفة الوقت ، إلا أن عملها كان يطل أثناء الليل أو أثناء احتجاب نور الشمس وراء السحب ، الأمر الذي حدا بالإنسان للتفكير باختراع آلية تبيّن الوقت في الليل والنهار . وقد وفق الإنسان ، في بادئ الأمر ، إلى ابتكار الساعة الرملية ، التي تكون من زجاجتين الصقت فوهاتها معاً ، وعيّبت إحداهما بالرمل ، بينما تركت الزجاجة الثانية فارغة . . . وكان عمل هذه الساعة يتم بترك الرمل ينساب من الزجاجة العليا إلى الزجاجة السفلية ، حتى تفرغ ، فتقلب هذه الساعة بحيث تعود الزجاجة المتلائمة بالرمل هي العليا ، وهكذا دواليك . . . وكان قياس الوقت يتم أولاً بالنظر إلى كمية الرمل الموجودة في إحدى الزجاجتين ، وبعدد المرات التي قلبت فيها هذه الساعة الرملية .

ويتقدم الزمن اخترعت الساعة المائية . ولعلها أتقن ساعة اخترعت في الزمن القديم . فقد استخدمها المصريون القدماء والصينيون واليونان والبابليون والرومانيون والعرب الذين أدخلوا عليها تحسينات جمة ، لا سيما تلك الساعة الشهيرة التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ملك الإفرنج ، وكانت هذه الساعة المائية مصنوعة من الذهب الخالص . وقد جاء في وصف المؤرخين الأوروبيين لهذه الساعة ، أنها كانت تتألف من عدة أسطوانات تملأ بالماء الذي يدير مختلف آلاتها . وكانت عندما تدق لتعلن الوقت تساقط منها إلى طست رنان كرات خاصية بعد الساعات . وعند الظهور ، كانت أبواب الأسطوانات الصغيرة للساعة تفتح دفعة واحدة ليخرج منها اثنا عشر فارساً يدورون على صفحة هذه الساعة .

وهنالك ساعات عربية أخرى لا تقل شهرة عن هذه الساعة كانت تنصب في الميادين العامة وتدار بالماء . ومن أشهر هذه الساعات ، ساعة دمشق وساعة بغداد . وقد وصف الرحالة العربي الشهير ابن جبير ، العملية العجيبة ، التي كانت تدار بها هذه الساعة ، وكيف كان بالإمكان أيضاً معرفة الوقت أثناء الليل بإضائتها .

أما الساعة الميكانيكية ، فقد ورد في الكتب العربية أن علماء العرب هم الذين اخترعوا هذه الساعة أيضاً . فقد جاء في التاريخ أن الملك الأشرف ، أحد السلاطين الأيوبيين ، أهدى ساعة آلية عجيبة إلى صديقه فردريك الثاني الإمبراطور الروماني وملك صقلية . إلا أن الساعة التي اخترعها بالمعنى المفهوم ، أي بعيناء وعقارب لم تصنع إلا في عام (١٣٦٠م) . وقد اخترع هذه الساعة هنري فيشك الهولاندي ، وقدمها إلى الملك شارل الخامس ، الذي قام بنصبها في قصره . وكانت تلك الساعة من الصخامة وثقل الوزن بمكان ، حتى أنها كانت تستغل بقوة مقدارها ٥٠٠ رطل . وكان لها عقرب واحد يبيّن الساعات فقط .

لقد أخذت صناعة الساعات وقتاً طويلاً في تطورها وتقديمها ، فكانت بطئية جداً في ارتقاها ، بل كانت تسير بسرعة السلفافة في هذا الميدان . والدليل على هذا ، هو أن عهداً طويلاً قد مضى قبل اختراع عقرين للساعة . ولعل السبب في هذا البطء يرجع إلى احتكار شركة واحدة لهذه الصناعة ، وعدم السماح لأي كان بتعلمها ، إلا تحت شروط خاصة قاسية ، منها أن يبقى الراغب في تعلم هذه الصناعة تحت التدريب لمدة خمسة أعوام . زد على ذلك أن هذه المهنة انحصرت في بعض العائلات والأسر ، وبقيت هذه العائلات لا تبوح بعكنون سرّها إلا لمن هم من نسلها ، فبقيت يتناقلها الخلف عن السلف في الأسرة الواحدة .

ولكن بالرغم من هذا ، ظهر أناس آخرون فكّروا في اختراع ميزان الزمن ، وإدخال التحسينات عليه . ففي نفس الوقت الذي اكتشفت فيها أمريكا أبي في عام (١٤٩٢م) ، ظهر مخترع فنان يدعى ليوناردو دا فينشي اخترع الساعة ذات البندول ، ولكن لسوء حظ هذا الفنان ، لم يقبل أحد على استعمال هذه الساعة ، فبقيت تغطّ في سبات عميق ، وعندما جاء العالم الشهير غاليليو سنة (١٥٨٧م) ، لاحظ حركة إحدى الثريات المعلقة في سقف الكنيسة ، كما لاحظ حركتها بالنسبة لنبرضات قلبه ، فجلب هذا التوافق نظر العالم إلى البندول فأولاً له عناية

كبيرة ، وبالرغم من هذا ، فقد سار الاختراع ببطء ، ولم يقدر لساعة البندول أن ترى وجه النور قبل مضي خمسين سنة من ذلك التاريخ ، وذلك عندما جاء كريستان هوجنزي الهولاندي واستعمل البندول ، لأول مرة في ساعة ثقيلة ، تعبأ مرة كل عدة أشهر . وهكذا وجدت ساعة البندول لأول مرة ، وشاء استعمالها في العالم .

بقيت هذه الساعة الوحيدة التي تستعمل لمعرفة الوقت حتى قام بيتر هتلن ، وكان صانع أقفال ، واختراع الزنبرك ، وكانت هذه أول ساعة يد اختراعت ، وكان طوها ، في أول الأمر ، يبلغ ست بوصات ، ويبلغ ثمنها بالعملة الحالية حوالي ١٥٠٠ دولار ، وكانت جميع أجزائها مصنوعة من الحديد .

ومنذ اختراع هذه الساعة ، أخذت صناعة الساعات في التقدم والتحسين ، إلى أن أصبحت على ما هي عليه اليوم من تعدد في الأنواع والأحجام ، إذ ما أن أطل القرن الثامن عشر ، حتى كانت صناعة الساعات قد تقدمت ، وانتقل مركز صناعتها من ألمانيا إلى إنكلترا ومنها إلى سويسرا ، التي تعتبر اليوم من أشهر بلاد العالم في صنع الساعات ، وأنيراً انتقلت صناعة الساعات إلى أمريكا ، وقد أخذ مهارة صناع الساعات في التفنن في عملهم هذا ، فاخترعوا ساعات الحائط واليد والجيب ، والساعات ذات الأجراس المنبهة والساعات الكهربائية والآوتوماتيكية ، والساعة الكبيرة والصغيرة ، وغيرها من الساعات ، التي أخذت تغزو مختلف حقول الأعمال الفنية ، كما أدخلوا عليها فن الترصيع والتجميل بالجواهر والأحجار الكريمة ، وصنع الأغلفة من الذهب وغيره من المعادن الثمينة .

ومن أغرب الساعات التي اختراعت ، في العصر الحديث ، تلك الساعة الصغيرة ، التي قام صانعها باتخاذ نصف حبة لؤلؤ كقاعدة لها ، ثم قام بترصيعها بالأحجار الكريمة والجواهر . ولكي يرى الإنسان هذه الساعة ، كان لا بد له من استعمال النظارة المكيرة . أما أضخم الساعات التي اختراعت ساعة «بيج بن» الشهيرة ، الموجودة فوق مدخل دار البرلمان البريطاني في لندن . لقد بدأت هذه الساعة في الدوران سنة (١٨٥٨م) ، أي قبل مئة سنة . وتقدر قوة دقات هذه الساعة بـ ٤٠٠ رطل ، ويبلغ طول عقرب العقارب فيها ١٤ قدماً . وهي ذات أربعة وجوه : قطر كل منها $\frac{1}{2}$ ٢٢ قدماً . والغريب في هذه الساعة أنها لم توقف عن العمل ، منذ أن بدأت بالدوران ، كما أنها ظلت تشغّل تحت وطأة

الغارات الجوية ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولم تقف إلا مرة واحدة لمدة ثانية ونصف فقط .

وهنالك ساعتان أخريان ، تم اختزاعهما في عصرنا الحاضر ، أولاهما : الساعة الذرية التي تعمل بالطاقة الذرية والتي تضبط الوقت بدقة متناهية ، إذ هي لا تقلم أو تؤخر أكثر من ثانية كل ثلاثة سنوات ، وال الساعة العجيبة ، التي لا يزيد حجمها عن ساعة اليد العادية ، غير أنها تملك من الصفات ما يؤهلها للتربيع على عرش الساعات . وإليك المميزات التي تجعل من هذه الساعة أujeوبة فريدة في نوعها : فهي أولًا تستغل تلقائياً (أوتوماتيكياً) أي لا تحتاج إلى تعبئة باليد ، ولا تؤثر عليها الهرات والماء والمناطق ، وباستطاعتها أن تحمل المسائل الجبرية ، ومسائل حساب المثلثات ، كما أنها تعطيك تاريخ اليوم واسم الشهر والسنة التي أنت فيها ، وتبين موعد طلوع الشمس وغروبها ، وتولي بروج التحوم والحركة الشمسية .

وإذا كنت راكباً في طائرة أو في سيارة ، فتعطيك سرعة الطائرة والسيارة ، التي أنت فيها ، وحتى سرعة الحصان يمكنها أن تبينها لك إذا كنت ممتطياً ظهره . وإذا سمعت بأي انفجار قريب أو بعيد فانتظر إليها لتعطيك المسافة التي بينك وبين مكان الانفجار . وفيها جهاز خاص يبين مقدار الضغط الجوي ، ولا تننس أيضًا أنها تعطيك الوقت بجميع اللغات . وبالإضافة إلى كل ما ذكر ، فهي متينة تواظبك من نومك في الصباح إذا أردت ذلك . فهي خادم مطيع تعمل ما تؤمر به . وت تكون هذه الساعة من ٩٠ زنيرك و ١١٠ دواليب و ٧٠ حجراء و ٤٣٠ برغيناً و ١٢٠ قطعة أخرى مختلفة . أو لا تعد بعد هذا من أعجب الساعات ؟ .

كيف تعمل الساعة ؟ إذا أخذنا ساعة يد أو ساعة جيب وفتحناها ، لوجدنا أنها تتركب من زنيرك ينكمش على وسطه عند تعبتها سواء باليد أو أوتوماتيكياً . وينحل الزنيرك شيئاً فشيئاً ، بوساطة حركة الرصاص ، الذي يحرك مطرقة الساعة يميناً ويساراً ، ليضرب أسنان أحد الدواليب ، الذي يدور بقية دواليب الساعة ، التي تدير بحر كتها العقارب دورة منتظمة ، تبين لنا الوقت في الليل والنهار . والآن بقي أيها القارئ الكريم سؤال واحد هو : كم الساعة الآن من فضلك ؟ انتهى من المجلة المذكورة .

وجاء في مجلة «الملال» الصادرة بالقاهرة في ١٣ ذي القعده سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبعين وسبعين من المحررة ، أي في أول يونيو سنة (١٩٥٨)

ميلادية ، أنهم اخترعوا في عامنا هذا ساعة تقوم فيها ذنبة ذرية (بفتح الذالات المعجمة كلها) من معدن كيسوم وهو «معدن أبيض فضي» ، مقام حركة البندول ، وتسمى هذه الساعة «الساعة الذرية» ، بفتح الذال ، وهي أحدث ساعة في العالم ، تتشي بدقة بالغة جداً ، وقد عملت لقياس سرعة بعض الأشياء ، حتى أنهم قاسوا بواسطتها سرعة الدوران الأرضية . انتهى من مجلة «المحلل» .

وضع المزولة في مكانها الجديد

قلنا أن المزولة ، التي تعرف بها الأوقات ، كانت في المقام الشافعي ، بأعلى بنية زرم زرم القديمة ، من عهد الدولة التركية العثمانية ، فلما هدمت هذه البناء ، لتوسيع المطاف ، جعلوا هذه المزولة الرخامية ، فوق قاعدتين صغيرتين ينوهما في أرض المسجد الحرام ، عند مدخل زرم ، على ارتفاع قامة واحدة تقريباً ، وذلك في سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية ، على أن هذه المزاول لمعرفة أوقات الصلوات قد أصبحت في هذا العصر لافائدة لها لعدم العمل بها ، بسبب احتراع الساعات وكثرتها في عصرنا الحاضر ، وعظمت رخصتها ، ودقة سيرها ، وضبط موازينها ، مع انتشار التقاويم والتبيّحات الزمنية ، لمعرفة أوقات الصلوات على الساعات المختبرة . لكن من اللازم أيضاً أن يكون في كل زمان رجال يعرفون اصطلاحات هذه المزاول ورموزها ، احتياطاً في الأمر ، فلو حصل خراب في الساعات أو لم يكن عند أحدهم ساعة رجع إلى هذه المزاول لمعرفة الوقت ، وهكذا أمور الدنيا لا تبقى على حال . فسبحان الذي يكور الليل على النهار ويكون النهار على الليل ، لا إله إلا هو العزيز القهار .

ما قيل في وصف آلات التوقيت

وما يناسب هذا المبحث الطريف ، أن نذكر ما قيل في وصف آلات التوقيت قديماً وحديثاً ، فمن تلك الآلات : الأصطراكب والمزولة والطرجهارة ، والبنكام ، والساعات المستعملة في عصرنا هذا .

ولقد وصف بعض الأدباء والشعراء هذه الآلات التوقيتية قديماً وحديثاً . فمن ما كتب أبو الفرج في وصف اصطراكب يقول :

آثرتك ، أيدك الله ، ببرهان الحكمة ونبيها ، ومدار الفلسفة وقطبها ، ومرشد الفكر ومناره ، وميزان الحسن ومعياره ، ونافى الشك ومزيله ، وشاهد الأثير ودليله ، مصور الحكمـة ومثلها ، ومقسم البروج ومعدتها ، و موقف التحـorum ومسيرها ، وجامـع الأقالـيم ومديـرها ، مرأة الحـبك ، وصورة الفـلك ، وأمـين الكـواكب ، وحدـ المـشارق والمـغارـب ، مما اخـرـعت العـقول تـسـطـيـعـه ، وأتقـن الحـساب تـصـحـيـحـه ، وتمـارت الفـطـنـ في تـرـتـيـبـه ، واصـطلـحـتـ الحـكمـاءـ عـلـىـ تـرـكـيـه فأوضـحتـ بالـنقـشـ تقـسيـمهـ ، وأـبـانـتـ بـالـكتـابـةـ رسـومـهـ ، إـلـىـ أنـ شـافـهـاـ بـالـارـفـاعـ عـلـىـ بـعـدـ مـسـافـةـ ، وـحـصـرـ مـتـفـرـقـ الـأـمـورـ فيـ خـرـقـيـ عـضـادـتـهـ ، وـاحـتـوىـ عـلـىـ قـطـرـيـ الشـمـالـ وـالـخـنـوبـ ، وـاطـلـعـ بـالـلـطـفـ عـلـىـ خـفـيـاتـ الـغـيـوبـ ، الـلـقـبـ بـالـاـصـطـلـابـ ، الـفـاـصـلـ بـيـنـ الـخـطـأـ وـالـصـوـابـ . اـتـهـيـ مـنـ نـهـاـيـةـ الـأـربـ .

وقـالـ أبوـ طـالـبـ الـمـأـمـونـيـ فـيـ الـاـصـطـلـابـ :

وـشـيـهـ بـالـشـمـسـ يـسـتـرـقـ الـأـنـ سـوـارـ مـنـ نـورـ جـرـمـهـاـ فـيـ خـفـاءـ
فـتـرـاهـ أـدـرـىـ وـأـعـلـمـ مـنـهـاـ وـهـوـ فـيـ الـأـرـضـ بـالـذـيـ فـيـ السـمـاءـ
وـقـالـ أـيـضاـ فـيـ مـزـوـلـةـ :

وـعـالـمـ بـالـغـيـبـ مـنـ غـيـرـ مـاـ سـمـعـ وـلـاـ قـلـبـ وـلـاـ نـاظـرـ
يـقـابـلـ الشـمـسـ فـيـأـتـيـ بـمـاـ ضـمـنـهـاـ مـنـ خـرـ حـاضـرـ
كـأـنـهـاـ نـاجـتـهـ لـمـاـ بـدـاـ لـعـيـنـهـاـ بـالـفـكـرـ وـالـخـاطـرـ
وـأـهـمـهـ عـلـمـ مـاـ يـحـتـويـ عـلـيـهـ صـدـرـ الـفـلـكـ الدـائـرـ
انتـهـيـ مـنـ نـهـاـيـةـ الـأـربـ .

قالـ أبوـ الفتـحـ كـشـاجـمـ فـيـ وـصـفـ طـرـجـهـارـةـ :

روحـ منـ المـاءـ فـيـ جـسـمـ الصـفـرـ مؤـلـفـ بـلـطـيفـ الـحـسـنـ وـالـفـكـرـ
لـهـ عـلـىـ الـظـهـرـ أـجـفـانـ مـحـجـرـةـ وـمـقـلـةـ دـعـمـهـاـ جـارـ عـلـىـ قـدـرـ
تـشـائـلـهـ حـرـكـاتـ فـيـ أـسـافـلـهـ كـأـنـهـ حـرـكـاتـ المـاءـ فـيـ الشـجـرـ
وـفـيـ أـعـالـيـهـ حـسـابـ مـفـصـلـةـ لـلـنـاظـرـيـنـ بـلـاـ ذـهـنـ وـلـاـ نـظـرـ
إـذـ بـكـىـ دـارـ فـيـ أـحـشـائـهـ فـلـكـ خـافـيـ الـمـسـيرـ وـإـنـ لـمـ يـكـ لمـ يـدرـ
وـخـرـجـ لـكـ بـالـأـجـزـاءـ أـلـطـفـهـاـ مـنـ النـهـارـ وـقـوـسـ الـلـيـلـ فـيـ السـحـرـ
مـتـرـجمـ عـنـ مـوـاقـيـتـ يـخـبـرـنـاـ عـنـهـاـ فـيـوـجـدـ فـيـهـاـ صـادـقـ الـخـيـرـ

تُقضى به في وقت الوجوب وإن غطى على الشمس أو غطى على القمر
وإن سهرت لأسباب تورقني عرفت مقدار ما ألقى من السهر
محمد كل ميقات تخميره ذرو التخمير لأسباب والسفر
انتهى من نهاية الأرب.

ومن المستطرف ذكر ما يأتي في الساعة :

قال إسماعيل صيري في الساعة :

كم ساعة آلمي منها وأزعجتني يدها القاسية
فتشتت فيها جاهداً لم أحد هنيهة واحدة صافيه
وكم سقتني المر أخذ لها فرحة أشکوها إلى التاليه
ل الساعة أخرى وبهي ما يه فأسلمتني هذه عنوة
ويحک يا مسکين هل تشتكی جارحة الظفر إلى ضاربه
حاذر من الساعات ، ويل من يأمن تلك الفئة الطاغيه
وإن تجد من بينها ساعة جعبتها من غصص خاليه
فالله بها هو الحکيم الذي لم ينسه حاضره ماضيه
وامرح كما يمرح ذو نشوة في قلة من تحتها الهاويه
فهي وإن بشرت وإن داعبـت مختالة ختاله عاديه
هذا هو العيش فقل للذى تجرحه الساعة والثانية
يا شاكى الساعات اسمع عسى تنجيك منها الساعة القاضيه

قال الشاعر العراقي الأستاذ معروف الرصافي المتوفى في زماننا ، رحمه الله تعالى في الساعة :

سوى صوت عرق نابض بخشها وخرسأه لم ينطق بحرفٍ لسانها
لتفصح إلا بالزمان لفاهما حكت لهجة التمام لفظاً ولم تكون لها ضربان في الحشا قد حكت به
وابانت مواقيت الورى بعماها حرّت حركات الدهر في ضربانها
بها الناس في أوقاتها لمنهاها على وجهها خطّت علامٌ تهتدى
مشت بين آنات الزمان تقىسها وما هو إلا مَشِيْها وخطّها

بها يتناقض الناسُ ما يعودونه ويرشدُ ضلالَ الزمان هداها
غدتْ كأغني الإيمان تأكل في معىٰ وما أكلُها إلا التّواء معاها
تدورُ عليها عقربٌ دور حائر بيتهاء غمتْ في الظلام صواها
تريـك مكانـ الشـمـسـ فـي دـورـانـهاـ إـذـاـ حـجـبـتـ عنـكـ الغـيـومـ ضـيـاهـاـ
فـأـعـجـبـ بـهـاـ مـصـحـوـبـةـ جـاءـ صـعـبـهـاـ نـيـجـةـ أـفـكـارـ السـورـىـ وـجـاهـاـ
بـتـهـاـ النـهـىـ فـتـمـ عـلـىـ مـرـ الزـمـانـ بـنـاهـاـ

المسعى وما يتعلّق به

جاء في تاريخ الغازى صحيفة ٣٨٨ ، نقلًا عن الأزرقى :

لما بني المهدى المسجد الحرام ، وزاد الزيادة الأولى في المسجد الحرام ، وذلك حينما حج في سنة (١٦٠) للهجرة ، اتسع أعلى المسجد وأسفله وشقه الذي يلي دار الندوة الشامي ، وضاق شقه الياني الذي يلي الوادي والصفا ، فكانت الكعبة في شق المسجد ، وذلك أن الوادي كان داخلًا لاصقاً بالمسجد ، في بطん المسجد اليوم ، قال -أي الأزرقى- : وكانت الدور وبيوت الناس من ورائه في موضع الوادي اليوم ، إنما كان موضعه دور الناس ، وإنما كان يسلكه من المسجد إلى الصفا في بطن الوادي ، ثم يسلك في زقاق ضيق حتى يخرج إلى الصفا من التفاف البيوت ، فيما بين الوادي والصفا ، وكان المسعى في موضع المسجد الحرام اليوم ، وكان باب دار عباد بن جعفر عند حدركن المسجد الحرام اليوم ، عند موضع المثارة الشارعة ، في نحو الوادي فيها علم المسعى ، وكان الوادي يمر دونها في موضع المسجد الحرام اليوم . . . ثم قال الأزرقى ، بعد أن ذكر شيئاً يتعلّق بالزيادة في هذا الجانب : فابتداوا عمل ذلك في سنة سبع وستين ومائة ، واشتروا الدور وهدموا أكثر دار ابن عباد بن جعفر العابذى ، وجعلوا المسعى والوادي بينهما . انتهى .

قال الغازى في صحيفة ٣٧٨ ، نقلًا عن الإعلام للقطبي ، ونلخصه هنا :

وهذه الزيادة الأولى للمهدى في أعلى المسجد ، وكذلك في أسفله ، إلى أن انتهى به إلى باب بنى سهم ، ويقال له الآن باب العمرة ، وإلى باب الخياطين ويقال له الآن باب إبراهيم ، وكذلك زاد من الجانب الشامي إلى متنه الآن ، وكذلك

زاد في الجانب اليماني أيضاً إلى قبة الشراب ، وتسمى الآن قبة العباس ، وإلى حاصل الزيت . وكان بين جدار الكعبة اليماني وجدار المسجد الحرام ، الذي يلي الصفا ، تسعه وأربعون ذراعاً ونصف ذراع و كان ما وراءه مسيل الوادي . فهذه الزيادة كلها الريادة الأولى للمهدي .

ولما حجَّ المهدى أيضًا في عام أربع وستين ومائة شاهد الكعبة ليست في وسط المسجد ، بل في جانب منه ، ورأى المسجد قد اتسع من أعلى وأسفله ومن جانبه الشامي وضاق من الجانب اليماني الذي يلي مسيل الوادي ، فلما رأى المهدى تربيع المسجد الحرام ليس على الاستواء ، ورأى الكعبة الشريفة في الجانب اليماني من المسجد ، جمع المهندسين ، وقال لهم : أريد أن أزيد في الجانب اليماني من المسجد لتكون الكعبة في وسط المسجد . فقالوا له : لا يمكن ذلك إلا بأن تهدم البيوت ، التي على حافة المسيل ، في مقابلة الجدر اليماني من المسجد ، ويقلل المسيل إلى تلك البيوت ، ويدخل المسيل في المسجد كما قدمناه . ومع ذلك فإن وادي إبراهيم له سبُول عارمة ، وهو واد حدور ، تخاف إن حوَّلناه عن مكانه أن لا يثبت أساس البناء فيه على ما نزيد من الاستحکام ، فتنهَّب به السبُول أو تعلو السبُول فيه ، فتصب في المسجد ، ويلزم هدم دور كثيرة ، وتكمير المؤونة ، ولعل ذلك لا يتم . فقال المهدى : لا بد أن أزيد هذه الزيادة ، ولو أنفقت جميع بيوت الأموال . وصمم على ذلك وعظمت نيتها واشتدت رغبته ، فهنس المهندسون ذلك بحضوره ، وربطوا الرماح ونصبوها على أسطح الدور ، من أول الوادي إلى آخره ، وربعوا الوادي من فوق الأسطح ، وطلع المهدى إلى جبل أبي قبيس وشاهد تربيع المسجد ، ورأى الكعبة في وسط المسجد ورأى ما يهدِّم من البيوت ، ويجعل مسيلاً ملائلاً للسعى وشخصوا له ذلك بالرماح المربوطة من الأسطح ، وزوَّنوا له ذلك مرة بعد أخرى حتى رضي به ، ثم توجه إلى العراق وخلف الأموال الكثيرة ، لشراء هذه البيوت والصرف على هذه العمارة العظيمة .

وهذه هي الريادة الثانية للمهدى في المسجد الحرام .

قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد في حوادث سنة سبع وستين ومائة ما ملخصه : فيها هدمت الدور التي اشتريت لتوسيعة المسجد الحرام ، والزيادة فيه الريادة الثانية للمهدى ، فهدموا أكثر دار محمد بن عباد ، وجعلوا المسعي والوادي فيها ، وهدموا بين الصفا والوادي من الدور ، وحرفوا الوادي في موضع الدور

حتى أوصلوه إلى مجرى الوادى القديم في الأجياد الكبير ، وهو الآن الطريق الذى يمر منه إلى دور السادة الأشراف أمراء مكة المشرفة ، وابتدأوا من باب بنى هاشم ، من أعلى المسجد ، ويقال له الآن باب علي ووسع المسجد منه إلى أسفل المسجد . . . (ثم قال بعد ثلاثة أسطر) : فكان من جدر الكعبة إلى الجدر اليماني من المسجد المتصل بالوادى تسعه وأربعون ذراعاً ونصف ذراع ، فلما زيدت هذه الزيادة الثانية فيه ، صار من جدر المسجد أولاً إلى الجدر الذي عمل آخرأ ، وهو باق إلى اليوم ، تسعون ذراعاً ، فاتساع المسجد غاية الاتساع ، وأدخل في قرب الركن اليماني من المسجد في أسفله دار أم هانى ، ويقال الآن للباب الذى فتح هناك باب أم هانى ، لأن دارها كانت بقرب ذلك الباب ، داخل المسجد الحرام الآن ، ومن هذا الباب ، يدخل أمراء مكة إلى المسجد ، سادتنا الأشراف آل الحسن بن علي بن أبي طالب . وكانت عند دار أم هانى ، بئر جاهلية ، حفرها قصي بن كلاب ، أحد أجداد النبي ﷺ ، فأدخلت أيضاً تلك البئر في المسجد الحرام ، وحفر المهدي عوضها بئراً خارج الحزورة ، يغسلون عندها الموتى من الفقراء . واستمر البناء والمهندسوں في بناء الزيادة ، ووضع الأعمدة الرخام ، وتسقيف المسجد بالخشب الساج ، المنقوش بالألوان نقرأ في نفس الخشب ، كما أدركاه ، وكان في غاية الزخرفة والإحكام ، باقاً فيه لون الازورد في غاية الصفا والرونق بالنسبة إلى لازورد هذا الزمان .

واستمر عملهم إلى أن توفي المهدي لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة ، قبل أن تتم عمارة المسجد على الوجه الذي أراده ، وعقد الأمر لولده موسى الهادي وكان إكمال المسجد الحرام أول شيء أمر به الهادي ، وبادر الموكلون بذلك إلى إتمامه ، إلى أن اتصل بعمارة المهدي ، وبنوا بعض أساطين الحرم الشريف من جانب باب أم هانى بالحجارة ثم طليت بالجلص .

وكان العمل في خلافة الهادي دون العمل في خلافة المهدي في الاستحكام والزيينة والاهتمام ، لكن كملت عمارة المسجد الحرام على هذا الوجه الذي كان باقاً إلى هذه الأيام ، وما زيد بعد ذلك إلا الزياداتان كما نشرحهما إن شاء الله تعالى .

وهذه أساطين الرخام جلبها المهدي من بلاد مصر الشام وأكثراً منها مجلوب من بلاد أheim من أعمال مصر ، وهي بلدة خراب الآن من بلاد مصر القديمة ،

كثيرة الرخام ، يجلب منه إلى مصر وإلى غيرها من البلدان الرخام العظيم ، والأعمدة اللطيفة المنحوتة المخروطة من الرخام الأبيض ، يقال إن أكثر رخام المسجد الحرام بجلوب منه والله تعالى أعلم . انتهى من الغازي ناقلاً عن ابن فهد .

وفي تاريخ القطبي بصحيفة (٩٨) : وأمر المهدي بالأساطين فنكلت من مصر ومن الشام وحملت بحراً إلى قرب جدة ، في موضع كان في أيام الجاهلية ساحلاً لملكة ، يقال لها : الشعيبة ، فجمعت هناك ، لأن مرساه قريب بخلاف بندر جدة ، لأن مرساه ، التي تقف في السفينة بعيدة من البتر ، وصارت أساطين الرخام تحمل منها على العجل . وتحاكى العربان أن بها بقاياً أساطين رخام دفنهما الريح بالرمل . والله أعلم بحقيقة ذلك .

قال الغازي في صحيفة (٣٨٩) : والظاهر والله أعلم ، إجزاء السعي بموضع السعي اليوم ، وإن كان تغير بعضه عن موضع المسعى قبله ، لتوالي الناس من العلماء وغيرهم على السعي بموضع المسعى اليوم ولا خفاء في توالיהם على ذلك ، كما لا خفاء في شهرة كتاب الأزرقي شرقاً وغرباً ، وإحاطة العلماء المتأخرین عنه بما فيه سيما علماء الحرم ، ولو سلم أن من تأخر عن الأزرقي لم يعلموا بما في كتابه فهو معروف عند علماء الحرم وغيرهم ، من وقع ذلك التغير في زمانه ، لمشاهدتهم له ، وما حفظ عن أحدٍ منهم إنكار ذلك فيكون إجراء السعي ، بمحل المسعى اليوم ، بمعناه عليه عند وقوع التغير في زمانه ، وعند من بعدهم ، والله تعالى أعلم . انتهى .

وقال العلامة القطبي في الإعلام بعدهما ذكر تحويل المسعى عن موضعه وهنـا إشكال عظيم ما رأيت من تعرض له : وهو أن السعي بين الصفا والمروة من الأمور العبادية التي أوجبها الله تعالى علينا ، في ذلك محل المخصوص ، ولا يجوز لنا العدول عنه ، ولا تعتبر هذه العبادة إلا في ذلك المكان المخصوص ، الذي سعى رسول الله ﷺ فيه ، وعلى ما ذكره هؤلاء الثقات أدخل ذلك المسعى في الحرم الشريف ، وحول المسعى إلى دار ابن عباد كما تقدم ، وأن المكان الذي يسعى فيه الآن فلا يتحقق أنه بعض من المسعى الذي سعى فيه رسول الله ﷺ أو غيره فكيف يصح السعي فيه وقد حول عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات .

ولعل الجواب عن ذلك أن المسعى في عهد رسول الله ﷺ كان عريضاً وبنـت تلك النور بعد ذلك في بعض عرض المسعى القديم ، فهدمها المهـدي ،

وأدخل بعضها في المسجد الحرام ، وترك بعضها للسعى فيه ، ولم تحول تحويلًا كلًّا ، وإنما لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين ، رضوان الله عليهم أجمعين مع توفرهم إذ ذاك ، فكان الإمام أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، رضي الله عنهم ، والإمام مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، موجودين بمكة يومئذ ، وقد أقرروا ذلك وسكتوا عليه ، وكذلك من صار بعد ذلك الوقت في مرتبة الاجتهاد ، كالأمام الشافعي وأحمد بن حنبل وبقية المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين فكان إجماعاً منهم ، رضي الله عنهم ، على صحة السعي من غير نكير نقل عنهم .

قال : وبقي الإشكال في جواز إدخال شيء من المسعي في المسجد الحرام ، كيف يصير ذلك مسجداً ، وكيف يصير حال الاعتكاف فيه . وحله بأن يجعل حكم المسعي حكم الطريق العام ، وقال علماً : يجوز إدخال الطريق في المسجد إذا لم يضر ب أصحاب الطريق فيصير مسجداً ويصبح الاعتكاف فيه ، حيث لم يضر بمن يسعى ، فاعلم ذلك . قال القطبي : وهذا ما تفرد بيانيه والله الحمد على التوفيق لتبينه . اهـ .

أصل السعي وحكمته

لم نفهم حكمة معقولة في السعي ، مع أن السعي والمشي الطويل بين الصفا والمروءة متعب جداً ، حتى أن كثيراً من الناس بمكة يحبون أن يأتوا بعمره في رمضان أو غيره ، لكن يتقاусون عنها لأجل تعب السعي ، كما لم نفهم الحكمة في رمي الجمار ، والفلسفه في بعض الأمور الدينية ، بدون استناد إلى نص أو دليل ، لا تبني .

ونرى أن مسألة السعي ورمي الجمار ونحوهما أمر تعبدى ليس للعقل فيه مجال ، فلقد سئل رسول الله ﷺ عن رمي الجمار ، فقال : «الله ربكم تكبرون وملائكة ربكم إبراهيم تتبعون ووجه الشيطان ترمون» . وهذا قال بعضهم عن رمي الجمار : لو كان قصد بالرمي النكارة لجاز بخوض النشأب ، أو الإهانة لجاز بخوض البعر ، أو الإكراام لجاز بخوض النقد ، فلم يبق إلا التبعيد المخصوص واتباع النص .

أما أصل السعي : فسببه أم إسماعيل «هاجر» ، وذلك حينما سعت ، ومشت بين الصفا والمروءة ، حينما خافت على ولدتها إسماعيل أن يموت من الجوع والعطش .

فقد روى الإمام الأزرقي في تاريخه ، عن سعيد بن جبير ، قال : حدثنا عبد الله بن عباس أنه حين كان بين أم إسماعيل بن إبراهيم وبين سارة امرأة إبراهيم ما كان قبل إبراهيم عليه السلام ، بأم إسماعيل وإسماعيل وهو صغير ترضعه حتى قدم مكة ، ومع أم إسماعيل شنة فيها ماء تشرب منها وتدر على ابنها ، وليس معها زاد ، يقول سعيد بن جبير : قال ابن عباس : فعمد بهما إلى دوحة فوق زمزم ، في أعلى المسجد ، يشير لنا بين البئر وبين الصفة ، يقول فوضعهما تحتها ، ثم توجه إبراهيم ، خارجاً على دابته ، وابتعدت أم إسماعيل أثره ، حتى أوفى إبراهيم بكداء يقول ابن عباس : فقالت له أم إسماعيل : إلى من تتركها وابنها ؟ قال : إلى الله عز وجل . قالت : رضيت بالله .

فرجعت أم إسماعيل تحمل ابنها ، حتى قعدت تحت الدوحة ، فوضعت ابنها إلى جنبها ، وعلقت شتها تشرب منها وتدر على ابنها ، حتى فني ماء شتها ، فانقطع درّها ، فجاء ابنها ، فاشتد جوعه حتى نظرت إليه أمه يتشرط ، قال : فحسبت أم إسماعيل أنه يموت ، فأحزنها ، يقول ابن عباس : قالت أم إسماعيل : لو تغييت عنه حتى لا أرى موته . يقول ابن عباس : فعمدت أم إسماعيل إلى الصفا ، حين رأته مشرقاً تستوضح عليه ، أي ترى أحداً بالوادي ، ثم نظرت إلى المروءة ثم قالت : لو مشيت بين هذين الجبلين تعللت حتى يموت الصبي ولا أراه . قال ابن عباس : فمشت بينهما أم إسماعيل ثلث مرات أو أربع ولا تجيز بطن الوادي في ذلك إلا رثلاً ، يقول ابن عباس : ثم رجعت أم إسماعيل إلى ابنها ، فوجده ينشغ كما تركه ، فأحزنها ، فعادت إلى الصفا تعلل حتى يموت ولا تراه ، فمشت بين الصفا والمروءة كما مشت أول مرة ، يقول ابن عباس : حتى كان مشيها بينهما سبع مرات .

قال ابن عباس : قال أبو القاسم ﷺ : فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروءة ، قال : فرجعت أم إسماعيل تطالع ابنها فوجده كما تركه ينشغ ، فسمعت صوتاً قد آب عليها ، ولم يكن معها أحد غيرها ، فقالت : قد أسمع صوتك فأغتنى إن كان عندك خير . قال : فخرج لها جبريل عليه السلام فاتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر ، يعني زمزم ، ظهر ماء فوق الأرض حيث فحص جبريل ، يقول ابن عباس : قال أبو القاسم ﷺ : فحاضته أم إسماعيل بتراب ، ترده خشية أن يفوتها

قبل أن تأتي بثتها ، فاستقت وشربت ودرت على ابنها . انتهى من الأزرقى ، ومعنى ينشغ أي : يشيق حتى يكاد يغمى عليه ، فهذا هو أصل السعي .

بناء العقددين بالصفا والمروة

جاء في تاريخ الغازي ما نصه : وذكر الحب الطبرى أن العقد الذى بالمروة جعل علماً لحد المروة ، ثم قال : فينبغي للساعي أن يمر تحته ويرقى على البناء المرتفع . انتهى . والعقد الذى بالمروة الآن جدد في آخر سنة إحدى وثمانين أو في التي بعدها بعد سقوطه ، وعمارته هذه من قبل الملك الظاهر برقوق ، واسم مكتوب بسبب هذه العمارة في أعلى بناء العقد ، وفي الصفا أيضاً ، وما أظن أن عقد الصفا بين ، وإنما أظن أنه نور وأصلح .

وكان بالمروة خمس عشرة درجة ، على ما ذكر الأزرقى ، وليس بها الآن غير واحدة ، ومن تحت هذا العقد إلى أول درجة الدكة ، التي بالمروة داخل العقد ، سبعة أذرع ، ومن تحت العقد إلى الجدر الذي يستدبره مستقبل القبلة ، ثمانية عشر ذراعاً وثلثاً ذراع ، كل ذلك بنراغ الحديد . كذا في شفاء الغرام . انتهى من تاريخ الغازي .

نقول : لم نقف على من بني العقد الذى بالصفا والعقد الذى بالمروة ، والظاهر ، والله تعالى أعلم ، أن العقددين ، بالصفا وبالمروة ، بنيا لأول مرة بعد بناء عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، عامل مكة من قبل أبي جعفر المنصور ، درج الصفا ودرج المروة ، وليس كما يظن الشيخ حسين باسلامة ، رحمة الله تعالى ، مؤلف «تاريخ عمارة المسجد الحرام» أن الذي بناهما هو باني الدرج عبد الصمد بن علي المذكور قبل سنة مائة وثمان وخمسين من الهجرة ، فلو كان الأمر كذلك لذكرهما الأزرقى ، في تاريخه ، عندما ذكر بناء عبد الصمد ابن علي درج الصفا والمروة .

وبسبب بناء العقددين ، بعد عهد أبي جعفر المنصور ، هو معرفة حد الصفا وحد المروة ، فلا يتكلف الساعي الرقي لما بعدهما من الدرج .

والظاهر ، والله تعالى أعلم ، أن العقددين بنيا لأول مرة قبل القرن الثالث ، فإن العقددين كانوا موجودين في زمن ابن بطوطة كما صرخ بذلك في رحلته وقد ولد ابن بطوطة سنة ثلاثة وسبعين .

ومصطبة ، أي الدكّة الواسعة المبنية على درج الصفا والمروءة ، فطول المصطبة كما ذكره صاحب مرأة الحرمين أربع أمتار في عرض مترين ، والمصطبة بنيت لحكمة عظيمة وهي : أن عدد درج الصفا اثنتا عشرة درجة ، وعدد الدرج في المروءة خمس عشرة درجة ، وذلك فيما سبق من الزمان ، فلو لم تبن المصطبة الواسعة لتعذر على مرتفقي درج الصفا أن يدبر نفسه ، وهو في أعلى اثنى عشرة درجة ، لينزل عنها ثانية قاصداً المروءة مثلاً ، خصوصاً عند زحمة الحج والعجاج ، فوجد المصطبة هو لاستراحة الضعفاء ، ولدورانهم للرجوع إلى الصفا أو المروءة وللدعاء . فرحم الله من نظر إلى مصلحة الناس .

وهنا نذكر ما جاء في «شفاء الغرام» نقلأً عن الحب الطيري في شرح الأصل ، عن الأبنية التي على الصفا والمروءة ، وعن العقد الذي عليهما ، فقد قال فيه ما يأتي : وقد بني على الصفا والمروءة أبنية حتى سرتها ، بحيث لا يظهر منها شيء غير يسير في الصفا . قال : والمروءة أيضاً في وجهها عقد كبير مشرف ، والظاهر أنه جعل علمًاً لحد المروءة ، وإلا كان وضعه ذلك عبثاً ، وقد تواتر كونه حداً بنقل الخلف عن السلف ، وتطابق الناسخون عليه ، فينبغي للساعي أن يمر تحته ويرقى على البناء المرتفع عن الأرض . اتهى .

قلت : البناء المرتفع الذي أشار إليه الحب كهيئة الدكّة وله درجة ، وذكر الأزرقي والبكري في ذرع المروءة ، ما يخالف حاكمها اليوم «أما الأزرقي» فإنه قال في الترجمة ، التي ترجم عليها ، بقوله : ذكر ذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا وذرع ما بين الصفا والمروءة وعلى المروءة خمس عشرة درجة . اتهى ، وذكر في هذه الترجمة درج الصفا ، ونص كلامه على الصفا اثنتا عشرة درجة من حجارة . اتهى . «وذكر البكري» في درج المروءة مثل ما ذكره الأزرقي «وذكر ابن جبير» أن درج المروءة خمس درجات «وذكر التوسي» أن فيها درجتين والذى فيها الآن واحدة .

والعقد الذي بالمروءة جدد بعد سقوطه في آخر سنة إحدى وثمانينه أو في التي بعدها ، وعمارته هذه من نقل الملك الظاهر برقوم ، واسمها مكتوب بسبب هذه العمارة في أعلى هذا العقد .

وفي الصفا أيضاً ، وما أظن أن عقد الصفا بين وإنما أظن أنه نور وأصلح ، وسيب تردد في ذلك أني رحلت من مكة في آخر سنة إحدى وثمانينه رحلتي

الثانية إلى الديار المصرية والشامية ، ومن تحت هذا العقد (إلى أول درجة الدكّة التي بالمروة داخل العقد) سبعة أذرع ، ومن تحت العقد الذي بالمروة إلى الذي يستديره مستقبل القبلة مائة عشر ذراعاً وثلاثة ذراع ، كل ذلك بذراع اليد ، واتساع هذا العقد ستة عشر ذراعاً بذراع الحديد المصري .

والمروة أفضل من الصفا ، على ما قال شيخ الإسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، وكذا تلميذه الشهاب القرافي ، لكونها تزار من الصفا أربعاء والصفا لا يزار منها إلا ثلاثة ، وما كانت العبادة فيه أكثر فهو أفضل وذكر القاضي عز الدين بن جماعة أن في ذلك نظراً ، وقال لو قيل بتفضيل الصفا لأن الله سبحانه وتعالى عز وجل بدأ به لكان أظهر ، ولو قيل بتفضيل المروة باختصاصها بالنحر والذبح دون الصفا لكان أظهر مما قالاه ، والله أعلم . انتهى من شفاء الغرام .

هدم درج الصفا القديمة وما كتب على عقده

وقد باشروا في هدم عقد الصفا يوم الثلاثاء ١٤٧٧/١٠/٢٤هـ ، أما الدرجات القديمة جداً ، والتي كانت مدفونة ، منذ عصور عديدة ، فقد ظهرت عند حفر أرض الصفا ، وذلك في رجب سنة ١٤٧٧هـ ، ثم إنهم في شوال من السنة المذكورة أخرجوا الدرجات القديمة ، وبنوا فوقها الدرجات الجديدة بالإسمت . وقد عملوا درجات الصفا بالإسمت في شهر شوال سنة (١٤٧٧) هجرية ، وعدد الدرج الجديد من اليمين (١٢) درجة ، وعدد الدرج من الشمال (١١) درجة . وكان مكتوباً على عقد الصفا في سطر واحد : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوِفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِمْ﴾ يفصل هذا السطر في الوسط كلمة لفظ الجلالة «(الله)» وإليك صورة الصفا ودرجه ، قبل هدمها ، في العمارة السعودية في سنة (١٤٧٦) ويظهر على الدرج العقود الثلاثة .

انظر : صورة رقم ١٨٠ ، الصفا قديماً

درج الصفا والمروة

لم يكن في عصر النبوة درج على الصفا ولا على المروة، وقد بقيا على حالتهما الطبيعية إلى زمن أبي جعفر المنصور، المتوفى سنة مائة وثمان وخمسين من الهجرة، ففي عهده بنى عليهما الدرج كما يأتي:

قال الأزرقي، في تاريخه: حدثنا أبو الوليد، قال: حدثني جدي أحمد بن محمد، قال: كان الصفا والمروة يسند فيما من سعي بينهما ولم يكن فيما بناء ولا درج، حتى كان عبد الصمد بن علي، في خلافة أبي جعفر المنصور، فبنى درجهما، التي هي اليوم درجهما، فكان أول من أحدث بناعها، ثم كحل بعد ذلك بالنورة في زمن مبارك الطبرى، في خلافة المؤمنون. انتهى منه.

ترجحه عبد الصمد بن علي

وعبد الصمد المذكور هو عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عامل مكة من قبل أبي جعفر المنصور. قال الغازى في الجزء الثاني من تاريخه، المسمى «إفاده الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» ما نصه: وولى مكة عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور واستمر إلى سنة تسع وأربعين ومائة. انتهى منه. ولقد أصلح درج الصفا وجدد غير مرأة.

ثم إنه في سنة اثنين وثمانين جدد فرج بن برقوق درجهما، وفي سنة ست وستين ومائتين وألف، جددهما السلطان عبد الحميد الثاني، أحد سلاطين آل عثمان.

قال صاحب كتاب «تاريخ عمارة المسجد الحرام»: بنى عامل أبي جعفر المنصور على مكة عبد الصمد بن علي درجاً على الصفا التي عشرة درجة، وعلى المروة خمس عشرة درجة، كحلت بعد ذلك بالنورة، في زمن مبارك الطبرى، في خلافة المؤمنون بن هارون الرشيد العباسى، كما ذكره الأزرقى في كتابه «أخبار مكة» والطبرى في كتابه «الأوائل». اهـ.

وقال أيضاً في كتابه المذكور ما خلاصته: يقول صاحب مسالك الأبصار: كان على الصفا اثنتا عشرة درجة، وقال ابن بطوطة في رحلته: وللصفا أربعة

عشرة درجة علياً هن كأنها مصطبة ، وللمروءة خمس عشرة درجة وهي ذات قوس واحد كبير . انتهى . والقوس المذكور هو العقد .

انظر: صورة رقم ١٨١ ، عقد المروءة

وحاء في عمارة المسجد الحرام ، عن التقى الفاسي ، أنه قال : الصفا مكان مرتفع من جبل له درج وفيه ثلاثة عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، وبعض الدرج الذي أسفل العقود مدفون ، وذلك ثمان درجات ، ثم فرشة مثل بعض الفرشات الظاهرة ، التي أمام العقود ، ثم درجتان ، وما عدا ذلك ظاهر للعيون ، وهو درجة أسفل العقود ، ثم فرشة كبيرة ثم ثلاث درجات ، ثم فرشة كبيرة هي السفلية الملائقة للأرض ، وربما علا التراب على هذه ، وما ذكرناه من الدرج المدفون شاهدناه بعد حفرنا عنه ، في شوال سنة أربع وثمانمائة . انتهى قول الفاسي .

ونحن نقول : إنه لما كانت التوسيعة السعودية ، في المسجد الحرام ، في زماننا الحاضر ، فتعدد عمارة نفس المسعي ، وإزالة البناء الذي على الصفا والبناء الذي على المروءة ، انكشفت الدرجات القديمة في مرتفع المروءة ، والتي كانت مدفونة من قديم الزمان ، حتى ذكرها الفقهاء في جميع كتب الفقه .

فلما ظهرت الدرجات المدفونة ، ذهبنا في اليوم التاسع من رمضان سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف من المحرجة لمشاهدة هذه الدرجات القديمة المدفونة في المروءة ، فوجدناها من الحجارة القوية المستعملة في مكة ، وعدها خمس عشرة درجة ، والعقد الذي يوجه المروءة قائم على الدرجة العاشرة المدفونة ، وكان ارتفاع التراب والمحصى الذي ردم به الدرجات القديمة ، التي دفنت تحته ، من متز ونصف متز إلى مترين ، كما أخذنا قياسه بأنفسنا ، فيفهم من هذا أن أرض المسعي قد ارتفعت ، منذ بناء الدرجات ، التي كانت موجودة في زمن ابن بطوطة ، إلى وقتنا الحاضر ، بمقدار مترين .

قال الفاسي في تاريخه «شفاء الغرام» في الجزء الأول ، في الباب الثاني والعشرين ، في ذكر الأماكن المتعلقة بمناسك الحج ، بعد أن ذكر تسعه أمور منها ، قال في الأمر العاشر ما يأتي :

(العاشر) : الصفا الذي هو مبدأ السعي ، وهو في أصل جبل أبي قبيس ، على ما ذكره غير واحد من العلماء ، ومنهم أبو عبيد البكري والنبوبي ، وهو موضع

مرتفع من جبل له درج ، وفيه ثلاثة عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، والدرج الذي يصعد من الأولى إلى الثانية منها بثلاث درجات في وسطها ، وتحت العقود درجة ، وتحتها فرشة كبيرة ، ويليها ثلات درجات ، ثم فرشة مثل الفرشة السابقة تتصل بالأرض ، وربما أهيل التراب عليها غريب ، وعرض الفرشة السفلية ذراع ونصف ذراع وقيراطان ، وعرض الفرشة العليا التي تحت العقود ذراع وثلثا ذراع ، وعرض الثلاث درجات ، التي بين الفرشتين ، ذراعان ونصف ذراع ، كل ذلك بذراع الحديد ، وتحت الفرشة السفلية ، التي تتصل بالأرض ، درج مدفون وهو ثمان درجات ، ثم فرشة مثل الفرشة السابقة ثم درجتان ، وتحت هاتين الدرجتين حجر كبير يشبه أن يكون من جبل ، وهذا الدرج المدفون لم نره إلا في محاذاة العقد الأوسط من عقود الصفا .

والظاهر ، والله أعلم أن في مقابلة العتدين الآخرين مثل ذلك .

انظر : صورة رقم ١٨٢ ، الكتابة المحفورة على عقد المروة

وذرع ما بين وجه العقد الأوسط على الصفا إلى متى الدرج المدفون ثمانية عشر ذراعاً بالحديد ، وكان تحرير ذلك بمحضوري ، بعد الأمر بالحفر عن الدرج المشار إليها ، في سابع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانائة ، وكان ابتداء حفرنا عن ذلك يوم السبت الخامس عشر شوال المذكور ، وكان الناس يأتون لمشاهدة ما ظهر من الدرج أزواجاً أزواجاً ، وحصل لهم بذلك غبطة وسرور ، لأن كثيراً من الساعين لا يرقون في الدرج الظاهر الآن خصوصاً الساعي راكباً .

وبسبب حفرنا عن ذلك ، أنه حاك في نفس بعض فقهاء مكة ، في عصرنا ، عدم صحة سعي من لم يرق في الدرج الظاهر ، لأن بعض متأخرى الفقهاء الشافعية قد أشار إلى أن في الصفا درجاً مستحدثاً ينبغي للساعي الاحتياط بالرقي عليها ، إلى أن يستيقن . انتهى بالمعنى ، وسيأتي ذكر ذلك بنصه .

وهذا الكلام يوهم أن بعض الدرج الموجود الآن محدث ، لأنه ليس هناك درج سواها حتى يحمل الكلام عليها وذاكرني الفقيه المشار إليه ، بما حاك في نفسه ، فقلت له الظاهر ، والله أعلم ، أن المراد بالدرج المحدث غير الدرج الظاهر ، ويتحقق ذلك بالحفر عنه ، فحفرنا حتى ظهر لنا من الدرج ما ذكرناه ، وبعيد جداً أن يكون مجموع الدرج المدفون والظاهر محدثاً ، في غير محل السعي ، حتى لا

يجزئ الوقوف عليه في السعي ، وإنما المحدث بعض الدرج الملفون لكونه في غير محل السعي ، على ما يقتضيه كلام الأزرقي .

لأنه قال ، فيما رويناه عنه ، بالسند المتقدم : ذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا مائتا ذراعاً واثنان وستون ذراعاً وثمانين عشرة إصبعاً . انتهى . والصفا الذي ذكره الأزرقي ذرع ما بينه وبين الحجر الأسود ، هو محل السعي ، وما ذكره الأزرقي ، في ذرع ما بين الصفا والحجر الأسود ، إما أن يكون إلى مبدأ الدرج الملفون تحت العقود ، أو إلى العقود ، أو إلى ما وراء ذلك ، وفي كل الوجوه نظر غير الوجه الثاني .

(أما الأول) فلأن من الحجر الأسود إلى مبدأ الدرج الملفون مائتي ذراع وواحداً وعشرين ذراعاً وربع ذراع وثمن ذراع بذراع الحديد ، يكون ذلك بذراع اليدين مائتي ذراع وثلاثة وخمسين ذراعاً ، بذراع اليد ، على ما حررناه ، وذلك دون ما ذكره الأزرقي ، في مقدار ما بين الحجر الأسود والصفا بعشرة ذرع إلا ربع ، فدل ذلك على أنه لم يرده ، لمخالفته المقدار ، الذي ذكره ، والله أعلم .

(وأما الوجه الثالث) فلأن من هذا الحجر الأسود إلى العقد الوسط ، الذي يبالصفا ، مائتي ذراع وتسعة وثلاثين ذراعاً وربع ذراع وثمن ذراع بالحديد ، يكون ذلك باليد مائتي ذراع وثلاثة وسبعين ذراعاً بتقديم السين وأربعة أسابع ذراع على ما حررناه ، وذلك يزيد على مقدار ما ذكره الأزرقي عشرة ذرع وخمسة أسابع ذراع وثلاثة أرباع خمس سبع ذراع ، فدل ذلك على أنه لم يرده لمخالفته القراء الذي ذكرناه .

(وأما الوجه الرابع) فالنظر فيه كالنظر في الوجه الثالث ، لأنه إذا كان الوجه الثالث غير المراد ، لما فيه من المخالفة ، لما ذكره الإمام الأزرقي ، بسبب الزيادة ، فكذا الوجه الرابع ، غير المراد من باب أولى ، لكثره الزيادة فيه على الزيادة ، التي في الوجه الثالث ، خصوصاً إذا قيل إن المراد موضع حدار البيت المشرف على الصفا ، فإن من العقد الأوسط إلى سبعة عشر ذراعاً ، بتقديم السين ، بذراع الحديد ، يكون ذلك بذراع اليد تسعة عشر ذراعاً ، بتقديم التاء ، وثلاثة أسابع ذراع ، والله أعلم .

وإذا كان في كل من هذه الوجوه نظر ، تعين أن يكون المراد الوجه الثاني ، لموافقته كلام الأزرقي ، لأن من أول الفرشة ، التي تحت درجات الثالث ، إلى آخر

الفرشة ، التي فوقها تحت الدرجة التي تحت العقد الأوسط ، عشرة ذراع باليد ، وذلك هو العقد الزائد ، على ما ذكره الأزرقي ، في مقدار ما بين الحجر الأسود والصفا ، وإنما ذكر الأزرقي ، ذرع ما بين الحجر الأسود والصفا ، ليبين أن ما وراء ذلك محل للسعى ، والفرشة السفلية المشار إليها من وراء النزع المذكور ، فتكون مخللاً للسعى على هذا ، ويصبح إن شاء الله تعالى ، سعي من وقف عليها فلا يقصر الساعي عنها ، ولا يجب عليه الرقى على ما ورائها ، والله أعلم ، والفرشة المشار إليها هي التي سبق أن التراب يعلو عليها فتفنى .

وأما الكلام الموهم ، بخلاف ذلك ، فهو ما ذكره الحب الطيري ، في شرح التبيه ، لأنه قال : وبيني في ذيل الصفا درج ، فينبغي أن يحتاط مريد السعي بالرقى عليها ، فإن الأرض ربت بحيث يرى البيت من غير رقى . انتهى . ومن ذلك ما ذكره التوسي ، في الإيضاح ، لأنه قال : إن من واحبات السعي أن يقطع جميع المسافة بين الصفا والمروءة ولو بقى منها بعض خطوة لم يصح سعيه ، حتى لو كان راكباً أشترط أن تسير دابته حتى تضع حافرها على الجبل أو إليه حتى لا يقى من المسافة شيء ، ويجب على الماشي أن يلصق ، في الابتداء والانتهاء ، رجله بالجبل ، بحيث لا يقى بينهما فرجة ، فيلزمه أن يلصق العقب بأصل ما يذهب منه ، ويلصق رؤوس أصابع رجليه بما يذهب إليه ، فيلصق في الابتداء بالصفا عقبه وبالمروءة أصابع رجليه ، فإذا عاد عكس ذلك . هنا إن لم يصعد ، فإن صعد فهو الأكمل . وقد زاد خيراً وليس الصعود شرطاً ، بل هو سنة متأكدة ، ولكن بعض الدرج مستحدث فليحذر أن يخلفها وراءه فلا يتم سعيه ولি�صعد بعد أن يستيقن .

وقال بعض أصحابنا : يجب الرقى على الصفا والمروءة بقدر قامة ، وهذا ضعيف وال الصحيح المشهور لا يجب لكن الاحتياط أن يصعد للخروج من الخلاف . انتهى .

وذكر الأزرقي ، ذرع ما بين الصفا والمروءة ، لأنه قال فيما رويناه عنه بالسند المتقدم : ومن الصفا إلى المروءة طواف واحد سبعمائة ذراع وستة وستون ذراعاً ونصف يكون السعي بينهما خمسة آلاف وثلاثمائة ذراع وخمسة وستين ذراعاً ونصف ذراع . انتهى . وقد حررت أنا ذرع ذلك ، فجاء من وسط جدار الصفا ، وهو من محاذاة نصف العقد الوسط من عقود الصفا إلى الدرج الذي بالمروءة من داخله ستمائة ذراع وثلاثة وسبعين ذراعاً بالحديد ، بتقديم السنين ، وسبعة أيام

ذراع ، يكون ذلك بذراع اليد سبعمائة وسبعين ذراعاً وسبع ذراع ، بتقديم السين ، في السبعمائة ذراع وفي السبعين وفي السبع ، ومن محاذاة نصف العقد الوسط من عقود الصفا إلى الدرجة العالية بالمروة ، التي كهيئة الدكة الكبيرة ، من داخل الدرج ، ستمائة ذراع وثمانون ذراعاً إلا ثمن ذراع بذراع الحديد ، يكون ذلك باليد سبعمائة ذراع وبسبعة وسبعين ذراعاً ، بتقديم السين في السبعمائة وفي السبعة وفي السبعين .

وما ذكره الأزرقي ، في مقدار ما بين الصفا والمروة ، يدل أنه لم يرد به إلى ما وراء الدرج بالمروة ، وإنما مراده إليه أو ما قرب منه ، لأنه لو أراد إلى ما وراء الدرج لم يكن المقدار الذي ذكره موافقاً لذلك ، لما فيه من النقص عن ذلك ، والله أعلم . وما ذكرناه في مقدار ما بين وسط عقود الصفا والدرج ، الذي بالمروة ، في اعتبار ذرع ذلك باليد ، يقرب مما ذكره الأزرقي في ذرع ذلك ، لأن ما ذكرناه يزيد على ما ذكر الأزرقي ثلاثة أذرع ونصف ذراع وسبع ذراع ، ولعل الأزرقي لم يعتبر ما ذكره من الموضع الذي اعتبرناه منه ، وإنما اعتبر ذلك من طرف العقد الذي يلي العقد الوسط . والله أعلم .

وذرع عقود الصفا الثلاثة أحد وعشرون ذراعاً بالحديد إلا ثمن ذراع بالحديد ، وطول الدرجة الأخيرة من درج الصفا السفلي ، التي تلي الأرض ، في محاذاة الثلاثة عقود ، التي بالصفا ،اثنان وعشرون ذراعاً بالحديد ، وذكر النwoي أن عرض فتحة الدرج الذي كان على الصفا نحو خمسين قدماً . انتهى .

وذكر الأزرقي شيئاً من خبر درج الصفا والمروة ، فنذكر ذلك لإفادته ، لأنه قال فيما رويناه عنه : حدثني جدي أحمد بن محمد ، قال : كانت الصفا والمروة يُسند فيما من سعي بينهما ، ولم يكن بينهما بناء ولا درج ، حتى كان عبد الصمد بن علي ، في خلافة أبي جعفر المنصور ، فبني درجهما ، التي هي اليوم درجهما ، فكان أول من أحدث بنائهما ، ثم كحل بالنورة في زمن مبارك الطيري ، وذلك في خلافة المؤمنون . انتهى .

وذكر الأزرقي أن درج الصفا أربع عشرة درجة ، وذكر ابن جبير أن درج الصفا أربع عشرة درجة ، وذكر النwoي أن درج الصفا إحدى عشرة درجة .

وسبب هذا الاختلاف : أن الدرج يعلو عليه التراب فينفعها ، وما أظن النwoي شاهد ما ذكره من عدد درج الصفا ، وإنما قلّد في ذلك الأزرقي وغيره من

المصنفين ، لأنه يعد أن تعلو الأرض في عهد النبوي إلى اليوم علىًّا يغيب به من درج الصفا القدر الذي وجدناه مدفوناً . والله أعلم .

ويتأيد ذلك بأن سليمان بن خليل ، قال في الرد على أبي حفص بن الوكيل من الشافعية ، في إيجابه الرقي على الصفا والمروة ، وتعليقه لإيجاب ذلك : بأنه لا يمكن استيضاح ما بينهما إلا بالرقي عليهما . وقد كان هذا قبل أن يعلو الوادي ، لأن الدرج كانت كثيرة ، وكان الوادي نازلاً ، حتى أنه كان يصعد درجاً كثيراً ليرى البيت ، حتى قيل : إنه كانت الفرسان في المسعي والرماح قائمة معهم ، ولا يرى من في المسجد إلا رؤوس الرماح ، فاما اليوم فإنه يرى البيت من غير أن يرقى على شيء من الدرج . انتهى .

ووجه الدلالة من هذا على ما أشرنا إليه ، أن عصر سليمان بن خليل وعصر النبوي متقاربان ، وسليمان مات قبل النبوي ب نحو خمس عشرة سنة ، وإذا كان البيت يرى في عصره ، من غير رقي على الصفا ، لعلو الأرض ، فيكون الحال هكذا في عصر النبوي والله أعلم . انتهى من كتاب شفاء الغرام .

الميلان الأخضر ان بالمسعي

الميلان الأخضران اللذان بالمسعي ، وضعا للعلامة على طلب المرولة بينهما ، في السعي ذهاباً وإياباً ، فأحدعهما كان تحت منارة «باب علي» من أبواب المسجد الحرام ، لاصقاً بجداره من الخارج ، من جهة المسعي ، وثانيهما كان متصلةً بدار العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، وتسمى «برباط العباس». ويطلق بعض الفقهاء على الميل الذي تحت منارة باب علي «الميل الأخضر المعلق». قال ابن حجر في حاشيته على إيضاح النبوي ، رحمهما الله تعالى : قال جماعة : إنه كان مبنياً على متن الطريق ، مسامتاً لابتداء السعي الشديد ، وكان السبيل يهدمه ويزيله عن محله ، فرفعه إلى أعلى ركن بالمسجد ، ولذلك سمي معلقاً ، فوقع متاخراً عن مبدأ السعي بستة أذرع ، لأنه لم يكن موضعأً ليق منه . انتهى من حاشية ابن حجر على الإيضاح . فلذلك تسن المرولة قبل هذا الميل الأخضر ب نحو ستة أذرع . ولقد هدم أحد العلمين الأخضررين في سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة ألف ، وهدم العلم الثاني في السنة التي بعدها وهي سنة (١٣٧٦) وذلك بسبب توسيعة

المسجد الحرام ، ثم إنه في . . . أعادوا وضع العلمين من جديد للغرض المذكور ، فوضعوها بال محل الأصلي الذي كان فيه .

انظر: صورة رقم ١٨٣ ، أحد الميلين الأخضرتين من العمارة القديمة . وصورة رقم ١٨٤ أحد الميلين الأخضرتين من العمارة القديمة

ووضع العلمين الأخضرتين ليس حديثاً ، بل إنه قديم ، حتى أن الإمام الأزرقي ، المولود في القرن الثاني للهجرة ، ذكرهما في تاريخه فقال بصحيفة (٦٢) ، من الجزء الثاني : ومنها باب العباس بن عبد المطلب وهو الباب الذي عنده العلم الأخضر ، الذي يسعى منه من أقبل من المروءة يريد الصفا . وقال في صحيفة (٦٠) الذي يلي باب بني هاشم ، الذي عليه العلم الأخضر ، الذي يسعى منه من أقبل من المروءة يريد الصفا : فهذا الباب الذي ذكره هو ما نسميه بباب علي ، ومثل ذلك قال أيضاً بصحيفة (٦٣) فعلم من كلام الأزرقي أن وضع الميل الأخضر ، في المسعى للدلالة على المروءة ، كان من قديم الزمن وليس مستحدث ، وجاء في صحيفة (٦٠) المذكورة ما يؤيد كلام ابن حجر في حاشيته على الإيضاح الذي ذكرناه هنا .

والظاهر أن العلم الأخضر وضع في أواخر القرن الأول الهجري ، فإن الناس ، في صدر الإسلام ، كانوا يعرفون موضع هرولة النبي ﷺ والصحابة من بعده ، فلما انقرضوا رأوا أن يضعوا موضعها علامة ، للدلالة عليها ، حتى لا يحدث اختلاف ، فوضعوا هذا العلم الأخضر ، ثم إنـه كلـما حدـث تـجـيـد وتوسـعـةـ فيـ المسـجـدـ الحـرـامـ ، نـقـلـواـ هـذـهـ العـلـمـةـ «ـالـعـلـمـ الـأـخـضـرـ»ـ منـ مـوـضـعـهـ الأـصـلـيـ إـلـىـ مـاـ يـقـابـلـهـ تـامـاـ ،ـ فـيـ حـلـ التـوـسـعـةـ الجـدـيدـ ،ـ كـمـاـ حدـثـ فـيـ زـمـانـاـ هـذـاـ .

قال الغازى صحيفة ٣٨٨ : ومنها الميلان الأخضران اللذان يهرون الساعي بينهما ، في سعيه بين الصفا والمروءة ، قال الفاسى : هما العلمان اللذان أحدهما بركن المسجد ، الذي فيه المنارة ، التي يقال لها منارة باب علي ، والآخر في جدر باب المسجد ، الذي يقال له باب العباس ، والعلمان المقابلان لذين العلمين ، أحدهما في دار عباد بن جعفر ، ويعرف اليوم بسلمة بنت عقيل ، والآخر في دار العباس ، ويقال لها اليوم رباط العباس . انتهى .

قال ابن فهد : وفي سنة ثلاثة وسبعين وخمسة وأربعين أمر أمير المؤمنين ، المستضيء بالله ، بعمارة الأمايا الخضر بالمسعى المعظم . انتهى .

قال الفاسي : وذكر الأزرقي صفة هذه الأعلام ، وأن ذرع ما بين العلم ، الذي على باب المسجد ، إلى العلم الذي يليه على باب دار العباس ، وبينهما عرض المسعي خمسة وثلاثون ذراعاً ونصف ، قال ومن العلم الذي على باب دار العباس إلى العلم الذي عند دار ابن عباد ، الذي يجذأ العلم الذي في حد المارة ، وبينهما الوادي ، مائة ذراع وواحد وعشرون ذراعاً . انتهى .

قال : وذكر الأزرقي ، ما يقتضي أن موضع السعي ، فيما بين الميل الذي بالمنارة والميل المقابل له ، لم يكن مسعي إلا في خلافة المهدي العباسي ، لتغيير موضع السعي قبله ، في هذه الجهة ، وإدخاله في المسجد الحرام ، في توسيعة المهدي له ثانياً ، لأنه قال : حدثني جدي ، قال : لما بنى المهدي المسجد الحرام ، وزاد الزيادة الأولى ، اتسع أعلاه وأسفله وشقه الذي يلي دار الندوة الشامي ، وضاق شقه اليماني الذي يلي الوادي والصفا ، فكانت الكعبة في شق المسجد ، ذلك أن الوادي كان داخلاً لاصقاً بالمسجد في بطن المسجد اليوم ... إلخ كلامه . انتهى من الغازي .

جاء في هامش الجزء الثاني ، من تاريخ الأزرقي ، بصحيفة (٩٦) أما الميلان الأخضران ، فقد عمرهما سودون الحمدي عام (٣٤٧) وعلق حولهما قنديلين للإضاءة اهـ .

نقول : لقد ذكر القطبي في تاريخه بعض أعمال سودون الحمدي ، ومن ضمنها وضع القنديل على الميل الأخضر ، وذلك سنة (٨٤٣) ثلات وأربعين وثمانمائة ، فالتأريخ المذكور هنا بهامش تاريخ الأزرقي غلط والصواب ما ذكره القطبي .

تسوية أرض المسعي وتعيدها

واعلم أننا إذا نظرنا إلى الوراء ، يعني إلى زمان سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام نجد أن ما بين الصفا والمروة ، أي بطن الوادي ، كان نازلاً عميقاً على حسب الطبيعة ، قبل أن تتم الأيدي لإصلاح ما بينهما ، ثم لا بد أن ترتفع الأرض قليلاً إلى زمان نبينا محمد ﷺ ، لا من فعل البشر ، وإنما بفعل الطبيعة ، وذلك بنزول الأمطار وبجيء السيول ، التي تسبب نزول الصخور الأحجار ، من

فوق الجبال ، والأتربة والرمال من الطريق ، فترتفع الأرض عما كانت عليه من قبل شيئاً فشيئاً .

جاء في تاريخ الأزرقي ، عن جابر بن عبد الله ، يحدث عن حجة النبي ﷺ يقول : ثم نزل عن الصفا حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا أصعد من الشق الآخر مشى ، اهـ . وفي تاريخ الأزرقي أيضاً عند الكلام على زيادة المهدى الأخيرة : وإنما يسلك من المسجد الحرام إلى الصفا في بطن الوادي ، ثم يسلك في زقاق ضيق حتى يخرج إلى الصفا من التفاف البيوت ، فيما بين الوادي والصفا . اهـ .

ويقول ابن حجر في حاشيته على إيضاح التوسي عن الرضي بن خليل المكي ، إن الوادي كان نازلاً حتى أن الشخص كان يصعد درجاً كثيرة ليرى البيت الحرام ، بل قيل إن الفرسان كانت تمر في المسعي والرماح قائمة فلا يرى من بالمسجد إلا رؤوسها اهـ .

فالظاهر ما تقدم ، والله تعالى أعلم ، أن أرض المسعي كان فيها منعرجات ومنحدرات ونزول وطلع ، ولا شك أن ذلك مما لا يريح الساعين ، لكن الأجر على قدر المشقة .

لم نر من تكلم عن تسوية أرض المسعي وتعيده ، والذي نذهب إليه ، والله تعالى أعلم ، أن أول ما بدأ بإصلاح أرض المسعي وتسويتها ، كان في زمن أمير المؤمنين محمد المهدي ، الذي زاد في المسجد الحرام ، من جميع جهاته ، زيادة كبيرة ، والذي كان يقف بنفسه على أعمال المهندسين والشغالين ، ويدلي لهم من الآراء السديدة الجارة ما يجعلهم حيارى إزاعها ، ثم بعد تفبيد أوامره يشكروننه ويحملون له رأيه الكريم ، حتى أنه من شدة عنائه بالزيادة ، في المسجد الحرام ، ورغبته القوية الأكيدة في تربيعه ، وجعل الكعبة المشرفة بوسطه تماماً ، أمر المهندسين أن ينصبو الرماح فوق أسطحة الدور ، من أول الوادي إلى آخره ، والمهدى قائم على جبل أبي قبيس ينظر إلى كل ذلك ، فلما اطمأن قلبه إلى هندستهم من فوق الرماح ، وعرف ما يدخل في المسجد ، وما يكون في الوادي ، أقرهم على الوضع المناسب ، ثم سافر إلى العراق ، بعد أن خلف لهذا العمل الجليل

العظيم من الأموال ما لا يعد ولا يحصى . وكانت الزيادة للمهدي مرتين في سنة مائة وستين ثم في سنة مائة وأربعين وستين أيضاً كما فصلنا ذلك في محله .

وقد دخل في هذه التوسعة جزء من المسعى إلى المسجد الحرام ، ومن مستلزمات هذه العمارة الواسعة تسوية أرض المسعى وردم بعض المنخفضات بالأترية والحجارات ، المتبقية والمتخلفة عن هذه العمارة .

ثم ما زال الحكام يصلحون أرض المسعى كلما حصلت مناسبة لذلك ، فقد أصلح في عهد المأمون في حدود سنة اثنين ومائتين ، وكذلك في عهد جعفر المتوكّل على الله ، فقد أمرت أمّه بعرق وادي مكة جمّيعه ، وكذلك في عهد السلطان قايتباي ، وذلك حينما حصل التعدي على جزء من أرض المسعى من قبل بعض أتباعه .

إلى غير ذلك مما لا تتمكن من تبعه ، فإصلاح أرض المسعى وتسويتها وارتفاعها ، كان شيئاً فشيئاً ، إلى أن وصلت إلى حالتها الحاضرة اليوم . ففي عصرنا الحاضر فرش أرض المسعى من الصفا إلى المروة بالحجارة ، وذلك بأمر جلالـةـ الملك عبد العزيـز آل سـعـودـ رـحـمـهـ اللهـ تـعـالـىـ ، في سـنةـ خـمـسـ وـأـرـبـعـينـ وـثـلـاثـةـ وـأـلـفـ ، ولا يخـفـىـ أنـ فيـ كـلـ هـذـاـ الأـحـوالـ تـرـفـعـ أـرـضـ المسـعـىـ تـدـريـجـياـ .

أما أرض المسعى الآن ، في هذه التوسعة السعودية ، فإنـهاـ فيـ غـاـيـةـ منـ الجـمـالـ والنـظـافـةـ مـبـلـطـ بـالـإـسـنـتـ لـيـسـ فـيـهاـ عـيـبـ ، وـالـحـقـ يـقـالـ : أـنـ بـنـاءـ المسـعـىـ وـتـسـقـيـفـهـ بـشـكـلـهـ الـحـاضـرـ ، لـمـ يـسـبـقـ لـحـكـومـاتـ السـابـقـةـ ، أـنـ عـمـلـتـ مـثـلـهـ أـبـداـ . نـسـأـلـ اللهـ تـعـالـىـ التـوفـيقـ وـالـقـبـولـ .

عزم الوالي التّكّي سابقاً على توسيع المسعى

جاء في آخر الجزء الثالث ، من تاريخ الغازي ، عند الكلام عن ترجمة المشير الحاج محمد حبيب باشا ، الذي تولى مكة ، من قبل الدولة العثمانية ، سنة (١٢٦٤) بعد ذكر ما عمله المذكور من الأعمال العمرانية وغيرها ، ما يأتي :

ولقد أراد المذكور أن يوسع المسعى ويهدّمها ، ليتسع على الحجاج ، حال المسعي ، ويأخذ من الدور الداخلة في مشعر المسعى ، ويجعل طريقاً في الذاهب للمسعي وآخر للآتيب ، ونصب جبلاً كان مراده أن يجعل عوضه دراizerاناً من الحديد

أو غيره ، وهم بعض الدور الداخلية بالمشعر ، فكتب فيه بعض أهالي مكة المشرفة ونقاوا عليه ، وتوجه بالكتب إلى الدولة العلية السيد عبد الله بن عقيل ، توجه خفية على ناقة إلى التعميم ، ثم أخذ برأ من طريق الحديبية ، وتوجه إلى الآستانة ، وشكاه فأمرت الدولة العلية بعزله سنة (١٢٦٦) ست وستين ومائتين وألف فتوجه إلى الآستانة . انتهى من الغازي .

انظر: صورة رقم ١٨٥ ، قبة الصفا التي عملت في العهد السعودي الثاني في زماننا

وصف الصفا والمروة

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِمْ﴾ وجبل الصفا واقع أسفل جبل أبي قبيس ، مما يقابل ركن الحجر الأسود من الكعبة ، وهو جبل صلد أملس ، ومنه يبدأ السعي ، وأما المروة فهي واقعة جهة المدعا ، وإليها ينتهي السعي ، وجبل المروة رخو بالنسبة لجبل الصفا . قال الغازي : قال الفاسي : المروة الموضع الذي هو متنه السعي وهو في أصل جبل قعيقان على ما قال أبو عبيد البكري ، وقال التوسي : إنها أنف من جبل قعيقان اهـ .

قال إبراهيم رفت باشا ، في كتابه «مرآة الحرمين» : الصفا هو شبيه بالمىلى طوله ستة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار ، مرتفع عن الأرض ب نحو مترين ، يصعد إليه بأربع درجات ، وفي جنوبه هذا المكان أي وراءه أربع درجات أخرى صاعدة ، أقيمت عليها ثلاثة عقود في صف واحد ، من الشرق إلى الغرب ، وبعد هذه الدرجات الخلفية أصل جبل أبي قبيس ، وحول الصفا جدار يحيط به ، ما عدا الجهة الشمالية التي منها المرقى . انتهى .

ثم قال فيه أيضاً : والمروة ، في الشمال الشرقي للمسجد الحرام ، وهي متنه المسعي من أصل جبل قعيقان ، يصعد إليها بخمس درجات فقط ، بعدها مسطبة طولها أربعة أمتار في عرض مترين ، بعدها مسطبة أخرى عرضها متراً واحداً ملاصقة لجدار المروة ، ومن دون الدرجات الخمس عقد شاهق والشارع الذي بين الصفا والمروة هو المسعي . انتهى .

قال الغازي في تاريخه : الصفا الذي هو مبدأ السعي ، قال الفاسي : هو في أصل جبل أبي قبيس ، على ما ذكره البكري والتوري وغيرهما ، وهو مكان

مرتفع من جبل له درج ، وفيه ثلاثة عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، وبعض الدرج الذي من تحت العقود مدفون ، وذلك ثمان درجات ثم فرشة مثل بعض الفرشاة الظاهرة تحت العقود ، ثم درجتان ما عدا ذلك ظاهر ، وهو درجة تحت العقود ثم فرشة كبيرة ثم ثلاثة درجات ثم فرشة كبيرة ، إلا أن هذه الفرشة السفلية ، ربما غيّبت بما تعلو عليها من التراب . أقول وهو كذلك إلى الآن موجود ، قال الفاسي : وما ذكرناه من الدرج مدفون ، شاهدناه بعد حفرنا عنه ، في شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة .

وبسبب حفرنا له أن الشيخ محب الدين الطبرى قال في شرح التبيه : وبين في ذيل الصفا درج ، فينبغي أن يحاط من بدأ السعي بالرقي عليها . انتهى . وهذا يوهم أن يكون المراد به ما ظهر تحت العقود من الأربع درجات والفرشتين ، كما يملئه بعض فقهاء مكة ، في عصرنا ، وذاكراً بذلك ، فقلت : المراد به غير الدرج الظاهر ، وحفرنا عن ذلك فظهر ما ذكرناه . وهذا المدفن ليس محلَّ للمسعي ، وحمله الظاهر ويدل على ذلك كلام الأزرقى ، فإنه قال : ذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا مائتا ذراعاً واثنان وستون ذراعاً وثمانين عشرة إصبعاً . انتهى .

وحررنا ما بين الحجر الأسود وبين الفرشة السفلية التي يعلو عليها التراب ، فجاء مثل ما ذكره الأزرقى ، في ذرع ما بين الحجر الأسود والصفا ، ولم يذكر الأزرقى ذرع ذلك إلا ليبين أن ما وراء ذلك محلَّ للسعي والفرشة السفلية المشار إليها من وراء الذرع المذكور ، فيكون محلَّ للسعي المذكور ، ويصح على هذا ، إن شاء الله ، سعي من وقف عليها فلا يقصُّ الساعي عنها ، ولا يجب عليه الرقى على ما ورائها والله تعالى أعلم . انتهى من الغازي .

قال الإمام الأزرقى في تاريخه عند باب : أين يوقف من الصفا والمروءة وحد المسعي ما نصه : حدثنا أبو الوليد ، قال : حدثني جدي عن الزنجي ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء : فخرج النبي ﷺ من باب بني مخزوم إلى الصفا قال : بلغني أن النبي ﷺ كان يستند فيما قليلاً في الصفا والمروءة غير كثير ، فيري من ذلك البيت ، قال : ولم يكن حيتَنِي هذا البيان ، قلت له : أوصف ذلك لك وسيحيث كان يبلغ ذلك ، قال : لا إلا كذلك كان يستند فيما قليلاً كيف ترى الآن ؟ قال : كذلك أنسد فيما ، قلت : أفلأ أنسد حتى أرى البيت ؟ قال : لا ثم إلا أن تشاء غير مرة ، قال ذلك لي فاما أن يكون حقاً عليك فلا ولم يخبرني أن

النبي ﷺ كان يبلغ المروة البيضاء ، قال : كان يسند فيهما قليلاً ، ولا يبلغ ذلك . قال ابن حريج : سأله إنسان عطاء أبجرئ عن الذي يسعى بين الصفا والمروة أن لا يرقا واحداً منها ، وأن يقوم بالأرض قائماً ؟ قال : أي لعمري وماليه ، قال ابن حريج : وكان عطاء يقول : استقبل البيت من الصفا والمروة لا بد من استقباله ، قال ابن حريج : وأخبرني ابن طاوس عن أبيه أنه كان لا يدع أن يرقى في الصفا والمروة حتى يلدو له البيت منها ثم يستقبل البيت .

انظر : صورة رقم ١٨٦ ، المؤلف في المروة عند هدمها يقيس عمق الحفرة

قال ابن حريج أخبرني نافع : كان عبد الله بن عمر يخرج إلى الصفا فيبدأ به فيرقي حتى يلدو له البيت فيستقبله لا ينتهي في كلما حج أو اعتمر حتى يرى البيت من الصفا والمروة ، ثم يستقبله منها ، فيبلغ من الصفا فراره فيه قدر قدمي الإنسان قط ، بل يعجز عن قدميه حتى يخرج منها أطراف قدميه ، لا يقوم أبداً إلا فيهما في كل ما حج أو اعتمر ، قال : أظنه والله رأى النبي ﷺ يقوم فيهما . قال : وكان يقوم من المروة ، قال : لا يأتي المروة البيضاء ، يقوم عن يمينه ، حتى يصعد فيها ، قال ابن حريج : قال عطاء : فسعي به النبي ﷺ بطن وادي مكة .

حدثنا ابن حريج ، عن صالح مولى التوامة ، عن أبي هريرة ، وعن أبي جابر البياضي ، عن سعيد بن المسيب أنهم قالا : السنة في الطواف بين الصفا والمروة أن ينزل من الصفا ثم يمشي حتى يأتي بطن المسيل ، فإذا جاءه سعي حتى يظهر منه ، ثم يمشي حتى يأتي المروة ، قال ابن حريج : أخبرني نافع قال : فينزل ابن عمر من الصفا فيمشي حتى إذا جاء باب داربني عباد سعي ، حتى ينتهي إلى الزقاق ، الذي يسلك إلى المسجد ، الذي بين دار ابن أبي حسين ودار ابنه فرظة ، سعياً ، دون الشد وفوق الرملان ، ثم يمشي مشيه الذي هو مشيه حتى يرقى المروة ، فيجعل المروة البيضاء أمامه ويمينه قال : ولا يأتي حجر المروة ، قال ابن حريج : أخبرنا أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن السعي فقال : السعي بطن المسيل ، قال ابن حريج : وأخبرني جعفر بن محمد عن أبيه أنه سمع جابر بن عبد الله يحدث عن حجة النبي ﷺ قال : ثم نزل عن الصفا حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعي حتى إذا أصعد من الشق الآخر مشى ، حدثني جدي قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن منصور بن المعتمر ، عن شقيق ابن سلمة ، عن

مسروق بن الأجدع ، قال : قدمت معتمراً مع عائشة وابن مسعود ، فقلت : أيهما ألزم ؟ ثم قلت ألزم عبد الله بن مسعود ، ثم آتني أم المؤمنين فأسلم عليها ، فستلم عبد الله بن مسعود الحجر ، ثم أخذ على يمينه فرمل ثلاثة أطوفاف ومشى أربعة ، ثم آتني المقام فصلّى ركتعين ، ثم عاد إلى الحجر فاستلمه ، وخرج إلى الصفا ، فقام على صدع فيه فلبي ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن إن ناساً من أصحابك ينهون عن الإهلال هاهنا قال : ولكن آمرك به هل تدري ما الإهلال ؟ إنما هي استجابة موسى ، عليه السلام نربه ، عز وجل ، قال : فلما آتى الوادي رمل وقال : رب اغفر وارحم إنك أنت الأعز الأكرم . انتهى .

انظر : صورة رقم ١٨٧ ، سقف المسعى الجديد في العهد السعودي وهو مبني بالأسمنت المسلح

ذرع ما بين الصفا والمروة

سنذكر هنا ، إن شاء الله تعالى ، جميع ما ورد في الكتب عن ذرع ما بين الصفا والمروة ، ثم بعد ذلك نذكر ذرعه في زماننا هذا بعد عمارة وتوسيعة المسجد الحرام «التوسيعة السعودية» .

وذرع ما بين الصفا والمروة طولاً لا يحصل فيه اختلاف لا في الأزمنة السابقة ولا في وقتنا هذا أو بعده ، لأن حد السعي من الصفا وحده من المروة معروف لا اختلاف فيه .

وما تراه من الاختلاف في ذرعه إنما هو اختلاف صوري لا حقيقي ، نشأ ذلك من أمرین :

الأول : نشأ من اختلافهم في مقدار طول الذراع ونوعه .

الثاني : نشأ من اختلاف مشيهم حين النزع في المسعى ، فقياس الذرع حين المشي على استقامة تامة في أرض المسعى ، غير قياسه عند انحراف المشي ولو بسيراً مع العلم بأن بعضهم يعتبر النزع من علو الدرج وبعضهم من أسفل الدرج ، ومع العلم بأنه كلما ارتفعت الأرض واندفعت درجة كلما زاد في مقدار الذرع ، على أن اختلافهم في ذرعه اختلاف بسيط يسير ، صوري قليل ، لا يذكر .

ونسوق إليك أولاً عبارات بعض ما ورد عن ذرعه في بعض الكتب ، فنقول ،
وبالله التوفيق :

قال الأزرقي في تاريخه : قال أبو الوليد - يعني نفسه - : وذرع ما بين الركن
الأسود إلى الصفا مائتا ذراعاً واثنان وستون ذراعاً وثمانين عشرة إصبعاً ، وذرع ما
بين المقام إلى باب المسجد الذي يخرج منه إلى الصفا مائة ذراع وأربعة وستون
ذراعاً ونصف ، وذرع ما بين باب المسجد الذي يخرج منه إلى الصفا إلى وسط
الصفا مائة ذراع واثنا عشر ذراعاً ونصف ، وعلى الصفا اثنتا عشرة درجة من
حجارة ، ومن وسط الصفا إلى علم المسعي الذي في حد المنارة مائة ذراع واثنان
وأربعون ذراعاً ونصف ، والعلم أسطوانة طولها ثلاثة أذرع ، وهي مبنية في حد
المنارة ، وهي من الأرض على أربعة أذرع ، وهي ملبسة بفسيفسae ، وفوقها لوح
طوله ذراع وثمانين عشرة إصبعاً وعرضه ذراع ، مكتوب فيه بالذهب ، وفوقه طاق
ساج ، وذرع ما بين العلم الذي في حد المنارة إلى العلم الأخضر الذي على باب
المسجد وهو المسعي مائة ذراع واثنا عشر ذراعاً ، والمسعي بين العلمين وطول
العلم الذي على باب المسجد عشرة أذرع وأربع عشرة إصبعاً ، منه أسطوانة
مبضة سته أذرع ، وفوقها أسطوانة طولها ذراعان وعشرون إصبعاً ، وهي ملبسة
فسيفسae أخضر ، وفوقها لوح طوله ذراع وثمانين عشرة إصبعاً ، واللوح مكتوب
فيه بالذهب ، وذرع ما بين العلم ، الذي على باب المسجد ، إلى المروءة خمسة
ذراع ونصف ذراع .

وعلى المروءة خمس عشرة درجة ، وذرع ما بين الصفا والمروءة سبعمائة ذراع
وستة وستون ذراعاً ونصف ، وذرع ما بين العلم ، الذي على باب المسجد ، إلى
العلم الذي بجذائه ، على باب دار العباس بن عبد المطلب ، وبينهما عرض المسعي ،
خمسة وثلاثون ذراعاً ونصف ، ومن العلم ، الذي على باب دار العباس ، إلى
العلم ، الذي عند دار ابن عباد ، الذي بجذاء العلم ، الذي في حد المنارة ، وبينهما
الوادي ، مائة ذراع وواحد وعشرون ذراعاً . انتهى من الأزرقي .

وقال الغازى في تاريخه المخطوط : وفي كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله
العمري ما نصه : وذرع ما بين الصفا والمروءة ، وهو المسعي ، سبعمائة ذراع
وثمانون ذراعاً ، ومن الصفا إلى الميل الأخضر المائل في ركن المسجد على الوادي ،
مائة وثمانون ذراعاً ، ومن الميل الأخضر إلى الميل الأخضر ، الذي يبازء دار العباس ،

وهو موضع المرولة ، مائة وخمس وعشرون ذراعاً ، ومن الميل الثاني إلى المروة أربعمائة وخمس وسبعون ذراعاً ، فجميع ما بين الصفا والمروة سبعمائة وثمانون ذراعاً . انتهى من الغازي .

وجاء في تاريخ الغازي أيضاً : ذكر الشيخ باسلامة في كتابه « تاريخ عمارة المسجد الحرام » أنه ذرع شارع المسعي بالملتر ، فقال : من أول الدرج إلى الصفا عند الجدر الواقع في متنه الصخرية ١١ متراً و ٦٠ سنتيمتراً وعرض أصل الصفا ، التي عليها الثلاثة عقود ، ١٢ متراً ، ومن ابتداء درج الصفا إلى العلم الأخضر ، الملائق لنارة باب علي ، ٧٤ متراً . ومن هذا العلم إلى العلم الأخضر ، الواقع في باب العباس ، وهو موضع المرولة ، ٦ أمتار . ومن هذا العلم إلى أول درج المروة ٣٤٠ متراً ، وعند المروة عقد كبير سعته ٧ أمتار ، ومن العقد إلى الجدر الواقع في صدر المروة ٨ أمتار وخمسة وسبعين سنتيمتراً .

وعلى ذلك يكون طول شارع المسعي ، من ابتداء درج الصفا إلى ابتداء درج المروة ، ٣٧٤ متراً ، ومن صدر الجدر الذي في متنه على الصفا إلى صدر الجدر ، الواقع في متنه على المروة ، ٣٩٤ متراً و ٣٥ سنتيمتراً .

وعلى ذلك يكون ذرع العمري منطبق تمام الانطباق على ما ذرناه من ابتداء درج الصفا إلى ابتداء درج المروة ، وأما ذرع الأزرقى فربما يكون من أول درج الصفا قبل أن يعلو شارع المسعي ، حينما كان درج الصفا ١٢ درجة إلى أول درج المروة حينما كان درجها ١٥ درجة اهـ . انتهى من تاريخ الغازي ، وبحث الذرع مستوفى في كتاب « تاريخ عمارة المسجد الحرام » فراجعه إن شئت .

ونحن نرى اليوم بعد التوسعة السعودية التي حصلت في المسجد الحرام ، وبعد عمارة المسعي ، ونقض جميع ما تقدم من عمارات الحكومات السابقة ، وتسوية أرضه بالإسمنت المسلح لسهولة السعي ، أن نذكر بالضبط التام قياس ما بين الصفا والمروة بالملتر ، فنقول : إن قياس ما بين الصفا والمروة هو (٣٧٥) ثلاثة وخمس وسبعين متراً كما قسناه بأنفسنا وربما زاد أو نقص بعض من المستيمترات وذلك بسبب اعوجاج السير أو استقامته وليس في ذلك من بأس .

تسقيف المسعي وفرشها بالحجارة أو تبليطها بالحجارة

لم يسبق قط أن جعل للمسعي سقف -أي مظلة- يقي الساعين لفتح الشمس وحرارة الجو ، إلا في سنة ١٣٤١ ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعين من الهجرة ، فقد أمر صاحب الجلالة الشريف حسين بن علي بن محمد بن عون ملك الحجاز ، رحمة الله تعالى ، بعمل سقية للمسعي ، لحفظ الساعين من حرارة الشمس ، فشرعوا في عملها وتم إنشاؤها في شهر شوال من السنة المذكورة ، فكانت السقية تتدن من باب العباس إلى المروءة ، أما من الباب المذكور إلى الصفا فإنه لم يسقى لقصر المسافة وجمال المنظر ، وكان مكتوباً على السقية جملة أبيات بعض الشعراء :

ولقد مدح بعض الشعراء الشريف الحسين بن علي ، رحمة الله تعالى ، في تسقيفه المسعي ، فما قاله سعادة الشيخ محمد صالح القرزاز مدير مكتب مشروع التسعين بمكة المشرفة والمدينة المنورة حالياً في عهد حكومتنا السنوية :

لسيد العرب مولى الحمد مفخرة أضحت بها فضله للخلق منشورة
هو الحسين الذي أمست مأثره عظمى وأصبح فيها الخير مسطورا
أقام للمشعر الأسى مظلته حتى غدا كل من يغشه مسرورا
بهمة السند القرزاز من فخرت به العلا وغدا بسالم مشهورا
فيما مليكاً أعز الله محتده دم في سرور بسيف الله منصورا
واهناً يشير واقبال يورخمه من سعد حكمك صار السعي مشكورا

١٣٤١ ٢٩١ ١٧١ ٨٨ ١٣٤٩٠

ويعني القائل : « بهمة السند القرزاز » أي ابن عمه الشيخ عبد الوهاب القرزاز ، رحمة الله تعالى ، الذي أشرف على العمل المذكور .

وقد كتبت هذه الأبيات بالأحرف البارزة الكبيرة على لوحة وعلقت في أعلى السقية من جهة المروءة .

ثم في سنة (١٣٦٦) ألف وثلاثمائة وست وستين هجرية ، أمر صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، ملك المملكة العربية السعودية ، بتجديف سقية المسعي بصفة فنية محكمة ، فتم عملها في السنة

المذكورة ، فكانت ممتدة بطول المسعى من الصفا إلى المروءة ، ما عدا الجزء الذي يبلغ طوله ثمانية أمتار والذي يقع في باب علي فإنه لم يسقف ؛ لأنه ميدان متسع وبقاؤه بغير سقف أجمل وأحسن ، ويبلغ عرض السقية كلها عشرون متراً ونصف متراً . وقد كتب على هذه المظلة - أي السقف - بخط حسن جميل وبمحروف بارزة من النحاس الجيد السميك مثبت في لوح من الصاج الشخين طولها أربعة أمتار وعرضها متراً واحداً وأربعون سنتيمتراً ، في أربعة أسطر ما يأتي : (أنشئت هذه المظلة في عهد حضرة صاحب الجلالة حبي بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة الشريفين الملك المعظم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية . وقد تم إنشاؤها في عام ألف وثلاثمائة وستة وستين من المجرة أثابة الله وأدام توفيقه) .

انظر : صورة رقم ١٨٨ ، المظلة الجديدة

وأما فرش المسعى وتبلطيه من الصفا إلى المروءة بالحجارة المربعة وبناؤها بالنورة فقد كان في سنة (١٣٤٥) ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين من المجرة ، فقد أمر جلاله الملك عبد العزيز المذكور بفرشها ، من أوها إلى آخرها بالحجارة منعاً لإثارة الغبار . فشرعوا برفصف المسعى واتهوا من ذلك في أواخر ذي القعده من السنة المذكورة ، وهذه أول مرة يفرض فيها المسعى بالحجارة ، وكان قبل ذلك تراباً يثور الغبار منه بسبب الساعين ، فاستراح الناس وسهل السعي بعد رصده وتبلطيه ، فجزى الله الملك عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية خير الجزاء .

ومما قاله الأستاذ فؤاد الخطيب :

نصر الله تعالى ورعى ملك العرب الحسين الأروع
مرت الأجيال لم يرفع لهم غيره الطل الذي قد رفعا
وحمى الإسلام في خير حمى فهو ظل الدين والدنيا معا
ضح بالشكر وبالحمد له كل من طاف ولبس دعاء
وجزى الفرزان عن همته خير ما يجزي به من نفعا
صدق الله الذي قال لنا ليس للإنسان إلا ما سعى
وقد كتبت هذه الأيات على لوحة وعلقت بأعلى السقية من جهة الصفا .

ومما قاله الأستاذ صبحي بن طه الحلبي :

لقد شاد مولى العرب حامي ذمارها عظيم الأيدي واستحق بها الشكرا
وخلد للتاريخ آيات سود وأشرف أعمال يضيف بها حسرا
ماثرها جل وأذنى أمرها سقيفة سعي جاءت الآية الكبيرة
رعى الله بانيها ورافع سكها ومن مد فيها مكارها الغرابة
بهمة مولى الفضل قزاننا الذي تولى على أعمالها الرأي والأمرا
في أيها الساعي إلى مشعر الهدى وقيت بها فيح المواجر والحراء
ويا ملكاً أعطى المفاجر حقها وكان لنا في كل نائبة ذخرا
تبasher بخير قلت فيه مؤرخاً لدى عهده المسعي تضاء بالبشرى
أما تسقيف المسعي ، وبعبارة أصح وأضخم «تعمير المسعي من أرضه إلى
سقفه» بشكله الحاضر اليوم ، فقد كان بالإمكان المسلح في ضمن تعمير المسجد
الحرام وتوسيته ، حسب أمر جلاله مليكتنا العظيم الملك سعود بن عبد العزيز ، زاده
الله توفيقاً وعزّاً ، ولقد تم تعمير المسعي وتعبيد أرضه وتسقيفه ، من أوله إلى
آخره ، بهذا البناء القوي والشكل البديع الجميل .

وإذا كان بعضهم مدح تسقيف الشريف الحسين للمسعي ، ذلك التسقيف
الذي لم يكن أحسن منه في ذلك العهد ، فإنه ولا شك أن عمارة المسعي وتسقيفه
الآن ، وعمارة المسجد الحرام وتوسيته ، في هذا العهد المزدهر ، قد يطلق لقب السنة
جميع الشعرا في مدح مليكتنا العظيم الملك سعود بن عبد العزيز ، فإنه لم يسبق فقط
مثل هذه التوسيعة والعمارة ، كما يطلق لقب السنة جميع الناس بالدعاء له والثناء عليه ،
آدم الله توفيقاته عليه وقبل منه صالح الأعمال .

عرض المسعي

قال القطبي في تاريخه : وهنا إشكال ما رأيت من تعرض له ، وهو أن السعي
بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التي أوجبها الله تعالى علينا ، في ذلك المحل
المخصوص ، ولا يجوز لنا العدول عنه ، ولا تعتبر هذه العبادة إلا في ذلك المكان
المخصوص ، الذي سعى رسول الله ﷺ فيه ، وعلى ما ذكره هؤلاء الثقات أدخل
ذلك المسعي في الحرم الشريف ، وحول المسعي إلى دار ابن عباد كما تقدم .

وأما المكان الذي يسعى فيه الآن ، فلا يتحقق أنه بعض من المسعي ، الذي سعى فيه رسول الله ﷺ أو غيره ، فكيف يصح السعي فيه وقد حول عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات .

ولعل الجواب عن ذلك : أن المسعي في عهد رسول الله ﷺ كان عريضاً ، وبنيت تلك الدور بعد ذلك في عرض المسعي القديم ، فهدمها المهدى وأدخل بعضها في المسجد الحرام ، وترك بعضها للسعى فيه ، ولم يجعل تحويلاً كلياً ، وإلا لأنكره علماء الدين ، من الأئمة المجتهدين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، مع توفرهم إذ ذاك ، فكان الإمام أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، رضي الله عنهما ، والإمام مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، موجودين يومئذٍ وقد أقرروا ذلك وسكتوا ، وكذلك من صار بعد ذلك الوقت في مرتبة الاجتهاد كالإمام الشافعى وأحمد بن حنبل وبقية المجتهدين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، فكان إجماعاً منهم ، رضي الله عنهم ، على صحة السعي من غير نكير نقل عنهم .

وبقي الإشكال في جواز إدخال شيء من المسعي في المسجد ، وكيف يصير ذلك مسجداً ، وكيف حال الاعتكاف فيه ، وحله بأن يجعل حكم المسعي حكم الطريق ، فيصير مسجداً ويصبح الاعتكاف فيه ، حيث لم يضر من يسعى فاعلم ذلك ، وهذا مما انفرد بيانيه والله الحمد على التوفيق لتبنيانه . انتهى من تاريخ القطبي .

وما يشبه ما ذكره الإمام القطبي في تاريخه عما أخذ من أرض المسعي وأدخل في المسجد الحرام ، فأحدث في زماننا في التوسعة السعودية للمسجد الحرام ، وتكسر شيء من جبل الصفا إلى جبل المروءة ، زيادة في عرض المسعي ، ولذلك منظره جميلأ في رأي العين ، وذلك في سنة (١٣٧٧) هجرية ، فإن هذه الحادثة تشبه ما ذكره الإمام القطبي لكن مع الفارق ، فما ذكره القطبي عبارة عن إدخال جزء من المسعي في المسجد الحرام ، وأما ما نذكره فهو عبارة عن إدخال جزء من جبل الصفا إلى حدود المسعي .

فمما لا شك فيه أن هذا الجزء المأخوذ من جبل الصفا ، في زماننا هذا ، والمدخول في حدود المسعي ، لم يكن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام قد سعوا في هذا الجزء المستحدث اليوم ، فعلى هذا لا يجوز السعي في هذا الجزء المأخوذ الآن من هذا الجبل ، كما لا يجوز السعي بين الدرج الجديدة المستحدثة الآن وبين المروءة

فلا بد للساعي من المروءة أن يصل إلى درج الصفا القديمة مقابلة للحجر الأسود . فمن أراد الاحتياط لدينه والبراءة لنعمته فليترك من جدار المسعى ، فيما بين الصفا والمروءة ، نحو مترين . نقول هذا احتياطاً لدیننا وتربيّة لنعمتنا ، فالنصيحة واجبة لكافة المسلمين من الخواص والعوام . والله تعالى أعلم .

حالة المسعى قبل التوسيعة السعودية

وهنا يستحسن أن نأتي بما قاله ، في حال المسعى ، الدكتور المصري "محمد حسين هيكل" ، في كتابه ، "في منزل الوحي" قال رحمة الله تعالى فيه ما نصه : وأئمنا المسعى سبعاً وأن لنا أن نصرف وأن نتحلل التحلل الأكبر ، على أني وقفت هنีهة ، قبل منصرفنا ، أمام مقهى المقاهي القائمة وسط المسعى ، وقلت لصاحبي : أفيlicable أن تقوم أمثال هذه المقاهي والحوانيت على حافة هذا المكان القلس ؟ ! قال : إنها ليست على حافته ، بل هي قائمة داخل حرمته . والذين أقاموها لم يتقدوا الله ولم يرعوا حقه ، بل اعتدوا عليه عدواناً مبيناً . والعجب أن منهم من اجترح هذا العدوان تبركاً بأرض هذا المنسك ، ناسياً أنه يؤثر بها نفسه ويجرم منها ملايين المسلمين على تعاقب الأجيال .

ولقد ثارت نفسي حقاً لمنظر هذه المقاهي وهذه الحوانيت ، التي تتجز في السبع والمنسوجات ، وما إليها ، مما يتبرك الحجيج به وزاد نفسي ثورة منظر صيارة النقود ، الذين يصكرون الآذان بصرير ريالاتهم السعودية ، إعلاناً بها عن أنفسهم ، ما لهذا المكان الذي يتوجه فيه الناس إلى الله بالتوبيه والاستغفار وصرف النقود والجلوس إلى المقاهي وتبادل التجارة ! وما لهذا المكان الذي ينسى الناس فيه بخارية الحياة ليتصلوا فيه بيارتهم وهذه الحماقات من بخارية الحياة ! أليس من الخير أن تظل لهذا المكان حرمته كاملة وأن تكون الحوانيت في طريق غيره قريب منه ، إن لم يكن بد من أن ينصرف الناس بعد استغفار ربهم إلى شرب القهوة وشراء السبحة والمكحلة وإلى صرف النقود للتبدل !

وليس ذلك كل ما يثير النفس لحال المسعى ، فقد بلغ من إهمال شأنه ، وهو منس克 من مناسك المسلمين ، حداً بعيداً . واحتياز بعض الطرق إياه ومرور الدواب والعربات والسيارات في هذه الطريق بين الساعين بعض مظاهر هذا الإهمال . فإذا أنت تحدثت في ذلك قيل لك : وما عساك كنت تقول من عهد

قريب وقبل أن ترعنى الحكومة الحاضرة هذا المنسك بعنایتها ! فقد كان حرمأً للكلاب تقيم في ظلاله نهارها وليلها لا يزعجها عن مرقدها أحد وكأنها حمام الحمى .

لقد كان المسعي ، إلى صدر الإسلام ، طریقاً مستقيماً يصل بين ربوتي الصفا والمروءة ، متصلأ بما حوله من فسيح الصحراء وهضابها ، وتطل عليه الجبال المحيطة بمكة ، أما منذ مئات من السنين ، فقد بلغ من طغيان الدور التي أقيمت في حرمته ، أن اعوج اعوجاجاً ، يحول دون رؤية الصفا من المروءة أو رؤية المروءة من الصفا ، كما حال سقفه بين الساعين وفسحة الجو وبهاء السماء ، وأحيلت كل من الربوتين درجاً أححيطت جوانبه الثلاثة بالجلدان أما أرضه فقد رصفت بالحجر رصيناً غير منتظم .

ثور النفس هذه الحال التي عليها المسعي . ولو لا أن الناس يحسبوه كذلك منذ وجد ، ولو لا أنهم إذ يرونـه يشغلـهم السعي عـما سواه ، لقامـ بينـهمـ من يدعـوهـمـ إلىـ الثـورـةـ لإـصـلاـحـهـ ، وإـلـازـالـةـ هـذـهـ المـسـاسـ بـحـرـمـةـ مـكـانـ يـحـبـ أـنـ يـحـاطـ بـكـلـ تـقـدـيسـ وإـجـالـلـ . ذلكـ كـانـ شـعـورـيـ سـاعـةـ منـصـرـيـ مـنـ المسـعـيـ . وما زـالـ هـذـاـ الشـعـورـ يـخـزـ فيـ نـفـسـيـ . فـلـعـلـيـ أـجـدـ مـنـ يـشـارـكـيـ فـيـ دـعـوـةـ الـمـسـلـمـيـنـ إـلـىـ إـصـلاـحـ مـنـسـكـ منـ شـعـائـرـ اللهـ . وـلـعـلـيـ أـجـدـ مـنـ الـحـكـومـاتـ إـلـاـسـلامـيـةـ اـسـتـبـاقـاـ لـلـخـيـرـاتـ هـذـهـ الدـعـوـةـ . اـتـهـيـ مـنـ كـتـابـ مـنـزـلـ الـوـحـيـ .

الحلاقون بالمروة

في أواخر سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف ، هدمت جميع البيوت والمنازل ، التي كانت في المسعي ، عند المروءة ، وتحت هذه الدور والمنازل دكاكين متعددة على الجانبين من اليمين والشمال ، فجميع الدكاكين ، التي عند المروءة تماماً ، من جانبيها يشغلها «الحلاقون والحجامون» يعني : أن نحو عشرة دكاكين عن يمين المروءة ومثلها عن شماليها ، مما يلاصق المروءة تماماً ، لا يشغلها سوى الحلاقين «المزيدين» والحجامين ، ليس بينهم أحجني عن صنعتهم مطلقاً ، وأن هذا الأمر ليس جديداً مستحدثاً في عصرنا ، بل هي عادة اتباعها الحلاقون من قديم الزمان . فلقد قال الإمام الأزرقي المولود بمكة في القرن الثاني من الهجرة في تاريخه ، عند الكلام على رباع آل داود بن الحضرمي ما يأتي : ومن رباعهم أيضاً الدار التي عند المروءة

في صف دار عمر بن عبد العزيز ، ووجهها شارع على المروءة ، الحجامون في وجهها ... إلخ . اهـ .

فيعلم صريحاً من كلام الأزرقي رحمة الله تعالى أن الحجامين في زمانه كانوا يشغلون الأماكن التي كانت عند المروءة ، ونحن نعتقد أن اشتغال الحجامين عند المروءة يرجع إلى صدر الإسلام ، وصنعة الحجامة تقتضي معرفة الحلاقة .

والسبب في ذلك معقول ، وهو أن المروءة هي مكان انتهاء السعي ، فعندما يتحلل المحرم بالحج أو بالعمراء ، بعد انتهاءه من السعي ، والتحلل من الإحرام لا يكون إلا بالخلق أو التقصير . فكان من العقول والأحسن أن يكون موضع الحلاقين والمزبائن عند المروءة التي يتنهى عندها السعي ، ليحلقوا بالموسي أو يقصّروا بالقصص رؤوس المحرمين بالنسك ، ليتحلّلوا سريعاً من أعمال الحج أو العمرة ، مع العلم بأن التحلل بالخلق لا يشترط فوراً بعد السعي ولا عند المروءة نفسها ، فإنه يجوز للمحرم أن يخلق بعد انتهاءه من السعي في أي مكان شاء وفي أي وقت شاء ، لكنه يبقى في حكم الإحرام إلى أن يخلق ، فالمبادرة بالخلق ، فيها مصلحة لنفس المحرم ، وهي أن يكون حراً طليقاً من قيود حرمات الإحرام .

انظر: صورة رقم ١٨٩ ، الحلاقين بالمروءة

موضع الشنق بالمسعى

الشنق ، بفتح أوله وسكون ثانيه ، في عرف الناس اليوم ، هو الصلب ، بالفتح ، لقد كان موضع الصلب منذ قرون ، في المسعي عند المروءة ، في محل السبيل المصري للماء ، وهذا السبيل كان يبعد عن المروءة بنحو سبعين متراً ، وقد هدم هذا السبيل في زماننا لتوسيعة المسعي .

انظر: صورة رقم ١٩٠ ، السبيل المصري الذي كان يظهر بناية إدارة عين زبيدة بالمسعى قبل المروءة بقليل .

إذا أرادوا صلب رجل من المحرمين والقتلة صلبوه وشنقوه في موضع هذا السبيل . فقد قال الغازى ، في تاريخه ، نقلاً عن ابن فهد : أنه في سنة (٨١٧) سبع عشرة وثمانمائة ، أنشأ عطيه المطير سبيلاً بالمروءة ، وكان موضع هذا السبيل ، قبل ذلك ، معداً للشنق ، فقال شعبان الآثاري في ذلك :

مكة دار للشنق ركنتها وأضحت سبيلاً بعد كل بلية
وأضحى لسان الحال منها يقول رضيت من المولى بخير عطية
وقال بعضهم أيضاً :
يسعى رسول الله دار معذلة لشنق فصارت للأئم سبيلاً
انتهى كلام الغازي .

نقول : ولم نبحث عن تاريخ بناء هذا السبيل بالمروة غير أننا نعتقد بيقين أن بناءه كان في عهد الأتراك قبل سنة ألف وثلاثمائة هجرية . ولقد انتهى عهد الصليب والشنق بمكة المشرفة وأبدلوا بالقتل بالسيف ، وجعلوا مكان القتل بالسيف أمام قصر الحميدية ، وهو بجهة الصفا ، يبعد عن جبل الصفا كبعد السبيل عن المروة ، أي إن قصر الحميدية كان يقابل مدخل أجياد ، ثم هدم قصر الحميدية وما يجاوره في زماننا لتوسيعة المسجد الحرام ، فصار اليوم قتل الحرم بالسيف أمام باب سعود ، أحد أبواب المسجد الحرام ، وهو يقابل محل قصر الحميدية الذي هدم الآن للتلوسيمة ، والسبب الذي جعلهم يقتلون الحرم بالسيف أو بالصلب بالصفا والمروة ، هو لأجل أن يشاهد الساعون بالمسعى والخارجون من المسجد الحرام قتل الحرم الآثم ، وذلك ردعًا للناس من الفساد والإفساد ، والحمد لله الذي أبدل الصليب بالسيف فإن السييف أريح للمقتول من الصليب .

انظر: صورة رقم ١٩١ ، شارع المسعى من جهة الصفا بمكة المشرفة .

حالة المسعى

إننا لو نظرنا إلى حالة أرض المسعى ، فيما بين الصفا والمروة ، منذ العصور الأولى ، أي منذ عهد خليل الله إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، عندما جاء بابنه إسماعيل وهو طفل رضيع مع أمه هاجر ، عليهما الصلاة والسلام ، من فلسطين وأسكنهما بمكة ، عند بيت الله الحرام ، قبل بنائه له ، ولم يكن بمكة يومئذ أحد من الإنس ولا من الحيوانات ، ما عدا الجبال والأحجار والصخور وأشجار السلم والشوك .

إذا نظرنا إلى ذلك العهد البعيد ، ومكة على حالتها الأولى الطبيعية ، لم يلمس شبراً من أرضها يد الإصلاح والتعمير ، نجد أن أرض المسعى فيما بين الصفا

والمروة ، لم تكن بهذا الوضع بل كانت كلها منحدرات ومنخفضات ومرتفعات بشكل غير منظم ، يصعب فيها المشي والصعود والهبوط ، فيما بين الصفا والمروة ، بل وجميع الطرقات بمكة .

فلما استوطن الناس مكة من عهد نبي الله تعالى إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، منذ أربعة آلاف سنة تقريباً ، جرى الإصلاح فيها بالتدرج ، شيئاً فشيئاً ، في مواضع سكناهم ، حول الكعبة المشرفة ، والأماكن القرية منها ، فكانت الإصلاحات فيها قليلاً جداً في عهد جرهم والعمالقة ، وهم أول من سكروا مكة في عهد نبي الله إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وكل ما كثر الناس عدّة زادت الإصلاحات فيها ، ولا يمكننا تعين الأزمنة التي جرى فيها الإصلاح في طرقات مكة ومواقع عمرانها ولا بأس أن نقسم تلك الأزمنة الإصلاحية على وجه التقرير والتخيّل إلى ستة أقسام ، وهي كما يأتي :

- ١) عهد نبي الله إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، ففي هذا العهد جرى شيء بسيط من الإصلاحات في مواضع سكنا الناس و محلات تجمعهم .
- ٢) عهد قريش في الجاهلية ، ولقد جرى الإصلاح بمكة أكثر من العهد الأول ، ففي هذا العهد قسم قصي بن كلاب أمور مكة إلى ستة أقسام كما ذكرنا ذلك في محله .
- ٣) عهد ظهور الإسلام ، وهذا العهد أكثر من العهدين السابقين تقدماً ووعياً ، وقد كثر سكان الناس فيه عمما مضى ، حتى أن بعض كبار الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم ، قد وسعوا المسجد الحرام عن العهد الأول كما ذكرنا بيان ذلك في محله .

- ٤) عهد التابعين ومن بعدهم إلى نحو القرن الخامس للإسلام . ففي هذا العهد تقدم الناس كثيراً في المسائل الحيوية ، وفي أمور الدنيا وجرى الإصلاح في مواضع سكناهم بمكة وفي طرقاتها ، حتى أنهم قد وسعوا المسجد الحرام توسيعة عديدة ، حتى كان بالقياس الموجود في عصرنا الحاضر ، قبل التوسيعة السعودية . بل أنهم أصلحوا المسعى أيضاً ، فيما بين الصفا والمروة ، وعملوا درجاً للصفا ما زالت موجودة إلى اليوم ، لكنها مطمورة تحت الأرض بقرب درج الصفا ، كما شاهدناها بأنفسنا عند التوسيعة السعودية في عمارة المسعى ، وقد نزلنا على أول هذه الدرجات القديمة ووقفنا عليها وأخذنا صورتنا الفوتوغرافية في هذه الحالة وإليك هذه الصورة .

انظر: صورة رقم ١٩٢ ، المؤلف واقفاً على درجات الصفا القديمة منذ مئات السنين

٥) عهد ما بعد القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري وهذا العهد أحسن من جميع العهود السابقة في تقدم الناس ومعرفتهم بأمور الحياة ، وحصل فيه بحكمة المكرمة من العمران والإصلاحات ما لم يكن من السابق ، حتى أنهم في هذا العهد أصلحوا المسعي وبنوا درجاً على الصفا في القرن الثامن أو التاسع الهجري ، فلقد قال الإمام العلامة ابن حجر الهيثمي المكي ، المولود سنة (٩٠٩) تسع مائة وتسع هجرية ، في حاشيته على إيضاح المناسب ، للإمام النووي ، رحمة الله تعالى ، في الفصل الثالث ، في السعي وما يتعلق به ، ما نصه : إن درج الصفا كانت كثيرة ، وكان الوادي نازلاً حتى إن الشخص كان يصعد درجاً كثيرة ليرى البيت ، بل قيل إن الفرسان كانت تمر في المسعي والرماح قائمة فلا يرى من بالمسجد إلى رؤوسها ، وأما اليوم فيرى من غير رقي على شيء من الدرج ، ثم ذكر أن على الصفا اثنين عشرة درجة وعلى المروءة خمس عشرة درجة وكان البيت يرى إذا رقي عليها فحالات الأبنية . انتهى من حاشية إيضاح لابن حجر .

٦) عهد ما بعد القرن العاشر للهجرة أي ما بعد الألف ، أي عصرنا الحاضر وزماننا ، وهو سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية ، فهذا العهد أحسن العهود السابقة في التقدم وال عمران ، لا في الديانة والعبادة ، إن هذا العهد عهد الآلات والكهرباء عهد التقدم والعمaran بالمعنى الصحيح ، لقد صار الناس يركبون السيارات والقطارات والدبابات والطيارات ، وصاروا يركبون البوارج والبوارج والغواصات في وسط المياه ، بل صاروا يطيرون في الهواء بالطائرات ، حتى وصلوا إلى القمر ، كما هو شائع مستفيض بيننا ، والله تعالى أعلم بما يكون في المستقبل من المخترعات الحديثة العجيبة ، فقد قال الله تعالى : **﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُون﴾** ، فلقد حصل في زمان الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ، رحمة الله تعالى ، بعض إصلاحات وترميمات في أرض المسعي وفرشوها بال بلاط أي بالحجارة الجبلية ، وكانت أرضها من قبل تراباً فإذا كثر الحجاج تصاعد منها الغبار ، وقد أمر رحمة الله تعالى ، بتأليف لجنة من كبار العلماء لتحديد موضع المسعي ولعمل مظلة أي صندقة فوق أرض المسعي تقى الساعين حرارة الشمس

ووجهها ، فتم كل ذلك في سنة ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثين هجرية (١٣٣٥) تقريراً فجزاه الله تعالى خير الجزاء .

ثم حصلت في زماننا ، في العهد السعودي الثاني ، توسيعة المسجد الحرام ، ومن ضمنها المسعي ، فلقد أصلحوا موضع السعي من الصفا والمروة ، بما لم يكن في الحسبان . كما أصلحوا أرض المسعي بالإسماعيلية المساجع ، وعما قريب يضعون فوقه المرمر ، إن شاء الله تعالى ، فأصبح منظر المسعي من أجمل المناظر ، لم يكن مثله قط في سالف العصور ، ولكن هذه الزخارف والقصور لا تغفي من الحق شيئاً ، فالعبرة بحسن النيات وخلوص الأعمال ، ففي الحديث الصحيح : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم . نسأل الله تعالى أن يتقبل منا صالح الأعمال ، ولا ندري هل ستبقى هذه العمارة إلى قيام الساعة ، أم ستكون بعدها عمارات وعمارات وعمارات ، الله تعالى أعلم بالغيب .

انظر : صورة رقم ١٩٣ ، المسعي مفروشة بالحجارة الجبلية في عهد الشريف الحسين

فإذا نظرنا إلى حالة المسعي منذ العصور الأولى من عهد سيدنا إبراهيم خليل الله عز وجل باني الكعبة المشرفة ، وإلى العصور التي بعده ، إلى زماننا هذا ، علمنا ما نحن فيه من الراحة واليسير إذا سعينا بين الصفا والمروة سعي الحج أو العمرة ، فإن الساعي في عصرنا الحاضر يقطع سعيه سبعة أشواط ، بين الصفا والمروة ، في نصف ساعة . بينما كان يقطع هذه الأشواط عند ظهور الإسلام وما بعده من القرون في ساعة واحدة ، وكان يقطع هذه الأشواط بينهما قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة في ساعة ونصف ، والسبب في هذا التفاوت مع أن موضع السعي هو هو لم يتغير ولم يتبدل ولم ينقص ولم يزد ، هو أن أرض المسعي في العصور السابقة كانت مليئة بالأحجار والصخور ، وكان فيها مرتفعات ومنخفضات ، فكان السعي فيها عسيراً . أما في عصرنا الحاضر فقد ارتفعت أرض المسعي عن سابق العصور حتى تساوت بأرض الشارع ، وصارت مستقيمة معبدة بالإسماعيلية فكان السعي فيها سهلاً ميسوراً للجميع . فجزى الله تعالى كل من عمل خيراً في المساجدين الحرامين ورضي عن كل من يسر أمور المسلمين في كل زمان ومكان آمين . مع العلم بأن الناس كانوا يسعون على أرجلهم وعلى الخيل والبغال

والحمير ، وقد شاهدنا في عصرنا اليوم بعض الملوك يسعون وهم يركبون السيارات التي تمشي على عجلات أربع .

انظر: صورة رقم ١٩٤ ، السعي بين الصفا والمروة في وقتنا الحاضر بعد التوسيعة السعودية

تقسيم المسعي طولاً إلى قسمين

لقد كان السعي بين الصفا والمروة مرهقاً ، فيه مشقة شديدة ، وبخاصة على الكبار والشيوخ ، فرأينا أن تقترح على الحكومة السعودية من أن تضع حاجزاً يقسم المسعي طولاً إلى قسمين : القسم الأول لمن يسعى من الصفا إلى المروة ، والقسم الثاني لمن يأتي من المروة إلى الصفا ، وذلك حتى لا يتصادم الساعون مع بعضهم ويدفع بعضهم بعضاً ، في اتجاهين مختلفين ، فنشرنا هذا الاقتراح في إحدى الجرائد المحلية بمكة المكرمة ، وذلك في سنة (١٣٥٧) ألف وثلاثمائة وسبعين وخمسين هجرية تقريباً . فنفذت الحكومة اقتراحتنا المذكور وصار المسعي مقسوماً بالطول إلى قسمين ، فنفادي الناس الازدحام والتدافع إلى جهتين متضادتين . فالحمد لله على التوفيق .

انظر: صورة رقم ١٩٥ ، المؤلف وهو واقف على العمل الجاري في المسعي

المساجد التي في حدود الحرم

وهنا نذكر المساجد التي عند حدود الحرم وهي كما يأتي :

- ١) مسجد التنعيم .
- ٢) مسجد الشميسي .
- ٣) مسجد الجعرانة .
- ٤) مسجد ثمرة بعرفات .

وإليك الكلام على كل ذلك :

مسجد عائشة بالتعيم

التعيم مكان معروف ، واقع بعد الظاهر وبعد الشهداء ، يبعد عن المسجد الحرام بنحو ستة كيلو مترات ، وبعد التعيم بنحو أربع كيلو مترات يقع قرآن المؤمنين السيدة ميمونة ، رضي الله تعالى عنها .

قال الغازى في صحيفة (٣٥١) : ومنها مسجد فوق التعيم ، على يمين المستقبل ، يقال له مسجد عائشة وهو بعيد عن حد أميال الحرم ، وكان يسمى مسجد الهمليلحة ، لشجرة كانت هناك قديماً . وقد تهدم هذا المسجد وما بقى منه إلى آثار جدرات قائمة ، فكان المكان الذي أرسل إليه النبي ﷺ أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها ، مع أخيها ليعتمرا منه ، ولا يصل إليه المعتمرون الآن ، بل يقتصرون على أميال الحرم فيبرزون منها قليلاً ويحرمون بالعمرمة ويعودون . ومسجد عائشة ، مما يتquin تجديده وتعميره ، لأنه من الآثار المباركة القديمة ، وقد ترك الناس لتهدمه ، واقتصروا على مساجد مرضومة من الأحجار الصغار ، وتنهدم ويرضم غيرها ، وكلها من وراء الأميال بمرأى منها ، وهناك صهريج عظيم قديم ، يمتد من السيل أيام المطر ، يتوضأ المعتمرون منه . انتهى كذا في الإعلام .

انظر: صورة رقم ١٩٦ ، مسجد عائشة رضي الله عنها بالتعيم

وقال العلامة الأسدى في أخبار الكرام ، بعد نقل هذه العبارة ، ولعل المساجد التي كانت مرضومة بالأحجار هي التي بين فيها المسجد الموجود الآن ، بناه محمود بك صاحب جدة عام (١٠١٢) أثني عشر وألف ، على هيئة دكة مرتفعة بعضها ، وفي الحراب يصلى فيه المعتمرون الآن سنة الإحرام ويحرمون ويعودون . انتهى .

وفي مناجع الكرم للسنحارى ، أمر السنحاق محمد بك ، سنة إحدى عشرة وألف ، بناء سقف على مسجد العمرة ، فبني في صدر القبلة . انتهى .

وفي الغازى أيضاً في صحيفة (٣٩٤) ما ملخصه : التعيم المذكور في حد الحرم من جهة المدينة النبوية هو أمام أدنى الحل ، على ما ذكره الطبرى ، قال : وليس بطرف الحل ، وما فسره بذلك تحيوز ، وأطلق اسم الشيء على ما قرب منه ، وأدنى الحل إنما هو من جهة ، ليس موضع في الحل أقرب إلى الحرم منه ، وهو على ثلاثة أميال من مكة ، والتعيم أمامه قليلاً ، في صوب طريق وادي مر الظهران . انتهى بنصه . وقد أقيم عند التعيم علمان ، يفصلان الحل من الحرم ،

ارتفاع كل منها ستة أمتار وعرضه ثلاثة ، وهم مبنيان بالحجر والملاط الجيد ، والذى بناهما محمد أو أحمد بن المقذر الراضي بالله سنة (٣١٥) هجرية . انتهى كذا في مرآة الحرمين ، انتهى من الغازي .

قال في مرآة الحرمين وطول هذا المسجد ١٦ متراً في عرض ١٥ متراً وارتفاع ٤ أمتار ومكتوب في محرابه : بسم الله الرحمن الرحيم فَإِنَّمَا يَعْمَرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . إِلَى - مِنَ الْمُهَتَّدِينَ ، هذا مسجد السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، مجلده السلطان محمود في أول جمادى الثانية سنة (١٠١١) ، وخلف هذا المسجد حوض ، أعد لخزن المياه ، طوله ٢٤ متراً وعرضه ١٩ متراً وعمقه ٣ أمتار وسطحه مواز لسطح الأرض بالحجر والملاط والجيد ، وفي كل من الجهة الشمالية والجنوبية سلم يوصل إلى قاعة يتكون من سبع درجات .

انظر: صورة رقم ١٩٧ ، موضع صلب خبيب

انظر: صورة رقم ١٩٨ ، أعلام التعميم من البعيد

وهناك أيضاً صهريج كبير كان يمتهن من السيلول ويتو蟠ا منه المعترون وهذا الصهريج قديم . . إلخ حيث ذكر أن سنان باشا الوزير المجاهد ، لما حج سنة (٩٧٨) أمر بإصلاح بئر كان قد ملاها التراب ، وإقامة ساقية ومحرى هناك ، ليجري الماء من البئر إلى هذا الصهريج وإلى الخزان السابق .

ومن وراء هذا المسجد نحو مئات الأمتار إلى جهة الجبل الواقع في الخل ، موضع صلب الصحابي خبيب بضم الخاء المعجمة رضي الله تعالى عنه ، صلبه المشركون جهة التعميم بعد أن أخرجوه من حدود الحرم ، وإليك قصته وصورة موضع صلبه رضي الله تعالى عنه .

هذه الصورة فيها بناء ظاهر كأنه منارة صغيرة يقال أنه موضع صلب خبيب وهو يقع بعد مسجد التعميم بنحو مائتي متر ، في الخل لا في الحرم بقرب الجبل . وكانت هذه البناء الصغيرة موجودة إلى سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية وقد شاهدناها بأنفسنا ثم لا ندرى هل بقيت في موضعها أم هدمت بعد ذلك ، وغالب الفتن أنها هدمت بعد تلك السنة فإنما لم نذهب إلى تلك الجهة وخبيب بضم الخاء المعجمة وبالتصغير هو خبيب بن عدي الأوسى الأنباري ، وهو من السابقين في الإسلام ، قتله المشركون ، رضي الله تعالى عنه ، يمكث في التعميم بالخل وترجمته في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة فراجعها هناك إن

شت . وقد صلبه المشركون في تلك الجهة بعد الخروج من حدود الحرم ، لأنهم يحيطون الحرم فلا يقتلون أحداً فيه ، والتعييم هو أقرب حدود الحرم إلى مكة المشرفة لذلك خرجوا به ليقتلوه ، رضي الله تعالى عنه ، في جهة التعييم لأنه أقرب حدود الحرم وقد جاء ذكر خبيب ، رضي الله تعالى عنه ، في أواخر كتاب رياض الصالحين للإمام النووي في باب كرامات الأولياء وفضلهم ، فراجعه إن شئت وخبيب هو الذي طلب من أرادوا قتله أن يدعوه حتى يصلى ركتين فكانت الصلاة سنة لمن بعده لكل مسلم يقتل صرفاً بعد أن صلى خبيب ، رضي الله تعالى عنه ، ركتين قال :

فلاستُ أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب في الله كان مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشاء يبارك على أوصال شلو ممزع
وجاءت قصته أيضاً في صحيح البخاري .

الشميسي ومسجده

لا نريد أن نتكلم عن جميع المحطات ، الواقعة بين مكة وجدة ، لعدم أهميتها ، وإنما نتكلم هنا عن محطتين مهمتين : «الأولى» الشميسي «والثانية» بحرة وعن مسجديهما ، وكلاهما كقرية صغيرة لكن الثانية أكبر من الأولى .

فأما الشميسي : فقد كانت تسمى ، من قبل الإسلام ، بالحدبية باسم بشر هناك وفيها حصلت بيعة الرضوان ، كما سيأتي ، وهي بضم الحاء وفتح الدال المهملة ثم ياء خففة وقيل مشددة ، وبها الآن بعض أكواخ وجملة من البيوت المبنية باللبن ، ولا ندرى متى سميت بالشمسي ، ولماذا سميت بهذا الاسم . والمسافة بين المسجد الحرام وبين الشميسي ، أربعة وعشرون كيلو متراً ، والمسافة بين المسجد الحرام والعلماني الدلالان على حدود الحرم اثنان وعشرون كيلو متراً تقريباً ، ومن العلمين إلى مسجد الشميسي نحو اثنين كيلو متراً ويظهران منه نفس القرية الشميسي «الحدبية» ، ومسجلها ، العارمة اليوم بالسكان ومنازلهم واقعان في الخل لا في الحرم ، فقول صاحب «تقويم البلدان» عن الحديبية : هو موضع بعضه في الخل وبعضه في الحرم . هذا على اعتبار أن الحديبية تمت من قبل العلمين إلى ما بعد المنازل المسكنة والمسجد ، فعلى هذا الاعتبار يمكن أن نقول بعض الحديبية في الخل وبعضها في الحرم .

وفي هذه البقعة ، التي فيها المسجد والمنازل تقريراً ، نزل رسول الله ﷺ مع أصحابه في غزوة الحديبية الشهيرة ، وكانوا ألفاً وخمسمائة ، بينما خرج من المدينة ، في أواخر السنة السادسة ، يريد مكة للاعتمار ، وقد وصلوا إلى الشميسى من عسفان بأمر النبي ﷺ ، حتى لا يتلقوا بطليعة قريش في الطريق ، التي أتت لصد المسلمين عن التقدم .

ثم إن النبي ﷺ اختار عثمان بن عفان ، رسولاً من عنده إلى قريش ، حتى يغيرهم مقصدته . فتوجه عثمان ، ودخل مكة ، فبلغ ما حمل ، وحبست قريش عثمان من الرجوع ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال رسول الله ﷺ ، بينما سمع ذلك : لا نيرح حتى نناجرهم الحرب . ودعا الناس ، للبيعة على القتال ، فباعوه على الموت هناك ، تحت شجرة ، فسميت بشجرة الرضوان ، وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، التي ورد ذكرها في آية : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ . وفي خلافة عمر رضي الله عنه أمر بقطع هذه الشجرة لما رأى تبرّك الناس بها .

ثم إنه وقع الصلح بين قريش وبين رسول الله ﷺ ، على أن يرجع من حيث أتى من غير عمرة ، في هذا العام ، ثم يأتي العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه ، فيقيم بها ثلاثة أيام ، وغير ذلك من الشروط ، فأمر عليه الصلاة السلام ، أصحابه أن يخلقوا رؤوسهم ، وينحرروا هديهم ، ليتحلوا من عمرتهم .

فلما حال حول ، على عمرة الحديبية ، خرج ﷺ من المدينة . من كان معه سابقاً من الحديبية معتمراً ، وتسمى هذه العمرة بعمرة القضاء ، فجاء عن طريق مَرْ الظهران ، على مرحلة من مكة ، ويسمى اليوم بوادي فاطمة ، ودخل مكة من ثنية كداء ، فطاف بن معه ، وأمرهم أن يسرعوا في ثلاثة أشواط من الطواف ، إظهاراً للقوة ، لأن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكتيبة قوم نهكتهم حتى يثرب ، فلما أتم المسلمون طوافهم آمنين مخلقين رؤوسهم ومصرحين ، خرج رسول الله ﷺ من مكة يريد المدينة . وكان ذلك في السنة السابعة . ثم كان فتح مكة المشرفة في السنة الثامنة ، صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان ، كما هو مذكور في كتب السير ومن أراد زيادةً وتوضيحاً فليرجع إليها .

وفي الشميسى مسجد صغير ، أمر بعميره السلطان محمود خان ، سنة (١٢٥٥) خمس وخمسين ومائتين وألف من الهجرة ، ثم قامت منذ بضع سنوات

مديرية الأوقاف بترميمه وترخيمه . ووراء هذا المسجد آثار مصلى قديم متهدم ، وأثار سهل للماء ، للفادي والرائع ، وما يلفت النظر أن أرض هذه المصلى هي سقف لصهريج كبير ، كانت تملأ من مياه الأمطار والسيول ، ومع أن هذه المصلى والصهريج قد مرّ عليهما نحو ثلاثة عشر سنة ، فإنه من الصعب الآن إخراج حجر من بنائهما القديم ، بينما لم ينبا إلا بالحجارة والنورة فقط .

انظر: صورة رقم ١٩٩ ، أعلام الشميسى قديماً

انظر: صورة رقم ٢٠٠ ، مسجد الشميسى

ويحوار الصهريج بـر كبيرة عميقه ، مبنية بناءً قوياً بالحجارة ، تظهر فيها آثار السقاية والاستعمال الكثير ، فاستنتجنا من ذلك أن حوالها كان عامراً بالزارع والبساتين ، وكان آهلاً بالسكان ، ورأينا هناك مقابر كثيرة قديمة العهد .

قال الغازي في تاريخه : ومنها مسجد الحديبية ، وهو على نحو اثني عشر ميلاً من مكة ، للذاهب على طريق جدة ، بالموضع المسمى بالشميسى . وهذا المسجد موضع الشجرة ، التي بايع عندها الناس رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، عام الحديبية ، وأنزل الله تعالى في تلك البيعة : **هَلْقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَأْبَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** . وقد حصل التعمير فيه مراتاً ، وآخرها التعمير الذي كان سنة ثلث وستين ومائتين وألف ، في مدة السلطان عبد الجبار بن السلطان محمود خان انتهى . ذكره السيد أحمد دحلان في سالماته ، وقال الفاسي : الحديبية ، على ما ذكر النwoي في التهذيب ، بضم الحاء وفتح الدال وتحفيف الباء ، كما قاله الشافعي وأهل اللغة وبعض أهل الحديث ، وقال أكثر الحدثين ، بتشدد الباء ، وهو وجهان مشهوران . انتهى .

وفي مرآة الحرمين : وبالشميسى مسجد يسمى مسجد الشميسى أو مسجد البيعة ، وهو على اليسار ، مربع الشكل ، طول ضلعه (١٥) متراً ، ومبني بالحجر الأزرق ، بناءً متيناً ، وبمحصن ، وبه ثلاثة أبوقة (بواكي) ، وقبلته مكتوب فيها : هذا مسجد بيعة الرضوان ، مأثرة من مأثر حبيب المنان ، عمره الملك إلى رحمة الرحمن ، المغفور له السلطان محمود خان سنة (١٢٥٤هـ) أربع وخمسين ومائين وألف ، وبالشميسى بـر عمقها (١٠) أمتار بالتقريب ، مبنية بالحجر ، وما زالت مقبولة . انتهى من الغازي .

نقول : إن الحكومة السعودية قد هدمت هذا المسجد في أوائل سنة ١٣٧٩هـ.

فحبذا لو أن الناس عمروا هذا المكان التاريخي المهم بالسكنى والزراعة ، فإننا نعتقد أنه إذا أخرج التراب والحجارة ، من هذه البتر المذكورة ، ينبع منها ماء غزير عذب ، وإن هذا المكان يمتاز بطبيب الهواء ، وفسحة الأرجاء ، والقرب من مكة ، ومن حلود المرم وأعلامه .

نهرة ومسجدها

وأما بحرة وتسمى «بحرة الرُّغَاء» والرُّغَاء صوت ذوات الخف ، فإنها تقع في منتصف الطريق بين مكة وجدة ، والمسافة بين المسجد الحرام وبين بحرة تسع وثلاثون كيلومتراً تقريباً وهي إحدى المحطات الكبرى المهمة من قديم الزمان ، وهي في طريق الجمال والسيارات «الأوتومبيلات» كانت بها سابقاً بعض عشاش وحظائر للابل ، وبيوت من اللبن وقهاوي ودكاكين ، والآن صاروا ينسون بيوتهم بالحجارة والنورة والإسمت . وكانت بحرة ، قبل انتشار السيارات بالحجاز ، أي إلى عام (١٣٥٠) تقريباً ، أكثر بيعاً وشراءً وحركة من اليوم ، وذلك أنه من قديم الزمان كان المسافرون من الحجاج وأهل البلاد من مكة إلى جدة أو منها إلى مكة يسافرون على الجمال والشقادف «الهروادج» ، فيخرجون منها في العشية ويسيرون الليل كله ، فيصبحون ، مع الفجر أو مع شروق الشمس ، في «بحرة» ، فيحطون رحالهم ويستظلون في بيتها وعشاشها من الشمس ، ويستريحون فيها بقية النهار ، حتى إذا أقبل العشي شدوا رحالهم ، وتوجهوا إلى مكة أو جدة ويسيرون الليل كله ثم يصبحون بها .

انظر: صورة رقم ٢٠١ ، مسجد بحرة

أما اليوم فقد ترك الناس السفر بالجمل والدواب ، واستعراضوا عنها بالسيارات ، فالمسافة بين مكة وجدة بها ساعة ونصف تقريباً ، فالمسافر بها قد يجلس ببحرة للراحة لأنها منتصف الطريق بمقدار ما يشرب قليلاً من الماء وفنجاناً من الشاي والقهوة ، أو بعقدر ما يتوضأ ويصلّي ، ثم يركب سيارته ويتوجه صوب مقصد ، وبسبب هذا الحال لم تكن الحركة ، والبيع والشراء في بحرة ،

كسابق الأيام ، وعلى كل حال بحرة هي المخطة الرئيسية بين مكة وجدة من قديم الرمان إلى اليوم .

ولا ندري ما سبب تسميتها بذلك على أنه من زمن قديم تسمى «بحرة» ولم نقف على تسميتها بغير ذلك . لكن رأينا في كتاب «رحلة ابن جبير الأندلسي» ، الذي ابتدأ بتقبيلها في يوم الجمعة ثلثين شوال سنة (٥٧٨) مائة وسبعين وخمسة هجرية ، فساح في الأقطار على متن البحار ، حتى أتى الحرمين الشريفين ، أن بحرة كانت تسمى «قررين» كما يظهر من كلامه فإنه قال : وصلنا إلى جدة ظهر يوم الثلاثاء الرابع من ربى الثاني من السنة المذكورة ، ثم بعد أن وصف جدة وما بها قال : وفي عشي يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور ، كان انفصالتا من جدة ، قال : وأسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا «القررين» (بضم القاف أو كسرها) مع طلوع الشمس ، وهذا الموضع هو منزل الحاج ومحط رحالم ، ومنه يحرمون وبه يربون اليوم الذي يصيرونوه ، فإذا كان في عشية رفعوا وأسرعوا ليتهم وصبّحوا الحرم الشريف ، زاده الله تعالى تشريفاً وعظيماً ، والصادرون من الحج ينزلون به أيضاً ويسررون منه إلى جدة ، وبهذا الموضع المذكور يتر معينة عنزة ، والجاج بسيتها لا يحتاجون إلى التزود بالماء ، غير ليلة إسرائهم إليه . قال : فأقمنا بياض يوم الأربعاء مريحيين بالقررين ، فلما حان العشي رحنا منه محرين بعمره ، فأسرينا ليتنا تلك ، فكان وصولنا مع الفجر ، قرب الحرم ، فنزلنا مرتقيين لانتشار الضوء ، ودخلنا مكة ، حرستها الله تعالى ، في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربى المذكور ... إلى آخر كلامه .

فظهر لنا هنا من كلامه ووصفه أن المقصود من كلمة «قررين» في عصر ابن جبير المذكور ، هو «بحرة» لأن وصفه هذا ينطبق على بحرة تمام الانطباق . لكن هل كانت بحرة تسمى بقررين في صدر الإسلام أم لا ، الله أعلم بذلك ، فإنما لم نبحث عن هذا . وأما في زماننا فقررين «بضم القاف وكسرها» يطلق على جبل عرفات وربما كان جبل الرحمة نفسه ، وقول ابن جبير : إن الحاج يحرم من القررين وأنه هو نفسه مع من معه أحرموا منه بعمره ، حينما قاموا منه قاصدين مكة قوله هذا خطأ ، فالحجاج يحرمون من الميقات ، ولا يحرمون من جدة أو من بحرة ، فمن أحرم من أحدهما من الحجاج وجب عليه الدم لتركه الميقات ، وأما أهل جدة أو أهل بحرة فيحرمون من نفس بلدتهم ، والله تعالى أعلم .

أما المسجد القديم ، الذي يبحة ، قيل إن النبي ﷺ صلى في موضعه منصرفه من غزوة حنين أو ثقيف أو الطائف والله تعالى أعلم بصحته ، فإنما لا نجزم بذلك بل نشك فيما قيل ، وإنما هو كالمساجد الأخرى غير أنها قديمة العهد ، فإن قرية بحرة معروفة من قديم الزمان وهي المخطة الكبرى الرئيسية لقوافل الحجاج ، وأهلها كلهم مسلمون لا يمكن أن تكون بدون مسجد يصلون فيه .

قال عنها إبراهيم باشا رفعت صاحب كتاب «مرأة الحرمين» ما نصّه : وبحرة تسمى «بحرة الرغاء» على يسار الميّم مكة ، وبها أكواخ حقيرة ، وحظائر للإبل ، وقهاري ، ومسجد صغير ينذرنا ، بني أصله النبي ﷺ منصرفه من غزوة الطائف ، سنة ثمان ، وصلى فيه كما جاء في سيرة ابن هشام ، وفيها عقب ذلك . قال ابن إسحاق : فحدثني عمرو بن شعيب أنه أقاد يومئذ بحرة الرغاء ، حين نزلها ، بدم ، وهو أول دم أقيد به في الإسلام ، رجل من بني ليث قتل رجلاً من هذيل فقتله به . اهـ .

وهنا قال مؤلف كتاب «مرأة الحرمين» : ولكن في زاد المعاد في هدى خير العباد في غزوة الطائف ما يأتي : ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة ، ثم دخل منها محراً فقضى عمرته ، ثم رجع إلى المدينة . اهـ .

قال المؤلف المذكور : والطائف في الجنوب الشرقي لمكة والجعرانة بينهما ، لكنها أقرب إلى مكة ، فكيف يتفق مع ذلك أنه مر ببحرة منصرفه من غزوة الطائف ، مع أنها غربي مكة ، ولا تقل المسافة بينهما عن ثلاثين ميلاً ، وبين الجعرانة ومكة حوالي عشرة أميال ، إنما لذلك نقف الشك فيما رواه ابن هشام ، ونقله عنه كثير من المؤرخين حتى يأتينا اليقين . انتهى كلام صاحب مرأة الحرمين .

الجعرانة : هي بكسر الجيم وسكون العين المهملة وخفيف الراء وهو الأشهر وبهذا ينطق الحجازيون إلى اليوم ، وقيل : بكسر الجيم والعين وتشديد الراء .

نقول والله تعالى أعلم : لا داعي للشك في هذه المسألة ، فإن النبي ﷺ قد نزل في الحديثة التي تسمى الآن «بالشميسى» مع أصحابه ، ونزله هنا لا شك فيه وقد قدمنا الكلام عنه هنا في أول الفصل ، وبين الشميسى وبين بحرة خمسة عشر كيلو متراً ، فالمسافة قريبة بينهما ، وطريق المدينة ، للمسافر من مكة ، من قديم الزمان ، هو عن طريق مرّ الظهران ، المسمى الآن «بودي فاطمة» ووادي

فاطمة واقع عند الكيلو « ٢٩ » للذاهب إلى جدة ، فعسفان ثم المحطات الأخرى ، الواقعة في طريق المدينة ، وبين عسفان ومكة مرحلتين تقريباً ، وعسفان أقرب إلى بحرة ووادي فاطمة ، فترى هذه الأماكن قرية بعضها من بعض ، وفي كل منها طريق يؤدي إلى المدينة المنورة ، أما الطريق من مكة إلى المدينة اليوم فهو عن طريق بحرة فجدة ثم بقية المحطات ، وذلك بالسيارات وبالجمال أيضاً ، وقلّ من يذهب إليها الآن عن طريق عسفان . وهذا الطريق ، كان سابقاً يسمى بالطريق السلطاني ، وهو أحسنها سيراً وأكثراها ماءً ، كما ذكر ذلك صاحب « الرحلة الحجازية » ، فقد قال : إذا مشت القافلة من مكة من الطريق السلطاني فإنها تمر على المحطات الآتية : وادي فاطمة ، عسفان ، خليص ، القضيمة ، رايع ، مستوره ، ثم ذكر بقية المحطات لا داعي لذكرها هنا .

فعلم مما تقدم أن النبي ﷺ قد مرّ وأقام بالشميسي أي الحدية ، التي حصلت فيها بيعة الرضوان بدون شك ، ولما كانت بحرة ووادي فاطمة في طريق الذاهب إلى المدينة ، فمن الجائز أن يكون النبي ﷺ مرّ بهما في طريقه إلى المدينة ، والله تعالى أعلم .

الجعرانة و مسجدلها

قال الفاسي في شفاء الغرام : اختلف في ضبط العين والراء من الجعرانة ، فقال التووي في تهذيب الأسماء واللغات : الجعرانة بكسر الجيم وإسكان العين وتحقيق الراء ، هكذا صوابها عند إمامنا الشافعي والأصممي وأهل اللغة ومحققي المحدثين وغيرهم ، منهم من يكسر العين ويشدد الراء ، وهو قول عبد الله بن وهب وأكثر المحدثين ، قال صاحب مطالع الأنوار : أصحاب الحديث يشددونها ، وأهل الإتقان والأدب يخطئونهم ويخففون ، وكلاهما صواب ، حكم إسماعيل القاضي ، عن علي بن المديني ، قال : أهل المدينة يتلقنها ويقلون الحدية وأهل العراق يخفونهما . انتهى .

قال الغازى : الجعرانة الموضع الذي أحرم منه النبي ﷺ لما رجع من الطائف ، بعد فتح مكة ، هو موضع مشهور ، على بريد من مكة ، فيما ذكره الفاكهي ، كذا في العقد الشمين .

أخرج الجندى ، في فضائل مكة ، بسنده إلى يوسف بن ماهك ، أنه قال : اعتمر من الجعرانة ثلاثة نبى و كان ذكره الفاكهي . وفي جهة الجعرانة ماء شديد العذوبة ، يقال أن النبي ﷺ فحص موضع الماء ، بيده المباركة ، فانبجس فشرب منه النبي ﷺ و سقى الناس ، وقيل : إنه غرز رمحه الميمون ، فنبع الماء من ذلك الحل ، فشرب منه النبي ﷺ و سقى الناس . أخرجه الفاكهي .

ولما سميت جعرانة باسم امرأة من قريش ، يقال لها رايطة بنت كعب ، ولقبها جعرانة ، وهي امرأة أسد بن عبد العزى . قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنها هي التي نزل فيها قوله تعالى : **﴿هُوَ لَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾** الآية . انتهى .

انظر : صورة رقم ٢٠٢ ، مسجد الجعرانة وبعثها

نقول : إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة ، في السنة الثامنة من الهجرة ، سار معه إلى الطائف لغزو ثقيف وهوazen ، فلما وصل المسلمين الطائف وجدوا الأعداء قد تخصروا به ، فحاصرتهم ثانية عشر يوماً ، ولما رأى النبي ﷺ أن الفتح لم يؤذن فيه ، استشار نوفل بن معاوية الديلي في النهاب أو المقام ، فقال نوفل : يا رسول الله ثعلب في حجر إن أقمت أحذته وإن تركته لم يضرك ، فأمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل ، وطلب منه بعض الصحابة أن يدعوه على ثقيف ، فقال : «اللهم أهد ثقيفاً واثب بهم مسلمين» .

ثم رجع ﷺ إلى الجعرانة حيث ترك السبي والغنائم ، التي أخذوها في غزوة حنين ، وأقام بالجعرانة ثلاثة عشرة ليلة ، ومنها اعتمر ودخل مكة ليلاً ، فطاف واستلم الحجر ، ثم رجع إليها من ليلته ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام ، أمر بالرحيل فسار الجيش آمناً مطمئناً ، حتى دخل المدينة ، لثلاث بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة .

قال ابن حجر الهيثمي ، رحمه الله تعالى في كتابه «تطهير الجنان واللسان» المطبوع بهامش كتابه «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزنقة» ما يأتي :

عمرة الجعرانة إنما فعلها ﷺ ليلاً سراً عن أكثر الصحابة ، ولذا أنكرها بعضهم ، وذلك أنه بعد صلاة العشاء بأصحابه في الجعرانة دخل على أهله ، فلما تفرق الناس لمضاجعهم خرج ﷺ مرمماً بالعمرة ، في نفر قليل إلى مكة ، فقضى

نسكه ثم رجع إلى أهله سراً أيضاً ، ثم عند صلاة الصبح خرج من عند أهله كياث عندهم ، فلم يعلم بذلك العمرة إلا بعض خواصه عليه السلام . انتهى كلامه .

فالناس يعتمون من الجعرانة كثيراً في شهر رمضان ، فتراها عامرة ، في هذا الشهر ، بالحجاج وأهل البلاد من كل جهة ، وماء الجعرانة أحلى وأذب من ماء مكة ، فهو يشبه ماء بئر عروة بالمدينة المنورة ، من حيث عذوبة طعمها وسهولة مساغها . ولقد ذهبنا إلى الجعرانة من مكة عدة مرات ، فرأينا في سنة ألف وثلاثمائة وست وسبعين للهجرة قبيل الوصول إليها صخرة كتب عليها ما يأتي :

من يتوكل على الله فالله يحبه .

والله بالغ أمره ، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا .

وكتبه أمية بن عبد الملك .

لسنة ثمان وتسعين هجرية .

وهو يسأل الله الجنة .

وبالجعرانة مسجد قديم تتكلم عنه كما يأتي :

أما مسجد الجعرانة فقد قال الفازي عنه في تاريخه : ومن المساجد المأثورة مسجد الجعرانة ، وهو الذي أحرم منه النبي صلوات الله عليه وسلم بعمره ، حين مرجعه من الطائف ، بعد فتح مكة ، وموضع إحرامه من وراء الوادي ، حيث الحجارة المنصوبة بالعدوة القصوى . أخرجه الأزرقي عن مجاهد ، وكذا ذكره الواقدي أيضاً . ذكره في الجامع اللطيف .

وقال الفاسي في «شفاء الغرام» : الجعرانة الموضع الذي أحرم منه النبي صلوات الله عليه وسلم لما رجع من الطائف ، بعد فتح مكة ، هو موضع مشهور بين الطائف ومكة ، وهو إلى مكة أقرب بكثير ، لأن بينه وبين مكة نحو ثمانية عشر ميلاً على ما ذكره الباجي المالكي .

روى الأزرقي ، عن ابن حريج ، قال : أخبرني زياد بن محمد بن طارق ، أخبره أنه اعتمر مع مجاهد ، من الجعرانة ، فأحرم من وراء الوادي ، حيث الحجارة النصوية ، قال : ومن هنا أحرم النبي صلوات الله عليه وسلم ، وإنما لا يُعرف أول من اتخذ المسجد على الأكمة ، بناه رجل من قريش سماه واشتري مالاً عنده ونخلاً . «ومالاً عند أهل البدية يطلق على النعم والمواشي كالابل والغنم . اهـ» (منجد) . فبني هذا

المسجد ، وذكر الواقدي أن النبي ﷺ أحرم من المسجد الأقصى ، التي تحيط الوادي ، بالعدوة القصوى من الجعرانة ، وكان مصلى النبي ﷺ إذ كان بالجعرانة به ، فأما الأدنى فبناه رجل من قريش واتخذ ذلك الحايط عنده «الحايط البستان» جمعه حيطان وحياط . اهـ» (منحد). ولم يجز رسول الله ﷺ الوادي إلا محramaً، ونقل ابن خليل ، عن ابن جرير ، أن الرجل الذي بني المسجد الأدنى هو عبد الله بن خالد الخزاعي . انتهى .

قال الغازى : مسجد الجعرانة الموجود الآن جدته زوجة سالار الملك ، الذى هو من أمراء حيدر أباد ، في سنة (١٢٦٣) ألف ومائتين وثلاث وستين من الهجرة ، كما هو مكتوب على محراب المسجد . انتهى .

مسجد منارة بعرفات

أما مسجد نمرة بعرفات فقد تكلمنا عنه عند الكلام على عرفات فراجعه هناك حتى لا يتكرر الكلام هنا .

هذه المساجد الأربع المذكورة هي واقعة عند حدود الحرم تماماً . ولم نذكر ما يوجد بمنى من المساجد ولا مسجد مزدلفة لأن كل ذلك واقع في داخل الحرم .

بناء المساجد والجوامع في البلاد الإسلامية

المسجد والجامع بمعنى واحد ، وكان أهل الزمان الأول يصفون المسجد أحياناً فيقولون «المسجد الجامع» وأحياناً يضيفونه إلى الصفة فيقولون «مسجد الجامع» وذلك لاجتماع الناس فيه .

وفي زماننا هذا يطلق بعض أهل البلدان كلمة «الجامع» على المسجد الكبير الذي تقام فيه الجمعة ، ويطلق بعض أهل البلدان كلمة «المسجد» على أي مسجد كان ، كبيراً أو صغيراً ، كما هي عادة أهل الحجاز ، فإنهم لا يستعملون كلمة «الجامع» مطلقاً .

ولقد أخذ بناء الجوامع والمساجد في مصر ، من القرن الخامس الهجري تقريراً طابعاً آخر ، بحيث يكون بناؤه صالحًا لإقامة الصلوات والشعائر الدينية ، وصالحة لتدريس كافة أنواع العلوم والفنون ، بجانب إقامة الطلبة والتلاميذ فيه ليلاً ونهاراً ،

ويطلقون أحياناً على ما كان مبنياً بهذه الصفة كلمة «المدرسة» وقد يلحق ببعضها سيل ماء لشرب المارة ، وكتاب لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة ، وقد ذكروا أن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب ، مؤسس الدولة الكردية ، هو أول من بني داراً للحديث ، وبنى في كثير من البلدان مكاتب «كتائب» للأيتام وقرر ، لهم ولعلهم ، مرتبات وافرة .

يقول الأستاذ محمد لييب البتونى مؤلف «الرحلة الأندرسية» فيها ما يأتي : إن المساجد كانت ولا تزال في الدول الإسلامية تستعمل مدارس للعلوم المختلفة ، كما هو الشأن ، إلى الآن ، في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة والأزهر بمصر ، والمسجد الجامع ببغداد ، والمسجد الأموي بدمشق ، وجامع الزيتون بتونس ، ومسجد الكبيبة براكنش ، وجامع السلطان أحمد والسلطان محمد بالأسنانة ، ومسجد عمر بالقلنس . انتهى .

نقول : وقد أنشأ العثمانيون ، حول المسجد الحرام ، مدارس لتدريس فيها العلوم المختلفة ، منذ القرن التاسع الهجري ، وجعلوا ، لأسانتها وطلبتها وموظفيها ، مرتبات شهرية وأوقافات مرصودة سنوية ، ولا تزال إلى اليوم هذه المدارس باقية ، لكنها غير مخصصة للتدرис ، بل بعضها تشغلها الحاكم ، وبعضها فيها مكتبة الحرم المكي ، وهي واقعة من جهة باب الزباداة إلى باب الدرية ، وكذلك توجد مثلها في جهة أخرى حول المسجد الحرام ، لكنها شغلت بالسكن لا بالتدرис ، وقد تكلم عنها مؤرخو مكة .

أما كيفية بناء المساجد : فهي تابعة للتطورات المدنية والتقدمات العمرانية والعادات القومية في البلدان والممالك ، فقد كان بناء أساس مسجد رسول الله ﷺ بالحجارة ، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع ، أما جداره فبنيت باللبن ، وكانت أعمدته من جنوح التخل ، وسقفه من الجريد ، وكان ﷺ يبني مع المسلمين وينقل اللبن والحجارة ، ويقول : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأصار والمهاجرة» .

فهذا المسجد النبوي الشريف ، بني في ذلك الزمن ، كعادة أهله في بناء بيوتهم ومنازلهم ، ثم تطور الأمر حتى صار بناؤه اليوم كما نراه ، فكيفية بناء المساجد تابعة للتطورات العمرانية ، وهل يليق بها ، ونحن في هذا العصر الحديث ، عصر الآلات الميكانيكية وعصر الكهرباء ، وعصر النحاس والفضة ، وعصر البناء في الماء

والطيران في السماء ، أن نبني بيوتنا ومنازلنا وقصورنا بالمرمر والرخام والبلور الراقي ، ونزيّنها بالذهب والفضة ، ونزرع فيها بالنقوش البدية ، ثم نبني المساجد ، بيوت الله الكبير المتعال ، التي يذكر فيها اسمه ، باللبن والطين والحجارة الصماء وجذوع النخل والجريد ، وأن نوقد فيه زيتاً وفتيلاً ، بينما نضيء منازلنا بالأأنوار الكهربائية؟ لا والله لا يليق بنا ذلك ، وإن كان الله عز شأنه ، غني عن كل ذلك ، وعن عبادتنا أيضاً ، فإنه تعالى ينظر إلى قلوبنا ولا ينظر إلى صورنا ، ولكن ما أجمل طهارة الباطن ونظافة الظاهر ، فالتجانس والتقارب ، بين بناء بيوتنا وبناء بيوت الله ، مطلوب معقول ، بحسب التطورات في كل عصر وعادات كل بلدة .

وهذا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما احترقت الكعبة وضعفت جدرانها ، جمع وجوه الناس وأشرافهم فشاورهم في هدم الكعبة ، فأشار عليه بعضهم بهدمها ، وأبي أكثر الناس هدمها ، وكان أشددهم عليه إباء عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهما ، وقال له : دعها على ما أقرها عليه رسول الله ﷺ فإني أحشى أن يأتي بعدك من يهدمها ، فلا تزال تهدم وتبني ، فيتهاون الناس في حرمتها ولكن أرقعها . فقال ابن الزبير : « والله ما يرضي أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه وتعالى؟ » ثم إنه هدمها وبناها أحسن البناء .

ومثل هذا أيضاً ، حينما احترقت الكعبة ، زمن قريش ، فأرادوا بناعها ، لكنهم هابوا أن يهدموها ، فقال لهم الوليد بن المغيرة : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا : بل نريد الإصلاح ، قال : فإن الله لا يهلك المصلحين ، ثم ارتفع الوليد ، قبل قريش على الكعبة ، ومعه الفأس يهدمها ، ويقول : اللهم لا نريد إلا الإصلاح . ثم تبعه قريش فهدموا معه .

فيؤخذ مما تقدم ، أن إصلاح أي شيء وإتقان أي عمل ، بنية حسنة ، مطلوب شرعاً ، ولا حرج في إدخال تحسينات على أمر لم تكن عليه من قبل ، ما لم يكن هناك منع صريح في ذلك ، فالظاهر لها حكم قوي ، فكما يجب إصلاح الباطن يلزم تجميل الظاهر ، فملك بدون مشاعر الملك لا يهاب ، وإدارة حكومية بدون فحامة مظهرها لا تعتبر ، وإنسان بدون أن يتتحمل بالثياب لا يحترم ولا تكون له مكانة ، وبالخصوص في زماننا هذا ، نسأل الله السلامة عن خزي الدنيا والآخرة .

فهذا معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله تعالى عنه ، الصحابي الجليل ، كاتب وحيٍّ رسول الله ﷺ لما تولى الشام من قبل عمر ، رضي الله عنه ، قدم عليه عمر راكباً حماراً فتلقاه معاوية في موكب عظيم ، ونزل معاوية وسلم على عمر بالخلافة ، فمضى عمر في سيله ولم يرده عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلّمته ، فالتفت عمر إلى معاوية وسأله : إنك لصاحب الموكب الذي أرى ؟ قال معاوية : نعم ، قال عمر : مع شدة احتجابك ووقف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال معاوية : نعم ، قال : ولم يخلك ؟ أجابه معاوية : « لأننا ببلاد كثُر فيها جوايسِ العدو ، فإن لم تأخذ العدة والعدد استخفَّ بنا وهجم علينا ، وأما الحجاج فإننا نخاف من البذلة جرأة الرعية . وأنا بعد عاملك فإن استقصستني نقضت ، وإن استزدتي زدت وإن استوقفتني وقفت » . . . قال عمر ، بعد أن سكت هنئه : « ما سألك عن شيء إلا خرجت منه ، إن كنت صادقاً فإنه رأي لبيب ، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب ، لا أمرك ولا أنهاك » .

انتهى نقلًا عن صحيفة ٢٢٣ من كتاب « الفاروق عمر » للدكتور محمد حسين هيكل . ومن هنا يعلم أن معاوية ، رضي الله عنه ، لم يتخذ له موكيلاً وحجاباً بالشام إلا للمصلحة العامة ، لا للهو والعبث والركون إلى الدنيا ، وهو الصحابي الجليل ، الذي خدم رسول الله ﷺ ولله من السياسة والدهاء والقطنة والحلم ما يضر به الأمثال . وإن من حكاياته هذه لتسخر جملة من المسائل ، وعدة من الأمور المهمة ، لو أردنا شرحها وبيانها لطال بنا الكلام ، ولا يخفى ذلك على ذوي العقول والبصائر . فلو تبعنا أحوال أهل الصدر الأول من الإسلام واقفينـا آثارهم وطريقـهم ، لكان اليوم لل المسلمين شأن آخر غير ما نحن فيه ، نسأل الله التفويق والاعتصام بالدين وجمع شمل المسلمين والنصر على أعداء الدين آمين بفضلـه ورحمـته إنه بعبادـه لطيفـ خـيرـ .

هذا ، ولقد كان ابتداء إصلاح العمارـات والأبنـية ، في عهد الولـيد بن عبدـالـلـك ، رـحـمه اللهـ تعالىـ ، حتـىـ كانـ النـاسـ إـذـ التقـواـ تـسـاعـلـواـ عـنـ الـبـنـاءـ وـالـصـنـاعـةـ ، وـهـذـهـ قـبـةـ صـخـرـةـ المسـجـدـ الأـقـصـىـ تـدـهـشـ عـقـولـ الـفـنـانـينـ وـأـرـبـابـ الصـنـعـةـ ، بماـ فـيـهـ مـنـ التـقـوـشـ النـهـيـةـ ، وـالـقـيـشـانـيـ وـالـفـسـيـفـسـاءـ «ـالـمـواـزـيـكـ»ـ ، كـلـ هـذـهـ مـنـ عـهـدـ عـبـدـ الـلـكـ بـنـ مـرـوـانـ وـابـنـ الـوـلـيدـ ، ثـمـ أـتـىـ مـنـ بـعـدـهـماـ مـنـ عـمـرـهـاـ

وأصلحها ، ثم تقدم العمران والأبنية في عهد الدولة الطولونية بمصر سنة (٢٥٤ - ٢٩٢) هجرية ، ثم في عهد الدولة الفاطمية سنة (٣٥٨ - ٥٦٧) هجرية ، فقد ترقى كثيرة من الصناعات في عهدها وارتقت شأن العمارات الإسلامية ، ثم في عهد الدولة الأيوبية سنة (٥٦٧ - ٦٤٨) هجرية ، فقد ازدهرت في عهدها الفنون الإسلامية وأنشئت المدارس للمذاهب والحديث الشريف ، وظهر الزجاج الملون ، في الشياطيك ، والقسيفساء المنذهبة في الحاريب ، وشاع استعمال الرخام فيها . ولكن كل ذلك لم يصل إلى درجة الكمال ، بسبب اشتغال مؤسس الدولة ، صلاح الدين الأيوبي ، بمحرب الإفرنج ، فكانت أيامه وأيام خلفائه فتحاً وجهاداً .

ثم جاءت دولة المماليك البحرينية سنة (٦٤٨ - ٧٨٤) هجرية ، وكذلك دولة المماليك الجراكسة سنة (٩٢٣ - ٧٨٤) هجرية ، ففي هاتين الدولتين نهضت الصناعات نهضة بحق ، فتركت قواعد العمارات ، وتطور بناء المساجد ، وتتنوعت أشكال القباب والمنارات ، وتهذبت صناعة التجارة والتطعيم في الخشب بالنحاس وغيره ، وتلوين المقصّ المنقوش ، واتخذت مشكّاً واتّخذت المثير الرخامي ، واستعمل القاشاني في قمم المنارات ومدار القباب ، واستحدث المثير الرخامي ، واتخذ الحجر في بناء القباب والمنارات بدلاً من الطوب ، وتتنوعت تصميم واجهات المساجد والجوامع ، وانتشر الخط الكوفي المربع ، وظهرت الأبواب النحاسية وتكلفيتها بالنذهب والفضة ، وازدادت منارات المساجد رشاقة وحسناً وجماً ، والقباب نقشاً ورسوماً ، وانتشرت الحاريب الحجرية ونقشها وتطعيمها بالرخام ، وتعددت المنارات والقباب في مسجد واحد ، وغير ذلك مما لا يدخل تحت المحصر .

وأخيراً جائت الدولة العثمانية التركية ، وبذلك أدخلت في مصر من الزخارف والأساليب التركية على العمارات التي حدثت فيما بعد .

هذه نبذة قصيرة عن تطور بناء العمارات عامة ، والمساجد الخاصة ، بجميع أنواعها ، ذكرناها لمناسبة ما لبعض تلك الدول من العمارات والمنشآت السابقة ، في الحرمين الشريفين ، وإلى هنا انتهينا من كيفية بناء المساجد وتطور بناء العمارات بصورة مختصرة ، فلنذكر الآن مبدأ بناء المساجد فنقول وبالله التوفيق :

إن أول مسجد بني في الإسلام مسجد قباء بالمدينة أى في الأيام الأولى من وصول النبي ﷺ إليها ، وبعد أن أقام بضعة أيام بقباء ، تحول ﷺ إلى المدينة ، فبني

مسجدـهـ الشـرـيفـ بـهـ ، فـي مـوـضـعـ مـيرـكـ نـاقـتـهـ ، وـقـاءـ فـي خـارـجـ الـمـدـيـنـةـ بـيـنـهـماـ نـخـوـ اـثـيـنـ كـيـلـوـ مـترـ . جـاءـ فـي كـاتـبـ «ـالـتـرـاتـيـبـ الـإـدـارـيـةـ»ـ قـالـ السـهـيلـيـ فـيـ الرـوـضـ : ذـكـرـ اـبـنـ قـتـيـةـ أـنـ الرـسـولـ ﷺـ حـينـ أـسـسـ مـسـجـدـ قـبـاءـ ، كـانـ هـوـ أـوـلـ مـنـ وـضـعـ حـجـرـاـ فـيـ قـبـلـتـهـ ، ثـمـ جـاءـ أـبـوـ بـكـرـ بـحـجـرـ فـوـضـعـهـ ، ثـمـ جـاءـ عـمـرـ بـحـجـرـ فـوـضـعـهـ إـلـىـ حـجـرـ أـبـيـ بـكـرـ ، ثـمـ أـخـذـ النـاسـ فـيـ الـبـيـانـ ، فـقـالـ : هـذـاـ أـوـلـ مـسـجـدـ بـيـنـ فـيـ إـلـاسـلـامـ اـهـ .

قالـ الـخـضـرـىـ رـحـمـهـ الـلـهـ تـعـالـىـ ، فـيـ كـاتـبـ «ـنـورـ الـيـقـىـنـ»ـ وـالـذـيـ حـقـقـهـ الـمـرـحـومـ مـحـمـودـ باـشـاـ الـفـلـكـىـ : إـنـ نـزـولـ النـبـىـ ﷺـ بـقـيـاءـ كـانـ فـيـ الـيـوـمـ الثـانـىـ مـنـ رـبـيعـ الـأـوـلـ ، الـذـيـ يـوـافـقـ الـعـشـرـيـنـ مـنـ سـبـتمـبرـ سـنـةـ (٦٢٢ـ)ـ ، قـالـ الـخـضـرـىـ فـيـ هـامـشـ الصـحـيـفـةـ : لـمـ أـرـادـ الـمـسـلـمـوـنـ فـيـ خـلـافـةـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـيـنـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ ، وـضـعـ الـتـارـيـخـ ، جـعلـوـاـ مـبـدـأـ مـنـ هـذـهـ الـهـجـرـةـ الـشـرـيفـةـ ، وـلـدـعـ الـمـخـالـفـةـ ، بـيـنـ مـبـدـأـ الـهـجـرـةـ وـبـدـءـ السـنـةـ الـهـلـالـيـةـ ، قـدـمـوـاـ مـيـعـادـ الـهـجـرـةـ شـهـرـيـنـ وـأـيـامـاـ ، وـجـعلـوـاـ بـدـءـ الـهـجـرـةـ مـنـ مـحـرـمـ سـتـهـاـ . اـهـ .

وـلـاـ يـخـفـىـ أـنـ الـمـسـاجـدـ لـمـ تـكـنـ مـوـجـودـةـ فـيـ الـمـالـكـ وـالـبـلـدـانـ إـلـاـ بـعـدـ ظـهـورـ إـلـاسـلـامـ وـفـتـوحـ الـأـمـصـارـ ، فـقـدـ جـاءـ فـيـ كـاتـبـ «ـحـسـنـ الـمـاحـضـرـةـ»ـ لـلـسـيـوطـيـ رـحـمـهـ اللـهـ مـاـ مـلـخـصـهـ :

لـمـ اـفـتـحـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ ، رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، الـبـلـدـانـ كـتـبـ إـلـىـ أـبـيـ مـوـسىـ ، وـهـوـ عـلـىـ الـبـصـرـةـ ، يـأـمـرـهـ أـنـ يـتـخـذـ مـسـجـدـاـ لـلـجـمـاعـةـ ، وـيـتـخـذـ لـلـقـبـائـلـ مـسـاجـدـ ، فـإـذـاـ كـانـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ اـنـضـمـوـاـ إـلـىـ مـسـجـدـ الـجـمـاعـةـ . وـكـتبـ إـلـىـ سـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ ، وـهـوـ عـلـىـ الـكـوـفـةـ ، بـمـثـلـ ذـلـكـ . وـكـتبـ إـلـىـ عـمـرـ بـنـ الـعـاصـ ، وـهـوـ عـلـىـ مـصـرـ ، بـمـثـلـ ذـلـكـ . وـكـتبـ إـلـىـ أـمـرـاءـ أـجـنـادـ الشـامـ أـنـ لـاـ يـتـبـدـدـواـ إـلـىـ الـقـرـىـ ، وـأـنـ يـتـزـلـوـ الـمـدـائـنـ ، وـأـنـ يـتـعـنـلـوـ فـيـ كـلـ مـدـيـنـةـ مـسـجـدـاـ وـاحـدـاـ ، وـلـاـ يـتـعـنـلـوـ الـقـبـائـلـ مـسـاجـدـ ، فـكـانـ الـنـاسـ مـتـمـسـكـيـنـ بـأـمـرـ عـمـرـ وـعـهـدـهـ ، وـكـانـ صـلـةـ الـجـمـعـةـ تـوـدـيـ فـيـ الـمـسـجـدـ الـجـامـعـ .

انظر: صورة رقم ٢٠٣ ، جانب من الجامع العظيم في كانتون بالصين

وـلـمـ اـفـتـحـ عـمـرـ بـنـ الـعـاصـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ وـرـجـعـ مـنـهـاـ إـلـىـ مـصـرـ وـأـقـامـ بـالـفـسـطـاطـ ، بـضـمـ الـفـاءـ ، الـمـسـمـيـ الـيـوـمـ «ـمـصـرـ الـقـدـيـمةـ»ـ ، بـنـىـ بـهـ جـامـعـهـ الشـهـيرـ بـاسـمـهـ «ـجـامـعـ عـمـرـ بـنـ الـعـاصـ»ـ ، وـهـوـ أـوـلـ مـسـجـدـ أـنـشـئـ بـمـصـرـ ، وـذـلـكـ سـنـةـ إـحـدـىـ وـعـشـرـيـنـ هـجـرـيـةـ ، وـهـوـ الـجـامـعـ الـعـتـيقـ الـمـشـهـورـ بـتـاجـ الـجـوـامـعـ ، وـكـانـ مـاـ حـولـهـ حـدـائقـ وـأـعـنـابـاـ ،

فنصبوا الخبال حتى استقام لهم ، ووضعوا أيديهم «أي قاموا بالبناء» ، فلم يزل عمرو قائماً حتى وضعوا القبلة ، واتخذوا فيه منبراً ، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : «أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين أما حسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك فعزمت عليك إلا ما كسرته» اه . ويقال إنه وقف على إقامة قبلة مسجده ثم انون رجلاً من الصحابة ، منهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، والدرداء ، وأبو ذر ، وعقبة بن عامر ، وغيرهم ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين . وكان الذي يؤذن له في المسجد ويخرجه أبو مسلم اليافعي صاحب رسول الله ﷺ ، ولم يكن جامعاً عمرو محراب ولا مئذنة ، حيث لا يعرفهما الناس ، وإنما حدثا في آخر المائة الأولى ، وكان الجامع مفروشاً بالخصباء ، اتخاذها ذلك من تحصيب أرضية المسجد النبوي الذي كان في زمانه ﷺ ، إلى أن جاء مسلمة بن مخلد ، أمير مصر ، من قبل معاوية رضي الله عنه ، ففرش مسجد عمرو بالخصب ، بعد أن جدد بناءه وزاد فيه ، وذلك سنة ثلاثة وخمسين من المجرة .

فمنذ أن فتحت مصر لم يكن بها مسجد تقام فيه الجمعة سوى جامع عمرو بن العاص ، قال القضايعي : لم تكن الجمعة تقام في زمن عمرو بن العاص بشيء من أرض مصر إلا بجامع الفسطاط ، قال ابن يونس : جاء نفر من عافق إلى عمرو بن العاص فقالوا : إننا نكون في الريف فنحتاج في العيددين الفطر والأضحى ، ويؤمنا رجل منا ، قال : نعم ، قالوا : فالجمعة ؟ قال : لا ، ولا يصلى الجمعة بالناس إلا من أقام الحدود وأخذ بالذنوب وأعطى الحقوق . اه ، وكما بني عمرو بن العاص جامعه بالفسطاط بمصر بني مسجداً في الإسكندرية ، حينما فتحها مرة ثانية ، عندما نقضوا العهد ، وذلك سنة خمس وعشرين ، في خلافة عثمان ، رضي الله عنهم ، ويسمى مسجده هذا مسجد الرحمة ، وذلك حينما دخل الإسكندرية أمعن في قتلهم ، فكلموه في ذلك ، فرفع عنهم السيف ، وبني في هذا الموضع الذي رفع السيف عنهم هذا المسجد ، فلذلك سمي بمسجد الرحمة ، كما جاء في حسن المعاشرة .

فلما كان سنة (١٣٣) ثلاثة وثلاثين ومائة قدم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، من العراق ، في طلبه مروان الحمار ، فنزل عسكره في شمال الفسطاط ،

وبنوا هنالك الأبنية ، فسمى ذلك الموضع بالعسكر ، وبنوا به جامعاً يسمى «جامع العسكر» فصارت الجمعة تقام بهذا الجامع وبجامع عمرو .

ـ فلما بني السلطان أحمد بن طولون جامعه ، حين بني مدينة القطائع بالقاهرة ، أبطلت الجمعة من جامع العسكر وصارت تقام بجامع عمرو وبجامع ابن طولون ، إلى أن قدم جوهر القائد واختط القاهرة وبنى الجامع الأزهر في سنة (٣٦٠) ستين وثلاثمائة ، فصارت الجمعة تقام بالجوانع الثلاثة . فيكون الجامع الأزهر هو أول جامع أسس بالقاهرة .

ثم كثُر بناء الجوامع والمساجد بمصر ، حتى كان بها ستة وثلاثون ألف مسجداً ، كما ذكره المقريزي ، في خطبته ، والله تعالى أعلم كم بها اليوم ، وبجمع المالك الإسلامية من المساجد والجوامع ، ولقد ذكر البتونى في كتابه «رحلة الأندرس» أنه كان بمدينة قرطبة بالأندلس ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجداً . اهـ .

اللهم انصر المسلمين واجمع كلمتهم وشملهم ووفقهم للتمسك بشريعتك الغراء ودينك القويم ، واعف عننا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله وسلم على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفسطاط

قال في كتاب «قاموس الأمكانة والبقاء» عن الفسطاط ما يأتي :

قال ياقوت : هي مدينة اختطها المسلمون ، عند فتح مصر ، يطلق عليها اليوم اسم مصر ، بين النيل والجليل الشرقي ، وكان موضعها قبل ذلك فضاء أرض ، وبها محل مبني يدعى بابليون ، ينسب بناؤه إلى العجم ، وسيمي موضع منه بعد بقصر الشمع ، وكان هذا القصر مقر أمراء الرومانيين وحصناً متيناً ، وكان ملحاً للروم ، عند قديوم عمرو بن العاص لفتح مصر في سنة ٢٠ هجرية ، فغلبهم فيه ، وهربوا إلى جزيرة الروضة ، فاختطف عمرو ، في حوار هذا الحصن ، جامعه المشهور ، واجتمعت حوله قبائل العرب في سرادقاتهم ، ف تكونت المدينة ، وأطلق عليها اسم «الفسطاط» ولما كثرت قبائل العرب ابتووا فيها مساكنهم ، وصار كل من تولى على مصر يجعلها مقر ولايته ، حتى تضاعفت فيها العمارات ، كثُر عدد السكان

وانتسعت أطرافها ، ولكن القحط الشديد الذي أصاب مصر من سنة ٤٥٧ واستمر إلى سنة ٤٦٤ ، حتى بلغ فيه ثمن أرجب القمح مائين ديناراً ، ثم عدم ، وأكلت الناس بعضهم بعضاً ، جرّ إلى خراب هذه المدينة ، ولم يكُد بعد ذلك يتم إصلاحها ، وبناء ما هدم منها ، حتى أحرقت في سنة ٥٦٤ ، خشية من وقوعها في يد الإفرنج ، ثم أعيد بناؤها ، ولكنها خربت في سنة ٦٠٦ بسبب الغلاء والوباء العظيم ، الذي أصاب مصر في سلطنة العادل أبي بكر بن أيوب ، ثم تحسّنت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ثم خربت بسبب الغلاء والوباء أيضاً سنة ٦٩٦ ، ثم أعيد بناؤها وخربت سنة ٧٤٩ ، ثم أعيد بناء ما حوالى الجامع العتيق ، حتى أصاب مصر شرق ووباء بعد غلاء في سنة ٧٧٦ ، فخرّب عامرها إلى سنة ٧٩٠ ، وبقي الجزء المعروف الآن بمصر العتيقة التابع لمحافظة مصر ، وبه من السكان نحو الاثنين وثلاثين ألفاً . انتهى من الكتاب المذكور .

بدء بناء مآذن المساجد

المآذن والمنارات بمعنى واحد ، وهو الموضع المرتفع المخصص للأذان ، وهذه المآذن في المساجد لم تكن موجودة ، في صدر الإسلام ، وإنما حدثت فيما بعد ، لذلك لما كان يوم فتح مكة ، رقى بالاذن على ظهر الكعبة لصلاة الظهر ، بأمر رسول الله ﷺ ، ثم كان الأذان على سطح المساجد صيفاً وشتاءً في جميع المساجد حتى في المساجد الحرامين .

فلما جلد مسلمة بن مخلد ، أمير مصر ، من قبل أمير المؤمنين معاوية ، رضي الله عنه ، بناء جامع عمرو بن العاص ، بعد هدمه ، بني فيه أربع صوامع ، في أركانه الأربع ، برسم الأذان ، قال في مختار الصحاح : «وثريدة مصمّعة إذا دققت وحدّ رأسها وصومعة النصارى فوعلة من هذا لأنها دقّقة الرأس . اهـ» . وقال في المتجد : «صومع الشيء جمعه ، البناء علّاه ، الصومعة والصومع جبل أو مكان مرتفع يسكنه الراهب أو المتبع قصد الانفراد ، ثم أطلقت الكلمة على الدير ، الصومعة أيضاً العقاب البرنس ، أعلى كل جبل إذا كان مستدق الرأس . جمعه صوماع» . انتهى كلامه .

ومن هنا يعلم أن مسلمة بن مخلد هو أول من بني مصر المآذن ، (المنارات) في المسجد ، وكانت مآذنه مرتقطة مستديقة الرأس وإن لم تكن بهذه الصفة ، التي هي

عليها الآن ولا يبعد أن يكون مسلمة بن مخلد أخذ بناء الصوامع المستلقة الرأس عن منارة الاسكندرية الشهيرة ، التي بناها الاسكندر أو الملكة دلوكة بنت زبا ، وكانت من عجائب بناء العالم ، وكان طولها ألف ذراع ، وكانت آثارها باقية إلى أيام قلاوون ، ثم أخذ الناس ، عن مسلمة ، بناء الصوامع على سطح المساجد ، للأذان ، وكانوا يسمونها الغرفة لعلوها أو المظلة ، فقد جاء أنه في خلافة هارون الرشيد ، عمل أمير مكة عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي مظلة للمؤذنين على سطح المسجد ليؤذنوا فيها يوم الجمعة ، وكانوا يؤذنون قبل ذلك في يومها على سطح المسجد صيفاً وشتاءً .

وجاء في كتاب «الترتيب الإدارية» بصحيفة ٧٩ ، من الجزء الأول ، في مبحث : على أي شيء كانوا يؤذنون ، ما نصه :

في كتاب الجمعة من تشنيف الساعي على قول الراوي الصحيح ، فلما كان عثمان وكثير الناس زاد النداء الثالث على الزوراء والزوراء قيل أنه مرتفع كالمnarة ، وفي التزهه الشميّة في أخبار المدينة لابن النحاس .

وروى ابن إسحاق أن امرأة من بني النجار قالت : كان بيته أطول بيت حذاء المسجد ، وكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة ، فباتي بالسحر فيجلس على البيت ، فيتظر الفجر ، فإذا رأه تمطى ، ثم قال : اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك ، قالت : ثم يؤذن . وذكر أهل السير أن بلالاً كان يؤذن على أسطوانة في قبلة المسجد يرقى إليها بأقتاب فيها ، وكانت خارجة من المسجد ، وهي قائمة إلى الآن في مسجد عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وروى نافع ، عن ابن عمر قال : كان بلال يؤذن على المنارة ، في دار حفصة بنت عمر ، التي تلي المسجد . قال : فكان يرقى على أقتاب فيها ، وكانت خارجة من مسجد رسول الله ﷺ لم تكن فيه و ليست فيه اليوم .

وفي غير التزهه ، أنه لم يكن منار في زمانه عليه السلام ، وإنما هو من سنة الصحابة ، وكانوا في عهده يؤذنون عند باب المسجد ، لا بين يدي الإمام ، فإما فعله هشام وذلك مكروه ، لأنَّه حدث ، أحدهُه هشام ، كما نقلَّ الذي كان بالزوراء إلى المسجد هـ ، ونحوه في الوفاء للسيد السمهودي ، قائلاً : يظهر من سياق ما سبق له أن أول ما جعل المنار في المسجد كان في زيادة الوليد ، ثم لما ذكر ما سبق من أن بلالاً كان يؤذن على منارة في دار حفصة ، قال : الظاهر أن

الراوي تجوز في تسميته الأسطوانة منارة ، على أن الرواية لذلك احترقت كعبه ، فكان يروي من حفظه ، فذكره ، والظاهر أن عمر وعثمان لم يتخذا منارة وإلا نقل . اهـ ، وفي «البحر» من كتب الحنفية ، لم تكن في زمانه عليه السلام مئذنة . اهـ .

ولما نقله الشمس بن عابدين في رد المختار قال إثره :

وفي شرح الشيخ إسماعيل عن الأوائل للسيوطى أن المآذن بنيت بأمر معاوية ولم تكن قبله . هـ منه .

(قلت) : هذا مع ما نقله الزرقاني ، على المذهب ، عن الشيخ خليل في التوضيح ، اختلف النقل ، هل كان يؤذن بين يدي النبي ﷺ أو على المنار ، الذي نقله أصحابنا أنه على المنار ، نقله عبد الرحمن بن القاسم في المجموعة ، وفي المرقاة عن ابن القاسم عن مالك أن الأذان في زمانه عليه السلام ، كان على المنارة ، وفي المدخل لأبي عبد الله بن الحاج السنة في أذان الجمعة ، إذا صعد الإمام على المنبر ، أن يكون المؤذن على المنار ، كذلك كان في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمره ، وفي المدخل أيضاً المنار عند السلف بناء يبنونه على سطح المسجد هـ . انتهى من الكتاب المذكور .

قال الأزرقي في تاريخه : أول من عمل المظلة للمؤذنين ، التي على سطح المسجد ، يؤذن فيها المؤذنون يوم الجمعة والإمام على المنبر عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي ، وهو أمير مكة في خلافة الرشيد هارون أمير المؤمنين ، وكان المؤذنون يجلسون هناك يوم الجمعة ، في الشمس ، في الصيف والشتاء ، فلم تزل تلك المظلة على حالها حتى عمر المسجد الحرام ، في خلافة جعفر المتوكيل على الله ، أمير المؤمنين ، في سنة أربعين ومائتين ، فهدمت تلك المظلة ، وعمرت وزيد فيها ، فهي قائمة إلى اليوم . انتهى كلام الأزرقي رحمه الله .

ولقد أنشأ الرشيد منائر على رؤوس الجبال تشرف على فجاج مكة ، ورتب لها المؤذنين ، فبني على جبل أبي قبيس أربع منائر ، وعلى رأس الجبل الأحمر (عيقان) منارة ، وعلى الجبل المشرف على شعب عامر منارة ، ومنارة على كُدُّى وغيرها ، وبني مولاه (بغـ) منائر أخرى على غير ذلك من الجبال ، وقد أهملت تلك المنائر فلم يبق لها من أثر ، ثم تطور بناء المآذن تطوراً سريعاً وعجياً ، بحسب التطورات العمرانية ، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على بناء المساجد ، فتوسعت

أشكالها وصورها وأحجامها وقياساتها ، وأخذ كل قطر منها طابعاً خاصاً ، فمنها الطويلة الرشيقـة ، ومنها الغليظة المريحة ، ومنها الثقيلة الراسية ، ومنها الباسقة الثابتة ، ومنها القصيرة القائمة ، ومنها ما هو طبقة واحدة ، ومنها طبقتان ومنها ثلاث طبقات ، ومنها دائـرية أسطوانية الشكل ، ومنها مربعة النوع ، ومنها برأس واحد مخروطي مستدق ، ومنها برأسين متفرعين من الأعلى ، ومنها ما درجها في بطـنها وهو الغالـب الكثـير ، ومنها ما درجها من خارجها وهو نادر وقد يـمـعـدـ كـمنـارـةـ جـامـعـ طـولـونـ بـالـقـاهـرـةـ ، ومنـهاـ منـارـةـ بـدـرـجـينـ أيـ (ـسـلـمـيـنـ)ـ فـيـماـ بـيـنـ دـوـرـتـيـهاـ أيـ (ـطـقـيـتـهـ)ـ الـأـوـلـيـ وـالـثـانـيـةـ فـلاـ يـرـىـ الصـاعـدـ فـيـ أحـدـهـماـ الـأـخـرـ وـهـذـاـ مـنـ الـفـنـونـ الـدـقـيقـةـ فـيـ الـعـمـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ ، وـهـيـ الـمـنـارـةـ الـتـيـ أـمـرـ بـيـنـاهـاـ السـلـطـانـ قـانـصـوهـ الـغـورـيـ بـالـجـامـعـ الـأـزـهـرـ ، إـلـيـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـأـشـكـالـ وـالـأـنـوـاعـ الـتـيـ لـاـ حـصـرـ لـهـ .

وفي الـديـارـ الـمـصـرـيـةـ الـيـوـمـ كـثـيرـ مـنـ أـنـوـاعـ الـمـآـذـنـ الـقـدـيمـةـ وـالـحـدـيـثـةـ ، وـكـلـ مـنـهـ تـحـفـةـ رـائـعـةـ قـائـمـةـ بـذـاتـهـاـ ، لـسـنـاـ بـصـدـ ذـكـرـهـاـ ، وـإـلـيـكـ بـعـضـ الـمـآـذـنـ الـمـخـلـفـةـ .

انظر: الصور أرقام ٢٠٤ لـمـئـذـنـ جـامـعـ المـتـوـكـلـ ، وـرـقـمـ ٢٠٥ـ لـلـمـؤـذـنـ وـهـرـ فـوقـ الـمـنـارـةـ ، وـرـقـمـ ٢٠٦ـ لـأـوـلـ مـسـجـدـ فـيـ الـعـالـمـ .

وـمـنـ أـعـجـبـ الـمـآـذـنـ وـالـمـنـارـاتـ ، مـاـ روـاهـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ ، فـيـ رـحـلـتـهـ ، الـتـيـ كـانـتـ سـنـةـ (٧٢٥ـ)ـ خـمـسـ وـعـشـرـينـ وـسـبـعـمـائـةـ هـجـرـيـةـ ، بـصـحـيـفـةـ ١١٦ـ مـنـ الـجـزـءـ الـأـوـلـ : فـإـنـهـ لـاـ دـخـلـ الـبـصـرـةـ وـجـدـ أـهـلـهـاـ يـصـلـوـنـ الـجـمـعـةـ بـمـسـجـدـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـيـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ ، رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ ، وـهـوـ عـلـىـ مـيـلـيـنـ مـنـ الـبـصـرـةـ ، فـإـذـاـ صـلـوـهـاـ يـقـفـلـوـنـ الـمـسـجـدـ ، فـلـاـ يـأـتـوـنـهـ إـلـاـ فـيـ الـجـمـعـةـ الـأـخـرـىـ ، وـهـذـاـ الـمـسـجـدـ مـنـ أـحـسـنـ الـمـسـاجـدـ .

قال اـبـنـ بـطـوـطـةـ : وـهـذـاـ الـمـسـجـدـ سـبـعـ صـوـامـعـ ، أـحـدـهـاـ الصـومـعـةـ الـتـيـ تـتـحـرـكـ بـزـعـمـهـ عـنـدـ ذـكـرـ عـلـيـ اـبـيـ طـالـبـ ، رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، صـعـدـتـ إـلـيـهـاـ مـنـ أـعـلـىـ سـطـحـ الـمـسـجـدـ ، وـمـعـيـ بـعـضـ أـهـلـ الـبـصـرـةـ ، فـوـجـدـتـ فـيـ رـكـنـ مـنـ أـرـكـانـهـاـ ، مـقـبـضـ خـشـبـ مـسـمـراـ فـيـهـاـ ، كـانـهـ مـقـبـضـ مـلـسـنـ الـبـنـاءـ ، فـجـعـلـ الرـجـلـ الـذـيـ كـانـ مـعـيـ يـدـهـ فـيـ ذـلـكـ الـمـقـبـضـ وـقـالـ : بـحـقـ رـأـسـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـيـ ، رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، تـحـرـكـيـ ، وـهـزـ الـمـقـبـضـ ، فـتـحـرـكـتـ الصـومـعـةـ ، فـجـعـلـتـ أـنـاـ يـدـيـ فـيـ الـمـقـبـضـ ، وـقـلـتـ لـهـ ، وـأـنـاـ أـقـولـ : بـحـقـ رـأـسـ أـبـيـ بـكـرـ ، خـلـيـفـةـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ تـحـرـكـيـ وـهـزـتـ الـمـقـبـضـ فـتـحـرـكـتـ الصـومـعـةـ ، فـعـجـبـواـ مـنـ ذـلـكـ ، وـأـهـلـ الـبـصـرـةـ عـلـىـ مـنـهـبـ الـسـنـةـ وـالـجـمـاعـةـ وـلـاـ يـخـافـ مـنـ يـفـعـلـ مـثـلـ فـعلـيـ عـنـدـهـ .

ثم قال ابن بطوطة ، بعد سطرين من هذا الكلام ما يأتي : قال ابن جزى : قد عاينت بمدينة برشانة ، من وادي المنصورة من بلاد الأندلس ، حاطها الله ، صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد الخلفاء أو سواهم ، وفي صومعة المسجد الأعظم ، وبناؤها ليس بالقديم ، وهي كأحسن ما رأيت أنت من الصوامع ، من حسن منظر ، واعتدال وارتفاع لاميل فيها ولا زبغ ، صعدت إليها مرة ، ومعي جماعة من الناس ، فأأخذ بعض من كان معنِّي بجوانب جامورها وهرزوها فاهتزت ، حتى أشرت إليهم أن يكفوا فكفوا عن هرزاها . انتهى من رحلة ابن بطوطة .

ومثل الحكاية المتقدمة : أنه توجد إلى اليوم في بلدة أصفهان الشهيرة ، في بلاد إيران ، في أحد مساجلها مناراتان متقابلتان يرجع بناؤهما إلى بعض مئات السنين ، تهتزان معاً إذا هزَّ شخص إدحاهما بعصا ، في المكان الذي يقف فيه المؤذن ، ولا يعرف سرّ هاتين المنارتين أحد ، من أهل أصفهان أو غيرهم ، وهاتان المنارتان أعجب من المنارتين السابقتين ، لأنهما تهتزان معاً إذا اهتزت إدحاهما ، فهما متعلقتان ببعضهما في الاهتزاز ، مع أن كل واحدة منها قائمة بذاتها في البناء ، وهذا من أدق فن العمارة ، الذي لا يهتمي إلى عمل مثلهما كل فنان . فسبحان الذي عالم الإنسان ما لم يعلم .

وقد ذكر ابن جبير في رحلته ، منارة القرون ، لكنها ليست منارة مسجد يؤذن فيه بل هي كمنارة الاسكندرية ، التي بناها الاسكندر أى عبارة عن عمود واقف كما يفهم من كلامه . وهذا نصّه : ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور ، بمنارة تعرف بمنارة القرون ، وهي منارة في بياد من الأرض ، لا بناء حولها ، قد قامت في الأرض كأنها عمود مخروط من الأجر ، قد تداخل منها من الخواتيم الآجرية مثمنة ومربعة أشكال بدعة ومن غريب أمرها أنها بحالة كلها قرون غزلان مثبتة فيها ، فتلوح كظاهر الشيئم ، وللناس فيها خبر يمنع سنته من إثباته . انتهى كلامه . وهذه المنارة واقعة قبل مدينة التحف بيوم واحد .

وعطفاً على ما تقدم ذكر هنا وصف منارة مسجد إشبيلية بالأندلس ، ناقلين من كتاب «رحلة الأندلس» للأستاذ البتوني ، وهو المسجد الذي كان بها قبل استيلاء سان فرديناند عليها في سنة (١٢٤٨) ميلادية ، ولم يبق منه الآن سوى صحنه ومنارته ، فقد جاء فيه ما نصّه :

أمر ببناء هذه المنارة السلطان المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين ، وهو الرابع من ملوكهم ، في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وكان في أعلىها أربع تفاصيح كبيرة من النحاس ، غلفت بطبيعة من الذهب بلغت ثقافتها وحدها أكثر من مائة ألف دينار ، فازال القوم هذه التفاصيح ، بعد استيلائهم على المدينة ، وبنوا مكانها على الدائرة ، التي يدور عليها المؤذن ، أبراًجًا للنواقيس ، وضعوا فوقها مثلاً ارتفاعه أربعة أمتار وزنته ١٢٨٨ كيلو غرام ، بحال يتحرك فيها مع الرياح حيث سارت ، ومنها أنت تسميتها بلفظ جيرالد «لعبة الهواء» .

وهذه المنارة مربعة الشكل ، وكل ضلع من أضلاعها من جهة القاعدة طوله ٦٠ مترًا ، وبناؤها من الطوب الأحمر ، وسمك حوائطها متان ونصف مترا ، وفيها إلى أعلى كثير من الفتحات ، التي تسمح ب النفاذ الهواء والتدور إلى داخلها ، وارتفاعها ٧٠ مترًا ، وهو ما بقي من عمل العرب فيها ، ويصعد إلى قمة المنارة ، بطريق مائل في حبيطها من الداخل ، يسع فارسين يسيران أحدهما بجانب الآخر ، وترى من أعلىها منظراً جميلاً للمدينة . انتهى .

ومناسبة ذكر المنائر ، حكى الزمخشري ، في خالد بن عبد الله القسري ، قال لما بلغ خالدًا ما قاله رجل من موالي الأنصار :

ليتنى في المؤذنين نهارى إنهم يصررون ما في السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم بالموى كل ذات دل ملبع

أمر خالد بهدم المنائر اه . والمذكور هو خالد بن عبد الله القسري ، كان والياً على مكة ، من قبل أمير المؤمنين عبد الله بن مروان .

نقول : لقد سمعنا منذ ثلاثين سنة عن بعض مشائخنا ، في الجامع الأزهر الشريف ، بالقاهرة ، حينما كانا نطلب العلم به ، أو قرأانا في بعض كتب التاريخ عن الجامع الأزهر (لا تذكر ذلك تماماً) أنه في وقت ، من الزمن الماضي ، كان المؤذنون بالجامع الأزهر عمياناً ، حتى لا يصرروا عورات الجيران .

فسبحان الكبير المتعال ، الذي يغير الأحوال ، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وحوارنا على طاعتك بفضلك ورحمتك يا رب العالمين آمين .

والجامع الأزهر المذكور ، هو أول جامع أسس بالقاهرة ، أنشأه القائد جوهر الصقلي ، مولى المعز لدين الله ، لما احتط القاهرة ، وابتداً بناؤه لست بقين من

جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وكم بناه لسبع خلوات من رمضان سنة (٣٦١) إحدى وستين وثلاثمائة ، وكان به طلس ، لا يسكنه حمام ولا يمام ولا عصفور وكذا سائر الطيور ، وهذا الجامع المبارك لا ينقطع تدريس العلم فيه على الدوام إلى اليوم ، وكم تخرج فيه من فطاحل العلماء ، ويحق لأهل مصر أن يفخروا به .

وقد سمعنا أنهم سيقيمون له عيداً أفالياً ، بمناسبة مرور ألف عام عليه ، وهو جدير به وبكل عنابة واهتمام ، جعله الله عامراً بالعلم والعمل مدى السنين والأعوام آمين .

ومناسبة الكلام على المنارات نأتي بشيء من الملحوظ ، فنقول : إن الملك المؤيد لما بني جامعه الشهير باسمه ، الذي عند باب زويلة ، في انتهاء شارع الغورية بالقاهرة وانتهى من عمارته سنة (٨١٩) تسع عشرة وثمانمائة مالت منارة ، التي بنيت على البرج الشمالي من باب زويلة ، بعد سنة من بنائها ، وكان الناظر على عمارة الجامع بهاء الدين بن البرجي . قال بعض الشعراء في ذلك من الأبيات البدعة المعنى ، ما يأتي :

قال نجم الدين بن النبي في ذلك :

يقولون في تلك المنار تواضع وعين وأقوال وعندي حلّها
فلا البرج أخنى والحجارة لم تعب ولكن عروس أثقلتها حلّها
وقال أيضاً :

بجماع مولانا المؤيد أنشئت عروس سمت ما خلت قط مثالها
ومذ علمت أن لا نظير لها اشت وأعجبها والعجب عنها أماها

وقال الحافظ ابن حجر :

بجامع مولانا المؤيد رونق منارة بالحسن تزهو وبالزین
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا فليس على جسمي أضرّ من العين
وقال العلامة العيني :

منارة كعروس الحسن إذ جليت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيّت بعين قلت ذا غلط ما أوجب المهدم إلا خسدة الحجر

ولما بني السلطان حسن بن الناصر بن قلاوون جامعه الشهير باسمه ، والذي هو بجوار القلعة سنة (٧٥٨) ثمان وخمسين وسبعين وبنى به ثلاث منارات ، سقطت المنارة ، التي على الباب ، فهلك تحتها نحو ثلاثة نفوس من الأيتام ، الذين كانوا يحفظون القرآن الكريم بمكتب السبيل . قال الشيخ بهاء السبكي في ذلك أبياتاً وهي :

أبشر فسعدك يا سلطان مصر آتي بشيره .
 إن المارة لم تسقط لنقصة لكن لسرّ خفي قد تبين لي
 فاللوجد في الحال أدها إلى الميل من تحتها قرئ القرآن فاستمعت
 لو أنزل الله قرآنًا على جبل تصدىت رأسه من شدة الوجل
 تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت من خشية الله لا للضعف والخلل
 وغاب سلطانها فاستوحشت فرمي بنفسها لجوى في القلب مشتعل
 فالحمد لله خط العين زال .
 لا يعزى البؤس بعد اليوم مدرسة شيدت بينانها للعلم والعمل
 ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلاء علمًا فليس بمصر غير مشغل
 لقد بُني جامع السلطان حسن المذكور لتدرس فيه سائر العلوم ، مع إقامة
 الصلاة فيه ، وهو مسجد عظيم الاتساع شاهق البناء ، يعدّ اليوم من عجائب أبهية
 القاهرة في إحكام بنائه وجمال هندسته ونقوشه .

قال فيه المقريزي : لا يعرف اليوم يبلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذه المدرسة «يقصد الجامع المذكور» ، في كبر قالبها ، وحسن هندامها ، وضخامة شكلها ، أقامت العمارة فيها مدة ثلاثة سنين ، لا تبطل يوماً واحداً ، وأرصد لعمارتها في كل يوم عشرون ألف درهم ، حتى قال السلطان : لو لا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام ما بناه لترك بناها . انتهى .

كتبنا هذه النبذة لمناسبة ذكرنا جامع السلطان حسن ، ولا نريد الكلام عن مساجد مصر لأننا لسنا في صدد ذلك ، وهناك كتاب مؤلفة عن مساجد مصر والقاهرة أحدثها وأجملها طبعاً كتاب «تاريخ المساجد الأنترية» للأستاذ حسن عبد الوهاب ، مقتضى الآثار العربية ، وهو يقع في جزئين مصورين تصويراً فنياً ، مطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية ، وكتاب آخر أفحى وأحسن وأجمل اسمه «مجلد

المساجد» وهو مطبوع بمصلحة المساحة المصرية ، طبعاً في غاية الفخامة والضخامة والفن البديع ، يعد آية من آيات الطباعة ويقع في مجلدين كبيرين .

ونرجو أن يوفقنا الله تعالى بوضع كتاب خاص عن المساجدين الحرامين بمكة والمدينة فقط وأن يطبع بمثل طبع الكتاب المذكور ، بل وأحسن منه ، إن شاء الله تعالى ، ولربما أحقنا بهما المسجد الأقصى ، ليكون الكتاب مشتملاً على المساجد الثلاثة ، التي لا تشد الرجال إلا إليها . وما ذلك على الله بعزيز وهو الفتاح العليم واسع الفضل والإحسان .

مبدأ عمل محاريب المساجد

الحاريب جمع محراب بكسر الميم ، قال في مختار الصحاح : المحراب صدر المجلس ومنه محراب المسجد ، والحراب أيضاً الغرفة ، وقوله تعالى : **﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَحْرَابِ﴾** قيل من المسجد . انتهى .

وقال في القاموس : الحراب الغرفة وصدر البيت ، وأكرم مواضعه ، ومقام الإمام من المسجد ، والموضع ينفرد به الملك فيبتاعد عن الناس ، ومحاريب بني إسرائيل مساجدهم ، التي كانوا يجلسون فيها . انتهى منه .

والحراب ، الذي تتكلم عنه هنا ، هو محراب المساجد ، الذي يقف فيه الإمام للصلوة ، وهو يكون دائماً بوسط حدار المسجد القبلي ، وهو عبارة عن تجويف قائم بالجدار ، طوله متراً فـ أكثر ، وأعلاه مستدير كنصف الدائرة ، وأحياناً لا يعلمه بجوفاً ، لعدم معرفتهم ، وإنما يكتفون برسم صورته في وسط الجدار ، للدلالة على القبلة ، والحقيقة أن محراب المسجد فائدة عظيمة من حيث دلالته على القبلة ، ولا يوضع المحراب إلا بعد التحرّي التام عن القبلة .

والأصل في ذلك حديث الطبراني ، في الأوسط ، عن جابر بن أسماء الجهني ، قال : لقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بالسوق فقلت : أين تريد يا رسول الله ؟ قال : نريد أن نخط لقومك مسجداً ، فأتيت وقد خط لهم مسجداً ، وغرز في قبته خشبة فأقامها قبلة اهـ . فلا يبعد أن يكون هذا الحديث الشريف أصلاً لإنشاء محاريب المساجد بياناً للقبلة ، والله تعالى أعلم .

قالوا : وأول من أحدث المحراب المغوف عمر بن عبد العزيز ، والي المدينة ، في خلافة الوليد بن عبد الملك ، والله تعالى أعلم بصحبة ذلك ، وإن صح ذلك فما نظن أن عمر عمل محراباً مغوفاً ، وإنما وضع في صدر المسجد أي بوسط حداره القبلي علامة ، للدلالة على القبلة ، أخذنا من الحديث المتقدم . والله تعالى أعلم .

وأول من أخذ المحراب بمصر هو : قرّة بن شريك العبسي ، الذي ولد على ديار مصر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك سنة تسعين من الهجرة ، فأقام والياً بها إلى أن مات سنة ست وتسعين . فإن قرّة بن شريك أحرى بعض إصلاحات ، في جامع عمرو بن العاص ، الذي بناه بأمر الوليد ، فبنياه في سنة (٩٣) ونصب فيه المنبر سنة (٩٤) ، وعمل فيه المحراب المغوف ، ولم يكن به محراب قبل ذلك ، ثم بعد هذا انتشر عمل المخاريب في المساجد ، أي كان انتشارها في أول المائة الثانية للهجرة .

ولم نطلع على ضبط اسم «قرّة بن شريك» والظاهر أنه ، بضم القاف وتشديد الراء المفتوحة بعلها تاء مربوطة ، وهي كلمة عربية ، وليس ما يقرأها بعضهم : «قرّة» بفتحتين ثم هاء ساكنة ، فهذه الكلمة تركية معناها «الأسود» والله تعالى أعلم .

واعلم أنه لم يكن في مسجد رسول الله ﷺ في زمانه ، ولا في زمان الخلفاء الراشدين الأربعة ، محراب فقط ، وإنما أحدث المحراب في أول المائة الثانية ، وفيه اليوم ستة مخاريب ، ذكرها صاحب «مرآة الحرمين» .

أما عندنا ، بمكة المشرفة ، فلا يوجد بالمسجد الحرام محراب ، ولماذا يكون به محراب والكعبة المعظمة قائمة بوسطه ، بجلال نورها ، وعظمة بهائها ، وإليها تتجه جميع مخاريب المساجد في الدنيا .

وطبعاً لم تكن المخاريب ، عند أول حدوثها ، بالصفة التي نراها اليوم في المساجد ، وإنما تطورت أشكالها ، وكثرت أنواعها ، شيئاً فشيئاً ، بحسب تطور العمارة وتقدمه ، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على بناء المساجد ، فمن جملة المخاريب المتنوعة : محراب مسجد قصر الحمراء بالأندلس ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان بمحاطته أحجار ياقوت مرصعة ، في جملة ما ثقق به من الذهب والفضة ، ومحرابه من العاج والإبنوس ، ولقد ألف الإمام السيوطي ، رحمه الله تعالى ، رسالة في المخاريب تسمى «أعلام الأديب بحدث بدعة المخاريب» وهي

رسالة خطية توجد بدار الكتب العربية المصرية ، نقلنا ما ذكرناه ملخصاً من كتاب «حسن الحاضرة» للسيوطى ، ومن كتاب «مرآة الحرمين» لإبراهيم رفعت باشا ، رحمة الله تعالى .

نقول : أول من طيب المحراب امرأة عثمان بن مظعون فقد روى الفاسى ، في كتابه «شفاء الغرام» : أن عثمان بن مظعون تفل في المسجد ، فأصبح مكتباً فقالت له امرأته : مالي أراك مكتباً؟ فقال : لا شيء ، إلا أني تفلت في القبلة ، وأنا أصلى ، فعمدت إلى القبلة فغسلتها ثم خلقتها ، فكان أول من خلق القبلة . انتهى .

فالمراد بالقبلة المحراب ، ومعنى خلقتها طيّبتها بالخلوق ، بفتح الخاء ، وهو نوع من الطيب ، وتطيب المسجد وبجميره مطلوب والمحراب جزء من المسجد ، فأول من خلق المسجد النبوي عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه .

ثم لما حجت الخيزران أم موسى وهارون ، في سنة سبعين ومائة أمرت بالمسجد أن يخلق ، فتولت تخليقه جاريتها مؤنسة ، فخلقته جميعه حتى الحجرة الشريفة جميعها ، ذكره الفاسى «في شفاء الغرام» .

وذكر فيه أيضاً : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى بمحمراة من فضة ، فيها تماثيل من الشام ، فكان يجمر بها المسجد ، ثم توضع بين يديه . انتهى

وصف مسجد قرطبة ومنارته ومحرابها

قال الأستاذ محمد لبيب البترنوى المصرى مؤلف "الرحلة الحجازية" في كتابه "رحلة الأندلس" يصف مسجد قرطبة بالأندلس ومنارته ومحرابه ، مختصره بما يأتي :

دخلنا المسجد من باب المنارة ، وهو باب العمومي الكبير النحاسى ، ويبلغ طوله ثمانية أمتار وارتفاعه نحو عشرين متراً ، ووجهة البناء من الرخام المنقوش بنقوش عربية عجيبة ، أشبه شيء بالخرم "الدنتلا" وفي وسطها وأعلاها كتابة عربية أم أستطيع قراءتها ، ويكون هذا الباب ، من ظاهره ، من قطع نحاسية ، طولها ١٥ سنتيمتراً في عرض نصفها تقريباً ، وهي مثمنة الشكل ، بعضها عمودي على الآخر ، وقد رسم القوم ، في وسط القطعة القائمة ، صليباناً ، بعد استيلائهم على

المدينة ، وتحويلهم المسجد إلى كنيسة ، كما كان سابقاً قبل أن يبنيه مسجداً عبد الرحمن الداخل .

والمنارة في الزاوية القبلية الجنوبية من المسجد ، وهي مربعة الشكل ، وطول كل ضلع منها ١٢ متراً وارتفاعها ٩٣ متراً ، وهي خمس طبقات ، في كل طبقة عدد كبير من الأجراس .

أما القبلة فهي شيء لا يصل إليها وصف الواصف ولا مبالغة الناعت ، ويحيط بها الآن « درايزين » من الحديد ، ليمنع الناس عنها ، وقد قدرتها بسبعين أمتار طولاً في اثني عشر متراً ارتفاعاً ، وفي وسطها المحراب ، وكل هذه الوجهة صنعت من الفسيفساء الصغيرة جداً والدقيقة في صناعتها ، فهي من قطع رخامية من ألوان كثيرة يدخلها قطع صافية وذهبية ، وقد صيغت بشكل ينشأ عنه صورة فذة في بابها ، فإذا نظرت إليها من جهة اليمين رأيت مناظر غير التي تراها من جهة الشمال ، وذلك بسبب انعكاس الضوء فيها ، بحال تستهوي الألباب وتسلب العقول ، بجلال هذه الصنعة العربية ، وفي دائرة القبلة والمحراب كتابات كوفية قرآنية كثيرة ، مما تراه عادة على أمثلها ، وعن يمين القبلة ويسارها بابان لغرفتين صغيرتين ، إحداهما لعبد الإمام والثانية لوضع لوازم المبر ، الذي لا يوجد له أثر الآن ، والمحراب واسع من داخله ، وتعلوه قطعة واحدة من الرخام المقرن تكون سقفاً .

وطول المسجد من الشمال إلى الجنوب ١٧٥ متراً ، ومن الشرق إلى الغرب ١٣٤ متراً وارتفاعه يصل إلى ٢٠ متراً ، وقد كان بالمسجد ١٢٩٣ عموداً ، كلها من الرخام ، وتيجانها منقوشة بنقوش مختلفة ، وكانت قبته قائمة على ٣٦٥ عموداً ، وكان بالمسجد مصابيح من الفضة الخالصة ، بقي إلى أوائل القرن الثامن عشر (من الميلاد) منها أربعين مصباحاً أخذه الفرنسيون ، عند دخولهم قرطبة ، في زمن نابليون الأول .

هذا ، لقد ذكرنا هذه النبذة عن مسجد قرطبة ، ليكون لدى الناس فكرة حسنة عن الغرب ، فقد قال فيه بعضهم :

الغرب أحسن أرض ولسي دليل عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعي إليه

أما المساجد الشرقية العجيبة فكثير منا رأها رأي العين ، على أنها لو أردنا الكتابة عن المساجد المهمة العظيمة في البلاد الإسلامية لاقتضى أن نطوف بها مدة من الزمن ثم نكتب عنها مجلدات .

عدد منارات المسجد الحرام سابقاً

لم تكن المنارات في المساجد معروفة في صدر الإسلام ، ببساطة بناء المساجد والمنازل ، وكون سقوفها من الخشب أو جريد النخل ، شأنها شأن المنابر ، حيث كانوا يختطبون على الأرض قياماً ، فكانوا يؤذنون للصلوة فوق سطح المساجد أو على أبوابها ، وقد أمر رسول الله ﷺ بلاآن يؤذن بالظهر ، فوق ظهر الكعبة ، يوم فتح مكة ، وقريش فوق رؤوس الجبال . فإن المسجد كان يؤمّن على قدر المطاف ، وليس له جدار يحيط به ، وليس فيه منارة أو منبر ، ثم بمرور الزمن تطور الناس فاخترعوا المنارات الباسقات والمنابر الرشيقات ، بل صاروا الآن يطيرون في الهواء ويجررون على الماء ، ويريدون الوصول إلى كواكب السماء ، واحتزروا من الأمور ما لم يخطر في عقول الأمم السابقة .

والمنارات والمنابر تختلف أشكالها وصورها في جميع بلاد الإسلام ، وبتطور الناس وتقدمهم في الصناعات تأخذ صورها في الإتقان وجمال الشكل وقوة البناء ، كما هو ظاهر في عصرنا الحاضر ، وكانت المنارات في قديم الزمان بسيطة البناء تمتاز فقط بعلوها وارتفاعها عن المساجد ليسمع الناس صوت المؤذن .

ولتتكلم هنا أولاً عن المنارات التي كانت في المسجد الحرام ، زمن الإمام الأزرقي ، الذي كان في أوائل القرن الثالث الهجري ، ثم لتتكلم عن مناراته في عصرنا الحاضر قبل التوسيعة السعودية ، فنقول وبالله التوفيق ومنه المعونة والسداد :

قال الأزرقي في تاريخه : وفي المسجد الحرام أربع منارات ، يؤذن فيها مؤذنوا المسجد ، وهي في زوايا المسجد على سطحه يرتفع إلية بدرج ، وعلى كل منارة باب يغلق عليها شارع في المسجد الحرام ، وعلى رؤوس المنارات شراف .

١) فأولها المنارة ، التي تلي باب بنى سهم ، تشرف على دار عمرو بن العاص وفيها يؤذن صاحب الوقت بمكة .

٢) والمنارة الثانية تلي أجياد ، تشرف على الحزورة وسوق الخباطين ، وفيها يسحر المؤذن في شهر رمضان .

(٣) والمنارة الثالثة تشرف على دار بن عباد ودار السفيانيين على سوق الليل ، ويقال لها منارة المكين .

(٤) والمنارة الرابعة ، بين المشرق والشام ، وهي مطلة على دار الإمارة ، وعلى الحذائين والردم ، وفيها يبعد أبو الحاج الخراساني ، ويكون فيها بالليل والنهار ويصلّي الصلوات فيها ، ولا ينحدر منها إلا من جمعة إلى جمعة ، وكان رجلا صالحا فيما ذكروا . انتهى من الأزرقى .

هذه المنارات الأربع هي التي كانت ، بالمسجد الحرام ، في عصر الإمام الأزرقى . والمسجد الحرام في وقته متسع ، كما هو في وقتنا هذا للزيادة العظيمة ، التي زادها فيه أمير المؤمنين محمد المهدي ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وزاد في درجاته آمين .

أما في عصرنا الحاضر ، قبل التوسعة السعودية ، فإن المسجد الحرام سبع منارات ، وهي كما يأتي :

(١) منارة باب العمرة ، أنشأها أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس ، حينما زاد في المسجد الحرام من الجانين الشامي والغربي ، وفرغ منه سنة (١٤٠) أربعين ومائة . ثم سقطت سنة (٥٥١) فعمّرها وزير صاحب الموصل محمد الجواد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني ، ثم صارت عتيقة فجددها السلطان سليمان حان ، بعد هدمها ، وذلك سنة (٩٣١) ثم جددتها الشريف سرور في سنة (١٢٠١) كما هو مكتوب على باب خلوتها ، وهي العمارة الرابعة لها ، ولا تزال على هذا البناء إلى اليوم .

(٢) منارة باب السلام ، أنشأها أمير المؤمنين محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، ثم هدمت سنة (٨١٦) ، في زمن الناصر فرج بن برقوق الجركسي ، ثم عمّرت ، ثم جددتها السلطان مراد خان الثالث العثماني ، وذلك سنة (٩٨٣) ، وهي العمارة الثالثة لها ، ثم هدمت في عصرنا الحاضر في شهر رجب سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف ، وذلك في توسيعة المسجد الحرام .

(٣) منارة باب علي ، أنشأها أيضاً أمير المؤمنين محمد المهدي ، ثم ألت إلى الحراب ، في عصر السلطان سليمان حان بن سليم حان ، فجدد بناؤها بالحجر الأصفر الشميسى ، وكان ذلك في حدود سنة (٩٧٠) ، وهذه هي المرة الثانية لها ، وكانت لا تزال باقية سليمة إلى اليوم ، لكنها هدمت في متتصف

شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، في توسيعة المسجد الحرام التي حصلت في عصرنا الحاضر .

(٤) منارة باب الوداع ، وقد يأْسَى يسمى هذا الباب بباب الحزورة ، أنشأها أيضاً أمير المؤمنين محمد المهدي ، ثم سقطت في زمن الملك الأشرف شعبان بن سلطان حسين سلطان مصر وذلك سنة (٧٧١) ، وسلم الله الناس من سقوطها ، فأمر الملك الأشرف شعبان بتعوييرها ، ففرغوا من بنائهما في آخر السنة المذكورة . وهذه هي المرة الثانية لها ، ولا تزال باقية سليمة إلى اليوم .

ولم ينشئ محمد المهدي غير هذه الثلاث منارات فقط ، بالمسجد الحرام ، والظاهر أنه رحمة الله تعالى أنشأ هذه المنارات في العمارة الثانية ، التي تمت سنة سبع وستين ومائة ، وكان أمر بهذه العمارة في حجته الثانية سنة (١٦٤) .

(٥) منارة قايتباي ، وهي بين باب النبي وباب السلام ، أنشأها الملك الأشرف السلطان قايتباي ، ملك مصر ، خلف مدرسته ، التي بناها ، وذلك في حدود سنة (٨٨٠) ، وكانت باقية حتى أزيلت في عصرنا الحالي في شهر رجب سنة (١٣٧٥) ، وذلك في توسيعة المسجد الحرام .

(٦) منارة باب الزيارة ، أنشأها المعتضد العباسى ، فإنه لما زاد في توسيعة المسجد الحرام ، يدخل دار الندوة إليه ، أمر أن يعمر بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المزخرف ، وأن تبني عند هذه الزيادة منارة وذلك في حدود سنة (٢٨٤) أربع وثمانين ومائتين ، ثم سقطت هذه المنارة وبناها الملك الأشرف برسباي ملك مصر سنة (٨٣٨) كما هو مكتوب في لوح من الحجر بجانب المقذنة ، بواسطة الأمير سودون الحمدي ، ثم عمرت حين وقع دورها سنة (١١١٣) ، فهذه هي المرة الثالثة لها ، ولا تزال باقية إلى اليوم ، وتسمى هذه المنارة منارة باب سويقة .

(٧) منارة السلطان سليمان بن سليم خان ، أنشأها السلطان المذكور فنسبت إليه ، وهي واقعة بين مدارسه الأربع ، من الجانب الشمالي ، أمام مدخل باب المحكمة الكبيرى ، الموصى إلى المسجد ، قرب باب الزيارة ، بواسطة قاسم أمين العمارة السلطانية وذلك سنة (٩٧٣) .

والسلطان سليمان المذكور هو الذي أهدى للمسجد الحرام المنبر الرخام الذي ينخطب عليه إلى اليوم . جزاه الله خير الجزاء .

إلى هنا انتهينا من ذكر منارات المسجد الحرام السبعة ، فلنذكر المنارات التي كانت بمكة المشرفة في غير المسجد الشريف ، فنقول وبالله التوفيق :

جاء في التاريخ أنه كان للمسجد الحرام منائر أخرى ، خلاف ما ذكرناه منها : منارة على باب إبراهيم ، تشبه الصومعة ، فهدمها بعض أمراء مكة . ذكرها الفاسي .

ومنها : منارة على باب الصفا ، وهي أصغرها ، وكانت علماً لباب الصفا ولا يصعد عليها لضيقها . ذكرها ابن جبير .

ومنها : منارة على الميل الذي يهربون منه من يسعى بين الصفا والمروة . ذكرها الفاكهي . قالوا : وهذه المنائر الثلاث كانت على المسجد الحرام وهدمت ولا يعلم من بناتها ولا من هدمها . انتهى .

ورأينا في هذه الثلاث المنائر أنها بنيت لا على أن تكون منائر للأذان ، وإنما بنيت لتكون علامات على بعض الأمور ، كما هو ظاهر من سياق الكلام ، وحيث أنها لم تكن مآذن بالمعنى المعروف لم يهتم أحد من ولاة المسلمين ، بعد هدمها بالتعمير ، كما لم يهتم أحد بمعرفة من أنشأها ولا متى هدمت . فلذلك نرى من الغلط قوله : «أنه كان للمسجد الحرام منائر أخرى» والأولى أن يقال : أنه كان حول المسجد من الخارج أعلام تشبه المنائر الصغيرة وضفت لتدل على كذا وكذا ، ثم هدمت .

أما المنارات ، التي كانت بمكة المشرفة ، غير ما في المسجد الحرام ، فهي كما يلي :

كان عدد المنارات في فجاج مكة وشعابها ورؤوس جبالها نحو خمسين منارة ، وكان يوزن على كل منارة منها ، وكان للمؤذنين أرザق تجري عليهم ، وجامكية -أي رواتب- تصل إليهم من مصر ، مع ما يصل المؤذناني المسجد الحرام وأرباب الوظائف به . قال الفاسي : ولم يقع شيء من هذه المنائر .

نقل الفاسي عن الفاكهي ، أنه قال : وكان أهل مكة ، فيما مضى من الزمان ، لا يوزنون على رؤوس الجبال . وإنما كان الأذان في المسجد الحرام وحده ، فكان الناس تقوتهم الصلاة ، من كان منهم في فجاج مكة ونائباً عن المسجد ، حتى كان في زمان أمير المؤمنين هارون الرشيد بن محمد المهدي ، فقدم عبد الله بن

مالك ، أو غيره من نظرائه مكة فقاته الصلاة ، ولم يسمع الأذان ، فأمر أن يتخذ على رؤوس الجبال منارات ، لشرف على فجاج مكة وشعابها ، يؤذن فيها للصلاة ، وأجرى على المؤذنين في ذلك أرزاقاً . ولعبد الله بن مالك الخزاعي منائر ، منها على جبل أبي قبيس أربع منائر ، وعلى رأس الأحمر المقابل منارة ، وعلى الجبل المشرف على شعب عامر منارة ، ومن ذلك منارة تشرف على الحزرة ، ومنارة على جبل التفاحة ، ومنارة على جبل خليفة بن عمر البكري ومنارة على كَدَى ، بضم الكاف ، تشرف على وادي مكة . فهذه المنائر كلها تنسب إلى عبد الله بن مالك الخزاعي من خدام أمير المؤمنين هارون الرشيد .

وأما (بَغَّ) الذي يكتن بأبي موسى ، مولى أمير المؤمنين هارون فقد أمر بعمارة عدة منائر أيضاً ، من ذلك منارة على رأس الفلق ، ومنارة على الأحمر أيضاً ، ومنارة على جبل خليفة بجانب منارة عبد الله الخزاعي ، ومنارة على جبل المقبرة ، ومنارة على جبل الحزورة ، ومنارتان على جبل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ولعله المسني بالتنوي ، ومنارة على جبل الأنصاب الذي يلي أجياد ، ومنارة على ثنية أم الحارث ، المشرفة على الحصاص ، ومنارة على الجبل المشرف على الخزمانية ، ومنارة مشرفة على الخضير أو بئر ميمون ، ومنارة بمعنى عند مسجد الكبش ، وهذه كلها (لِبَغا) المذكور .

ثم قال الفاكهي : وكان هذه المنائر ، فيما مضى ، أناس يؤذنون للصلوة ، تجري عليهم الأرزاق ، في كل شهر ، ثم قطع ذلك لتغيير الأحوال وتطاول الأزمان ، فترك ذلك بعضهم ، وبقي منها منارات يؤذن عليها يجري على من يؤذن فيها عبدالعزيز بن عبد الله السهمي اليوم . انتهى .

قال الفاسي عقب ما تقدم ذكره : وقد ترك الأذان على جميع هذه المنارات في عصرنا ، إلا أن في شهر رمضان يسحر جماعة من الناس على جبال مكة ، في كل جبل إنسان ، ويؤذن كل منهم في الجبل الذي يسحر عليه ، وهي : جبل أبي قبيس والجبل الذي على القرارة المعروفة بلعلع ، وفي جبل الأحمر ، ويقال له جبل الحارث نسبة إلى مؤذن كان يسحر فيه ويؤذن ، وللمؤذنين على هذه الجبال جامكية « رواتب » يسيرة تصل من مصر مع ما يصل المؤذن المسجد الحرام وأرباب الوظائف فيه . اهـ .

نقول: هذا ما كان من المنارات سابقاً، ولا أثر لوجود شيء منها الآن ، ولقد ذكرنا عند الكلام على تأسيس أمانة العاصمة معرفة أهل العصور الأولى لأمور البناء وإصلاح الطرقات فراجعه إن شئت .

ابتداء ظهور الحمل

الحمل هو نوع من الهوادج ، التي تحمل على الجمال ، لكن الحمل اتخذ رمزاً وشعاراً لبعض أجناس الحجاج ، كالمحمل المصري والمحمل الشامي والمحمل العراقي والمحمل اليمني ويكون للمحمل موكب خاص ورجال خاص ، حين سفره من بلاده إلى الأرض الحجازية للحج والزيارة ، ولا يسافر الحمل إلا إلى الأراضي الحجازية فقط ، في موسم الحج ، ولا يركب في الحمل أحد مطلقاً . أما الهوادج ونحن كنا نسميه في عرفنا بالحجاج الشقحف ، بضم الشين المعجمة وسكون القاف وضم الدال المهملة ، فإنه يركب الناس ويوضع الشقحف فوق ظهر الجمل ويكون له موضعان في كل موضع يركب شخص واحد ، ويسافر الناس في الشقحف على الجمال في كل وقت حيثما أرادوا ، فالشقحف نوع خاص من الهوادج كما أن الحمل أيضاً نوع خاص منها . ويمتاز الحمل أنهم يلبسونه ، حين سفره ، بكسوة من الحرير الثمين المشغول بأسلاك النهب والفضة المسماة بالقصب ، ومكتوب عليه آيات قرآنية . والمزخرف بنقوش جميلة بدعة ، والمزين بعقود لؤلؤية . وهناك أنواع أخرى للهوادج يختلف باختلاف أجناس العرب وعاداتهم .

انظر: صورة رقم ٢٠٧ ، المحمل المصري

انظر: صورة رقم ٢٠٨ ، للمحمل المصري والمحمل الشامي

قال الشيخ محمد لبيب البنتوني المصري في كتابه «الرحلة الحجازية» ما نصه: ذهب بعض المؤرخين إلى أن الحمل ينتهي تاريخه من سنة (٦٤٥) ستمائة وخمس وأربعين هجرية ، وقالوا: إنه هو الهوادج الذي ركبت فيه شجرة الدر مملكة مصر ، في حجرها في هذه السنة ، وصار بعدها يسير سنويًا أمام قافلة الحاج ، وليس فيه من أحد لأن مكان الملوك لا يجلس فيه غيرهم .

والذي نراه أن الحمل قديم جدًا ربما كان من قبل الإسلام ، وكان يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا إلى الكعبة المعظمة ، وقد سير رسول الله ﷺ محملًا إلى مكة بهداياه إلى البيت المغظوم ، ومن ذلك ما نراه في التواريخ من اسم الحمل

العرقي والمحمل اليمني ، وما نشاهده الآن من محمل ابن الرشيد و كانوا يسمونه سبهان . و محمل ابن سعود و محمل ابن دينار وهذا يتوجه إلى الخرطوم ومنها بالسكة الحديدية إلى بور سودان ومنها يبحر إلى جدة . وكل ذلك ليس إلا جمالاً تتحمل صرتهم إلى الحرمين ، مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ ، وكذلك محمل النظام ملك حيدر أباد بالهند ، يأتي مكة ، مع الحاجين من بلاده ، حاملاً هداياه إلى أهل الحرمين الشريفين . ولقد جاء في الكلام على «دارفور» في تاريخ السودان لنعوم بك شقير ، تحت عنوان : صرة الحرمين ، ما نصّه : «و كانت سلطنة الغور مستقلة عن دول الأرض كلها لا تدفع جزية لأحد ، مما عدا الحرمين الشريفين ، فإنها كانت تخريجهما بمحمل و صرة كل سنة ، فكان موكب الحمل يأتي إلى مصر ، ومعه الريش والصمعن وغيرهما من خيرات البلاد ، فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة ، ثم يستطرد المعج إلى الحرمين مع الركب المصري ». و عليه فمحمل شجرة الدر إنما كان يسير أمامها ، حاملاً الهدايا ، التي أخذتها معها للبيت المكرم ، في هودج مزين بأبهى زينة . و غاية ما هناك أنها عيت به ورتبت له كثيراً من الخدم والخشم ، ومن ثم صار عادة تقوم بها ملوك مصر كل سنة ، وما زالوا يسالغون في زيتها من سنة لأنخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع الحمل حمل غيرها معها ، (وكسوة الحمل الحالية مع هيكله الخشبي لا تقل عن ١٤ قنطاراً) وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا ، يحمل في صناديق على جمال أخرى ، تسير مع الحملة . و يعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الأيوبيّة . وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة ، تمثلي فيه الجنود الراكبة والبيادحة وحرس الجناب وركبه وخدمته من ضوية وعكامة ، يتقدمهم أمير الحج ، الذي يعينه الجناب العالي الخديوي سنوياً ، وهو من الباشوات العسكريين في الغالب ، وبعد أن يدور الحمل دورته المعتادة في ميدان القلعة يمر على المصطبة ، وهي المكان المعد جلوس الجناب العالي الخديوي ، يوم هذا الاحتفال ، و معه رجال حكومته السنّية من الوزراء الفخّام والعلماء الأعلام وكبار ذوات العاصمة ، وهنالك يأتي حضرة مأمور الكسوة الشريفة وبهذه زمام جمل الحمل فيستلمه الجناب العالي منه ويسلمه إلى أمير الحاج ، وعندما تضرب المدفع ، ويسير الموكب ، تقدمه أشایر السادة الصوفية ، ثم الجنود ثم جمل الحمل يتقدمه أمير الحاج ، و يتلوه الحاملي والحملة ثم الفرائحيّة (الطلالون) على جملهم ، ويستمر هذا الموكب سائرًا إلى الحجر ، فالدرب الأحمر ، و يمر من بوابة المؤيد فالغورية فالتحاسين بباب النصر فالعباسية ، وهنالك

يتفرق الموكب وينزل ركب الحمل إلى خيامهم التي ضربت لهم في فضاء العباسية، وينصب الحمل في وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به ، حتى إذا كان يوم السفر إلى السويس نقلوه مع أدواتهم وذخائرهم إلى وابور الحمل . الذي يكون مهياً في محطة العباسية ، وبعد الشحنة يسير إلى السويس ومنها يبحر إلى جدة ، ثم يقصد مكة براً . وفي سنة (١٣٢٨) ، سافر الحمل مع قوته على الإسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم (١٠) نوفمبر سنة (١٩١٠) حضره الجانب العالي الخديوي ومنها أبحر إلى يافا وركب الوابور إلى المدينة المنورة ، وبعد الزيارة ، سافر إلى مكة ، من الطريق الفرعوني ، وبعد أداء فريضة الحج عاد إلى جدة ، ومنها إلى الطور ، ثم إلى السويس ، ثم إلى القاهرة . والحكومة الآن تهتم في تقرير قاعدة لسيره في الطريق الأقل كلفة ومشقة . وللمحمل المصري كسوتان ، كسوته اليومية وهي من القماش الأخضر ، وكسوته المزركشة ولا يلبسها إلا في مواكب الرسمية . وفي أيام وجوده بمكة يوضع فيما بين باب النبي وباب السلام بكسوته اليومية ، فيكون هناك مزاراً للناس على اختلاف أحناهم ، ولا ينقولونه من هذا المكان إلا في مواكب الرسمية ، وعند السفر به إلى المدينة المنورة يسير إليها ركبه ، إما بالبر من الطريق السلطاني أو الفرعوني ، أو الشرقي ، وإما من طريق البحر من جدة إلى بنبع ، ومنها براً إلى المدينة أو إلى الوجه ، ومنه إلى محطة العلا ، ثم يتوجه في السكة الحديدية إلى المدينة . والحمل الآن يسير في هذا الطريق الأخير لتعتذر أعراب الطريق البري من مكة وبنبع ، وتشددهم في طلباتهم وزيادة مرتباتهم . وعند وصول الحمل إلى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العنبرية ، وهناك يطلق له واحد وعشرون مدفعاً ، حتى إذا وصل إلى الباب المصري ترجل كل من في موكبه ، إجلالاً لمقام الرسول ، صلوات الله عليه ، فإذا وصلوا إلى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناحه على تلك الصدفة الواسعة ، وهناك يرفع الحمل ويوضع في مكانه من الحرم ، غربي المدير الشريف ، وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ، ويلبس أمير الحاج ، ومن معه من المستخدمين ، لباس الخدمة في الحجرة الشريفة (وهو عمامة وفرجية بيضاء مشلود عليها حزام أبيض) ، ثم يحملون كسوة الحمل ، بكل احترام ، ويدخلونها في الحجرة الشريفة من الباب الشامي ، ويتذكرونها في جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة ، رضي الله عنها . ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجونها يوم سفر الحمل من المدينة المنورة ، ويوكبون بها في يوم خروجه من

المدينة كما كانت الحال في يوم دخوله . وعند عودة الحمل إلى مصر يختلف بقدومه رسميًا احتفال كبير بحضور الجناب العالى الخديوي أو من ينبه عنه . فيسير الموكب من العباسية إلى القلعة من الطريق ، التي كان خرج منها ، حتى إذا وصل إلى مكان الجناب العالى الخديوي في المصطبة استلم سمه زمام العمل من أمير الحاج وسلمه إلى حضرة مأمور تشغيل الكسوة ، وعندها تطلق المدفع ويتم الاحتفال . وتحفظ كسوة الحمل بمخزن في المالية ، وهذه الكسوة تجدد كل عشرين سنة مرةً ، وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصرى . أما كسوته الخضراء فيكتسى بها سنويًا ، بعد عودته ، ضريح سيدى يونس السعدي (جبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له مدة حياته خلمة في سفرية الحمل . وإليك كشفاً يبيان ما يصرف من المالية سنويًا في تسفير الحمل ، والمرتبات الجاري صرفها في مكة والمدينة المنورة ، حسب الوارد في الميزانية الأخيرة .

ثم ذكر الشيخ البتونى ، رحمة الله تعالى ، في رحلاته المذكورة ، جميع المصاريف التي كانت تصرف من الحمل لأهل الحرمين الشريفين ، ثم ذكر بعد ذلك بياناً مفصلاً عن الحمل ، ونحن لم نقله هنا لطوله ، ثم لعدم ورود الحامل إلى الحجاز من (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية ، أي من حين تولى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى عليهما . فمن أراد الوقوف على ذلك فليراجع الكتاب المذكور أو غيره .

وربما يأتي ذكر المصاريف للمحمل في آخر هذا البحث .

واعلم بأن ما ذكره البتونى ، رحمة الله تعالى ، في أوائل هذا البحث ، بأن رسول الله ﷺ سير حملًا بهداياه إلى البيت العظيم ، مراده بالحمل هنا أنه ﷺ أرسل رسولاً يحمل هداياه إلى البيت العظيم ، وليس المراد من الحمل المذكور هنا الحمل المتعارف عندنا الذي هو الهودج المخصوص .

قال الغازى : وفي درر الفرائد المنظمة ، وفي سنة (٧٢٠) عشرين وسبعمائة وقف بعرفة عالم عظيم من جميع البلاد ، وكان مع العراقيين حمل عليه حلبي من الجواهر واللؤلؤ والذهب ما قوامـ بـمائـيـ أـلـفـ وـخمـسـيـ أـلـفـ دـيـنـارـ من الذهـبـ المصري . ذكره الحافظ علم الدين البرزالي . اهـ .

وأول من اتخذ الحمل «شجرة الدر» حيث حجَّت من مصر عن طريق عيذاب والقصير من صعيد مصر ، في ركب كبير من الحجاج ، ثم صار الحمل

فيما بعد شعاراً اتخذه بعض المالك الإسلامية ، كمصر والعراق والشام واليمن والروم ، وكان كل جهة ، من هذه الجهات ، ترسل مع الحمل المدايا والصدقات وريع الأوقاف الخاصة بالحرمين الشريفين ، كما تكون مع الحمل المصري كسوة الكعبة المعلمة في كل عام ، وتكون أيضاً أحياناً مع الحمل الرومي الآتي من البلاد التركية .

وقد انقطع ورود الحمل الرومي واليمني والعربي إلى مكة من زمان بعيد ، أما الحمل الشامي فقد انقطع منذ سنة (١٣٣٠) ألف وثلاثمائة وثلاثين من الهجرة ، وأما الحمل المصري فلم ينقطع إلا في سنة (١٣٤٤) ألف وثلاثمائة وأربعين وأربعين من الهجرة ، أي عندما تولى جلاله الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، على الحجاز ، لأنه رأى أن سير المحامل ، إلى مكة المشرفة ، بدعة يترتب عليها أمور لا يقرها الشرع الحنيف ، فإن العوام والجهلة يتسمجون بالحمل ، ويتركون به ، ويقبلونه وينظر إليه بعين الإجلال والاحترام ، وهذا أمر ليس من الدين مطلقاً ، وإنما جرت بذلك العادة من قديم الزمان . فعمل بحكمته السديدة ، رحمة الله تعالى ، على إبطال حضور الحمل إلى مكة وقت الحج ، واتفق مع الحكومة المصرية على أن ترسل ، ما يخص الحرمين الشريفين ، من الأوقاف وكسوة في كل عام ، مع أمير الحج ، بدون أن يصحبه الحمل ، فكان الأمر كذلك إلى يومنا هذا . فله الحمد على هذا التوفيق .

وإليك تفصيل هذه المحامل ، التي لم يبق لها ذكر إلا في كتب التاريخ ، نقله من تاريخ الغازي .

قال الغازي في تاريخه عن المحامل ما نصه : ذكر المحامل وتاريخها . الحمل أعداد من خشب ، على شكل المودج ، شكله مربع ذو سقف يأخذ في الارتفاع من الجوانب إلى الوسط ، الذي فيه قائم ينتهي بهلال ، وفي العادة يسدل على ذلك الهيكل الخشبي كسوة قد تكون من الحرير ، وقد تكون من غيره ، ويوضع أثناء السفر على ظهر جمل .

وقد جاء في كتاب الكنز المدفون للسيوطى ، أن أول من أحدث المحامل في طريق مكة ، شرفها الله الحاج بن يوسف التقي .

وذكر صاحب درر الفرائد ، أن المحامل التي اعتادت أن ترد من الأقاليم إلى الحجاز أربعة : العراقي والمصري والشامي واليمني ، وهناك محمل خامس وهو

الرومي كما يأتي ذكره . وحج في بعض السنين الخليطون بمحمل . وحج آخر من
محامل في سنين مختلفة .

المحمل العراقي

كان المحمل العراقي أجل المحامل في وقته ، لأن الخلافة الإسلامية كانت في
مدينة بغداد ، عاصمة العراق ، وكان معمول أقاليم الإسلام على ما يصدر منها
ويرد إليها ، والولايات والأمور الدينية والدنيوية إنما تنشأ منها ويخبر بها عنها .

ولقد اعتنى أبو سعيد بن خداينه ، بأمر حاج العراقي ، عناية تامة ، وغشى
المحمل بالحرير ورصعه بالذهب واللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر الأخرى ، حتى
بلغت قيمة الخلية ٢٥٠٠٠ دينار من الذهب المصري أو ١٢٥٠٠ جنية ،
وجعل للمحمل خزاً يسبل عليه إذا وضع .

ولما تقلص ظل الخلافة عن العراق ، وأآل أمره إلى الملوك والمتابعين من الأمراء
والأعيان ، ضعف شأن المحمل العراقي ، فكان يستهتر بركته العريان ، وكثيراً ما
اعتدوا عليه ، ففي سنة (٦٣١) إحدى وثلاثين وستمائة رجع الحج العراقي ، إذ
طمّ عرب الأجاودة الآبار ، واختلف الحاج من العريان حتى ضاق الوقت ،
فرجعوا من حيث أتوا . وفي سنة (٦٣٣) و (٦٣٤) و (٦٣٥) و (٦٣٦) و (٦٣٩)
لم يحج العراقيون لدخول التتر بغداد ، ثم صار المحمل العراقي يحيى مرة
ويقطع أخرى إلى القرن التاسع الهجري .

المحمل اليماني

قال العصامي في تاريخه: وفي سنة تسعين وثلاثة وستين كان ابتداء حدوث
المحمل اليماني ، والحدث له الوزير مصطفى النشار ، المتولى على اليمن ، من جهة
السلطان سليمان خان ، فجعله كالمحملين ومعه خلعة من جانب السلطنة ، فبرز
مولانا الشريف أبو نبي علاقات الخلعة إلى بركة الماجن ، ثم وصل هو والأمير
والمحمل إلى أن حاذى الشريف داره فدخلها ، وتوجه الأمير ونزل عند سفح
الجبل ، الذي على يمين الدار إلى مكة من ثنية المحجون ، ولم يزل كذلك إلى أن
بطلت الخلعة والمحمل من سنة تسع وأربعين وألف ، وذلك بسبب وقوع الفتنة
القوية واحتلال الدولة العثمانية بقتال أعداء الله وإعلامه كلمته العالية . انتهى .

المحمل الرومي

قال في خلاصة الكلام : وفي سنة (٩٢٣) ثلات وعشرين وتسعمائة ، أرسل الأمير مصلح بيك بالحمل الرومي وكسوة للكعبة وصلقات ، ولما أن قدم الأمير مصلح بيك بالحمل الرومي ، والأمير العلائي بالحمل المصري ، خرج الشريف للقائهما هو وابنه في عرضة من قومه ، فالتقوا في الظاهر ، ولبسوا الخلعة وسارا مع الأمراء ، والحمل خلفهما إلى أن أوصلاهما إلى باب السلام ، فأدخل الحملان الحرم وجعل أحدهما على يمين مدرسة الأشرف قايتباي ، والآخر على يسارها ، وفرقت الصدقة الرومية على الفقراء والمحاورين من أهل مكة ، وقرر فيها لصاحب مكة خسمائة دينار ثم فرقت الذخيرة ، وهي صدقة كانت تخرج من خزينة مصر ، تخرجها الجراكسة ، فأباقها السلطان سليم تفرق على العربان ، أصحاب الإدراك وفقراء أهل مكة ، ثم فرقت صدقات الأوقاف المصرية ، ويسمى الصر الحكبي ، ولم يصح في تلك السنة الحمل الشامي . انتهى .

المحمل الشامي

لم يعلم تاريخ حدوثه ، وجاء في درر الفرائد ما يدل على أن سفره إلى الحجاز قبل سفر الحمل الرومي إليه ، إذ في الدرر أنه في سنة (٩١٩) تسع عشرة وتسعمائة ، ت سابق الحمل الشامي والمصري فسبق الشامي ، فشق ذلك على المصريين فعقرروا جمل الحمل الشامي ، فجاء الأمير الأول للمحمل المصري وقدم جملًا حمل عليه الشامي ، الذي قال أميره : «أنا ما بقيت أرجع بالحمل خلوهم يرجعوا به» ، وقد أصلاح بين الركين في مني الشريف بركات .

وما زال الحمل الشامي يرد إلى مكة والمديمة صحبة أميره والحجاج والجنود الشاهانية والموسيقى السلطانية والذخيرة الكافية ، إلى أن قامت الحرب الكبرى في سنة (١٣٣٣) ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية ، الموافق سنة (١٩١٤) أربع عشرة وتسعمائة وألف ، فإن الأتراك شغلوا عن إرساله منذ دخلوا في الحرب بجانب دول الاتفاق ، كذا في «مرآة الحرمين» .

وذكر الشيخ الشيباني في كتاب «الإمام على أعلام الأنام» ما نصّه : وأما الحمل الشامي فإنه يحيى بن مرتباته من الأستانة العلية ، ومن الشام معه الصرة

الهـمايونـة والشـمع الكـبار والصـغار ، الـتي تـسرـج دـاخـل الـكـعبـة وـخـارـجـها ، وـفي مـقـامـات الـمـسـجـد الـحـرام وـالـمـأـذـر الشـرـيفـة ، وـكـذـا طـيـب الـكـعبـة الـعـظـمـة وـبـخـورـها ، كـعـطـر الـوـرـد وـمـاء الـوـرـد وـالـعـنـير وـالـنـد ، وـكـذـا الـحـبـال الـتـي تـلـزـم لـرـبـط أـسـتـار الـكـعبـة ، وـتـسـلـم لـشـيـخ السـدـنـة ، مـن طـرف أـمـين الصـرـة الـهـماـيونـة بـالـحـرم الشـرـيف الـمـكـي . اـتـهـى .

المـحمل المـصـري

قالـوا إـنـ المـحمل المـصـري يـرجـع تـارـيخ إـرـسـالـه لـلـحجـاج إـلـى عـهـد « شـجـرة الدـر » سـنة (٦٤٨) ثـمـان وـأـربعـين وـسـتمـائـة ، وـأـنـه كـانـ هـوـدـجـاـ هـاـ حـيـنـ حـجـّـت ، وـقد زـيـنـتـه بـخـمـائـلـ الـحـرـيرـ وـالـتـطـرـيـزـ الـبـدـيـعـ ، مـنـ فـوـقـ الـأـحـجـارـ الـكـرـيمـةـ ، وـكـانـ تـحـمـلـ مـعـهـا هـدـايـا لـلـكـعبـةـ وـالـحـجـرـةـ الشـرـيفـةـ ، ثـمـ تـابـعـ إـرـسـالـه تـلـكـ الـهـدـايـا إـلـى يـوـمـنـاـ هـذـاـ .

وـالـمـحملـ المـصـريـ مـنـ قـدـيمـ الزـرـمانـ تـصـبـهـ كـسـوـةـ الـكـعبـةـ ، وـمـاـ يـلـزـمـ الـحرـمـينـ ، وـالـصـدـقـاتـ ، الـتـيـ تـوزـعـ عـلـىـ فـقـرـائـهـ ، لـذـلـكـ كـانـ فـيـ مـقـدـمـةـ الـمـحملـ ، وـكـانـ أـمـيرـهـ مـقـدـمـاـ فـيـ الرـتـبـةـ وـالـمـنـزـلـةـ ، وـأـوـلـ سـنةـ نـقـلـ فـيـهـاـ الـمـحملـ إـلـىـ السـوـيـسـ سـنةـ (٩٥١) إـحـدـىـ وـخـمـسـيـنـ وـتـسـعـمـائـةـ ، وـكـانـ يـقـامـ لـلـمـحملـ حـفـلـاتـ بـالـقـاهـرـةـ ، كـلـ سـنةـ يـلـدـورـ فـيـهـمـاـ فـيـ شـوـارـعـهـاـ ، الـتـيـ تـكـوـنـ قـدـ زـيـنـتـ لـهـ ، وـاـكـتـرـ فـيـهـاـ النـاسـ الـبـيـوتـ وـالـحـوـانـيـتـ وـالـسـطـرـوحـ لـيـشـاهـدـوـاـ الـحـمـلـ وـحـفـلـاتـهـ ، فـالـمـرـلـةـ الـأـوـلـىـ فـيـ رـحـبـ ، وـالـثـانـيـةـ فـيـ نـصـفـ شـوـالـ ، وـبـدـأـ ذـلـكـ مـنـ سـنةـ (٧٠٠) سـبعـمـائـةـ .

وـفـيـ سـنةـ (٨٤٨) ثـمـانـ وـأـربعـينـ وـثـمـائـةـ ، أـبـطـلـ السـلـطـانـ الـظـاهـرـ جـقـمـقـ دورـانـ الـمـحملـ ، فـشـقـ ذـلـكـ عـلـىـ النـاسـ ، ثـمـ رـسـمـ الـأـشـرـفـ أـنـيـالـ بـدـورـانـهـ فـيـ شـهـرـ رـجـبـ سـنةـ (٨٥٨) ثـمـانـ وـخـمـسـيـنـ وـثـمـائـةـ ، وـلـعـبـ الـرـمـاحـةـ بـيـنـ يـدـيـ السـلـطـانـ ، عـلـىـ عـادـةـ مـنـ قـدـمـهـ مـنـ الـمـلـوـكـ فـيـ السـنـينـ الـخـالـيـةـ . وـكـانـ ذـلـكـ بـطـلـ مـنـ خـمـسـ عـشـرـ سـنـينـ ، ثـمـ أـبـطـلـ الـمـلـكـ الـأـشـرـفـ قـاـيـبـاـيـ دـورـانـهـ الـرـجـبـيـ ، وـكـذـلـكـ بـطـلـ فـيـ عـصـرـ خـلـفـهـ الـنـاصـرـ الـذـيـ تـولـيـ سـنةـ (٩٠١) إـحـدـىـ وـتـسـعـمـائـةـ ، وـكـانـ لـلـمـحملـ عـفـارـيـتـ مـنـ إـلـإـنـسـ ، يـأـتـونـ بـأـعـابـ يـضـحـكـ مـنـهـاـ النـاظـرـوـنـ . ذـكـرـهـ فـيـ « مـرـآةـ الـحرـمـينـ »ـ .

وـقـالـ الـفـاضـلـ الـبـتـونـيـ ، فـيـ رـحـلـتـهـ : يـعـملـ لـلـمـحملـ يـوـمـ خـرـوجـهـ مـنـ مـصـرـ اـحـتـفالـ كـبـيرـ ، مـنـ أـيـامـ الـدـولـةـ الـأـيـوـيـةـ ، وـلـلـمـحملـ الـمـصـريـ كـسـوـتـانـ : كـسـوـتـهـ الـيـوـمـيـةـ ، وـهـيـ مـنـ الـقـمـاشـ الـأـخـضـرـ ، وـكـسـوـتـهـ الـمـزـرـكـشـةـ ، وـلـاـ يـلـبـسـهـاـ إـلـإـ فيـ

المواكب الرسمية ، وبعد رجوعه عن سفر الحج ، تحفظ كسوة الحمل بمخزن في المالية ، وهذه الكسوة تجدد بعد كل عشرين سنة مرة ، وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصرى ، أما كسوته الخضراء فيكسى بها سنوياً .

والإيك كشفاً بيان ما يصرف من المالية سنوياً في سفر الحمل والمرتبات الجارى صرفها في مكة والمدينة المنورة حسب الوارد في الميزانية الأخيرة :

جنبيات	جنبيات	جنبيات
اثنتين وعشرين لامير	١٢٨٢	مرتبات وتعيينات لأمير
الحج ومستخدمي الحمل	٢٥١١	العربان
الأشراف بمكة المكرمة	١٤٩٣	وكيل مكة المكرمة
والمدينة المنورة	١٩٦١	وكيل المدينة المنورة
نكية مكة المكرمة	١٦٥٧	نكية المدينة المنورة
أهالي مكة والمدينة	٢٨٧٩	أهالي مكة والمدينة
ملكة والمدينة تصرف سنوياً	٣٠٠	ملكة والمدينة تصرف سنوياً
من أوقاف الحرمين		من أوقاف الحرمين
والأوقاف الخصوصية		والأوقاف الخصوصية
والأهلية والخيرية ومن		والأهلية والخيرية ومن
الخاصة الخديوية والمالية		الخاصة الخديوية والمالية
٥٠٠٠	٢٦٥	مجموع المصرف سنوياً
٦٤٢٠	٤٢٤٨	قيمة ما يرسل كل سنة إلى
الحرمين الشريفين من	١٥٥	أهالي مكة والمدينة
الزيوت والحرص وخلافها	١٦٢٩	نكية مكة المكرمة
وأجرة جمال		وكيل مكة المكرمة
أجرة منقولات براً وبحراً	٢٢٥٠	وكيل المدينة المنورة
بمكة والمدينة		وكيل مكة المكرمة
ثمن ومصاريف قمح الصلقة		وكيل مكة المكرمة

مرتبات الأشراف والعربان والأهالي من الحكومة المصرية

قال الفاضل إبراهيم رفعت باشا في «مرآة الحرمين» : جرت العادة من قديم أن تصرف الحكومة المصرية مرتبات الأشراف والعربان والأهالي بمكة والمدينة ، وكان المقرر في ميزانية الحمل هذا العام أي عام (١٣٢٥) للأشراف (١٢٦٥) جنيهًا مصرى ، وللعربان (٢٥١١) جنيهًا ، وللأهالي (٢٨٧٩) جنيهًا ، وللشيخ حذيفة ، كبير قبيلة الأحاملة ، مرتب سنوي ينبع على ٦٠٠ ريال ، تصرف إليه نظير حافظته على ركب الحمل ، أثناء مروره بالطريق السلطاني ، الذي يقيم به

الشيخ حذيفة ، وهذا المرتب يصرف عليه سنويًا من المحمول به أو لم يمر ، اهـ . انتهى كل ذلك من تاريخ الغازي .

نقول: وجميع أنواع المحمول التي كانت تأتي إلى الحرمين الشريفين في موسم الحج قد انقطع حضورها إلى الحجاز منذ تولي الحكومة السعودية عليها أي ابتداءً من سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعون هجرية ، وما زالت الحالة كذلك حتى الآن .

سكان مكة المكرمة وعدد بيوتها ودكاكينها

يقول إبراهيم رفت باشا في كتابه «مرآة الحرمين» : إن سكان مكة يزيدون على مائة وعشرين ألفاً ، كلهم مسلمون طبعاً . ويقول فيه أيضًا : «ومكة ثلاثة آلاف دكان ، وستة آلاف وخمسة بيـت مبنية بالجصّ والحجر الأصمّ» . ثم يقول في هامش كتابه : إن تعداد الأماكن نقله عن التقويم التزكي للبلاد الحجازية سنة (١٣٠٩) وهو مطبوع بمكة بالمطبعة الأميرية .

هذا ما ي قوله مؤلف الكتاب المذكور الذي حجّ سنة (١٣١٨) هـ وحـجـ أيضـاً ثـلـاثـ مـرـاتـ بـعـدـ هـاـ وـيـ سـنـةـ (١٣٢٠) وـ (٢١) وـ (٢٥) ثـمـ بـعـدـ ذـلـكـ أـلـفـ كـاتـابـ المـذـكـورـ .

أما تعداد سكان مكة في عهـدـناـ الـحاـضـرـ فإـنهـ يـلـغـ نـصـفـ مـلـيـونـ نـسـمةـ منـ الأـهـالـيـ وـالـقـيـمـيـنـ بـهـاـ ، وـهـذـاـ بـحـسـبـ ظـنـنـاـ وـخـتـمـيـنـاـ ، وـالـلـهـ تـعـالـىـ أـعـلـمـ بـالـحـقـيقـةـ . وـأـمـاـ بـيـوـتـهـاـ وـدـكـاكـينـهـاـ فـشـيـءـ كـثـيرـ لـاـ يـحـصـىـ ، فـقـيـ كـلـ جـبـلـ سـكـانـ ، وـبـيـنـ كـلـ جـبـلـينـ سـكـانـ ، فـالـرـجـلـ الغـرـبـيـ إـذـاـ نـظـرـ لـمـكـةـ يـظـنـهـ صـغـيرـ لـأـنـهـ لـاـ يـرـاهـاـ كـلـهـاـ ، بـلـ يـرـىـ جـزـءـاـ مـنـهـاـ عـلـىـ جـبـلـ أـوـ فيـ شـعـابـهـاـ ، وـلـكـنـهـ لـوـ تـقـدـ شـعـابـهـاـ ، وـمـشـيـ بـيـنـ جـبـلـهـاـ ، لـأـخـذـهـ العـجـبـ ، هـذـاـ جـاءـ المـثـلـ الـعـرـبـيـ «أـهـلـ مـكـةـ أـدـرـىـ بـشـعـابـهـاـ»ـ .

الأغرب في مكة المشرفة

قال الغازي في الجزء الرابع ، من تاريخه ، عند الكلام على سكان مكة ، بعد انتشار الإسلام ، ما نصه : ذكر العلامة الشيخ جعفر بن أبي بكر بن جعفر لبني ،

رحمه الله تعالى ، في شرح الرسالة الجدية لابن زيدون ، بعد ذكر أمر قريش وخراءة وما وقع بينهم ما نصّه :

وقد علم من جموع ما تقدم ، أن سكان مكة في ذلك العهد كانوا قريشاً ومن جاورهم من خراءة ، لكن خراءة لما ذهبت عنهم رئاسة مكة جاوروا أطرافها شام وعمن ، ولهم بقايا إلى اليوم معروفوون بين القبائل .

ثم لما جاء الإسلام ، وانتشر الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبناءهم في الجهاد ، فيسائر الجهات ، ورأوا الأرضي المخصبة ، والأوفى الباردة ، والظلال المنفية ، وصارت للقوم فيها أملاك ، رغب أكثرهم في الاستيطان ثمة ، وتبعهم الجم الغفير يذهبون أرسلاً إلى مصر والمغرب والشام والعراق ، ليعيشوا مع أبناء جلدتهم في الخصب والسعنة والرفاهية والدعة والظلال ، فما مضى ، بعد ظهور الإسلام نحو قرنين ، إلا ولم يبق في مكة والمدينة من أهليهما إلا أقل القليل ، مع من جاورهم من مسلمي الآفاق للتشرف بالجوار .

وكان من عادة ملوك مكة أن ينادي مناديهما ، بعد أداء مناسك الحج : « يا غريب بلادك ». هي عادة اتخذت من زمن الفاروق ، رضي الله عنه ، فإنه كان يأمر أن ينادي يومئذ : « يا أهل الشام شامكم يا أهل اليمن يمنكم » وذلك لشلة يكثر المحاورون ، فيستأثرون ، بما لهم من الثروة ، بأرزاق أهل مكة فيضيقون ، وقد تركت هذه العادة من مدة طويلة ، ولم يبق من آثارها ، إلا أن عوام باعة الأرزاق ، بعد أداء الحج ، يلهجون بقولهم : « يا غريب بلادك » ، ويزيد بعضهم : « شور الأمانة لا تبات الليلة » وقد كثر المحاورون ، وزاحموا أهل مكة في جميع الوظائف وأسباب المعاش ، أما الصرور والمرتبات ، من حنطة الجرارية وغيرها ، والخلاوي أي الحجر في الأربطة والمدارس ، التي اتخذت في الأصل لطلبة العلم أو القراء الأهالي ، بما هو مخصص لها من مرتبات ، فقد كاد أن يستفرغه محاوروا الأتراك لمناسباتهم ، مع مأموري الحكومة ، وصار أهل مكة المتأثرون بها فقراء ، ولا يكاد الواحد منهم أن يحصل على ما يقوم به أوده .

ثم ليعلم ، أنه ليس مرادي بأهل مكة هنا الأصلين ، الذين هم من ذرية قريش البطاح أو المهاجرين أو الأنصار ، الذين تناسلوا وتعاقبوا بمكة والمدينة من يومها إلى اليوم ، فإنه ليس بمكة ولا بالمدينة من يقطع أو يظن أنه من ذرية أولئك ، بالمعنى المنوه به سوى الشبيبين ، فإنبقاء مفتاح الكعبة بأيدي هذه العائلة ، خلفاً عن

سلف ، شاهد على ذلك ، حتى من انتهى إلى البيت النبوى من الأشراف والساسة القاطنين بمكة أو المدينة ، فإن أصولهم قد هاجروا إلى الآفاق وبقوا هنالك القرون ، ثم قدم من ذريتهم ، من قدم رغبة في الجوار أو لغاية أخرى ، ولا شبهة في علو أقدارهم ، وارتفاع مراتبهم عن سواهم ، ومن سوى الأشراف والساسة لم يق لهم مجد ولا فخر من حيث النسب ، لكن بقدم المحتد فمن تولد بمكة يفتخر على الجوار ، ومن له أبوان يفتخر على من له أب وهكذا ، والقدماء منهم يسمون من سواهم آفاقياً ، وهي كلمة كادت أن تكون سبة ، وأعظم منها في هذا المعنى ، قوله : أتوى ، بفتح الممزة والتاء ، ولعل أصله أتواي ، قال الكسائي : الأتاوى ، بالفتح ، الرجل الغريب الذي ليس في وطنه . انتهى من الغازي .

نقول : إن الشيخ عبد الله الغازي المتوفى سنة (١٣٦٥) ألف وثلاثمائة وخمس وستين هجرية ، يقول : إن الأجانب قد زاحموا أهل البلاد في جميع الوظائف وغيرها ، فكيف لو رأى ، رحمة الله تعالى ، مزاحمة الأجانب لأهل البلاد في وقتنا الحاضر في الوظائف الحكومية والأهلية وفي جميع مراقب الحياة . فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ورحم الله تعالى أحد شعراء مكة المشرفة ، الذي كان في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة ، فإنه لما رأى بعض الولاة بمكة يساعد بعض الأغراب ، ومن لا قيمة لهم على أهل مكة ، ويستند إليهم بعض الوظائف والأعمال ، قال ما يأتي :

وظائف الناس قد صارت مفرقة ما بين عبد ومتوق وآفاق
وأهل مكة قد غارت نبومهم مما ترى كوكباً يندو بأفاق

المَكْمَةُ فِي جَعْلِ سُكَّانِ مَكَّةَ خَلِيطًا مِنْ جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ

لقد كان سكان مكة ، في زمن الجاهلية ، وفي صدر الإسلام ، من العرب الخالص ، وفي مقدمتهم قبيلة قريش ، فلما انتشر الإسلام ، في جميع أقطار الأرض وجهاتها ، كثر الوافدون إلى بيت الله الحرام ، من كل فج عميق ، لأداء فريضة الحج ، الذي هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، ولزيارة مسجد الرسول ﷺ ثم السلام على رسوله أفضل الصلاة والسلام عليه . ولما كانت مكة بلد الله الأمين وبلد رسوله النبي المكين ، ومن دخل حرمها كان آمناً ، فقد أحب أكثر الناس ، من أجناس المسلمين الوصول إليها ، والإقامة بها ، ورغبوا في ذلك رغبة أكيدة ، حتى أن بعضهم يأتي إليها وحده ، تاركاً أهله وأولاده في وطنه يلحقون

به فيما بعد إذا أرادوا . وبذلك كثُر فيها المهاجرون والمقيمون من مختلف أجناس العالم من المسلمين ، وبذلك كثُر سكان مكة المشرفة ، واحتلّت أهلها الأصلّيون العرب بالأعاجم الوفادين ، فتروجوا منهم وزوجوهم ، وكل من الفريقين تعلم لسان الآخر ، وبكثرة الخلطة والمعاشرة اندمج العرب والأعاجم في بعضهم .

فمما تقدم يعلم أنه لما كانت مكة المشرفة بلد الله الأمين وبلد رسوله النبي الكريم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، لا غرابة أن يكون أهلها من جميع أجناس عباد الله المسلمين ، فهي موطن كل مسلم وفيها تطمئن قلوبهم ، وإلى بيت الله الحرام يولون وجوههم .

اللهم زد بذلك الأمين أمناً وأماناً ، ونعمـة ورخاء وزد بيتك الحرام شرفاً وتعظيـماً ومهابة وتكرـماً ، واغفر للـهم لنا ولجميع المؤمنـين والمؤمنـات والمسلمـين والمسلمـات الأحياء منهم والأموات ، وصلـلـهم علىـ سيدـنا وـنبـينا «ـمـحمدـ» وـعلـىـ اللهـ وـصـحـبـهـ وـسـلـمـ تـسـلـيـماًـ كـثـيرـاًـ ،ـ وـالـحـمـدـ للـلهـ رـبـ العـالـمـينـ .

بناء من أكبر الشـرـطةـ بمـكـةـ

جاء في آخر الجزء الثالث ، من تاريخ الغازي ، عند الكلام على ترجمة المشير الحاج محمد حسيب باشا ، الذي تولى مكة من قبل الدولة العثمانية سنة (١٢٦٤) بعد ذكر ما عمله المذكور من الأعمال العمرانية وغيرها ما يأتي :

كان المذكور يعـُسـ بنـفـسـهـ ليـلاًـ ،ـ وـيـدورـ مـكـةـ بـزـيـ أحدـ العـساـكـرـ ،ـ وـيـختـفـيـ بالـقـهـاوـيـ ،ـ وـيـفـقـدـ الـمـتـحـاجـينـ منـ ذـوـيـ الـبـيـوتـ ،ـ وـأـزـالـ جـمـلةـ منـ الـمـنـكـراتـ .

وهو الذي رتب كركولات «أي مراكز الشرطة» يبطن مكة من العساكر النظامية ، فجعل في المسعي كركولاً ، وبالندعا كركولاً ، وبسوق المعلا كركولاً ، وبالشبيكة عند الحجوب كركولاً ، وبالهجلة كركولاً ، وعند بيت الباشا كركولاً . انتهى من الغازي .

بناء القلاع والأبراج وبعض القصور المهمة سابقاً بمـكـةـ

نذكر هنا القلاع والأبراج والدور المهمة سابقاً بمـكـةـ وأطرافـهاـ ،ـ مما جاءـ ذـكـرـهاـ فيـ بـعـضـ كـتـبـ التـارـيخـ الـحـدـيـثـةـ ،ـ لأنـ فيـ ذـلـكـ عـرـبةـ كـبـيرـةـ لـلـتـأـمـلـ الـلـيـبـ ،ـ

وقد أمسكنا عن ذكر القصور والدور والسرایات ، التي وقعت عمارتها في العهد السعودی ، أي من بعد عام (١٣٥٨) ألف وثلاثمائة وثمانية وخمسين من الهجرة ، إلى وقت تأليف هذا التاريخ ، لأن في هذا العهد نهضت البلاد نهضةً كبيرةً ، في جميع مرافق الحياة ، وشقت نفسها طریقاً واسعاً خطت فيه بخطوات واسعة ، وبذلك اتسعت مكة ، شرقها الله تعالى ، وامتلأت حاراتها وطرقاتها وشوارعها بالعمارات الشاهقة ، والقصور العظيمة ، والدور الجميلة الفخمة ، فلو أردنا أن نسجل كل ذلك لا نحتاجنا إلى مجلد خاص ، فلنقتصر على القصور القديمة ، لقلتها ولكونها صارت في حكم الآثار ، التي ينبغي أن تذكر ولا تهمل . فنقول وبالله نستعين ، فهو حسيناً ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم :

قلعة جبل أجياد

قلعة أجياد كانت أهم قلاع مكة ، وكانت تضرب بها المدافع في رمضان وفي غير رمضان إلى سنة (١٣٦٠) تقريباً . قال الغازى رحمة الله تعالى : وفي خلاصة الكلام : في سنة ألف ومائة وست وستين ، شرع مولانا الشريف سرور بن مساعد في عمارة القلعة ، التي في جياد ، بعد أن اشتري ما حولها من البيوت ، وأنفق في عمارتها مالاً كثيراً ، ثم نقض بعد ستين كبيراً من بنائها وأعاده على أحسن إتقان . اهـ . قال الأستاذ السباعي : وكانت هذه القلعة تتطل على داره ، في سفح الجبل ، حيث تقوم اليوم إدارة البريد ، بجوارها الخرائب الواسعة ، التي كانت تمثل دوره الملحق بالقصر . انتهى كلامه . نقول : إن إدارة البريد ، التي ذكرها الأستاذ السباعي ، قد انتقلت من محلها المذكور إلى سوق المعلا وذلك سنة (١٣٧٧) هجرية ، ومعنى القلعة: الحصن ، أي: البناء الخاص للمحاربة .

انظر: صورة رقم ٢٠٩ ، قلعة أجياد بمكة

قلعة جبل هندي

قال الغازى : وفي خلاصة الكلام ، وفي السابع والعشرين من رجب سنة (١٢٢١) ألف ومائتين وواحد وعشرين ، أمر الشريف غالب أن يبني له حصن ، على رأس الجبل المسمى بجبل الهندى ، وتم بناؤه فيعاشر رمضان فحصنه بالرجال والذخائر . اهـ .

وفي السالنامة الحجازية ، أنه حصل في هذه القلعة خراب ، فعمرها ووسعها شيخ الحرث المكي ، ووالى ولاية الحجاز عثمان نوري باشا ، وزينها وأحکم عمارتها وأنقناها وذلك سنة ألف وثلاثمائة . اهـ .

وجبل الهندي جزء من جبل قعيغان ، وقد كان بهذه القلعة جنود الأتراك إلى سنة (١٣٣٤) هـ ، ثم صارت مدرسة بعد ذلك إلى سنة (١٣٧٤) هـ تقريباً ، ثم بقيت حالية إلى يومنا هذا .

انظر: صورة رقم ٢١٠ ، قلعة جبل هندي

قلعة جبل لعلع بالفلق

وفي سنة ألف ومائتين وخمس عشرة ، بني الشريف غالب بن مساعد الأبراج ، التي بأطراف مكة ، والقلعة ، التي على جبل لعلع المطل على العبادي ، كذا في السالنامة ، وتسمى هذه القلعة بقلعة فلفل أي قلعة جبل فلفل ، وهو لعلع . ولما أعلن الشريف حسين بن علي ، ملك الحجاز ، رحمة الله تعالى ، الحرب على الأتراك ، في اليوم التاسع من شهر شعبان عام (١٣٣٤) من الهجرة ، كان بهذه القلعة قليل من جنود الأتراك ، لا يتجاوزون الخمسين ، فتزاموا بالبنادق مع جنود الشريف أقل من ثلاثة أيام ، ثم استسلموا لعدم استعدادهم للحرب . أما قلعة أجياد فقد استسلمت بعد شهر واحد ، وأما قشلة جرول فاستسلمت قبل قلعة أجياد ، وأما قلعة جبل هندي وبعد بضعة أيام استسلمت أيضاً ، ثم هدمت هذه القلعة في سنة (١٣٦٣) ثلاث وستين وثلاثمائة ألف ، وأقيمت مكانها في السنة المذكورة عمارة جديدة خاصة بإدارة الأعمال اللاسلكية التي تتصل بعموم المراكر اللاسلكية ، وبها اليوم أيضاً مدرسة لاسلكية .

انظر: صورة رقم ٢١١ ، قلعة جبل لعلع

قشلة جرول

قال الغازي : وفي سنة (١٣١٨) ، بني قشلة جرول بخارج مكة ، وجرى الاحتفال بفتحها في ١٥ ذي الحجة من السنة المذكورة .

قال العلامة إبراهيم رفت باشا في كتابه «مرآة الحرمين» ما ملخصه : وفي يوم الخميس ١٥ ذي الحجة احتفل بفتح المضيفة (المسافرخانة) ، التي شيدها ، لفقراء الحجاج ، جلاله السلطان عبد الحميد من ماله الخاص . وقد أقيم بناؤها في فضاء واسع جنوبى مكة الغربي ، وهي بناء فخم ، حكم البناء ، جميل النظام ، يحتوى على طبقتين مسقوفتين بالحديد ، الذي يتخلله عقود بالأجر الأحمر الإفرنجي والبياض ، متقن جداً في نعومته ، والأرض مرصوفة بالبلاط والمضيفة فضاء واسع . . . إنّ وقد بلغت مصاريف عمارة هذه القشلاق تسعين ألفاً من الجنيهات الذهبية العثمانية ، وكان للجنيه الواحد الذهب قيمة كبرى في ذلك الوقت . اه .

والذى تعلمته عن قشلة جرول أنها لم تستعمل مضيفة قط ، والسبب ، والله تعالى أعلم ، قيام الحرب العظمى ، بعد بنائها بسنوات ، وانشغال الحكومة التركية العثمانية بها ، وكانت القشلة آهلاً بجنود الأتراك ، ثم بالجنود الماشمية ، زمن الشريف الحسين ، رحمة الله تعالى ، ثم بالجنود السعودية التابعين لوزارة الدفاع ، ولا يزالون فيها إلى وقتنا الحاضر . ومعنى القشلة: المكان الخاص بسكن الجنود ولا تصلح للمحاربة .

انظر: صورة رقم ٢١٢ ، قشلة جرول

انظر: صورة رقم ٢١٣ ، القشلة بجرول والتي بنيت في عهد الأتراك سنة ١٣٠٠ هـ

قشلة أجياد

قال الغازي : بني الوزير عثمان نوري باشا ، وإلى الحجاز ، في حدود سنة ألف وثلاثمائة ، بينما للطوبىجية ، في رحبة أجياد ، والطوبىجية نسبة إلى المدفع ، أي بني ذلك البيت بجنود المدفع ، وكان يسمى قشلة جياد ، وكان عامراً بجنود الأتراك ، في عهد العثمانيين ، ولا زال كذلك في عهد الشريف حسين بن علي ملك الحجاز رحمة الله تعالى ، وأما في العهد السعودي الآن فقد صار ذلك البيت مقرًا لوزارة المالية بمكة المشرفة .

والحق أن عثمان نوري باشا عمل أعمالاً جليلة بمكة ، فبني دار الحميدية ، ودار المطبعة ، وقشلة أجياد ، وعمر ما خرب من قلعة جبل هندي ، وأجرى التلغراف من جدة إلى مكة وإلى الطائف ، وعمل داراً للتلغراف بباب الوداع ، بلصق المسجد الحرام ، وعمل مستشفى بمنى وبازاناً عند مسجد الخيف ، وهو

الذي جلب الماء الجدأة من الرغامة في مواسير . وقد تولى عثمان باشا ولاية الحجاز في عشرين من شعبان عام (١٢٩٩) ، وكان قبل ذلك بالطائف قومنadar العساكر .

انظر: صورة رقم ٢١٤ ، وزارة المالية اليوم

قلعة المعابدة

هذه القلعة الصغيرة هي على رأس الجبل ، الذي على يسار الذاهب إلى منى بالمعابدة ، وهي أمام قصر الملك عبدالعزيز آل سعود ، رحمه الله تعالى ، بنيت في زمنه في سنة (١٣٤٥) هجرية تقريباً ، وليس المقصود ، في بناء هذه القلعة الصغيرة ، الاستعداد للحرب ، بعد هذا الأمان الشامل ، وإنما بنيت على رأس الجبل المقابل للقصر الملكي كرمز عسكري ، كما توضع جنود الحرس على أبواب القصر تكملة للمظاهر الحكومية .

انظر: صورة رقم ٢١٥ ، القلعة السعودية

بناء الحصون على جبل أبي قيس

لما كان جبل أبي قيس مشرفاً على المسجد الحرام ، وهو بوسط مكة ، شرقها الله تعالى ، كان بعض أمرائها يتخلون حصونهم عليه ، فمن تلك الحصون حصن مكث بن عيسى ، فقد بناه سنة (٥٧١) إحدى وسبعين وخمسين . وفي هذه السنة نفسها ، صدر الأمر من بغداد ، إلى أمير الحج طاشتكين ، أخي صلاح الدين الأيوبي ، بإجلاء مكث عن مكة وهدم حصنه ، ثم بعد الحج من هذه السنة تحاربا ، ولجا مكث إلى هذا الحصن ، الذي بناه بأبي قيس ، ف Hutchinson فيه ثلاثة أيام ، ثم سلم نفسه في اليوم الرابع لأمير الحج المذكور ، وهذا قام بهدم الحصن .

ومن تلك الحصون أيضاً : بيت النار بجبل أبي قيس ، وهو دار واسعة بناها الشريف عبد الله بن سعيد ليتحصن بها عند الطوارئ وذلك في سنة (١١٣٦) ست وثلاثين ومائة وألف ، ووضع فيها المخارق وسماها بيت النار ولم يسكنه أحد في زمنه وإنما كان مقولاً معداً للحصار . ولا تزال هذه الدار قائمة إلى اليوم ، وقد كان بها طائفة من العجزة إلى سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية ، تحت

إشراف مديرية الأمن العام ، ثم نقلت العجزة إلى جهة أخرى ، والآن هذه الدار
خالية ونظن أنها معروضة للبيع .

القلاع التي كانت بين مكة وجدة

لا يخفى أن طريق الحج كان ، في سابق الزمان ، محفوفاً غير آمن ، وكانت
مكة كذلك ، فتقوم ثورة حربية فيها بين قبائل الأشراف ، وأن البدو كانوا
يقطعون الطرق على الحجاج ، مهما كثروا ، لذلك كله بنيت القلائع والمحصون في
الحرمين الشريفين والطرق ، التي توصل إليهما ، ولا نزيد عدد القلائع وحصرها في
كل ذلك ، وإنما نذكر القلاع ، التي كانت موجودة بين مكة وجدة ، والتي بنتها
الحكومة العثمانية ، على رؤوس التلال والجبال ، في مفترق الطرق ، لحماية
الحجاج . وهذه القلاع صغيرة بحيث يكون في كل واحد منها نحو ثلاثة جندياً .
فعدد القلائع أو المحصون أربع عشرة قلعة . قال البتوني في كتابه «الرحلة
الحجازية» : وعلى طول الطريق «أي بين جدة ومكة» أربع عشرة قلعة ، يوجد
فيها الجندي العثماني على الدوام ، بعضها قديم من عمل الشريف غالب أو محمد
علي باشا وإلي مصر ، وبعض من بناء الدولة العلية ، من عهد ليس بعيد ،
خصوصاً بعدما كثر بجيء الحاج بحراً . انتهى .

نقول : إن ما ذكره البتوني هنا من عدد القلائع ، بين مكة وجدة ، قد خربت
الآن ، لعدم الحاجة إليها ، حيث شمل الأمان جميع البقاع ، والله الحمد ، فلم يبق
منها إلا رسوم وأطلال لقلعة أو قلعتين فقط ، وإليك صورة القلعة الباقية إلى اليوم
في طريق جدة وقد هدمت من الجهة الخلفية .

انظر : صورة رقم ٢١٦ ، قلعة صغيرة في عهد الأتراك في طريق المعابدة

انظر : صورة رقم ٢١٧ ، لقلعة صغيرة فوق جبل عبادي التي تضرب منها المدافع

وتوجد اليوم بمكة ، بجهة محله المعابدة ، رسوم قلعتين من القلائع القديمة أيضاً ،
وهما ظاهرتان على يسار الذاهب إلى منى ، إحداهما مطلة على المعابدة ،
والآخر مطلة على شعب ذاخر ، وقد هدمتا وخربتا فلم يبق منها إلا أطلالهما ،
وإليك صورة إحداهما .

انظر : صورة رقم ٢١٨ ، قلعة صغيرة في عهد الأتراك في شعب ذاخر

بناء المطبعة الأميرية

أول مطبعة أسست في الحجاز ، هي المطبعة الأميرية ، التي سميت بـ مطبعة أم القرى ، وتسمى الآن مطبعة الحكومة . بناها الوزير عثمان نوري باشا ، الذي بنى الحميدية . وموقع المطبعة خلف الحميدية ، بنيت هي والحميدية في سنة ألف وثلاثمائة . وبعد عام من بناها طبع بها تقويم الحجاز السنوي باللغة العربية والتركية ، وقد جلب لها عثمان باشا المذكور ماكينة كبيرة وبعض الأدوات ، وتسمى الآن «المطبعة الحكومية» .

بناء الحميدية

في سنة ألف وثلاثمائة ، بني عثمان نوري باشا ، والي ولاية الحجاز ، وشيخ الحرم المكي ، «الحميدية» نسبة للسلطان عبد الحميد الثاني ، وموقعها قرب باب الوداع ، عند المسجد الحرام ، في أول أجياد . وكان بناها فحاماً عظيم الشأن قوي البناء ، وبعد بناء الحميدية وجدوا أن الدار ، التي أمامها ، من جهة المسجد ، التي بنيت في موضع دار أم هانئ ، شقيقة علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، تحول بين الحميدية وبين المسجد الحرام ، وتنبع رؤية الكعبة المشرفة ، فاشترتها الوزير عثمان نوري باشا المذكور وهدمها . وقد بنيت الحميدية لتكون مقراً لوالى الحجاز ، الذي يعين من قبل الدولة التركية ، وكان بها جنود الشرطة ، وأما مقر أمراء مكة من الأشراف ففي دار الإمارة ، التي بالغزة ، بعد سوق الليل ، وهي التي بناها محمد علي باشا والي مصر سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين في شهر رجب ، وكانت الحميدية ، إلى أن هدمت ، تحتوي على عدة دوائر حكومية : كإدارة الأمن العام ، و مجلس الشورى ، وإدارة الأوقاف وإدارة المعارف ، وإدارة إحصاء النفوس ، وكاتب عدل مكة ، والمحكمة المستعجلة الأولى ، وكان هدم الحميدية في السنة المذكورة ، لإدخالها في توسيع المسجد الحرام ، وكان مكتوباً على بابيها الشرقي والغربي ، بعض أبيات شعرية .

بيت الحكم بالغزة

بني محمد علي باشا حاكم مصر في سنة (١٢٢٨) ألف ومائتين وثمان وعشرين من الهجرة ، «دار الإمارة» بمحلة الغزة ، بعد سوق الليل على يمين الآتي من المسجد الحرام ، وتسمى هذه الدار «بيت الحكم» بناها لتكون داراً لحكومة الحجاز ، ومقر الحكم لأمير مكة ، ولم تزل هذه الدار يشغلها حكام مكة إلى سنة (١٣٦٩) ألف وثلاثمائة وتسع وستين هجرية ، ثم هدمت بعد ذلك توسيعة للشوارع فلم يبق لها أثر الآن .

بناء دار باناجه بالمسعى

بني أحمد يكن باشا ، بفتح الياء والكاف ، الذي كان والياً على الحجاز ، من طرف محمد علي باشا ، حاكم مصر ، داراً بالمسعى أمام باب علي ، وكانت داراً مهمة تطل على المسجد الحرام ، ليس بينهما سوى بضعة أمتار .

ثم إن باناجه باشا ، بسكن الهاء ، اشتري هذه الدار ، من ورثة أحمد يكن باشا ، في سنة (١٣٠١) إحدى وثلاثمائة وألف هجرية ، فسميت هذه الدار «دار باناجه» ، ولما كان الطريق والممر ، بين هذه الدار والدور ، التي خلفها ضيقة ، فقد اشتراط الحكومة السعودية من آل باناجه هذه الدار في سنة (١٣٦٨) ألف وثلاثمائة وثمان وستين هجرية ، فهدمتها توسيعة للشارع العام .

بيت الجيلاني الشامي

بيت الجيلاني دار فخمة عظيمة البناء ، واقعة بمحلة الشامية ، بجوار بازان الماء ، وبجوار جريدة البلاد السعودية . ولم تقف على علة تسمى به بيت الجيلاني ، والظاهر أن الذي بناها كان يلقب بالجيلاني ، وكان غنياً واسع الثروة ، لبناء هذه الدار العظيمة الكبيرة ، وقد جعلها وقفًا على أمراء مكة ، والجيلاني هذا غير الجيلاني الشهير ، صاحب الطريقة القادرية ، فهذا من أهل القرن الخامس أو السادس .

وقد ذكر الأستاذ السباعي في تاریخه أن الشريف عون الرفیق ولد بهذه الدار، أي دار الجیلانی ، في أواخر ذی الحجۃ سنة (١٢٥٦) ست وخمسين ومائین وألف هـ ، وهي الیوم مستودع للكتب المطبوعة ، الخاصة باسم الحكومة ، والآن يسكنها آل السحیمی الذين يلهم هذہ الكتب ، فعليه يكون بناؤها قبل السنة المذکورة ، وبجوار هذه الدار دار آخری تشغله جریدة البلاد السعودية الیوم ، وهي مسامة و مشابهة للتي بجوارها .

والظاهر والله تعالى أعلم ، أن الدارین بنیتا في سنة واحدة وبانیهما واحد ، ويصح أن يطلق علیهما قصر الجیلانی لسعتما وکثرة مراقصهما ، وأن بعض سقوفها منقوشة بالألوان والزخارف ، ومكتوب في أعلى بعض الجدران ، مما يلي السقف ، من الجهات الأربع ، شيء من الأشعار ، حسب ما كان متبعاً عند الأقدمین .

بيت الشريف ناصر باشا بالقرارة

بيوت أشراف مكة بمحله القرارة بمکة من أفحى البيوت وأعظمها ، وكان يسكنها الشريف ناصر ولی عهد إمارة مکة ، والذی بنی هذه البيوت أو بعبارة أخرى هذه السرایات هو الشريف عبد المطلب بن غالب ، الذی توفی بمکة في ربيع الثاني سنة (١٣٠٣) ثلاث وثلاثمائة وألف ، وقد بلغ من العمر نحو مائة سنة ، وقد شیع جنازته الشريف عون الرفیق والوالی عثمان نوري باشا ، ولم نعلم متى بناها الشريف عبد المطلب وكانت من الفخامة وعظمة البناء بحيث لا يوجد لها مثيل بمکة . ولقد هدمت بیوت الأشراف بالقرارة فلم يبق لها أثر في الوجود وذلك سنة (١٣٨٢) .

الدار التي كانت بعرفات

في سنة (١٢٠٠) مائتين وألف من الهجرة ، بنی أمیر مکة الشريف سرور بن مساعد له بیتا في عرفات ، على يسار المصلى بمسجد الصخرات ، بأسفل جبل الرحمة ، فقد أرسل ستین نفرًا من المعلمین ، غير أتباعهم لبناء البيت المذکور . ولم يسبق لغيره أن بنی بیتا له بعرفة ، والشريف سرور كان شاباً يمیل إلى البذخ والعظمة ويحب العمran ، وكان شهاماً مقداماً ، ضرب على أيدي اللصوص

وقطاع الطرق ، وفرض عليهم العقوبات الشديدة . حكم مكة نحو خمس وعشرين سنة ، وتوفي بعد بنائه لبيت عرفة بستين عن خمس وثلاثين سنة تقريباً . وقد اندثر هذا البيت فلم يبق منه سوى جزء من جدار آيل للسقوط .

وبهذه المناسبة ، نأتي بما ذكره ابن جبير ، في رحلته ، التي كانت سنة (٥٧٨) عن الدار ، التي كانت يجبل عرفات ، في زمانه . قال رحمة الله تعالى : «وفي أسفل جبل الرحمة ، عن يسار المستقبل للقبلة ، دار عتيقة البيان ، في أعلىها غرف لها طيقات ، تنسب إلى آدم ، عليه الصلاة والسلام ، وعن يسار هذه الدار في استقبال القبلة الصخرة التي كان عندها موقف النبي ﷺ ، وهي في جبل متطمأن ، وحول جبل الرحمة . وفي الدار المذكورة صهاريج للماء وجباب ، وعن يسار الدار أيضاً على مقربة منها مسجد صغير» . انتهى منه .

وقد ذكر أيضاً ، ابن بطوطة ، في رحلته ، التي كانت سنة (٧٢٥) ، هذه الدار العتيقة ، التي تنسب لآدم ، عليه السلام ، نقول : إن ما ذكره ابن جبير وابن بطوطة ، رحمهما الله تعالى ، من نسبة الدار العتيقة إلى آدم ، عليه الصلاة والسلام ، أي أنه تعارف مع حواء بعد هبوطهما من الجنة في هذا المكان ، ليس له أصل مطلقاً ، فمن الذي رأهما أو رأى أحدهما في مكان هذه الدار حتى ثبتهما إليه ، ولم يكن في عرفات ، في تلك العصور الغابرة غيرهما ، ثم أليس جاء بعدهما طوفان نوح ، عليه السلام ، الذي عمّ الدنيا كلها حتى عرفات ، فمن الذي اهتدى إلى هذا المخل ، وقال إنه ملتقي أبينا آدم ، عليه السلام ، مع أمنا حواء ، رحمها الله تعالى ورضي عنها ، ثم من وقت الطوفان إلى ما قبل الإسلام ، وإلى ما بعده ، هل ذكر أحد من قريش أو أحد من الصحابة ، رضي الله عنهم ، أن ذلك المخل هو موضع تعارفهما وإقامتهما . كلام شم كلام . إذن فهذا القول باطل لا أصل له ، وخيال لا حقيقة له ، وهو من طوفان الخرافات ، التي امتلأت الدنيا بها ، ويشبه هذه الخرافة نسبة أولية ضرب الدينار والدرهم لآدم ، عليه السلام ، فقد جاء في كتاب «التراتيب الإدارية» ما يأتي : أخرج ابن أبي شيبة ، في مصنفه ، عن كعب ، أن أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام ، وذكر في آخرها أثراً يرمي إلى قطع المسكونيات النقدية ، وهو قوله : أخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن المسيب ، قال : قرض الدرهم والدينار من الفساد في الأرض . انتهى .

فانظر رحمك الله إلى هذا القول الواهبي عقلاً، فآدم عليه السلام لمن يضرب الدينار والدرهم، وليس على وجه الأرض في زمانه سوى نفر من بنيه، فإذا كان قايل حينما قتل أخيه هابيل لم يعرف كيف يدفنه، حتى بعث الله غراباً، يبحث في الأرض، ليりه كيف يواري سوأ أخيه، فكيف يضربون الدينار والدرهم. والله تعالى أعلم.

ولقد كانت عرفات، فيما مضى من الزمان، مكاناً عامراً، فيه المزارع والمباطخ والخضرة، وكان فيه دور حسنة لأهل مكة، وقد ذكرروا أن الصحابي الجليل عبد الله بن عامر بن كريز الع بشمي، الذي فتح فارس، وخراسان وسجستان وكابل، كان قد اتخذ بعرفات حياضاً ونخلاً، كما اتخذ كذلك في بعض البلدان، لا ضرورة لذكرها هنا.

عرفات اليوم قاحلة يابسة، ليس بها زرع سوى بستان صغير يسمى «بستان عرفة أو بستان عين زبيدة»، وهو قبل مسجد غرة بقليل للذاهب إلى عرفات، كما أنه ليس بها شيء من البيوت والمنازل إلا منزلين مبنيان بالرضم، خلف مسجد الصخرات، والجدار القديم الباقي من منزل الشريف سرور المذكور في أول الفصل، وبنائيتين مبنيتين بالإسمنت برسم مستشفى الحاج يوم الوقوف بعرفة، وبعض الأماكن المبنية بالإسمنت أيضاً لمياه عين زبيدة. وكل ذلك قريب من جبل الرحمة.

بناء درج الحجون ودرج أبي هب والحك بطريق العمرة ومدرج

مني

قال الغازى ص(٦٤٧) : وفي شهر رجب سنة (١١٣٢) ألف ومائة واثنين وثلاثين ، عمر الشيخ سالم بن عبد الله البصري ، نيابة عن الأمير إسماعيل بيك بن إيواز بيك ، الحك بطريق العمرة ، فكسر أحجاره وجعله حجراً مفروشاً ، وكان يؤذى الماشي والراكب ، ودكه بالنورة ، وكذلك درج الحجون ، وكذلك درج ربع أبي هب .

وقال بصحيفة (٦٤٣) : وفي السنة (١٠٨٥) ألف وخمسين وثمانين ، شرع الشيخ محمد بن سليمان في إصلاح مدرج مني وبني ظفيرتين من جانبي المدرج . انتهى .

نقول : إن كل هذه المدرجات قد أزيلت في عهد الحكومة السعودية وسوية الأرض تسوية تامة وفرشت بالإسفلت ، وذلك في سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثة وألف ، بل في هذه السنة أزيل الجبل كله ، الذي كان يظهر جمرة العقبة ، والذي كان عنده المدرج والظفيرتان ، وسوية الأرض وفرشت بالإسفلت ، فصارت كل هذه الطرق صالحة للمشاة والدواب والسيارات «الأوتومبيلات» فسبحان مغير الأحوال نسأله تعالى ، أن يغير حالنا إلى أحسن الأحوال بفضله ورحمته إنه بعباده لطيف خير .

بناء التكية المصرية «أو المبرة المصرية»

بني التكية المصرية ، التي يجوار الحميدية ، محمد علي باشا والتي مصر في سنة (١٢٣٨) ألف ومائتين وثمان وثلاثين هجرية ، بناها لمساعدة الفقراء ، فكان يصرف منها كل يوم للفقراء خبزاً وشيئاً مما يطبخ فيها ، ومرتبات شهرية لبعض أهل مكة ، ورصد عليها أوقافاً كثيرة وميراث كبيرة . قال الغازى ، في تاريخه : وأقيمت هذه التكية مكان دار السعادة ، التي كانت سابقاً محل حكومة بني زيد من الأشراف ، ودار السعادة بناها الشريف محمد بن برkat في سنة (١٦٦) ست وستين وثمانة هجرية . وللتكية المصرية ناظر ومعاون وكبة وخدم يقumen بما يلزم من المصالح ، وكان بها طبيب وصيدلية كاملة ، وهي مجتمع فضلاء المصريين وأعيانهم خصوصاً في أيام الحج .

ثم في شهر رجب سنة ألف وثلاثة وخمس وسبعين هجرية هدمت هذه التكية ، لإدخالها في توسيعة المسجد الحرام ، وقد أعطت الحكومة السعودية لوزارة الأوقاف المصرية مكاناً ممتازاً بمحلاً أحياً لإقامة هذه التكية عليه ، عوضاً عن محلها القديم ، فبنيت على حساب وزارة الأوقاف المصرية . وما يجدر ذكره أنه بعد قيام الشورة المصرية ، وإخراج أسرة محمد علي باشا من الحكم ، استبدلت وزارة الأوقاف اسم التكية المصرية باسم «المبرة المصرية» وذلك سنة (١٣٧٤) هجرية ، وأبطلت الصدقات اليومية من خبز وطعام وعوضت أصحابها بمرتبات شهرية .

جاء في كتاب «مرآة الحرمين»، عن التكية المصرية بمحكمة، ما يأتي :

هي من الآثار الجليلة ذات الخيرات العديدة، وأنها نعمت صلقة حاربة لمسديها ثواب جزيل وأجر عظيم، وقد أنشأها ساكن الجنان محمد علي باشا رأس الأسرة الخديوية في سنة (١٢٣٨) ثمان وثلاثين ومائتين وألف هجرية. كما هو مسطور بدار القبة التي يوسط التكية، تظل الصنابير (الحنفيات) التي يتوضأ منها الناس، والتكية بشارع أجياد أقيمت مكان دار السعادة، التي كانت محل حكمة بين زيد من الأشرف، ويرد إليها الفقراء، في الصباح والمساء، فيتناولون الفقير في كل مرة رغيفين وشيئاً من «الشريبة»، وربما أعطى أكثر من ذلك إن كان فقره مدعاً، وكثير من نساء مكة وجواريها الفقراء يتعيشن بما يأخذن، ويكتفين بذلك عن مسألة الناس، ويصرف يومياً من الخبز ما يقرب من (٤٠٠) إقة (حاصل ٣ أرادة من القمح) و (١٥٠) إقة من الرز، وفي يوم الخميس تزداد كمية الأرز إلى (٤٢٠) إقة، ويصرف في هذا اليوم فقط مائة إقة من اللحم، وفي كل أيام رمضان يكون المرتب كمرتب يوم الخميس ويزيد عليه (٥٠) إقة من الحمص ويصرف من السمن ما يكفي لطبع هذه المقادير، والفقراء يزداد عددهم حتى يبلغ (٤٠٠٠) شخص، وذلك من شهر رمضان حتى آخر ذي الحجة، بورود كثير من الحاج الفقراء من السودانيين (التكارنة) والمغاربة وغيرهم، ثم يتناقص العدد بعد ذلك إلى (٤٠٠) شخص تقريباً.

وللتكية ناظر ومعاون وكبة، يقومون جميعاً بخدمة الفقراء، وبها طاحونة يتناولون إدارتها أربعة بغال، تطحن القمح، وفيها مطبخ واسع به ثمانية أماكن يوضع عليها أوان ثمان من ذات الحجم الكبير (قرنان) وفيها خبز ذو بابين يخبز به العيش، ومخزن وحجر للمستخدمين. وفي مدة الملح يسكنها بعض عمال المحمل، كالطبيب والصيدلي وكاتب القسم العسكري، وبعض الضوئية والعكامة والسباقين، ويوضع بها أمتعة الأمير والأمين وبعض الموظفين، عند ذهابهم إلى عرفات.

وفي التكية بيوت أدب وصنابير (حنفيات) ماء ومكان جميل مفروش، في وسطه بركة ماء صناعية (فسقية). ويجلس به أمير الحج وأمين الصرة وكتابها، حينما يصرفون المرتبات، ومكتوب على باب التكية بالخط الثالث الجميل البستان الآتيان :

ل Abbas مولانا الخديوي فضائل عليها دليل كل يوم مجدد
رأيناه قد أحيا تكية جدة فقلنا أعباس بنى أو محمد
سنة (١٣١٩) و (١٢٣٨) هـ.

ولو سمعت الأدعية المتصاعدة من قلوب الفقراء لرب هذه النعمة لأكيرت هذا العمل ومسديه ، وانساقت نفسك إلى أمثاله إن كان لديك سعة في المال وبسطة .

أما التكايا الأخرى فلم أزرها لأنه لا يأوي إليها فقير ، وقد سطر بواجهة تكية السيدة فاطمة قوله تعالى : فَلَوْيَطَعُمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى جَبَهَ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا وإنها أنشئت في سنة (١٠٨٦) ست وثمانين وألف هجرية ، زمن السلطان الغازي محمد خان الرابع كما أسلفنا . انتهى من الكتاب المذكور .

نقول : إن عمارة التكية المصرية بقيت على بنائها الأول ، حتى إذا تولى عباس باشا حلمي الثاني ، حكم مصر ، قام بتجديدها في سنة (١٣١٩) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية .

فما زالت التكية على هذه العمارة ، حتى هدمت بتاتاً في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، وذلك لأجل توسيعة المسجد الحرام .

بيت الشريف عبد الله بن محمد بالحلقة

بني الشريف عبد الله بن محمد بن عون ، الذي تزوج ابنة ملك الحجاز الأسبق الشريف الحسين بن علي ، بيته الذي على الشارع العام ، ومؤخره على حلقة الخطب ، وكان ابتداء بنائه سنة (١٢٣٨) ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف ، وقد سكن فيه سنة أو سنتين ، وهي بناية قوية جداً مبنية بالنورة البلدية البيضاء والمحارة ، ليس فيه شيء من التوراة الإفرنجية المسماة « بالإسمنت » فإن الإسمنت أول ما عرف في الحجاز من عام (١٣٥٠) تقريراً .

أما المسجد الذي خلفه بالحلقة فإنه مبني قبله بسنوات كثيرة .

القصور الملكية السعودية

القصر الملكي بالمعابدة بمكة ، هو أول قصر بني بها جلاله الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، وأحسن إليه ، بني هذا القصر بعد توليه

على الحجاز ، ونظن أنه بني حوالي عام (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين من المحررة .

والقصر الملكي بحلة بني بعد القصر الذي بعده بأعوام ، وقد طبع الباب الرئيسي لقصر جدة على الأوراق النقدية «البنكnot» من فئة الريال الواحد ، وهذا القصر من أبدع القصور الملكية .

ونكتفي بذلك هذين القصرين لأن تاريخنا يبحث عن مكة ، شرفها الله تعالى فقط ، وذكرنا قصر جدة تبعاً لقصر مكة .

القص السعويدي يعني

هذا القصر بني في أوائل عهد جلالة الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، أي في نحو سنة (١٣٤٦) ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية .
بني هذا القصر يعني ليكون مقراً جلالته في أيام الحج ، وفيه يستقبل الزوار والضيوف مدة إقامة الحجاج يعني ، ولا يزال هذا القصر مقراً لملك المملكة العربية السعودية يعني إلى الآن . وهو ليس بالقصر الكبير كما يتادر إلى النهن ، وإنما هو بناء بطابقين ، عديدة الغرف وسعة الأرجاء ، ولا يفرش إلا في وقت الحج لنحو ثلاثة أيام ، لكنه أوسع وأكبر بكثير من قصر مزدلفة الآتي بيانه .

القص السعويدي يعني مزدلفة

هذا القصر بني أيضاً في أوائل عهد جلالة الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، أي في نحو سنة (١٣٤٦) ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية ، بني هذا القصر بمزدلفة لينزل فيه جلالته ليلة المبيت بمزدلفة في الحج ، ثم بعد وفاة جلالته صار ينزل فيه تلك الليلة ابنه جلالة الملك «سعود» ثم صار ينزله والدة جلالته في الليلة المذكورة .

ثم إن جلاله الملك «سعود» ، حفظه الله تعالى ، أمر ببناء قصر آخر عند الجبل خلف مسجد مزدلفة لهذا الغرض ، وهو أوسع من القصر الأول بكثير ، وكان بناؤه في سنة (١٣٧٦) ألف وثلاثمائة وست وسبعين من المحررة ، وليس بمزدلفة من البيوت غيرهما . ولا يعد هذا قصرًا يعني الكلمة ، وإنما هو عبارة عن

عدة غرف أمامها حوش فسيح ، ليس فيه فرش ولا رياش لأنه منزل مؤقت لليلة واحدة فقط .

المسحراتية بحكة المكرمة

ولقد كان إيقاظ الناس ، في وقت السحور ، في شهر رمضان ، أمر معروف من العصور الأولى في الإسلام ، وذلك بواسطة بعض الرجال المختصين في هذه الصنعة ، الذين نسميهم «المسحراتية» أو «المسحررين» وهؤلاء الطائفة كانوا يوظفون في هذه الصنعة بأوامر الخلفاء ويفرضون لهم أجراً على ذلك . والسبب أن الناس ، في صدر الإسلام ، إلى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة ، لم يكونوا يسهرون إلى نصف الليل أو أكثر ، كما في زماننا هذا ، بل كانوا ينامون بعد صلاة العشاء بنحو ساعة أو ساعتين على أكثر تقدير ، لأن السهر في اللهو والمجون مكروه ، فقد ورد في الحديث «إياك والسهر بعد هدأة الرجل فإنكم لا تدرؤن ما يأتي من الله تعالى في خلقه» رواه الحاكم في المستدرك ، والسهر ، بفتح السين والميم ، هو التحدث بعد هدأة الرجل ، وفي رواية بعد هدأة الليل . وورد «لا سر إلا لصلٍ أو مسافر» رواه الإمام أحمد . وورد أيضاً «نهى النبي ﷺ عن النوم قبل العشاء وعن الحديث بعدها» رواه الطبراني .

قال العزيزي في الجامع الصغير ، قال العلقمي : النهي عن الحديث بعد صلاة العشاء ، فيما لا مصلحة فيه في الدين ، خوف السهر وغلبة النوم بعده ، فيفوت قيام الليل أو الذكر فيه أو الصبح أو الكسل عن العمل بالنهار في مصالح الدنيا وحقوق الدين ، أما ما فيه مصلحة في الدين كعلم وحكایات الصالحين ومؤانسة الضيف والعرس والأمر بالمعروف فلا كراهة فيه . انتهى كلامه .

انظر: صورة رقم ٢١٩ ، فانوس بضاء بشمعتين

نقول : إن أهل القرون السابقة كانوا أهل خير وصلاح وقناعة ، لم يتشرّف الفساد فيهم ، كما انتشر في زماننا هذا ، ولم تكن لديهم دواعي اللهو والمجون ، ولم تتوفر عندهم أسباب الفسق والترف والانغماس في الشهوات . وكان لديهم من الدين والحياة ما يعنهم من النظاهر بكل ذلك . وكان لأرباب الدين والعلماء السيطرة التامة عليهم ، فكانوا يراعون حرمتهم ، ويسمعون كلامهم ، ويتبعون آداب الإسلام ، فإن وجد فيهم من شذّ عن عاداتهم ومؤلفتهم ، فيكون ذلك نادراً

ويكون في سر وخفاء . ومن أين لأولئك الأقوام أن يتختذوا السمر والسهر ، في اللهو والفساد ، ديدنهم طول حياتهم ، وهم يستضيئون بالشمع والزيت في منازلهم وبيوتهم وشوارعهم وطرقائهم ، والاستضاعة بهما لا يبعث في النفس النشاط وقوة الاستمرار في المرح .

لذلك كان دأبهم التوم المبكر بعد صلاة العشاء ، وإن كان هناك داع للسهر فلا يتجاوز ربع الليل ، ليتمكنوا من التهجد والقيام في الفجر ، والانتشار في الصباح الباكر إلى المعيشة ، وهم على أتم ما يكون من النشاط والصحة ، لذلك ورد في الحديث: «اللهم بارك لأمتى في بكورها» .

فمن كانت حياتهم ، بهذه الوتيرة والكيفية ، فهم في احتياج إلى من يوقظهم من النوم للسحور في شهر رمضان ، ولما لم تكن ، في تلك القرون ، المدافع المدوية ولا الصفارات الصارخة ولا المفرقعات المزعجة ، كان أبسط شيء هو قيام بعض الرجال ، من بعد مضي نصف الليل تقريباً ، ليدوروا في الشوارع والأزقة والمعطفات ، فيطربوا أبواب المنازل ، وينادوا أصحابها لاستعدوا للسحور ، فهو لاء الرجال هم الذين يطلق عليهم «المسحرون» أو «المسحراتية» ، ثم تطور أمرهم إلى اتخاذ الطبل والضرب عليها بدقة متناظم ، مع مناداة أصحاب البيوت من الرجال ، وهذا بدلاً عن الطريق على أبواب المنازل ، ثم تطور الحال إلى إنشاد بعض الأشعار المناسبة لشهر رمضان ، من البحور الخفيفة اللطيفة ، كبحر الرجز ، وتحصص بعضهم بإيقاظ الخلفاء والأمراء والأعيان وينشدون لهم في جنح الليل بعض القصائد المستملحة .

المسحر أو المسحراتية ، في زماننا هذا ، لم يبق لهم إلا آثر بسيط لا يذكر في غالب الممالك ، أما عندنا في الحجاز فإنه لم يبق لهم آثر مطلقاً من عام (١٣٤٣) ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف من المحررة ، أي منذ تولي الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، رحمة الله تعالى ، على الحجاز .

فإيقاظ الناس في المدن للسحور ، في شهر رمضان ، يكون بواسطة ضرب المدفع ، وكذلك إعلامهم للإفطار في المغرب أو تبيههم للإمساك قرب الفجر ، يكون بواسطة إطلاق المدفع أيضاً ، أما القرى البعيدة عن المدن فلا يسمع أهلها صوت المدفع ، فإن أهلها يستيقظون في الليل بأنفسهم للسحور ولقلة عددهم ، ينادون بعضهم البعض للقيام للسحور .

وفي المدن الكبيرة في الحجاز ، كمكة والمدينة وجدة والطائف ، تستغل الدوائر الحكومية في شهر رمضان في الليل ، بدلاً عن النهار ، من بعد صلاة التراويح إلى نصف الليل ، وكذلك الدكاكين والمتاجر .

لذلك لم يق لزوم ، في عصرنا الحاضر ، إلى صنف المسحراتية لإيقاظ الناس من النوم ، فبطلت صناعتهم وهجروا قصائدهم اللطيفة ، التي كانوا يترنمون بها في السحور .

ولنذكر هنا بعض القصائد المستملحة ، التي كان قدماء المسرحيين يوقظون بها الخلفاء ، (فمنهم) ابن نقطة ، وهو الذي كان يتولى إيقاظ الخليفة الناصر للسحور ، وكان يستعمل في التسحير طريقة خاصة من إنشاد بعض القصائد من فن «الرجل» ، وكان لابن نقطة ولد ماهر ، في هذه الصنعة ، فلما مات لم يجد ولده طريقة يصل بها إلى الخليفة ليقره في منصب أبيه ، رئيساً على طائفة المسرحيين ، فصبر حتى دخل شهر رمضان ، وجمع أتباع أبيه وذهب بهم إلى مكان قريب يسمعه منه الخليفة وجعل ينشد :

يا سيد السادات لك بالكرام عادات
أنا ولد ابن نقطة تعيش أبويا مات

فسمعه الخليفة وأعجب به فدعاه إليه وقربه وأقره في مكان أبيه ، وفرض له ضعف ما كان لأبيه في بيت الخليفة .

فمن قول بعض مشاهير طائفة المسحرين لإيقاظ بعض الخلفاء ما يأتي :

لَا زلت سعدك جديداً
ولا برجت مهناً
في الدهر أنت الفريد
والخلق شعر منقح
يا من جنابه شديد
ومن يلاقى الشدائد
لا زلت في تأييد
ولا برجت ممتنع
نحر لذلك نشيد

على خيول البريد
ما فوق جودك مزيد
قريناً والبعيد
تحظى بجدى سعيد
عمرك طويل وقدرك
ونبعث أوصاف مدحك

ظلسك علينا مديداً
وكم غمرت بفضلك
لا زلت في كل عيد
واقر وظلك مديداً

وهذا الضرب فنٌ من الزجل يسمى «القوما» قيل إن أول من اخترعه هو ابن نقطة المذكور ، وقيل إنه مخترع من قبله ، وإنما نسب إليه لأنه اشتهر به . والله أعلم .

ومن هذا الضرب قال صفي الدين الحلبي :

من كان يهوى البدور
ووصل يرض الخدور
وقد جلس في الصدور
من حب يرض الخدور
ورام لزم الصدور
يسمح وإلا فيهقى من بينهم مهدور ... الخ

قال ابن حبير : وأول قاضٍ بمصر خرج لرؤبة الهلال عبد الله بن هيبة . قال أبو عمر الكندي : وهو أول قاضٍ ولّى مصر عن خليفة . ولّىها عن أبي جعفر المنصور في أول سنة خمس وخمسين ومائة . اهـ .

انظر: صورة رقم ٢٢٠ ، مسحراتي لأحد البلاد العربية

انظر: صورة رقم ٢٢١ ، مدح الأفطار عند انطلاقه إذاناً بانتهاء يوم من أيام الصيام

الثلوج بحكة المكرمة

ليس الحجاز من البلاد التي تنزل فيها الثلوج ، لذلك ما كان يوجد ثلج بحكة ولا بجدة ولا بالمدينة ولا بغيرها ، نعم قد ينزل بها أحياناً برد مع المطر . فكان الناس يردون ماء الشرب ، في نحو الأزيار والشراب ، «بكسر الشين المعجمة» ، جمع شربة بالفتح ، وهي آنية من الطين يعمل بكل بلدة كمكة والمدينة وجدة وغيرها . وهي المسماة بمصر «بالقلل» بضم القاف ، جمع قلة .

ويضعون هذه الشراب في أماكن معرضة للهواء لتبرد الماء حسب طبيعة الجو ، ومن الغريب أن الهواء الحار المسمى «بالسموم» بفتح السين المهملة ، يبرد الماء في الشراب إلى أقصى حد ، لكن الناس ينفرون من هذا السموم ويقللون التوافد التي تأتي به .

بقي الحجاز على هذا الحال الطبيعي ، من تبريد الماء في الشراب والأزيار ، من قديم الزمان إلى عصرنا هذا ، الذي كثرت فيه الاختيارات والمصانع والآلات الميكانيكية والكهربائية ، أي إلى سنة (١٣٣٢) اثنين وثلاثين وثلاثمائة ألف من المخمرة تقريباً ، فكان أول مصنع للثلج بمكة عمله رجل اسمه النويلاطي ، من تجار أهل الشام المقيمين بالحجاز ، ورجل آخر اسمه الحاج نسيم ، وهو من الشام أيضاً ، ولا ندرى أيهما سبق الآخر في عمل المصنع . ثم كثرت المصانع بمكة من بعد عام (١٣٥٠) .

فالمصانع الموجودة الآن للثلج بمكة ، أي سنة (١٣٧٧) هي كما يأتي :

(١) مصنع شركة الاقتصاد الوطنية ، (٢) مصنع عبد الله باحمدبن ، (٣) مصنع عبد الله كعكي ، (٤) مصنع عطا إلياس ، (٥) مصنع طه خياط ، (٦) مصنع الشيشي ، (٧) مصنع خميس نصار ، (٨) مصنع الإسعاف .

وما يناسب هذا المقام ما ذكره الغازى في تاريخه نقاًلاً عن كتاب إتحاف الورى لابن فهد : وفي سنة (١٦٠) ، حج ثالث خلفاء العباسين ، أبو عبد الله الملقب بالمهدى ، ولد المنصور ، فحمل له الأمير محمد ابن سليمان الثلوج حتى وافى به مكة ، وهذا شيء لم يتم لأحد قبله ، وقسم المهدى في الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة وهي ثلاثة ألف درهم ، وصل بها معه من العراق ، وثلاثمائة ألف دينار ووصلت إليه من مصر ، وما تألف دينار وصلت إليه من اليمن ، ومائة ألف ثوب وخمسون ألف ثوب ، فرق جميع ذلك على أهل الحرمين . ذكره ابن فهد . انتهى من الغازى .

وقال في صبح الأعشى : أول من حُمل إليه الثلوج الحجاج بن يوسف . اه . ذكر الغازى في الجزء الأول ، من تاريخه ، (ص ٦٩٧) ما خلاصته : أنه في سنة ست وستين وثلاثمائة حجت جميلة بنت ناصر الدولة ، التي يضرب بها المثل في أفعال البر ، وأنفقت في الحرمين أموالاً عظيمة ، والذي أنفقته في حجتها ألف وخمسمائة ألف دينار ، من ضرب أبيها وزوجها ، وإنها زوجت بالحرمين

كل علوى وعلوية ، وسقط أهل عرفة كلهم السويف والسكر والثلج حملته معها ، وحملت معها البقول مزروعة في مراكن الخشب . . . إلى آخر ما ورد في تاريخه . انتهى .

وبناسبة ما ذكرناه عن الثلوج بمكة نذكر هنا ما كتبه القلقشندي ، في مؤلفه «صبح الأعشى» ، الذي فرغ من تأليفه سنة (٨١٤) أربع عشرة وثمانمائة من الهجرة ، عن نقل الثلوج إلى البلاد التي ليس فيها ثلج . فقال في الجزء (١٤) ما يأتي :

«الباب الثالث من الخاتمة ، في ذكر هجن الثلوج ، والراكب المعدة لحمل الثلوج ، الذي يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وفيه ثلاثة فصول :

«الفصل الأول في نقل الثلوج» :

اعلم أن ماء نيل مصر لما كان من الحلاوة واللطفافة على ما لا يساويه فيه نهر من الأنهر ، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية ، مع شدة القيظ بها في زمن الصيف ، وسخونة الهواء ، الذي قد لا يتأنى معه تبريد الماء ، وكان الثلوج غير موجود بها ، وكانت الملوك قد اعتادت الرفاهية ، مع اقتدارها على تحصيل الأشياء العزيزة ، وولوعهم بجلبها من الأماكن البعيدة ، إكمالاً لحال الرفاهية ، وإظهاراً لأبهة الملك ، دعاهم كمال الرفاهية والأبهة إلى جلب الثلوج من الشام إلى مصر ، لتبريد الماء به ، في زمن الحر . على أن ذلك كان في غيرهم من الملوك التي لا ثلج بحاضرتهم .

وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه «الأوائل» أن أول من حمل إليه الثلوج الحجاج بن يوسف بالعراق . ثم لاعتنة ملوك مصر بالثلج قرروا له هجنا تحمله في البر وسفنا تحمله في البحر ، حتى يصل إلى القلعة المحروسة .

«الفصل الثاني» :

«من الباب الثالث من الخاتمة ، في المراكب المعدة لنقل الثلوج من الشام» قد ذكر في «التعريف» أنها كانت في أيام الملك الظاهر بيبرس ، تعمده الله تعالى برحمته ، ثلاثة مراكب في السنة لا تزيد على ذلك ، قال : ودامت على أيام سلطاناً .

(يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السلطنة الثالثة ، وبقيت صدرًا منها ، ثم أخذت في التزيد إلى أن بلغت أحد عشر مرکبًا في مملكتي الشام وطرابلس ، وربما زادت على ذلك . قال : وآخر عهدي بها من السبعة إلى الثمانية تطلب من الشام ولا تكلف طرابلس إلا المساعدة ، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات وداعي الضرورات .

قال : والراكب تأتي دمياط في البحر ، ثم يخرج الثلوج في النيل إلى ساحل بولاق ، فينقل فيه على البغال السلطانية ، ويحمل إلى الشرابخانة الشريفة ، على ما تقدم ذكره .

وقد حرت العادة ، أن الراكب ، إذا سفرت سفر معها من يتدركها من ثلاثة مداراتها . ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر .

«الفصل الثالث» :

«من الباب الثالث من الخاتمة في المحن المعدة لنقل ذلك» .

قد ذكر في «التعريف» أنه مما ححدث ، في الدولة الناصرية ، «محمد بن قلاوون» واستمر . وقد كان قبل ذلك لا يحمل إلا في البحر خاصة . ثم ذكر أن هذه المراكب من دمشق إلى الصَّمَمِين ، ثم منها إلى بانياس ، ثم منها إلى إربد ، ثم منها إلى بيسان ، ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى غزة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورادَة ، ثم منها إلى المطَّيلَب ، ثم منها إلى قطْيَا ، ثم منها إلى الْقُصَّيْر ، ثم منها إلى الصالحيَّة ، ثم منها إلى بُيَّس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مرکز ست هُجُن : خمسة للأعمال ، وهجين للهجان ، تكون كل نقلة خمسة أَهْمَال ، وهذه المحن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا هجينين فإنها على صَفَد . ومن الورادَة إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية ، والكلفة على مال مصر . ولا تستقر هذه المحن بهذه المراكب إلا أوان حمل الثلوج ، وهي حزيران وتشرين الثاني . وعده نقلاته إحدى وسبعين نقلة ، متقارب مدد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل نقلة بريدي يتداركه ، ويجهز معه ثلاج خبير بحمله ومداراته ، يحمل على فرس بريد ثان . قال : واستقر في وقت أن يحمل الثلاج على خيل الولاية .

واعلم أن الثلوج إذا وصل على المراكب والمحجن حتى انتهى إلى القلعة ، خزن بالشرايخاناه السلطانية . قال في «التعريف» : وقد قرر أن يحمل من الثلوج على الظهر ما يتحمل ، استقر منه خاص المشروب ، لأنه يصل أنظف وأمن عاقبة ، على أن المتصرفين يأخذون الجاخي منه ، بحضور أمير مجلس وشاد الشرايخاناه السلطانية وخزانها . أما المنقول في البحر فلما عدا ذلك . قال وللمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقرة ، وعوايد مستمرة .

قلت : وقد جرت العادة أن واصل الثلوج في كل نقلة في البر والبحر تكتب به رجعة من ديوان الإنشاء . انتهى كل ذلك من كتاب صبح الأعشى .

تأسيس أمانة العاصمة

تعني بأمانة العاصمة بلدية مكة المشرفة ، فمكة هي عاصمة بلاد الحجاز ، وهي كبرى مدنها ورئيس بلدتها يطلق عليه ، في عصرنا الحاضر ، أمين العاصمة . والبلديات لم تكن معروفة في الحجاز ، في سابق الأزمان ، وما عرفت إلا في عهد الشريف الحسين بن علي ، رحمة الله تعالى ، فإنه بعد أن أخرج الأتراك من الحجاز في سنة (١٣٣٤) هجرية ، استقل بملك الحجاز ، وكانت مكة المكرمة عاصمة ملكه ، ففيها كانت إقامته الدائمة ، وبعد أن استقل ، وصار يلقب بملك الحجاز ، قام بتنظيم مصالح بلاده ، ومصالح حياة رعيته الحجازيين ، ولسنا هنا في صدد بيان كيفية استقلاله ومحاربته للأتراك ، فإن ذلك يعلم من المصادر التاريخية ، وإنما نحن نبين هنا إنشاء أمانة العاصمة وتاريخ تأسيسها فنقول وبالله التوفيق :

إن الشريف الحسين بن علي ، رحمة الله تعالى ، لما تولى حكم الحجاز ، من قبل الدولة التركية العثمانية ، أمر بإنشاء البلدية بمكة المكرمة في سنة (١٣٣٢) ألف وثلاثمائة واثنتين وثلاثين هجرية ، ولم يكن ، قبل عهده ، بلديات بالحجاز ، غير أنه كان في عهد الشريف عون ، الذي كان والياً على الحجاز ، من قبل الأتراك يبعض سنوات ، رجل مهندس اسمه عبد الله أبو لية ، من أهل جياد مكة ، فإن هذا الرجل وحده كان يفسح للناس ببناء البيوت والمنازل ، ويقضى ويصلح بين المخاصلين ، فمن لم يرض بحكمه حواله إلى الشرع الشريف ، ولذلك كانت بيوت مكة ومنازلها قديماً متداخلة ، بعضها بعض ، والحارات ضيقة ، خصوصاً وأن كل واحد

منهم يحب أن يكون بيته بقرب المسجد الحرام ، ولو على رؤوس الجبال ، وما كانوا يجبن بعد عن المسجد الحرام والسكنى في أطراف مكة كعهدها الحاضر .

فلما أمر الشريف الحسين بن علي ، رحمة الله تعالى ، ملك الحجاز الأسبق ، بإنشاء وتأسيس أمانة العاصمة في السنة المذكورة (١٣٣٢) هـ ، جعل الشيخ عبدالقادر الشيبي رئيساً لها ، وجعل معه الأعضاء وهم :

١) الشيخ عبد الله أبو الخير .

٢) الشيخ عبد الوهاب خوقير .

٣) الشيخ ياسين العظمي .

٤) الشيخ محمد الزبيدي .

٥) الشيخ سليمان التركي .

وهذا الأخير رجل مهنيس ، ولقد جمع هذا الرجل ، في إحدى المرات ، المعلمين ، من البناءين بمكة ، وقال لهم : إذا سمعتم أهل العمارات يتخصصون فيما بينهم على أرض أو بناء أخبرونا بذلك حتى نصلح بينهم ، لأن لا يتعدى أحد على أحد ، وبئه عليهم أن أي أحد من المعلمين البناءين يريد أن يبني بيته ، فزملاؤه ، من أهل الصنعة ، يخدمون في البناء ثلاثة أيام مجاناً ، والبلدية تعطيه كوشان التعمير مجاناً أيضاً ، وكانت البلدية تعطي كوشان التعمير لكافحة الناس ، مقابل هلتلتين عن كل ذراع ، أي في مقابل نصف قرش في ذلك الزمن ، فانظر ، رحمنا الله تعالى وإياك إلى حسن معاملة البلدية مع الأهالي وإلى قوانينهم اللطيفة .

ثم إن الشريف الحسين المذكور عزل الشيخ عبد القادر الشيبي من رئاسة البلدية ، ووضع مكانه الشيخ يوسف قطان ، الذي هو والد الشيخ عباس قطان ، رحم الله تعالى الجميع ، ولم يغير أحداً من الأعضاء . ثم نقل الشريف الحسين الشيخ يوسف قطان من رئاسة أمانة العاصمة وجعله وزيراً للنافعه ، أي وزيراً للأوقافات الخيرية ، التي ليس لها أحد ، ولنوع من الصدقات والخيرات ، يقوم بها . وكان ذلك بعد إخراج الأتراك من الحجاز .

وجعل الشيخ عبد القادر عبده رئيساً لأمانة العاصمة ، ثم عزله وجعل مكانه الشيخ عبد الله مشاط ، من شعب عامر بمكة ، ثم عزل جميع الأعضاء وأبد لهم

بآخرين ، ثم عزل المشاط وجعل مكانه الشيخ أحمد السبحي ، من الشبيكة بمكة ، ثم عزله وجعل مكانه الشيخ عبد الحفي قرار .

ثم لما تولى الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، على الحجاز ، جعل الشيخ عبداللطيف عالم ، بفتح الام ، المطوف رئيساً لأمانة العاصمة ، ثم وضع مكانه الشريف محمود من شعب عامر بمكة ، ثم وضع مكانه الشيخ عبد الرحمن بشناق من القشاشية بمكة ، ثم وضع مكانه الشيخ عباس قطان ولبث في رئاسة أمانة العاصمة مدة طويلة ، ثم تولى بعده الشيخ عبد الرؤوف الصبان فمكث بها بضع سنوات ، ثم تولى بعده الشيخ محمد صادق في سنة (١٣٧٢) هـ ، فمكث نحو ستين فقط وهو ومن سبقه من أهالي مكة المكرمة ، ثم تولى بعده الشيخ عبد الله بن خثلان في سنة (١٣٧٤) ، وهو من أهالي نجد ، ثم تولى بعده الأستاذ عبد الله عريف من أهالي مكة ، وهو ما زال رئيساً لأمانة العاصمة إلى اليوم ، فعمل من الأعمال الجيدة ما لم يعمله أحد من سلفه ، وإن شاء الله تعالى ، سنكتب عن أعماله بحثاً وافياً ، وهنا نضع صور اثنين من رؤساء أمانة العاصمة المتأخرین تخليلًا لذكراهم ، نسأل الله تعالى أن يوفق الجميع لخدمة هذا البلد الأمين ، فيؤخذ ما تقدم أن جميع البلديات ، في المدن الحجازية الكبرى ، قد أنشئت بعد بلدية مكة المكرمة في ذلك الحين .

هذا ولقد استقينا هذه المعلومات من أحد المعمرين بمكة من المعلميين البنائين الشهيرين ، وهو حارنا العزيز الشيخ علي هليكة ، أدام الله تعالى عليه الصحة والعافية والنعم الوافقة وسنته وإيانا في الدنيا والآخرة وختمن أعمالنا وأعماله بالأعمال الصالحة على طهارة ونظافة وراحة تامة إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب .

ترجمة سعادة الأستاذ عبد الله عريف «أمين العاصمة»

هو من أهل مكة ومن المتعلمين الثقيفين ، اشتغل بالأدب ، في بادئ حياته ، فأسننت إليه جريدة البلاد السعودية ، التي تصدر بمكة المشرفة ، فقام بإدارتها خير قيام ، حتى صار من أبرز الصحفيين ، اشتغل فيها زمناً طويلاً ، ثم في سنة

(١٣٧٩) ألف وثلاثمائة وتسع وسبعين هجرية ، أُسندت إليه الحكومة السعودية رئاسة أمانة العاصمة .

انظر: صورة رقم ٢٢٢ ، الأستاذ عبد الله عريف

لقد تولى سعادة الأستاذ عبد الله عريف أمانة العاصمة في السابع والعشرين رجب سنة (١٣٧٩) ، بأمر رسمي من الجهات العليا من سمو نائب جلاله الملك العظيم ورئيس مجلس الوزراء ، الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود الذي تولى الملك في (٢٧) جمادى الثانية سنة (١٣٨٤) هـ ، وإليك نصّ الأمر الرسمي :

حضره المكرم الأستاذ عبد الله عريف

بناءً على ما اقتضته المصلحة العامة فقد ارتأينا تعينكم أميناً للعاصمة براتبها المقرر وقد أبلغنا وزارة الداخلية باعتماد ذلك لإجراء الدور والتسليم بينكم وبين سلفكم حسب الأصول . فيقتضي مباشرة عملكم بما نأمله فيكم من جد ونشاط متمنين لكم التوفيق والسداد ،

في ١٣٧٩ / ٧ / ٢٣ هـ

التوقيع

فيصل

والحق يقال أن تعين الأستاذ عبد الله عريف أميناً للعاصمة قد صادف محله ، فلقد قام بمشاريع عظيمة لم يسبق لأسلافه مثلها ، وما ذلك إلا بتوفيق العزيز الحكيم .

قام الأستاذ عبد الله عريف في أمانة العاصمة بخدمات كبيرة لم يسبقها إليها أحد ، فوسع الشوارع والطرقات ، وافتتح الميادين بمكة المشرفة ، وغرس في الشوارع المهمة بعض الشجيرات ، وأحسن مناظرها ببعض النباتات ، ووضع في ميادينها أربع نافورات ، لتجميل المناظر . فاتساع شوارع مكة وبناء بعض درج جبالها المسكونة لم تكن إلا في عهده أمنه الله تعالى بالمعونة والتوفيق وأكثر من أمثاله الفضلاء آمين . وكان ساعده الأيمن في أعماله الجيدة ومشاريعه العديدة هو سعادة الشيخ عبد الله بن صديق وكيل أمانة العاصمة كما ستأتي ترجمته .

انظر : الصورتين رقم ٢٢٣ ، لأحد الشوارع الحديثة عند مدخل مكة المكرمة ، ورقم ٢٢٤ لمدخل مكة المكرمة الحديثة بعد حملة الإصلاح العمرانية فيها .

ترجمة الشيخ عبد الله بن صديق وكيل أمانة العاصمة

هو شاب فاضل ذكي ليبب ، اجتماعي نشيط ، التحق بأمانة العاصمة وما زال يتدرج ويترقى في الوظيفة ، مجده وإخلاصه ، حتى وصل إلى وظيفة وكيل أمانة العاصمة ، وذلك في أول سنة (١٣٨١) ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين هجرية ، وفي عهده حصلت توسيعة الشوراع وتحميمها ، كما سبقت الإشارة إلى بيانها ، في ترجمة سعادة الأستاذ عبدالله عريف ، فهو أيضاً من بناء الإصلاح بعاصمة المسلمين «مكة المكرمة» تلك البلدة الطاهرة المقدسة .

انظر : الصورة رقم ٢٢٥ ، للأستاذ عبد الله بن صديق .

واليك نبذة من ترجمة حياته الوظيفية كما كتبها لنا بنفسه وهي كما يأتي :

- ١) التحق بأول وظيفة بخدمة الحكومة السنوية بتاريخ ٦٦/٨/١٦ إلى ٦٧/٧/٢ بوظيفة مأمور ملفات بأمانة العاصمة .
- ٢) ثم تعيين بوظيفة كاتب آلة اعتباراً من ٣٠/٦/٦٧ إلى ٣٠/١٢/٦٧ في نفس الأمانة .
- ٣) ترفع إلى وظيفة معقب ورئيساً للأرشيف العام اعتباراً من ١/١/٦٨ إلى ٣٠/٦/٧ بأمانة العاصمة .
- ٤) ترفع إلى وظيفة محضر أول ، ومشرف على إدارة التحرير اعتباراً من ١/٧/٧٠ إلى ٣٠/٣/١٣٧٤ هـ .
- ٥) ثم ترفع إلى وظيفة مدير إدارة التحريرات والقيام بأعمال أمين العاصمة في حالة غيابه اعتباراً من ١/٦/٧٦ إلى ٣٠/١٢/١٣٨٠ هـ .
- ٦) ترفع إلى وظيفة وكيل أمين العاصمة اعتباراً من ١/١/٨١ وما زال بها إلى تاريخه .
- ٧) ابتعث إلى القاهرة لحضور دورة معهد الإدارة العامة بالقاهرة والأمم المتحدة في عام ٨١ تحصل على شهادة المعهد وتخصص في الأبحاث المتعلقة بالإدارة العامة وطرق التنظيم الإداري .

هذه نبذة من ترجمة الأستاذ عبد الله بن صديق ، وفقه الله تعالى ، وسدد خطاه أمين .

معرفة أهل الصدر الأول بأمور البناء وإصلاح الطرقات

جاء في الجزء الأول من كتاب «التراتيب الإدارية» بعنوان : معرفته عليه الصلاة والسلام ، وأهل الصدر الأول ، بأمور الهندسة والبناء وإصلاح الطرقات ، ما نصّه :

في طبقات ابن سعد لما أقطع ، عليه السلام ، الدور بالمدينة خط لعثمان بن عفان داره اليوم ، ويقال إن الخوخة ، التي في دار عثمان اليوم ، وجاء باب النبي عليه السلام ، الذي كان المصطفى ، عليه السلام ، يخرج منه ، إذا دخل دار عثمان اليوم ، وفي أزهار الرياض للإمام أبي العباس المقربي ، نقلًا عن خط أبي زيد عبد الرحمن الغرناطي ، على هامش الشفا عند ذكر عياض ، أنه عليه السلام قال: وهو بموضع نعم ، موضع الحمام هنا ، ما نصّه: هو داخل في معرفته ﷺ بالهندسة والبناء ، ذكره أبو نعيم في رياضة المتعلمين ، ورواه عن أبي رافع قال: مر رسول الله ﷺ على موضع فقال: نعم الحديث ، قال: فبني فيه الحمام . اهـ . وقال الحفاجي ، في نسيم الرياض ، على هذا الحال: فيه الإخبار بحال البناء ومهاب الأهوية . اهـ .

وسيأتي في باب المنادي ، عن سنن أبي داود ، أن النبي ﷺ بعث أن ينادي في معسكره : أن من ضيق منزلًا أو قطع طريقا فلا جهاد له ، وذلك لما ضيق الناس المنازل وقطعوا الطرق ، فيؤخذ منه أنه عليه السلام كان يحب النظام ، حتى في نصب الأخبية في السفر ، فكيف لا يحب ذلك في محل الاستيطان والبناء المشيد ، قال شارح السنن فيه أنه لا يجوز لأحد تصييق الطريق ، التي يمر منها الناس ، ونفي جهاد من فعل ذلك على طريق المبالغة في الزجر والتغفير ، وكذلك لا يجوز تصييق المنازل لما في ذلك من الأضرار . اهـ .

وفي سيرة عمر أنه لما أذن ببناء البصرة والكوفة خطوا الشوارع على عرض عشرین ذراعاً وطول أربعين ذراعاً ، والأزقة تسعة ذراع ، والقطاعات ستين ذراعاً ، وبنوا المسجد الجامع بالوسط ، بحيث تتفرع الشوارع ، وذلك بأمر عمر رضي الله عنه ، وهذا يدل على نفاق سوق الهندسة حتى في البناء في الزمن الأول سفراً

وحرضاً وخططاً ، وفي سيرة عمر أيضاً أنه لما جاء الشام سنة ١٧ رتب الشواطي والصوائف ، أي: الجنود التي تغزو في الصيف ، والجنود التي تغزو في الشتاء ، وسد فروج الشام ومساكنها وهي النقط العسكرية وخطوط الدفاع .

وفي فتوح البلدان ، أن معاوية كتب إلى عمر ، بعد موت أخيه يزيد ، يصف له سوء حال الشام ، فكتب إليه في حرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظيرها ، واتخاذ المواقيد لها ، (والمناظير قباب مبنية على رؤوس الجبال العالية) بين كل بلد وآخر ، بحيث يتقارب بعضها ويشرف بعضها على بعض ، ويقام فيها حرس يوقنون النيران عندما يرون إقبال العدو من جهةهم ، فيبوقد حرس المناظير الذين يلوذون بهم كذلك ، وهكذا حتى يصل الخبر إلى المدينة أو التغر أو المسلحة في زمن قليل ، فيسرعون لإمداد الجهة التي أقبل منها العدو ، وهذا كذلك يدل على نفاق أسواق الهندسة في البناءات الحربية والمراكم العسكرية ، وفي فتوح البلدان أيضاً أن عمر كان يشترط على أهل النمة إصلاح الجسور والطرق .

بلدء بناء البيوت بمكة

لم تكن معروفة منذ قديم الزمان ، فأول من اكتشفها خليل الله ابراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وذلك حينما أمره الله تعالى أن ينقل ابنه إسماعيل مع أمه هاجر إلى مكة ، فأتى له باليراق فركبوا عليه من الشام قاصدين مكة ، يذلهم عليها وعلى معلم الحرم وموضع البيت حبريل عليه السلام ، فقدموا مكة وليس بها أحد من البشر ، فلا بناء ولا ماء ولا شجر مثمر ، اللهم إلا أشجار العصايم بكسر العين المهملة «بوزن كتاب» وهي أشجار عظيمة ذات شوك ، وهذه الأشجار لا تزال إلى اليوم موجودة في أراضي الحجاز وهي الأشجار الطبيعية ، التي تنبت بنفسها ، وتسمى شجر البدية ، غير أنها كانت في تلك الأيام كثيرة وافرة وضخمة عظيمة لم تتد إليها يد الإنسان بالقطع والاحتطاب ورفعها من الطرق مواضع المساكن ، أما بعد استيطان البشر بمكة ، فقد نقصت هذه الأشجار الشوكية ، بل تكاد أن لا يوجد منها شيء ، في بطن مكة .

فلما أقام بمكة إسماعيل مع أمه ، وأظهر الله تعالى لها ماء زرم ، بفضله وكرمه ، حسبما اقتضته الإرادة الأزلية ، ورددت عليهم قبيلة من جرهم ، فاستأذنوهما في النزول عندهما ، ثم أرسلوا إلى أهلهم فقدموا إليهم ، ثم عمرت

مكة بهم وبغيرهم من قبائل العرب ، لكن كانوا يسكنون خارج مكة في أوديتها وشعابها تعظيماً لبيت الله الحرام ، فلم يكن في وسط مكة شيء من البيوت مطلقاً إلاً البيت الحرام إلى أن كان زمن قصيّ كما سيأتي .

يقول الأستاذ عبد الوهاب النجاشي في كتابه «قصص الأنبياء» ولم يذكر مكة شيء ، بعد البيت ، إلاً في القرن الثاني قبل الإسلام ، في عهد قصيّ بن كلاب ، فإنه بني دار الندوة ، وتبعته قريش تبني حول المسجد ، وكان المسجد ساحة فبنوا حوله ، وذلك من نحو خمسين ومائة سنة قبل الإسلام . انتهى كلامه .

ولقد كانت القبائل ، من جرهم والعمالقة وخزاعة وقريش وغيرهم ، يسكنون بشعاب مكة ويقطعون بظاهرها ، ولا يقيمون بها إلا نهاراً ولا يدخلونها على جنابة ، فإذا أمسوا خرجوا إلى الحلّ ، ويترون حول الكعبة بدون بنيان ، احتراماً لها وتعظيماً لشأنها ، فلا يجترئ أحد أن يبني بجوارها داراً ولا جداراً . فلما آلت الأمور إلى قصيّ بن كلاب ، الذي كان قبل الهجرة بنحو مائة وثلاثين سنة ، جمع قومه ، بطون قريش ، وأمرهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربع ، وقال لهم : إن سكتم حول الكعبة هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والمجموع عليكم ، فبدأ هو أولاً ببناء دار الندوة في الجانب الشمالي للكعبة ، وهو فسحة بباب الزيادة ، فكانت دار الندوة أول دار بنيت بمكة قبل الإسلام بنحو قرن ونصف . ثم قسم قصيّ باقي الجهات ، بين قبائل قريش ، فبنوا بيوتهم حولها ، فكان ذلك أول بداء البنيان حول الكعبة ، فكل من بني بيته من قبائل قريش حول الكعبة سمي : «قريش البواطن» وكانت بيوتهم مدورة الشكل تعظيماً للكعبة . فأول من بني بيته مربعاً حميد بن زهير ، وعندئذ قالت قريش : «رَبْ حَمِيدٍ بَيْتٌ إِمَّا حَيَا إِمَّا مُوْتَأً» أي تخوفوا عليه من الإنقسام الإلهي ، حيث خالف عادة العرب ، فبني بيته مربعاً فأشبه تربيع الكعبة ، قال الأزرقي : كانت دار حميد بن زهير الласقة في ظهر الكعبة ، كانت تفيء على الكعبة بالعشى ، وتقيء عليها بالبكر . اهـ .

ولقد ذكر بعضهم أن أول دار بنيت بمكة هي دار العجلة . فهذا وهم منهم لا أصل له مطلقاً ، وهم نقلوه عن غيرهم بدون تأمل وبمحض ، فالالأصح أن دار الندوة هي أول دار بنيت بمكة ، في عهد قصيّ بن كلاب ، قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وهذا مما لا شك فيه لدى المتأمل .

ودار العجلة ذكرها الإمام الأزرقي في تاريخه ، والأزرقي حجة لدى الجميع ، فهو كالمولود بمكة في القرن الثاني للهجرة ، ومن علمائها الأعلام ، وشيخ المؤرخين قاطبة ، وفي المثل : «أهل مكة أدرى بشعابها» فقد قال رحمة الله تعالى ، عن دار العجلة في تاريخه ما يأتي : دار العجلة ابناها عبد الله بن الزبير من آل سعير بن موهبة السهميين ، وإنما سميت دار العجلة لأن الزبير حين بناها عجل وبادر في بناها فكانت تبني بالليل والنهار ، حتى فرغ منها سريعاً ، وقال بعض المكيين : إنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير كان ينقل حجارتها على عجلة اخزنها على البخت والبقر . انتهى كلام الأزرقي .

فدار العجلة ربما كانت موجودة قبل ابن الزبير ، الذي قتل سنة ثلات وسبعين من الهجرة بعدة سنوات . والحكم بأنها أول دار بنيت بمكة غير صحيح مطلقاً . وال الصحيح الذي لا شك فيه وهو المعتمد أن أول دار بنيت بمكة هي دار الندوة .

فعلم مما تقدم أن قصيَّ بن كلاب ، الجلد الرابع للنبي ﷺ هو الذي أمر قريشاً أن تبني بيوتها حول الكعبة بمكة ، لا تهاونا بأمرها وإنما ملاداً بها حتى تهابهم الناس فلا يستحلون قتالهم ولا يهضمون حقوقهم ، كما أنه هو أول من بنى داراً قبل قريش ، وهي دار الندوة ، لتقديري قريش به في بناء بيوتها ، وانظر إلى حكمه قصي في بدء بناء دار الندوة قبل بناء دار خاصة لنفسه ، فدار الندوة هي عبارة في عرفنا ونطلق عليها في عصرنا هذا «قصر الحكم» أو «دار البرلان» أو «دار مجلس الوزراء» أو «دار الإمارة» لأن دار الندوة كانت قريش لا تبرم أمراً إلا فيها ، ولا يقبل فيها من غير بني قصيَّ إلا من بلغ سن الأربعين ، ويدخلها بنو قصيَّ جميعاً كبيرهم وصغيرهم ، وغير ذلك من الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يكون عضواً فيها .

فالابتداء ببنية هذه الدار التي هي في مصلحة كل قبائل قريش ، قبل بناء بيوتهم ، بل حتى قبل بناء بيت حاكم مكة ، هو عين الصواب والحكمة .. ولقد جعلنا لدار الندوة مبحثاً خاصاً فارجع إليه إن شئت .

ولم تكن في صدر الإسلام ، بيوت بمكة تكري ولا تباع . قال الإمام الأزرقي في تاريخه عن علقة بن نضلة : كانت الدور والمساكن على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ، رضي الله تعالى عنهم ، ما تكري ولا تباع ولا تدعى إلا للسوائب ، من احتاج سكن ومن استغنى أسكن .

قال يحيى : قلت لعمرو بن سعيد : فإنك تكري ؟ قال : قد أحل الله الميّة للمضطرب إليها . وروي عن ابن حريج ، قال : كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم ، وقال ابن حريج : أخبرني عطاء أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تبوب أبواب دور مكة . اهـ .

فأول دار مكة عمل بها بابان هي دار هند بنت سهيل . وذلك كما رواه الأزرقي ، في تاريخ مكة ، أن هند بنت سهيل استأذنت عمر ، رضي الله عنه ، أن تجعل على دارها بابين ، فأبي أن يأذن لها ، وقال : إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحاج والمعتمر ، وكان الحاج والمعتمر من يتزلرون في عرصات دور مكة . فقالت هند : والله يا أمير المؤمنين ما أريد إلا أن أحفظ على الحاج متاعهم ، فأغلقها عليهم من السرق ، فأذن لها فبوّتها . اتهى من الأزرقي .

هذا ما كان من ابتداء البيان وظهور البيوت في مكة المشرفة ، ولا يخفى الفرق الكبير بين تلك البيوت البدائية العربية ، وبين ما فيها الآن من القصور الفخمة والمعمارات الضخمة ، والبيوت المكلفة بالآلاف الملوفة ، نسأل الله العزيز الكريم أن يوفقنا لشكر نعمائه ليزيدنا من فضله وإحساناته في بلدته الطاهرة المطهرة ، زادها الله شرفاً وأمناً ورزقاً ورخاءً ، وخيراً وعمراناً ، ووفقاً فيها لصالح الأعمال حتى يتوفانا بها على الإيمان الكامل آمين وصلى الله على نبينا « محمد » أبي القاسم الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

امتداد البيوت والمعمارات بعكة

لم تكن مكة المشرفة معروفة مسكونة ، إلا بعد إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، فحينما جاء إليها ، من أرض الشام ، لأول مرة ، بابنه إسماعيل وأمه هاجر ، راكبين البراق ، يدخلون عليها جبريل ، عليه السلام ، لم يكن بها إنس ولا بشر ، فوضعهما في مكان زمزم ومكان البيت ومعهما جراب من نمر وسقاء من ماء ، ثم رجع من حيث أتى ، فلما نفذ الماء وأشرفوا على الهلاك ، جاء جبريل وضرب بجناحه الأرض فخرج لهما ماء زمزم ، وبعد أيام مرت بها قبيلة من جرهم ، فاستأذنوا هاجر في النزول عندها ، فأذنت لهم ، فدامت إقامتهم معها حتى كثروا ، فلما كبر إسماعيل عليه السلام تزوج بأمرأة منهم .

ثم أمر الله، عز شأنه، خليله إبراهيم أن يبني بيته الحرام بمكة ليحج الناس، فأتى إليها وبناه هو وابنه إسماعيل عليهما السلام بالردم، أي بالحجارة فقط من غير طين، كما تقدم تفصيل ذلك، ثم كثر الناس وازداد سكان مكة شيئاً فشيئاً من ذلك العصر إلى اليوم، وما كانوا يسكنون عند البيت تعظيماً له، وإنما كانوا يعودون عنه، فيتحدون منازلهم بين الشعاب والجبال، حتى كان قصي بن كلاب، الجد الرابع لنبينا محمد ﷺ، فجمع القبائل وأمرهم أن يبنوا حول البيت الحرام حتى تهابهم الناس، فما كانت تتجاوز منازلهم حول البيت.

ثم لما كثر الناس بعد الإسلام، وصار المهاجرون يفدون إلى مكة ويقيمون بها، امتدت البيوت إلى أول المدعى وأول أجياد وأول الشبيكة وأول المسفلة، وهذا رسول الله ﷺ، بعد أن سكن المدينة، كان إذا جاء مكة لم ينزل في بيته، وإنما ينزل بأعلى مكة جهة المحجون وكانت تضرب قبته بالأبطح، وكان الحصب مناخ للركبان، والأبطح والمحصب بأعلى مكة. قال الفاسي بصحيفة (١٢) في كتابه «شفاء الغرام» ما ملخصه :

ذكر الفاكهي ما يقتضي أن الناس، فيما مضى، كانوا لا يتجاوزون في السكني البئر، التي عند المسجد، الذي عند الردم، بأعلى مكة، ويقال لها البئر العليا «أي بئر جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل». وهذه البئر لا زالت إلى اليوم موجودة وبها الماء، وهو على يمين الصاعد من المدعى إلى المعلى، في الزقاق الضيق، الذي بين مسجد الراية وبين البيت المقابل له.

ثم قال الفاكهي : سمعت بعض أهل مكة من الفقهاء يقولون : كان الناس لا يتجاوزون في السكني من قديم الدهر هذا البئر ، إنما كان الناس فيما دونها إلى المسجد ، وما فوق ذلك حال من الناس .

ثم قال أيضاً : سمعت أبي بحبي بن أبي مسرة يقول : كان آخر البيوت عند الردم نحواً من هذا الموضع ، واحتج في ذلك بقول عطاء: إذا جاوز الردم «يعني الحاج» صنع ما شاء أهـ . والمقصود بالردم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وهو برأس المدعى ، والفاكهـي توفي سنة (٢٨٠) فيكون من أهل القرن الثالث . قال الفاسي ، المتوفى سنة ٨٣٢ في كتابه المذكور : ولناس اليوم منازل كثيرة مسكونة فوق هذا المسجد والبئر المشار إليها من جانبي الوادي ، وهي من الجانب الذي يكون على يمين الصاعد من مكة المشرفة . أهـ .

ثم ازداد سكان مكة ، شرقها الله تعالى ، فامتدت الدور والمساكن إلى ما فوق هذه الجهات ، وكانت تبني بدون نظام ولا انسجام ، وكانت متداخلة بعضها ببعض بشكل قد يمحب التور والهلواء عن غالبيها ، وكانت الأزقة والشوارع ضيقة جداً لتراحم البيوت في السهل والجبل ، وذلك حتى لا يبتعدوا كثيراً عن محيط البيت الحرام ، ثم امتدت الدور والمساكن الآن ، في أطراف هذا البلد الأمين ، زادها الله شرقاً وغرباً وأمناً وأماناً ، حتى كادت تصل إلى منتصف حدود الحرم في بعض الجهات .

ومناسبة العمران القائم الآن ، في عصرنا الحاضر ، على قدم وساق ، في أنحاء المملكة العربية السعودية ، أحيبنا ذكر امتداد المنازل والبيوت في أطراف مكة المكرمة ، بدون التعرض لامتدادها وكثرتها في بقية المدن ، لأن كتابنا هذا خاص بتاريخ مكة ، ولا بد من ذكر ما كانت مكة من العمران قديماً ، للمقارنة بين القديم والحديث على هذا الامتداد في البيوت والعمaran بمكة المشرفة قد وصل في بعض جهاتها إلى حس كيلومترات وفي بعض أكثر من ذلك ، وقد سبق الكلام على أن مكة كانت مسورة ، فنقول وبالله التوفيق :

جاء في تاريخ الغازي ، نقلأً عن الفاسي ، الذي توفي سنة (٨٣٢) اثنين وثلاثين وثمانمائة ، ما نصه :

وطول مكة من باب المعلاة إلى باب الماجن ، يعني درب اليمن بالمسفلة ، موضع السور الذي كان موجوداً في زمانه ، من طريق المدعى والمسعى ومسيل وادي إبراهيم ، والسوق الذي يقال له الآن : سوق الصغير ، مع ما فيه من دورات ولفتات ليست على الاستقامة ، أربعة آلاف ذراع واثنان وسبعون ذراعاً ، بتقديم السين ، بذراع اليد ، وهو ينقص ثمن ذراع عن ذراع الحديد المستعمل الآن ، يعني الذراع الشرعي .

وطول مكة من باب المعلاة إلى باب الشبيكة ، من طريق المدعى ، ثم يعدل عنه إلى سويقه ، ثم إلى الشبيكة أربعة آلاف ذراع ومائة ذراع وأشان وسبعون ذراعاً ، بتقديم السين ، بذراع اليد أيضاً . انتهى من تاريخ الغازي .

نقول : أما عرض مكة فلم يذكره الغازي ، لأن عرضها معروف فهو يمتد من الجبل إلى الجبل والجبال على جانبي مكة متقاربة جداً ، فإن أكثر بيوت مكة واقعة بين الشعاب والجبال ، فإذا قارنا مقدار امتداد العمران في طول مكة ، أمكننا معرفة

سريان العمران بين الجبال والشعب في جميع أنحاء مكة وملتوياتها . وفي المثل العربي : «أهل مكة أدرى بشعابها» ، وإليك صورة بعض البيوت التي بين الجبال .

انظر : صورة رقم ٢٢٦ ، بعض البيوت التي بين جبال مكة المكرمة وبعضها مبني بالصناديق (الأختاب الملبيسة بصفائح التنك ،

ولقد كانت المنازل والبيوت بمكة إلى رأس القرن الرابع عشر الهجري ، أي إلى عام (١٣٠٠) ، إلى حلقة المعلى ، أي لا تصل إلى مقبرة المعلاة ، بدللين :

الأول : حرت العادة أن تكون حلقة البلدة في خارجها بعد العمران ، «أي السوق العام الذي يمتد فيه الخضراء وغيرها بالجملة في الصباح الباكر كل يوم» .

والثاني : ما أخبرنا به المعروون في وقتنا الحاضر عن ذلك ، ولقد ذكر الغازي في تاريخه في الجزء الأول ، بصحيفة (٣١٦) أن سوق بيت الخطب كان بالمدفعي في سنة (٩١٨) ثمان عشرة وتسعين وتسعمائة ، وهو كلام معقول جداً .

وذكر القطبي في تاريخه وهو الذي توفي عام (٩٨٨) ثمان وثمانين وتسعمائة هجرية ، أن أحد الشيوخ المعمرين أخبره أنه شهد الظباء تنزل من جبل أبي قبيس إلى الصفا ، وتدخل إلى المسجد لقلة الناس . فهذه الحكاية ليست بعيدة ، فإن جهة جبل أبي قبيس وأجياد والمصافي لم تكن آهلة بالناس في ذلك العصر ، أما اليوم فليس في تلك الجهات موضع متر إلا وهو عامر مسكن ، ومن وراء تلك الجهات من فوق الجبال يؤدي إلى جهة مني وهي عاصمة بالسكان أيضاً .

ثم إنه منذ سنة (١٣٦٠) ستين وثلاثمائة بعد الألف تقريباً ، سرى العمران في أطراف مكة كلها ، بل في أنحاء جميع المملكة السعودية ، سيراً حتياناً ، ومشياً بخطى واسعة ، فأصبحت العمارات الضخمة والمنازل الجميلة والقصور العظيمة على أحدث طراز بمكة المشرفة ، تصل من أعلىها إلى طرف جبل حراء وإلى قرب مني ، وتصل من أسفلها إلى قرب جبل ثور ، ومن ناحية الشيشكة تصل إلى متنه جرول والطنباباوي ، وإلى طريق حدة وإلى ناحية الزاهر والشهداء إلى أن تصل بوادي التعييم موضع إitan العمرة .

ولم تكن في تلك النواحي عمارات ولا سكن إلا ما ندر جداً ، فما كانت البيوت تتعدى قشلة جرول ، أما جهة الزاهر فإن أول من بني فيه بياناً هو أحمد عزت باشا الأذنجاني ، الذي تولى حنة من طرف الدولة العثمانية سنة (١٢٦٩)

تسع وستين ومائتين وألف ، فبني البيت بالزاهر بالقرب من شهداء فخر ، في مدة ولايته هذه كما ذكره الغازي في الجزء الثاني من تاريخه . ويرجع سبب امتداد العمران إلى خمسة أمور :

- (الأول) كثرة النقود بأيدي الناس وزيادة الرفاهية .
- (الثاني) وصول الماء إلى جميع الجهات .
- (الثالث) الأمن والأمان في جميع المملكة .
- (الرابع) وجود المراسلات وكثرة السيارات (الأوتومبيلات) في البلاد .
- (الخامس) كثرة سكان البلدة لكثره النازحين إليها من جميع المالك الإسلامية .

فانظر رحمك الله ، كيف كانت مكة في سابق العهد ، ثم كيف صارت اليوم ، فسبحان المتصرف في الكون ، وسبحان القائل في كتابه العزيز في سورة البقرة : ﴿هُنَّا إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكِ الَّتِي تَحْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْعَنُ النَّاسُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْخَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ﴾ .

والقائل في سورة آل عمران : ﴿هُنَّا إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لِآيَاتِ الْأَلْبَابِ﴾ .

والقائل في سورة يونس : ﴿هُنَّا إِنِّي فِي اخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَقَوَّنُونَ﴾ .

تنظيف الشوارع وإصلاحها

تنظيف الشوارع وإصلاحها هو من خصائص البلديات «أمانة العاصمة» اليوم ، لكن لو رجعنا إلى القرون السابقة لوجدنا أن ولاة الأمور كانوا يهتمون بأنفسهم به ، بل كانوا ينظرون في كل ما يهم المسلمين من صغيرة وكبيرة ، مع ما كان لديهم من الرجال والأعوان الموظفين في شتى الدواوين والإدارات .

روى الإمام الأزرقي في تاريخه : أصعد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، المعلاة في بعض حاجته ، فمر بأبي سفيان بن حرب يهن جملًا له ، فنظر إلى

أحجار قد بناها أبو سفيان ، شبه الدكان في وجه داره ، يجلس عليه في فيء الغدأة ، فقال له عمر : يا أبو سفيان ما هذا البناء الذي أحدثه في طريق الحاج ؟ فقال أبو سفيان : دكان نجلس عليه في فيء الغدأة . فقال له عمر : لا أرجع من وجهي هنا حتى تقلعه وترفعه . فبلغ عمر حاجته ، فجاء والدكأن على حاله ، فقال له عمر : ألم أقل لك لا أرجع حتى تقلعه ، قال أبو سفيان : انتظرت يا أمير المؤمنين أن يأتيانا بعض أهل مهنتنا فيقلعه ويرفعه ، فقال عمر ، رضي الله عنه ، : عزمت عليك لقلعنه بيديك ولتنقلنه على عنقك ، فلم يراجعه أبو سفيان حتى قلعه بيده ونقل الحجارة على عنقه وجعل بطرحها في الدار ، فخرجت إليه هند ابنة عتبة ، فقالت : يا عمر أمثل أبي سفيان تتكلفه هذا وتتعجله عن أن يأتيه بعض أهل مهنته ؟ فطعن بمحضه كانت في يده في خمارها ، فقالت هند : ونفتحتها بيدها إليك عني يا ابن الخطاب ، فلو في غير هذا اليوم تفعل هذا لاضطمت عليك الأخشاب ، قال : فلما قلع أبو سفيان الحجارة ونقلها استقبل عمر القبلة ، وقال : الحمد لله الذي أعز الإسلام وأهله ، عمر بن الخطاب ، رجل منبني عدي بن كعب ، يأمر أبو سفيان بن حرب ، سيدبني عبد مناف بمكة ، فيطيعه ، ثم ول عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، انتهى من الأزرقى .

وقال الغازى نقلًا عن كتاب «بلغ القرى» ما يأتي : وفي صبح يوم الأحد الخامس عشر ذي القعدة سنة (٩١٥) حس عشرة وتسعمائة ، شق الأمير خير بك العمار المسعى وغيره ، ونادى بشيل القمام من أمام البيوت ، ثم مر على بيت الززمي فرأى أمام بيتهم بعض شيء من ذلك ، فسأل عن أصحابه فحضر إليه ثابت بن حسن بن ثابت الززمي ، فوشحه بعضاً ، ثم أمر به فوضع في الأرض ، فضربه تحت رجليه ، ثم مر على رباط السيد حسن بن عجلان فرأى شيئاً تحت جانبه مما يلي زقاق الحمام ، فنادى شيخ الرابط فحضر إليه شيخه ، وهو أحمد الفقيه بن عبد المعلى بن حسان فوضع الآخر وضربه تحت رجليه ، ثم مر على أوقاف الجمالى ناظر الخاص فرأى شيئاً من ذلك ، فسأل عن المتكلم عن ذلك ، فقيل محمد زمان ، فحضر ضربه على رجليه ضرباً كثيراً وطيف به البلاد . فلما رأى الناس منه ذلك ، بادروا بشيل ما تحت بيتهم ، وأمر بقطع أماكن كانت ضرورية بشيلها ، مثل زقاق التمر والزقاق الذي يجنب بيت جانبك باللذى يعني بقربه ، وتوعد الناس كثيراً ، وقيل عنه أنه قال : تفتح مكة فتحاً جديداً .

ويقول صديقنا الأستاذ السباعي في كتابه «تاريخ مكة»: وفي عام (١١٢٠) عشرين ومائة ألف من المحرقة ، فكر رجال الحكومة في مكة وعلى رأسهم الشريف عبد الكرييم بن محمد بن يغلن في توسيعة الشوارع ، فتدبرت لجنة لذلك ، كانت تدور في الأسواق ، لشرف على هدم الدكك الخارجية عن حدود الدكاكين والبيوت ، وإزالة المbastط من الأسواق ، وكذلك الأشرعة «الظلل» وقد استمر العمل على ذلك عشرة أيام . انتهى .

وقال الغازى : وفي ٢٥ صفر سنة (١٣٣٥) ، صدرت الأوامر السنوية لوكالة النافعة الجليلة ، بتوسيع شارع سوق المدعا ، وصرف ما يلزم للهدم والبناء ونقل الأنقاض ومشترى الأحشاب وبخارتها من صندوق وكالة النافعة . وفي ٢٥ ربيع الثاني انتهى إنشاء الشارع المذكور ، وبمجموع ما هدم وأعيد بناؤه من الدكاكين بعد توسيع الشارع ثلاثة وأربعون دكاناً من الجهة الشرقية ، مبتدأ من ركن دار الفتية إلى دكة المقسم ، وإحدى وثلاثين دكاناً من الجهة الغربية مبتدأ من ربع مغازل إلى دكة الشاذلي في سوق الحريرية ، وبلغ عرض الشارع بين عشرة أذرع ونصف وأثنى عشر ذراعاً ونصف . انتهى .

العلم الحجازي

العلم بفتح أوله وثانية ، واللواء بكسر اللام والمد ، والراية كلها . يعني واحد وبعضهم فرق بينها ، لكن التفرقة فيها عرفية ، فقيل: اللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية: ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح ، وقيل: اللواء دون الراية ، وقيل: اللواء العلم الضخم ، والعلم علامه لخل الأمير ، يدور معه حيث دار ، والراية يتولاها صاحب الحرب ، فالعلم هو شعار الأمم ورمز الحكومات من قديم العصور والأزمان ، وجميع الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية يجعل العلم في أرفع مكانة . وإن الجنود ، بمختلف فرقها ، مشاة وركباناً ، تنظر إلى علمها نظر افتخار واحترام ، ويؤدون له التحية في أوقات خاصة ، ويعتبرونه شرفهم الأسمى ، لذلك إذا مسحت الجنود إلى الحرب أو الطرقات تحمل كل فرقة منهم علمًا . ولقد كان لعقد اللواء بمكة شأن كبير في زمن الجاهلية ، فكان اللواء يهدى بين الدار ، ولقد كان المسلمون يوم فتح مكة ، تحمل كل كتبة راية ، وكانت الكتبة التي فيها رسول الله ﷺ ، يحمل رايتها الزبير بن العوام ، رضي الله تعالى عنه . ثم كان

رسول الله ﷺ يعقد الرایات لأمراء البعث و السرايا ففي الصحيحين لأعطین الرایة غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله و رسوله ويحبه الله ورسوله ، يعني علي بن أبي طالب ، قال يوم خير ، رواه سهل بن سعد ، رضي الله تعالى عنه .

ولقد جاء عن رایات رسول الله ﷺ في تاريخ الخميس ما يأتي :

وأما رایاته عليه السلام ، فالعقاب ، وكانت سوداء من صوف ، من ست باب عائشة . وقد مرّ في غزوة خير ، وكانت له ألوية بيضاء ورميًا جعل فيها السوداء ، ورميًا جعلت من خمر نسائه . وللتزمذى : رایته سوداء مربعة من ثمرة ، ولتحبي السنة : لواوه أيضًا مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولأبي داود: رؤيت رایته صفراء . انتهى منه .

قال في كتاب «التراطيب الإدارية» للحافظ المحدث الشهير السيد الكhani في الجزء الأول منه ، عن من حمل رایته ولواء ﷺ ما نصه : فمنهم أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والزبير بن العوام ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وقيس بن سعد بن عبادة ، ومصعب بن عمير وذلك مفرق في غزوته ﷺ ، أنظر سيرة ابن هشام والروض وغيره . انتهى منه .

وقال في كتاب «التراطيب الإدارية» المذكور ، عن ألوان رایاته ﷺ ما نصه : قال ابن إسحاق : دفع ﷺ اللواء يوم غزوة بدر الكبير إلى مصعب بن عمير ، وكان أيضًا ، وفي سنن النسائي وأبي داود ، عن حابر ، أنه كان لواوه ﷺ يوم دخول مكة أيضًا الأصفر ، وفي سنن أبي داود ، عن سماك بن حرب ، عن رجال من قومه ، عن واحد منهم ، قال : رأيت رایة النبي ﷺ صفراء الأغير . ذكر ابن جماعة ، في مختصر السير ، في باب : سلاح رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب والأخرى مع بعض الأنصار ، وذكر عبد الله بن حيان الأصبهاني في كتاب أخلاق النبي ﷺ عن الحسن : كانت رایة النبي ﷺ سوداء تسمى العقاب ، وفي تاريخ البخاري ، عن الحارث بن حسان ، قال : دخلت المسجد فرأيت النبي ﷺ قائماً على المنبر يخطب ، وفلان قائم متقلد السيف ، وإذا رایات سود تخفق ، قلت : ما هذا ؟ قالوا : عمرو بن العاص قدم من جيش ذات السلاسل . انتهى من كتاب التراطيب الإدارية المذكور .

وفي السنة الثامنة من الهجرة في شهر جمادى الأولى وقعت غزوة مؤتة ، وقد جعل ﷺ الأمير زيد بن حارثة ، فكان يده الرایة ، وقال ، عليه الصلاة السلام :

إن أصيب فالامير جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . فقاتل زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، حتى استشهد ، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل ، رضي الله تعالى عنه ، حتى استشهد ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل ، رضي الله تعالى عنه ، حتى استشهد .

ثم إن المسلمين اتفقاً على تأمير خالد بن الوليد ، رضي الله تعالى عنه ، فلما أخذ الراية قاتل يومه قتالاً شديداً ، وفي اليوم الثاني خالف ترتيب العسكر ، فجعل الساقية مقدمة والمقدمة ساقية ، والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، فظنّ الروم أن المدد جاء للMuslimين فأخذنهم الخوف والرعب ، ومكث عدة أيام يناوش الأعداء حتى تراجعوا وانقطع القتال .

ولقد أحير رسول الله ﷺ الناس باستشهاد الثلاثة المذكورين ، قبل أن يأتي خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب . وكانت عينا رسول الله ﷺ تذرفاً ، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيف الله حتى فتح الله عليهم . انتهى .

ولنشر الأعلام والآيات جاء ما نصه : (تبنيه) في تاريخ الوزير جودت باشا التركي الشهير نقاً عن تاريخ واصف أفندي ، مقالة يبيّن فيها ما كان للألوية من الاعتبار في الدول ، صدرها بقوله :

إن السر في إحداث السنن واللواء ، هو أنه إذا اجتمع قوم تحت لواء واحد يجعل بينهم الاتحاد ، بمعنى أن هذا اللواء يكون علامة على اجتماع كلمتهم ودلالة على اتحاد قلوبهم ، فيكونون كالجسم الواحد ، ويألف بعضهم بعضاً أشدّ من ائتلاف ذوي الأرحام ، وإذا كانوا في معركة القتال لا يأسون من الظفر ما دام لوازهم منشراً ، بل تقوى همتهم ويشتد عزمهم ، فإذا سقط لوازهم أخذوا من جانب العدو ، وباتوا موضوعاً للخوف والرعب ، فيهزم بعضهم ويتبليّد الآخر ، بخلاف ما إذا كان علمهم مرفوعاً خافقاً مزدهياً يتبعه به نقوسهم ، فتأخذهم شدة الفرح والبسالة ، وتسلط على أعدائهم هزمه الرعب فتأخذ مجتمع قلوبهم .

وكما أن الموسيقى العسكرية تعيش أرواحهم ، وتحثهم على الإقدام والشجاعة ، كذلك مناظر الألوية وتوجهها ، فإنها تحدث فيهم داعي العزة ، وتجعل لأعدائهم الدهشة والفتور . وكان جميع الأمم السالفة والدول الماضية ،

آلات موسيقية وأعلام عديدة ، ولم يكن في زمان النبي ﷺ موسيقى بل أعلام فقط .. الخ .

نقول : لقد كان استعمال الرایات في العصور السابقة في الجيش المقاتل فقط ، أما في عصرنا فإنها تستعمل في الحرب ، تأخذن الجيوش في القتال ، وتستعمل في الأعياد ، دينية كانت أو قومية ، وتستعمل عند استقبال الملوك وكبار الأمراء ، وترفع على دوائر الحكومات ودوارتها لدى المسلمين في كل يوم جمعة من كل أسبوع ، وترفع عليها في كل يوم أحد لدى المسيحيين . ولكل حكومة ودولة رايتها بشكل خاص ولون معروف ورسم مختار .

ترجمة خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه

جاء في الجزء السادس من شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، عن ترجمة خالد بن الوليد ، رضي الله تعالى عنه ، عند حديث : « لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعاذه - يعني الضبّ - » ما يأتي :

وأما راوي الحديث ، فهو خالد بن الوليد ، سيف الله الشجاع المشهور ، الذي يوزن بـألف رجل في الشجاعة ، رضي الله تعالى عنه ، وهو ابن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي ، يكفي أبا سليمان ، وأمه لبابة الصغرى بنت الحارث بن حرب الهملاوية ، وهي أخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب ، وهم أخوتا ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ ، كان أحد أشراف قريش في الجاهلية ، وكان إليه أعنابة الخيل في الجاهلية ، وشهد مع كفار قريش المuros إلى عمرة الحديبية ، كما ثبت في الصحيح أنه كان على خيل قريش طليعة ، ثم أسلم في سنة سبع بعد خير ، وقيل قبلها ، ووهم من زعم أنه أسلم سنة حمس ، وقد شهد غزوة مؤتة مع زيد بن حارثة ، فلما استشهد الأمير الثالث أخذ الراية فانحاز بالناس ، وخطب النبي ﷺ فأعلم الناس بذلك ، كما ثبت في الصحيح ، وكان الفتح على يديه ، وشهد مع رسول الله ﷺ ففتح مكة فأبلى فيه ، وجرى له مع بني خزيمة ما جرى ، ثم شهد حنينا والطائف في هدم العزى ، وله مئانية عشر حدثنا ، اتفق البخاري ومسلم على حدث واحد منها ، وهو هذا الحديث ، وانفرد البخاري بحدث موقوف عليه ، روى عنه ابن عباس وجابر والمقدام بن معدى كرب وقيس بن أبي حازم وعلقمة بن قيس وآخرون .

وأخرج الترمذى عن أبي هريرة ، قال : نزلنا مع رسول الله ﷺ متزلاً ، فجعل الناس يمرون فيقول رسول الله صلى الله عليه وآلہ وسلم : من هذا ؟ فأقول : فلان ، حتى مر خالد ، فقال : من هذا ؟ قلت : خالد بن الوليد ، فقال نعم ، عبد الله هذا سيف من سيف الله ، رجاله ثقات ، وأرسله النبي ﷺ إلى أكيدر دومة ، فأسره ، فأتى به وحقن له دمه وصالحه النبي ﷺ على الجزية . وأرسله أبو بكر إلى قتال أهل الردة فأبلى في قتالهم بلاءً عظيماً ، ثم لاه حرب فارس والروم فأثر فيهم تأثيراً شديداً وافتتح دمشق . وعن عروة قال : لما فرغ خالد من الإمامة أمره أبو بكر بالمسير إلى الشام فسلك عين التمر ، فسيى ابنة الجودي من دومة الجندي ، ومضى إلى الشام فهز عدو الله ، فاستخلفه أبو بكر على الشام ، إلى أن عزله عمر . وقد روى البخاري في تاريخه : أن عمر رضي الله تعالى عنه ، خطب واعتذر من عزل خالد ، فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة : عزلت عاماً استعمله رسول الله صلى الله عليه وآلہ وسلم ، ووضعت ما رفعه رسول الله صلى الله عليه وآلہ وسلم ، فقال عمر : إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك .

وأنشد ابن أبي الدنيا إلى قتادة ، قال : بعث النبي صلى الله عليه وآلہ وسلم ، خالد بن الوليد إلى العزى فهدمها ، وعقد أبو بكر ، رضي الله عنه ، لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة وقال : إني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآلہ وسلم ، يقول : نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيف الله سلّه الله على الكفار . وقال أحمـد : حدثنا حسـين بن عـلـيـ، عن زـائـدـةـ، عن عـبـدـالـلـكـ بـنـ عـمـيرـ، قـالـ: اسـتـعـمـلـ عـمـرـ أـبـاـ عـبـيـدـةـ عـلـىـ الشـامـ وـعـزـلـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ، قـالـ خـالـدـ: بـعـثـ عـلـيـكـمـ أـمـيـنـ هـذـهـ الـأـمـةـ، سـمعـتـ رـسـوـلـ اللهـ يـقـوـلـهـ. فـقـالـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ: سـمعـتـ رـسـوـلـ اللهـ يـقـوـلـ: خـالـدـ سـيفـ منـ سـيـفـ اللهـ نـعـمـ فـتـىـ الـعـشـيرـةـ، وـرـوـىـ أـبـوـ يـعـلـىـ عـنـ أـبـيـ أـبـيـ أـوـفـيـ رـفـعـهـ: لـاـ تـؤـذـواـ خـالـدـاـ فـإـنـهـ سـيفـ مـنـ سـيـفـ اللهـ، صـبـهـ اللهـ عـلـىـ الـكـفـارـ، وـأـخـرـجـ سـعـيـدـ بـنـ مـنـصـورـ أـنـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ فـقـدـ قـلـنـسـوـتـهـ يـوـمـ الـيـرـموـكـ، قـالـ: اـطـلـبـوـهـاـ. فـلـمـ يـزـلـ حـتـىـ وـجـدـوـهـاـ، فـإـذـاـ هـيـ خـلـفـهـ، فـسـئـلـ عـنـ ذـلـكـ قـالـ: اـعـتـمـرـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـسـلـمـ فـحـلـقـ رـأـسـهـ، فـابـتـدـرـ النـاسـ شـعـرـهـ، فـسـبـقـتـهـ إـلـىـ نـاصـيـتـهـ، فـجـعـلـتـهـ فـيـ هـذـهـ الـقـلـنـسـوـتـ، فـلـمـ أـشـهـدـ قـتـلـاـ وـهـيـ مـعـيـ إـلـاـ تـبـيـنـ لـيـ النـصـرـ، وـرـوـاهـ أـبـوـ يـعـلـىـ مـخـتـصـراـ، وـقـالـ فـيـ آخـرـهـ: فـمـاـ وـجـهـتـ فـيـ وـجـهـ إـلـاـ فـتـحـ لـيـ.

وقال ابن عبد البر ، في خبر إسلامه : وكان خالد على خيل رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، وكانت الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وخيبر بعلها في المحرم وصفر سنة سبع ، وكانت هجرته مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، فلما رأهم رسول الله ﷺ قال : رمتكم مكة بأفلاذ كبدها ، ولم يزل ، من حين أسلم ، يوليه رسول الله ﷺ أعناء الخيل ، فيكون في مقدامتها في محاربة العرب ، وجزم بأنه لا يصح لخالد بن الوليد مشهد مع رسول الله ﷺ قبل الفتح ، وبعثه رسول الله ﷺ إلى الغميسا ماء من مياه جنزة من بيبي عامر ، فقتل منهم ناساً لم يكن قتلهم صواباً ، فوداهم رسول الله ﷺ وقال : اللهم إني أبدأ إليك مما صنع خالد ، وخبره بذلك من صحيح الأثر ولم حديث ، وأخرج ابن عبد البر بإسناده إلى الشعبي عن عبد الله بن أبي أوفى ، قال : اشتكي عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبي ، عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا خالد لم تؤذني رجلاً من أهل بدر ، لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله ؟ قال : يا رسول الله إنهم يقعون بي فارداً عليهم ، فقال : لا تؤذوا خالدًا فإنه سيف من سيف الله صبه الله على الكفار .

وأخرج ابن سعد بإسناده إلى زياد ، مولى آل خالد ، قال : قال خالد عند موته : ما كان في الأرض من ليلة أحبّ إلى من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد ، وروى أبو علي بإسناده قال : قال خالد : ما ليلة تهدي إلى فيها عروس أنا حب أو أبشر فيها بغلام أحب إلى من ليلة شديدة الجليد ، فذكر نحوه ، ومن هذا الوجه عن خالد فقد شغلني الجهاد عن تعلم كثير من القرآن .

وكان سبب عزل عمر خالد ما ذكره الزبير بن بكار ، قال : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبيه بكر حسابة ، وكان فيه تقدم على أبيه بكر ، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر ، وقد أقدم على قتل مالك بن نويرة ، ونكح امرأته ، فكره ذلك أبو بكر ، وعرض الدية على متمن بن نويرة ، وأمر خالد بطلاق امرأة مالك ، ولم ير أن يعزله ، وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد ، ولما حضرت خالد بن الوليد الوفاة ، قال : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شير إلا فيه ضربة أو طعنة أو رمية ، ثم ها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العبر فلا نامت أعين الجناء .

وتوفي خالد بن الوليد بمحص ، وقيل بل توفي بالمدينة سنة إحدى وعشرين ، وقيل بل توفي بمحص ودفن بقرية على ميل من محص سنة إحدى وعشرين أو اثنين وعشرين ، في خلافة عمر بن الخطاب ، وأوصى إلى عمر بن الخطاب ، ثم قال : إذا أنا مت فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله تعالى ، قال في الإصابة : فلما توفي خرج عمر إلى جنازته ، فقال : ما على نساء آل الوليد أن يسفحن على خالد دموعهن ، ما لم يكن نفع ولا لقلة ، قال الحافظ بن حجر وهذا يدل على أنه مات بالمدينة ، قوله : ما لم يكن نفع ... الخ ، النفع : يوزن النفع الغبار أي ما لم يقع مع البكاء جعل الغبار على الرأس ، وما لم تقع لقلة وهي شدة الصوت كما قال أبو عبيد ، وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق .

انتهى من كتاب «زاد المسلم» من الجزء السادس .

نقول : لقد كان العلم المستعمل في الحجاز هو العلم التركي ، وهو علم رسم بوسطه صورة الهلال وبوسط الهلال نجمة واحدة . وكان هذا العلم مستعملاً في كافة البلدان التي تقع تحت حكم الدولة التركية العثمانية ، ومن ضمن هذه البلدان بلاد الحجاز ، فلما زال حكم الأتراك عن الحجاز في سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، بسبب قيام الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق بالنهضة المعروفة التي كانت في شهر شعبان من السنة المذكورة ، وصارت بلاد الحجاز مستقلة بنفسها ، اتخذ الشريف الحسين المذكور ، رحمة الله تعالى ، علمًا خاصًا لبلاد الحجاز وبعبارة أخرى علمًا خاصًا لحكومته المسماة بـ «الحكومة العربية الهاشمية» وشكل هذا العلم يتكون من أربعة ألوان ، من الأبيض والأسود والأخضر والأحمر .

وبسبب اختيار هذه الألوان الأربع لعلم الحكومة العربية الهاشمية ، هو ما جاء بجريدة القبلة ، التي صدرت بمكة المشرفة ، في عددها ٨٢ من السنة الأولى ، وهذا نصه :

اللون الأسود رمز راية العُقاب وهي راية النبي ﷺ المشهورة ، التي كان يتبرّك كبار الصحابة ، رضوان الله تعالى عليهم ، بحملها في حروبهم ، وهي التي أشار إليها أمير المؤمنين علي ، كرم الله تعالى وجهه ، بقوله ، عندما خاض حسين بن المنذر بهذه الراية المباركة :

لمن راية سوداء يخفق ظلّها إذا قيل قدّمها حصين تقدما
ويقدمها في الموت حتى يزيرها حياض المنيا تقطر الموت والدما
وقد اتخذت دولة بني العباس السواد شعاراً لها حتى عرفت به وعرف بها ،
واللون الأخضر الذي بين السواد والبياض ، هو الشعار الذي اشتهر عن أهل
البيت ، عليهم السلام منذ أحقياب طويلة ، والبياض أيضاً كان شعاراً للعرب في
دور من أدوارهم .

وأما اللون الذي شمل هذه الرموز التاريخية الثلاثة بشكل «مُثلث» فهو لون
راية الأسرة المالكة الكريمة ، من عهد جدها ساكن الجنان الشريف أبي نعي إلى
عهدهنا هذا .

وعلى ذلك ، فإن الراية الجديدة ، التي صدرت الإرادة السنوية للملكية بأن
تكون راية الحكومة العربية الماشية ، قد لوحظ فيها أن تكون جامعة لرموز
الاستقلال العربي في كل أدواره التاريخية . اهـ .

انتهى من كتاب "تاريخ الحجاز" للأستاذ حسين نصيف .

ثم لما تولى جلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ،
على البلاد الحجازية في سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من المحررة ،
صار للبلاد الحجازية ، بل للملكة العربية السعودية ، علم آخر غير العلم التقديم
ذكره ، وهذا العلم السعودي بلون واحد فقط وهو اللون الأخضر ، مكتوب عليه
كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» في سطر واحد ومرسوم تحتها
صورة السيف ، وهو شعار لطيف ، فقد كان لواء النبي ﷺ الأبيض مكتوباً عليه
«لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

بعض ما قيل في العلم:

واليعلم والعدل والمعروف والهمم
وشاهداك السيوف الحمر والأمم
تقبيل طياتك الأفواه والنسم
لاذوا بظلّك فخرأً أيها العلم
معقل العزّ والمعالي السنّيه
بثبات يد الزمان القويه
حيثت يا علماً تخبي النقوس به
خفقت فوق رؤوس الجيش متصرأً
لا زلت في الحرب خفاقاً تخنّ إلى
ولا برحت شعاراً للعلا ولمن
يا لسوء الأمان والنصر بل يا
زاحم النجم في المراتب واغلب

ياللواه بك افتخرت اعتزاً
نصرت يا علماً تسمو البلاد به
تنزلت لعُلاك الصعب وانجحست
حيّاك حيّاك رب الناس من علمٍ
ما قيل في الراية :

أَمْ مِنْ شَغَافٍ قَلْوِيهِمْ نَسْجُوكَ
حَرَيْةَ الْقَوْمِ الْأَلَى وَضَعْوَكَ
يَفْسَاحُونَ بِهِ إِذَا نَظَرُوكَ
بَاعُوا نُفُوسَهُمْ وَمَا بَاعُوكَ
أَنَّ الْخَلُودَ جَزَاءٌ مِنْ نَصْرُوكَ
أَنَّ الْمَلَكَ عِقَابٌ مِنْ خَذْلُوكَ
أَمْنَ الْعَيْوَنَ وَنُورَهَا صَنْعُوكَ
وَضَعْوَكَ فِي مَرَّ النَّسِيمِ لَتَعلَمَي
مِنْكَ اسْتَمْلَوْا الْمَحْدُ وَالشَّرْفُ الَّذِي
إِذَا هُمْ عَرَضُوكَ فِي سُوقِ الرُّغْبَى
إِنْ ماتَ قَوْمٌ فِي سَبِيلِكَ أَيْقَنُوا
يَتَسَابَقُونَ إِلَى الْقِتَالِ لِعِلْمِهِمْ
انتهى .

ولنشر الأعلام والرياحات لدى الدول والحكومات ، اصطلاحات ونظام خاص في الحفلات والأعياد والمناسبات الشتى ، من استقبال وانتصار ووفاة العظماء ووصول البوارج والبوارج الحرية إلى الموانئ البحرية وإيقاعها عنها وغير ذلك .
ويعرف هذه الاصطلاحات المسؤولون والقائمون بالأعمال .

إسنعمل الطوابع البريدية في الحجاز

كانت الطوابع ، بجميع أنواعها ، مستعملة في الحجاز ، منذ عهد الحكومة التركية ، فلما استقلَّ الحجاز بنهاية الشريف الحسين بن علي ، ملك الحجاز الأسبق ، رحمة الله تعالى ، في سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، صدرت ، في هذا العهد الجديد ، أنواع الطوابع البريدية . وكانت تستعمل في الرسائل البريدية والعرائض الشخصية والمسائل الرسمية .

انظر: صورة رقم ٢٢٧ ، بعض طوابع الحكومة التركية التي كانت تستعمل في الحجاز إلى سنة ١٣٣٤ هـ

ثم لما تولى الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، على الحجاز سنة (١٣٤٣) ثلات وأربعين وثلاثمائة ألف من الهجرة ، صدرت طوابع جديدة في عهده بجميع أنواعها وبأثمان مختلفة .

انظر : صورة رقم ٢٢٨ ، بعض طوابع الحكومة السعودية التي تستعمل من عام ١٣٤٣ هـ إلى يومنا هذا

ولا تزال هذه الطوابع مستعملة ، في جميع المملكة العربية السعودية ، حتى اليوم ، وبين وقت وآخر تصدر بعض أنواع منها لمناسبات مختلفة ، ونحن قد اكتفينا هنا بعرض بعض الطوابع خوفاً من التطويل ، ومن أراد الاطلاع على جميع ما صدر من الطوابع في مملكتنا فعليه بالاتصال بهوا الطوابع وهم كثيرون في كل قطر وملكة .

فمن اشتهر في مملكتنا بجدة بجمع الطوابع والاشغال بها صديقنا المحترم الشيخ عبدالرحمن كتوعة . فله ذوق حسن وترتيب مبكر ، فإنه يكتب بعض الآيات أو الأحاديث النبوية وبعض الحكم والأمثال على كرتون - ورق مقوى - أو على خشب . ثم يفرغ حروفها ، ويصلق عليها أنواع الطوابع المختلفة ، من جميع البلدان و مختلف الأثمان والألوان ، فتخرج الكتابة وعليها مسحة من الجمال الفني والابتكار البديع .

ولننقل عن تاريخ الطوابع في المملكة العربية السعودية منذ قيام الحرب العالمية الأولى ، وذلك من «مجلة الثقافة الإسلامية» الصادرة في ١١ شوال سنة ١٣٧٦ هـ الموافق ١١ مارس سنة ١٩٥٧ م . في العدد الخاص بالمملكة العربية السعودية ، بقلم الأستاذ صالح الحاج هادي التميمي ، عضو جمعية هوا الطوابع العراقية ، فقد جاء فيها ما نصه :

(١) صدرت أول مجموعة طوابع حجازية سنة ١٩١٦ ميلادية ، وكانت سبعة طوابع تتراوح فئاتها بين (ثمن قرش وقرش واحد) مع العلم بأن هذه الطوابع تحمل كلمة «مكة المكرمة» .

(٢) سنة ١٩١٧ ميلادية صدرت مجموعة أخرى من ستة طوابع ، تحمل أشكالاً مختلفة ، وتتراوح بين الbara الواحدة والقرشين .

(٣) سنة ١٩٢٢ ميلادية وشحت الطوابع الستة الماضية بكلمة (الحكومة العربية الهاشمية) وينظر على طرف الطابع سنة ١٣٤٠ هجرية .

- (٤) سنة ١٩٢٢-٢٤ ميلادية صدرت مجموعة جديدة ، ذات زخارف جميلة ، تتراوح قيمتها بين (ثمن قرش وعشرة قروش) وكان عددها عشرة طوابع .
- (٥) سنة ١٩٢٤ ميلادية وشحت الطوابع الماضية ، عدا ثلاثة فئات منها ، بعبارة (تذكار الخلافة) وتحتها (شعبان) وثم تاريخ السنة أي (١٣٤٢) هجرية . وفي تلك السنة وشحت الطوابع العشرة الماضية بالكلمات (الحكومة الحجازية ٥ ربيع الأول (١٣٤٣)) .
- (٦) سنة ١٩٢٥ ميلادية وشحت طوابع علي بن الحسين على طرفي الطابع الكلمات (٥ ربيع الأول) و (١٣٤٣) في داخل إطار ، وبعدها صدرت بعض المجموعات كتب عليها مستحق (ضريرية) .
- وفي هذه السنة ظهرت طوابع في هذه السنة تحمل الكلمات (تذكار الحج الأول ١٣٤٣ عهد السلطنة النجدية) .
- (٧) سنة ١٩٢٦ ميلادية صدرت طوابع (بريد الحجاز ونجد) وهي بزخارف جميلة وعددتها ستة طوابع . وصدرت في تلك السنة طوابع موشحة للطوابع الماضية ، بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي ٣ ذي القعدة سنة ١٣٤٣ هجرية .
- (٨) سنة ١٩٢٧-٢٦ ميلادية صدرت ثمانية طوابع تحمل اسم المملكة العربية ، وتتراوح بين فئات (ثمن قرش وعشرة قروش) .
- (٩) سنة ١٩٣٤ ميلادية صدرت أول مجموعة تحمل اسم المملكة العربية السعودية ، وعددتها اثنى عشر طابعاً ، وهي تذكارية ، إذ تحمل الكلمات (ذكرى مبادعة ولادة العهد) .
- (١٠) صدرت طوابع للبريد سنة ١٩٣٤-٤٣ ميلادية وعددتها ١١ طابعاً تتراوح فئاتها بين (ثمن قرش - ٢٠٠ قرش) وهي تستعمل لحد الآن .
- (١١) سنة ١٩٤٦ ميلادية صدر طابع واحد تذكاري من فئة نصف قرش ، ويحمل صورة خارطة المملكة العربية السعودية والحميات (شبه جزيرة العرب) . وقد صدر بمناسبة (عودة جلاله الملك إلى عاصمة مملكته) .
- (١٢) سنة ١٩٤٩ ميلادية صدرت أول مجموعة للبريد الجوي ، وت تكون من ستة طوابع تتراوح بين القرش ومئة قرش ، وهي تحمل صورة طائرة .

(١٣) سنة ١٩٥٠ ميلادية صدر طابعان بمناسبة زيارة ملك الأفغان لل سعودية ، ويحمل شعارات الأفغان وال سعودية . وهي من فئة نصف قرش و ثلاثة قروش . وهذه الطوابع تذكارية .

(١٤) سنة ١٩٥١ ميلادية صدر طابعان بمناسبة زيارة الملك عبد الله (ملك الأردن) للسعودية ، ويحمل شعري الأردن وال السعودية ، وهي من فئات نصف قرش وثلاثة قروش . وهذه الطوابع تذكارية .

(١٥) سنة ١٩٥٢ ميلادية صدرت خمسة طوابع للسكك، وتحمل صورة قطار وجمل، وتتراوح فئاتها بين نصف قرش و ٢٠ قرش، مع العلم بأنها صدرت بعض الجاميع للطوابع الحكومية (الرسمية) وطوابع للإسعاف وهذه تعتبر من الطوابع المالية لا البريدية، ولكن بعض الكتلوكات تأخذها على اعتبار بأنها بريدية. انتهى من الجملة المذكورة.

طوابع البريد التي تحمل صورة الكعبة المعظمة

لأول مرة في التاريخ ، تطبع بعكة المكرمة الطوابع البريدية ، التي تحمل صورة الكعبة المعظمة . إنها لرمز وحيد فريد مشرف . وكان طبعها في سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية ، وهذه الطوابع ، التي تحمل صورة الكعبة الشريفة ، طبعت على ثلاثة أنواع ، كل نوع منها بلون مغاير للآخر ، فالنوع الأول من قيمة أربعة قروش ، والنوع الثاني من قيمة ستة قروش ، والنوع الثالث من قيمة عشرة قروش ، وربما في المستقبل ، تطبع منها بأثمان مختلفة .

ونقترح على المسؤولين أنهم إذا طبعوا هذه الطوابع مرة ثانية ، أن يرسموا عليها أجمل صورة للكعبة ، ولا بأس أن يظهر فيها صورة المizarب وحجر إسماعيل . لأن الشيء يكون بحسن منظره . والله الموفق .

بلد استعمال طوابع البريد في العالم

جاء في مجلة اسمها «على كيفك» التي صدرت بمصر في ١٥ فبراير عام ١٩٣٩ ميلادي ، في العدد العاشر ، تحت عنوان «طوابع البريد قصة ميلادها-بدء هواية جمعها- الطابع الذي كان سبباً في حفر قناة بناما» ما يأتى :

كان أول من فكر في إصدار طوابع البريد عالم رياضي يدعى البروفسور رولند هيل ، وقد أتته الفكرة فجأة حينما كان يقضي إجازته في إحدى قرى اسكتلندية سنة (١٨٣٨) م.

وأتفق أنه كان واقفاً في الطريق ، عندما وصلت عربة البريد ، فرأى الغلام الموزع يسلم الخطابات والرسائل لأصحابها الملتقطين حوله ، وهو قابع في مكان الحوذى في أعلى العربة ، وكانت بين الجمهور فتاة جميلة ، ذات شعر أحمر ، تدعى ماري ، جاءت هي الأخرى لترى هل من خطابات لها ، فأعطتها ساعي البريد خطاباً تلقفته بلهفة ، وراحت تقلبه برهة بيدها أمام الحاضرين ، ثم للهشة الجميع ردته إليه وعلامات الألم بادية على محياتها وقالت : «يجب أن أعيدك إليك لأنني لا أملك نقوداً». فرثى مستر رولند حال الفتاة ، وتُطْرُوَّن لدفع أحراة البريد عنها ، فتسلمت الرسالة من جديد بعد أن مانعت طويلاً في قبول المساعدة.

ولما مضت العربية ، قالت ماري للمحسن : «كان يجب عليك أن لا تدفع شيئاً» فاستغرب رولند وسألها : «ألا تريدين قراءة الخطاب؟» فأجابته : «بالطبع كلا ، لأنني قرأت أمام الجميع». ثم فتحت الخطاب أمامه فإذا به يحوي قطعة من الورق بيضاء لا كتابة عليها ، وفسرت الأمر قائلة : «خطيبي جندي يعمل في معسكرات ويلز ، واعتقد أن يكتبني أسبوعياً ، ولذا وجب عليّ أن أدفع عشرة قروش كل مرة ، إذا أردت أن أحصل على الخطاب. وتصور يا سيدي أن هذه القيمة تعادل مرتبى الأسبوعي ، فمن أين لي الحصول على مأكلى ومشربى وملبسى ، لو ذهب هذا الراتب رسوماً للبريد؟ ولذا استبطنا نحن الآنان نوعاً من الأصطلاحات الجفرية ، نضعها على الغلاف ، وتفاهم بها ، فمثلاً دائرة صغيرة حول الحروف الأولى من اسمى تعنى «أحبك» وإذا كان هناك خط تحت اسم المرسل ، وهو خطبي ، فمعنى ذلك : «أن الأمور ليست على ما يرام» وصليب صغير في الركن الأيسر من الغلاف يدلّ على عكس ذلك . وهكذا وبهذه الطريقة يمكننا تبادل الرسائل دون أن ندفع ملیماً واحداً . فحالما استلم الخطاب أقبله بيدي وأقرأ ما عليه من علامات ، دون أن يفطن أحد ، ثم أعيد إليه الخطاب متظاهراً بالحزن ، لعدم إمكانني دفع القيمة ، وأظنك رأيتني وأنا أقوم بالدور فما رأيك؟» فقال هيل : «الفكرة شيطانية طريفة ، ولكن عيدها أن الحكومة وأصحاب امتياز البريد يتحملون مصاريف خطاباتكم». وافتقر هيل عن الفتاة ، بعد أن قرر في

نفسه أن يستخدم كل موهابه العقلية لحل هذه المشكلة وقطع دابر التلاعب ، وفكـر في أنه لو لم تكن أحـرة البرـيد ، التي يـدفعها المرـسل إـليـه ، باهـظة جـداً لـما ارتكـبت تلك الفتـاة ، بـداعـعـ الفـقـرـ ، ذـلـكـ الأـمـرـ الشـائـنـ ، وـهـوـ السـرـقةـ ، ولـمـ كـانـ عـدـ من يستـخدـمـونـ البرـيدـ فـيـ توـصـيلـ رسـائـلـهـمـ ضـئـيلاـ جـداـ . وـفـكـرـ طـوـبـيلاـ فـيـ هـذـهـ العـقـدةـ حتـىـ توـصلـ إـلـىـ حلـهـاـ . فـسـارـعـ وـطـلـبـ الـاـذـنـ فـيـ مـقـابـلـةـ أـحـدـ الـوزـراءـ ، فـأـجـبـ طـلـبـهـ . وـبـعـدـ أـنـ شـرـحـ لـلـوـزـيرـ حـكـاـيـةـ الفتـاةـ ، وـارـتـفـاعـ أـجـورـ البرـيدـ ، قـالـ : أـرـىـ يـاـ معـالـيـ الـوـزـيرـ أـنـ يـجـبـ أـلـاـ يـزـيدـ أـجـرـ المـخـاطـبـ الـواـحـدـ عـلـىـ ماـ يـعـادـلـ أـربعـ مـلـيـمـاتـ ، وـلـكـيـ غـنـمـ الـتـلاـعـبـ مـنـعـ بـاـتاـ ، يـجـبـ أـنـ يـدـفعـ الـمـرـسـلـ الـقـيـمـةـ مـقـدـمـاـ ، وـطـرـيـقـةـ ذـلـكـ أـنـ يـشـتـريـ قـطـعـةـ مـنـ الـوـرـقـ ، عـلـىـ أـحـدـ وـجـهـيـهـاـ هـذـهـ الـعـبـارـةـ : «ـقـيـمـةـ الـبـرـيدـ خـالـصـةـ»ـ . أـمـاـ الـوـرـقـ الـآـخـرـ فـيـغـطـيـ بـالـصـمـعـ لـيـلـصـقـ عـلـىـ الـغـلـافـ ، وـمـاـ عـلـىـ إـدـارـةـ الـبـرـيدـ ، حـالـمـاـ تـسـلـمـ الـخـطـابـ ، إـلـاـ أـنـ تـلـغـيـ هـذـهـ الـوـرـقـةـ ، لـثـلـاـ تـسـتـعـمـلـ مـرـةـ أـخـرـىـ ، ثـمـ عـرـضـ عـلـىـ الـوـزـيرـ غـنـوـذـجـاـ مـنـ اـخـتـرـاعـهـ لـمـ يـجـبـ أـنـ تـكـوـنـ عـلـيـهـ هـذـهـ الـوـرـقـةـ . وـكـانـ مـرـبـعاـ صـغـيـراـ مـنـ الـوـرـقـ ، عـلـىـ أـحـدـ وـجـهـيـهـ رـسـمـ يـشـبـهـ الـمـلـكـةـ فـيـكـوـرـيـاـ ، أـمـاـ الـوـرـقـ الـآـخـرـ فـكـانـ مـغـطـيـ بـالـصـمـعـ . وـهـنـاـ اـعـتـدـلـ الـوـزـيرـ فـيـ جـلـسـهـ ، وـسـأـلـ الـمـخـترـعـ مـتـهـكـماـ : «ـإـنـ لـمـ أـخـطـعـ فـحـضـرـتـكـ أـسـتـاذـ رـيـاضـيـاتـ؟ـ»ـ فـقـالـ هـيـلـ : «ـبـالـطـبعـ ، كـمـاـ تـقـولـونـ مـعـالـيـكـمـ»ـ . فـقـالـ الـوـزـيرـ لـهـ : «ـإـذـنـ يـاـ سـيـدـيـ يـمـكـنـكـ أـنـ تـقـنـعـ نـفـسـكـ بـحـسـبـةـ بـسيـطـةـ ، وـأـنـتـ فـيـ مـنـزـلـكـ ، بـعـدـ فـائـدـهـ هـذـاـ الـاخـتـرـاعـ»ـ .

ولـمـ رـأـيـ الـمـخـترـعـ أـنـ هـذـهـ الـمـقـابـلـةـ لـمـ تـمـ ثـمـرـةـ الـمـرـجـوـةـ ، قـرـرـ أـنـ يـقـومـ بـالـدـعـاـيـةـ لـمـشـرـوعـهـ ، بـنـشـرـ كـتـابـ خـاصـ عـنـهـ ، مـدـعـمـاـ بـالـإـحـصـائـيـاتـ . وـاستـعـانـ بـطـلـبـهـ عـلـىـ تـوزـيعـ نـسـخـ الـكـتـابـ . وـمـنـ الغـرـيـبـ أـنـ الـحـكـوـمـةـ الـبـرـيـطـانـيـةـ قـبـضـتـ عـلـىـ بـعـضـهـمـ بـتـهـمـةـ تـوزـيعـ الـكـتـابـ ، وـمـعـ ذـلـكـ فـيـانـ الـمـشـرـوعـ وـجـدـ كـثـيرـينـ مـنـ الـخـبـدـيـنـ وـالـأـنـصـارـ ، فـاـنـهـاـتـ الرـسـائـلـ عـلـىـ إـدـارـةـ الـبـرـيدـ ، تـطـالـبـهـاـ بـتـقـرـيرـ الطـابـعـ ذـيـ الـأـرـبـعـ الـمـلـيـمـاتـ ، وـمـنـ الـفـقـاتـ الـتـيـ اـقـرـحـهـاـ الـمـخـترـعـ . وـلـمـ يـقـفـ الـأـمـرـ عـنـدـ هـذـاـ الـحـدـ بـلـ قـامـ الـمـظـاهـرـاتـ تـطـالـبـ الـحـكـوـمـةـ بـتـنـفـيـذـ الـمـشـرـوعـ عـلـىـ وـجـهـ السـرـعةـ . وـحـدـثـتـ مـعـارـكـ فـيـ الـطـرـقـاتـ وـالـشـوارـعـ ، وـالتـحـمـ الـبـولـيـسـ بـالـأـهـالـيـ ، وـكـادـتـ تـمـدـثـ فـتـةـ ، لـوـ لـمـ يـصـلـ خـيـرـ الـاخـتـرـاعـ وـذـيـولـهـ إـلـىـ مـسـامـ الـمـلـكـةـ فـيـكـوـرـيـاـ ، فـأـرـسـلـتـ تـسـتـدـعـيـ الـأـسـتـاذـ الشـابـ لـلـتـشـرـفـ بـمـقـابـلـةـ جـالـلـهـاـ ، وـلـيـعـرـضـ عـلـىـ مـسـامـ الـمـلـكـةـ تـفـاصـيلـ اـخـتـرـاعـهـ الـعـجـيبـ ، الـذـيـ أـقـامـ الـإـمـرـاطـورـيـةـ وـأـقـدـهـاـ . وـتـشـرـفـ الـمـخـترـعـ بـالـمـقـابـلـةـ . وـأـطـبـ فيـ شـرـحـ اـخـتـرـاعـهـ أـمـامـ جـالـلـهـاـ ، وـحـدـثـهـاـ عـنـ حـلـمـهـ الـجـمـيلـ فـيـ أـنـ تـكـوـنـ

كافة أجزاء الامبراطورية البريطانية متصلة برباط البريد الحيّ، نظير فة واحدة، تكون في متناول الجميع، ولا يعجز عنها الفقير . واسترسل في تعداد ما ستفيده صناعة بريطانيا العظمى وبتجارتها من هذا الاختراع الجليل الشأن ، وختم كلامه بأن عرض على جلالتها مربعاً صغيراً من الورق الأسود ، يحمل صورتها بالحبر الأحمر . وكان هذا أول طابع في العالم من فئة (البنس) أو الأربع مليمات . وبعد أن فكرت جلالتها طويلاً، والمحترع أمامها لا يدري حراكاً ، في انتظار الحكم السامي ، التفت إليه ، وقالت : «أطن أن مشروعك معقول وعملي معًا . وسأساعدك في مجلس الوزراء ، ولكن هذه الصورة (مشيرة إلى صورتها بالحبر الأحمر) يجب أن تكون أجمل مما هي عليه الآن» . وبهذا أثبتت جلالتها أنها امرأة كما أنها ملكة ، وتحقق حلم هيل ، وجاء اليوم الموعود في ٦ مايو سنة (١٨٤٠) الذي عرضت فيه الطوابع فئة أربعة مليمات للبيع ، لأول مرة ، وفي أقل من شهرين تضاعف عدد الخطابات والرسائل ، حتى بعد عشر سنوات صارت عشرة أضعافها . وازدادت إيرادات البريد البريطانية من (٧٠) ألفاً من الجنيهات إلى (٧٠٠) ألف من الجنيهات . وما حلّت سنة ١٨٤٩ حتى كانت طوابع البريد انتشرت في كل مكان ، وبدأت بمدينتي زوريغ وجنيف السويسريتين ، والبرازيل ثم بفاريا وفرنسا ومعظم أقطار أمريكا الشمالية . ولم تمض سنوات قلائل حتى كان هناك (٢٠) نوعاً من طوابع البريد المستعملة .

وهنا ظهرت هواية جمع طوابع البريد ، وتقدّم الهواة في ابتكار الحيل الطريفة ، للحصول عليها ، وهنا ساق المجلة المذكورة حكايتين :

الأولى : تتلخص أن أحداً منهم نشر في جريدة التيمس الإنجليزية ، في أحد أيام سنة (١٨٤١) أنه من هواة الطوابع ، وأنه بلغ من العمر عتيّاً ، وهو من كبار المثريين ، قد هدد ابنته الشابة بأنها إن لم تأته ، في ظرف سنة واحدة ، بخمسين ألفاً من طوابع البريد المصومة بالإمساء ، فسيزج بها في إحدى الأديرة النائية ، مدى الحياة . وكان من مفعول هذا الإعلان أن انهالت الطوابع المحتومة بكثرة هائلة ، من جميع أنحاء العالم ، على ابنته ، رحمةً بها ومساعدةً لها . وبهذه الحيلة جمع الرجل كمية هائلة من طوابع البريد من جميع أنحاء العالم .

الثانية : تلخص أنه في سنة ١٩٠٢ ، كان البرلمان الأميركي (الكونجرس) يتناقش في مشروع حفر قناة في بربادوس أميركا الوسطى . وقد انقسم الأعضاء إلى قسمين : قسم يريد أن تشق القناة في منطقة بناما ، والآخر في نيكاراجوا .

فالقسم الأول يزعم أن شق القناة في منطقة نيكاراجوا لا فائدة فيها ، بل يذهب المشروع والتكاليف هباء ، لأن الأرض بركانية فشل في ذلك المنطقه ، ثم إن أحد أعضاء القسم الأول عشر ، في أحد حوانيات بيع طوابع البريد ، على طابع بريدي ، مما تصدره جمهورية نيكاراجوا . وكان يمثل بركان (مونو تومبو) الواقع في الطريق المزمع شق قناة نيكاراجوا . وهذا الطريق معرض لخطر ثوران البركان ، من حين لآخر ، فكان العثور على هذا الطابع ، وإطلاع أعضاء المجلس عليه مؤيداً لرأي القسم الأول ، وهو شق القناة في منطقة بناما . وعليه وافق المجلس على هذا الرأي بالإجماع . انتهى ما ذكرته المجلة المذكورة .

جمع خطوط التوقيعات والإمضاءات

ومناسبة ذكرنا للطوابع و هوتها ، نذكر هنا هواة «الأتوغراف» بضم الهمزة والباء المدودتين وإسكان الجيم ، وهي كلمة إفرنجية معناها جمع توقيعات وإمضاءات المشاهير من الرجال والنساء .

وأول بدء العناية بجمع الإمضاءات بخط يد أصحابها المشاهير ، كان في فرنسا ، في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، ثم انتشرت هواية الناس بجمعها ، في أوائل القرن العشرين للميلاد ، أي: عند ظهور السينما ، فقد كان الغربيون يقبلون إقبالاً عظيماً على المشتغلات في السينما ، منهنّ شهرة واسعة وجمال رائع ، حتى أن بعضهنّ ، لما كثر الإقبال عليهمّ ، صرن يعنّ إمضاءاتهنّ ببالغ خيالية . فلقد اشتري بعضهم إمضاء النجمة «إيزادورا دنكان» ذات الشهرة الواسعة ، التي أمضتها على تذكرة مسرح ، بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه . اشتراها تاجر فحوم من نيوكاسل بإنجلترا .

وكان النجم «رامون نوفارو» والنجمة «كلارا بو» من أشهر نجوم هوليوود منذ ربع قرن ، عاش كل منهما نصف حياته هدفاً هواة جمع التوقيعات ببالغ طائلة ، ولقد أصبح اليوم «بورصة» للتوفيقعات والإمضاءات تباع فيها وتشتري .

أما البلدان العربية فقد سرت الرغبة عند بعض الناس جمع توقعات المشاهير، فيجمعون إمضاءات الملوك ورؤساء الدول والوزراء والأمراء وكبار العلماء، وكذلك إمضاءات الفنانين والفنانات على اختلاف طبقاتهم وتتنوع فنونهم.

ونحن نرى أنه لا يجتمع خطوط وإمضاءات العظماء والمشاهير، في كل علم وفن، بل وصورهم ورسومهم أيضاً، «فلناس فيما يعشرون مذاهب» إذ الواقع أننا لو عثينا على كتاب أثري قديم يرجع تأليفه إلى نحو خمسة عشر سنة أو أكثر، فإن من الكتاب يكون بحسب قدمه أولاً، ثم بحسب نوع المعلومات التي تكون فيه، فإذا كان هذا الكتاب ينطوي نفس مؤلفه كان منه ماضياً بدون شك.

فجمع الإمضاءات في حد ذاته ليس فيه شيء مطلقاً، فهو من قبل اقتداء بعض الأمة النادرة والأشياء الأثرية، أما إذا نظرنا إلى شراء الإمضاءات والتوقعات بمبالغ كبيرة، فقد يكون ذلك من الإسراف الذي لا يقرره الشرع الشريف. ولا نبالغ إذا قلنا أن ذلك من الجنون، وقد قيل في المثل: «الجنون فنون».

ولنا في هذا الموضوع اقتراح لطيف وهو:

إننا نجد كثيراً أن يكون لدى كل أمة من الأمم، عربية أو غير عربية، سجلات رسمية خاصة، تجمع فيها صور ملوكها وعظمائها ومشاهيرها من العلماء والفنانين والتجار والمخترعين، وأن يكون تحت كل صورة صحيفة واحدة ينطوي يده أصحابها، مع توقيع اسمه الصريح، وإمضائه المشبك، الذي اعتاد توقيعه بشكل خاص في خطاباته الخاصة ومعاملاته الرسمية، وأن يكتب تحت كل صورة ملخص تاريخ أصحابها. وأن يكون من هذه السجلات بعضها في مكاتب الملوك الخاصة، وبعضها في المكتبات العامة، ليسهل للباحثين والمورخين الاطلاع عليها. ويشبه هذا تقريراً بدفتر الزيارات، التي اصططاح الناس على استعماله في المتاحف والمكتبات ومحورها. فتفيد هذا الاقتراح من الحكومات، بصفة رسمية، سيكون له نفع عظيم للأجيال القادمة والأمم الآتية. ولthen كان هذا حديث عهد اليوم وأمر عادي عندنا، فإنه لرجال المستقبل أمر ذو بال، وأثر خالد يعتزون به. والله تعالى أعلم بما كان وما يكون فإنه سبحانه علام الغيوب، وغفار الذنوب وستار العيوب، لا إله إلا هو العزيز الغفار.

تاريخ النقود منذ صدر الإسلام

بمناسبة ظهور أول عملة ورقية سعودية في سنة (١٣٧٢) اثنين وسبعين وثلاثمائة ألف من المجرة ، أححبنا وضع كتاب عن النقود العربية ، ولكن أشغالنا الكثيرة حالت دون ذلك . فلما اشتغلنا الآن بتأليف كتاب عن تاريخ مكة ، كان لزاماً علينا أن نتناول الكلام على النقود المتداولة في الحجاز ، في الوقت الحاضر ، والنقود التي كانت في صدر الإسلام .

وقد ظهر من أنواع النقود الآن عدّة أنواع ، من الذهب والفضة والنحاس والنحاس والورق ، (فتح الواو) ، وإن شاء الله تعالى ستكلّم هنا بالتفصيل عن كل ذلك . ولنبأ الآن في الكلام عن النقود في صدر الإسلام . فنقول وبالله التوفيق :

وأما النقود العربية في صدر الإسلام ، فقد اختلف الكلام عنها ، ونرى أن ما جاء في كتاب «التراطيب الإدارية» للعلامة الحدّيث الشهير الشيخ الكاهاني الفاسي كافي لكل من أحب الإمام عن تاريخ النقود العربية ، فقد أتى فيه من التفصيل ما فيه الكفاية . لذلك أححبنا أن ننقل هنا ما جاء في الكتاب المذكور ، عن النقود العربية . . . وإليك نص كلامه عنها ، بصحيفة (٤١٣) من الجزء الأول :

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية ، في جواب سئله في سنة (٦٦)، قال أبو عبيد القاسم بن سلام ، عن بعض شيوخه : «إن الدرهم كانت على عهده ، عليه السلام ، على نوعين : السوداء الدامية ، وزن الدرهم منها مئانية دوائق ، والطيرية ، وزن الدرهم منها بأربعة دوائق». قال: وكان الناس يزكون بشطرين من الكبار والصغر .

قال أبو العباس العزفي : قال أبو جعفر الداودي : وذكر قول من قال : إن الدرهم لم يكن معلوماً في زمان النبي ﷺ ، هذا قول فاسد ، لم يكن القوم ليجهلوا أصلًا من أصول الدين ، فلا يعلمون فيه نصًا وقد كان للنبي ﷺ السعاة ، فلا يجوز أن يظن بهم جهل مثل هذا ، ولم يأت ما قاله من طريق صحيح . وقال أبو عمر ابن عبد البر وعياض . لا يجوز أن تكون الأوقية على عهد رسول الله ﷺ مجھولة المبلغ من الدرهم في الوزن ثم يوجب الركاة عليها ، وهو لا يعلم مبلغ وزنها ، وقع بها البيوعات والأنكحة ، وهذا يبين أن قول من قال أن الدرهم لم تكن

معلومة إلى زمن عبد الملك، حتى جمعها برأي الفقهاء وهم ، وإنما معنى ذلك أنها لم تكن من ضرب أهل الإسلام ، وعلى صفات لا تختلف ، وإنما كانت بجموعات من ضرب فارس والروم ، وصغار وكبار أو قطع فضة غير مضروبة ولا منقوشة ، يمانية ومغربية ، وبعد ذلك في أيام عبد الملك كرهو الضرب الجاري من ضرب الروم فرددوها إلى ضرب الإسلام .

(زقلت) قال النووي ، في شرح المذهب الصحيح : الذي يتعين اعتماده واعتقاده ، أن الدرهم المطلقة في زمن رسول الله ﷺ كانت معروفة الوزن ، معلومة المقدار ، وهي السابقة إلى الإفهام وبها تتعلق الزكاة ، وغيرها من الحقوق والمقادير الشرعية ، ولا يمنع من هذا كونه كان هناك دراهم آخر ، أقل أو أكثر من هذا المقدار ، بإطلاق النبي ﷺ الدرهم محول على المفهوم من الإطلاق ، وهو كل درهم ستة دوافع وكل عشرة سبعة مثاقيل . وأجمع أهل العصر الأول فمن بعدهم إلى يومنا هذا ، ولا يجوز أن يجمع على خلاف ما كان في زمن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين .

وأما مقدار الدرهم والدينار ، فقال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عطية ، في كتاب «الأحكام» : قال ابن حزم : بحثت غایة البحث عن كل من وقفت بتميزه ، فكل اتفق على أن دينار الذهب بمكة وزنه مائتان وثمانين وعشرون درهماً ، بالدرهم المذكورة . هذا كلام ابن حزم . وكان النووي بعد إيراده في شرح المذهب ، وقال غيره : هؤلاء وزن الرطل البغدادي مائة وثمانية وعشرون درهماً وأربعة أسابع الدرهم ، وهو تسعون مثقالاً بواسطة «سبل الرشاد» للشامي .

وقال أبو السعود الفاسي ، في إملاءاته على الصحيح ، على قوله في كتاب النكاح : وزن نواة من ذهب ، المراد بالنواة قيل : نواة التمر وقيل : اسم مقدار من الوزن كان عندهم ، كما هو عند غيرهم ، ولم تكن سكة عند النبي ﷺ ولا أبيه بكر ولا عمر ، ولم يضرروا سكة في الإسلام حتى ضربها عبد الملك بن مروان ، إلا أنهم كانوا يتعاملون بسكة فارس والروم ، وكان لهم من ذلك درهماً ، فجمع عبد الملك نصف هذا مع نصف هذا وجعله درهماً واحداً . اهـ .

وقال الحافظ السيوطي في رسالته «قطع المجادلة في تغيير المعاملة» ، قال الخطابي : كان أهل المدينة يتعاملون بالدرهم ، وقت قدوم النبي ﷺ ، ويدل عليه

قول عائشة ، في قصة شرائها ببريره : إن شاء أهلك أن أعدّها لهم عدة واحدة ، فعدّت الدرّاهم ، فأرشدهم النبي عليه السلام إلى الوزن ، وجعل الوزن عيار أهل مكة . وكان الوزن جاري بينهم في الدرّاهم ستة دونق ، وكانتا يتعاملون بها ، وهو درهم الإسلام في جميع البلدان . وأما الدنانير فكانت تحمل إليهم من بلاد الروم .

وقال ابن عبد البر في « التمهيد » : كانت الدنانير في الجاهلية وأول الإسلام بالشام وعند عرب الحجاز كلها رومية ، تضرب ببلاد الروم ، عليها صورة الملك وأسم الذي ضربت في أيامه مكتوبة بالرومية ، وكانت الدرّاهم بأرض العراق وأرض المشرق كلها كسرورية ، عليها صورة كسرى واسمه فيها مكتوب بالفارسية . اهـ . وقال العزفي : قال الخطابي : كانت الدنانير تحمل إليهم في زمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ من بلاد الروم ، فكانت العرب تسمّيها الهرقلية . (قلت) : وهذه الدرّاهم ، مع إثبات صور ملوك الروم عليها ، كانوا في صدر الإسلام يصلون بها ويحملونها معهم ، ولا يتزهرون عن ذلك . وقد كنت رأيت ، في سفري لتطوان ، عام (١٣٤١) درهماً من هذه الدرّاهم الهرقلية منقوش عليها صورة هرقل ، ثم اشتريت بعد ذلك درهماً رسم عليه اسم قصر وصورته ، ولعله أحد القياصرة المعاصرين لأول الإسلام .

وفي فتاوى الشهاب الفقيه أحمد بن حجر الهيثمي ، جماعة ذكروا جواز حمل الدنانير ، التي تجلب من أرض الإفرنج ، وعليها صورة حيوان حقيقة يقيناً واستدلّوا على ذلك بأنّها كانت تجلب من عندهم في زمن السلف ، ولم ينهوا عن حملها في العمامة وغيرها ، لأنّ القصد منها التقد لا تلك الصور ، ولتذر إزالتها أو تعسره ، قال : فإذا جاز هذا في تلك الدنانير فجواز الكتابة في الورق الإفرنجي أولاً وإن تحقق أن فيه صورة حيوان . اهـ .

انظر: صورة رقم ٢٢٩ ، النقود الإسلامية القديمة

وفي فتاوى الشهاب الرملاني الشافعي المصري أنه سُئل عن دنانير عليها صورة حيوان تامة ، أيحرم حملها كحرمة الشياطين المضورة ، ويجوز الاستتجاء بها بناء على حرمتها بالضرورة أم لا ؟ فأجاب بأنه لا يحرم حملها ولا الاستتجاء بها . فقد قال ابن العراقي : عندى أن الدرّاهم الرومية ، التي عليها الصور ، من القسم الذي لا ينكر لامتهاها بالإتفاق والمعاملة . وقد كان السلف يتعاملون بها من غير

نکير ، فلم تحدث الدرارم الإسلامية إلا في زمان عبدة الله بن مروان ، كما هو معروف . اهـ منها .

تبیه : سبق أنه لم يكن في زمان الرسول ﷺ سكة ولا زمن أبي بكر ولا عمر ، والمعروف أن أول من ضرب السكة عبدة الله بن مروان . قال ابن سعد ، في الطبقات : حدثنا محمد بن عمر الوقداني ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال : ضرب عبدة الله بن مروان الدرارم سنة خمس وسبعين ، وهو أول من أحدث ضربها ، ونقش عليها ، وفي أوائل العسكندراني أنه نقش عليها اسمه ، وأخرج ابن عساكر عن المغيرة ، أول من ضرب الدرارم الزيوف عبد الله بن زياد ، وهو قاتل الحسين ، نقله السيوطي في أوائله والشامي في سيرته .

أقول : وربما يعكر عليه وعلى ما سبق ، من أن الدرارم في الزمن النبوي لم تكن من ضرب أهل الإسلام ، ما وقع في سنن أبي داود وابن ماجة من حديث علقة بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . بوب عليه ابن ماجة بقوله : باب الهي عن كسر الدرارم والدنانير ، وأبو داود بقوله : باب كسر الدرارم ، وأخرجه أيضاً أحمد والحاكم في المستدرك . قال المخاطب الشوكاني : في نيل الأوطار ، قوله : سكة ، بكسر السين المهملة ، أي : الدرارم المضروبة على سكة الحديد المقوشة ، التي تطبع عليها الدرارم والدنانير ، وقوله : الجائزة بينهم يعني : النافقة في معاملتهم ، وقوله : إلا من بأس كأن تكون زيفاً . وفي معنى كسر الدرارم كسر الدنانير والفلوس ، التي عليها سكة الإمام ، لا سيما إذا كان التعامل بذلك جاريًا بين المسلمين كثيراً . اهـ .

وقال شيخ كبير من شيوخنا ، محمد المدينة المنوره ومسندها ، الشیخ عبد الغنی بن أبي سعید اللھلوی ، في حاشیته على سنن ابن ماجة ، المسمّاة «إنما الحاجة» في الحديث : النهي عن الكسر ثلاثة شرائط :

الأول : أن تكون سكة الإسلام ، الثاني : أن تكون رائحة ، والثالث : أن لا يكون فيها بأس وضرر على المسلمين . فلو أزال سكة الكفار لم يكن مورداً للنبي وكذا لو أزال السكة غير الرائحة والمزيفة . اهـ . ونقله عنه الكنكوفي في «التعليق المحمود على سنن أبي داود» وأقره ، وهذا كما ترى كالتصريح في أنه كان للMuslimين في الزمن النبوي سكة مضروبة ، كانوا يتعاملون بها .

وَلِللهِ در صاحب العلامة السيد أحمد بن محمد الحسني الشافعي المصري ، حيث قال في ص(١٨١) من نهاية الأحكام فيما للبنية من الأحكام ، بعد أن ذكر حديث أبي داود ونحوه : مقتضى هذا أن سكة المسلمين كانت معروفة ومستعملة في زمنه عليه السلام ، وليس ما يخالفه من الأقوال الدالة على أن سكة المسلمين لم تضرب إلا في عهد عمر أو في عهد من بعده أولى بالقبول منه إلا برجح وأين هو ؟ اهـ بلفظه .

وفي تاريخ مصر الحديث جرجي زيدان ص(١٣٨) : أما النقود ، التي ضربت في عهد الخلفاء الراشدين ، فكانت خماسية وفي غاية البساطة كما جرى في الشكل ، وليس عليها من الكتابة إلا صورة الشهادة بالحرف الكوفي . ولم تضرب النقود الفضية في الإسلام حتى أيام الخليفة عبد الملك ثم صور نقوده .

وقد انتقده الرحالة الشيخ محمد أمين بن الشيخ حسن الحلوي المدنى ، في رسالته «نشر المذيان من تاريخ جرجي زيدان» بقوله : لم يثبت في الرواية الصحيحة أن أحداً من الخلفاء الأربع ضرب سكة أصلاً إلا علي بن أبي طالب ، فإنه ضرب الدرهم ، على ما نقله صبحي باشا الموره لي ، في رسالة له ، ورسم فيها صورة ذلك الدرهم ، وعزا ذلك إلى لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة ، وأما هذه الثلاثة المسكوكات التي رسمها جرجي زيدان ، فلا تثبت على فرض وجودها ، لأنّه لم تكن عليها تواريخ دالة على زمانها ، وأكبر شيء فيها دال على كذبها على الخلفاء ، كون أحدهما فيه صورة شخص ، وهذا مما تحرمه الديانة الإسلامية . فكيف يفعل ذلك الخلفاء وكون هذه المسكوكات مزورة غير بدع عن الإفرنج وبياعي الأنطikات اهـ ؟ انظر ص(٥) منه طبع لكتوا بالمهند . فكان غاية جواب جرجي زيدان عن ذلك بأنه أخذ تلك الرسوم عن مؤلف فرنسي وأحال على ص(٢٦) من تاريخ مصر المارسا . انظر رد رنان على نشر المذيان .

وكانهم لم يروه في الموارد الفتحية في علوم اللغة العربية ، للشيخ حمزة فتح الله المصري ص(١٥٢) ج(١) نقاولاً عن شرح العيني على البخاري ، أنه نقل عن المرغيناني أن الدرهم كانت شبه النواة ، ودورت على عهد عمر ، لما بعث معقل بن يسار وحرف نهره ، الذي قيل فيه : «إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل» ضرب حينئذ عمر الدرهم على نقش الكسرورية ، وشكلها بأعيانها ، غير أنه زاد في

بعضها الحمد لله ، وفي بعضها محمد رسول الله ، وفي بعضها لا إله إلا الله
وحده ، على وجه وعلى الآخر عمر .

فلما بُويع لعثمان ضرب دراهم نقشها : الله أكبر ، فلما اجتمع الأمر لمعاوية
ضرب دنانير عليها تمثاله متقدلاً سيفاً .

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدوره ، ثم غيرها الحجاج ،
ولما استقر الأمر لعبدالملك بعد ابن الزبير ضرب الدنانير والدرهم في سنة (٧٦)
ست وسبعين من الهجرة . اهـ .

ولا ما في رسالة القود الإسلامية للمؤرخ الشهير المقريزي ، فإن فيها
نحو ما ذكر عن المواهب باللفظ . وزاد أن معاوية ضرب دنانير عليها تمثال ، متقدلاً
سيفاً ، وذكر أن عبدالملك بن مروان لما أمر الحجاج بضرب السكّة ضربها ،
وقدمت مدينة الرسول ﷺ وبها بقايا الصحابة ، فلم ينكروا منها شيئاً سوى
نقشها ، فإن فيه صورة ، وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشتري ولا يعيّب من
أمرها شيئاً اهـ أنظر ص(٥) منها ، ونحوه في خطط مصر لوزير المعارف بمصر
الشيخ علي بن مبارك باشا أنظر ص(٦) من ج (٢٠) منها ، وقد ساق كل كلام
المقريزي المذكور مختجاً به الشيخ عبد الغني النابلسي ، في شرحه على الطريقة
الحمدية أنظر ص(٤٩٩) ج (٢) .

ووقع في وفيات الأسلاف ص(٣٦١) ما نصه : وأقدم سكّة في الإسلام فيما
وجد ما ضرب في خلافة عثمان سنة ثمان وعشرين من الهجرة بقصبة هرتك ، من
بلاد طبرستان ، وكتب فيها ، بالخط الكوفي : بسم الله ربى . وفي خلافة علي سنة
(٣٧) وكتب فيها : ولِي الله . وفي سنة (٣٨) و (٣٩) : بسم الله ربى .

وفي درهم بالخط الكوفي في جانب منها : «الله أحد الله الصمد لم يلد ولم
يولد ولم يكن له كفواً أحد» وفي دورته : «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» وفي الجانب الآخر «لا إله إلا
الله وحده لا شريك له» وفي دورته : «ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربعين»
وفيها ضرب بدر ي مجرد سنة سبعين ، وفي يزد سنة إحدى وسبعين ، بالخط
الكوفي ، بسم الله ، وفي الطرف الآخر بالخط البهلوi عبد الله بن الزبير أمير
المؤمنين .

وقيل : أول من ضرب النقود مصعب بن الزبير ، سنة سبعين ، بأمر أخيه عبد الله ، ونقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد : أن عبد الملك أمر الحاج بضرب الدرارهم ، وتمييز المغشوش من المالص سنة (٧٤) ، وقال المدائني سنة (٧٥) : ثم أمر بضربها في النواحي سنة (٧٦) هـ ، وهذه الدرارهم ما وقع نظرني عليها وإنما نقلته عما نقله الثقات في هذا الشأن . اهـ .

ثم وجدته أخذ ذلك من تاريخ الوزير جودت باشا التركي الشهير ، فإنه نقل كل ما ذكر عن تاريخ واصف أفندي ، وفيه أيضاً ذكر واصف أفندي أنه نقل عن التواریخ الموضوعة في أخبار سلاطین العرب ، أن عمر بن الخطاب ضرب سکة في عام (١٨) على النقش الكبير وكتب على بعضها لا إله إلا الله محمد رسول الله . وعلى بعضها : لا إله إلا الله واسم عمر .

ثم قال : إلا أنه ثبت نقاًلاً أن حضرة عمر لم يضرب سکة باسمه ، والرواية المذكورة يحتمل أن تكون غلطًاً حصل من السکة التي ضربها أحد الأتراك بطبرستان ، المسماى عمر على المنوال السابق ، فالظاهر أن تاريخها المكتوب بالخط البهلوى لم يتمكنوا من قراءته ، وأسندت إلى حضرة عمر عندما قرئ اسم عمر ، وكذلك السکة المنسوبة إلى عبد الله بن الزبير لم يطلع عليها أحد من أهل العلم . ومن المسلم عند أهل العلم ، أن الذي أحدث ابتداء ضرب السکة العربية هو الحاجاج ، ولكن ظهر خلاف ذلك عند وجود الكشف الجديد في هذا الفن سنة (١٢٧٦) .

وذلك أن رجلاً إيرانياً اسمه جواد ، أتى إلى دار السعادة ، بسکة فضية عربية ضربت في البصرة سنة أربعين هجرية وأنا الفقير رأيتها بين المسكوكات القدمة الإسلامية ، عند صبحي باشا أفندي ، مكتوب على أحد وجهيها بالخط الكوفي : «الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» وفي دورتها : «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» وعلى الوجه الآخر : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وفي دورتها : «ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربعين» .

ونقل عن بعض المؤرخين ، أنه ضرب على السکة صورة معاوية وخالد بن الوليد مقلدين سيفيهما ، وتابعهما واصف أفندي فأدرج ذلك في تاريخه . ولكن هذه الرواية المذكورة لم يصل نقلها إلى درجة الثبوت والصحة ، ولكن أنا الفقير

رأيت على وجه الترتيب جميع المسكوكات الأمورية المختلفة ، التي ضربت عندهم في دور الضرب ، من الذهب والفضة ، في كل سنة على الترتيب السابق من سنة (٧٢) إلى تاريخ انفراط دولتهم سنة مائة وأثنين وثلاثين هجرية ، فلم يكن على أحدهما اسم الخليفة أهـ . راجع مقدمة التاريخ المذكور ص (٢٧٤) .

ووقع في رسالة لصديقنا الكاتب الكبير الأصيل السيد توفيق البكري الصديقي المصري ، في المواجهة بين الأعراف الأوروبية والأعراف العربية ، منقوله في شرح كتابه *صهاريج اللولو* ص (٢٩٠) أن عمر بن الخطاب كان يستعمل الورق والمجلود مكان النقود للحاجة ، وأنشد لأبي تمام :

لم يتدب عمر للإبل يجعل من جلودها النقد حين عزّه الذهب
أقول : وعكبتنا في قسم النقود دراهم مكتوبة بالكرفي عليها : «لا إله إلا الله
محمد رسول الله» وفي آخر الكتابة اسم «علي» يقطع الناظر التأمل فيها وفي
كتابتها ونقشها القديم أنها لعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه .

انتهى كل ذلك من كتاب «التراتيب الإدارية» للحافظ المحدث الشهير السيد الكتاني ، ثم ذكر بعد ما نقلناه جملة من الفوائد ، لم نر نقلها خوف إطالة المبحث ، فمن شاء فليرجع إلى الكتاب المذكور .

نقول : إن الكتب التي تبحث عن النقود العربية قليلة جداً ، وأحسن ما ألف في ذلك وطبع في عصرنا الحاضر «كتاب النقود العربية وعلم النيميات» وضعه الأب أنسطاس ماري الكرملي البغدادي عضو مجتمع فواد الأول للغة العربية في القاهرة .

وقد طبع هذا الكتاب في المطبعة العصرية بمصر القاهرة سنة (١٩٣٩) ميلادية .

وتوجد مؤلفات أخرى في النقود الإسلامية ، منها ما رأيناه بالمدينة المنورة ، في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت ، حين زيارتنا لها في محرم سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف من المحررة ، من نسخة خطية اسمها «نبذة في النقود الإسلامية» وهي مقتلة في فهرست المكتبة تحت رقم (٦٣٦) قسم التاريخ ، وقد كتبت بخط النسخ الجميل المنبه ، وهي تحفة فنية في ذاتها ، وعسى الله أن يوفقا نسخها وطبعها في المستقبل القريب .

وإليك الكلام عن النقد المتدولة في عصرنا الحاضر .

النقد المتدولة في الحجاز

كل أنواع النقد الخارجية أي المستعملة في جميع البلدان والأقطار ، هي تستعمل عندنا في الحجاز ومقبولة التعامل بها في جميع أيام السنة ، وبالخصوص في أوقات الحجّ ، لأن الحجاج يأتون بنقد بلادهم للتعامل بها عندنا ، ونحن هنلابا نزيد الكلام عن أنواع النقد الخارجية ، وإنما نحب أن نأتي ببنية عن النقد الحجازية فقط فنقول وبالله تعالى التوفيق :

جاء في « تاريخ مكة » لصديقنا الفاضل الأستاذ أحمد السباعي ، أن الشريف علي بن عنان ، لما كان بمصر ، عقد له ملكها « برسباي » الولاية على مكة المشرفة ، وذلك في موسم عام (٨٢٧) سبع وعشرين وثمانمائة هجرية فاصطحب الشريف علي بن عنان معه إلى مكة مطبعة لضرب النقد ، فضربت باسمه على أثر وصوله . انتهى من الكتاب المذكور .

فعلى هذا تكون هذه المطبعة هي أول مطبعة للنقد في الحجاز .

جاء في تاريخ الغازي : وفي يوم الخميس رابع ربيع الأول سنة (٨٨٩) تسع وثمانين وثمانمائة من الهجرة خرجت السكة الجديدة سكة المساعد ، ووزفت بالغانوي والمطبلين والمزمررين والجعيديه من بيت الشريف إلى الأسواق والشوارع وإلى بيت الشريف أيضاً ، وعمل صرف الأشرف في ثلاثة مسعودي ، والحلقة بائني عشر مسعودياً . وكانت المسعودية العتيقة وصلت أربعة آلاف مسعودي وشيء ، فإن الحلقي أصرف بمائة وستين ، وكان صرف الأشرف في الحلقة خمسة وعشرين نصفاً بل وشيئاً أيضاً ، وكان بها رفق للناس ، وإن كان حصل لهم بها ضرر لعدم ضبطها بصرف واحد ، وتضرر الناس بالجديدة إذ التفاوت بين الأسعار في الدرهم يسير . انتهى من الغازي .

وما يناسب ما تقدم ما جاء في تاريخ الغازي : إنه في سنة (١١٠٠) مائة وألف من الهجرة أمر مولانا الشريف أحمد بن غالب بأناس بلغه أنهم يسكنون الدراهم ، فأمر بهم بيوتهم ، ففعل بهم ذلك ، وأمهلوا نحو خمسة أيام ، وأخرجوا من البلد ، وأحضر آلات السكة بين يديه فصلحت المعاملة . انتهى .

هذا ولقد رأينا في عصرنا الحاضر من النقود التي كانت تستعمل في الحجاز ثلاثة أنواع . (الأول) ما كان مطبوعاً باسم الدولة العثمانية التركية من النقود والطوابع ، ثم زال استعمالها في الحجاز ، بعد الحرب العالمية العظمى ، أي من بعد سنة ١٣٢٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة ألف هجرية ، بسبب استقلال الحجاز وزوال حكم الأتراك عنه .

فقد كانت العملة التركية ، بجميع أنواعها من الذهب والفضة والنحاس ، تستعمل في جميع الممالك العثمانية ، كالحجاز ومصر والشام واليمن والعراق وتركيا ، لأنها كانت تضرب باسم خليفة المسلمين ، الذي كان يحكم جميع البلاد الإسلامية ، حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، ثم انتهى عهد الخلافة وزال حكم الأتراك عن أكثر بلاد الإسلام .

وقد كتب في وسط الوجه الأول من الجنيه العثماني النهي ما يأتي : «عز نصره ضرب في قسطنطينية ١٣٢٧» مع شيء من الخلية والنقش . وكتب في وسط الوجه الثاني منه ما يأتي : «اسم السلطان الغازي فلان» على شكل طغاء ، مع شيء من الخلية والنقش وعدد من النجوم .

وكتب في وسط الوجه الأول من الريال الفضة ما يأتي :

«عز نصره ضرب في قسطنطينية سنة ١٣٢٧» ويحيط بدائره عدة من الهلال أيضاً وفي وسط كل هلال نجمة .

وكتب في وسط الوجه الثاني «اسم السلطان الغازي فلان» ، ويحيط بدائره عدة من الهلال أيضاً وفي وسط كل هلال نجمة . وكان القرش الواحد التركي يساوي أربعين يارة .

ثم لما نهض الشريف حسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ، رحمة الله تعالى ، نهضته المعروفة ، وأجلى الأتراك عن الحجاز ، واستقلّ فيه بالحكم ، ضرب نقوداً بمكة باسمه من الذهب والفضة والنحاس ، فلقد كتب على الوجه الأول من الجنيه الذهب الدينار : «عبده وابن عبده - الحسين بن علي - الناهض بالبلاد العربية» وفي وسط الدينار كلمة «هاشمي» .

وكتب على الوجه الثاني من الدينار الذهب : «ضرب بمكة المكرمة - عاصمة الحكومة العربية - سنة ١٣٣٤ وفي وسطه كلمة «دينار» .

وكتب على الوجه الأول من الريال الفضة «أمر بتعامله عبده وابن عبده الحسين بن علي سنة ١٣٣٤».

وكتب على الوجه الثاني من الريال «الحكومة العربية الهاشمية ضرب بعكة المكرمة» وكتب في وسط قطعة النقود النحاسية كلمة «قرش واحد» وكتب حولها «ضرب سنة ١٣٣٤ بعكة المكرمة عاصمة الحكومة العربية الهاشمية».

وكتب في وجهها الثاني « Ubdeh وابن عبده الحسين بن علي وفقه الله».

أسعار المبيعات بالجملة بالنقد الهاشمية

ثم قال الغازي رحمه الله تعالى بعد ما تقدم ما يأتي :

بيان أسعار الحاجيات طبق الأوراق البلدية الملصقة في الشوارع ، والتي تضمنها النساء الرسمى ، وهى كما يأتي :

الرز البنوري	الكيس بمائة واثنين وستين قرشاً .
الرز الهورة	الكيس بمائة وثمانية وسبعين قرشاً .
الرز المزة	الكيس بمائة وتسعين قرشاً .
الرز الراري	الكيس بمائة واثنين وخمسين قرشاً .
العدس الهندى	الكيس بمائة واثنين وثلاثين قرشاً .
العدس الصعیدي	الكيس بمائة واثنين وثمانين قرشاً .
الخنطة الكراسي	الكيس بمائة واثنين وثلاثين قرشاً .
الخنطة السنديبة	الكيس بمائة واثنين وخمسين قرشاً .
الخنطة البصراوى	الكيس بمائة وسبعة وعشرين قرشاً .
الدخن	الكيس بمائة واثنين وثلاثين قرشاً .
الشعير	الكيس بمائة وقرشين .
الذرة	الكيس بمائة واثنين وأربعين قرشاً .
الدقائق الخشن	العدلة بمائة وخمسة وثمانين قرشاً .
الدقائق الناعم	العدلة بمائة وثمانية وتسعين قرشاً .
السكر الدبار	القنبطار بمائة وثمانية وتسعين قرشاً .
الصندوقي	الصندوقي بمائة وبعة قروش .
القار	

المن بمائين وأربعة وأربعين قرشاً .	السمن الحجازي
المن بمائة وخمسة وتسعين قرشاً .	السمن البحري
التنكة بمائة واثنين وعشرين قرشاً .	الزيت السمس

انتهى من تاريخ الغازي .

أسعار المبيعات بالشقة

ثم ذكر الغازي أسعار المبيعات بالتفصيل ، بالنقود الهاشمية ، بما يأتي :

الرز المزة	الكيلة بستة قروش .
الرز البنوري	الكيلة بسبعين قروش .
الرز الظهرة	الكيلة بثمانية قروش .
الرز الراري	الكيلة بستة قروش ونصف .
العلس الهندى	الكيلة بستة قروش ونصف .
العلس الصعیدي	الكيلة بعشرة قروش .
الخططة الكراشى	الكيلة بستة قروش .
الخططة السنديه	الكيلة بستة قروش ونصف .
الخططة البصراوى	الكيلة بخمسة قروش ونصف .
الدحن	الكيلة بأربعة قروش .
الشعير	الكيلة بأربعة قروش ونصف .
الذرة	الكيلة بأربعة قروش ونصف .
الفول الصعیدي	الكيلة بأحد عشر قرشاً .
الفول المصووعى	الكيلة بثمانية قروش .
الدقيق الخشن	الكيلة بأربعة قروش ونصف .
الدقيق الناعم	الإلة بثلاثة قروش ونصف .
العلس أبو جبة	الكيلة بثمانية قروش .
الحمص المدشوش	الكيلة بعشرة قروش .
السكر الدباره	الإلة بخمسة قروش ونصف .
القاز	الإلة بخمسة قروش ونصف .

الشاهي الأسود	الإقة بثلاثين قرشاً .
الشاهي الأخضر	الإقة بخمسة وأربعين قرشاً .
السمن الحجازي	الإقة باثنين وعشرين قرشاً .
السمن البحري	الإقة بثمانية عشر قرشاً .
الزيت السمسم	الإقة بأحد عشر قرشاً .
القرص العيش	بنصف قرش .

انتهى من تاريخ الغازي .

و الآن نبدأ الكلام عن النقود السعودية فنقول :

ظهور النقود العربية السعودية

عندما تولى الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، على الحجاز ، في سنة (١٣٤٣) ثلات وأربعين وثلاثمائة ألف من المجرة ، ضرب أول نقود في عهده ، في السنة المذكورة ، من النحاس من قطعة القرش وأجزاءه .

فلقد كتب على القطعة النحاسية من فضة النصف قرش ، على وجهه الأول ، ما يأتي : «نصف قرش ضرب في أم القرى» وكتب على وجهها الثاني بالطغاء «عبدالعزيز بن عبد الرحمن الفيصل» سنة (١٣٣٤) .

ومثل ذلك على ربع القرش . أما نفس القرش فلم يقع في أيدينا في الوقت الحاضر .

ثم في سنة (١٣٤٤) ألف وثلاثمائة وأربع وأربعين هجرية ، وهي السنة الثانية من تولي الملك عبدالعزيز ، رحمة الله تعالى ، على الحجاز ، صدر من النقود النikel قطعة من فضة القرش الواحد ، كتب على أحد وجهيها «قرش واحد» (١٣٤٤) وكتب على الوجه الثاني «عبدالعزيز السعود ملك الحجاز وسلطان نجد» ، كما صدر أيضاً نصف القرش ورבעه .

وفي سنة (١٣٤٦) أعيد طبع القرش الواحد ، وكتب على الوجهين ما كتب على القرش السابق ، غير أنه زيد في هذا كاملاً «وملحقاتها» عند جملة ملك الحجاز وبحد وملحقاتها . كما أعيد طبع نصف القرش وربيعه .

وفي سنة (١٣٤٦) ست وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية أيضاً طبع لأول مرة في العهد السعودي ، الريال الفضة ، وكان حجمه كبيراً بالنسبة للريالات التي طبعت بعده ، يعني أن هذا الريال الكبير يقدر الريال الصغير الذي طبع بعده بمئتين ، فوزن الكبير سبعة دراهم ونصف درهم . وزن الريال الصغير ثلاثة دراهم ونصف وقيراطان ونصف قيراط .

وقد كتب على وجهه الأول في الوسط «عبدالعزيز بن عبد الرحمن السعود» وبتأثيره «ملك الحجاز ونجده وملحقاتها» مع الشعار الحكومي وهو سيفان متقطاعان ، وعن يمينهما نخلة وعن شماليهما نخلة . وكتب على وجهه الثاني في الوسط «ضرب في مكة المكرمة سنة ١٣٤٦» وبتأثيره «ريال عربي سعودي واحد» مع كتابة رقم (١) وعن يمينه نخلة وعن يساره نخلة .

ثم أعيد طبعه في عام (١٣٤٨) وكتب على وجهيه ما كتب على الريال الأول المذكور .

وفي سنة (١٣٤٨) أعيد طبع القرش الواحد أيضاً ، وكتب على وجهيه ما كتب على القرش الذي قبله مع ذكر السنة التي ضرب فيها . وفي سنة (١٣٥٤) أعيد طبع الريال الفضة للمرة الثالثة ، وكان حجمه نصف حجم الريال السابق ، وقد كتب على وجهه الأول في الوسط «عبدالعزيز بن عبد الرحمن السعود» وكتب بتأثيره «ملك المملكة العربية السعودية» مع الشعار الحكومي وهو سيفان متقطاعان وعن يمينهما نخلة وعن شماليهما نخلة .

وكتب على الوجه الثاني في الوسط «ضرب في مكة المكرمة سنة (١٣٥٤)» وبتأثيره «ريال عربي سعودي واحد» مع كتابة رقم (١) وعن يمينه نخلة وعن يساره نخلة .

وطبع أيضاً في السنة المذكورة نصف الريال وربيعه .

وفي سنة (١٣٥٦) أعيد طبع القرش الواحد أيضاً ، وكتب على أحد وجهيه (قرش واحد) مع ذكر سنة ضربه ، وكتب على الوجه الثاني ما يأتي «عبدالعزيز سعود ملك المملكة العربية السعودية» .

وطبع معه أيضاً نصف القرش وربيعه .

ثم أعيد طبع الريال أيضاً في سنة (١٣٦٧) للمرة الرابعة ، وكتب على وجهيه ما كتب على الريال السابق ، مع ذكر سنة ضربه .

ثم أعيد طبع الريال أيضاً في سنة (١٣٧٠) للمرة الخامسة ، وكتب على وجهيه ما كتب على الريال السابق ، مع ذكر سنة ضربه .

وفي سنة (١٣٧٠) سبعين وثلاثمائة وألف من المحرجة طبع لأول مرة في العهد السعودي الجنيه النهب ، وقد كتب على وجهه الأول في الوسط «عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود» وبتأثيره «ملك المملكة العربية السعودية» مع الشعار الحكومي ، وهو سيفان مقاطعان ، وعن يمينهما نخلة وعن يسارهما نخلة .

وكتب على وجهه الثاني في الوسط «ضرب في مكة المكرمة سنة (١٣٧٠)» وبتأثيره «جنيه عربي سعودي» مع كتابة رقم (١) وعن يمينه نخلة وعن شماله نخلة .

وكان وزن الجنيه النهب درهمين ونصف درهم ، مع العلم بأن الدرهم يساوي ستة عشر قيراطاً .

انظر: صورة رقم ٢٣٠ ، بعض الصور للنقد السعودي

وكلمة (جنيه) ليست عربية ، ومعناها الدينار ، ويطلق الجنيه في اصطلاح زماننا على العملة النهبية أو ما يقوم مقامه من الأوراق النقدية ، كجنيه المصري ، مثلًا .

ولقد جاء عن معنى الجنيه النهب ، في مجلة الهلال المصرية في أربعين سنة ، بتاريخ (١٩٣٢) ميلادية ، ما يأتي :

الجنيه ، هو مأخوذ من جينيا أو غينيا ، بلاد واقعة على سواحل إفريقيا . وفي سنة (١٥٨٨) ميلادية تألفت شركة بمحارية إنجليزية سارت إليها للتجارة ، وأخذت ترسل من محصولات تلك البلاد إلى إنجلترا ، وفي مجلة ذلك معدن النهب ، فضربت الحكومة الإنجليزية من هذا الذهب دنانير سُمِّتها باسم تلك البلاد . ولم تكن ضربت الليرات الإنجليزية المتداولة ، وأقدم تلك الجنديات ضرب سنة (١٦٦٣) ، وقد نقش عليها صورة الفيل ، إشارة إلى أنه ذهب إفريقي . وفي سنة (١٨١٧) م ضربت الليرة الإنجليزية ، وأبطل ضرب الجنديات المتقدم ذكرها . انتهى من المجلة المذكورة .

ثم في سنة (١٣٧٤) أعيد طبع الريال للمرة السادسة وكتب على وجهيه ما كتب على الريال السابق مع ذكر سنة ضربه . وطبع في السنة المذكورة أيضاً نصف الريال وربيعه .

وفي سنة (١٣٧٦) طبع من النقود النيكل قطعة من فئة القرش الواحد ، كتب على أحد وجهيها «قرش واحد ١٣٧٦» وكتب على الوجه الثاني ما يأتي : «سعود بن عبدالعزيز السعود ملك المملكة العربية السعودية» ، وجعل في وسطه شعار المملكة وهو نخلة وسفان مقاطعان .

وفي السنة المذكورة أي سنة (١٣٧٦) هجرية طبع من النقود النيكل قطعة من فئة القرشين ، كتب على أحد وجهيها «قرشان ١٣٧٦» . وكتب على الوجه الثاني ما يأتي : «سعود بن عبدالعزيز السعود ملك المملكة العربية السعودية ، وجعل في وسطه شعار المملكة وهو نخلة وسفان مقاطعان .»

وفي سنة (١٣٧٦) هـ أيضاً طبع من النقود النيكل قطعة من فئة أربعة قروش ، كتب على أحد وجهيها «أربعة قروش» مع ذكر السنة التي ضربت فيها . وكتب على الوجه الثاني ما كتب على قطعة القرشين السابقة .

استعمال الأوراق النقدية في المملكة السعودية

لم يسبق للحكومات السابقة في الحجاز أن طبعت أوراقاً نقدية للتعامل بها ، فلما تولّت الحكومة العربية السعودية عليها ، أصدرت لأول مرة في سنة (١٣٧٢) ألف وثلاثمائة واثنتين وسبعين هجرية ، ورقة من فئة «عشرة ريالات» . طولها أربعة عشر سنتيمتر ، وعرضها ستة سنتيمتر ونصف ، كتب على وجهها الأول في أعلى الورقة : «مؤسسة النقد العربي السعودي» ، وفي الجانب الأيمن منها ما يأتي :

صدر هذا الإيصال من قبل المؤسسة لتيسير أداء حامله فريضة الحج ، وذلك بجعل حصوله على الريالات العربية ، في متداول يده بسهولة وسرعة ، أثناء إقامته في البلاد العربية السعودية ، وبدون تكبده نفقة الصرافة» .

وكتب في الجانب الأيسر منها ما يلي : نشهد بأن المؤسسة تقتني في خزنتها بمقدمة مبلغ عشرة ريالات عربية تحت طلب حامل هذا الإيصال . وهو قابل

للصرف الكامل ، وتدفع قيمته فور تقديمها من قبل حامله إلى أي مركز من مراكز المؤسسة . الإصدار الأول (١٣٧٢) . وذلك تحت تعيين نائب رئيس مجلس الإدارة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله السليمان ، والمحافظ المستر جورج بلاور ، ونائب المحافظ راسم الخالدي .

وفي وسط الورقة وضع الشعار السعودي ، وفي جميع أركانها الأربعه كتب رقم (١٠) بالعربي والإنجليزي ، وكتب في أسفل الورقة مانصه : دس ريال ، عشرة ريالات ، ده ريال ، سقوله ريال ، مع بعض حروف أو كلمات إنجليزية . وكتب على وجهها الثاني من أعلى الورقة أرقام متسلسلة ومن أسفلها كلمات إنجليزية ، وفي جميع أركانها الأربعه رقم (١٠) بالعربي والإنجليزي .

وفي وسط الورقة كتب ما نصه : تحفظ مؤسسة النقد العربي السعودي في خزانتها بمبلغ عشرة ريالات ، تحت طلب حامل هذا الإيصال ، وهو إيصال قابل للتحويل بدون قيد أو شرط .

ثم ترجمت بعد ذلك هذه العبارة إلى ثلاث لغات مختلفة .

ثم صدرت ، في عام (١٣٧٣) ألف وثلاثمائة وثلاثة وسبعين هجرية ، ورقة نقدية من فئة «عشرة ريالات» طرفاها سبعة عشر ستيمتر وعرضها ثمانية ستيمتر .

كتب على وجهها الأول في أعلى الورقة «مؤسسة النقد العربي السعودي» ثم رقم متسلسل . وفي الجانب الأيمن منها ما يأتي : «صدر هذا الإيصال من قبل المؤسسة لتسهيل أداء حامله فريضة الحج ، وذلك يجعل حصوله على الريالات العربية في متناول يده ، بسهولة وسرعة ، أثناء إقامته في البلاد العربية السعودية ، ويدون تكبده نفقة الصرافة» وتحت ذلك كتب «دس ريال ، عشرة ريالات» ، ثم كلمات إنجليزية ، وتحتها رقم متسلسل . وكتب في الجانب الأيسر منها ما يلي : «نشهد بأن المؤسسة تقتني في خزانتها بمبلغ عشرة ريالات عربية ، تحت طلب حامل هذا الإيصال . وهو قابل للصرف الكامل وتدفع قيمته فور تقديمها من قبل حامله إلى أي مركز من مراكز المؤسسة» وكتب تحت ذلك «ده ريال ، سقوله ريال» ثم كلمات إنجليزية ، وبعدها مذكور عام صدورها وهو (١٣٧٣) . وكل ذلك تحت تعيين نائب رئيس مجلس الإدارة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله السليمان ، والمحافظ المستر جورج بلاور ، ونائب المحافظ راسم الخالدي .

وفي وسط الورقة وضع رسم لميناء حدة ، وبه السنابيك ، وفي جميع أركانها الأربعـة كتب رقم (١٠) بالعربي والإنجليزي . وكتب في أسفل الورقة كلمات إنجليزية .

وكتب على وجهها الثاني من أعلى الورقة «مؤسسة النقد العربي السعودي» .

وفي الجانب الأيمن والأيسر منها وضع الشعار السعودي ، وفي وسطها كتب ما يلي : «تحتفظ مؤسسة النقد العربي السعودي في خزائـها بمبلغ عشرة ريالات تحت طلب حامل هذا الإيصال ، وهو إيصال قابل للتحويل بدون قيد أو شرط» ثم ترجمـت بعد ذلك إلى ثلاثة لغـات مختلفة ، ووضع في وسط هذا الترجمـة رقم (١٠) .

وفي جميع أركانها الأربعـة رقم (١٠) بالعربي والإنجليزي . وفي أسفلها مكتوب «عشرة ريالات» .

ثم في عام (١٣٧٣) هـ أيضاً صدرت ورقة نقدية من فئة «خمس ريالات» طواها خمسة عشر سنتيمتر ونصف وعرضها ستة سنتيمتر ونصف .

كتب على وجهها الأول في أعلى الورقة «مؤسسة النقد العربي السعودي» ثم رقم متسلسل . وفي الجانب الأيمن منها ما يـأتي : «صدر هذا الإيصال من قبل المؤسـسة لتيسير أداء حاملـه فريضة الحجـ، وذلك يجعل حصولـه على الـريـالـات العـربـيةـ في مـتناولـ يـدـهـ، بـسهـولةـ وـسرـعةـ، بـمحـرـدـ وـصـولـهـ إـلـىـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ السـعـودـيـةـ، وـبـدـونـ تـكـبـدـ نـفـقـةـ الصـرـافـةـ» . وتحـتـ ذـلـكـ كـتـبـ «يـخـ رـيـالـ، بـانـجـ رـيـالـ» ثم كـلـمـاتـ إـنـجـليـزـيـةـ، وـتـحـتـهاـ كـتـبـ الـعـامـ الـذـيـ صـدـرـتـ فـيـ وـهـ عـامـ (١٣٧٣) هـ وبعد ذلك رقم متسلسل .

وكتب في الجانب الأيسر منها ما يـليـ : «نشـهـدـ بـأـنـ الـمـؤـسـسـةـ تـقـتـنـيـ فـيـ خـزـتـهـاـ بـجـدـةـ مـبـلـغـ خـمـسـ رـيـالـاتـ عـربـيـةـ تـحـتـ طـلـبـ حـاـلـمـهـ هـذـاـ إـيـصـالـ . وـهـوـ قـابـلـ للـصـرـفـ الـكـامـلـ وـتـدـفـعـ قـيـمـتـهـ فـورـ تـقـديـمـهـ مـنـ قـبـلـ حـاـلـمـهـ إـلـىـ أـيـ مـرـكـزـ مـرـاكـزـ الـمـؤـسـسـةـ» وـكـتـبـ تـحـتـ ذـلـكـ «لـيمـ رـيـالـ، خـمـسـ رـيـالـاتـ» ثم كـلـمـاتـ إـنـجـليـزـيـةـ . وكل ذلك تـحـتـ توـقـعـ نـائـبـ رـئـيـسـ مجلـسـ الإـدـارـةـ الشـيـخـ عـبـدـ العـزـيزـ بنـ عـبدـ اللهـ السـلـيـمانـ ، وـالـحـافـظـ المـسـتـرـ جـورـجـ بلاـورـ وـنـائـبـ المـحـافـظـ رـاسـ المـحـالـيـ .

وفي وسط الورقة وضع رسم لمناء جدة وبه سبائك ، وفي جميع أركانها الأربع كتب رقم (٥) بالعربي والإنجليزي . وكتب في أسفل الورقة كلمات إنجليزية .

وكتب على وجهها الثاني من أعلى الورقة «تحتفظ مؤسسة النقد العربي السعودي في خزانتها مبلغ خمسة ريالات تحت طلب حامل هذا الإيصال ، وهو إيصال قابل للتحويل بدون قيد أو شرط» .

وفي الجانب الأيمن والأيسر منها ترجمة هذه الكلمة إلى أربع لغات مختلفة .

وفي وسط هذه الورقة وضع الشعار السعودي . وفي جميع أركانها الأربع رقم (٥) بالعربي والإنجليزي . وكتب في أسفل الورقة كلمات إنجليزية .

ثم صدرت في عام (١٣٧٥) ورقة نقدية من فئة «ريال واحد» طولها ثلاثة عشر سنتيمتراً وعرضها سبعة سنتيمتر .

كتب على وجهها الأول في أعلى الورقة «مؤسسة النقد العربي السعودي» .

وفي الجانب الأيمن منها ذكرت السنة التي صدرت فيها وهي سنة (١٣٧٥) هجرية ، ثم كتب ما يأتي : «صدر هذا الإيصال ، من قبل المؤسسة ، لتسهيل أداء حامله فريضة الحجّ ، وذلك يجعل حصوله على الريالات العربية فيتناول يده ، بسهولة وسرعة ، أثناء إقامته في البلاد العربية السعودية ، وبدون تكبّله نفقة الصرافة» وتحت ذلك كتب «ريال واحد ، ساتو ريال» . ثم كلمات إنجليزية وتحتها رقم متسلسل .

وكتب في الجانب الأيسر منها رقم متسلسل ، ثم «نشهد بأن المؤسسة تقتني في خزانتها بمقدمة مبلغ ريال عربي واحد تحت طلب حامل هذا الإيصال ، وهو قابل للصرف الكامل وتدفع قيمته فور تقديمها من قبل حامله إلى أي مركز من مراكز المؤسسة» وكتب تحت ذلك «يك ريال ، ايك ريال» ثم كلمات إنجليزية . وكل ذلك تحت توقيع رئيس مجلس الإدارة الشيخ محمد سرور الصبان والحافظ المسئر استنداً .

وفي وسط الورقة رسم بلاني الشارع المؤدي إلى القصر الملكي بمقدمة وقد ظهرت البوابة الرئيسية للقصر في نهايته . وفي جميع أركانها الأربع كتب رقم (١) بالعربي والإنجليزي .

وكتب من أسفل الورقة كلمات إنجليزية.

وكتب على وجهها الثاني من أعلى الورقة «تحفظ مؤسسة النقد العربي السعودي في خزانتها بمبلغ ريال واحد تحت طلب حامل هذا الإيصال، وهو إيصال قابل للتحويل بدون قيد أو شرط.

وفي الجانب الأيمن منها والأيسر ترجمة هذه الكلمة بأربع لغات مختلفة. وفي وسط هذه الورقة وضع الشعار السعودي. وفي جميع أركانها الأربع رقم (١) بالعربي والإنجليزي.

هذا وفي أول عام (١٣٨٥) من المحررة كنا طلبنا من سعادة محافظ مؤسسة النقد العربي السعودي بمجلة، أن يتكرم فيفيدنا بعض المعلومات الهامة عن النقد السعودي، فورد لنا منه الجواب الآتي، نذكره هنا بنصه، وهو هذا:

«فضيلة الأستاذ الجليل محمد طاهر كردي السليمان

مكة المكرمة

تحية طيبة وبعد،

تلبية لرغبة فضيلتكم برقياً برقم ٣٢/٢٣ في ٨٥/١١ يسرنا أن نورد لكم أدناه المعلومات المطلوبة.

١ - طرحت إيصالات الحاج «فئة عشرة ريالات الطبعة الأولى» في التداول يوم ١٨/١١/١٣٧٢ هـ الموافق ٢٩/٦/١٩٥٣ م واستمر التعامل بها بجانب الريالات الفضية والجنيهات النبوية.

٢ - ولقد ظهرت الطبعة الثانية من إيصالات الحاج «فئة عشرة ريالات» في التداول بتاريخ ١٥/٩/١٣٧٣ هـ الموافق ١٨/٥/١٩٥٤ م.

٣ - أما فئة الخمسة ريالات من إيصالات الحاج فقد ظهرت في التداول بتاريخ ١٣/١٠/١٣٧٣ هـ الموافق ١٤/٦/١٩٥٤ م وفدة الريال الواحد يوم ٢٣/١١/١٣٧٥ هـ الموافق ٧/٢/١٩٥٦ م.

٤ - ولقد حددت المادة الثانية من المرسوم الملكي رقم ٦ الصادر في أول رجب ١٣٩٧ هـ قيمة الريال السعودي بـ (١٩٧٤٨٢) ر. جرام من الذهب الخالص، وبصدور هذا المرسوم توقف التعامل بالريالات الفضية كعملة قانونية للبلاد.

وختاماً نرجوا من الله لكم التوفيق في إنتهاء مؤلف تاريخ مكة . والله الموفق»

الحافظ: أنور علي

ولقد ذكرنا في كتابنا «تاريخ الخط العربي وأدبه» المطبوع على نفقة مكتبة الملال بمصر ، عن النقود الموجودة إلى اليوم ، ما يأتي : وأما ما يوجد من النقود والأوراق البردية المكتوبة في دار الكتب العربية بمصر فتحو خمسة آلاف قطعة من النقود العربية من ذهبية وفضية ونيكل وبرونز ، من العهد القديم إلى الآن ، أقدمها دينار عبد الملك بن مروان ضرب سنة (٧٧) هـ ، وهو أول دينار ضرب في الإسلام في عهد بني مروان . (ويوجد) في متحف الإسكندرية نقود من عهد البطالسة (وتوجد في المتحف الأدبي (بفينيا) عاصمة النمسا خطوط مكتوبة سنة ٢٤ هجرية ، وقد رأها الشيخ محمد عبله ، مفتى الديار المصرية رحمة الله تعالى بفينيا ، كما توجد فيها مجموعة قيمة من نقود ملوك حمير ، فإنهم كانوا ينقشون عليها صورهم وأسمائهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند (الحرف الحميري) وأحياناً ينقشون عليها صور الثور أو الصقر أو البوة . وهنا نضع صور بعض النقود الإسلامية القديمة . انتهى منه .

هذا ما ذكرناه في كتابنا المذكور عن النقود فقط ، وذكرنا فيه أيضاً كثيراً مما يوجد اليوم في دور الآثار والمتاحف ، من مختلف الأشياء والمخطوطات ، لم ننقلها هنا حتى لا يطول بنا الكلام .

وحبذا لو أن الحكومات الإسلامية كافة ، من عرب وعجم ، لو اتفقوا على استعمال نقود موحدة بجميع أنواعها وأجزائها ، بعد أن يتفقوا على وضع أسماء خاصة لها ، بجميع أجزائها من ذهب أو فضة أو نيكل أو برونز أو صفيح . ففي هذا تيسير كبير للمسافرين بين البلدان الإسلامية قاطبة ، ويسهل تعاملهم بين جميع الطبقات ، حتى في مسائل التجارة ، فلا يحتاجون إلى مقارنة الأسعار بين بلدتهم والبلدة التي سافروا إليها .

أول استعمال عملة النقد وعملة الورق

جاء في مجلة «الملال» ، في الجزء الرابع من السنة الأربعين : إن أول من استعمل النقود المعدنية أهالي ليديا ، بآسيا الصغرى ، وأول قطعة سكت كانت في سنة ٧١٦ قبل الميلاد . أما عملة الذهب فالمعروف أن أول من أمر بسكها هو

قارون «كروسوس» ملك لسيديا حوالي سنة ٥٥٠ قبل الميلاد ، ولا يعلم متى بدئ باستعمال ورق النقد على وجه التحقيق . وقد زعم بعض المؤرخين أن الصينيين أول من استعمل ورق النقد ، ولكن هذا لم يثبت بعد ، والأرجح أن إنجلترا أول من استعمل البنكتون ، بعد حرب نابليون ، ويوجد الكلام على البنك والبنكتون في مجلة «مصر الحديثة» المصورة بتاريخ ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ .

العامل بالفلوس الورق

وقال ابن بطوطة في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعيناً من الهجرة ، ما يأتي :

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً ، كما ذكرناه وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد «الكاغد هو الورق بفتح الواو والراء» كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطبع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرين قطعة منها «باليشت» باء موحدة وألف ولا مكسورة وشين معجم مسكن وتأء معلوة . وهي يعني الدينار عندنا ، وإذا تمزقت تلك الكواغد «أي الأوراق» ، في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جدداً ، ودفع تلك الكواغد ، ولا يعطى على ذلك أجراً ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها هم الأرزاق الحمارية من قبل السلطان .

وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء ، وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار ذهب يريد شراء شيء ، لم يوجد منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بـ «باليشت» ويشتري به ما أراد . انتهى من رحلة ابن بطوطة .

النقد

جاء في الجزء الثالث من كتاب «المطالعة الروافية» عن استعمال النقد وذلك نقاًلاً بتصرف من كتاب «موجز النقد والسياسة النقدية» تأليف زكرياء مهران ، ما يأتي :

عاش الإنسان أول أمره مع الحيوان حملاً المطامع ، فإن بدت له حاجة اغتصبها ، فإن لم يستطع انصرف عنها عاجزاً ثم اتخذ من الحجارة عدداً يتقى بها

الضواري ، أو يصيدها ، فيتغذى من لحومها طعاماً ، ومن جلودها لباساً ثم لم يلبث أن وجد قضاء حاجاته في المقايدة ، فاجتاز مرحلة الحياة غصباً إلى مرحلة المقايدة طوعاً .

وكانت الحاجات المتبادلة هي اللحوم والجلود والظامان . واللحوم سريعة العطب ، فلم تصلح للتبدل ، وبقيت الجلود والظامان . ولا تزال بعض قبائل الهنود في أمريكا ، والزنوج في أفريقيا ، تعامل بعظام الحيوان .

ثم عرف الإنسان الزراعة ، واستأنس الماشية ، وعثر على النحاس ، فاستخدمه في تقوية عدده الخشبية والحجيرية ، وصنع منه آلات لأغراض مختلفة .

وفي ذلك الوقت أدرك الإنسان معنى الرزق والثروة ، وتعامل بأنفس ما يملكه من عدد القتال ، وأدوات الفلاحة ، والغلات الزراعية ، والماشية . وقد كان للثور شأن عظيم ، في تاريخ المقايدة ، فقد كان له من القيمة ما للذهب الآن ، ولذلك رسمه قدماء المصريين على آثارهم جائماً في كفة ميزان ، وفي الكفة الأخرى حلقات المعادن المعروفة لعهدهم . وكذلك كان قدماء الإغريق ، شأنهم في ذلك الوقت بعيد شأن قبائل خط الاستواء اليوم ، إذ يقترون الرقيق والأسلحة والبارود بالثيران .

والحقيقة أن العرف والعادة ، في كل شعب ، كانا يقضيان دائمًا بالتماس مادة نافعة أو ضرورية من المواد المفورة لديه ، يتبدل بها أفراده فيما بينهم تبادل النقود ، ويرضونها ، تسهيلاً لمعاملتهم ، أو تحقيقاً لمنفعة .

ثم أدرك الإنسان أن تلك السلع ، مرهقة في التبادل بها ، فالماشية تحتاج إلى إطعام ، وإيواء ورعاية ، وقد تنفق أو تمرض . والغلات قد يلحقها الفساد ، إذا تقادم عليها العهد ، وقد تلتهمها الثيران أو الفيران ، أو تكسد سوقها ، فلا بد إذن من الاعتماد على سلعة ، تجمع بين النفاسة والسلامة ويسر الاستعمال . فاتخذ من المعادن وسيطاً في التبادل ، وتدرج فيها وفي قيمها وأشكالها وحجومها وأوزانها ووجوه استخدامها على صور متعددة شتى .

ثم جاء دور إشراف الحكومات على العملة المعدنية ، كي يأمن التعاملون الغش والتزييف ، ولا سيما إذا كانت من معدن نفيس كالذهب والفضة ، وسنت الدول القديمة كمصر والإغريق القوانين ، تنص على عقوبات صارمة لمن يغش أو يخدع .

ثم قامت الحكومات نفسها بسك النقود التي تحتاج إليها، وطبعها بطابعها الرسمي، وحرّمت على الأفراد أن يسكنوها، كما حرّمت عليهم استعمال المعادن النفيسة، إلا إذا كانت مختومة بخاتمتها.

وأجمع الباحثون على أن الشعب المصري القديم، كان أول الشعوب التي سكت العملة المعدنية ، فقد ثبت أن قدماء المصريين ، قد تعاملوا وتعاقدوا ، وقدرروا قيمة السلع بحلقات من المعادن ، ذات أوزان ثابتة ، أقدمها من النحاس ، وذلك قبل المسيح بأربعة آلاف سنة . أما حلقات الذهب ، فقد اخترعواها عملية قبل المسيح بحوالي ألف ومائتي سنة ، وأما الفضة فقد كانت نادرة عندهم فاستعملوها بعد ذلك .

أما التعامل بقطع يضر بها الحاكم باسمه ، فالخلاف في ذلك ، قائم بين الباحثين : فذهب بعضهم إلى أن الصينيين كانوا أول من فعل ذلك قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، وذهب «هيرودت» إلى أن الليديين كانوا أسبق منهم .

هذا وعرفت مصر قليلاً، سك النقود التي يصدرها الحاكم باسمه بعد الفتح المقدوني ، فقد ضرب الاسكندر لنفسه عملة يخلد بها ذلك الفتح ، وانتسابه لآمون بمعبد سية ، فرسم صورته على تلك العملة ، واضعاً قرنين في رأسه ، دلالة على انتسابه لآمون ، الذي كان شعاره الكبش ذا القرنين ، ولذلك سمى بالاسكندر ذي القرنين .

ولما آلت مصر إلى حكم البطالسة «بعد موت الاسكندر وتقسيم ملكه» سكت نفسها نقوداً، تعد من أرقى النقود وأجلها، في دار بيتها واستخدمت لها الفنانين من بلاد الإغريق، وقد راحت هذه النقود وانتشرت بين جميع أمم المتوسط أيام كانت الاسكندرية وطن المال والعلوم.

انتهى، من كتاب «المطالعة الواقية».

كلام ابن خلدون عن النقوش

قال العلامة ابن خلدون المولود سنة (٧٣٢) سبعمائة واثنتين وثلاثين هجرية والمتوفى سنة (٨٠٨) هجرية في مقدمته عن النقوذ عند الكلام على الخطط الدينية الخلافية ، ما يأتي :

وأما السكة فهي النظر بالنقود المتعامل بها بين الناس ، وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص ، إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ، ويوصل إليه من جميع الاعتبارات ، ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود ، بالاستجادة والخلوص ، برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد ، اتخذ لذلك ، ونقش فيه نقوش خاصة به ، فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالطريقة حتى ترسم فيه تلك النقوش ، وتكون علامة على جودته ، بحسب الغاية التي وقف عنها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ، ومنذهب الدولة الحاكمة ، فإن السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية ، وإنما ترجم غايتها إلى الاجتهاد ، فإذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها ، وسوها إماماً وعياراً يعتبرون به نقودهم ويتقدلونها ، فإن نقص عن ذلك كان زيفاً ، والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار ، فتدرج تحت المخلافة وقد كانت تدرج في عموم ولادة القاضي ثم أفردت لهذا العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية . انتهى من مقدمة ابن خلدون .

ثم قال ابن خلدون في النقود أيضاً ، في موضع آخر ، عند الكلام على شارات الملك والسلطان ، ما يأتي : السكة : وهي الختم على الدينار والدرهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدرهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلاح عليه ، فيكون التعامل بها عدداً ، أو إن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً ، ولفظ السكة كان اسمًا للطابع ، وهي الحديفة المتخذة لذلك ، ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش المائلة على الدنانير والدرهم ، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه ، وهي الوظيفة ، فصار علماً عليها في عرف الدول ، وهي وظيفة ضرورية للملك ، إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ، ويتقدرون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة ، وكان ملوك العجم يتخلونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها ، مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ، ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم .

ولما جاء الإسلام ألغى ذلك لبداوة العرب ، وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً ، وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم ، يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم ، إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك .

وأمر عبدالملك الحجاج ، على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد ، بضرب الدراديم وتقيييز المغشوش من الحالص وذلك سنة أربع وسبعين ، وقال المدايني سنة خمس وسبعين : ثم أمر بصرفها فيسائر النواحي سنة ست وسبعين ، وكتب عليها «الله أحد الله الصمد» ، ثم ولّ ابن هبيرة العراق ، أيام يزيد بن عبد الملك ، فجود السكة ، ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ، ثم يوسف بن عمر بعده .

وقيل : أول من ضرب الدنانير والدراديم مصعب بن الزبير بالعراق ، سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله ، لما ولّ الحجاز ، وكتب عليها في أحد الوجهين «بركة الله» وفي الآخر «اسم الله» ، ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج ، وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر ، وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق ، والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسابيع درهم ، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل .

وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة ، وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها اثنا عشر ومنها عشرة ، فلما احتاج إلى تقديره في الركاة أخذ الوسط ، وذلك اثنا عشر قيراطاً . فكان المثقال درهماً وثلاثة أسابيع درهم ، وقيل : كان منها البغلاني بثمانية دوانق ، والطبراني أربعة دوانق ، والمغربي ثمانية دوانق ، واليماني ستة دوانق ، فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل ، فكان البغلاني والطبراني وهما اثنا عشر دونقاً ، وكان الدرهم ستة دوانق ، وإن زدت ثلاثة أسابيعه كان مثقالاً ، وإذا نقصت ثلاثة عشر المثقال كان درهماً ، فلما رأى عبدالملك اتخاذ السكة لصيانة النقادين الجاريين في معاملة المسلمين من الغش ، فquin مقدارها على هذا الذي استقر له مدعاً عمر ، رضي الله عنه ، واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صوراً . العرب كان الكلام والبلاغة أقرب من أحدهم وأظهرها ، مع أن الشرع ينهى عن الصور ، فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة ، وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين ، والكتابة عليهما في دوائر متوازية ، يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلًا وتحميدًا وصلة

على النبي وآلـهـ ، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة ، وهـكـذا أيام العباسـينـ والـعـيـدـيـنـ والأـمـوـيـنـ . وأـمـاـ صـنـهـاجـةـ فـلـمـ يـتـحـذـلـواـ سـكـةـ لـأـخـرـ الـأـمـرـ ، اـخـذـهـاـ منـصـورـ صـاحـبـ بـجـاهـةـ ، ذـكـرـ ذـلـكـ اـبـنـ حـمـادـ فيـ تـارـيخـهـ ، وـلـماـ جـاءـتـ دـوـلـةـ الـمـوـحـدـيـنـ ، كـانـ مـاـ سـنـ لـهـمـ الـمـهـدـيـ إـتـخـازـ سـكـةـ الدـرـهـمـ مـرـبـعـ الشـكـلـ ، وـأـنـ يـرـسـمـ فيـ دـائـرـةـ الـدـيـنـارـ شـكـلـ مـرـبـعـ فيـ وـسـطـهـ ، وـعـلـاـ مـنـ أـحـدـ الـجـانـبـيـنـ تـهـلـيلـاـ وـتـحـمـيدـاـ ، وـمـنـ الـجـانـبـ الـآـخـرـ كـبـاـ فيـ السـطـورـ بـاسـمـ الـخـلـفـاءـ مـنـ بـعـدـهـ ، فـقـعـلـ ذـلـكـ الـمـوـحـدـيـنـ ، وـكـانـ سـكـتـهـمـ عـلـىـ هـذـاـ الشـكـلـ هـذـاـ الـعـهـدـ . وـلـقـدـ كـانـ الـمـهـدـيـ ، فـيـمـاـ يـنـقـلـ ، يـنـعـتـ قـبـلـ ظـهـورـهـ بـصـاحـبـ الدـرـهـمـ الـمـرـبـعـ ، نـعـتـهـ بـذـلـكـ الـمـتـكـلـمـونـ بـالـحـدـثـانـ مـنـ قـبـلـهـ الـمـخـبـرـوـنـ فيـ مـلـاـحـمـهـمـ عـنـ دـوـلـهـ ، وـأـمـاـ أـهـلـ الـمـشـرـقـ هـذـاـ الـعـهـدـ فـسـكـتـهـمـ غـيرـ مـقـدـرـةـ ، وـإـنـاـ يـتـعـاـلـمـوـنـ بـالـدـيـنـارـيـ وـالـدـرـاهـمـ وـزـنـاـ بـالـصـنـجـاتـ الـمـقـدـرـةـ بـعـدـ مـنـهـ ، وـلـاـ يـطـيـعـوـنـ عـلـيـهـاـ بـالـسـكـةـ نـقـوشـ الـكـلـمـاتـ بـالـتـهـلـيلـ وـالـصـلـاـةـ ، وـاسـمـ السـلـطـانـ ، كـمـاـ يـفـعـلـهـ أـهـلـ الـمـغـرـبـ ، ذـلـكـ تـقـدـيرـ العـزـيزـ الـعـلـيمـ . اـنـتـهـيـ مـنـ مـقـدـمـةـ اـبـنـ خـلـدونـ .

مقدار الدينار والدرهم الشرعيين

قال ابن خلدون في مقدمته عن مقدار الدرهم والدينار، عند الكلام على شارات الملك والسلطان ما يأتي : ولنختتم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما ، وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار ، والموازين بالآفاق والأمصال ، وسائر الأعمال ، والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الأحكام بهما ، في الركاة والأنكحة والخلود وغيرهما ، فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين ، في تقدير تحرى عليهمما أحکاما دون غير الشرعي منها .

فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين ، أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب ، والأوقية منه أربعين درهما ، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار ، وزن المقابل من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير ، فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره حمسون حبة وخمسا حبة ، وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع ، فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع ، أجودها الطبراني وهو ثمانية دوانق ، والبغلي وهو أربعة دوانق ، فجعلوا

الشرعى بينهما وهو ستة دواوين ، فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ، ومائة طبرية ، خمسة دراهم وسطاً .

وقد اختلف الناس هل كان ذلك من موضع عبد الملك ، أو إجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ، وذكر ذلك الخطابي في كتاب معالم السنن ، والماوردي في الأحكام السلطانية ، وأنكره المحققون من المتأخرین لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجھولین ، في عهد الصحابة ومن بعدهم ، مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرهما كما ذكرناه . والحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر ، لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق ، وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج ، وإنما كان متعارفاً بينهما بالحكم الشرعى ، على المقدار في مقدارهما وزتهما ، حتى استفحلا الإسلام وعظمت الدولة ، ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن ، كما هو عند الشرع ، ليستيجوا من كلفة التقدير ، وقولون ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما ، وعينهما في الخارج كما هو في النهن ، ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه ، إثر الشهادتين الإماميتين ، وطرح النقود الجاهلية رأساً حتى خلصت ، ونقش عليها سكة ، وتلاشى وجودها .

فهذا هو الحق الذي لا يحيد عنه ، ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة على مخالفة المقدار الشرعى في الدينار والدرهم ، واحتللت في كل الأقطار والآفاق ، ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما الشرعية ذهناً ، كما كان في الصدر الأول ، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينهما وبين مقاديرهما الشرعية .

وأما وزن الدينار باثنين وسبعين جبة من الشعير الوسط ، فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع ، إلا ابن حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون جبة ، نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق وردد المحققون وعنه وهماً وغلطًا وهو الصحيح ، والله يحق الحق بكلماته ، وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس ، لأن المفارقة مختلفة باختلاف الأقطار ، والشرعية متعددة ذهناً ، لا اختلاف فيها ، والله خلق كل شيء فقدره تقدیراً .

انتهى من مقدمة ابن خلدون .

نقول: إنه يوجد بعض الكتب المؤلفة قديماً وحديثاً عن التقدّم الإسلامية منها كتاب مسكونات إسلامية وهو باللغة التركية ومنها كتاب طبع بمصر نسينا اسمه .

ويمكّبّة شيخ الإسلام حكمت عارف كتاب اسمه «نبأة في التقدّم الإسلامية» وهو بنمرة (٦٣٦) .

بعض آثار مكة المكرمة

مكة في سابق العصور والنهور ، أي : قبل أن يأتي سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر ، كانت وادياً غير ذي زرع ، ولم تكن بها طيسور ولا ذات ضرع ، بل كانت صحراء فاحلة ناشرفة ، مليئة بأشجار السلم ، ذات الشوك التي تنبت بنفسها على مياه الأمطار فقط ، فلم تكن بمكة في تلك العصور البعيدة أنهار ولا آبار مطلقاً ، لذلك لم تكن مكة معروفة ولا مطروفة ، فلا يمر بها بشر ولا طير ولا حيوان ، لأنهم يحتاجون إلى الماء ولا ماء فيها .

فلما أذن الله تبارك وتعالى لخليله أبي الأنبياء ، إبراهيم عليه السلام أن ينهر إلى مكة بابنه إسماعيل وأمه هاجر ، عليهم الصلاة والسلام ، ويسكنهما بمكة ، ثم يعود وحده إلى فلسطين ، عند زوجته الأولى سارة ، رضي الله تعالى عنها ، فامتثل أمر ربه عز وجل ، وقام قاصداً مكة ، يدله عليها جبريل ، صاحب الأنبياء ، عليه وعليهم الصلاة والسلام .

فلما وصل إليها وترك فيها ابنه الرضيع إسماعيل وأمه هاجر ، ومعهما جراث من تمّ وقربة من ماء ، كما فصلنا ذلك في محله من هذا الكتاب ، ونفذ ما عندهما من الماء القليل ، عطش إسماعيل عليه الصلاة والسلام عطشاً شديداً حتى كاد يهلك ، أغاثهما الله تعالى فأنخرج لهما ماء زمزم فشربا منه ، وبسبب وجود هذا الماء المبارك أقامت عندهما قبيلة حرث ، حتى عمرت مكة ، شرفها الله تعالى ، من ذلك الحين إلى عهدهنا الحاضر .

فتكون بئر زمزم هي أول بئر وأقدم بئر عرفت بمكة المكرمة ، ولم يكن بمكة قبلها بئر ولا ماء فقط ، ولا زالت عامرة سائفة واقية شافية إلى يوم القيمة بفضل الله تعالى ورحمته .

الكلام على الآبار التي كانت موجودة بمكة شرفها الله تعالى قدّيماً وحديثاً، يطول شرحها ويعسر إحصاؤها؛ فبعضها قد طمرت قدّيماً، أي قبل عصرنا الحاضر، وبعضها قد طمرت أيضاً في عصرنا هذا، اعتماداً على وجود عين زبيدة، وهذا خطأ لا يقره الناس عليه، لأنه لو حصل خراب في عين زبيدة بسبب السيول أو غيرها، لتعبر الناس أشد التعب في البحث عن الماء العذب، ولقد كتبنا مقالة مستفيضة في عام (١٣٧٥) هجرية، عن وجوب الحفاظة على آبار مكة المشرفة، وذلك في بعض الجرائد المحلية التي كانت تصدر بمكة المشرفة ولا نبالغ إن قلنا إنه يوجد بمكة أكثر من مائة بئر صالحه للشرب وسقي الحدائق المنزليه، بالتحديد يوجد في محله جروي وحلتها نحو أربعين بئراً.

وها نحن نذكر الآن بعض آبار مكة المشرفة التي سمعنا عنها أو رأيناها وإليك

بيان ذلك :

آبار التي كانت بمكة

من المعلوم أن مكة المشرفة لم يجعلها الله تعالى ذات عيون وأنهار، وما لا شك فيه أنها حينما عمّرت لأبد وأن يكون فيها من المياه ما يكفي أهلها، وهذه المياه هي مياه الآبار، التي حفرت بها جاهلية وإسلاماً، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما انتشرت قريش بمكة وكثر ساكنها، قلت عليهم المياه واشتدت المؤنة في الماء فحفروا بمكة آباراً أهـ.

ولقد خصص الأزرق بمبحثاً للآبار التي بمكة قبل زرم، وببحثاً للآبار بعد زرم في الجاهلية، وببحثاً في الآبار الإسلامية، وببحثاً للعيون التي أجريت في الحرم، وكل هذه المباحث قيمة، ولكن لو ذكرناها هنا لطال بنا الكلام، فمن أحب الاطلاع عليها فليراجع الجزء الثاني من تاريخ الأزرق .

وقول الأزرق: الآبار التي كانت قبل زرم ليس المقصود من القبلية قبل خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، لأنه لم تكن آبار بمكة قبل بئر زرم مطلقاً، والتي كانت معجزة وكراهة لإسماعيل وأمه، وإنما المقصود بالقبلية قبل حفر عبد المطلب بن هاشم موضع بئر زرم، الذي كان قد درس مكانه وغفى أثره حينما استخففت جرهم بالحرم، وتهافت بحرمة البيت وأكلت مال

الكعبة المعظمة ، فلما أراد الله تعالى إكرام عبد المطلب بذلك برواء له ، وعرفه موضعه ، ققام بحفر مكان البئر حتى خرج له ماء زمزم ثانياً كما بتنا قصة ذلك . وفي عصرنا هنا يوجد بعكة كثيرة من الآبار القديمة والحديثة ، مع أن ماء عين زبيدة وماه عين العزيزية ملأتا أطراف مكة و الله الحمد ، وماه بعض هذه الآبار معدنية مهضمة نافعة ولذينة الطعم ، خصوصاً إذا بردت في الشراب والقلالي والأواني الفخارية كما جربناها بأنفسنا .

نسأله تعالى أن يديم نعمه على بلده الأمين ، وأن يكثر ماهه ورزقه وخيره وأمانه بفضله ورحمته ، إنه بعباده لطيف خبير .

بئر زمزم

بئر زمزم هي أشرف آبار الدنيا على الإطلاق ، وأول بئر خرجت في مكة المشرفة لإسماعيل ابن خليل الله إبراهيم عليهما السلام ، وقد تقدم الكلام عليها بالتفصيل الثامن عند بناءات الكعبة المشرفة ، فراجعه إن شئت فإنه مبحث تقدير .

بطن ذي طوى

قال الغازى: أخرج الأزرقى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذى طوى حين يعتمر ، وفي حجته حين حج تحت سمرة في موضع المسجد . اهـ .

قال ابن الجوزى «في المثير»: وقد بتته زبيدة «أي المسجد» كذا في البحر العميق، قلت: وقد دثر هذا المسجد ولم يعرف الآن ، كذا في تحصيل المرام .

ثم قال الغازى ص ٣٩٣: قال الفاسى: هو الموضع الذي يستحب فيه الاغتسال للمحرم ، هو على مقتضى ما ذكره الأزرقى في الموضع الذي يقال له بين الحجونين ، لأنه قال : بطن ذي طوى ، ما بين مهبط ثيبة المقبرة التي بالمعلاة ، إلى الثنية القصوى التي يقال لها الحضراء ، تهبط على قبور المهاجرين .

وقال التورى: إنه موضع بأسفل مكة في طريق العمرة المعتادة ، ويعرف اليوم بأبار الزاهر ، واستحباب الفسل بذى طوى للمحرم ، هو منهب الأئمة الأربع ، إلا أن أصحابنا لا يستحبونه للحاضن والنساء ، لأنهما لا يؤمran بالطواف عند

قدومهما مكة ، والفضل إنما شرع لأجل الطواف ، والله تعالى أعلم ، وإنما يطلب من المحرم الاغتسال إذا كان في طريقه . انتهى.

وجاء في كتاب الغازى أيضاً ما نصه : قال السنحاري في منائح الكرم : وفي سنة (١٤٠١هـ) أمر الصنحق محمد بيك بناء بئر طوى ، فبني عليه طاجنا بقبة صغيرة ، وبنى إلى جانبه مسقفاً للبواب ومطاهراً ومسجدًا ، وجعل هناك صفة متزه ، وعين لها معلوماً وجراية للخادم المقيم بها جلبه الماء جزاء الله خيراً .

انظر : الصور أرقام ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ لباب وبئر ذي طوى ، وبرى المؤلف وبعض أولاده على باب البئر

بركة الماجن

جاء في مختار الصحاح البركة بالكسر كالحوض ، والجمع البرك ، قيل : سميت بذلك لإقامة الماء فيها ، وكل شيء ثبت وأقام فقد بر克 . اهـ .

قال الغازى ص (٥٢١) : بركة الماجن بالنون هي على طريق جبل ثور بأسفل مكة ، وشهرة لدى العامة ببركة ماجد بالدال ، وهي قديمة بئر غزيرة الماء مرتبعة الشكل تقريباً ، يحيط بها سور يقدر قامة من الجهات الأربع ، ونحن في ربيع الأول عام (١٣٧٦) ستة وسبعين وثلاثمائة وألف من المحرقة ، أحذنا قياس هذا السور فطول الجدار الذي يقابل الشمال والذي فيه باب البركة واحد وثلاثون متراً وربع المتر ، ومثله طول الجدار المقابل له ، وطول الجدار الشرقي يقابل الجبل أربعون متراً ، ومثله الجدار المقابل له .

يقول الغازى عنها في تاريخه ما يأتي :

أقول : هي الآن ملائنة ، وبجانبها بستان للشريف علي ابن المرحوم الشريف عبد الله يستقى منها ، وقد رفع الشريف علي جدرانها الأربع ، بحيث لا يقدر أحد على النزول إليها ، وكان الناس قبل ذلك ينزلون فيها ويغسلون منها ، وكثيراً منهم كانوا يغرقون ويعطبون فيها ، وأما الآن فسلمت نقوسهم من العطب والهلاك .

والشريف علي بن عبد الله المذكور ، تولى أمارة مكة بعد وفاة الشريف عون في عام (١٣٢٣) ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف من المحرقة .

قال الغازي : وقد عمرت ونظفت هذه البركة سنة (٨٤٨) ، قال ابن فهد : وفي سنة ثمان وأربعين وثمانمائة عمر السيد حسن ناظر الاسكندرية البركة بأسفل مكة ، المعروفة بركة الماجن ، وأخرج ما كان فيها من التراب ورفع جدرانها الأربع . اهـ .

نقول : وقد سلوا سطح بركة ماجن في زماننا هذا سنة (١٣٨٠هـ) .

جاء في تاريخ الغازي نقلأً عن تحصيل المرام ، بعد الكلام على السيل الكبير الذي دخل المسجد الحرام سنة (١٢٧٨) ثمان وسبعين ومائتين وألف ما يأتي :

وفيه أيضاً في موضع آخر وفي هذا السيل عشر مولانا الشريف عبد الله على عين ماء كشف عنها السيل أسفل مكة ، تصب في (بركة ماجن) ، فأمر بتريرع دبليها وتبعد بالحفر فأخنعوا في الحفر ، فمال بهم الدبل من البركة إلى قدام مولد سيدنا حمزة ، ثم إلى بجرى السيل ، من جهة جبل عمر ، ثم مال بهم إلى الهجلة إلى السوق الصغير ، ثم دخل من تحت باب إبراهيم ، حتى خرج بهم من تحت منارة باب علي ، ثم أخذ على القشاشية ، فوخلوا خرزة قدام بيت اليماني بجانب البشر من جهة سوق الليل ، وأدر كهم الحج وبطل العمل اهـ . انتهى من الغازي .

والظاهر أن أول ما زرع عند بركة ماجن كان سنة (٨٥١) كما يفهم ذلك صريحاً من عبارة ابن فهد ، ثم كثر الزرع فيما بعد حتى صار الآن يطلق عليه بستان بركة ماجن .

انظر: صورة رقم ٢٣٤، بركة ماجن بالمسفلة بمكة سنة ١٣٧٦هـ

وتوجد في زماننا بعض آبار نذكر منها بئر الداودية ، وبئر الكحالية بالمعلا ونظم أنها ردمت ، وبئر جبير بن مطعم وهي بأول المدعا ، أي عند الزقاق الملافق لمسجد الراية بالجودية ، وهي البئر التي بلصق جدار بيت الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ، رحمة الله تعالى .

قال الأزرقي عن هذه البئر : إن قصياً حفرها في الجاهلية ، وبئر في بستان المتره التي في معمل الثلوج بجهة مقبرة المعلا ، وبئر في دار أبي سفيان بالمدعى ، والتي تسمى اليوم بمستشفى القبان ، وبئر في نفس المسجد الحرام عند باب إبراهيم ، وهي بئر عظيمة جداً ، وبئر في دار الأيتام التي بمحلة أحجاد وهذه أيضاً بئر عظيمة جداً ، وهناك آثار أخرى بجهة الشبكية وبجهة أحجاد وبجهة المعابدة وبجهة جرول .

هذه الأبيات موجودة إلى اليوم ، وقد ذكر الإمام الأزرقي ، رحمة الله تعالى ، في تاريخه بعض الآثار التي كانت في الجاهلية وبعد الإسلام بمكة المشرفة .

منى

منى تكون أول منزل من منازل الحج ، بعد مكة المشرفة ، وتكون ثالث منزل من منازل الحج ، لمن وقف بعرفات ، أي هي آخر منازل الحج ، بعد الوقوف بعرفات ؛ فالعيد الأكبر للحجاج يكون في منى ، يقضون فيها ثلاثة أيام بلياليها ، ثم ينصرفون منها إلى مكة المشرفة ، ثم يرجعون إلى بلادهم .

والمسافة بين مكة والمشاعر المقدسة كما يأتي :

- ١) المسافة من المسجد الحرام إلى مسجد الحنيف ٩ كيلومترات .
- ٢) المسافة من مسجد الحنيف إلى مسجد مزدلفة ٥ كيلومترات .
- ٣) المسافة من مسجد مزدلفة إلى مسجد غرة بعرفات ٧ كيلومترات .
- ٤) المسافة من مسجد غرة إلى مسجد الصخرات عند جبل الرحمة بعرفات ٣ كيلومترات .

ويوجد بمنى مساجدان مهمان ، أو هما مسجد الحنيف وثانيهما مسجد الكوثر .

انظر: صورة رقم ٢٣٥ ، خريطة مني في عهد الأتراك

انظر: صورة رقم ٢٣٦ ، جزء من مني في عهد الأتراك

انظر: صورة رقم ٢٣٧ ، سوق الجمال إلى المجزرة بمني لذبحها في أيام الحج

ذبح الهدایا بمنى

ذكر الغازي في تاريخه ، نقاً عن تحصيل المرام ما يأتي :

إنه لما حصل الوباء بمكة ، ثاني يوم النحر واستمر بمني قبل السنة المذكورة بعام واحد ، جاءت الأوامر ، من الدولة العثمانية إلى مكة ، في شهر شوال من السنة المذكورة ، ببناء خمسين كنيف بمني ، وأن يجعلوا بها مكاناً خاصاً لذبح الحيوانات ، وكانت قبل ذلك تذبح بها في كل مكان ، انتهى منه .

راجع منظر ٣٠١ ، وهو صورة سوق الجمال إلى المجزرة بمني لذبحها في أيام الحج .

وفي عصرنا الحاضر ، خشية من حصول الأمراض والوباء على الحجاج في منى ، فقد أمرت الحكومة بتخصيص مكان في آخر منى تذبح فيه الحيوانات ، على كافة أنواعها ، ويسمى هذا المكان : (المجزرة) في عرف الحجازيين وبالمذبح في عرف المصريين . وهذا أمر مشكور مستحسن ، ولكننا نقترح أن يجعل في أطرافه منى عدّة مذابح ، ليسهل على الحجاج ذبح الأضحية والفدية ، وما يأكلونه لأنفسهم ، لأن بحيرة واحدة في متنه مني يصعب على الحاج الذي في أول مني الوصول إليها ، لذلك يضطر أن يذبح الحيوان في محل إقامته من خيمة أو تحت صخرة وإليك ما يأتي من التفاصيل :

لنسنا نتكلّم هنا عن حكم الذبائح وأنواعها وكيفية ذبحها وتفرقتها للمستحقين ، وإنما نتكلّم عن الأصل فيها من قديم الزمان ، ناقلين كلام البتونى في كتابه «الرحلة الحجازية» فإنه قال رحمه الله تعالى ما ملخصه: القريان شيء كان يتقرّب به الناس من قديم الزمان إلى الله تعالى ، وكان مختلف نوعه باختلاف الأزمنة والأمكنة، وأول ما وصلنا من أمر القرابين أن قabil بن آدم قرب إلى الله شيئاً من ثرات أرضه ، وقرب أخوه هايل ذبيحة من أبكار غنمه ، قال الله تعالى : ﴿وَاتُّل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَبَا قَرْبَانًا فَقَبِلَ مِنْ أَحْدَهُمَا وَلَمْ يَقْبِلْ مِنَ الْآخَر﴾ .

وبعد الطوفان بنى نوح مذبحة الله قرب إليه فيه كثيراً من الحيوانات ، وكان يحرقها على المذبح ، وكان إبراهيم يتقرّب إلى الله تعالى بالخبز واللحم ، وقد أمره الله أن يذبح له عجلة وعنزاً وكبشَا وحمامة وبعامة (انظر سفر التكوير آية ٩ و ١٧) كما أمره أن يقتدي ولده الذبيح بكبش يذبحه قرياناً ، وذهبت على سنته العرب قبل الإسلام ، ثم المسلمين من بعدهم في أضحيةتهم ، وكان بنو إبراهيم يقربون إلى الله الذبائح ويحرقونها ، حتى أتى موسى فقسم الذبائح إلى دموي وغير دموي ، وهذا القسم الأخير كان ينحصر في الماشية ، التي كانوا يطلقونها في البرية الله تعالى ، ومنها أتت السائبة والبحيرة ، والحامى عند العرب : وهي التي كانوا يطلقونها لأصنامهم ، وما زالت فيهم حتى حرمتها الإسلام .

ومعنى السائبة : الناقة إذا ولدت عشر إناث ليس بينها ذكر سبعة فلم يركب ظهرها ولم يشرب لبنها ولم يجذر وبرها .

والبحيرة ، بكسر الحاء : هي بنت السائبة يخلل سبيلها مع أمها ، والحاامي : الفحل إذا تتع له عشر إناث متتابعات ، ليس بينها ذكر حمي وخلقي في إبله يضرب فيها فلا ينتفع به بغير ذلك ، والعرب يلحقون بها الوصيلة ، وهي الشاة التي أتّامت عشر إناث متتابعات ، في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر .

أما الذبائح الدموية فكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الذبيحة المحرقة ، وذبيحة التكبير عن الخطايا ، وذبيحة السلامة . وكانوا يحرقون الأولى ولا يرون منها شيئاً إلا جلدتها فيأخذنه الكاهن . والثانية كانوا يحرقون منها جانبًا والباقي يأكله الكهنة . أما الثالثة فكانت اختيارية ولحما حل لهم . وكانتوا يشترطون في هذه الذبائح أن تكون خالية من العيوب . وإذا عجز الإنسان عن تقديم ذبيحة من ذوات الأربع كان يكتفي بتقديم ذبيحة من الطيور .

أما الذبيحة ، عند المسيحيين ، فهي محصورة في لحم المسيح ودمه ، اللذين يقدمهما الكاهن ، في صورة خبز وحمر للمتأولين منهم .

فلما غشت عبادة الأوثان والكواكب في الناس كانوا يقدمون إليها شيئاً من نباتات حقوقهم ، ويرحرقونها على هياكلهم ، ثم آل أمرهم إلى استعمال النباتات العطرية كالند والعود وأمثالهما من الأصماع ذات الروائح الحسنة . وفتشا استعمالهما بعد ذلك في الحفلات الدينية على اختلاف أنواعها .

وكان قدماء اليونان يدخلون الملحق في قرابيهم ، لأنه كان عندهم رمزاً للصداقة ، كما كان رمزاً لحسن القرى . وكانوا يضعونه مع حب الشعير في سلة ، ويقدمون منه شيئاً إلى الحاضرين ، ويفتهر أن عادة بعض المصريين ، من رش الملحق في مجتمعاتهم على رؤوس الناس مختلطًا في الغالب مع حب القمح ، وكذلك ما يرشونه منه في أسبوع المولد ، إنما هي مستمدّة من هذا الأصل .

أما الرومان فكانوا يقدمون الذبائح إلى آهتهم بكثرة ، وكان الحاضرون يأخذون من لحومها تبركاً . ويفرقون منه جانباً على من لم يكن حاضره من ذويهم وأهليهم ، وهي عادة باقية في حجاج الهندوج والجاوة المسلمين إلى الآن . وكانت كهنتهم وقت تقديم ذبائحهم يرشون على الحاضرين بواسطة غصن من شجر الغار عسلاً وماءً .

وترقى الناس في ذلك حتى صاروا يرشون ماء الورد في اجتماعاتهم ، ولا تزال هذه العادة مستعملة في الحفلات الدينية على اختلاف مذاهبها إلى الآن .

ولم تقتصر ذبائح القربان على الحيوانات ، بل باللغة كثيرون من الأمم فيها حتى كانوا يقدمون ذبائحهم من البشر ، كالفينيقيين والكنعانيين والصوريين والفرس والرومانيين والمصريين وغيرهم ، وما زالت هذه العادة الشنيعة فاشية ، وعلى الخصوص في أوروبا ، حتى صدر قرار من مجلس الأعيان الروماني ⁶⁵⁷ بمنعها سنة ميلادية ، ومع ذلك فقد استمرت في بلاد الغال وببلاد الجerman إلى ما بعد هذا التاريخ بعده طویلة.

وكان المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء ، ملك الحيرة ، يقدم إلى معبدوه العزى ، الذبائح من البشر ، ولا شك أنه أخذ هذه العادة عن وثنى الفرس .

وقد كان قدماء المصريين يقدمون إلى النيل وكان من معبداتهم في يوم ١١ بؤونة من كل سنة ، غادة من فتياتهم ، وبعد أن يزيثونها بأحسن زينة يغرقونها فيه استمطاراً لرحمة ربهم . وما زالت هذه العادة السخيفية حتى أبطلها عمرو بن العاص ووافقه عليها ابن الخطاب ، رضي الله عنهما ، كما هو مبسوط في المقريزى ، في الكلام على مقاييس النيل وزيادته .

وكثير من العجائز المصريات إلى الآن ، يعملن عروسة من الطين ويغرقنها في إناء من الماء ، في هذه الليلة ، التي يسمونها ليلة النقطة . ويزعمون أن ماء الإناء إذا زاد ثانٍ يوم عما كان عليه ، كان النيل عالياً في سنته وإلا فلا . ولا شك أن هذه العادة صورة بسيطة من التي أبطلها عمرو .

ومن هذا ترى أن المسلمين كانوا أسبق الأمم في تحريم الذبائح البشرية . وهم يسوقون ذبائحهم إلى البيت الحرام ^{بمكة} ، في حجتهم ، ويسمونها هديةًّا ومعناه الهدية . وهو إما من البدن الإبل أو البقر أو الغنم . والإبل أحسنها ، ويشترط لا يكون عمرها أقل من خمس سنوات ، وألا يكون عمر البقر أقل من ستين ، والغنم أقل سنة .

وقد قسموا الهدى إلى واجب في دم الكفارات ، ومندوب في دم الشكر .
واشترطوا أن يكون ذبح الهدى ^{بمعنى} في أيام النحر وهو الأفضل ، أو ^{بمكة} في غير أيام التشريق ، وأن يفرق لحمه على الفقراء من عباد الله .

انتهى من الرحلة الحجازية .

انظر: صورة رقم ٢٣٨ ، جزء من مجررة مني من الداخل
انظر: صورة رقم ٢٣٩ ، جزء من مجررة مني من الداخل

رجم الجمرات الثلاث عنى

لا نقصد من رجم الشياطين ، حكم الرمي وكيفيته ، ولكن نتكلّم هنا عن أصل الرجم قديماً ، ناقلين كلام البتوني ، رحمة الله تعالى ، في كتابه «الرحلة الحجازية» فإنه قال ما ملخصه :

الرجم ، في اصطلاح الحجيج : رمي غرض مخصوص في مني بسبع حصيات في حرم الفولة ، وهذا الغرض يسمى جمرة ، والجمرات الثلاث : جمرة العقبة ، والجمرة الوسطى ، والجمرة الصغرى ، ولكل جمرة مكان مخصوص ، ورميها واجب باتفاق المذاهب .

والعرب كانوا يرجون هذه الجمرات الثلاث في حرمهم قبل الإسلام ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم ، وهو في تلك الجهة ، بذبح ولده إسماعيل ، فأخذته وسار ليصدع بأمر ربه فرسوس له الشيطان بأن لا يفعل ، فأخذ حصيات ورماه بها ، وكان ذلك في المكان الذي به الجمرة الأولى ، فتركه وسار إلى هاجر ، وأخذ يقبح لها عمل إبراهيم ، فأخذت حجارة ورمته بها ، وكان ذلك في مكان الجمرة الثانية ، فنذهب إلى إسماعيل يشنع له عمل أبيه ، فأخذ قبضة من الحصى ورماه بها ، وكان ذلك في مكان الجمرة الثالثة . لذلك كانت تترجم العرب هذه الأمكانة مشخصين بذلك الشيطان ، وأقرّهم عليه الإسلام .

ولا غرابة في ذلك لأن الناموس الطبيعي يقضي بأن يكون كل معنى من المعاني مصدره المادة ، وعليه فهذا الرمي المادي يصل بلا شك لمعنى دقيق جليل في ذاته ، وهو تربية ملكة حديدة في شخص الرامي ، وهي خالفة شيطان النفس والابتعاد عن مسالك الشرور . والرجم أمر قديم في الأمم ، قال الله تعالى في سورة الشعراء في إجابة قوم نوح على نصائحه لهم : ﴿فَلَمْ تَتَّهِ يَا نُوحُ لِتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ وقال تعالى في سورة هود ، في حوار أهل مدین على نصيحة نبيهم شعيب لهم : ﴿فَقَالُوا يَا شَعِيبَ مَا نَفْعَلُ كَثِيرًا مَا تَقُولُ وَإِنَّا لِنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لِرَجْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ .

وذكر الرجم في بني إسرائيل قال : «فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبنااته وبقره وحميره وغنمته وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه ، وصعدوا بهم إلى وادي عجور ، فقال يشوع : كيف كدرتنا

يذكرك الرب في هذا اليوم ، فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورمونهم بالحجارة ». والنصارى يرجمون مكان شجرة النبي ، التي لعنها المسيح ، حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمرة ، ومكان هذه الشجرة على طريق الذاهب من بيت المقدس إلى نهر الأردن ، في الوادي الذي ينزل على يسار جبل الزيتون .

والعرب كانوا يرجمون في الجاهلية من سخطوا عليه حياً أو ميتاً ، فكانوا يرجمون الزاني المحسن حياً لشناعة عمله ، وأقرتهم عليه الشريعة الغراء ، كما كانوا يرجمون قبور من ينقمون عليهم ، وهم يرجمون من القرن الأول قبل الهجرة قبر أبي رغال في المغمس بين مكة والطائف ، لأنه كان يقود جيش أبرهة إلى مكة «أبي يدھم عليها». فمات في هذا المكان قبل وصوله إليها . والمسلمون يرمون قبر أبي هب خارج مكة ، ويرمون قبر أبي جهينة ، في طريق العمرة ، لأنه كان من حكام مكة الظالمين .

وقد ورد في قوله : «إن المسلمين يرمون قبر أبي هب خارج مكة» هذا الكلام لا صحة له مطلقاً ، وإن كان ذلك شائعاً إلى اليوم حتى عند أهل مكة ، فقبر أبي هب ليس في هذا المكان ، وإنما هنا قبر رجلين لطخنا الكعبة المشرفة ، في دولة بنى العباس ، فكان الناس يرجمونهما كما ذكر ذلك صاحب «إنسان العيون في سيرة الأمين المؤمن» ، وقد نبهنا على هذا سعادة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد إبراهيم الغزاوي ، شاعر جلالة مليكنا المعظم ورئيس مجلس الشورى في مقالاته الممتعة ، التي يكتبها تحت عنوان «مطالعات وتعليقات» بمديرية البلاد السعودية الغراء ، في الرقم المتسلسل (٥٦٣) أسبغ الله عليه نعمه وأدام توفيقه .

وما ذكره البتوبي هنا من علة رجم الجمرات ، ذكره الإمام الأزرقي برواية أخرى ، عن مجاهد ، أنه قال : لما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، "ربنا أرنا مناسكتنا" ، أمر أن يرفع القواعد من البيت ثم أرى الصفا والمروة ، وقيل : هذا من شعائر الله . قال : ثم خرج به جبريل فلما مر بجمرة العقبة إذا يابليس عليها فقال جبريل : كبر وارمه ، ثم ارتفع إبليس إلى الجمرة الوسطى ، فقال له جبريل : كبر وارمه ، ثم ارتفع إبليس إلى الجمرة القصوى ، فقال له جبريل : كبر وارمه ، ثم انطلق به إلى المشعر الحرام «أي مزدلفة» ثم أتى به إلى عرفة فقال له جبريل : هل

عرفت ما أرتيك ثلاثة مرات؟ قال: نعم، قال فأذن في الناس بالحج... الخ.
انتهى.

والحكمة في رمي الحجارة لا تعقل لأنه أمر تعبد للي للعقل فيه مجال ، كما يفهم ذلك مما أخرجه سعيد ابن منصور أنه **ﷺ** سئل عن رمي الحمار فقال: «الله ربكم تكبرون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون ، ووجه الشيطان ترمون» انتهى .

ولقد كان يظهر جمرة العقبة جبل مستطيل ، غير مرتفع سوى بضعة أمتار ، ويبلغ طوله نحو مائة متراً تقريباً ، فازالته الحكومة السعودية سنة (١٣٧٨) ألف وثلاثمائة وثمانية وسبعين هجرية .

إزاله الجبل الذي يظهر جمرة العقبة

جمرة العقبة وهي التي ترمى فقط من مزدلفة يوم عيد الأضحى ، ليس لها إلا وجه واحد ، لأنها ملتصقة بالجبل ومنه يكون الرمي ، فإن النبي **ﷺ** رمى من بطنه الوادي فجعل مكة عن يساره ومني عن يمينه ، وكذلك فعل الصحابة من بعده رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

أما الجمرتان الأولى والوسطى فرميهما يكون من جميع الأطراف ، حيث يقعان بوسط الشارع لا يتصل بأحدهما شيء مطلقاً .

وبواسط كل جمرة من الجمرات الثلاث علامه كالعامود مرتفعة نحو قامة مبنية بالحجارة إشارة إلى موضع الرمي ، وهذه العلامات على الجمرات لم تكن في صدر الإسلام وإنما أحدثت فيما بعد ، والعلامة التي على جمرة العقبة ملتصقة بالجبل كما ترى كل ذلك في الصورة .

انظر: الصور أرقام ٢٤٠، ٢٤١ للجمرة الوسطى ، والكبيرى ، ورقم ٢٤٢ للجمرات الثلاث .

ثم إنه في القرن الثالث للهجرة كاد محل الرمي من جمرة العقبة أن يختفي لكثره الحصى المتجمع من رمي الناس ، ولغفلتهم عن إزالتها وإبعادها فبني إسحاق بن سلمة الصائغ من وراء الجمرة جداراً ورفعه عن أعلىها حتى لا يتمكن الناس من الرمي من أعلى جمرة العقبة ، بعد أن أزال الحصى المتجمعة عن محل الرمي ، وكان ذلك في النصف من شعبان سنة (٢٤٢) اثنين وأربعين ومائتين من الهجرة ، بأمر

أمير المؤمنين التوكل على الله ، كما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه وسند ذكر عبارته . وإليك صورة جمرة العقبة والجدار المبني ورائعها ظاهر فيها ، كما تظهر فيها العلامة المنصوبة محل الرمي .

انظر: صورة رقم ٢٤٣ ، جمرة العقبة أثناء الإصلاحات الجديدة

وهذا الجدار الذي يظهر في الصورة الفوتوغرافية ، ليس هو نفس الجدار الذي بناه إسحاق بن سلمة الصائغ ولكن هذا موضعه ، فإن هذا الجدار قد جدد بناؤه مراراً وتكراراً في هذه السنين الطويلة التي مرت ، وتعود بنحو (١١٣٤) سنة من تاريخ البناء الأول إلى تاريخ كتابة هذه السطور والذي يظهر لنا من كلام الأزرقي الآتي أن هذا الجدار الذي بناه إسحاق هو أول جدار بني على جمرة العقبة . والله تعالى أعلم .

وإليك عبارة الأزرقي بعد أن ذكر أن حجبة الكعبة كتبوا إلى أمير المؤمنين التوكل على الله يجعل جميع زوايا الكعبة من الذهب الخالص وعمل منطقة من الفضة توضع فوق إزار الكعبة تحيط بتربيعها من جميع الجهات ، وتلييس كرسى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالفضة ، بدلاً من الرصاص ، إلى غير ذلك (قال) : فأمر أمير المؤمنين بعمل كل الإصلاحات بغاية الإحكام وأمر بتوجيه إسحاق بن سلمة الصائغ إلى مكة المشرفة وهو من كبار أهل الصناعات والحرف وله درية واسعة ووجه معه من الصناع من اختارهم إسحاق بن سلمة المذكور ، من لهم معرفة بشتى الصناعات من الصواغ والرخامين وغيرهم فكانوا نيفاً وثلاثين رجلاً فقدم إسحاق بمن معه من الرجال والذهب والفضة والرخام والآلات إلى مكة لليلة بقيت من رجب سنة (٢٤١) إحدى وأربعين ومائتين ، ومعه كتاب مختوم بخاتم أمير المؤمنين إلى عامل مكة لمساعدة إسحاق وتسهيل مهمته فباشر إسحاق بن سلمة عمله بمكة وبمعنى في شعبان من السنة المذكورة وانتهى من جميع الأعمال كلها في النصف من شهر شعبان من السنة التالية أي سنة (٢٤٢) وبعد فراغه من الحج في آخر السنة المذكورة انصرف إسحاق راجعاً بعد أن سلم حجبة الكعبة ما خلطه مما بقي من الجص الصناعي وما قلع من أرض الكعبة من الرخام المتكسر ، مما لا يصلح إعادةه في شيء من العمل وثلاثة حقائق من الذهب الرقيق وجراب فيه تراب مما قشر من جدار الكعبة ومسامير فضة صغار ترك إسحاق كل ذلك لدى الحجابة لما عسى أن يحتاجوا إليه لها .

هذا ما ذكره الأزرقي أتينا به تمهيداً لكتابه عن بناء الجدار الذي وراء جمرة العقبة فقد قال رحمة الله تعالى عنه ما يأتي :

وابتدأ إسحاق بن سلمة عمل الذهب والفضة والرخام في الدار المعروفة بخالصة في دار الخزانة عند الخليطين وصار إلى مني فأمر بعمل ضفيرة تتحذ ليرد سيل الجبل عن المسجد ودار الإمارة فاتخذ هناك ضفيرة عريضة مرتفعة السماك وأحکمها بالحجارة والنورة والرماد ، فصار ما ينحدر من السيل يتسرّب في أصل الضفيرة من خارجها ، ويخرج إلى الشارع الأعظم يعني ، ولا يدخل المسجد ولا دار الإمارة منه شيء وصار ما بين الضفيرة والمسجد وهو عن يسار الإمام رفقاً للمسجد وزيادة في سعته ثم هدم المسجد وما كان من دار الإمارة مستهدماً وأعاد بناء ورم ما كان مسترماً ، وأحکم العقبة وجدرانها ، وأصلح الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ مني إلى الشعب ومعه عباس بن عبد المطلب الذي يقال له شعب الأنصار الذي أخذ فيه رسول الله ﷺ البيعة على الأنصار وكانت هذه الطريق قد عفت ودرست فكانت الحمرة زائدة عن موضعها أزاحها جهال الناس برميهم الحصى وغفل عنها حتى أزاحت عن موضعها شيئاً يسيراً منها من فوقها فردها إلى موضعها الذي لم تزل عليه وبني من ورائها جداراً أعلى عليها ومسجدًا متصلًا بذلك الجدار لعل يصل إليها من يريد الرمي من أعلىها وإنما السنة لمن أراد الرمي أن يقف من تحتها من بطن الوادي فيجعل مكة عن يساره ومني عن يمينه ويرمي كما فعل رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده وفرغ من البرك وأحکم عملها ، وعمل الفضة على كرسي المقام مكان الرصاص الذي عليه واتخذ له قبة من خشب الساج مقبة الرأس بضباب لها من حديد ملبسة الداخل بالآدم .. انتهى المراد من كلام الأزرقي .

فهذا هو تاريخ بناء الجدار الذي وراء جمرة العقبة الملتصق بالجبل الذي وراءه .
ولم نر أحداً من المؤرخين ذكر شيئاً عن هذا الجدار غير الأزرقي .

انظر: صورة رقم ٢٤٤ ، جمرة العقبة بعد إزالة الجبل من ظهرها وفرض الأرض بالأسفل

وأما الجبل الذي وراء جمرة العقبة فقد كان في كل موسم حج يتحذ الناس حوله دكاً كين للحلاقة وبيع المأكولات من قديم الزمان إلى عصرنا هذا أي إلى سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة ألف حيث صدرت فتاوى شرعية من

الشيخ عبد الله بن عمر بن دهيش رئيس المحاكم الشرعية بمكة المكرمة يازالة هذا الجبل لتوسيع المنطقة المحيطة بحمرة العقبة على أن لا يرمى من خلفها أي موضع الجدار وكانت هذه الفتوى صدرت من فضيلته بناء على طلب من سمو وزير الداخلية الأمير عبد الله الفيصل آنذاك فأزال حكومتنا السعودية في هذه السنة المذكورة هذا الجبل توسيعة على الناس فقد كان بين هذا الجبل والجبل المقابل له ممر ضيق يمر الناس عليه مشاة وركباناً وبالسيارات (الأوتومبيلات) فلما أزيل الجبل المذكور الذي وراء العقبة تفسح الطريق وتتوسع فاستراح الناس بذلك وفي سبيل إزالة الجبل الذي كان يظهر حمرة العقبة وإصلاح الشارعين من العقبة إلى مكة واصلاح مجر الكبش يعني ضرب وأثير (٣٥٠) ثلاثة وخمسون طناً من الديناميت . والطن هو / ١٠٠٠ كلغ .

أما حمرة العقبة بعد إزالة الجبل ؛ فقد بنت الحكومة السعودية جداراً في ظهر العلامة المنصوبة (الشانص) كاجدار الذي كان في قديم الزمان ، حتى لا يرمي الحمرة أحد من وراء ظهرها بل يكون الرمي من بطن الوادي ، كما كان سابقاً ، وقد تم بناء هذا الجدار الذي يظهر حمرة العقبة في النصف الأول من جمادى الأولى سنة (١٣٧٦) من الهجرة سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف .

وصفة هذا الجدار الذي بني جديداً لأول مرة عقب إزالة الجبل الذي كان يظهر حمرة العقبة هي أن الجدار المذكور عبارة عن بناء مربع لاصق بحمرة العقبة من الخلف طوله خمسة أمتار وستون سنتيمتراً ، وعرضه ثلاثة أمتار وستون سنتيمتراً وارتفاعه متان وعشرة سنتيمترات .

فكان رمي الناس في حجتهم حمرة العقبة لأول مرة بعد إزالة الجبل وبناء هذا الجدار المربع في سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف وهي نفس السنة التي أزيل فيها الجبل وبين فيها البناء المربع المذكور .

فإذا تأملنا نجد أن هذا الجبل الذي يظهر العقبة كان في موضعه هذا منذ أن خلق الله الدنيا في بدء الخلق إلى عصرنا هذا ثم إنه أزيل الجبل كله من وجه الأرض في السنة المذكورة فسبحان من له البقاء والدوم وسبحان من يغير ولا يتغير جل جلاله وعظمت قدرته وقد صدق من قال : (همم الرجال تزيل الجبال) اللهم ثبت قلوبنا على دينك و توفنا مسلمين آمين يا رب العالمين .

واعلم أن ما بين جمرة العقبة وبين الجمرة الوسطى (١١٦) متراً وما بين الجمرة الوسطى وبين الجمرة الصغرى (١٥٦) متراً. هكذا ذكره إبراهيم رفعت باشا رحمة الله تعالى في كتابه «مرآة الحرمين».

عمل من أحیض بمنى

في منى يوجد كثير من بيوت الخلاء العامة «أي الطهاير» في اصطلاح المجازيين ويسمى بيت الخلاء بعصر الكثيف أو المرحاض ، عملت لقضاء حاجة الإنسان في مختلف جهات منى . ففي كل جهة منها نحو عشرة مراحيس ، مبنية كلها بالحجارة والنورة يعني أولاً جدار طوله نحو عشرة أمتار وارتفاعه أقل من القامة ثم تقسم هذه الجدر إلى نحو عشرة مراحيس يفصل بين كل واحدة منها جدار قصير وليس لهذه المراحيس ضمن سقف وبالضرورة هذه المراحيس العامة لا تكون نظيفة أبداً .

وكان ابتداء عمل هذه المراحيس سنة (١٢٨٢) اثنين وثمانين ومائتين وألف ، فقد ذكر الغازى في تاريخه نقاًلا عن كتاب «تحصيل المرام» أنه لما حصل الوباء بمكة ، ثاني يوم النحر واستمر يعني قبل السنة المذكورة بعام واحد جاءت الأوامر من الدولة العثمانية إلى مكة في شهر شوال من السنة المذكورة ببناء خمسين كثيف يعني وأن يجعلوا بها مكاناً خاصاً لذبح الحيوانات وكانت قبل ذلك تذبح بها في كل مكان. اهـ.

انظر: صورة رقم ٢٤٥ ، خزانات المياه وأسفلها دورة المياه المراحيس ،

ولما قامت حكومتنا السعودية بحركة عمرانية واسعة بالحرمين الشريفين بل بأنحاء المملكة كلها عملت يعني عدة مراحيس بالإسمنت والحديد وكان ذلك سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف .

والحقيقة أن كثرة بناء المراحيس العامة في «منى» لقضاء الحاجة لها نفع كبير لعامة الحاج من جهة راحتهم ومن جهة نظافة منى فإنهم يمكنون بها ثلاثة أيام أو أربعة . وأما في عرفات وفي مزدلفة فلا لزوم لعمل مراحيس بهما لقلة مكث الحاج فيهما لأنهم يمكنون في عرفات يوماً واحداً ، وفي مزدلفة ليلة واحدة .

وغرفات ومزدلفة صحراء واسعة لا بناء فيها ، وأما منى ففيها كثير من البيوت والمنازل .

وحبذا لو بنت الحكومة مراحيل كثيرة لا عدد لها في أواسط منى وأطرافها لكن أن تكون تحت سطح الأرض لعدم تشويه المنظر وتضييق الأمكنة.

المفجر وراء مني

المفجر : موضع معروف من قديم الزمان إلى اليوم وهو يقع في أواخر منى على يمين الصاعد إلى مزدلفة من بطن منى من جهة مسجد الحيف ، ويقع على يساره إن ذهب من وراء جبال منى ، وهو موضع مشهور يمتد من سفح الجبل من بطن منى إلى سفح الجبل من الجهة المقابلة من وراء منى ، وهذا الجبل مشقوق من وسطه ، مهد طريقه وبملتقى بالحجارة المرصوفة من أول الشق إلى أن يتنزل الإنسان منحدراً من الجبل إلى ما وراء منى ، وهذا الطريق المرصوف بالحجارة واسع جداً، وفي أسفله من وراء منى يوجد خزان كبير للماء تابع لعين زبيدة فإن بهذا المكان يجرى قناة عين زبيدة وقد أقيمت عليه آلة بخارية راقفة لتوصيل الماء إلى قناة منى ، وقد رصف هذا الطريق في عهد الأتراك لكن لا نعلم متى رصف ولماذا رصف.

وهذا المفجر يقال له بطحاء قريش كانوا في الجاهلية وأول الإسلام يتذرون به وينزجون إليه بالغداة والعشي .

ورد في تاريخ الأزرقي : أنه لما كان آخر أيام منى ، أرسلت قضاة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلمو إلى قصي بن كلاب «الجدع الرابع للنبي ﷺ» ما جعل له حليل «وهو ولاية البيت» وعظموا عليهم القتال في الحرم وخذروهم الظلم والبغى بعكة وذكرورهم ما كانت فيه جرهم وما صارت إليه في حين أخذوا فيه بالظلم والبغى .

فأبانت خزاعة أن تسلم ذلك ، فاقتتلوا بعفاضي مأزمي مني . قال : فسمى ذلك المكان «المفجر» لما فجر فيه وسفك من الدماء واتهك من حرمته ، وقد اقتتلوا قائلاً شديداً حتى كثرت القتلى من الفريقين جميعاً وفشت فيهم الجراحات وقد استكفى حاج العرب من مضر واليمن بالنظر إلى قتالهم ثم تداعوا إلى الصلح

ودخلت قبائل العرب بينهم ، وعظموا على الفريقين سفك الدماء والفحور في
الحرم فاصطلحوا .. إلى آخر ما جاء فيه .

وقد ذكرنا هذه القصة في محلها في مكان آخر . هذا هو أمر المفجر.عمني .

بناء المدرجات يعني في العمران وغيرهما سابقاً

لا يخفى أن أرض مكة وما يحيط بها أرض جبلية صخرية ، فالمشي في بعض
طرقها فيه بعض صعوبة لذلك قام بعض من وفقهم الله تعالى بإصلاح الطرقات
العامة الواقعة بين جبلين متقاربين وذلك بتكسير الصخور من الطريق ثم فرشه
بالأحجار والنورة «الجص» وجعله على هيئة الدرج ، يكون طولها بمقدار ما بين
الجبلين غالباً يكون نحو خمسة أمتار ، وعرض كل درجة نحو متراً واحداً ، وأما
ارتفاعها فأقل من الشبر حتى يمكن المشي بسهولة للإنسان والدواب ، أي بصفة
الأحجار المفروشة الباقية إلى اليوم ، أسفل جبل الرحمة بعرفات .

وهذه العملية أي فرش الطرق وكذلك داخل المساجد والمنازل بالأحجار
المتحوتة بالنورة كان أمراً شائعاً فيما سبق من الأزمان قبل أن يهتدوا إلى فرش
الطرقات بالإسفلت «الرفت» فإنهم لم يهتدوا إلى هذا إلا منذ خمسين سنة تقريباً
فكأن ما فرشوه بالحجارة مدرج مني وهو الطريق الضيق الذي كان بين الجبل
الذي يظهر حمرة العقبة والجبل المقابل له فكانت قوافل الجمال المحملة في أيام الحج
تمر منها بسهولة تامة ، وطريق العمرة إلى التعميم ، وكان طريقاً ضيقاً بين جبلين
متقابلين بقرب التعميم بعد الشهداء وكذلك طريق الحجرون بالمعلا وكذلك الطريق
الضيق بين الجبلين بربع أبي لهب ولا تزال آثار حجارة هذا الطريق باقية إلى اليوم .
وفرشوا أيضاً أسفل جبل الرحمة بعرفات بالحجارة والنورة ، ولا يزال هذا
الفرش باقياً إلى اليوم على حاله بدون أن يحدث فيه خراب يذكر ، كما لا يزال
فرش الحجارة فوق جبل الرحمة على حاله أيضاً إلى اليوم ، وأما الدرج المبنية المؤدية
إلى فوق الجبل فقد حدث فيها خراب .

وإليك ما ورد في التاريخ عن فرش هذه الأماكن بالحجارة والنورة : فقد جاء
في تاريخ الغازي ، نقاً عن السنجاري ، في حوادث سنة (١٠٨٥) خمس وثمانين
ألف : وفي شوال من هذه السنة شرع الشيخ محمد بن سليمان في تنظيف
الحجرون ، وأمر يجعل ظفيرتين من الجانيين رضماً بلا طين ، وكان ابتداء عمله يوم

السبت السادس شوال . ولما فرغ من ذلك شرع في إصلاح مدرج منى ، وتكرر ركوبه لذلـك مراراً عديدة ، فبـره وبنـي ظفـيرتين أيضـاً من جـانبي المـدرج . انتـهى .
و جاء في الجزء الأول من تاريخ العازـي عن فـرش طـريق رـبع أـبي هـب وغـيره بالـحجـارة لـسـهـولة المـمـر والـمشـي فقال : وفي شهر رجب سنة (١١٣٢) اثـنتـين وـثـلـاثـين وـمـائـة وـأـلـف عمر بـطـريق الـنـيـابة عن الـأـمـير إـسـمـاعـيل بـك ابن إـيـواز بـك ، مـولـانا الشـيـخ سـالـيم بن عـبـدـالـله البـصـري الـحـكـيـم بـطـريق الـعـمـرة ، فـكـسـرـ أحـجـارـه وـجـعـلـه حـجـراً مـفـرـوشـاً ، وـكـان يـؤـذـي الـمـاشـي وـالـراكـب ، وـدـكـه بـالـنـورـة وـكـذـلـك درـج الـحـجـون ، وـكـذـلـك درـج رـبع أـبي هـب .

مسجد الخيف في مني

قال في مختار الصحاح : الخـيف ما انـدر عن غـلـظ وارتـفع عن مـسـيل المـاء وـمنـه سـيـ مـسـجـدـ الخـيفـ بـمـنـيـ . اـهـ .

قال الأزرقي : اسم الجبل الذي مسجد الخيف بأصله الصابع ، واسم الجبل الذي في وجاهه على يسارك إذا أتيت من مكة القابل وهو من الأثيرة . اـهـ .
ومسجد الخيف بـمـنـيـ ، هو أـوـسـعـ مـسـجـدـ مـزـدـلـفـةـ وـمـنـ مـسـجـدـ نـمـرـةـ بـعـرـفـاتـ ، وـلـقـدـ قـمـنـاـ بـذـرـعـ هـذـهـ مـسـاجـدـ ثـلـاثـةـ فيـ آـخـرـ شـعـبـانـ سـنـةـ سـتـ وـسـبـعينـ وـثـلـاثـائـةـ وـأـلـفـ مـنـ الـهـجـرـةـ . فـطـولـ مـسـجـدـ الخـيفـ مـائـةـ وـخـمـسـةـ وـثـلـاثـونـ مـتـراًـ ، وـعـرـضـهـ مـائـةـ وـأـرـبعـ أـمـتـارـ ، وـلـهـ مـنـ الـجـهـةـ الـشـرـقـيـةـ ثـلـاثـةـ أـبـوـابـ ، وـمـنـ الـجـهـةـ الـيـمـانـيـةـ «ـأـيـ الـجـنـوـيـةـ»ـ بـابـ وـاحـدـ فـقـطـ . وـقـدـ ذـكـرـنـاـ قـيـاسـ الـمـسـجـدـيـنـ الـآـخـرـيـنـ عـنـ الـكـلـامـ عـلـيـهـمـاـ ، وـلـقـدـ زـيـدـ فيـ مـسـجـدـ الخـيفـ بـمـنـيـ بـعـضـ زـيـادـاتـ فيـ التـعـمـيرـ الـذـيـ حـصـلـ فيـ سـنـةـ (١٣٨٣)ـ هــ .

انظر: صورة رقم ٢٤٦ ، مسجد الخيف بـمـنـيـ وـتـظـهـرـ بـعـضـ الـمـنـازـلـ الـتـيـ أـنـشـئـتـ عـنـدـهـ مـنـ جـهـةـ الـجـبـلـ

انظر: صورة رقم ٢٤٧ ، الـبـابـ الـعـمـومـيـ لـمـسـجـدـ الخـيفـ بـمـنـيـ وـبـرـيـ الـمـؤـلـفـ وـوـلـدـهـ

فـمـسـجـدـ الخـيفـ مشـهـورـ عـظـيمـ الـفضلـ ، فـفـيـ الـجـامـعـ الـلـطـيفـ : أـخـرجـ الطـبـرـانيـ ، فـيـ مـعـجمـ الـكـبـيرـ ، عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ ، رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، عـنـ النـبـيـ ﷺـ أـنـهـ قـالـ : «ـصـلـىـ فـيـ مـسـجـدـ الخـيفـ سـبـعونـ نـبـيـ مـنـهـمـ مـوـسـىـ»ـ . وـكـذـاـ أـخـرـجـهـ الـأـزـرـقـيـ أـيـضاـ ، وـفـيـ روـاـيـةـ عـنـ مـجـاهـدـ خـمـسـةـ وـسـبـعونـ نـبـيـ

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال: "صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً ، كلهم مخطمون بالليف" . قال مروان : يعني رواحهم ، وذكر العلامة صاحب القاموس ، في كتابه « الوصل والمعنى في بيان فضل مني » بسنده جيد عن أبي هريرة ، أنه كان يقول : "لو كنت من أهل مكة لأتيت مسجد مني كل سبت" . وأخرج الأزرقي ، عن أبي هريرة بلفظ : "لو كنت من أهل مكة ما أتى علي سبت حتى آتني مسجد الخيف فأصلي فيه" . انتهى.

وذكر الحب الطبرى في القرى عن مجاهد قال : "حج البيت خمسة وسبعون نبياً كلهم قد طاف بالبيت ، وصلى في مسجد مني ، فإن استطعت أن لا تقوتك الصلاة فيه فافعل" . أخرجه الأزرقي وأبو سعد . انتهى.

وقال الأسدى في أخبار الكرام: ومصلاه عليه السلام فيه ، وهو محلحراب القبة الكبيرة التي في وسط المسجد ، كما قاله ابن ظهرة . انتهى .

وقال في تحصيل المرام ، وفي الإعلام: وقد بنت قبة على موضع مصلى رسول الله عليه السلام . وفي حاشية الشيخ يحيى الحباب: مصلاه عليه السلام هو في الحراب الذي في القبة الكبيرة ، التي في وسط مسجد الخيف . انتهى .

ثم قال القطب في الإعلام: وهذه القبة ، التي بصحن المسجد التي على موضع مصلاه عليه السلام بناها السلطان قايتباي وذلك في آخر سنة سبع وسبعين وثمانمائة أو التي بعدها . انتهى .

قال الأزرقي : إن قبر آدم عليه السلام بقرب المنارة فيها ، ذكره القرشى . وقيل: قبره في جبل أبي قبيس ، وقيل: في الهند ، وقيل غير ذلك .

وقال العلامة الميرغنى في عدة الإنابة : وأما تعين مصلى النبي عليه السلام منه فعند الحراب ، الذي في القبة التي في وسط المسجد فإنه بني في موضع أحجار كانت هناك ، وكان مصلاه عليه السلام عندها .

والقبة هي المسجد الأصلى . قيل: إنه محل الأنبياء ومصلى الأنبياء ، وفيه قبر آدم عليه السلام ، وأما ما زاد على القبة فمن زيادة الأشرف قايتباي .

وأخرج الأزرقي عن خالد بن مضرس أنه رأى أشيانحاً من الأنصار يتحرون مصلى رسول الله عليه السلام أمام المنارة قريباً منها .

قال جدي : الأحجار التي بين يدي المثارة وهي موضع مصلى النبي ﷺ لم نزل نرى الناس وأهل العلم يصلون هنالك ، ويقال له : مسجد العيشومة ، وفيه عيشومة أبداً خضراء في الجدب والخصب بين حجرين من القبلة ، وتلك العيشومة قديمة لم تزل ثمّ . انتهى ، ولا وجود لها الآن . انتهى ما في عدة الإنابة .

وقال ابن فهد في إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، في حوادث سنة أربعين ومائتين : إنه كتب والي مكة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكّل على الله أن ما على ظهر الكعبة من الكسوة أضر بمقدارانها وإنما لو جردت أو خففت عنها بعض ما عليها من الكسوة ، كان أصلح وأوفق وأن أمطار الخريف قد كثرت وتوالت بمكة ومني في هذا العام فهدمت منازل كثيرة وأن السيل حمل في مسجد رسول الله ﷺ وإبراهيم نبي الله ﷺ المعروف بمسجد الحيف فهدم شقورته وعامة جدرانه وذهب بما فيه من الحصبة فأغاراه وهدم من دار الإمارة يعني وما يليها جدران وعدة أبيات وهدم العقبة المعروفة بجمرة العقبة وبرك الياقوتة وبرك المأذمين والحياض المتصلة بها ، وأن العمل في ذلك إن لم يتدارك ويتبارد بإصلاحه كان على سبيل زيادة . فوجه أمير المؤمنين المتوكّل على الله في سنة إحدى وأربعين رجلاً من صناعه يقال له إسحاق بن سلمة إلى مكة ، فقدمها وبعد قدومه بأيام دخل الكعبة ومعه العامل بمكة وصاحب البريد وجماعة من الحجاجة وناس من أهل مكة فوجدوا الجدار كأصح ما يكون من البناء وأحكمه فقام إسحاق بن سلمة بين بابي الكعبة وأشرف على الناس قال : يا أيها الناس احمدوا الله سبحانه وتعالى على عمارة بيته ، فإذا لم نجد به من الحديث ما كتب به إلى أمير المؤمنين بل وجدنا الكعبة وجدرانها أتقن ما يكون وسار إلى مني فأمر بعمل ضفيرة تخذل ترد سيل الجبل عن المسجد ودار الإمارة فاتخذ هناك ضفيرة مرتفعة السمك ، وأحكمنها بالحجارة والنورة .

ثم هدم المسجد وما كان من دار الإمارة مستهداً وأعاد بناءه ورم ما كان مسترثماً ، وأحكם العقبة وجدرانها وأصلح الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ من إلى الشعب ومعه العباس بن عبدالمطلب ، والذي يقال له شعب الأنصار الذي أخذ فيه رسول الله ﷺ البيعة على الأنصار ، وكانت هذه الطريق قد عفت ودرست وكانت الجمرة زائدة عن موضعها أزالتها جهال الناس برميهم الحصى وغفل عنها حتى أزيلت عن موضعها شيئاً يسيراً منها من فوقها ، فردها إلى

موضعها الذي لم تزل عليه وبني من ورائها جداراً أعلىها عليها ومسجدًا متصلًا بذلك الجدار لثلاث يصل إليها من ي يريد أن يمر من أعلىها وإنما السنة لمن أراد الرمي أن يقف من تحتها من بطن الوادي فيجعل مكة عن يساره ومنى عن يمينه ، كما جعل رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده . وفرغ من البرك وأحکم عملها .
انتهى .

انظر: صورة رقم ٢٤٨ ، لوسط مسجد الخيف بمني وبرى المؤلف وولده

انظر: صورة رقم ٢٤٩ ، لحراب مسجد الخيف بمني

وقال السنجاري : وفي سنة خمسة وسبعين جلد الوزير محمد بن علي بن المنصور المعروف بالجواود الأصفهاني مسجد الخيف والحجر بسكنه الجيم ، وزخرف الكعبة وبذل مالاً لصاحب مكة حتى مكنته من ذلك . وهو الذي بني المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمل الدرج إلى الجبل ، وعمل عرفات مصانع الماء . انتهى .

انظر: صورة رقم ٢٥٠ ، منبر مسجد الخيف بمني

انظر: صورة رقم ٢٥١ ، منازل مسجد الخيف بمني وبرى المؤلف وولده

وقال ابن فهد في حوادث سنة أربع وسبعين وثمانمائة : وفيها في آخر السنة أُنحرب مسجد الخيف بمني العظم ، وبنيت جدرانه الحبيطة به بالحجر والنورة والجص ، وبنيت شراريف على دائرة جدره ، وبنيت أربع بوائك بالجهة القبلية منه بقرافقن سمان ، يعلو البغر المذكورة كليخون قنطرة ، يعلو القنطرة المذكورة مقالي مقيبة بالطرب والنورة والجص عدة القنطرة المذكورة مائة واثنان وسبعون قنطرة ، وعدة المقالي المذكورة إحدى وتسعون مقلاة ، وبني محراباً بصدر الجهة القبلية المذكورة بالرخام الأصفر المنحوت بيمنته ويسرته عمودان من رخام أصفر وعلوه تاريخ منهب ، مكتوب فيه اسم السلطان ، وعلى الحراب المذكور قبة عظيمة مرتفعة محكمة العمل ، يعلوها هلال من نحاس مبيض معظم ، وبنيت أيضاً قبة عظيمة مثمنة عالية على الحراب الشريف النبوى ، الذي يوسط المسجد الشريف أمام المئارة القديمة دور القبة المذكورة ستون ذراعاً بالعمل ، وذرع بطنها من المئارة إلى الحراب الشريف النبوى خمسة عشر ذراعاً بالعمل في مثل ذلك . وارتفاع القبة المذكورة عشرون ذراعاً بالعمل ، وبذل القبة المذكورة من أعلىها تاريخ مكتوب فيه اسم السلطان ، وبأعلى القبة هلال كبير من نحاس مبيض ، وبنيت بوابة عظيمة

مرتفعة معمودة بالرخام الأصفر بطراز من رخام أبيض محيط بالبوابة مكتوب منقوش أعلىه بتاريخ مكتوب عليه اسم السلطان مطلي جميع ذلك بالذهب واللازورد معرقاً، وبنية مئذنة علو البوابة المذكورة، محكمة العمل، مقرنصة حسنة الصنعة بثلاثة أدوار وبعنق وخوذة على ستة أعمدة، يعلو الخوذة المذكورة هلال كبير من نحاس مبيض، وبنية بواباتان أيضاً للمسجد المذكور شرقية ويمانية، وبني سبيل ملاحق للمسجد على يمين الداخل من باب المسجد، بواجهة مبنية بالرخام الأصفر المنحوت المحكم العمل تحته صهريج كبير يرسم الماء، وعمل بالسبيل المذكور طاقات من الرخام الصفر يتناول من الطاقات المذكورة الماء المعد للشرب، وبالسبيل أربعة شبائك حديداً كبيرة، من جهاته الأربع مفروشة أرض السبيل بالرخام الأصفر وبه بزيارة يستقي منه الماء من الصهريج المذكور على حوضه، وبالسبيل المذكور خزانة حاصل لآلات السبيل المذكور، وللسبيل المذكور بابان أحدهما من الطريق والآخر من داخل المسجد، واستجد صهريج خارج المسجد وبني دبل كبير له محكم مبني بالنورة مدموك يتوصل منه الماء إلى الصهريج القديم الذي هو داخل المسجد وحفرت بئر هناك كانت مطمومة مقابل باب المسجد بالقرب منه ومبيض جميع المسجد باطنها وظاهرها وبرق جميع سطحه بالنورة ونظف ذلك كله في مدة أو لها يوم الأحد سابع عشر ذي الحجة سنة ثلاثة وسبعين وأخرها عاشر ذي القعدة سنة أربعين وسبعين، وحملة المصروف على ذلك ثلاثة آلاف ومائتان وتسعة وعشرون أشرفياً وثلاثة أشرفى انتهى.

وذكر السيد أحمد دحلان في سالنامته: بناء مسجد الخيف الموجود الآن هو بناء السلطان قايتباي سلطان مصر بناء سنة أربع وسبعين وثمانمائة ، ووسعه عمما كان قبل ذلك ، وجعل في وسطه مصلى النبي ﷺ ، وبني داراً على جانبه يسكنها أمير الحاج أيام مني ، وجدد أعلام الخل من جهة عرفة . انتهى .

وفي مرآة الحرمين: مسجد الخيف يبني في الجهة الجنوبية على يسار القادر من عرفات ويدين المقبل من مكة ، وهو مسجد واسع محكم البناء مستطيل الشكل ، طول ضلعه البحرية ١٣٠ متراً وضلعه الغربية طولاً ١٠٠ متراً وبابه الأكبر في واجهته البحرية وفوق هذا الباب مئذنة بنيت بالطوب الأحمر ، ارتفاعها ١٤ متراً وعلى يسار الداخل منه مقابر تعلوها قباب أقيمت على عقود ، وفي جهة المسجد الغربية أربعة أروقة (براكي) ، كل رواق يمتد من شمالي المسجد إلى جنوبه ،

وعرض الأربعة ٣٧ متراً ، أي من صحن المسجد إلى جداره الغربي ، وفي كل رواق ٢١ عقداً ، أعني في كل جدار يمتد من الشمال إلى الجنوب ، والأروقة مسقوفة بقباب ظاهرة من الداخل فقط ، أما سطح المسجد فمستو ، وعرض الرواق الفضاء ٤,٥ متراً ، أما بالجدران فضعف ذلك ، وسمك الجدر التي أقيمت عليها قباب الأروقة ١,٥٥ متراً وفي وسط الرواق الملاصق للجدار الغربي منبرٌ وحرابٌ عليهما قبةٌ فخمة ، وفي صحن المسجد قريباً من جداره الشرقي قبة عظيمة ، أقيمت على ثمانية عقود وبها حراب ، وهي موضع خيمة النبي ﷺ في حجة الوداع ، وقد صلى النبي ﷺ بمكانها الأوقات الخمسة ، وبالجهة الشرقية من القبة مئذنة مبنية بالطوب الأحمر ارتفاعها ٦٠,١٤ متراً ، ولها باب صغير خارج القبة يصعد منه إليها ، ودرجها ثلاث وسبعون وارتفاع الدرجة ٢٠ سنتيمتراً ، وبالمسجد أربعة صهاريج كبيرة متحاورة بين القبة وال支柱 الشمالية أقيمت لحفظ مياه الأمطار بها والشرب منها في مواسم الحج .

والمسجد مكشوف ما عدا جهتيه الشمالية والغربية ، وجدره لها دعامات من الداخل والخارج ، وارتفاعها ٥ أمتار ، وعلى الجدر من الأعلى شرافات ، وله ثلاثة أبواب شمالي وغربي وشرقي ، وبالجهة الشرقية من المئذنة الشرقية على علو أربعة أمتار مكتوب: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم جدد الله الملك المعظم ملك الملوك الملك المنصور عمر بن علي ابن رسول صاحب اليمن مسجد الحيف سنة ٦٧٤).

وعلى بابه الشمالي مكتوب: عمر مسجد الحيف السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي سنة ٨٩٤، وقد عمر هذا المسجد في زمن الخليفة المعتمد أحمد بن المتوكل العباسى سنة ٢٥٦، وحدده الوزير محمد بن علي المعروف بالجود الأصفهانى سنة ٥٥٩، وكذلك أم الخليفة العباسى الناصر لدين الله وأقام فيه عمارة الملك المظفر صاحب اليمن وهو الذي أقام المئذنة ، التي بجوار القبة .

وفي سنة ٧٢٠ أنفق عليه أحمد بن عمر المعروف بابن المرجانى التاجر الدمشقى ما يزيد على ٢٠٠٠ درهم . وفي سنة ٨٢٠ عمر بمعرفة الشيخ علي البغدادى ، ولم يعرف من قام بنفقة هذه العمارة . وفي سنة ٨٧٤ أمر الملك الأشرف قايتباي ببناء هذا المسجد ، فبني بناء محكمأ . وفي سنة ١٠٧٢ عمره السلطان محمد قزلار الآغا ، وكان القائم بالعمارة والى جدة وشيخ الحرم سليمان

بك . وفي سنة ١٠٩٢ عَمَرَه سليمان آغا مرسلاً من قبل السلطان محمد خان . انتهى .

موضع مصلى النبي ﷺ بمسجد الحيف . انتهى

ذكر الغازى في تاريخه ما نصه : وقال الأسدى في أخبار الكرام : ومصلاه ﷺ فيه ، وهو محل محراب القبة الكبيرة التي في وسط المسجد ، كما قاله ابن ظهيرة . انتهى .

وقال في تحصيل المرام : وفي الإعلام : وقد بني قبة على موضع مصلى رسول الله ﷺ وفي حاشية الشيخ يحيى الحباب : مصلاه ﷺ هو المحراب الذي في القبة الكبيرة التي في وسط مسجد الحيف . انتهى .

ثم قال القطب في الإعلام : وهذه القبة التي بصحن المسجد والتي على موضع مصلاه ﷺ ، بناها السلطان قايتباي ، وذلك في آخر سنة سبعة وسبعين وثمانمائة أو التي بعدها ، انتهى .

قال الأزرقي : إن قرآدم عليه السلام بقرب المنارة فيها ، ذكره القرشي .
وقيل : قبره في جبل أبي قبيس ، وقيل : في الهند ، وقيل : غير ذلك .

وقال العلامة الميرغنى في عدة الإنابة : وأما تعيين مصلى النبي ﷺ منه فعند المحراب الذي في القبة ، التي في وسط المسجد ، فإنه بين في موضع أحجار كانت هناك ، وكان مصلاه ﷺ عندها .

والقبة هي المسجد الأصلي ، قيل : إنه محل الأنبياء ومصلى الآخيار وفيه قبر آدم عليه السلام وأما ما زاد على القبة فمن زيادة الأشرف قايتباي . وأخرج الأزرقي عن خالد بن مضرّس أنه رأى أشياخاً من الأنصار يتحرّون مصلى رسول الله ﷺ أمام المنارة قريباً منها .

قال جدي : الأحجار التي بين يدي المنارة وهي موضع مصلى النبي ﷺ لم نزل نرى الناس وأهل العلم يصلون هنالك ، ويقال له : مسجد العيشومة وفيه عيشومة أبداً خصيباء في الجدب والخصب بين حجرين من القبلة ، وتلك العيشومة قديمة لم تزل ثمة . انتهى ، ولا وجود لها الآن . انتهى ما في عدة الإنابة .

نقول : مصلى النبي ﷺ في وسط أرض مسجد الخيف أي بحوشة ، وعليه قبة وبجوارها مئذنة صغيرة .

مسجد المرسلات

قال الغازى صحيفة (٣٥٨) : ومنها مسجد لطيف ، يمانى مسجد الخيف ، فيه غار به أثر ، يقال : إن أثر رأس رسول الله ﷺ بلحاف الجبل المشرف على مسجد الخيف ، المسمى بالضب . معجمتين وموحدة ، نقله الصفانى والصابع . بمهملين بينهما ألف وموحدة .

أخرج ابن حبىر أن النبي ﷺ جلس بهذا الغار مستظلاً فيه ، فمس رأسه الكريم الحجر ، فلان حتى أثر فيه تأثيراً يقدر دورة الرأس ، فصار الناس يمدون بوضع رؤوسهم في هذا الموضع تبركاً واستجارة لرؤوسهم . بوضع مس الرأس الكريم لا تمسه النار برحة الله عز وجل . انتهى .

ويعرف بغار المرسلات وهو مشهور به إلى هذا الوقت ، وفي صحيح البخاري في باب ما يقتله المحرم من الدواب من روایة ابن مسعود أنه قال : بينما نحن مع النبي ﷺ في غار . عنى ، إذ نزلت عليه : ﴿وَالمرسلات عرَفْتُهُمْ﴾ وإنه ليتلوها وإنني لألتلقها من فيه ، وإن فاه لرطب بها إذ ثبت علينا حية ، فقال النبي ﷺ اقتلواها ، فابتذرناها فذهبنا ، فقال النبي ﷺ : وقت شرككم كما وقيتم شرها .

قال القطب في الإعلام : .. وفي مسجد الخيف على يمين الذاهب إلى عرفات وبجنبه غار فيه تجويف في سقفه ، يزعم العامة أنه لأن لرأسه ﷺ ... إلى أن قال : ولم أقف على خير أعتمده في ذلك إلا أن الأثر وارد بتزول سورة المرسلات . انتهى .

قال الغازى : هنا أقول : قد اندرس مسجد المرسلات الآن ، ولم يبق أثر للمسجد ولا للغار .

مسجد الكبش يعني

مسجد الكبش هذا يعني ، وهو مكان معروف ، قال عنه العلامة ابن ظهير القرشي في كتابه الشهير "الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف" ما نصه : (ومنها) مسجد يقال له مسجد الكبش على يسار الصاعد إلى عرفة بسفح ثير ، وهو مشهور ، والمراد بالكبش هو الذي فدي به الذبيح إسماعيل أو إسحاق على خلاف في ذلك .

ونقل الفارسي عن الفاكهي رحمهما الله تعالى ما يقتضي أن الكبش نحر في غير هذا الموضع بين الجمرتين .

ويؤيده ما أخرجه الطبرى عن ابن عباس أن النبي ﷺ نحر في منحر الخليل عليه السلام الذي نحر فيه الكبش المفدى به ، ثم بينه الطبرى فقال : وذلك في سفح الجبل المقابل له ، يعني ثيراً ، وأراد بذلك الموضع الذي عند مسجد التحر المتقدم آنفاً والله أعلم بالحقائق . انتهى منه .

نقول : إنه لم يبق اليوم لهذا المسجد من أثر والله تعالى أعلم .

مسجد اليعنة بقرب مني

مسجد اليعنة واقع قبيل جمرة العقبة على يسار الذاهب إلى مني ، بينه وبين الجمرة شيء قليل ، وهو داخل في شعب من الجبل ، وهذا الشعب يسمى شعب الأنصار وشعب اليعنة . قال الإمام الأزرقي في تاريخه عن هذا المسجد ما نصه : قال أبو الوليد : حدثني جدي حدثنا داود بن عبد الرحمن العطار ، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم ، عن أبي الزبير محمد بن مسلم أنه حدثه جابر ابن عبد الله الأنباري ، أن رسول الله ﷺ لبث بمكة عشر سنين ، يتبع الحاج من منازلهم في الموسم بمحنة وعكاظ ، ومنازلهم يعني : «من يأويوني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربِّي ولِهِ الْجَنَّةُ» فلا يجد أحداً يأويه ولا ينصره ، حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مضر أو اليمن ، فيأتيه قومه أو ذر رحمه فيقولون : احذر فتنى قريش لا يفتك ، يمشي بين رجاهن ، يدعوهن إلى الله عز وجل ، يشيرون إليه بأصابعهم ، حتى بعثنا الله عز وجل له من يشرب ، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ، ويقرئه القرآن فينقلب إلى

أهل فيسليون بإسلامه ، حتى لم تبق دار من دور يشرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، ثم بعثنا الله عز وجل له فاتحمنا واجتمعنا سبعين رجلاً منا فقلنا: حتى متى ندع رسول الله ﷺ يطرد من جبال مكة وبخاف؟! فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم فتواعدنا شعب العقبة ، واجتمعنا فيه من رجل ورجلين ، حتى توافقنا عنده فقلنا : يارسول الله على ما نباعيك؟ قال : تباعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى التفقد في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم ، وعلى أن تتصرونني إذا قدمت عليكم يشرب ، فتمعنوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم وأزواجكم ولهم الجنة ، فقمنا إليه نباعيه ، فأخذ بيده أسعد بن زرار ، وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا ، فقال : رويداً يا أهل يشرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعذّبكم السيف ، فإما أنتم قوم تصبرون على عرض السيف إذا مستكم ، وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة ، فحنوه وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون على أنفسكم خيفة فذروه هو أعنتر لكم عند الله . قالوا : أمط علينا يدك يا أسعد بن زرار ، لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها ، فقمنا إليه رجلاً رجلاً يأخذ علينا شرطه ويعطينا على ذلك الجنة . انتهى من تاريخ الأزرقي .

قال الغازي في تاريخه عن مسجد البيعة : قال في الإعلام : هو مسجد على يسار الذاهب إلى مني ، بينه وبين العقبة التي هي حد مني مقدار غلوة أو أكثر .

قال في تحصيل المرام : وهذا المسجد في شعب ، على يسار الذاهب إلى مني ، قدام جبل الصراصير ، بقرب عقبة مني الذي فيه الدرج ، بينه وبين العقبة التي هي حد مني ، مقدار غلوة سهم أو أكثر . انتهى .

قال القطب : وهو مسجد منهلم ، فيه حجران مكتوب فيهما ما يدل على ذلك ، في أحدهما : أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرم الله تعالى ببناء هذا المسجد مسجد البيعة ، التي كانت أول بيعة بoyer فيها رسول الله ﷺ ، عقد له العباس بن عبد المطلب ، وأنه بني في سنة أربع وأربعين ومائة والمشار إليه هو أبو جعفر المنصور العباسي .

وعمره أيضاً المستنصر العباسي ، كما في حجر آخر بناه في سنة تسع وعشرين وستمائة ، وتلك الأحجار ملقاء بذلك المسجد الخراب ، يخشى عليهم الصياغ فينذر أثر هذا المسجد .

انظر: صورة رقم ٢٥٢ ، مسجد بيعة العقبة

وكان المرحوم إبراهيم دفتر دار مصر سابقاً أمير عين عرفات رحمه الله تعالى شرع في تجديد هذا المسجد وأسسه ، وبني بعض طاقاته وجدرانه ، وتوفي قبل أن يتمه ، وما وفق أحد بعده إلى الآن إلى إتمامه ، وهو من المساجد النبوية المأثورة ، وهو الذي بايع النبي ﷺ سبعون من الأنصار بحضور عميه العباس بن عبد المطلب ، فنادى أزب العقبة « وهو شيطان ذلك المكان » : معاشر قريش إن الأوس والخزرج بايعوا محمداً على أن ينصروه ، فأمسكت الأنصار بقوائم سيوفها وقالوا : لنقاتلن الأسود والأحمر دون رسول الله ﷺ ، فكفاهم الله تعالى ببركة نبيه ﷺ شر ذلك الشيطان ، ثم هاجر النبي ﷺ هو وأبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة لما أذن لهم في الهجرة ، وهذا مسجد شريف يستجاب فيه الدعاء ، فرحم الله من يكون سبباً في تجديده وعمارته . انتهى ما في الإعلام .

وقال الحجي في خلاصة الأثر : ومن آثار السلطان أحمد بن محمد بن مراد خان عمارة مسجد البيعة ، وهو بالقرب من عقبة منى على يسار الصاعد . انتهى .

وفي تحصيل المرام قلت : قد عمر هذا المسجد في دولة السلطان عبدالجيد ، في سنة ألف ومائتين ونيف وخمسين ، وهو رواق واحد من جهة القبلة ، وفي صدره محراب ، وقدام المحراب صحن كبير ، وعلى الصحن حائط عال والآن عمار . وطول هذا المسجد من محرابه إلى آخر الرحبة ثمانية وثلاثون ذراعاً وسلس . انتهى من تاريخ الغازي .

نقول : إن مسجد البيعة هو قبيل جمرة العقبة على يسار الذاهب من مكة إلى منى ، والمسافة بين هذا المسجد وبين جمرة العقبة بأول منى ، هي كالمسافة بين الصفا والمروة أي نحو ثلاثة متر .

ولا يزال هذا المسجد عامراً غير منهلم ، وفيه حجر واحد مكتوب بالخط الكوفي ، وهو مثبت عند محرابه خارج المسجد لامن داخله ، ولم تتمكن من قراءة ما هو مكتوب فيه .

انظر: صورة رقم ٢٥٣ ، انظر: صورة أخرى لمسجد بيعة العقبة

كان رسول الله ﷺ يقوم في مواسم الحج ، يدعى إلى توحيد الله تعالى وعبادته من أقبل إلى مكة من العرب من سائر الأطراف ، ولما كان الموسم الذي قبل هجرة النبي ﷺ بنحو ستين وبضعة أشهر ، أقبل من المدينة إلى مكة جماعة من الخزرج ، فجاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ، وكانوا قد سمعوا به من يهود المدينة ، فأسلموا ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وكانوا ستة نفر من الخزرج ، فلما قدموا المدينة أخروا قومهم بأمر رسول الله ﷺ ، ودعوه إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ودخل في جميع دور الأنصار .

فلما كان الموسم الثاني ، أي : قبل الهجرة بستة وثلاثة أشهر ، أتى من المدينة اثنا عشر رجلاً فاجتمعوا برسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام ، وبعد أن تمت هذه البيعة ، بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين . فكان إسلام هؤلاء النفر وذهب مصعب بن عمير معهم سبباً في دخول أشراف أهل المدينة في الإسلام ، فما بقيت دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة .

فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومهم من لم يسلموا وما زالوا على الشرك ، فأرسل المسلمين إلى رسول الله ﷺ يواعدوه عند حجرة العقبة للمقابلة من أوسط أيام التشريق .

قال الخضري في حاضراته « تاريخ الأمم الإسلامية » عند تكملة هذا المبحث : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره ، وحان الموعد ، خرج المسلمون من رحابهم بعد انقضاء ثلاث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين هما : نسيبة بنت كعب من بني مازن بن النجار الخزرية ، وأسماء بنت عمرو إحدى نساء بني سلمة من الخزرج ، واستمروا يتظرون الرسول ﷺ حتى جاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوافق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يا عشر الخزرج إن محمدأً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كتنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوتموه إليه ومانعوه من خالقه ، فأئتم وما تحملتم من

ذلك ، وإن كتتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن
قد دعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال المتكلم من الخزرج : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك
ولربك ما أحببت .

فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورحب فيه ، ثم قال:
أبايعكم على أن تتعونوني ما تتعونون منه نساءكم وأبناءكم " فأخذ سيدهم البراء بن
معرور بيده ثم قال : نعم والذي يبعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فباعنا يا
رسول الله ، فإننا والله أهل الحرب ، وأهل الحلقة ورشاها كابراً عن كابر .

فقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله إن يبنتا وبين الرجال حبالاً وإننا
قاطعواها - يعني يهود المدينة - ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن
ترجع إلى قومك وتدعنا . قال : فتبسم الرسول ﷺ ثم قال : الدم الدم والمدم
والدم ؛ يعني أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسلم من سالم ، ثم قال
لهم : أخرجو إليني منكم الثاني عشر نقينا ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجو منهم
الثاني عشر نقينا ؟ تسعه من الخزرج وثلاثة من الأوس فقال لهم : أنتم على قومكم
بما فيهم كفلاء ككفاله الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي .
وها هي أسماء النقباء .

١) أسعد بن زراراة من بني النجار ابن ثعلبة من الخزرج .

٢) سعد بن الربيع من بني مالك ابن امرئ القيس من الخزرج .

٣) عبدالله بن رواحة من بني عمرو ابن امرئ القيس من الخزرج .

٤) رافع بن مالك من بني زريق ابن عامر من الخزرج .

٥) البراء بن معرور ابن بني سلمة ابن سعد من الخزرج .

٦) عبدالله بن عمرو من بني سلمة ابن سعد من الخزرج .

٧) عبادة بن الصامت من بني غنم ابن سالم من الخزرج .

٨) سعد بن عبادة من بني ساعدة من الخزرج .

٩) المنذر بن عمرو من الخزرج .

١٠) أسيد بن حضير من بني عبد الأشهل من الأوس .

١١) سعد بن خيثمة من بني كعب ابن حارثة من الأوس .

١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل من الأوس .

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعاً البراء بن معروف ، وبنو النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرار ، وبنو عبد الأشهل يقولون : إنه أبو الهيثم بن التيهان .

والقول الأول ثابت ، لأن البراء بن معروف كان كبير القوم ، وبعد أن انتهت المبايعة أمرهم رسول الله ﷺ أن يعودوا إلى رحالم ، فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا .

ولما أصبحوا كان الخبر قد يبلغ قريشاً ، فجاء رؤساًوهم إلى منازل الأنصار وقالوا : يا معاشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتباعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينكم .

فانبعث من هناك من مشركيهم يخلفوون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه ، وهم في بينهم صادقون لأنهم لم يعلموا ، وقال لهم عباد الله بن أبي بن سلول وهو سيد من ساداتهم لم يسلم : إن هذا الأمر جسيم ، ما كان قومي ليفتاتوا على بمثل هذا وما علمته ، فانصرفوا عنه .

نفر الناس من مني ، وتحسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن فاتهم الأنصار ، بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بأخوانهم من الأنصار وقال لهم : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها فخرجوا أرسلاً رجالاً ونساءً إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين . انتهي من الكتاب المذكور .

انظر : الصور أرقام ٢٥٤ لشارع الجمرات بمنى ، و ٢٥٥ لمقر إرشاد الحجاج بوزارة الحج

والأوقاف بمنى ، و ٢٥٦ لأحد الأطباء وهو يقوم بالكشف على أحد الحجاج ، و ٢٥٧

لخيام وسيارات الحجاج بمنى ، و ٢٥٨ للقصر الملكي في منى .

مِنْ دَلْفَةٍ

مزدلفة هي ثانية منزل من منازل الحج بعد مكة المشرفة أو بعد الوقوف بعرفات أيضاً، يبيت فيها الحجاج ليلة العيد الكبير فقط بعد الوقوف، ثم يذهبون منها إلى منى:

ومزدلفة هي المشعر الحرام ، والمسافة بين مسجد الحيف .منى ومسجد المزدلفة
خمسة كيلو متراً ، وبين مزدلفة وجبل عرفات عشرة كيلو متراً كما تقدم
بيانها في أول الكلام على منى ، وتقع مزدلفة كلها في الحرم ، ولا يوجد بمزدلفة
مسجد غير المسجد المذكور والله الموفق .

المشرع الحرام "مزدلفة"

قال الله عز شأنه في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْغُوا فِضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ إِذَا أَفْضَلْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعُرِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كَتَمْتُ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الظَّالِمِينَ ثُمَّ أَفْيَضُوا مِنْ حِلْيَتِ النَّاسِ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذَرْكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدُ ذِكْرَاهُ﴾.

والمشعر الحرام: هو جبل في آخر المزدلفة من جهة منى يقال له «فُرَح» على وزن عُمْرٍ، ففي صحيح مسلم: «أن النبي ﷺ وقف به يذكر الله ويدعوه حتى أسفر جداً»، والمشعر من الشعارات وهو العلامة، سمي به لأنّه من معالم الحج، ووصف بالحرام لحرمة، فلا يفعل فيه شيء لم يؤذن فيه.

وعند ابن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهم ، المشعر الحرام هو ما بين جبلي مزدلفة ، قال في روح المعاني للعلامة الألوسي : والمشهور أن المشعر مزدلفة كلها فقد أخرج وكيع وسفيان وابن حجر والبيهقي وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهم ، أنه سئل عن المشعر الحرام ، فسكت حتى إذا هبطت أيدي الرواحل بالمزدلفة ، قال : هذا المشعر الحرام .

نقول : الذي نفهمه نحن من قوله تعالى : **﴿فَإِذَا أَفْضَلْتُمْ مِنْ عَرْفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِعِ الْحَرَامِ﴾** أن المراد بالمشعر الحرام جميع حدود مزدلفة التي ينزل بها الحجاج ليلة التحر بعد إفاضتهم من عرفات ، ثم إن سننة الورف بعد صلاة

الصبح إلى الإسفار بجبل قرْح بمزدلفة للذكر والدعاء مسألة أخرى ، فمن دفع من مزدلفة إلى مني بعد صلاة الصبح ولم يقف بجبل قرْح فلا شيء عليه مطلقاً.

ويدل على هذا ما صح عن علي رضي الله عنه ، «أنه ~~ع~~ لما أصبح بجمع أتى قرْح فوقف عليه وقال: هذا قرْح وهو الموقف وجمع كلها موقف» والمراد بكلمة «جَمْع» بفتح الجيم وإسكان الميم مزدلفة .

وقرْح بضم القاف وفتح الراء ، ويوافقه ما في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه «أنه ~~ع~~ لما صلى الصبح بمزدلفة ركب ناقته القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ودعا الله وهله وكيره ، ولم ينزل واقفاً حتى أسفرا جداً» .

فالوقوف والدعاء بعد صلاة الصبح على جبل قرْح أمر آخر ، فمن تركه لا شيء عليه ، وهو الوقوف الأصغر تشبيهاً بالوقوف الأكبر بعرفات ، وتوديعاً لهذا المكان الحرام .

روى الإمام الأزرقي في كتابه «أخبار مكة» قال ابن حريج : قال محمد بن المنكدر : أخبرني من رأى أبي بكر الصديق رضي الله عنه واقفاً على قرْح ، وقال ابن حريج : قلت لنافع مولى ابن عمر : أين كان يقف ابن عمر بجمع كلما حج؟ قال : على قرْح نفسه ، لا ينتهي حتى يتخلص فيقف عليه مع الإمام كلما حج اهـ ، فمن لم يتمكن من صعود الجبل وقف بجنبه .

وذكر الأزرقي في الكتاب المذكور موضع نزول النبي ~~ص~~ بمزدلفة فقال : عن ابن حريج قال : قال لي عطاء : بلغني أن النبي ~~ص~~ كان ينزل ليلة جمع في منزل الأئمة ، وليلة جمع يعني دار الإمارة التي في قبلة مسجد مزدلفة .

ويظهر من روایات الأزرقي عند ذكر المزدلفة وحدودها... إلخ، أنه كان بمزدلفة قليل من الدور كدار الإمارة وبيوت ابن الزبير والله أعلم.

أما مسجد مزدلفة وفيه المثارة فهو بوسط مزدلفة تقرباً ، وربما كان أقرب إلى جبل قرْح ، وهو مبني على أوضن مستوى في الظاهر والحقيقة أنه مبني على ربوة صغيرة غير مرتفعة ، ولذلك ارتفع جداراه عن الأرض بنحو قامة ، وردم داخله بالحجارة والأترية ليستوي داخله فلا تظهر فيه تنوعات الربوة وانخفاضاتها ، فصار المسجد بذلك مرتفعاً عن وجه الأرض .

أما إيقاد منارة المسجد سابقاً بالقناديل والسرج والأثاريك ، وفي أيامنا هذه إيقادها بالكهرباء ليلة الشامن والتاسع والعشر من ذي الحجة فليس ذلك مستحدث ، وإنما هو جريأاً على العادة القديمة من قبل الإسلام في الإيقاد بمزدلفة كما ستكلم عن ذلك في غير هذا الحال بعنوان «الإيقاد بمزدلفة».

نقول : لقد اختلف الناس اليوم عاتهم وخاصتهم في جبل قرطاج فلا أحد يعرفه بالضبط ، فمنهم من يقول : هو موضع المسجد ، ومنهم من يقول : هو جبل آخر غير المسجد ، ومنهم من يقول : هو الجبل الصغير الواقع في وسط المزدلفة . ولقد بحثنا عن ذلك كثيراً وسألنا عنه كثيراً ، فخرجنا من ذلك بنتيجتين هما إلى الصواب أقرب إن شاء الله تعالى وإليك رأينا :

(النتيجة الأولى) أن موضع مسجد مزدلفة ليس هو جبل قرطاج بيقين ، لأن المسجد ليس على جبل ، وإنما هو مبني على أرض صخرية مرتفعة ، ولا يبعد أن يكون موضع المسجد هو مكان نزول النبي ﷺ بمزدلفة وحمل مبيته ، فلما صلى الصبح فيه ركب ناقته وأتى إلى قرطاج فوقف عليه ، فقد جاء في تاريخ الأزرقي بصحيفة (١٥٥) عن عطاء قال : بلغني أن النبي ﷺ كان ينزل ليلة جمع في منزل الأئمة - الآن ليلة جمع يعني دار الإمارة - التي في قبلة مسجد مزدلفة . انتهى كلامه .

ودليلنا على أن مسجد مزدلفة ليس على جبل قرطاج هو أن الإمام الأزرقي المولود بمكة في القرن الثاني للهجرة ، قال بصحيفة (١٥١) من الجزء الثاني في تاريخه : وذرع ما بين مؤخر مسجد مزدلفة من شقه الأيسر إلى قرطاج أربعمائة ذراع وعشرة ذراع ، فقول الأزرقي صريح أن موضع المسجد غير موضع جبل قرطاج .

(النتيجة الثانية) أن جبل قرطاج هو الجبل الصغير الواقع على يسار مسجد مزدلفة للمتوجه إلى مكة ، وهذا الجبل سهل الطلوع للراجل والراكب ، لصغره وانخفاضه وبسطته ، ليس فيه تعرّفات ولا صخر ولا أحجار .

ودليلنا على أن جبل قرطاج هو على يسار مسجد مزدلفة للمتوجه إلى مكة ما ذكره الأزرقي في تاريخه في صحيفة (١٥١) من الجزء الثاني ، حيث يقول في عبارته المتقدمة : «وذرع ما بين مؤخر مسجد المزدلفة من شقه الأيسر إلى قرطاج أربعمائة ذراع وعشرة ذراع» فيعلم من صريح هذه العبارة أن جبل قرطاج على

يسار المسجد ، وقول الإمام الأزرقي أكير حجة ، لأنه من أهل القرن الثاني للهجرة ، فهو قريب عهد بصدر الإسلام ، كما يعلم من صريح قوله أن مسجد مزدلفة قديم العهد ليس بحديث وإن تعدد بناؤه وعمارته ، وقد ذكر رحمة الله تعالى ذرع هذا المسجد ووصفه في زمانه .

البناء الذي كان على قرْح

لما كان جبل قرْح بالمزدلفة قد وقف عليه رسول الله ﷺ ، بني الناس عليه بناء صغيرة من قديم الزمن للدلالة عليه ، لكن مع الأسف الشديد ليس عليه في زماننا هذا بناء ولا عالمة ، لذلك لم يعرف الناس موضعه .

قال الإمام الأزرقي المولود بمكة في القرن الثاني للهجرة في تاريخه ، في صحيفة (١٥١) من الجزء الثاني ما نصه : «وقرْح عليه أسطوانة من حجارة مدورة ، تدوير حولها أربعة وعشرون ذراعاً ، وطواها في السماء اثنا عشر ذراعاً ، فيها خمس وعشرون درجة ، وهي على أكمأ مرتفعة كان يوقن عليها في خلافة هارون الرشيد بالشمع ليلة المزدلفة ، وكانت قبل ذلك توقد علىها النار بالخطب ... إلخ» . انتهى من الأزرقي .

وقال الحافظ الطبراني في كتابه «القرى لقاصد أم القرى» في صحيفة (٣٨٠) ما نصه : وقرْح بضم القاف وفتح الراي ثم حاء مهملة : موضع من المزدلفة ، وهو موقف قريش في الجاهلية ، إذ كانت لا تقف بعرفة ، وقال الجوهري : قرْح اسم جبل بالمزدلفة .

ثم قال الطبراني : قلت : وقد بني عليه بناء ، فمن تمكن من الرقي عليه رقى ، وإلا وقف عنده مستقبل القبلة ، فيدعوا ويكبر ويهلل ويوحد ، ويذكر من التلبية إلى الإسفار ، ويستحب أن يدعوا بداعي ابن عمر المتقدم في فصل ركعتي الطواف وباب السعي .

ولا ينبغي أن يفعل ما تطابق عليه الناس اليوم من النزول بعد الوقوف من درج في وسطه ضيقة ، يردهم الناس على ذلك حتى يكاد يهلك بعضهم بعضاً ، وهو بدعة شنيعة ، بل يكون نزوله من حيث رقيه من الدرج الظاهرة الواسعة .

وقد ذكر ابن الصلاح في منسكه: أن قرحة جبل صغير في آخر المزدلفة ثم قال بعد ذلك: وقد استبدل الناس بالوقوف على الموضع الذي ذكرناه ، الوقوف على بناء مستحدث في وسط المزدلفة ولا تؤدي به هذه السنة والله المستعان . هذا آخر كلامه ، والظاهر أن البناء إنما هو على الجبل كما تقدم ذكره ولم أر ما ذكره غيره .

انتهى من كتاب القرى للطبرى .

واعلم أن الوقوف على جبل قرحة بالمزدلفة أمر يرجع عهده إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فقد روى الأزرقي في تاريخه ، في صحيفة (١٣) من الجزء الأول ، كيفية حج إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل ومن معه من مسلمي جورهم ، فقال بعد أن ذكر ذلك : ثم بات بمزدلفة حتى إذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة ، ثم وقف به على قرحة من مزدلفة وبن معه ، وهو الموقف الذي يقف به الإمام ، حتى إذا أسفغ غير مشرق دفع به وبن معه يريه ويعلمه كيف ترمي الجمار ... إلخ ، انتهى من الأزرقي .

وروى فيه أيضاً في صحيفة (١٢٢) ما يأتي : ... فإذا جاؤا عرفة أقاموا بها يوم عرفة ، فتفقق الحلة على الموقف من عرفة عشية عرفة ، ووقف الحمس على أنصاب الحرم من نمرة ، فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا فأفاضت الحمس من أنصاب الحرم ، وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً ، وكانوا يدفعون من عرفة إذا طفلت الشمس للغربوب ، وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم ، فإذا كان هذا الوقت دفعت الحلة من عرفة ، ودفعت معها الحمس من أنصاب الحرم ، حتى يأتوا جميعاً بمزدلفة فيبيتون بها ، حتى إذا كان في الغلس وقف الحلة والخمس على قرحة ، فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم ، دفعوا من مزدلفة وكانوا يقولون : أشرق ثير كيما نغير أي أشرق بالشمس حتى تدفع من المزدلفة . فأنزل الله في الحمس : هُنَّمَّ أَفِيضُوا مِنْ حِيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ عليه السلام يعني عرفة والناس الذين كانوا يدفعون منها ، أهل اليمن وربيعة وتميم ، فلما حج النبي صلوات الله عليه وسلم خطب الناس بعرفة فقال : "إن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من عرفة إذا صارت الشمس على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم ، وإننا لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس ، ويحل فطر الصائم ، ونلتفع من مزدلفة غداً إن شاء الله

قبل طلوع الشمس ، هدينا مخالف هدى أهل الشرك والأوثان" . انتهى من تاريخ الأزرقي .

الإيقاد بمزدلفة

الإيقاد بمزدلفة أمر قديم ، يرجع عهده إلى قصي بن كلاب ، وكان الإيقاد بالخطب ، لكن لم نرَ من تكلم عن سبب الإيقاد بمزدلفة دون عرفات ، والذي نراه والله تعالى أعلم هو أن قريشاً كانت تقف بالمزدلفة ولا تقف بعرفات ، وذلك ترفاً أن يقفوا مع القبائل التي تقف بعرفات .

ودليلنا على ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانتوا يسمون الحمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها ، فذلك قوله سبحانه وتعالى : **﴿وَلَمْ يُفِضُّوا مِنْ حِيْثُ أَفْضَلُ النَّاسُ ... الْآيَة﴾** ومكان إفاضة الناس عرفة لا مزدلفة .

ذكر الإمام الأزرقي في تاريخه عن عبد الله بن خارجة عن أبيه قال : لما أفضى سليمان ابن عبد الملك ابن مروان من المؤذمين نظر إلى النار التي على قبرح ، فقال لخارجية بن زيد : يا أبا زيد ، من أول من صنع هذه النار هننا ؟ قال خارجة : كانت في الجاهلية وضعتها قريش ، وكانت لا تخرج من الحرم إلى عرفة ، تقول : نحن أهل الله ، قال خارجة : فأخربني رجال من قومي أنهم رأوها في الجاهلية وكانتوا يمحجون منهم حسان بن ثابت ، في عدة من قومي قالوا : كان قصي بن كلاب قد أودى بالMZDLFة ناراً ، حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة .

وذكر الأزرقي أيضاً عن نافع عن ابن عمر قال : «كانت النار توقد على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم» .

وذكر أيضاً عن غنيم بن كلبي عن أبيه عن جده قال : «رأيت النبي ﷺ في حجته وقد دفع من عرفة إلى جمع والنار توقد بالMZDLFة ، وهو يومها حتى نزل قريباً منها» ، ثم كان يوقد عليها في خلافة هارون الرشيد بالشمع ليلة المزدلفة ، ولما مات كانوا يضعون عليها مصابيح كبيرة يسرج فيها بقتل جلال فكان ضوءها

يلغ مكاناً بعيداً، ثم صارت اليوم توقد عليها مصابيح صغار وقتل رقاق ليلة المزدلفة . اهـ من الأزرقي .

ثم صار الإيقاد على المنارة بالقناديل بواسطة الزيت ، ثم لما ظهر غاز الاستباح استبدلت القناديل الزيتية بالأثاريك ، وهي مصابيح غازية عظيمة الضوء جداً، ولا يزال الأمر كذلك إلى الآن فتووضع جملة أثاريك ليالي الحج على منارة مسجد الخيف يعني ومسجد مزدلفة ومسجد ثمرة عرفات وعلى جبل الرحمة أيضاً، وإن شاء الله عما قريب ستدار كلها بالكهرباء بل لقد وصلت الكهرباء إلى مني .

والحقيقة أن إنارة المساجد الثلاثة في مني ومزدلفة وعرفات ليالي الحج لها كثير من الفوائد ، أهمها استبشار الحاج عند رؤيته لها من بُعد واطمئنانه بانتهاء رحلته وقرب استراحته ، أقام الله تعالى شعائر الإسلام وأدامها إلى يوم القيمة وأعز الإسلام والمسلمين آمين .

مسجد مزدلفة

مسجد مزدلفة يقع على يمين الصاعد إلى عرفات من الطريق العام ، ويقع جبل قرح على يسار هذا المسجد للمتوجه إلى مكة ، بينهما أربعون مائة ذراع وعشرون ذراع كما ذكره الأزرقي . والمسجد مبني في أرض مزدلفة في بقعة مرتفعة صخرية ، وبآخر المسجد محراب ، وبوسطه منارة يؤذن عليها ، وتوقد عليها السرج ليلة المزدلفة ، وبلصق المنارة بناء صغير ارتفاعه إلى نصفها ، ودخله من باب المنارة من محل ما يؤذن للإنسان ، جعلت للصلوة والجلوس ، ويكفي ل نحو عشرة أشخاص .

ولم يكن على هذا المسجد بناء محيط من قديم الزمان ، لكن في شهر ذي القعدة سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف ، أححيط المسجد بحدران مرتفعة من جميع جهاته ، وهذا المسجد أربعة أبواب فقط ، بابان من الجهة الشمالية التي على الطريق العام ، وبابان من الجهة الجنوبية التي تواجه الجبل الذي وراءه .

وقد أخذنا قياس هذا المسجد في آخر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وست وسبعين، فكان طوله ستين متراً، وعرضه ثانية وثلاثين متراً، وارتفاع جداره عن أرض الطريق نحو أربعة أمتار.

انظر: صورة رقم ٢٥٩ ، مسجد المزدلفة

انظر: صورة رقم ٢٦٠ ، جانب من مسجد المزدلفة

ومسجد مزدلفة قديم العهد، لكن يحدد بناؤه وعمارته كلما احتاج إلى إصلاح، فقد ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه، المولود بمكة في القرن الثاني للهجرة، وذكر ذرعه وقياسه بصحيفة (١٥١) من الجزء الثاني بتفصيل تام، كما ذكر بهذه الصحيفة موقع جبل قرطبة لهذا المسجد، قال: وكان على هذا الجبل أسطوانة مبنية بالحجارة طوّها اثنا عشر ذراعاً، كان يوقن عليها ليلة المزدلفة.

وأما ما ذكره صاحب العقد الفريد كما سيأتي، من أن قصي بن كلاب هو الذي بني المسجد بمزدلفة فليس ب صحيح؛ فإن المساجد لم تكن معروفة قبل الإسلام، ولكن قصي بن كلاب كان يقف بمزدلفة بجبل قرطبة، ويؤخذ النار عليه ليراها الناس من بعد، وهو أول من أوقف بمزدلفة للناس، فربما أتى الوهم من هنا لصاحب العقد الفريد رحمة الله تعالى.

قال الغازى صحيفه (٣٧٨) : قال الفاسي في وصفه مزدلفة : وبها مسجد حول قرطبة وهو صغير مربع ليس بالطويل الحيطان ، طوله إلى جهة القبلة كذا وكذا... إلخ ثم قال: وفي قبنته محراب فيه حجر مكتوب فيه «إن الأمير بلغا الخاصكي جلد هذا المكان بتاريخ ذي القعدة سنة ستين وسبعيناً». انتهى .

قال الغازى : وفي «مرأة الحرمين» : وفي سنة ٨٤٢ أمر السلطان حممق الأمير سيدون بعمير هذا المسجد ، وفي سنة ٨٧٤ في سلطنة قاتبىي أمر أمير مكة الشريف محمد بن برگات بتبييضه ، وفي سنة ١٠٧٢ عمره سليمان بك والي جدة من قبل السلطان محمد . اهـ .

قال المحب الطبرى فى شرح التبيه : قرطبة ، بقاف مضمومة ثم زاي مفتوحة ثم حاء مهملة ، فى وسط مزدلفة وقد بين عليه بناء من يمكنه الوقوف عليه وقف وإلا وقف عنده مستقبل القبلة ، ويكثر من التلبية ويدعو .

أما صفة البناء الذي على قرخ الآن ، فإنه بناء مربع يشبه المنارة... إلى آخر وصفه للبناء ، ثم قال : وكان اعتبار ما ذكرناه من ذرعه وصفته في ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثمانمائة بمحضوري ، وصفته هذه تختلف صفتة التي ذكرها الأزرقي ، واقتصرنا عليها لكونها أبلغ في تعريفه ، وما عرفت متى بني هكذا .

وبناه في الجاهلية قصي بن كلاب جد النبي ﷺ على ما ذكره ابن عبد ربه في «العقد الفريد» ، وأما خبر الوقيد عليه فإنه كانوا يوقدون فيه بالشمع في خلافة الرشيد ، فلما مات كانوا يوقدون عليه بمصابيح كبار ، ثم صاروا يوقدون عليه بمصابيح صغار ، والأصل في استحباب الوقوف على قرخ ، ما رويناه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه "أن النبي ﷺ لما أصبح بجمع أتى قرخ فوقف عليه وقال : هذا قرخ وهو الموقف وجمع كلها موقف" . انتهى من تاريخ الغازي .

هذا ولقد تكلمنا على جبل قرخ وعلى المشعر الحرام وعلى الإيقاد بمزدلفة في هذا الكتاب ، فراجعها إن شئت .

انظر: صورة رقم ٢٦١ ، محراب مسجد مزدلفة

اقتراحتنا بشأن مسجد مزدلفة

ما لا شك فيه أن جميع المساجد تكون محاطة بالجدران ، وهاب باب أو أكثر يقفل ويفتح ، وهذا للمحافظة على ما بداخليها من الأشياء واللوازم ، من فراش وأدوات وضوء وقناديل وسرج وغير ذلك .

أما إذا كان المسجد في صحراء ، كمصلى الأعياد في خارج البلدة الذي لا يستعمل للصلوة إلا نادراً كصلاة العيد والاستسقاء ، وليس بداخله شيء مطلقاً يخشى من سرقته ، فهذا لا داعي لتسويره وتبييه وإحاطته بالجدران .

هذا نرى أنه من المستحسن إزالة ما تجده من البناء بمسجد مزدلفة في عصرنا هذا ، لأن هذا البناء المرتفع يحجب الناس وهذا الحجيج الأعظم على من كان داخل المسجد ، فإن رؤية الناس بعضهم البعض على صورة العبادة في فريضة الحج ، على ما فيها من الروعة والدهشة والجلال ، تبعث في النفس النشاط والإقبال على التلبية والتکبير والتهليل ، فللجماعة والاجتماع نشوة وفرحة وراحة للنفس لا تكون في الحالة الفردية .

وأيضاً أن وقت وجود الناس بمزدلفة هو ليلة واحدة في كل عام وهي ليلة عيد الأضحى ، وذلك بعد الدفع من عرفات ، فلا يستحسن البناء المرتفع وتسوير مسجد بمزدلفة بحيث يحجب الناس من كان بداخله ، بل لا معنى لتسوير هذا المسجد بالذات من جميع جهاته ، الحال أنه واقع في الصحراء في خلاء مزدلفة ، وليس إلا رمال فقط فلا يخاف على شيء يسرق منه .

فعمى أن يتتبه هذه المسألة المهمة أولى الأمر ، فيأمرون بإزالة السور المستحدث حول المسجد المذكور وإرجاعه إلى سابق عهده فيكون بدون تحليق ، وفي هذا من المصلحة ما لا يخفى ، والله تعالى الموفق للصواب وإليه المرجع والمأب .

انظر: صورة رقم ٢٦٢ ، القصر الملكي في مزدلفة

انظر: صورة رقم ٢٦٣ ، أحد صنابير المياه التي أعدتها الحكومة بمزدلفة لراحة الحجاج

عرفات

عرفات تكون ثالث منزل من منازل الحج بعد مكة المشرفة ، أو تكون هي أول منزل من منازل الحج باعتبار الوقوف بها .

فالوقوف بعرفات يكون في محل ولا يكون في الحرم مطلقاً ، وقد بينا حدود عرفات بالتفصيل في كتابنا «إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة» المطبوع بمصر بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

ولا يوجد بعرفات غير مسجد نمرة وغير مسجد الصخرات .

عرفة الوقوف بها

قال الفاسي رحمه الله تعالى في كتابه «شفاء الغرام» ما نصه :

وأما تسميتها عرفة فلتتعرف آدم وحواء فيها ، لأن آدم أهبط بالهند وحواء بجدة فتعارفا بالموقف ، قاله الضحاك .

وقيل: لأن جبريل عليه السلام ، عرف الخليل عليه السلام فيه المناسك يوم عرفة .

وقيل: الناس يعترفون فيها بذنوبهم .

وقيل : غير ذلك من الأقوال التي ذكرناها في أصل هذا الكتاب وهي تسعه أقوال . والله أعلم بالصواب .

وأما جمعها وصرفها فذكر جوازه جماعة من العلماء منهم النووي لأنه قال : وجمعت على عرفات وإن كان موضعًا واحدًا ، لأن كل جزء منه يسمى عرفة ، وهذا كانت معروفة كقصبات ، قال النحويون : ويجوز ترك الصرف ، كما يجوز ترك صرف غایيات وأذرعات ، على أنها اسم مفرد لبقة . اهـ . انتهى من شفاء الغرام .

نقول : إن ما ذكره العلامة الفاسي من الأقوال في تسمية عرفة ، إنما هو بحسب الظاهر ، والحقيقة التي ينبغي الاعتراف بها ، هي أن الأسماء لا تعلل ، فعرفة اسمها عرفة من قديم الأزمان .

وعرفات هي أشهر من نار على علم ، وكل من حج لا بد له أن يقف بعرفة لخبير : «الحج عرفة» فمن أحرم بالحج ووقف بعرفة فقد أدرك الحج وعليه إتمام بقية الأعمال ، ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج ، فلا يطالب بقية الأعمال ، وإنما يطالب بالتحلل كما هو معروف في كتب الفقه .

وفضل يوم عرفة معروف فهو يوم عظيم فيه يتحلى الله تعالى على عباده الذين وقفوا به متجردين من الثياب والزينة ، يدعونه ويلبون ويستغفرون له ، يتجلّى الله على هذا الجمع الغفير بالرحمة والغفران والعتق والإحسان ، وإنه تعالى ليباهي بهم الملائكة وهو الغني عن العالمين ، كل هؤلاء لا يرجون في ذلك اليوم إلا الله ، ولا يدعون إلا إياه ، نشيدهم الروحي «لبيك اللهم لبيك» ، وشعارهم الديني «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» ، قد ترکوا أو طانهم وفارقوا أولادهم ، وكشفوا رؤوسهم ونزعوا ثيابهم وأبدلواها بالإحرام الأبيض كالأكفان ، ووقفوا في صحراء عرفات وميدانه امتنالاً لأمر الله وابتغاء لمرضاته . وفي يوم عرفة نزلت الآية الكريمة : ﴿إِلَيْكُمْ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمْتُ عَلَيْكُمْ نَعْمَلِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينَكُمْ﴾ .

ويعقب يوم عرفة يوم العيد الأكبر ، عيد الأضحى المبارك ، وكم وقف ويقف بعرفات من الأمم الماضية والآتية منذ وجود البيت الحرام إلى قيام الساعة ، والحق أن يوم عرفة ليوم عظيم ، فيه تسكب العبرات ، وتقابل العثرات ، وترتجي الطلبات ، ويوم عرفة أعظم الجامع على وجه الأرض ، قد احتلط فيه الأبيض بالأسود

والصغير بالكبير والغنى بالفقير والعالم بالجاهل والأمير بالخامل يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.

والحق يقال أن الناظر في يوم عرفة إلى تلك الجموع المختشدة الذين أتوا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويدركوا اسم الله في أيام معلومات ، ليندهش اندهاشاً ويزداد إيماناً بالله الواحد القهار ، الذي له ما في السموات والأرض وما بينهما وما تحت الشري .

والمسافة بين مكة وعرفات نحو عشرين كيلو متراً ، وتقع في الحال لا في الحرم ، وعرفة ميدان واسع ، أرضه مستوية ، يحيط بميدانه سلسلة من الجبال الشاحنة تشبه الدائرة ، ويقع على شمالي جبل الرحمة ، وهو جبل صغير بالنسبة لما حوله من الجبال ، وأعلى هذا الجبل سطح مستو مبلط بالحجارة منذ قديم الزمن ، وبوسط سطحه علم مبني بالحجارة طوله نحو ثلاثة أمتار أو أربعة ، يعلق فيه ليلة عرفة جملة مصايح .

وقد بني الوزير الجواد الأصفهاني في منتصف القرن السادس للهجرة درجاً من أسفل هذا الجبل إلى سطحه لسهولة الصعود ، ولا فضيلة للوقوف على هذا الجبل «جبل الرحمة» في يوم عرفة ، فلا يسن الرقي عليه ذلك اليوم بل يكره ، ومن وقف عليه أجزاءً ، فميدان عرفة كله موقف ، وجهلاء الحاج يعتقدون أن الصعود على هذا الجبل واجب ، فيلزم على حضرات المطوفين التبيه عليهم بأن الرقي عليه بدعة لا ينبغي فعله ، أما الصعود عليه بقصد النزهة وترويح النفس وحسن المنظر فلا بأس به شأنه شأن البقية الجبال .

وفي أسفل جبل الرحمة مسجد الصخرات ، وهو مسجد صغير محاط بجدار قصير ، وفي مكان هذا المسجد وقف رسول الله ﷺ عشيّة عرفة .

وبأسفل هذا الجبل بحرى عين زبيدة ، وعليه شاحص مثبت فيه بعض الأحجار المكتوبة من قديم الزمن ، وإن شاء الله تعالى ستنقل نص الكتابات التي عليها عندما تسنح لنا الفرصة .

انظر: صورة رقم ٢٦٤ . خريطة لعرفات في عهد الأئمة

قال صاحب كتاب «مرآة الحرمين» عن عرفة ما نصه :

ميدان عرفة وجبالها على بعد (٢١٤٧٦) متراً من باب المعلبة مكة ، تجده في طريق الطائف علمين هما حدود عرفة من جهة مكة وهما في الخل ، بعد العلمين المنصوين على حدود الحرم بمسيرة (٢٥) دقيقة ، وعرفة ميدان واسع أرضه مستوية ، يبلغ نحو ميلين طولاً في مثلمها عرضاً ، وتحيط به سلسلة جبال على شكل قوس كبير ، وير بطرف القوس من جهة الجنوب الطريق إلى الطائف ، وفي شماله جبل الرحمة المعروف عند الناس بجبل عرفات وإنما جبل عرفات ما أطاف بهذا الميدان ، وجبل الرحمة أصغر جزء فيه ، ويبلغ ارتفاع هذا الجزء ثلاثة متراً ، وطوله نحو (٣٠٠) متر ، وفي متوسط ارتفاعه مستوى طوله (١٥) متراً في عرض (١٠) أمتار ، به مسجد إبراهيم عليه السلام ، كما يقولون ، وفي قمة الجبل مستوى واسع مبلط في وسطه مصطبة ، في ركتها الغربي علم مبني كأعلام الحرم ، يعلق به جملة مصايح يهتدي بها الناس ليلاً إلى موطن الجبل ، وقد تقدم تفصيل بعض ذلك في ص(٤) من الرحلة ، وبهذا الميدان ينضم الحاج أيام عرفة ، وبه جملة مساجد وعدة أحواض وسوق ، وجرى عين زبيدة يطيف بالميدان كما تطيف الجبال ، وقد قدمنا لك ذكر الأحواض ووصفها بالتفصيل ومقاسها في الرسم (٧٧) ، وفي ص(٢٠٨ و ٢٠٩) . وكذلك تكلمنا على مجرى عين زبيدة بعرفة ، وذكرنا الكتابات التي وجدناها بجبل الرحمة دالة على العمارات المختلفة في ص (٢١٤) و (٢١٥) ، وذكرنا أيضاً ما نقدناه هنالك من النظام والأعمال فلا داعي لذكره ، فارجع إليه إن شئت . اهـ من الكتاب المذكور .

لكن قوله : «وبه جملة مساجد» غير صحيح ، وهو سبق قلم من المؤلف رحمه الله تعالى ، فليس في ميدان عرفة غير مسجدتين : «مسجد الصخرات» وهو أسفل جبل الرحمة ، ومحل هذا المسجد هو موقف رسول الله ﷺ عشيّة عرفة . و «مسجد ثمرة» ويسمى مسجد عرفة ، وهو بأول الميدان للذاهب من مكة إلى عرفة ، خارج عن حدودها بعيد عن جبل الرحمة ، وهو الذي يصلّي فيه الإمام بالناس يوم عرفة . فلا يوجد بعرفات غير هذين المسجدتين من قديم الزمان ، ومسجد ثمرة أقدم من مسجد الصخرات .

انظر: صورة رقم ٢٦٥ ، جانب من عرفات ويرى به جبل الرحمة

حدود عرفات

من أحسن ما كتب بالتفصيل عن حدود عرفات هو ما ذكره الإمام النووي رحمة الله تعالى في الجموع شرح المذهب بصحيفة (١٠٥) من الجزء الثامن ، وهذا نصه :

وأما حد عرفات فقال الشافعي رحمة الله تعالى : هي ما جاوز وادي عرنة بعين مضمونة ثم رأى مفتوحة ثم نون إلى الجبال القابلة مما يلي بساتين ابن عامر ، هذا نص الشافعي وتابعه عليه الأصحاب .

ونقل الأزرقي عن ابن عباس رضي الله عنهمما قال : حد عرفات من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفات إلى وصيق ، بفتح الواو وكسر الصاد المهملة وآخره قاف ، إلى ملتقى وصيق ووادي عرنة .

قال بعض أصحابنا : لعرفات أربع حدود :
(أحددها) يتنهى إلى جادة طريق المشرق .

(والثاني) إلى حافات الجليل الذي وراء أرض عرفات .

(والثالث) إلى بساتين ، التي تلي قرية عرفات ، وهذه القرية على يسار مستقبل الكعبة إذا وقف بأرض عرفات .

(والرابع) يتنهى إلى وادي عرنة .

قال إمام الحرمين : ويطيف بمنعرجات عرفات جبال وجهها المقبلة من عرفات .

اعلم أنه ليس من عرفات وادي عرنة ولا نمرة ولا المسجد المسمى مسجد إبراهيم ويقال له أيضاً مسجد عرنة ، بل هذه الموضع خارجة عن عرفات على طرفها الغربي مما يلي مزدلفة ومنى ومكة ، هذا الذي ذكرته من كون وادي عرنة ليس من عرفات ، لا خلاف فيه ، نص عليه الشافعي واتفق عليه الأصحاب .

وأما نمرة فليست أيضاً من عرفات بل بقربها ، هذا هو الصواب الذي نص عليه الشافعي في مختصر الحج الأوسط وفي غيره ، وصرح به أبو علي البندنيجي والأصحاب ، ونقله الرافعي عن الأكثرين .

قال : وقال صاحب الشامل وطائفة : هي من عرفات ، وهذا الذي نقله غريب ليس معروفا ولا هو في الشامل ولا هو صحيح بل إنكار للحس ولما تطابقت عليه كتب العلماء .

انظر : صورة رقم ٢٦٦ ، الحجاج تحت جبل عرفات يتهلون ويلبون

وأما مسجد إبراهيم فقد نص الشافعي على أنه ليس من عرفات ، وأن من وقف به لم يصح وقوفه ، هذا نصه وبه قطع الماوردي والمتولي وصاحب البيان وجمهور العراقيين .

وقال جماعة من المخراصانيين منهم الشيخ أبو محمد الجوني والقاضي حسين في تعليقه ، وإمام الحرمين الرافعي : مقدم هذا المسجد من طرف وادي عرنة لا في عرفات ، وآخره في عرفات ، قالوا : فمن وقف في مقدمه لم يصح وقوفه ، ومن وقف في آخره صح وقوفه .

قالوا : ويتميز ذلك بصخرات كبيرة فرشت هناك .

قال الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح : وجه الجمع بين كلامهم ونص الشافعي أن يكون زيد في المسجد بعد الشافعي هذا القدر الذي ذكروه والله أعلم .

قلت : قال الأزرقي : في هذا المسجد ذراع سعته من مقدمه إلى مؤخره ، مائة ذراع وثلاثة وستون ذراعا ، قال : ومن حانبه الأيمن إلى حانبه الأيسر من عرفة والطريق مائتا ذراع وثلاثة عشر ذراعا ، قال : وله مائة شرفة وثلاث شرفات ، وله عشرة أبواب . قال : ومن حد الحرم إلى مسجد عرنة ألف ذراع وستمائة وخمسة أذرع . قال : ومن مسجد عرفات هذا إلى موقف النبي ﷺ ميل والله أعلم .

واعلم أن عرنة ونمرة بين عرفات والحرم ليستا من واحد منها ، وأما جبل الرحمة ففي وسط عرفات ، فإذا علمت عرفات بجبلودها ، فقال الماوردي : قال الشافعي : حيث وقف الناس من عرفات ، في جوانبها ونواحيها وجبارها وسهلها وبطاحتها وأوديتها وسوقها المعروفة بذى المجاز أجزأه ، قال : فأما إن وقف بغیر عرفات من ورائها أو دونها ، عامداً أو ناسياً أو جاهلاً بها فلا يجزئه ، وقال مالك : يجزئه وعليه دم والله أعلم .

انتهى من كتاب الجموع للننوبي ، وهو أحسن ما كتب في حدود عرفات .

قال ابن حجر في حاشيته على الإيضاح : قال التقي الفاسي : وحد عرفة من هذه الجهة الآن أي جهة مكة بين وهو علماً بعد العلمين اللذين هما حد الحرم إلى جهة عرفة ، وكان ثمة ثلاثة أعلام فسقط واحد وبقي أثره مكتوباً عليه : إن الأمر بإنشائها بين متنه أرض عرفة ووادي عرفة مظفر الدين صاحب إربيل سنة خمس وستمائة . انتهى من الحاشية المذكورة .

إربيل : بلدة شهيرة من بلاد الأكراد ، وهي بلدة مؤلف هذا الكتاب ويقال لها إربيل ، وعوام الأكراد يسمونها : هَوْلِيرُ ، بفتح الهاء وسكون الواو وكسر اللام رباء بعدها ، وصاحبها الملك مظفر الدين رحمة الله ، أفرد له ابن خلكان ترجمة طويلة ، وقال عنه : إنه كان له في فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحداً فعل ذلك ما فعله ، ولم يكن في الدنيا شيء أحబ إليه من الصدقة ، وكان يقيم في كل سنة سبيلاً للحجاج ، ويسير معه جميع ما تدعوه حاجة المسافر إليه في الطريق ، ويسير صحبته أميناً معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على الحاجين وأرباب الرواتب ، وله بعكة حرسها الله تعالى آثار جميلة وبعضها باق إلى الآن ، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف ، وغrom عليه جملة كثيرة ، وعمر بالجبل مصانع للماء ، فإن الحاج كانوا يتضررون من عدم الماء . توفي رحمة الله تعالى سنة ثلاثين وستمائة . اهـ .

وقد ذكرنا هذه الجملة لمناسبة المقام ، ومن أراد الوقوف على معرفة أحوال الأكراد وما لهم من مآثر وخدمات إسلامية ، فليراجع كتاب "تاريخ الكرد وكردستان" ، وكتاب "مشاهير الأكراد" وهما مطبوعان بمصر .

انظر : صورة رقم ٢٦٧ ، خيام الحجاج بعرفات

وصف وقوف الحجاج بعرفات

رأينا في كتاب البتونني رحمة الله تعالى المسمى «بالرحلة الحجازية» وصف وقوف الحجاج بعرفة في زمانه ، وما اقتربه من العمل في عرفات ، فأحينا نقله هنا ليظهر الفرق الكبير بين ما كانت عليه عرفات سابقاً وبين ما هي عليه اليوم ، وقد كان مؤلف الكتاب المذكور حج مع خديوي مصر «عباس حلمي باشا الثاني» في سنة (١٣٢٧) هجرية ألف وثلاثمائة وسبعين وعشرين ، وهذا نص ما جاء في الرحلة الحجازية :

«الوقوف بعرفة» عند وصول الحجاج إلى هذا الوادي ، ينزل ركب الحملين «أي الحمل المصري والحمل الشامي» بخيامهم قريباً من جبل الرحمة ، يليهما مصارب الحجاج على اختلاف أجناسهم ، وعلى سفح عرفة من عاليه إلى جبل الرحمة ، ترى جميع الأعراب محتشدين إلى جوف الجبل ، بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص ، أما باقي الحجاج فإنه ينصب الخيام في بطن الوادي الذي يزدحم إليه الناس ، حتى لا تكاد ترى فيه مكاناً خالياً من واقف أو قاعد ، وجماعهم وحميرهم مربوطة بجوارهم ، وترى الكل في صعيد واحد ، حتى يتغذر على الإنسان السير إلى أي جهة أراد ولو لضرورة في نفسه ، ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادي عرفة إلى أحذية أفقية يقسمها شارع راس ، ويتخصص كل حذاء لسكنى جماعة من الحجاج وجماعهم من ورائهم ، وتتوسط لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج في وضع مصاربهم ، ولا الجمالة في ربط جماهم ، ويعين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة ، لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين ، وفي سعة الوادي ما يضمن للدولة إقامة الكل على الراحة التامة ، لأن هذا التراحم إنما سببه التقرب من بحرى الماء ومن السوق الذي تراه بجوار مسجد الصخرات ، (ويتابع فيه بعض الأغذية الضرورية) ، وربما كان لتراحهم سبب آخر وهو خوفهم من الأعراب الذين يكون لهم من سعة هذا الرحال عنون على النهب والسلب ويسبب هذا التراحم يضل الناس عن أمكتنهم إذا تركوها لأمر ما ، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم إنما بأسمائهم أو بألفاظ اصطلاح عليها أهل كل جهة ، حتى إذا سمعها واحد منهم أجايه بصوت عال وقد مصدر الصوت وهذه الحركة لا تكاد تقطع مدة الإقامة بعرفة .

انظر: صورة رقم ٢٦٨ ، جبل عرفات وبجانبه محطة المياه ومخططات تقسيم الأرضي للحجاج والمطوفين

ويجدر بدولة مولانا الشريف إصدار أمره الكريم بالعناية التامة ، بلاحظة فتحات بحرى عين زبيدة ، وتعيين خدمة مخصوصين لها ، لا يدعون أحداً من الحجاج يبعث بها أو يقتبس فيها ، وخصوصاً أولئك الجنوومين الذين يقتبسون في الحوض الذي يسمونه بحوض الجنوومين ، زاعمين أن فيه شفاء لهم ، وهم بعملهم هذا إنما يضرون إخوانهم المسلمين بنقل العدو إلىهم .

ولا يغرب عن فكره السامي أن علماء البكتريولوجيا ذهبوا إلى أن الماء هو أكبر موصل للعدوى ، وخصوصاً في وباء الكلوليرا ، نسأله تعالى السلامة لعباده .

ويوم الوقوف هو التاسع من ذي الحجة مع قليل من ليلة العاشر باتفاق المسلمين ، فإذا ثبت هذا اليوم عند القاضي بالصفة الشرعية ، وقف جميع المسلمين على اختلافهم في الجنسيات والمذاهب ، من غير أن يكون للشك تأثير عليهم ، إلا الشيعة من الأعجماء ، فإنهم لو حصل عندهم أدنى شك في رؤية هلال ذي الحجة ، يعني أنه لم يشاهده منهم الجم الغفير ، وقفوا يوم التاسع والعشر احتياطاً .

وفي عرفة ترى الناس مشتغلين كل بشأنه ، وهم وإن انفصلوا في هياكلهم ، فإن قلوبهم مرتبطة ارتباط ذات الجسم الواحد ببعضها ، وبعد صلاة العصر يتحرك الحمالان بحرسهما إلى منحدر جبل الرحمة ، وينهض خطيب عرفة (وهو في الغالب قاضي مكة الذي يتعين من قبل السلطان) فيصعد بنافقه من طريق حلواني إلى صخرة في صدر هذا الجبل ، ويخطب نياية عن خليفة رسول الله ﷺ خطبة يعلم الناس مناسك الحج ، ويكثر فيها من الدعاء والتلبية ، ومن دونه مبلغون ، بأيديهم مناديل يشيرون بها في كل تلبية إلى الواقعين دون الصخرة ، فيقول الكل : «لبيك اللهم لبيك» بصوت يكاد يصعد بالأحساء إلى عنان السماء ، فيما لها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرة عن أنفسهم ، فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة ، وقد تغلب وجданهم على وجودهم ، وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم ، حتى كأنهم في لباسهم الأبيض الظاهر النقي ، ملائكة الله في هذا الوادي ، الذي يردد أصواتهم وابتهالاتهم إلى واجب الوجود ، إلى الملك المعبد ، إلى الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فإذا تراجع إليهم صدى هذا الصوت ، أحدث في نفوسهم هزة ، تدق لها قلوبهم ، وتضطرب منها أفنائهم ، خشية من رب الأرباب ومالك الرقاب ، هنالك تسوخ النفوس في ظروفها ، وتنكمش الجسم على هياكلها ، من رهبوت هذا الملوك ، وحشاشات القلوب تصيب من آماق عيونهم أسفًا على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب ، وتتلاحم الأرواح إلى التعلق بأستار رحموت رحماتها ، تائبة مستغيرة ضارعة إليه تعالى بقوتها في ساحة غفرانه ، مؤملة في عظيم كرمه وإحسانه ، ولا تثبت أن تزاجع ، وهي على يقين

من قبورها في ساحة الرحيم الرحمن ، وقد وقر في نفوس ذويها حب الفضيلة وبغض الرذيلة ، وحسب الإنسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة .

ويستمر أداء على هذه الحال ، حتى إذا غابت اللهم مس في الأفق أطلق صاروخ من قبل الخطيب إعلاناً ب تمام الموقف ، عندها تتحرك المحامل بين ضروب المدفع وعزف الموسيقات وأصوات الابتهالات وكثرة الدعوات وانهال العبرات ، ويكون كل حاج قبل ذلك قد حمل حمله واستعد للإفاضة ، فينفر الناس مرة واحدة من عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والجبور ، حتى إذا وصلوا إلى ذينك العلمين خرجوا من بيتهما ، وهناك ترى الرحيم لا يوصف والناس في حركة هائلة إلى المزدلفة ، فإذا وصلوها نزلوا بها ، وأقام بها الحنفية إلى ما بعد صلاة الصبح ، والشافعية إلى ما بعد نصف الليل ، أما المالكية فحسبيهم من الإقامة بها قدر ساعة ، يجتمعون فيها جماهم من الحصى الموجود في أرضية واديهما وهي تسع وأربعون حصاة في قدر الفولة ، يتناولها الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة ، ليترجم بها في مني التي ينزل إليها من ليلته .

انظر: الصور أرقام ٢٦٩ لأعلى جبل عرفات ، و ٢٧٠ لأحد شوارع عرفات المؤدي إلى جبل الرحمة ، و ٢٧١ لغار نمرة عرفات ، والمؤلف وافقاً على باب الكبير في (١٣٧٦هـ)

وأغلب الحجاج يقلدون مالكاً ، ويسرون في التزول إليها ، حتى يجدوا لهم فيها مكاناً يقيمون به على راحتهم وفي صباح النحر وهو يوم العيد الأكبر ، يكون عموم الحجاج وصلوا إلى مني ، ويخيم الحمل المصري في شمال المصطبة ، التي فيها مخيم الشريف ، والحمل الشامي إلى جوار مسجد الخيف ، وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع ، يحيط به سور متسع ، وإلى حائطه الغربي رواق على طوله ، قام سقفه على أعمدة من البناء .

وباب هذا المسجد إلى الشمال ، وفي وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة أقيمت على مكان يصلي الناس فيه ، وهو المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ ، ويجوار هذه القبة مئذنة صغيرة بناها السلطان قايتباي سنة ٨٧٤ ، وبني بجانب هذا المسجد داراً كان ينزل إليها أمير الحاج المصري ، فاندثرت ولكن المسجد باق على حاله ، إلا أنه يحتاج من داخل سوره وخارجه إلى عناء ذوي الشأن ، حتى يكون نظيفاً بعيداً عن عبث العابدين ، إن لم يكن لمحاجات الدين فلموجبات

الصحة العمومية ، وخصوصاً في مني التي تكتب فيها صحفة الحاج الصحية ، وتساق على أجنحة البرق إلى جميع الأقطار المسكونة .

وبحجرد وصول الحاج إلى مني يقصدون من فورهم حمزة العقبة ، فيرمونها وينحررون ويخلقون أو يقترون ، ثم يلبسون ملابسهم : وعندما يجل هم كل شيء ما عدا النساء والطيب . وذبائح القربان تذبح في شرقى مني ، وتلقى في حفر تحفر هناك لهذا الغرض . وكلما امتلأت حفراً ، بجشت القرابين ، ردمت وحفرت غيرها . وهكذا ويكون لها ، بعد الحج ، رائحة كريهة جداً ، ولو كانت الحكومة تعني بجمع ما يتراكم فيها من العظام مع ما يختلف منها حول مكة ، وتبيعه لإحدى الشركات بمجددة ، وتصرف ثمنه في تحسين طرق الحاج ، ونظافة شوارع مكة ، لكان فيه فائدة كبيرة .

وقد طلبت شركات كثيرة التزام ذلك من الحكومة السابقة فلم يقبل طلبها . أما الحكومة الحالية فأظن أنها لا ترى مانعاً في ذلك ما دام في مصلحة البلاد .

ويقيم الحاج يعني ، إلى عصر اليوم الثالث عشر من ذي الحجة ، ثم ينزلون إلى مكة لأداء الركن الباقى من أركان الحج ، وهو طواف الإفاضة والسعى ، لمن لم يكن سعى بعد طواف القدوم . ومن الناس من ينزل إلى مكة أول يوم ، بعد رمي حمزة العقبة ، لاستكمال جميع مناسك الحج ، ثم يرجعون من يومهم إلى مني ، فيقيمون فيها مع إخوانهم ثانى وثالث أيام التشريق ، ويرجحون في كل يوم منها الجمرات الثلاث ، وفي عصر اليوم الثالث ينزلون إلى مكة . انتهى من الرحلة الحجازية .

انظر: الصور أرقام ٢٧٢ ، لجانب من خيام الحاج بعرفات ومخازن المياه المتوفرة لراحة الحاج ، و ٢٧٣ لنجل المؤلف بملابس الإحرام بعرفات ، و ٢٧٤ لعين سبيل الماء بعرفات بالقرب من مسجد نمرة المؤلف وافقاً أمامه .

الوقوف بعرفات

اعلم أن الوقوف بعرفات في الحج يشبه محشر يوم القيمة ، كما أن النوم يشبه الموت والاستيقاظ منه يشبه البعث والنشور والقيام من القبور . فالوقوف بعرفات هو المحشر الأصغر ، ولقد كتبنا في كتابنا المطبوع المسمى "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرمة" . ونحن ننقل ما كتبناه فيه هنا تتمينا للفائدة العامة .

أما دعاء يوم عرفة فقد ذكرناه في غير هذا المثل ، وإليك ما جاء في كتابنا المذكور :

يسن للحاج أن يكثر بعرفة من الدعاء والذكر والتلبية وقراءة القرآن والاستغفار والتسبيح والتحميد والتکبير والتهليل ، وأفضل الدعاء ما راوه الترمذی وغيره ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أفضل الدعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلی : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر» .

وفي كتاب الترمذی عن علي ، رضي الله عنه ، قال : «أكثر ما دعا به ﷺ يوم عرفة في الموقف : اللهم لك الحمد كالذی نقول ، وخيراً مما نقول ، اللهم لك صلاتی ونسکی ومحایی ونمایی وإلیک ما بی ولک ربی تراشی ، اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصرد وشتات الأمر ، اللهم إني أعوذ بك من شر ما تجیء به الريح» . ولیدع لنفسه والديه وأقاربه وشیوخه وأصحابه وسائر من أحسن إليه ، وسائر المسلمين الأحياء منهم والأموات ، ولیحذر من التقصير في ذلك ، فإن يوم عرفة يوم عظيم قد لا يمكن تداركه ، وفيه تسکب العبرات وتقال العثرات وترجحى الطلبات ، فإنه يجمع عظيم ، بل إنه أعظم المجامع على وجه الأرض ، كيف لا وقد اجتمع من المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها سائر الشعوب والأمم ، من مختلف الأجناس واللغات ، أتوا من كل فج عميق ووقفوا في يوم واحد ، في مكان واحد ، محربین على هیئة واحدة ، وفي لحظة واحدة ، قد تركوا الأوطان والعمارات ، ووقفوا بصحراء عرفات يسكنون العبرات ، اختلط بعضهم بعض ، لا فرق بين الأمير والحقیر ، والغیني والفقیر والملاک والمملوك ، والأیض والأسود ، شعارهم «لیک اللهم لیک ، لیک لا شريك لك لیک» كل واحد لا يرجو ذلك اليوم غير الله ولا يطلب إلا رحمته ورضاه ، بخشووع وخضوع وذلة وافتقار ، مخلص له الدين ولو كره الكافرون ، حقاً إنه لموقف عظيم ومحشر كبير وبرهان ساطع على عظمة الله تعالى وجلاله ، وأن الملك والملکوت لله الواحد القهار ، وأنه جل شأنه يتجلی على عباده ذلك اليوم بالمفرونة والرحمة والعتق من النار ، ويماهی بهم الملائكة ، ففي صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله تعالى فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وأن يماهی بهم الملائكة يقول : ما أراد هؤلاء؟».

وروى أحمد والطبراني: أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة يقول: أنظروا إلى عبادي أتونني شعثاً غيراً» وقال عليه الصلاة والسلام: «ما رأي الشيطان أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيب عنه يوم عرفة، وما ذاك إلا أن الرحمة تنزل فيه فتجاور عن الذنوب العظام» نسأل الله الحي القيوم أن يتقبل منا صالح الأعمال، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه وأن يتغمدنا برحمته في الدنيا والآخرة، إنه بعباده لطيف خبير . اهـ.

انظر: صورة رقم ٢٧٥ ، أحد صناییر الماء بعرفات والحجاج يستقون ويغسلون

الحج وصف الوقوف بعرفات

ذكرنا في كتابنا المطبوع المسمى «إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة» أسرار الحج ومزاياه ، ورأينا أن نذكر شيئاً من ذلك هنا تكملاً للفائدـة ، وإليك بعض ما جاء فيه :

يرتبط الحج بالكعبة المعظمة منذ بناها الأول ، فهو لذلك من الأمور الدينية القديمة العهد جداً ، وقد حجَّ كثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكان أهل الجاهلية يحجون ويقفون بعرفات ويبيتون بمزدلفة ويمكثون بمنى ، وكانتوا يصنعون للحجاج طعاماً أيام الموسم بمكة ومنى ، ولما حجَّ سيدنا يونس عليه السلام كان يؤثر عنه : «لبيك كاشف الكرب لبيك» .

ولئن كان الحج خامس أركان الإسلام في الترتيب كما جاء في الحديث الشريف «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإن الصلاة، وإيتاء الزكوة، وصوم رمضان، وحج البيت» كما في رواية ابن عمر فإنه جامع لمعانيها كلها ، كذلك الإسلام فإنه أتى آخرًا ولكنه جمع حقائق الأديان كلها ، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده ، كما يقول في كتابه العزيز: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينكم» ويقول: «فمن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» .

وما كان الحج خامس الأركان ترتيباً إلا لكونه واجباً في العمر مرةً على المستطيع ، بخلاف الصلاة والزكاة والصيام فإنها تتكرر على الدوام إما يومياً وإما سنوياً ، فالحج هو أكبر مؤتمر إسلامي دائم بدوران السنين والأعوام إلى يوم القيمة ، وهو أوسع وأشرف بجمع ديني وأعظم وأفخم ناد صحراوي يعقد بأمر

إلهي ويوارع الإيمان القوي مرة كل عام، وأعضاء هذا المؤتمر الأكابر هم جميع المؤمنين على اختلاف طبقاتهم وتتنوع شعوبهم وأمّهم ، لا فرق بين الكبير والصغير ، والأمير والحقير ، والغني والفقير ، والعالم والجاهل والعامل والعاطل ، وكل منهم يشعر بالوحدة العامة ويهدف إلى التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

ولقد كان الإفرنج والحكومات الأجنبية يتغوفون ويهابون الإسلام لأمررين خطيرين :

(الأول) الحج إلى بيت الله الحرام الذي هو بمثابة الوحدة الإسلامية التي تجمع كلمتهم وتقوى عزائمهم (والثاني) الخلافة وهي التي يستندون إليها ويرتبطون بها ويستظلون تحت لوائها ، فهي مركز سلطانهم ومصدر نفوذهم .

ولقد بسط الكلام عن الحج والخلافة بما يشفي الغليل (المستر لو ثروب سنودارد الأمريكي) في الفصل الثاني بعنوان «الجامعة الإسلامية» من كتابه «حاضر العالم الإسلامي» بتعليقات أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، فانظر إليه فإنه كتاب قيم جداً .

أما الخلافة فلا تتكلم عنها ، وأما الحج فكيف لا يخالفون منه وهو العامل الأكبر في التعاون والتعاضد والرابطة أليس يقول الله تعالى : ﴿لَيَشهدُوا مَنْافِعَهُ﴾ فأي مفعة أعظم وأكبر لل المسلمين من تقوية الرابطة الدينية ؟ وربط الشعوب المختلفة بعضها بعض الدين أتوا من كل فج عميق ، ففي إطلاق لفظ المنافع في الآية دليل واضح على تعيمها ، فيدخل فيها كل ما له مفعة للمسلمين كالأمور الوطنية والعلمية والثقافية والاجتماعية والإنسانية والتجارية وغير ذلك ، والحق يقال : إن الناظر في يوم عرفة إلى تلك الجموع المحتشدة ، وإلى ذلك البحر الزاخر من المسلمين الذين أتوا يوحدون الله ويلبون دعاءه من مشارق الأرض وغاربها ، ومن مختلف الأجناس واللغات ، ليندھش اندھاشاً ويستغرب عجبًا ، ويزداد إيماناً بالله تعالى وبقدرته وعظمته «وما رأيكم من سمعاً» .

فإن شرعت صلاة الاستسقاء بجتماع الناس بأطفالهم ودوايهم وحيواناتهم ، لإنزال قطر المطر ، ولكن جعلت أيضاً صلاة الجمعة فرضاً لوعظ الناس وإرشادهم لأمور دينهم ودنياهم ، فإن يوم عرفة لأعظم من الاستسقاء والجمعة ، وهو أفضل الأيام على الإطلاق ، ولذلك كان صيحة ليتها هو العيد الأكبر

للمسلمين في جميع الأقطار ، وكيف لا يكون كذلك والله عز شأنه يتحلى على هذا الجمع الغفير من الأمة الحمدية بالرقة والغفران والفضل والإحسان والعتق من النار ، بل حتى ياهي بهم الملائكة ، ذلك يوم احتللت فيه العربي بالعجمي والأبيض بالأسود ، والحيوان بالبشر ، وصار كل واحد يدعوا الله مخلصاً بقبله ، سائلًا له بلسانه ولغته ، ساكباً من العبرات والدموع ما يبلغه أعلى مراتب الخصوص والخشوع ، كلهم في ذلك اليوم لا يرجون إلا الله ، ولا يدعون إلا إيه ، نشيد لهم الروحي «لبيك اللهم لبيك» وشعارهم الديني «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إيه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» ، قد تركوا أوطنانهم وفارقاً أولادهم ، وكشفوا رؤوسهم ، وزنعوا ثيابهم وأبدلواها بالإحرام الأبيض كالأكفان ، ووقفوا في ذلك الفضاء الواسع ، امتثالاً لأمر الله وابتغاء لمرضاته .

مسجد نمرة بعرفات

مسجد نمرة بفتح النون وكسر الميم ويجوز إسكان الميم مع فتح النون أو كسرها ، هو مسجد معروف بعرفة ، وفيه يستحب للإمام أو نائبه أن يخطب يوم عرفة في وقت الظهور للناس بين لهم كيفية الوقوف وشرطه وآدابه ، ونمرة موضع قرب عرفات وليس منها ، ومثلها وادي عرنة ، وعرفات واقعة أمامهما .

قال النوري : نمرة موضع معروف بقرب عرفات خارج الحرم ، بين طرف الحرم وطرف عرفات .

وقال الفاسي : هو الموضع الذي يؤمر الحاج بنزوله إذا توجه من منى في يوم عرفة ، وهو يطن عرنة بالنون على ما ذكره ابن خليل في منسكه .

وعرنة بالنون قال الفاسي : وهو الموضع الذي يستحب للحجاج التجنب فيه من الوقوف ، وهو بين العلمين اللذين هما حد عرفة والعلمين اللذين هما حد الحرم من هذه الجهة ، وقد اختلف فيه فقيل : إنها من الحرم ، وهذا يروى عن ابن الحبيب المالكي . وقيل : إنها من عرفة ، ومنذهب الشافعي أنها ليست من عرفة . اهـ .

وقد نص الشافعي على أن مسجد إبراهيم (مسجد نمرة) ليس من عرفات ، وأن من وقف به لم يصح وقوفه وبه قطع بعضهم .

وقال جماعة منهم الرافعي: مقدم هذا المسجد من طرف وادي عرنة لا في عرفات، وآخره في عرفات، قالوا: فمن وقف في مقدمه لم يصح وقوفه، ومن وقف في آخره صح وقوفه. انتهى .

وهناك أعلام لعرفات في الحد الغربي تفصل بينها وبين وادي عرنة وقفت عليها أنا وفضيلة الشيخ عبد الله بن عمر ابن دهيش رئيس المحاكم الشرعية بمحكمة المكرمة ، وابنه عبد الملك ، وابنه عبد اللطيف وصورتها ، وفضيلة الشيخ واقف عندها. انظر الصورتين الآتتين .

انظر: صورة رقم ٢٧٦ ، مسجد نمرة من الداخل

انظر: صورة رقم ٢٧٧ ، مسجد نمرة من الخارج

ومسجد نمرة يقال له مسجد عرنة بضم العين وفتح الراء ، ومسجد إبراهيم أيضاً نسبة إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، كما هو صريح كلام الأزرقي في غير موضع ، وجزم به الرافعي والنوري .

وإلى هذا جنح الفاسي في كتابه «شفاء الغرام» فإنه قال فيه ما نصه :
ويقال لهذا المسجد «أي مسجد عرفة» مسجد إبراهيم ، وإبراهيم المنسوب إليه هذا المسجد هو الخليل عليه السلام كما يقتضيه كلام الأزرقي في غير موضع، وجزم به الرافعي والنوري .

وأنكر ذلك القاضي عز الدين بن جماعة قال : وليس لذلك أصل ، وخطأ الشيخ جمال الدين الأستاذان الرافعي والنوري فيما ذكراه من نسبة هذا المسجد للخليل عليه السلام ، وذكر أن ابن سراقة سبقهما إلى هذا الخطأ في كتابه الإعداد .

وفيما ذكره الأسنوبي وابن جماعة نظر لمخالفته ما يقتضيه كلام الأزرقي وهو عمدة في هذا الشأن ، كيف وقد وافقه عليه غير واحد من كبار العلماء ومنهم ابن المنذر فيما نقله عنه سليمان بن خليل . والله تعالى أعلم .

انتهى كلام الفاسي في نسبة المسجد إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

نقول : إن كلا الغريقين لم يستدل على دعواه في نسبة المسجد إلى سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أو عدمه ، ونحن نذهب مع من قال أن مسجد إبراهيم نسبة إلى خليل الرحمن إبراهيم ﷺ .

ونستدل على ذلك بما ذكره الأزرقي في تاريخه في الجزء الثاني عند الكلام على ذرع ما بين مزدلفة إلى عرفة وأمازيمها ومسجدها ؛ فإنه رحمه الله تعالى بعد أن ذكر قياس مسجد عرفة ووصفه قال في آخره ما نصه :

قال أبو الوليد «يعني الأزرقي نفسه» : ومن حد الحرم إلى مسجد عرفة ألف ذراع وستمائة وخمسة أذرع ، ومن ثمرة وهو الجبل الذي عليه أنصاب الحرم على يمينك إذا خرجت من مأذمي عرفة تزيد الموقف ، وتحت جبل ثمرة غار أربعة أذرع في خمسة أذرع ، ذكروا أن النبي ﷺ كان ينزله يوم عرفة حتى يروح إلى الموقف ، وهو منزل الأئمة إلى اليوم .

والغار داخل في جدار دار الإمارة في بيت الدار ، ومن الغار إلى مسجد عرفة ألفاً ذراعاً وأحد عشر ذراعاً ، ومن مسجد عرفة إلى موقف الإمام عشية عرفة ميل . يكون الميل خلف الإمام إذا وقف وهو حيال جبل المشاة . انتهى كلام الأزرقي .

وحبل المشاة المذكور هنا ، هو صخرة الال الذي في بطن مسجد الصخرات التي بقرب جبل الرحمة ، وهو الذي وقف عليه الصلاة والسلام عنده على ناقته عشية عرفة ، قال النويري : الجبل بالحاء المهملة من أسماء الرمال وهو ما استرق من الرمل .

وقال الأزرقي في موضع آخر في تاريخه عن ابن جريج قال : سألت عطاء : أين كان رسول الله ﷺ ينزل يوم عرفة ؟ قال : بنمرة منزل الخلفاء إلى الصخرة الساقطة بأصل الجبل عن يمينك وأنت ذاهب إلى عرفة ، يلقى عليها ثوب يستظل به ﷺ . انتهى من الأزرقي .

انظر : صورة رقم ٢٧٨ ، مسجد نمرة بعرفات

فعلم من كلام الإمام الأزرقي هنا - وهو إمام أقواله معتمدة لقرب زمانه بعهد النبي ﷺ لأنّه مولود في القرن الثاني من الهجرة - أن النبي ﷺ كان ينزل في يوم عرفة في الغار الذي تحت جبل ثمرة الذي هو أربعة أذرع في خمسة أذرع ، فتكون مساحته عشرين ذراعاً ، ثم يذهب من هذا الغار إلى الموقف بعد أن تميل الشمس ، وأن ذرع ما بين هذا الغار ومسجد عرفة «أي مسجد إبراهيم» ألفاً ذراعاً وأحد عشر ذراعاً أي نحو ألف متر .

إذا فهمنا ذلك علمنا فيما يظهر من نزول النبي ﷺ في هذا الغار ، ثم خروجه إلى الموقف يوم عرفة ، إنما هو اقتداء بمن كان قبله من الأنبياء ، وهم اقتداء بخليل الله إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، حيث إنه هو الذي أمره الله عز شأنه أن يوذن في الناس بالحج ، وأراه جبريل عليه السلام الموقف والمشاعر كلها ، حتى إن إبراهيم عليه السلام لما حج بابنه إسماعيل وبسكن الحرم من جرهم وصل بهم إلى نمرة ، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الظهر والعصر هنالك ، ثم راح بهم إلى الموقف بعرفة كما ذكره الأزرقي .

وموقفه وموقف جميع الأنبياء عشية عرفة هو نفس موقف نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين ، أي في موضع مسجد الصخرات بقرب جبل الرحمة .

فإن قيل : سلمنا أن إبراهيم الخليل أو نبينا محمدًا عليهما الصلاة والسلام نزل في غار جبل نمرة ، ولكن لم يكن هنالك في زمنهما مسجد حتى ينسب إلى إبراهيم الخليل ؟

نقول : لا يخفى أن من السنة للحاج أن يخرج من مكة يوم التروية وهو ثامن ذي الحجة إلى منى ، فيصلي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وأن بيته بها ويصلي الصبح في اليوم التاسع وهو يوم عرفة ، فإذا طلعت الشمس على جبل ثير سار من منى إلى عرفات ، فإذا وصل إلى نمرة وهي بقرب عرفات وليس منها «أي في جهات مسجد نمرة وقبله بقليل» جلس بنمرة وصلى الظهر والعصر بمجموعتين ، ثم يسير من نمرة إلى عرفات للوقوف بها ، فكان النزول في وادي نمرة الذي هو قبيل عرفات إنما هو للاستراحة وأداء صلاة الظهر والعصر فيه تأهلاً واستعداداً للوقوف بعرفة .

فعليه لا يبعد أن إبراهيم أو نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهما صلی الظهر والعصر في موضع مسجد نمرة بعد أن ضُرب لكل منها قبة أو خيمة ليستظل تحتها ، ثم سار بعد ذلك إلى عرفات للوقوف بها ، فاتخذ الناس موضع صلاة بنمرة مسجداً والله تعالى أعلم بالغيب .

ولم نقف على من بني مسجد نمرة أول مرة ، لكن قال الفاسي في شفاء الغرام عن ذلك ما يأتي :

ولم يذكر الأزرقي الوقت الذي بني فيه هذا ، وذكر ابن عبد البر أنه بني هذا المسجد بعد مصرير الأمر لبني هاشم بعشرين سنتين ، هكذا نقله عن ابن عبد البر الشيخ

خليل ، في توضيحه على مختصر ابن الحاجب ، وبه فسر قوله : وإنما حدث بعد بني هاشم بعشر سنين ، لأنه يوهم أنه حدث بعد انفراضهم ، وعلى هذا يكون بني هذا المسجد في أوائل عشر الخمسين ومائة والله تعالى أعلم .
انتهى من شفاء الغرام للفاسي .

وقال ابن فهد في حوادث سنة أربع وسبعين وثمانمائة وفيها عمر مسجد نمرة بعرنة المعروف بمسجد إبراهيم وأنشئ له رواقان عظيمان بصدر القبلة برسم الظل للحاج .. ثم ذكر بالتفصيل التام عمارة المسجد ، فانظر إن شئت في تاريخ الغازي ، وهذه العمارة من عمارة السلطان قايتباي . كما ذكره القطبي في تاريخه بصحيفة (١٩٦) .

ولقد حصلت عدة عمارات في مسجد نمرة بعرفات في عصور مختلفة منذ نشأة بنائه لأول مرة في حدود سنة مائة وخمسين من الهجرة كما مرّ ، ولم نقف على عدد ما حصل فيه من العمارات ولكن ذكر المؤرخون أن الجواب الأصفهاني عمره في سنة (٥٥٩) تسع وخمسين وخمسمائة ، وعمره السلطان جقمق (٨٤٣) ثلاث وأربعين وثمانمائة ، على يد الأمير سيدون أو سودون ، وعمره السلطان قايتباي سنة (٨٧٤) أربع وسبعين وثمانمائة ، وعمره في زمن السلطان محمد سنة (١٠٧٢) اثنين وسبعين وألف على يد والي جدة سليمان بك .

نقول : وفي عصرنا هذا حصلت في مسجد نمرة ترميمات وإصلاحات ، فإنه في سنة (١٣٨٣هـ) حصلت في مسجد نمرة عمارات وزيد في مساحته ، ولقد ذكر الإمام الأزرقي بصحيفة (١٥١) من الجزء الثاني من تاريخه ، وصف هذا المسجد بالتفصيل كما ذكر وصفه أيضًا الفاسي في شفاء الغرام بصحيفة (٣٠٥) لم نقل ذلك الوصف حتى لا يطول بنا الكلام .

ونحن قد أحذنا قياس هذا المسجد في آخر شعبان (١٣٧٦) ألف وثلاثمائة وست وسبعين من الهجرة فكان كالتالي :

طول هذا المسجد مائة متر ، وعرضه مائة متر ، وفيه باب واحد من جهة القبلة ، وخمسة أبواب من الجهة الشرقية .

أنظر : صورة رقم ٢٧٩ ، مسجد نمرة بعرفات

انظر : صورة رقم ٢٨٠ ، مسجد الصخرات بعرفات

مسجد الصخرات بعرفة

مسجد الصخرات بعرفة معروف وهو بأسفل جبل الرحمة ، على يمين الصاعد إلى الجبل من الدرجات المبنية فيه . وهو مسجد مرتفع عن الأرض قليلاً ، وبه محراب واحد ، يحيط به جدار صغير جداً ، وفيه صخرات كبار ، وعند هذه الصخرات وقف رسول الله ﷺ عشيّة عرفة على ناقته القصواء .

قال شيخنا ، شارح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عند حديث : «لو استقبلت من أمري ما استدبرت .. الخ» ما نصه : (وقوله) : ثم ركب القصواء ، هي بفتح القاف وبالمد وخطأ القاضي عياض ضم القاف مع القصر ، والقصواء هي ناقته عليها التي كان لا يقدر على حمله حين نزول الوحي عليه سواها ، ويقال لها الجدعاء والعضباء ، قال في قرة الأ بصار :

وكان لا يحمله إن نزلا عليه وحي غيرها ونقلها
إن اسمها الجدعاء والعضباء فقد ترافت لها الأسماء

وترادف الأسماء لها ، هو الذي تدل عليه الأحاديث خلاف ما قاله ابن قبية من عدم الترادف (قال النووي) : قال محمد بن إبراهيم التيمي التابعي وغيره: وإن العضباء والقصواء والجدعاء اسم لناقته واحدة كانت لرسول الله ﷺ . انتهى من الكتاب المذكور .

ومسجد الصخرات غير مسقوف ، في وسطه جدار يقسمه إلى قسمين بالعرض ، يتدلى من فتحة مدخله الذي على يمين مستقبل القبلة إلى الفتحة المقابلة للأولى الذي على يسار المستقبل .

وأرض المسجد فيها عدة صخارات لكن بعضها مطمور في الرمل ، وبعضاها ظاهر . فالقسم الأول من المسجد أعلى بقليل من القسم الثاني ، وفي هذا القسم يوجد المحراب ، وفي كل من القسمين أربعة صخور ظاهرة .

والمسجد محاط بجدران قصيرة من الجهات الأربع ، فالجدار الذي فيه المحراب طوله ١٣ متراً وربع المتر ، والجدر الذي على يمين مستقبل القبلة طوله ٨ أمتار ، ومثله الجدر المقابل له على اليسار ، أما الجدر مقابل للقبلة في ظهر المسجد ، فهو دائري غير مستقيم ، بمعنى أنه يدور على الصخرات البارزة من الأرض .

قال الأزرقي : وموقف النبي ﷺ عشية عرفة ، بين الأجلب النبعة والنبيعة والنابت ، وموقفه منها على النابت وهي الظراب التي تكتفف موضع الإمام والنابت عند النشرة التي خلف موقف الإمام وموقفه ﷺ على ضرس من الجبل النابت مضرس بين أحجار هنالك ناثة في الجبل ، الذي يقال له ألال بعرفة على يسار طريق الطائف ، وعن يمين الإمام وله يقول نابعة بني ذبيان : بمصطحبات من لصاق وثيرة يزرن الا لا سيرهن التدافع اه .

قال في القاموس : النبعة والنبيعة كجهينة موضعان بعرفات . وقال أيضاً : ذات النابت موضع بعرفات قال في معجم البلدان : ألال جبل عرفة نفسه . قيل إنه سمى : الا لا لأن الحجيج إذا راذه الوأي اجتهد ليذر كوا الموقف . انتهى .

لصف بوزن قطام ، وثيرة ماء إن بناحية الشواحن في ديار ضبة . كذا في معجم البلدان .

انظر : صورة رقم ٢٨١ ، المؤلف وهو على مسجد الصخرات بعرفات

وجاء في تاريخ الخميس عند ذكر حجة الوداع ، بعد أن ذكر خطبة النبي ﷺ قال : ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرة وجعل جبل المشاة بين يديه ، فوقف مستقبلاً القبلة ، وكان يوم الجمعة ، وكان واقفاً إذ نزل عليه : ﴿هُوَ الْيَوْمُ أَكْمَلَ لَكُمْ دِينَكُمْ... إِلَيْهِ﴾ . انتهى منه .

قوله : حل المشاة هو صخرة ألال ، قالوا : والوقوف عند هذه الصحرات هو موقف جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال التوريري رحمه الله تعالى في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» : (الجبل) بالحاء المهملة من أسماء الرمال وهو ما استرق من الرمل . اه .

يقول مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي المكي الخطااط غفر الله تعالى له ولوالديه ولكافأة المسلمين آمين : إن مسجد الصحرات لا بناء فيه غير ما يحيط به من جدار قصير ، نحو نصف قامة من الأرض ، وفيه محراب صغير وقد كبس المسجد بالرمل بقدر ارتفاعه عن الأرض لتساوي أرضه حيث فيها عدة صخارات ولا تزال إلى اليوم ظاهرة فيه ، غير أنه لا يعرف موقف النبي ﷺ فيه بالضبط وما ذكره الإمام الأزرقي كان يعرفه رجال زمانه .

وعرفة كلها موقف ، والوقوف في موقف رسول الله ﷺ أو ما حوله أولى وأفضل ، ولم يقف عليه الصلاة والسلام في هذا المكان إلا لقربه من جبل الرحمة ، الذي يوسط عرفات تقريراً ، ولسهولة الوقوف على هذه الصخرات الصغار ، وليرى من أمامه من المسلمين المؤمنين فتقر عينه بهم . والله تعالى أعلم .

ولا يطلب الصعود على جبل الرحمة ولا الوقوف عليه يوم عرفات ، وإن ما اعتاده جهلاء الحجاج من التسابق في الوقوف على هذا الجبل هو خطأ لا مزية بينهم وبين من وقف في فسيح الأرض ، وليس فيه إلا زيادة التعب عليهم ، وإن من ظن أن الوقوف لا يصح بدون الرقي على جبل الرحمة فهو مخطئ وظنه في غير محله . فينبغي إفهام الحجاج ذلك وتعليمهم مسائل الحج على الوجه الصحيح ، أما الصعود على جبل الرحمة للتتره والاستراحة وترويحا لنفسه فليس فيه شيء مطلقاً .
أما نسبة المسجد إلى الصخرات فهي معقولة لأن فيه صخرات عديدة .

وأما ما يقال أن النبي ﷺ صلى فيه ، فأعتقد أن هذا غير صحيح ؛ لأنه ﷺ كان قد حج بين صلاتي الظهر والعصر في مسجد نمرة ، ثم ذهب إلى عرفات ووقف على ناقته في موضع هذا المسجد ، عند جبل الرحمة ، فلم يصل فيه صلاة أبداً بل دفع عند الغروب إلى مزدلفة فجمع فيها المغرب والعشاء .

كما أعتقد أن البناء الذي أحيط به ذلك المكان ، فاختنذه الناس مسجداً إنما هو محدث بعد الثلاثة القرون الأولى الفاضلة ، كما أعتقد أن الناس بعد ذلك أحاطوا موضع وقوفه ﷺ بعرفات بجدار من الجهات الأربع ووضعوا فيه محارباً صغيراً إشارة للقبلة حفظاً واحتراماً لهذا الأثر الشريف والمحل المنيف ومرور الزمن سمي الناس هذا الموضع بمسجد الصخرات .

كيفية الطلوع من مكة إلى عرفات

يطلع الناس من الحجاج وأهل البلاد من مكة إلى عرفات للحج بست وسائل :

- ١) قسم منهم يطّلعون مشاة على الأقدام ، إما لفقرهم أو ابتغاء زيادة الثواب .
- ٢) قسم منهم يركبون الخيل والبغال والحمير .

٣) وقسم منهم يركبون العربات ذات عجلتين تجرها البغال وهذا نادر وقد بطل الآن .

٤) وقسم منهم يركبون النياق وتسمى مصر «المجن» جمع هجين ، ويسمى بالحجاز «الركاب» ، و «الدلائل» .

٥) وقسم منهم يركبون الجمال وعليها «الشقادف» و «الشباري» وهي نوع من الهرادج . وبعضهم يركبون الجمال بدون الشقادف والهرادج .

٦) وقسم منهم يركبون أنواع السيارات «الأوتومبيلات» .

وأما القسم الخامس وهم الذين يركبون الجمال المحملة بالشقادف فقد كان نصف الحجيج من أهل البلاد والغربياء يطلعون من مكة إلى عرفات بهذه الوسيلة وكذلك كان الحجاج يأتون من جدة إلى مكة ، ومنها إلى المدينة بهذه الوسيلة أيضاً ثم بطلت بظهور السيارات التي ذكرناها فكانت ترى مكة من اليوم الخامس من ذي الحجة ممتلئة شوارعها وطرقها وأزقتها بالشقادف ، كل واحد يخرج شقدفة أمام بيته وحمله ، فيصلحه ويستره ويزينه حتى إذا حان وقت الطلوع إلى عرفات جاءت الجمال مع البدو والعرب من كل حدب وصوب حتى لا ترى موضعًا خالياً بمن السهل والجبل إلا وقد امتلاً من الشقادف والجمال والجملة ، فسبحان مالك الملك ذو الحال والإكرام .

إن من رأى العهد الماضي والعهد الحاضر مثلنا ليعجب أشد العجب أين ذهبت تلك الجمال التي لا تعد ولا تحصى ، وكيف كانت عين زبيدة تكتفيها وتكتفي هذا الحجيج العظيم مع أن الجمال تشرب أكثر من بني آدم .

والآن قد خلفت الجمال التي تسمى «سفينة الصحراء» هذه السيارات المختلفة الأحجام والأشكال والله سبحانه وتعالى أعلم ماذا سيكون في المستقبل وماذا يأتي به الزمان من العجائب . وليس بعيد أن تحل سكة الحديد محل السيارات من مكة إلى عرفات في الحج ، أو يطلع الناس إلى عرفات بالطائرات أو القاذفات الصاروخية فيصلون إليها في دقيقة واحدة أو في لمح البصر ، ومن يكن في الأزمان المقبلة سيذكر قوله هذا فالملك لله الواحد القهار .

اللهم عمر قلوبنا بنور الإيمان والمعرفة ، وشرح صدورنا لطاعتكم ، وارزقنا
القدرة للقيام بالأعمال الصالحة ، وأصلح منا النيات ، واعف عننا واغفر لنا وارحمنا
أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين آمين يا رب العالمين .

والشقادف هو نوع من الموجات ، وهي مستعملة من قديم الزمان . قال عنها
ابن جبير ، في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) من الهجرة عند كلامه على وقوف
الحجاج بعرفات ، ما يأتي :

ولهم أيضاً في مراكبهم على الإبل قباب تظلهم ، بدعة المنظر عجيبة الشكل ،
قد نصب على حامل من الأعواد يسمونها الشقاوات ، وهي كالتوابيت الجوفة ،
هي لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال ، تماماً بالفرش الوثيرة ، ويقعده
الراكب فيها مسترحاً كأنه في مهادلين ، فسيح ، وبإزاره معادله أو معادله في مثل
ذلك من الشقة الأخرى ، والقبة مضروبة عليهما ، فيسار بهما وهما نائمان لا
يشعران بشيء أو كيف ما أحبوا ، فعندهما يصلان إلى المرحلة التي يحيطان بها ،
ضرب سرادقها للحجين ، إن كانوا من أهل الترفة والتنعم ، فيدخل بهما إلى السرادق
وهما راكبان ، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه ، فينقلا من ظل قبة الحمل إلى
قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ولا خطفة شمس تصيبهما ، وناهيك من هذا
الترفيه فهو لاء لا يلقوه لسفرهم وإن بعدت شقته نصباً ، ولا يجدون على طول
الحل والتزال تعاباً ودون هؤلاء في الراحة راكبو الحمار ، وهي شبيهة الشقادف
التي تقدم وصفها في ذكر صحراء عذاب ، لكن الشقادف أبسط وأوسع ، وهذه
أضنم وأضيق وعليها أيضاً ظلال تقي حر الشمس ، ومن قصرت حاله عنها في
هذه الأسفار فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من العذاب . انتهى .

وقال ابن جبير أيضاً في مكان آخر من رحلته : الشقاديف وهي أشباه الحامل ،
وأحسن أنواعها اليمانية ، لأنها كالأشاكير السفرية ، مجلدة متسبة يوصل منها
إليثان بالحبال الوثيقة ويوضع على البعير ، ولها أذرع قد حفت بأركانها ، يكون
عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عدليه من كن من لفح الهاجرة ، ويقعده
مسترحاً في وطائه ومتکنه ، ويتناول مع عدليه ما يحتاج إليه من زاد وسواء ،
ويطالع متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب ، ومن شاء من يستجيئ اللعب
بالشطرنج أن يلاعب عدليه تفكهاً وإحجاماً لنفس لاعبه ، وبالجملة فإنها مريحة

من نصب السفر وأكثر المسافرين يرتكبون الإيل على أحالمها ، فيكابدون من مشقة سوم الحر عنتاً ومشقة .

أما القسم السادس الأخير ، يكاد يكون ثلاثة أرباع هذا الحجيج الأعظم والربع الباقى يدخل فيه جميع الأقسام الخمسة المتقدمة لأن المملكة السعودية ما شاء الله قد امتلأت بالسيارات بكل أنواعها ولم تدخل هذه السيارات إلى البلاد إلا بعد أن تولى حلاله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمة الله تعالى على الحجاز ، وذلك سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من المحررة وحين دخول السيارات للحجاز كانت الجمال التي تمشي في داخل البلدة أو خارجها سواء كان ليلاً أو نهاراً إذا رأتها جفلت منها وخرجت من صفوتها وهي محملة فهربت يميناً أو شمالاً فما أفتها إلا بعد مدة شيئاً فشيئاً .

أما قبل هذه السنة المذكورة فلم يكن يبلاد الحجاز كلها إلا سيارة واحدة فقط ، وكانت ملكاً لشريف مكة حلاله الملك الأسبق الشريف الحسين بن علي رحمة الله تعالى ، ولم يكن يستعملها إلا نادراً في وقت زروله إلى حلة وفي غير ذلك كان يركب الخيل .

اختراع السيارات واستعمالها

لما ظهر الأوتومبيل قامت حوله القيامة ، وأجمع الكبير والصغير على أنه خطير على المارة والأمن وحدث أن الإمبراطور أورليان عندما دخل أنطاكيا يحمل أكاليل الفخر لم يجرؤ على ركوب عربته خشية الرأي العام . ولقد ظل بعض كبار الأغنياء يحصر زماناً طويلاً يتزدرون في استعمال العربات والأوتومبيلات وداسوا يمتنون ظهور الحمير البيضاء المقصوصة الشعر ، المكسوة سرجها بالقطيفة الحمراء ، يخترقون شوارع المدينة الكبرى فيقف لهم الناس إجلالاً على الجانبين ، ويقولون : إن ظهر الدابة أكثر وجاهة وأعز جانبًا وأرفع مقاماً من متكاثر العربية ومساند الأوتومبيل ، وإن خطورة الحمار المادئة ، ومشيته الوئيدة الناعمة أصبح للمعدة والأمعاء من رجة السيارة وسرعتها الخاطفة وصعودها وهبوطها وحركاتها البهلوانية الشيطانية وجموحها الذي لا يكبح .

درج جبل الرحمة بعرفات

الدرج التي عملت بجبل الرحمة بعرفات هي درج غير منتظمة يبلغ عددها نحو ٩٠ درجة ، ويختلف ارتفاع الواحدة منها عن الأخرى . وعلى يمين الصاعد منها على الجبل في منتصفه تقريباً ، مسطح مستو ، به مصلى ذو قبلة ، هذا المصلى والدرج بناهما الوزير محمد بن علي المنصور المعروف بالجواب الأصفهاني سنة ٥٥٩.

ذكره الغازى في الجزء الأول بالصحيفة التابعة لصحيفة (٣٧٦) نقلأً عن «مرآة الحرمين» .

العنوان على بئر قدية بعرفات

قال الغازى في الجزء الثالث من تاريخه : وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٣٤٦ ست وأربعين وثلاثمائة وألف عثرة إدارة لجنة عين زبيدة على آثار بئر قدية في جبل عرفات ، فرفع العمال الأتربة والحجارة الموجودة فيه ، ظهر آثار ماء . والبئر المذكورة متغيرة بين الصخور ، وقد قطعها بسبعة أمتار ، أما عمقه فثلاثة وعشرون متراً ، وقد وجد بين الأتربة حجر منقوش عليه ما نصه :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ ذِيَّنَاهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَدَمَ اللَّهُ مُولَانَا الْإِمَامُ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرُ الْأَمِيرِ الْأَصْفَهَنِيِّ
الْكَبِيرِ مَظْفُرِ الدِّينِ بْنِ زَيْنِ الدِّينِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، بِإِبَادَاعِ هَذِهِ الْبَئْرِ فِي مَوْقِفِ
عِرْفَةِ وَمَهْبِطِ الرَّحْمَةِ ، مَهْلَلاً لِحَاجَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَمَسْبِلاً مُحِبِّسًا عَلَى كُلِّ
الْمُسْلِمِينَ عَامَةً ، ابْتِغَاءِ رَضَاهُ اللَّهِ تَعَالَى وَطَلْبًا لِلثُّوَابِ ، فِي أَيَّامِ عَدْلِ مُولَانَا الْأَمِيرِ
الشَّرِيفِ أَمِيرِ الْحَرَمَيْنِ عَزَّ الدِّينِ أَبِي عَزِيزِ قَتَادَةِ بْنِ إِدْرِيسِ بْنِ مَطَاعِنِ الْحَسِينِ
خَلِدَ اللَّهُ مَلْكَهُ ، وَالْمَتَوَلِي عَلَى عِمَارَةِ الْبَئْرِ الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَمْرُ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
بْنِ خَلْكَانَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَعَبْدَالْعَزِيزَ بْنَ أَبِي بَكْرِ الْأَرْبَلِيَّ وَقَمَرَ الدِّينِ الْخَلْجَيِّ فِي سَنَةِ
سَبْعَةِ وَسَمِّائَةٍ . انتهى من الغازى .

عن زينة

ماء مكة و عن زينة

لقد تكلم كثير من المؤرخين عن الماء في مكة ، وقد أحيبنا نقل ما ذكره المؤرخ العلامة الشيخ عبدالله الغازى المتوفى سنة (١٣٦٥) خمس و ستين و ثلاثة وألف في تاريخه المسمى «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» فإنه ذكر في الجزء الأول من تاريخه في الباب السابع عند ذكر العيون والبرك والآبار والسقاية ما نصه :

قال أبو الوليد الأزرقى رحمه الله تعالى : كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قد أجرى في الحرم عيوناً ، واتخذ لها أحياضاً ، فكانت حواطط وفيها التخييل والزرع .

(منها) حائط الحمام وله عين ، وهو من حمام معاوية الذي هو بالمعلاة إلى موضع بركة أم جعفر ، وذلك الموضع الساعة يقال له حائط الحمام ، وإنما سمي حائط الحمام لأن الحمام كان من أسفله ، وكان له مشروع يرده الناس .

(ومنها) حائط عوف موضعه من زقاق حشبة دار مبارك البركي ودار جعفر بن سليمان ، وهما اليوم من حق أم جعفر ، ودار مال الله وموضع الماجلين ، ماجلي أمير المؤمنين هارون ، الذي بأصل الحجون ، فهذا كلها موضع حائط عوف إلى الجبل . وكانت له عين تسقيه ، وكان فيه النخل وكان له مشروع يرده الناس .

(ومنها) حائط يقال له الصفى ، موضع من دار زينب بنت سليمان ، التي صارت لعمرو مسعدة ، والدار التي فوقها إلى دار العباس بن محمد ، التي بأصل نزاعة الشوى ، وكانت له عين وكان له مشروع يرده الناس . يقول فيه الشاعر:

سكنوا الجزع جزع بيت أبي موسى إلى النخل من صفى السباب

(ومنها) حائط يقال له حائط مورش ، ومورش كان قياماً عليه في موضع دار محمد بن سليمان بن علي ودار لبابة بنت علي ودار ابن قشم اللواتي بضم شعب المخوز . وكان فيه النخل ، وكانت له عين ومشروع يرده الناس إلى اليوم . وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر على طريق منى وطريق العراق .

(ومنها) حائط خرمان ، وهو من ثنية أذاخر إلى بيوت جعفر العلقمي ، وبيوت ابن أبي الرزام وماجله قائم إلى اليوم . وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر ، وكانت له عين ومشروع يردها الناس .

(ومنها) حائط مقيصرة ، وكان موضعه نحو بركتي سليمان بن جعفر إلى قصر أمير المؤمنين المنصور أبي جعفر . وكانت له عين ومشروع وكان فيه النخل .

(ومنها) حائط حراء وضفيرته قائمة إلى اليوم ، وكان فيه النخل ، وكان له مشروع يرده الناس .

(ومنها) حائط ابن طارق بأسفل مكة ، وكانت له عين تمر في بطن وادي مكة تحت الأرض ، وكانت له عين ومشروع ، وكان فيه النخل .

(ومنها) حائط فخ وهو قائم إلى اليوم .

(ومنها) حائط بلدح فهذه العيون العشرة أجراها معاوية ، رضي الله عنه واتخذها بمكة واتخذت بعد ذلك بيلدح عيون سوها ، منها : عين سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص بيلدح وهي قائمة إلى اليوم ، وحائط سفيان والخيف الذي أسفل منه وهما اليوم لأم جعفر .

وكانت عيون معاوية تلك قد انقطعت وذهبـت ، فأمر أمير المؤمنين الرشيد بعيون منها ، فعملت وأحيـت وصرفـت في عين واحدة ، يقال لها الرشـاد ، تسـكب في الماجـلين ، اللذـين أحـدـهمـا لأـمـيرـ المؤـمنـينـ الرـشـيدـ ، بالـمـعلاـةـ ، ثم تسـكبـ فيـ البرـكـةـ التي عند المسـجـدـ الحـرامـ ثمـ كانـ النـاسـ بـعـدـ قـطـعـ هـذـهـ الـعـيـونـ ، فـيـ شـدـةـ مـنـ المـاءـ . وـكانـ أـهـلـ مـكـةـ وـالـحـاجـ يـلـقـونـ مـنـ تـلـكـ الـمـشـقـةـ ، حـتـىـ أـنـ الرـاوـيـةـ تـبـلـغـ فـيـ الـمـوـسـمـ عـشـرـةـ دـرـاهـمـ وـأـكـثـرـ ، فـبـلـغـ ذـلـكـ أـمـ جـعـفـرـ بـنـ أـبـيـ الـفضلـ جـعـفـرـ بـنـ أـمـيرـ المـؤـمنـينـ المـنـصـورـ ، فـأـمـرـتـ فـيـ سـنـةـ أـرـبـعـ وـتـسـعـينـ وـمـائـةـ بـعـدـ بـرـكـتـهـ ، الـمـكـةـ ، فـأـجـرـتـ لـهـ عـيـناـ مـنـ الـحـرمـ ، فـجـرـتـ بـمـاءـ قـلـيلـ ، لـمـ يـكـنـ فـيـ رـيـ لـأـهـلـ مـكـةـ ، وـقـدـ غـرـمـتـ مـنـ ذـلـكـ غـرـمـاـ عـظـيمـاـ فـلـغـهـاـ ، فـأـمـرـتـ جـمـاعـةـ مـنـ الـمـهـنـدـسـينـ أـنـ يـجـرـواـ لـهـ عـيـونـاـ مـنـ الـخـلـ ، وـكـانـ النـاسـ يـقـولـونـ : إـنـ مـاءـ الـخـلـ لـاـ يـدـخـلـ الـحـرمـ ، لـأـنـهـ يـمـرـ عـلـىـ عـقـابـ وـجـبـالـ ، فـأـرـسـلـتـ بـأـمـوالـ عـظـامـ ، ثـمـ أـمـرـتـ مـنـ يـزـنـ عـيـنـهـاـ الـأـوـلـىـ ، فـوـجـدـواـ فـيـهـاـ فـسـادـاـ ، فـأـنـشـأـتـ عـيـناـ أـخـرىـ إـلـىـ جـانـبـهـاـ ، وـأـبـطـلـتـ تـلـكـ الـعـيـونـ ، فـعـمـلـتـ عـيـنـهـاـ هـذـهـ بـأـحـكـمـ مـاـ يـكـونـ مـنـ الـعـمـلـ ، وـعـظـمـتـ فـيـ ذـلـكـ رـغـبـتـهـاـ ، وـحـسـنـتـ نـيـتهاـ ، فـلـمـ تـزـلـ تـعـمـلـ فـيـهـاـ حـتـىـ بـلـغـتـ ثـنـيـةـ خـلـ ، فـإـذـاـ مـاءـ يـظـهـرـ فـيـ ذـلـكـ الـجـبـلـ ، فـأـمـرـتـ بـالـجـبـلـ

فضرب فيه ، وأنفقت في ذلك من الأموال ما لم يكن تطيب بها نفس كثير من الناس ، حتى أجرها الله عز وجل لها ، وأجرت فيها عيوناً من الحل منها : عين من المشاش واتخذت لها بركاً تكون السبيل إذا جاءت تجتمع فيها ، ثم أجرت لها عيوناً في حنين ، واشتربت حائط حنين ، فصرفت عينه إلى البركة ، وجعلت حائطه سداً يجتمع فيه السيل ، فصارت لها مكرمة ، لم تكن لأحد قبلها ، وطابت نفسها بالنفقة فيها ، بما لم تكن تطيب نفس أحد غيرها به ، فأهل مكة والجاج إنما يعيشون بها بعد الله عز وجل .

البرك التي أمر ببنائها أمير المؤمنين المأمون العباسى

ثم أمر أمير المؤمنين المأمون صالح بن العباس في سنة عشرة ومائتين أن يتخذ له بركاً في السوق خمساً ، ثلاً يتعلنا أهل أسفل مكة والثانية وأجيادين والوسط إلى بركة أم جعفر ، فأجرى عيناً من بركة أم جعفر من فضل مائتها في عين تسكب في بركة البطحاء عند شعب ابن يوسف وجه دار ابن يوسف ، ثم يمضي إلى بركة عند الصفا ، ثم يمضي إلى بركة عند الخياطين ، ثم يمضي إلى بركة بفوهة سكة الشية ، دون دار أوييس ، ثم يمضي إلى بركة عند سوق الحطب بأسفل مكة ، ثم يمضي في سرب ذلك إلى ماجل أبي صلاية ، ثم إلى المساجلين الذين في حائط ابن طارق ، بأسفل مكة ، وكان صالح بن العباس لما فرغ منها ، ركب بوجوه الناس إليها ، فوقف عليها ، حين جرى فيها الماء ، وخر عند كل بركة جزوراً وقسم لحمها على الناس . انتهى .

قال ابن فهد : وبلغ ذلك ، أى أمر البرك ، أم جعفر زبيدة ، فأئتها أمير مكة صالح بن العباس ، فسلم عليها ، فلامته في أمر البرك ، التي عملت في سنة عشر ، وقالت : هلا كتبت إلى حتى كنت أسائل أمير المؤمنين أن يجعل ذلك إلى ، فأتفق فيها كما أنفقت في البركة التي عملتها حتى أستتم ما نويت في أهل حرم الله . فاعتذر إليها صالح من ذلك . انتهى .

أول من أخذ الحياض بعرفات وأجرى إليها الماء

وفي تحصيل المرام ، قال العلامة الحافظ ابن حجر في الإصابة ، في ترجمة عبد الله بن عامر بن كريز : إنه من عام حجه جمع العيون وصرفها في عين

واحدة . وهو أول من اخذ الحياض بعرفة ، وأجرى إليها ماء العين ، فبقي الناسٌ براحة من جهة الماء في مكة وعرفة ، زمن الحج ، واستمر الحال كذلك زمناً طويلاً ثم تخرّبت العيون ، التي كانت تصب في العين الواحدة ، التي صنعها عبد الله بن عامر ، وانقطع الماء عن أهل مكة وكان ذلك في أواخر زمان من دولة بني أمية . وأصحاب الناس ، بعد قطعها ، شلّة من قلة الماء ، حتى رجعوا إلى الشرب من الآبار ، فصاروا يجلبون الماء إلى مكة من الخارج ، واستمروا كذلك في أوائل دولة بني العباس إلى أن وفق الله تعالى أمير المؤمنين هارون الرشيد فأمر بإصلاح بعض العيون ، التي تخرّبت وانقطعت انتهي . ثم انقطعت هذه العيون ، وكان الناس بعد قطعها في شلّة من قلة الماء ، وكان أهل مكة والحجاج يرون من ذلك مشقة ، حتى أنا لبرة وهي القرية الصغيرة تبلغ عشرة دراهم أو أكثر ذكره القرشي .

إيصال زبيدة رحمة الله تعالى عن حنين إلى مكة

قال العلامة القطبي : فلما بلغ ذلك أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد وأسمها أمّة العزيز وكان جدّها المنصور يرقصها وهي طفلة ، ويقول : أنت زبيدة ، فاشهرت بها . وكانت من أهل المخارات ولها مأثر عظيمة إلى الآن ، منها : إجراء عين حنين إلى مكة المشرفة ، وصرفت عليها خزائن أموال إلى أن جرت إلى مكة وهي واد قليل الأمطار ، بين جبال سود عاليات خاليات من المياه والنبات وصفها الله تعالى بأنها واد غير ذي زرع ، فنفقت أم جعفر زبيدة الجبال إلى أن سلك الماء ، من أرض الخل إلى أرض الحرم وأنفقت على عملها ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب فلما تم عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها وأخرجوا دفاترهم لإخراج حساب ما صرفوه ليخرجوا من عهده ما تسلمه من خزائن الأموال .

وكان في قصر عالٍ مشرف على الدجلة فأخذت الدفاتر منهم ورمتها في بحر الفرات ، وقالت : تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شيء من بقية المال فهو له ، ومن بقي له شيء عندنا أعطيه وألبسهم الخلع والتشاريف فخرّجوا من عندها حامدين شاكرين وكانت هذه العين ترد إلى مكة وينتفع الناس بها ، ومنبع هذه العين في ذيل جبل شامخ يقال له : طاد ، بالطاء المهملة والألف وبعدها دال مهملة ، من جبال الثنية من طريق الطائف . وكان يجري الماء إلى أرض ، يقال

لها حنين يسقى بها نخيل ومزارع مملوكة للناس ، وإليها يتنهى جريان هذا الماء .
وكان يسمى حائط حنين ، يعني لبساتين حنين ، وهو موضع غزا فيه النبي ﷺ
المشركين وخبرها مذكور في كتاب سير النبي ﷺ فاشترط زبيدة هذا الحائط
وأبطلت تلك المزارع والنخيل وشقت له القناة في الجبال وجعلت لها الشحاذين
«أي البرك» في كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند الأمطار ، وجعلت
فيه قناة متصلة إلى بجرى هذه العين في محاذاتها يحصل منه المد هذه العين فصار
كل شحاذ عيناً تساعد عين حنين : منها عين مشاش وعين ميمون وعين الزعفران
وعين البرود وعين الطارقي وعين ثقبة والخربات ، وكل مياه هذه العيون تنصب
في دبل عين حنين ويطرد بعضها ويزيد بعضها وينقص بحسب الأمطار الواقعة على
أم إحدى هذه العيون أو على جميعها إلى أن وصلت على هذه الصورة إلى مكة
المشرفة .

إصال زبيدة رحمة الله تعالى عن نعمان إلى عرفات

ثم إنها «أي زبيدة» أمرت بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة ، وهي عين
منبعها ذيل جبل كرا ، وهو جبل شامخ جداً ، أعلى أرض الطائف ، فينصب منه
في قناة إلى موضع يقال له الأوامر من وادي نعمان ، وتجري منه إلى موضع بين
جبلين شاهقين ، في علو أرض عرفات ، فيها مزارع فعملت القنوات إلى أن جرى
ماء عين نعمان إلى أرض عرفات ، ثم أديرت القناة بجبل الرحمة ، محل الموقف
الشريف الأعظم في الحج ، وجعلت منها الطرق إلى البرك التي في أرض عرفات ،
فتملىء ماء يشرب منه الحاج ، في يوم عرفة ، ثم استمر عمل القناة إلى أن
خرجت من أرض عرفات إلى خلف جبل من وراء المازمين على اليسار للعائد من
عرفات يقال له : طريق ضاب ، بالضاد المعجمة المفتوحة فالآلاف بعدها باء موحدة
مشددة وتسمى الآن عند أهل مكة المظلمة بضم الميم ثم ظاء معجمة ساكنة فلام
مكسورة ثم ميم مفتوحة ثم هاء التأنيث ، ثم تصعد منها إلى المردفة ، ثم تصعد إلى
جبل خلف مني في قبليها ، ثم تنصب في بئر عظيمة ، مطوية بأحجار كبيرة جداً ،
تسمى هذه البئر بئر زبيدة ، وإليها يتنهى عمل هذه القناة ، وهي من الأبنية المهمة مما
يتوهם أنها من بناء الجن ، وهو عمل زبيدة إلى هذه البئر ، ثم تركها . انتهى .

والقناة المذكورة قال عنها في «مرأة الحرمين» ما يأتي : وهذه القناة عرضها من الأعلى متراً وقد تزيد ، وفراغها من ٥٠ إلى ٦٠ سنتيمتراً ، وعمقها متراً ونصف وارتفاع الماء في قاعها ٧٠ سنتيمتراً ، وقد يزيد ، وقد ينقص ، وهي مغطاة بأبنية الحجارة ، وبالبغطاء فتحات لأخذ الماء منها ، عرضها ستون سنتيمتراً ، وتتنقص أو تزيد ، والفتحات يتبعها بعضها عن بعض بمسافات مختلفة حسب الحاجة وسطح القناة تارة يكون مساوياً لسطح الأرض وتارة يرتفع عنها ، وقد يصل الارتفاع إلى سبعة أمتار وتارة تسير في تخوم الأرض على مقربة من سطحها أو أبعد اهـ . مرأة الحرمين .

انظر : صورة رقم ٢٨٢ ، مجرى عين زبيدة مأخوذة من كتاب «مرأة الحرمين» لإبراهيم رفعت باشا

وقال العلامة الفاضل السيد عبدالله بن السيد محمد صالح الرواوي ، في كتاب «بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الأمين» فيما يتعلق بعين الجوهرة السيدة زبيدة أم الأمين ، بعد ذكر قصة إجراء عين نعمان إلى أرض عرفة ، ثم أديرت القنوات بجبل الرحمة محل الموقف الشريف الأعظم في الحج ، وجعل فيها الطريق إلى البرك التي في أرض عرفات ، فتملىء ماء يشرب منه الحاج يوم عرفة ، ثم استمر عمل القنوات متوجهاً إلى جهة الشام ، وهناك بازان اسمها فقير الذئب الأعلى . والمساحة من جبل الرحمة إليه ألف وثلاثمائة وثمانية وسبعون متراً ، وبعده بازان فقير الذئب الثاني ، والمساحة إليه أربعمائة وخمسة أمتار ، ثم ينعطف الدببل نحو المغرب داخلاً في وادي المغمس ، ويتنهى إلى حوض البقر ، والمساحة بينهما ألف وأربعمائة وعشرون متراً ، وفيه خمس وعشرون خرزة ، ومنه متوجهاً في باطن الجبل ، وهو الموضع المسمى بالخاصرة ، ويقرب منها أراضي زراعة يقال لها : الهمدانية ، ثم يرجع منه يميناً إلى بازان الحقبة ، الذي على يسار الذاهب إلى عرفات ، ثم يتوجه يميناً أيضاً إلى بازان المعرضة وبعدة يتعلق الدببل بسفح المازمين ، على يسار القادمين من عرفات ، ويقال له : طريق ضب ، وهو المعروف الآن بالقنطرة ، ثم يصل منها إلى مزدلفة ، ثم يتوجه من مزدلفة ماراً بوادي النار ، وهناك بازان عند رأس جبل على يسار الذاهب إلى مكة ، يقال له : دقم الوبر ، ومنه يكون الدببل متعلقاً في الجبل إلى المفجر ، وهناك ماكينة الوابور ، هي آلة بخارية ترفع المياه من الجرى وتوصلها في أنابيب حديدية إلى أماكن مخصوصة بمنى اهـ . مرأة الحرمين . عند الربع الذي يرد منه أهل منى ، وهذه الماكينة جعلت لإيصال

الماء في ماسورة إلى بعض أمكنة بمنى ، يرد منها الحاجاج ، ثم يتوجه منحدراً خلف جبل منى إلى فتحات موازية لمدرج منى ، بجانبها مسجد وحوض لسقيا الدواب ، يسمى : حوض البقر الثاني ، ومنه يكون الدليل تحت الأرض إلى بئر عظيمة مطوية بأحجار كبيرة جداً ، تسمى : بئر زبيدة ، إليها يتنهي عمل القناة ، ولعله كان في عزّهم إيصالها إلى مكة لتتصل بعين مكة ، التي هي عين حنين ، فوقف العمل إلى البئر المذكور «والمسافة بين هذا البئر وبين المبع ٣٣٠٠ متر . اهـ . رحلة صادق باشا». وصارت عين نعمان خاصة بعرفة ومنى ، من ذلك الزمان قال : وكان الخلفاء والسلطانين عند انتظام سلطتهم كلما بلغهم حدوث خراب في هذه العيون أو قنواتها يرسلون من يعمر ذلك على هذا المنوال .

إحياء أمير المؤمنين المتكمل على الله جعف عين عرفات إلى مكة

فمن عمرها المتكمل على الله جعفر بن المعتصم فإنه لما حصلت زلزال سنة إحدى وأربعين ومائتين وغارت عيون مكة أرسل إلى مكة مائة ألف دينار ذهباً لإجراء ماء عين عرفات إليها ، فصرف فيها إلى أن جرت . ذكر ذلك السيوطي ، في تاريخ الخلفاء ، وذكر الحافظ نجم الدين عمر بن فهد في كتابه «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» في حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين ، فيها غارت عين مشاش ، وهي عين مكة ، فبلغ ثمن القربة درهماً فبعث المتكمل على الله جعفر بن المعتصم مالاً فأنفق عليها حتى جرت ، وكذا ذكره ابن الأثير في تاريخه .

تعمير مظفر الدين صاحب إربيل عين عرفات

ومنهم صاحب إربيل مظفر الدين كجك كوكوري بن علي سنة أربع وستين وخمسين وستمائة ، ثم عمرها سنة خمس وستمائة أيضاً .

تعمير المستنصر العباسى عين عرفات

ثم عمرها بعد ذلك أمير المؤمنين المستنصر بالله العباسى مراراً ، منها : في سنة خمس وعشرين وستمائة ، ثم في سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة . قال القطب رحمه

الله : هكذا وجدت ذلك مكتوباً في نصب حجارة مبنية قرب الموقف الشريف
عرفات . انتهى .

ثم عمرها الأمير جوبان نائب السلطان أبي سعيد ملك التار بالعراقين سنة
ست وعشرين وسبعيناً . ذكره في كتاب المستقى في أخبار أم القرى وهذا نص
عباراته :

تعمير الأمير جوبان عين عرفات

وفي سنة ست وعشرين وسبعيناً عمر بازان رسول الأمير جوبان بن تلك بن
تدانون ، نائب السلطنة بالعراقين عن السلطان أبي سعيد بن خدا بنده ، ملك التار
عين عرفة وكان الناس في جهد عظيم بسبب قلة الماء بمكة ، فإن الرواية كانت تبلغ
بها في الموسم عشرة دراهم مسعودية ، وفي غير الموسم من ستة دراهم إلى سبعة ،
فقصد الأمير جوبان عمل خير بمكة ، فدلل بعض الناس على عين ، كانت تجري في
القديم ، تعطلت وندب بعض ثقاته وأعطاه خمسين ألف دينار ، وجهزه في موسم
سنة خمس وعشرين ، فلما قضى حجه تأخر بمكة واشتهر أمره بها ، فأعلم بعين في
عرفة ، فنادى بمكة من أراد العمل في العين فله ثلاثة دراهم في كل يوم ، فهرع إليه
العمال ، وخرج بهم إلى العمل فلم يجبر أحداً منهم ولا استحثه وإنما كانوا يعملون
باختيارهم ، فأتاه جموع كثير من العرب ، وعمل حتى النساء إلى أن جرى الماء بمكة
بين الصفا والمروة في ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، فكانت مدة العمل
أربعة أشهر . وكثير النفع بهذه العين ، وعمّ وعظم ، وصرفه أهل مكة إلى مزارع
الحضروات ، فكان جملة ما أصرف عليها في هذه العمارة مائة ألف درهم
وخمسون ألف درهم ، فلما فرغ بازان من عمارة العين قدم إلى مصر ، واجتمع
بالسلطان وعرقه خير العين ، فشق عليه ذلك وقال له على لسان النائب : من أذن
لتك في هذا ولم لم تشاوري ؟ فقال للنائب : عرف السلطان أن جوبان ما فعل من
الخير ، وبقي الأمر للسلطان ، إن شاء يحرّب أو يعمر . فهذا شيء قد فعله من
فعله ، وخرج عنه الأمر إليكم . فلما سمع قوله السلطان سكت ، وكان مباشر
عمارة هذه العين الشيخ نجم الدين بن خليفة بن محمود الكتاني . انتهى .

إجزاء الملك الناصر محمد بن قلاوون عن ثقبة إلى مكة

وقال التقى الفاسي في «شفاء الغرام» : ومن العيون التي أجريت بمكة عين أجرها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، صاحب مصر في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة في مجرى عين بازان على ما ذكر البرزالي في تاريخه ، نقلأً عن كتاب العفيف المطري إليه ، لأنه قال في ذكر أخبار هذه السنة : إنه ورد عليه كتاب من العفيف المطري ، فيه أمور ، منها : وأجريت عين أخرى كانت تعرف بعين جبل ثقبة ، مما يلي جبل حراء على مجرى العين الجوبانية ، وأنفق عليها قدر يسير قدر خمسة آلاف درهم ، ووصلت إلى مكة ، وخرجت من أسفلها ، وكان ذلك على بن هلال الدولة مشرى المعمائر ، وتاريخ كتاب العفيف سلخ ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين . انتهى . ومنها عين أجرها الأمير المعروف بالملك نائب السلطنة بمصر ، في سنة خمس وأربعين وسبعمائة من منى إلى بركة السلم بطريق منى .

تعمير عين بازان سنة ٨١١

قال الفاسي : وعمرت عين بازان ، بعد ذلك ، غير مرة ، منها في سنة إحدى عشرة وثمانمائة . وهذه العمارة من جهة السيد الشريف حسن بن عجلان نائب السلطنة بمكة والأقطار الحجازية ، أعلى الله قدره ، وكان دخولها مكة في آخر العشر الأوسط من جمادى الأولى ، وجرت جرياً حسناً ، بحيث امتلأت منها بركة الماجن بأسفل مكة ، وتعدى الماء إلى غيرها ، وكثير الدعاء له بسبب ذلك ، لما حصل بها من عظيم النفع .

وبيعت منها الرواية بربع مسعودي ، بعد أن كانت بدرهمين مسعوديين وأزيد ، فله الحمد والشكر ، ثم حصل من جريانها قصور في آخر السنة ، ثم انصلح حالها في أول سنة اثنى عشرة وثمانمائة ، من غير عمل ، ثم تغير حالها قليلاً ، ثم عمرت وانصلح حالها كثيراً ، ثم تغير حالها كثيراً في آخر هذه السنة ، ثم جرت جرياً حسناً في العشر الأخير من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشر وثمانمائة ، ثم بعد ذلك قل ماؤها ولقي الناس بمكة شدة بسبب ذلك ، وعرف بهذا الأمر مولانا السلطان الأعظم الملك المؤيد أبو النصر شيخ صاحب الديار المصرية والشامية والحرمين ، فتطوع بألفي دينار ذهبأ لعمارة هذه العين . وندب القائد علاء الـ

لعمارة ذلك ، فشرع في العمارة والتنظيف والإصلاح ، حتى وصل الماء بعكة المشرفة ، وحصل به النفع ، وكان حصول هذا الخير مكة في شعبان سنة إحدى وعشرين وثمانمائة ، وابتدأ العمل فيه من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، ثم قل جريان الماء من العين المذكورة ، بعد قليل من جريانها الأول . ويسرا الله دخول سيل فيها فجرت جرياً أحسن من جريانها الأول ، وصرفت إلى بر كثي المعلاة ، اللتين على يمين الداخل إلى مكة ، فامتلأتا وحصل بها للحجاج نفع كثير ، ولم يبق فيهما ، بعد سفر الحاج ، ما فيه كثير نفع ، وغلا الماء كثيراً ، وشق ذلك على الناس ، فوفقاً لله تعالى القائد علاء الدين لعمارة العين ، وبعث إليها عمالة ومهندساً ، يعمروا فيها ما لم يعمروا في التوبية الأولى ، وبعض ما عمر فيها لتخر به السيل ، ووصل الماء إلى مكة بعد ذلك في آخر صفر سنة اثنين وعشرين وثمانمائة ، وكان جريه قليلاً ، فزادوا في العمارة ، حتى كثر جري الماء ، وعظم النفع به ، بحيث بيعت الرواية بنصف مسعودي وبجائز وبدرهم ، وهذا أكثر ما بيعت به الرواية ، بعد عمارة العين في التوبية الثانية . وبلغني أنها بيعت بجائز . وقد وصل الماء إلى ماء العين إلى البركة ، التي أسفل مكة ، المعروف ببركة الماجن ، خارج باب مكة ، بعد تنظيف الطريق إليها . وكان جريانه القوي في العمارة الثانية ، في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة . انتهى .

وفي إتحاف فضلاء الزمن : وفي سنة خمس وعشرين وثمانمائة حصل بعض خراب في عين عرفة ، فأشار سيدى الشيخ العربي عمر ، نفعنا الله به ، على الشريف حسن بعمارة ذلك ، فأعطاه بذلك خمسين ألف درهم ، وصرفه في ذلك فخلصت ولم تسوق العمارة ، فعرف الشريف فأعطاه خمسين ألف أيضاً ، وأقام على ذلك الصرف نائبه جابر الحراش ، فقال له الحراش : ملوك الآفاق أقوى منك ، وإذا علم بذلك صاحب مصر لنسبك إلى كثرة الأموال وطعم فيك ، واستعاد الشريف الدرهم ، فأرسل يقول له الشيخ العربي : إن لم تؤف لنا وإنما أجمع من أهل الخير ما أتم به عمارتها ، فأحابه الشريف : بأن غيرنا أقوى منها . وجاء من أخبر الشيخ أن ذلك من الحراش ، فتغير ظاهر الشيخ عليه ، فقدر الله أن الشريف غضب على الحراش فشنقه . انتهى .

تعمير عين حنين سنة ٨٣٥

قال الغازى : وقال ابن فهد في حوادث سنة خمسين وثلاثين وثمانمائة : وفيها عمر الخواجة سراح الدين عمر بن محمد المزق الدمشقى ، أحد التجار عين حنين المعروفة بعين بازان ، فجرت في شهر رمضان ودخلت مكة ، ومرت على سوق الليل إلى الصفا ، وانتهت إلى باب إبراهيم إلى الماجن ، فعم النفع بها وكثير الخير ، لشدة احتياج الناس بمكة إلى الماء وقلته أحياناً وغلا سعره وكان مصروفه عليها خمسمائة دينار . وقال في حوادث سنة ثمانمائة وإحدى وخمسين : وفيها عمر الناظر بيرم خواجة عين حنين وغيرها من أعين مكة ، فجرى الماء جرياً حسناً ، حتى وصل إلى بركة الماجن ، فزرعوا بقربها وعم انتفاع الناس بها . انتهى .

تعمير عين حنين وعين عرفات سنة ٨٧٥

قال الغازى : وقال العلامة القطبي : ثم عمر أيضاً من ملوك البراكسة الملك الأشرف قايتباي عين عرفات ، فأجرأها إلى أرض عرفات ، وعمر عين حنين إلى أن جرت إلى مكة ، في سنة ثمانمائة وخمس وسبعين انتهى .

وفي إتحاف فضلاء الزمن جدد الملك الأشرف قايتباي عين عرفات ، وابتداً العمار العمل فيها من سفح جبل الرحمة إلى وادي نعمان ، فوجد الماء بكثرة فاقتصر على ذلك ، ولم يصل إلى آخر العين . وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين سنة . وكان الحاج يقاسون يوم عرفة من قلة الماء ما لا يضر عليه . ثم أصلاح البركة وملأها . انتهى .

وقال العلامة إبراهيم رفعت باشا في «مرآة الحرمين» : وفي سنة ٨٥٢ عمرت عين حنين ، بمعرفة بيرم خواجة ناظر الحرمين الشرقيين ، ثم خربت العيون بعد ذلك ، وأصاب الناس جهد جهيد ، وبلغ ذلك الملك الأشرف قايتباي ، فأمر بتنمير عين مكة وعين عرفات سنة ٨٧٥ ، وبدأت العمارة في عين عرفات من جبل الرحمة إلى وادي نعمان ، حيث وجدوا الماء هناك بكثرة ، فخلوا سبيله إلى عرفة فوصلها بعد أن انقطع عنها مائة وخمسين سنة ، كان الحاج يقاسون فيها يوم عرفة الظماء الشديد ، وقد أصلاح البرك التي عرفات وملأها بالماء ، وكذلك عمر عين حنين ، حتى وصلت مياهها إلى مكة وعمر أيضاً عين خليص وأجرأها

وبنى قبتها . وقد رأيت للملك الأشرف قايتباي خطبة ، نقشت في لوح من الحجر ، وضع بجبل الرحمة على مقربة من القناة فقلتها بالقلم الرصاص في ٩ ذي الحجة سنة ١٣١٨ في مدة أربع ساعات وذلك لصعوبة قراءتها ، وشدة الزحام ، ولولا من يدفع عني المزاحمين جهده ما تمكنت من نقلها وهذا نصها .

صورة الكتابة التي على الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه تتقى

الحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، وبنائه وفضله تكمل المسيرات ، وب توفيقه تجري الخيرات على يد من اختار من أهل السعادات ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الذي نبع الماء من بين أصابعه في الآيات ، وفتح الله تعالى به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلقاً ، وختم بيته الرسالات صلى الله عليه وآلـه وصحبه أولى البر والصلات أزكي السلام وأفضل الصلوة وبعد : فإن عين عرفة المشرفة كانت قد محى اسمها وتعطل رسماها وعفى أثراها ولم يبق إلا خبرها ، وهم كثير من الملوك والسلطانين بعمارتها ، فلم يساعدهم القدر على مقاومتها ، ومضى على ذلك دهور ويس منها ، لما أتى عليها من العصور ، فلما من الله على العباد بولالية من صلحت به الرعية والبلاد وانحسمت بوجوده مواد الجور والفساد ، هو مولانا السلطان الأعظم ، مالك رقاب الأمم ، حاوي فضليتي السيف والقلم ظل الله الممدود على العالم ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قامع الكفرة والمرشken ، محبي مأثر الخلفاء الراشدين مالك البرين والبحرين ، خادم الحرمين الشرفين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي ، نصره الله نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً قريباً وعمّ أمره الشريف بإجرائها بتلك الأماكن المشرفة المباركة لوفد بيت الله تعالى وأضيف له المباهي بهم الملائكة رسول الله تعالى لا رباء فيها ولا امتناء يجد ثوابها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرأ ، فجرت بحمد الله وتوفيقه في أسرع مدة ، يقارب إحصاؤها أشهر العدة مع تنظيف قعرها وبناء أساسها وبركتها ، وعمل شرعتها تفع أهل الشريعة ، وبناء قناتها المحيطة بجبل الرحمة رحمة الله الواسعة ، فـالله يجدد مولانا سلطانا وكل محيطه عراً ونصراً ، ويجري له على ما أجرى في الدارين إجراء وذلك على يد الجنابين العالين الأشرفين الكبيرين لسلطانا الحالي الأشرف وشقيقه المباشر للعمل السيفي سنقر الجمامي الأشرف ، أحجز الله تعالى ثوابها

وأحيا مجدها ابتدأها ربيع الآخر ، وآخرها شهر رجب الفرد الحرام عام خمسة وسبعين وثمانمائة سنة ٨٧٥ وصلى الله على سيدنا محمد وآلله وصحبه وسلم .
انتهى .

تعمير عين حنين وعين عن قترة سنة ٨٩٣

قال الغازى : وفي كتاب بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى للشيخ عبدالعزيز بن نجم الدين عمر بن فهد : وفي شهر رمضان سنة ثمانمائة واثنتين وتسعين أصرف الأمير ستقن المحتسب ، مشد العمارة السلطانية على عمال يشتغلون في عين أبي رحمة ، فإن المطر لما وقع أمر بالكشف عنها وعن عين حنين وعن عين ثقبة . فقيل له : إن الماء كثير في عين أبي رحمة وفي عين حنين ، فأصرف على عمال كثير يتوجهون لعين حنين ، وعلى جماعة بل لعلهم نحو الثلاثين يتوجهون لعين أبي رحمة ، فتوجهوا ، فلما كان يوم السبت سابع عشر شهر ذي القعدة من السنة المذكورة وصل الماء من عين أبي رحمة إلى البازان ، التي عند الصفا ، فحصل للناس بها سرور عظيم ، فالله يديمها على المسلمين ، ويأتي بعين حنين على العادة فإن العمل فيها ، وكان حصل للناس شدة عظيمة في هذه السنة بل من العام الماضي وصار الناس ما يستقون الماء إلا من الآبار . ثم إن كثيراً من الآبار نشف ومن الماء البحر (المالح) أيضاً فإن كثيراً من الآبار ، التي بمكة نشفت وصارت الرواية الحلو تسوى قريب المحلق والبحر النصف من ذلك ، فلما وصلت العين ، رخص الماء .

وفي ليلة السبت في آخر شهر رمضان سنة ثمانمائة وثلاث وتسعين أصرف ابن أخي الخواجه الشمس بن الزمن على عمال يشتغلون في العين ، فاشتغلوا فيها فوجدوا ماءً قليلاً في أثناء العين فوصل إلى قرب مكة وإليها في أوائل شوال ثم انقطع .

وفي ليلة الخميس ثاني عشرين شهر شوال سنة تسعمائة واثني عشر ، أصرف أمير جدة الأمير حسين على العمال لعمل عين عرفة على يد القائد مفتاح البقيري ، فعملوا فلما ضاق شرع في تبطيل الآبار ، التي بعرفة ومزدلفة ، ثم بعد الحج عادوا لشغل عين عرفة .

وفي ثاني تاريخ ربيع الثاني سنة تسعمائة وثلاث عشرة أصرف ناظر الخواص على عمال يعملون في عين مكة كل عشرة أيام بأشرفي ، وكان أرسل للقائد مفتاح البقيري أن يحضر فحضر ، وتوجهها ، وبعض جماعته إلى عرفة للكشف عن عينها فرأى ذلك ، ثم جاء إلى عين حنين وعاد لمكة صبح يوم السبت الخامس عشر من الشهر .

وفي يوم الجمعةعاشر ربيع الآخر سنة تسعمائة وأربع عشرة توجه الشريف قايباتي والقضاء الثلاثة والباش إلى عرفة لأجل نظر عين عرفة والكلام في ذلك وعادوا حتى يشاوروا الشرييف برگات وقدم لهم القاضي الشافعى مأكولاً كثيراً هناك ، ثم في بيت الشريف بمنى ، ثم نزلوا وجاؤوا إلى مكة يوم السبت . وفي يوم الأحد ثامن شهر ذي القعدة سنة تسعمائة وخمس عشرة وصل الأمير خير بك المعمار المرسل من طرف السلطان قانصوه الغوري ، لأجل عمارة المسجد الحرام وعين حنين .

وفي ضحى يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الثاني سنة تسعمائة وست عشرة قرئ مرسومان بالخطيم : واحد للسيد الشريف برگات بن محمد بن برگات ، والثانى للسيد قايباتي . وما كان فيهما : إنكم تجتمعون وتنظرون في أمر العين وغيرها من الأعين وعين عرفة والزغرانة وأبي رخم والتقبة ، فإن الغرباء الذين كانوا بمكة في العام الماضى قاسوا شدة من عدم الماء ، وإن بعض أهل مكة لهم عبيد يسيعون الماء ، ويعوقون العين وما في قلوبهم رحمة ولا خوف من الله ، ويكتب بذلك محضر ويكون بحضور البانى الذى من جهتنا ، وينظر أيضاً في الأعين ، التي بوادي مرّ والجموم والمضيق ، وإن كان شيء للناس فتشتري منهم ، وتخبرونا كم المسافة أيضاً حتى يجيئكم جوابنا ، ولو كان الماء في أرض أو نخل لأحد فتشتري أيضاً .

وفي عصر يوم الاثنين عشرين جمادى الأولى سافر الباش خير بك ومعه القاضيان الحنفى والشافعى والتجار لأجل كشف عين مكة والأعين التي ذكرها السلطان في مراسيمه ، لأجل مكة ، وتوجه أيضاً النوري على بن خالص ومحبى الدين بن زقطان الناظران بجدة ، والتجار شمس الدين القادرى وشمس الدين الحموى وخير الدين بن سلامة وقاسم الشروانى والسيد عرار بن عجل ومفتاح البقيري ، فناموا قريباً من مكة ، ثم أصبحوا في البرود ، فجلسوا به يوم الخميس وهم

يكشفون عن الأعين . فقال لي المعلم علي بن طين ، وكان معهم : أنهم رأوا عين مكة من أعلىها ثم يجيء منها شيء ، وإنما من عينين الماء قليل ، وهو حنين والشاش ، وتوجه القاضيان والسيد عرار والبقريري ومحبي الدين بن زقيط إلى وادي نخلة فصادفوا بها صبح الجمعة القاضيان المالكي والختلي ، ورأوا أعينها ، وتوجه الباش ومن جاء معه للبلاد سولة ، لرؤيه عينها ، وحمل له واحد من أشياخ وادي نخلة ضيافة كبيرة إلى سولة ، فأكل وأصبح بمكة وهو وجميع من معه من القضاة والتجار .

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين الشهر توجه الباش والقاضيان الأولان معه والسيد هزاع ومفتاح البقريري إلى وادي الجموم ، لرؤيه عينها وعادوا ليلة الثلاثاء ثامن عشرين الشهر ، ثم عقد مجلساً بالقضاة والتجار عصر يوم الأربعاء تاسع عشرين الشهر ، وتكلموا في أمر عين الجموم وغيرها وإنهم يتوجهون ويقيسون حتى يجاوبوا السلطان بما يصلح ثم سافروا بقية يومهم والليلة التي تليه إلى وادي الجموم ثم عادوا ليلة الجمعة وقالوا : عين الجموم تصل بمكة ، وإن مكة ما تعلو إلا بخمسة أذرع وإن بين الجموم وبسيط شمالة خارج درب الشبيكة خمسة وثمانون ألف ذراع . وفي أول الجمعة من شهر جمادى الآخر سنة تسعمائة وست عشرة توجه الأمير الباش خير بك العمار إلى العين ، وكان أرسل عملاً يصرعون عليها وأخذ معه عملاً أيضاً ، ثم أرسل جميع البنائين الذين معه والعمال ، وأخذ نورة وجليا ، قالوا : نحو مائة جمل ، وذكروا أن الماء بالعين ، وإنما يحتاج إلى الإصلاح . وجلس هناك ومعه مفتاح البقريري والعمال والبناؤون والمنورون ويشتغلون ، وكانوا أكثر من مائين ، ولما فرغ التشغيل من أعلى العين عمل ثلاث برك بجانب حرف العين ، تكون كالمصفاة للعين وكتب في حجر نقرأ : إنهم عمروا العين . وجعل ذلك وعد الأمير والفعلة إلى العلمين وأرسل بعض البناء والعمال يستغلون في الميسنة وترك الباقيين يستغلون في العين .

وفي عصر يوم الأربعاء ثاني عشر رجب وصلت عين حنين لبازان ، ونودي بالزينة في البلد فرiven كثير من الناس على قدر حاهم .

وفي صبيحة يوم الخميس ثالث عشر شهر برز القضاة والتجار إلى الأمير الباش خير بك العمار وهو مخيم تحت جبل حراء فدخل مكة وهو معهم ومعه النفط والمغاني من الدرب والمعمارية وخلع على المهنلس ابن عصفور ، وجماعة

غيره من العمارة ، وابتعد الناس بذلك كثيراً ، ثم انقطع جريان العين في هذا اليوم فقالوا : مسدودة . ثم جاءت آخر النهار ، ثم انقطعت قبل المغرب .

وفي صبيحة يوم الجمعة رابع عشر شهر توجه الأمير لإصلاح ما بقي ، وقال : إنها تحتاج عمل ثلاثة أو أربعة أشهر ، وأنها من يوم عمرت ما صلحت على ما ينبغي وما يقال عن أهل مكة ليسونها كذب فإنها تحتاج إلى عمل كثير وما عمل فيها من العام الماضي من جهة الخواجا القاري والخواجا ابن عباد الله قليل وما نظفت كما ينبغي بل كانوا ينظفون شيئاً من أعلى التراب ويتركون غالبه ، وبعد ذلك دعا القضاة والتجار إليه وأراد كتابة محضر بما عمل .

وفي ليلة رابع عشرين الشهر وصل الأمير خير بك المعمار من عمارة العين ، ودخلت العين مكة ، واستمر ذلك أياماً والله يديه ، واجتمع الأمير والقضاة وبعض الفقهاء والتجار في بيته ، وأمر بكتابه محضر فشرع في ذلك ، وفي ليلة الخميس ثاني عشر شهر رمضان سنة تسع مائة وسبعين عشرة حصل بمكة مطر قوي ، وفي يومه جاء البناء والعمال من عمل العين ، وجاء السيل فدخل العين .

وفي يوم الجمعة أو فيما بعده توجه الباش خير بك المعمار إلى عرفة لرؤيه العين بها ، ثم أرسل البناء والعمال والمنورين والمنقلين فاشتغلوا . انتهى ما في بلوغ القرى .

انقطاع عين حنين والعيون عن مكة المشرفة

قال الغازى : قال العلامة قطب الدين رحمه الله تعالى : ثم انقطعت في أوائل الدولة العثمانية ، بهذه الأقطار الحجازية ، وبطلت العيون لقلة الأمطار وتهدمت قنواتها ، وانقطعت عين حنين عن مكة المشرفة ، وصار أهل مكة يستقون من الآبار حول مكة من أبيار يقال لها : العسليات ، من علو مكة ، قريب من المنجني ومن آبار في أسفل مكة من مكان يقال لها : الراهر ، ويسمى الآن بالحوض ، في طريق التنعيم ، وكان الماء غالباً قليل الوجود ، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وكان الحجاج يحملون الماء إلى عرفات من الأماكن البعيدة ، وصار فقراء الحجاج في يوم عرفة لا يطلبون شيئاً غير الماء لعزته ، ولا يطلبون الزاد وربما جلبه بعض الأقوياء من الأماكن البعيدة للبيع ، فيحصلون أموالاً من ذلك

لغلو ثمنه ، وإنني أذكر أن في سنة تسعمائة وثلاثين قل الماء في الآبار البعيدة أيضاً ، فارتفع سعر الماء جداً في يوم عرفة ، و كنت يومئذ مراهقاً في خدمة والدي رحمة الله ، وفرغ الماء الذي كنا حملناه من مكة إلى عرفات ، وعطش أهلنا فطلبنا قليلاً من الماء للشرب فشتريت قربة ماء صغيرة جداً يحملها الإنسان ياصبعه بدينار ذهب ، والقراء يصيرون من العطش يطلبون من الماء ما يبل حلوقهم في ذلك اليوم ، فشرب أهلنا بعض تلك القربة وتصدقوا بباقيه على بعض من كان مضطراً من القراء وعطشت عقيبه ، وجاء وقت الوقوف الشريف والناس عطاش يلهثون فأمطرت السماء وسالت السيل من فضل الله تعالى ورحمته والناس واقفون تحت جبل الرحمة فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ويستقون دوابهم ، وحصل البكاء الشديد والضجيج الكبير من الحجاج في وقت الوقوف لما رأوا من رحمة الله تعالى ولطفه بهم وإحسانه إليهم وتكرمه عليهم ، ولا أزال أذكر تلك الساعة وما حصل بها من اللطف العظيم من كرم الله العظيم .

صدق الأوصى السلطانية بإصلاح عين حنين وعين عرفات

قال الغازى : وبرزت الأوامر السلطانية بإصلاح عين حنين وعين عرفات وعين لها ناظراً اسمه مصلح الدين مصطفى من المحاورين بمكة ، فبذل جهده في عمارتها وإصلاح قناتها إلى أن جرت عين حنين إلى أسفل مكة تصب في بركة ماجن ، وأصلاح عين عرفات وأجرها إلى أن صارت تماماً البرك بعرفات ، وذلك في سنة تسعمائة وإحدى وثلاثين ، وصار الحجاج يرثون من ذلك الماء العذب الفرات ، بعد ذلك العطش الشديد في يوم عرفات ، ثم اشتري ناظر العين عبيداً سوداً من خزانة السلطنة الشريفة برسم خدمة العين لإخراج ترابها من الدبول والقنوات وهذه خدمتهم دائماً .

قال القطبي : وهم باقون إلى الآن طبقة بعد طبقة لهذه الخدمة .

ثم توجه مصطفى ناظر العين إلى الأبواب السلطانية السليمانية وعرض في أمر العين أحوالاً يحب عرضها ، فأجحيب إلى كل ما سأله وعاد مجبراً إلى مصر ، ثم ركب من بندر السويس إلى مكة ففرق في بحر القلزم شهيداً . وكانت وفاته في سنة تسعمائة وسبعين وثلاثين ، واستمرت عين حنين حاربة إلى مكة ، لكنها تقل تارة وتكثر أخرى ، بحسب قلة الأمطار وكثرتها ، وعين عرفات تجري من نعمان

إلى عرفة إلى أن صارت عرفات فيها بساتين وصار بها الغروس ، ثم قلت الأمطار إلى أن يést العيون وتزاحت الآبار في سنين متعددة من سنة تسعمائة وخمس وستين وما بعدها . وكانت سنوات تقارب سنتين يوسف شداداً عجافاً ، وانقطعت العيون إلا عين عرفات فإنها لم تقطع إلا أنها قل جريانها في تلك السنوات .

صدر الأوامر السلطانية بإصلاح العيون

قال الغازى : فلما عرضت أحوال العين إلى الأبواب الشريفة السلطانية السليمانية التفت المخاطر العاطر السلطاني إلى تدارك ذلك بأى وجه يكون ، وأمر بالفحص على أحوال العيون وكيف يكون جريانها إلى بلد الله الأمين ، فاجتمع المرحوم عبد الباقى بن علي المغربي قاضي مكة ، والأمير خير الدين صنحقدار جدة وغيرهما من الأعيان وتفحصوا وداروا وتشاوروا فأجمع رأيهم على إن أقوى العيون عين عرفات ، وطريقها ظاهر ودبواها مبنية إلى بئر زبيدة خلف منى ، وإن الذي يغلب على الظن أن دبواها من بئر زبيدة إلى مكة مبنية أيضاً ، وأنها مخفية تحت الأرض وأنها تحتاج إلى الكشف عنها والحرف إلى أن تظهر لأن زبيدة لما بنت الدبوب من عرفات إلى بئرها المشهور ، جميعها ظاهر على وجه الأرض فالباقي من ذلك الخل أيضاً مبني إلا أنه خاف تحت الأرض ، واستغفت عن عين عرفات بعين حنين ، وتركت هذه وصارت نسياناً منسياً . هكذا ظنوا وخفوا ، ثم إنهم تتبعوا عين عرفات من أوها ، من الأوخر إلى نعمان ثم إلى عرفة ثم إلى المدلفة ثم إلى بئر زبيدة وأصلحوا هذه الدبوب الظاهرة وكشفوا عن الباقي ، وبنوا ما وجدوا منها منهداً ورموا الباقي احتاجوا إلى ثلاثة ألف دينار ذهبًا وذرعوه وقادوه فكان من الأجر إلى بطن مكة خمسة وأربعين ألف ذراع بناء البناين الآن ، وهو أكبر من الذراع الشرعي بقدر ربعه ، وهذا الذي تخيلوه من وجود بقية الدببل تحت الأرض لم يوجد في كتب التواريخ وإنما أداهم إلى ذلك مجرد الظن بحسب القرآن وعرضوا ذلك على أبواب السلطنة في أوائل سنة تسعمائة وتسع وستين ، فلما وصل علم ذلك إلى المسامع الشريفة السلطانية السليمانية التمست صاحبة الخيرات كريمة مولانا السلطان سليمان خان حضرة خانم سلطان أن يأذن لها في عمل هذا الخير ، حيث كانت صاحبة الخير أولًا أم جعفر زبيدة العباسية فناسب أن تكون هي

صاحبة هذا الخير فأذن لها في ذلك فاستشارت الحضرة السليمانية ووزراء ديوانها الشريف العالى فيمن يصلح هذه الخدمة، فاتفاقت آراؤهم على الأمير الكبير المعظم إبراهيم باشا دفتر دار مصر ، فأعطته السلطانة خمسين ألف دينار ذهباً بزيادة عشرين ألف ذهب على ما حنوه فتوجه من البر إلى مكة المشرفة وكان وصوله إلى جدة لثمان بقين من ذي القعدة سنة تسع وستين وتسعمائة ، ثم ركب منها إلى سيدنا مولانا الشريف محمد بن أبي نبي ، وكان يومئذ نازلاً بمصر الظهران فقابلته بالإجلال والتعظيم ومد له سماطاً ولطفه وأكله ، وعرض على سعادته ما جاء بصدده ققبال بامتثال الأمر الشريف السلطان ، وبذلك الهمة والجهد في إتمام المهم التليف الخاقاني ، وأن يقوم بذلك بنفسه ولولده وأتباعه وخدمه ، ثم قابله عند دخوله مكة سيدنا ومولانا الشريف حسن بن أبي نبي ، صاحب مكة بالترحيب والاحترام ثم جاء للسلام عليه شيخ الإسلام مولانا القاضي حسين الحسيني ، ففرح به الأمير إبراهيم وقابلته بالإجلال والتعظيم ، وعرض عليه أمره وأحواله واستشاره في سائر ما بدأ له من أحواله فأشار إليه بالآراء الصائبة ، وأعلمه بما ينبغي رعايته وما يجب عليه ملاحظته من الأمور الازمة .

فأول ما بدأ تنظيف بعض الآبار التي يستقي منها الناس وإخراج ترابها ثم بعد الفراغ منها توجه للكشف عنها إلى أعلى عرفات ، وكثير تردد إلية وقطنه بمحاريها ومقابها ومشاركها والفحص عن أحواها وشرع في الكشف عن دبoli عين عرفات وضرب أوطافه في الأجر من وادي نعمان في علو عرفات وشرع في حفر قعرها وتنظيف دبoliها وكانت ماليكه هم القائمون بهذه الخدمة وهم نحو الأربعين وأقام بهذا العمل من الأجر إلى مزدلفة وكتب نحو ألف نفس من العمال والبنائين والمحارين والقطاعين والنجارين وغيرهم من يحتاج إليهم ، وأتى بالآلات العمارة وصحبها معه من مصر ، من مكامل ومساحي ومحاريف وحديد وبولاد ونحاس ورصاص وغير ذلك وعين لكل طائفة قطعة من الأرض لغفرها وتنظيف ما فيها من الدبoli وكان يظن أنه يفرغ من هذا العمل الذي جاء بصدده فيما دون عام ويرجع إلى الأبواب السلطانية لبيان المناصب العالية ويطفر بالمراتب السامية ، ويأتي الله إلا ما أراد واستمر على هذا الجهد والاجتهاد إلى أن اتصل عمله بعمل زينة إلى بحر التي انتهت عملها إليها ، ولم يوجد بعده دبلي ولا آثار عمل ، وضاق ذرعه بذلك وعلم أن الخطيب كبير وأن العمل خطير وتحقق أنا لقدر الباقى من هذا العمل إنما تركته زينة اضطراراً بغير اختيار وعدلت عنه إلى عين

حنين وتركت العمل من عند البئر لصلابة الحجر ، وصعوبة إمكان قطعه وطول مسافة ما يجب قطعه فإنه يحتاج من بئر زبيدة إلى دبل متقور تحت الأرض من الحجر الصوان ، طوله ألفا ذراع بذراع البناءين حتى يتصل بدبل عين حنين ، وينصب فيه ويصل إلى مكة ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الأرض فإنه يحتاج في النزول إلى خمسين ذراعاً من العمق وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظاً لناموس السلطنة الشريفة فما وجد الأمير إبراهيم حيلة غير أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ، ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة حمل من الحطب الجzel ليلة كاملة في مقدار سبعة أذرع في عرض خمسة أذرع من وجه الأرض والنار لا تعمل إلا في العلو ولكن تعمل عملاً يسيراً جداً من جانب السفل فيلين الحجر من جانب السفل مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطاً من ذراع فيكسر بالحديد إلى أن يصل إلى الحجر الصلب الشديد فيوقد عليه بالحطب الجzel ليلة أخرى وهلم جراً إلى أن ينزل في ذلك الحجر مقدار خمسين ذراعاً في العمق في عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفى الذي ذراع تقطع على هذا الحكم ، وذلك يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب وما رأى عن ذلك حيضاً فأقدم عليه إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة فصار يجلب من المسافات البعيدة وغلا سعره وضاق الناس بذلك وتعب الأمير إبراهيم لذلك وذهبت أمواله وخدماته وأولاده وماليكه ، وهو يتجلد على ذلك إلى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسة أذرع بالعمل وصار كلما فرغ المصروف أرسل وطلب مصروفاً آخر ، إلى أن صرف أكثر من خسمائة ألف دينار ذهباً من الخزائن العاصرة .

وتوفي إبراهيم بيك ناظر العمارة في سنة تسعمائة وأربعين وسبعين ثم أقيمت بعده في هذه الخدمة سنجق جلة الأمير قاسم بك ، بإقامة سيدنا ومولانا السيد حسن صاحب مكة أدام الله تعالى دولته وسعادته ، وعرض ذلك إلى الباب العالي وأمره أن يياشر هذه الخدمة إلى أن يصل من تعينه السلطنة الشريفة لأداء هذه الخدمة وكانت السلطنة الشريفة العظمى قد انتقلت من المرحوم السلطان سليمان خان ، إلى نجله الأسعد الأجد السلطان سليم خان فتعين لها من الباب العالي دفتر دار مصر يومئذ محمد بك أكمك جي زاده ، وكان من أعيان الأمراء والستاجق الكبار له عقل تمام ورأي ثاقب وصل إلى هذه الخدمة الشاقة وبذل فيها نفسه وماله وأظهر تجده وتحمله واحتماله ، وما بلغ التمام إلى أن وفاه الحمام ، وانتقل إلى رحمة الله تعالى سنة تسعمائة وست وسبعين .

ثم أقيم في خدمة عمل العين ، الأمير قاسم بك المذكور سابقاً ، سنجق جدة المعمورة أقيمة فيها سيدنا ومولانا السيد حسن صاحب مكة ، وأمره مباشرة العمل وعرض ذلك على الأبواب الشريفة السليمية ، فierz الأمر الشريف السلطاني باستقرار قاسم بك المذكور في خدمة العين أميناً على مصارفها أن يكون شيخ الإسلام قاضي القضاة وناظر المسجد الحرام القاضي حسين الحسني ناظراً على ما بقي من عمل عين عرفات إلى أن تصل إلى مكة المشرفة فاستمر الأمير قاسم مباشرة التعاطي هذه الخدمة بما أراد الله تعالى أن يتم العمل الشريف على يد قاسم بك فطرقه الأجل وانتقل من دار الدنيا الفانية إلى دار الآخرة الباقة سنة تسعة وسبعين وتسعمائة .

ثم توجه مولانا القاضي حسين توجهاً تماماً إلى تكميل ما بقي من عمل عين عرفات باعتبار ما بيده من النظر عليها حسب الأحكام الشريفة السلطانية وعرض على الأبواب الشريفة وفاة قاسم بك وعدم تعطيل العمل إلى أن يأتي أمين لإكمال العمل من الباب العالى فierz الأوامر الشريفة السلطانية بأن يكمل ذلك العمل مولانا شيخ الإسلام القاضي حسين ، فأقدم بهمته العلية أتم إقدام إلى إكمال هذا العمل بالاهتمام التام فساعدته السعادة والإقبال على الإتمام والإكمال فكمل العمل المبارك فيما دون خمسة . أشهر ، بعد أن عجز عن إتمامه الأمراء المذكورون قريباً من عشرة أعوام وذلك فضل الله يؤتى من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وصول عين عرفات إلى مكة سنة ١٧٩

قال الغازي : فجرت عين عرفات وانفجرت ينابيعها الجاريات ووصل الماء هو يجبر في الدبoli والقنوات إلى أن دخل مكة لعشر بقين من ذي القعدة الحرام سنة تسعة وسبعين وتسعمائة ، وكان ذلك اليوم عيداً أكبر عند الناس وزال بوصول ذلك الماء إلى البلد كل هم وبأس وعمل ذلك اليوم مولانا المشار أسمطة عظيمة في الأبطح بستانه العظيم الأنفع وجمع بين الأكابر والأعيان في ذلك المكان ونصب لهم السرادقات والصيوان وذبح أكثر من مائة من الغنم ونحر عدة من الإبل والنعيم ، وقدم للناس على طبقاتهم أنواع المرائب والنعيم ، وخلع على أكثر من عشرة ألاف من المعلمين والبنائين والمهندسين حلالاً فاخرة ، وأحسن إلى باقيهم بالإنعمات الوفيرة وتصدق على الفقراء والمساكين شكرأً لهذه النعمة الجليلة وحمدًا على هذه

المنة الجليلة ، حيث أنعم الله بها على عباده وأحياناً وأخصب منها خير بلاده وكان يوماً مشهوداً وساعة سعيدة وزماناً مسعوداً ، ثم جهز أحجار هذه البشائر العظمى إلى الباب الشريف العالى السلطانى سلطان سليم خان وإلى صاحبة الخيرات بلقيس الزمان حضرة خاتم سلطان فأنعمت بالإلئامات الجزيلية على سائر المباشرين والمعاطين هذه الخدمة الشريفة الجزيلية ، وحصل لمولانا شيخ الإسلام المشار إليه ترقيات عظيمة وصارت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالي والأيام والأعمال الصالحة الباقية التي لا يفنيها تكرر السنين والأعوام . انتهى .

قال العلامة السنجاري في «منائع الكرم» وجملة ما صرف على ذلك كما رأيته بخط بعض الأفضل خمسة لوك وسبعة آلاف دينار ، وذلك غير ما صرف على إحضار أرباب الصناعات من الحدادين والحجارين والقطاعين وغيرهم . انتهى . وانتهى من الغازي . نقول : أللّك كلمة هندية معناها مائة ألف . فيكون جملة ما صرف خمسماً ألف دينار وسبعة آلاف دينار .

بناء بقية دبول عرفات من الأبطح إلى آخر المسفلة

قال الغازي : وفي الإعلام وفي سنة تسعمائة وتسع وسبعين بز الأمر الشريف من حضرة السلطان سليم بن سليمان خان ببناء المسجد الحرام جميعه على وجه الإتقان والإحكام وعين بهذه الخدمة الشريفة فخر الأمراء العظام ذخر الكباء ذوي الاحتزام أحمد بك وأضيف إليه عمل بقية دبول عين عرفات من الأبطح إلى آخر المسفلة بمكة المشرفة فإن السلطنة الشريفة أمرت أن يبني لها دبلي مستقل ولا تتجري في دبلي عين حنين فعينت هذه الخدمة أيضاً للأمير أحمد المذكور ووردت الأوامر السلطانية لناظر المسجد الحرام ، بدر الملة والدين والقاضي حسين الحسني أن يكون الناظر على هذه الخدمة الشريفة والمتكلّم عنها من جانب السلطنة المنيفة ففرح بهذه الخدمة الشريفة الفرح التام ، وقام في ذلك أحسن قيام ووصل لهذه العمارة الشريفة معمار دقيق الأنظار أجمع المهندسون على تقدمه في هذه الصناعة محمد جاوش الديوان العالى ، فاتفق الناظر والأمير والمعلم على الشروع في هدم ما يجب هدمه إلى أن يوصل إلى الأساس فشرع أولاً في إكمال الدبلي المستقل لإجراء عين عرفات وبنائه من جهة المدعا ، ثم مر به في عرض خان قايتباي إلى جهة المروءة ، ثم إلى جهة سوية ، ثم عطف به إلى السوق الصغير وأكمله إلى منتهائه ،

وبنى قبة في الأبطح جعل فيها مقسم ماء عرفات، وركب في جدره بزابيز من التحاس يتشرب منها الماء، ثم بني مسجداً وسبيلاً وحوض ماء للدوااب على يمين الصاعد إلى الأبطح في قبلي لبستان يرم خواجة الصائر إلى المرحومة الحاصلية أم السلاطين ، وبني مسجداً آخر وسبيلاً ومتروضاً في انتهاء سوق العلاة على يسار الصاعد وعرض ذلك على أبواب السلطنة فأنعمت على الأمير المشار إليه بسبعين ألف عثماني ترقياً في علوفته في مقابلة هذه الخدمة . انتهى .

تممير عيون مكة وآبارها سنة ٩٨٢

قال الغازي : وفي كتاب «بغية الراغبين» وفي سنة اثنين وثمانين وتسعمائة حصل تعمير في عيون مكة وآبارها ، وبني فيها دار الشفا والحمامات وغير ذلك من الأعمال الصالحة ، كل ذلك على يد وزير السلطان مراد خان ووزير أبيه السلطان سليم حضرة محمد باشا ، ومن خيراته الدائرة إجراء العيون ومن أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة . انتهى .

تممير عين عرفات سنة ١٠٤٥

قال الغازي : وفي «منائع الكرم» وفي سنة ألف وخمس وعشرين عمرت عين عرفة على يد حسن باشا ، ولما وصل الماء إلى مكة فرح به الناس فرحاً شديداً لتباهم بعده ، وأرّخ هذا التعمير الإمام علي بن عبدالقادر الطبرى ، بقوله :

كم سرت الأكباد شغوله بحرقتي بؤس وبالسوء
وكم غدا القلب بنار الظلماء في جمرتي يمس والظلماء
حتى أغاث الله أم القرى بنعمتي فضل ونعماء
فقلت هذا العام تاريخه قرت عيون الناس بالماء
وقال الشيخ إبراهيم الرحال من أصحاب الباشا المعمار كان طيباً له من قصيدة مدح بها البasha حسن المعمار :

وليدع بالخير للبشا الأنام على هذا ويشن عليك السر والعلن
أكرم بها نعمة تاريخ أولها وقت للخير والإحسان يا حسن

وفي «مرأة الحرمين» لإبراهيم رفت باشا : ورأيت من لوحة هذه الكتابة أمر بعمير عين عرفات مولانا السلطان الأعظم والخاقان الأفخم خادم الحرمين الشريفين السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان ، أيد الله سلطنته إلى آخر الزمان سنة ٢٥١٠ . المباشرة الفقير إليه سبحانه وتعالى حسن باشا عفى عنه . اهـ .

انقطاع عين عرفات عن مكة سنة ١٠٦٦

قال الغازي : وفي سنة ألف وست وستين انقطعت عين وعرفة وتعب الناس في أمر الماء فعين لعمارتها صاحب جدة محمد بك ، فطلع إلى مكة وشرع في عماراتها ورمم ما انهدم من الدبoli إلى أن سارت ودخلت مكة بعد أن كانت القربة تؤخذ بأربعين ملحاً ، وفرح الناس بورودها .

تعمير عين عرفات سنة ١٠٨٤

قال الغازي : وفي ضحى يوم السبت الرابع من ذي القعدة سنة ألف وثلاثة وثمانين كان وصول علي أغاث الطون باشا معماراً على العين ، وسبب وصوله عرض من الشيخ محمد بن سليمان إلى الأبواب ، يذكر أن العين تحتاج إلى عمارة ، وبعث به مع أحد الكشاف الذين كانوا بمكة من التجريدة التي كانت مع محمد جاويش حين رجع في رجب من السنة المذكورة وشرع المعمار في التأهب لعمارة العين وجمع العلمين والآلات وخرج إلى عرفات لتنظيف الدبoli وخرج معه محمد جاويش ثم رجع محمد جاويش ليلة الأحد السادس عشر من محرم سنة ألف وأربعة وثمانين .

وفي يوم الثلاثاء الخامس صفر خرج الشيخ محمد بن سليمان إلى عرفات للإشراف على العين ، ثم عقبه مولانا الشريف بركات فطلع ليلة الأربعاء ونزل ليلة الجمعة وقبل يوم الجمعة ، وفي يوم الاثنين الثالث عشر من جمادي الأولى سنة ألف وأربع وثمانين قطعت العين من مكة لقصد تعمير الدبoli بعد أن ملئت البرك بالمعلاة وملا الناس صهاريجهم ، ثم إن الله تعالى تداركهم بأمطار توالت فجرت العين ولم يطل انقطاعها .

وفي «مرأة الحرمين» وقد رأيت مكتوباً على حجر رخام ثبت بجبل الرحمة على يمين الصاعد إلى العبارية الآتية : يا محمد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله

حق حمده على أفضاله والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله أمر حضرة السلطان الأعظم والخاقان الأفخم، مولى ملوك العرب والعجم السلطان الغازي محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان ، عز نصره بإجراء عين عرفات وتعمير أبنيتها واتصاله إلى الحرم المذيف بفضلة تعمرت سنة أربع وثمانين ألف (سنة ١٠٨٤) من هجرة من له العز والشرف على يد عمدة أعيان الدولة الحاج علي آغا بن مصلى قهوجي باشا السلطان، وكان الله له ووفقه لمرضاة الله (وفي الآخر كلمتان لم أعرفهما). انتهى.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر ذي القعدة سنة ألف وتسع وثمانين جاء ناظر العين وأخبر بأن سيراً جاء بالأوامر وأخرب نحواً من عشر خرزات ودفنها ، فبادر إلى هذه الخدمة الوزير عثمان حميدان وأصرف على العملة من عنده وشرعوا من يومهم في التوجه إلى العمل وانقطعت العين من مكة بسبب هذا العمل إلى ثالث ذي الحجة فأطلقواها إلى مكة وحصل بورودها غاية السرور .

وفي شهر ذي الحجة الحرام سنة ألف وإحدى وتسعين غيمت السماء وأمطرت قبل صلاة الظهر واستمر المطر إلى العصر وكثرة السيل ودخل الحرم ، وحصل بذلك خراب عظيم في العين .

تعمير العين سنة ١٠٩١

قال الغازي في تاريخه نقاًلاً عن منائح الكرم ، ما يأتي : ولما كان يوم الثلاثاء رابع شعبان المكرّم ورد مكة سليمان آغا مرياحور السلطان الأعظم الخاقان الأفخم السلطان محمد خان برسوم سلطاني وقطنان لمولانا الشريف سعيد بن برگات ومضمون المرسوم إرسال المذكور لتعمير العين وما حدث فيها بموجب السيل الحادث في شهر ذي الحجة الحرام من السنة الماضية ، فأشرفوه على ما تحتاج إليه العين من العمارة وغيرها ، وأمر مولانا الشريف بمساعدته والنظر إليه فأنزلوه دار الوزير عثمان حميدان ، ثم شرع في تنظيف البرك في المعلقة وزاد في طولها إلى السماء مقدار قامة لارتفاع الأرض ، ثم صرف حممه إلى العين ، فركب ونزل بوادي نعمان ، بعد جمع المعلميين والمهندسين من المكيين والمصريين فاتفق رأيهم على بناء سد ليمنع سيل ذلك الوادي من الوصول إلى قتوات العين ، فإن أكثر خرابها إنما هو لأنهيار التراب ودفن تلك الخرزات ، فشرع في بناء ذلك السد

وبني على رؤوس القنوات الحواجز المسممة بالخرازات فبني نحو عشرين خرزة وأبان في مباشرته عن همة عالية ولم يزل يجتهد بنفسه وعيشه وبسط يده للعمال مع حسن معاشرته لهم إلى أن أتم كل خلل وجده ، ثم التفت إلى عين حين فبعث من ينظر له فيها وعمر بقية الأماكن المأثورة بمكة كمسجد الحيف وقبة حراء ، وزاد في درج أبواب الحرم من خارج زعم أنها تمنع السبيل من الدخول ثم التفت إلى أسفل مكة ، وهو المسفلة فجعل هناك قناة واسعة لفضالة السبيل إلى بركة ماجن .

وفي صحي يوم السبت الثامن من ذي القعدة الحرام سنة ألف وتسعين وصل مكة آغا القبطان السلطاني بالخلعة السلطانية مولانا الشريف أحمد بن غالب وصل معه معمار للعين بسبب عرض بعثة مولانا الشريف أحمد بن زيد ، وفي يوم السابع عشر من ذي القعدة طلع صاحب جدة وقاضي الشرع ومعهم العمار المذكور إلى نعمان للإشراف على العمارة التي عمر صاحب جدة في السنة التي قبل هذه فأشرفوا ونزلوا .

ماكس من قناة العين سنة ١١٠٤

قال الغازي في تاريخه نقلًا عن «منائع الكرم» ما يأتي :

وفي يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الثاني سنة (١١٠٤) كسر من قناة العين نحو من ثلاثة ذراعاً ، فجاء الخير مولانا الشريف سعد فبعث من وقته بالمهندسين فأشرفوا فاقتضى رأيهما أن يجعلوا دبلاً من خشب يجرون فيه العين إلى أن يفرغوا من الشغل في المنهدم فبعث إلى نائب جدة أحمد آغا ، ناظر العين ، فحضر من ليته ، وأوجد لهم الوزير عثمان حميدان بجميع ما يحتاجوه من الخشب ، فبذل الهمة

وصنعوه بمكة وطلعوا به رابع عشر الشهر ، وركبوه وأجروا فيه الماء يوم الجمعة سادس عشر الشهر ، واستمر الشغل فيها بغاية الصحة إلى أن تم بناء المهدوم وأجروا فيه الماء ثاني عشرين الشهر .

تعمير عين عرفات سنة ١١٢٤

قال الغازي في تاريخه نقاًلاً عن «منائع الكرم» ما يأتي :

وفي يوم الجمعة ثالث عشرين شوال سنة (١١٢٣) ألف ومائة وثلاثة عشرين وصل مكة المشرفة محمد بك بن حسين باشا المعين من طرف السلطان الغازي أحمد خان لعمارة عين مكة وهو الذي قد جاء سابقاً سنة ألف ومائة وثمانية بثمن غلال أهل الحرمين المنكسر ، وكان وصوله صحبة المراكب إلى بندر جدة ومعه مهمات ما تحتاج إليه العمارة من خشب وحديد وغير ذلك . وجاء بعلمين من الآستانة ، وأخذوا له جميع ما يحتاج إليه من مصر لأنه وصلها في السنة التي قبل هذه وأقام بها وقضى منها مصالحة وأتى من جدة إلى مكة ، ودخلها ليلة الجمعة .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشر شهر المذكور عزم مولانا الشريف بعد الظهر هو محمد بك بن حسين باشا المعمار والسيد يحيى بن برگات وجمع من السادة الأشرف وقاضي مكة المشرفة والمفتون وبعض العلماء وإبراهيم باشا متولي جدة والشيخ محمد الشبيبي والسيد أحمد أفندي نائب الحرم الشريف والمهندسون وأرباب الخبرة لأجل الكشف عن الخراب الذي بالعين ، وما تحتاج إليه من العمارة فوصلوا إلى عرفة ، وقد كان حضرة الشريف أمر بنصب الصيون والخيام ، وجعل السماط بها ، وكذلك ما يحتاج إليه الأمر من عليف وكلف بحيث لا يتتكلف أحد من تبعه من صغير وكبير إلى نقل طعام ولا غيره ، منذ غيتمهم ، ويأتون تلك الليلة بها ، وفي الصبح قرئ الخط الشريف الوارد صحبة محمد بيك المعمار بسبب العمارة ومضمونه أتنا قد عينا فخر الأماجد والأعيان محمد بيك بن حسين باشا ، زيد مجده لعمارة عين مكة المشرفة وأصحابنا مائة كيساً ، منها خمسون كيساً مهمات ومائة وخمسون كيساً من النقد العين ، وأمرنا بعد الكشف بنظركم ونظر قاضي مكة وشيخ الحرم ، متولي جدة أن يعمر عمارة ماكنة بحيث تبقى زمناً طويلاً وإذا

احتاجت العمارة إلى مهام ودراهم تعرفونا بسرعة نرسل جميع ما يحتاج إليه الأمر .

فبعد تمام القراءة توجه الجميع إلى وادي نعمان ، وأشرفوا على الخراب الذي بالعين وتكلم المهندسون بأن الأمر يحتاج إلى إصلاح خمس من الخرزات ، وإحداث عشر آخر مستجدة ، وتصليح بقية الدبول من نعمان إلى مكة فتكلم حضرة الشريف مع محمد بيك فيما قاله المهندسون فأجاب بأنه مأمور بتعمير الخراب ، وأما إحداث شيء من الروائد فيحتاج رفع ذلك بعرض إلى السلطان نصره الرحمن ، فاتفق الحاضرون جميعاً أن الأمر يحتاج إلى ما قاله المهندسون من إحداث الخرزات ، وعمارة الدبول والعرض بذلك بفات الجمعة ليلة الخميس بنعمان على أجل إكرام وأكمل نظام ، وصاروا منها يتبعون أثر العين ويكتشفون ما بها من خراب ودمار إلى أن وصلوا المفجر ، وباتوا فيه ليلة الجمعة على أحسن حال ، وصبح يوم الجمعة سلخ شوال ركبوا ودخلوا مكة واتفقوا في الشروع للعمارة بعد توجه الحج الشريفي ؟ لأن الوقت قد ضاق وتم الأمر على هذا ، وكتبوا محضراً إلى الدولة العليّة بجميع ما وقع من الكشف ، وطلب ما يحتاج إليه الأمر من الروائد وغيره ، بعد الحبس والتخيّن اللائق بأهل الخبرة من المهندسين والحاضرين ، وقصدتهم يرسلونه إلى الدولة العليّة ، وضمن المهندسون أن قدر ما يصرف فيه من الدرّاهم على تعمير عمارة عين مكة على الوجه المطلوب ، نحوَ من مائة ألف شريفي أحمر ومائتي وأربعين أحمر ، فكتبوا بذلك دفتراً ووضعوا عليه خطوط العلماء والفقهاء والمشرّفين على العمارة جميعهم . انتهى ما في منابع الكرم .

وذكر العلامة الطبراني رحمه الله ، في إتحاف فضلاء الزمن أيضاً ، هذه العمارة الأخيرة في حوادث سنة ١١٢٣ ، ثم ذكر في حوادث سنة ألف ومائة وخمسة وعشرين ، وفي هذه السنة تمت عمارة العين على أحسن شأن وأبهج رميم وبنيان ، بنظر المعمار الأمين محمد بيك ابن حسن باشا ، وقد طلب بعد التمام تاريحاً من مولانا المفتى عبدالقادر فأجابه لالتماسه سريعاً ، وأباحه دراً بدليعاً ، ثم أطلعني عليه فرأيت من الواجب تقريره للمشار إليه .

صورة ما كتبه الشيخ عبد القادر مفتى مكة

قال الغازى نقلأً عن الطبرى في إتحاف فضلاء الزمن : وهذا صورة ما كتبه الشيخ عبد القادر مفتى مكة عند الاتهاء من عمارة العين :

الحمد لله الذي أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ، وبسطه في بساط البسيطة وأقطارها الخبيطة بالطول والعرض ، ونحمده على أن جعل من الماء كل شيء حي ، ونشكره ، وهو الذي بيده ملوك كل شيء ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتبعها من الجنة ما هو خير مقاماً وأحسن مقيلاً ، وزر بها عيناً فيها تسمى سلسيلنا ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده رسوله المخصوص بالخوض المورود يوم العطش الأكبر القائل وهو الصادق الأمين أن في كل كبد حرى أبراً ، الأول الذي كان نبياً وأدماً بين الماء والطين ، الآخر الذي يكون تحت لوائه آدم فمن دونه صلى الله عليه وعلى سائر من انتسب إليه ، خصوصاً له مصايب الدجى وصحبه مقاليد المدى (وبعد) فقد أمر مولانا سلطان الإسلام وال المسلمين ، ظل الله الممدود على سائر العالمين ، وال الخليفة على الخليقة ، الملك العدل حقيقة ، خادم الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى ، حاكم الخلرين المنيفين والماليك التي لا تخصى ، القائم بفرضية الجهاد ، الباذل في إحياء كلمة التوحيد غاية الوع ونهایة الاجتهد ، حضرة مولانا السلطان الغازى أحمد خان نصره الرحمن ، وخلد ملكه ، وأجرى في مجري السعادات فلكه ، وأعز سلطانه ، وجعل من الملائكة المقربين أنصاره وأعوانه ، بتجديـد عمارة عين عرفات منبع الخير والقيض والبركات ، وأرسل من عنده ل مباشرة ذلك ، وتهـيد أسباب هذه المسالك ، أحد أمناء مملكته وكـراء دولـه ، عظيم الأمانة ، مستقيم الـديانـة ، مشكور الباطـن والظاهر والـسـيرة والـمعتمـد عليه في سـائر الأمـور الخطـيرـة ، حـضـرة مـولـانا مـحمدـ بـيكـ بنـ المرـحـومـ حـسـينـ باـشاـ ، زـادـ اللهـ بـهـ رـوـحـ الـوجـودـ اـنـتعـاشـاـ ، فـبـذـلـ فيـ أـداءـ هـذـهـ الخـدـمـةـ الجـلـيلـةـ غـاـيـةـ الـوـسـعـ وـالـاجـتـهـادـ ، قـرـنـ اللهـ سـائـرـ حـرـكـاتـهـ فـيـهاـ بـالـيـمـنـ وـالـتـوـفـيقـ وـالـسـدـادـ ، فـعـمـرـ مـنـ اـبـتـدـاءـ عـلـةـ مـكـةـ جـدـرـ بـسـتـانـ الـخـاصـكـيـ ، وـأـتـىـ فـيـ عـمـلـهـ عـلـىـ جـمـيعـ الـقـنـاطـرـ بـالـفـجـرـ وـبـازـانـ وـوـادـيـ الـمـغـمـسـ وـعـرـفـاتـ وـالـكـسـارـ وـسـائـرـ هـذـهـ الـمـنـاطـرـ ، حـتـىـ أـنـشـدـ النـاطـرـ يـقـولـ الشـاعـرـ (ـكـمـ تـرـكـ الـأـولـ وـلـلـآـخـرـ) فـجـمـيعـ مـاـ وـجـدـهـ مـنـ ذـلـكـ خـرـابـاـ أـوـ صـائـرـ إـلـيـهـ ، عـمـرـهـ وـجـدـهـ بـغـايـةـ الـإـتقـانـ وـالـإـحـكـامـ ، وـقـامـ إـلـيـهـ إـلـىـ سـلـخـ جـدارـ أـوـ تـرمـيمـ أـصـلـحـهـ وـأـعـادـهـ عـلـىـ الـوـجـهـ الـمـسـتـقـيمـ ، وـمـاـ هـوـ قـائـمـ عـلـىـ أـصـلـهـ

لم يتعرض له بفعله ، وجدد من الخزانت ما هو لازم العمل ، وأزال بتنظيف الدبوب
من أرض نعمان إلى بركة ماجن أسفل مكة ما فيها من خلل ، وعمر جميع الموارد
وشرح بفعله الحسن من كل أحد من سكان هذا المقام صدره ، وهو في كل ذلك
متلطف بالخدمات والعمال ، موصل إليهم أجورهم بال تمام والكمال ، فاستجلب
بنذلك مولانا السلطان قراءة الفواع الشريف والتضرع والابتهاج وصالح الدعوات
المنيفة ، فالله تعالى يديع بهذه الصفات ويوفقه للباقيات الصالحت ، ولما أن أتم الله
هذا العمل وأكمله وأتقنه ، وحسنه وحمله ووقفه هذه الخدمة السنبلة الفاخرة وجعل
هذا الخير العظيم على يده ويكتفي ذلك سعادة في الدنيا والآخرة ، أرخه لسان
الحال وأنشد بقصص المقال فقال :

عَرْبَهَا ثَمَّ الْعِجْمَ	فَاق سُلْطَانَ الْبَرَايَا
وَبِهَا جَفَّ الْقَلْمَ	بِعَزَى يَا لِي سَخْصَى
وَبِالْحَسَنِ عَمَّ	خَصَّ أَهْلَ اللَّهِ بِالنَّعْمَ
اللَّهُ ذَا الْفَضْلُ الْأَعْمَ	إِذْ حَبَا جَرِانَ يَيْتَ
غَمْضَتْ عَيْنَاهُ وَفِيمَ	وَلَهُمْ أَجْرَى عَيْونَاهُ
سَاهِراتْ لَمْ تَرَمَ	ثُمَّ أَضْحَتْ جَارِيَاتْ
بِالدُّعَاءِ الْمُغْتَمَ	فَلَذَا أَضْحَوْا جَهَارَاهُ
يَجْتَنَّى غَرَسَ النَّعْمَ	رَبِّ أَيْدِ مَلَكَهُ كَي
عَلَى رُؤُوسِ الْأَمْمَ	وَأَبْقَهُ مَا دَامَتِ الدِّينَاهُ
يَيْتَ شِعْرَ مُخْتَكَمَ	وَبِذَا التَّارِيخِ أَضْحَى
وَعَمَّرَ عَيْنَ الْحَمْ	قَدْ بَنَى السُّلْطَانُ أَهْمَد

وفي الإتحاف أيضاً : وفي شهر ربيع الثاني من سنة ست وثلاثين ومائة وألف تطبقت العين من جهة عرفة ، فطلع إسماعيل باشا والقاضي ، وأشرفوا عليها ، وفي سابع عشرين الشهر المذكور ، عينوا لعمارة العين جملة معلمين فخر جروا لها ولا يمكن أن يتوجهوا وحدهم لأجل انقطاع الدرب حتى أرسلوا معهم بعض العساكر وعينوا لهم شريفاً يقيس عندهم يقال له : السيد عبد المعين بن حسن وعملوا له كل يوم نصف قرش .

وفي يوم الجمعة ثالث عشرين شهر ذي القعده من سنة سبع وثلاثين ومائة وألف خرج إلى أشراف العين إلى نعمان باكير باشا وصحبته القاضي والشيخ سالم البصري والسيد أحمد بن مساعد نياية عن حضرة الشريف والأفندي يحيى ولد المفتي نياية عن والده الشيخ عبدالقادر المفتي .

وفي ليلة الأحد عند غروب الشمس عاد الباشا ومن معه وقد أخبرني ثقة أنهم أشرفوا على أربع عشرة خرزة ، وأنهم قدروها بمائة وخمسين كيساً واتفقوا أن يعرضوا فيها للأبواب العلية .

وفي رابع عشرين ذي القعده من سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف خرج للكشف عن العين باكير باشا وشريف مكة لينظروا ما فيها من الخراب لأنهما قد بلغهما ذلك .

وفي السادس عشرين منه عاد حضرة الشريف والباشا من العين .

وفي أول ليلة من شهر ذي الحجه سنة تسع وثلاثين ومائة وألف توجه حضرة الباشا إلى النعمان للكشف عن العين وتصليح الخرزات والدبول وفي ثاني الحجه عاد الشريف وبعده عاد الباشا .

وفيعاشر عاشوراء من سنة أربعين ومائة وألف حصل في ماء العين خلل من عبيد العين ، فنادى الباشاشيخ عبيد العين والناظر ، وهو عبد موسى آغا ، فهرب ، وشيخ العيد قبض عليه الباشا وضربه ثلاثة كرباج وجسده فلما بلغ عبيد العين ذلك اجتمعوا وتسلحوا وجاؤوا إلى المعلا وبها بعض جماعة الباشا فاهتوشوا وإيامهم لكنهما سلما فلما بلغ الباشا ذلك التزم أنه يسفرهم ويقتل شيخهم فذهبوا وتوجهوا بالشريف عبدالله فطيب خاطر الباشا عليهم وأطلق لهم شيخهم .

وفي اثنين وعشرين ربيع الأول من سنة أربعين بعد المائة والألف بعد صلاة العصر قصد حضرة باكير باشا نحو نعمان للكشف عن العين وفي سبع وعشرين من الشهر المذكور عاد .

وفي أول الشهر ربيع الثاني من السنة المذكورة توجه إلى العين حضرة باكير باشا لأنه فتح هناك خرزة واحتاج أمره أن يكون واقعاً عليها وفي هذه المدة كثر الماء في البرايز وجميع الخرزات فجزى الله أرباب الحسنات خيراً وفي ثمان من شهر ربيع الثاني عاد من العين باكير باشا .

وفي سابع شوال من السنة المذكورة ذهب إلى الكشف القاضي والمقتبيين ونائب الشريف سليم آغا ونائب البasha ابن أخيه أحمد ييك وأشرفوا على عين مكة فوجدوا بها خراباً كبيراً فأخروا الشريف بذلك، فأمرهم بالعمارة والبasha تمنع منها ، وقال : بعد الحج والله يلطف بال المسلمين . انتهى .

وفيه أيضاً في حوادث سنة أربعين ومائة ألف : وكانت الوقفة بالسبت ولم يحصل من المخالفات شيء وكانت الوقفة في غاية الأمان وإنما شاق على الناس قلة وجود الماء فقد بيعت القربة بثلاثين ديواني والبراييز ناشفة والآبار والأعين كذلك فسأل الله أن يفرج علينا ولا يؤخذنا بسوء أعمالنا وأفعالنا .

وفي يوم عشرين منه ترحل الحج الشامي وعرض الشريف في أمر العين للسلطنة ، وأرسل عروضه صحبة الحج ، وفي سبع وعشرين ذي الحجة أراد البasha التزول إلى جدة فمنعه الشريف عبد الله ، وقال له : حتى نشرف على العين نحن وأنت ونعمت خرابها فعني بذلك مائتين كيس وأنت كذلك تسلم مثلها فإذا جاء المعمار حاسبناه وأخذنا ما هو لنا .

وفي هذا اليوم أرسل الشريف لجميع من له خدمة في العين وأمره أن ينوب نائباً وينزل هو ونائبه إلى نعمان ، فقالوا له : النواب فيهم الكفاية وزرولنا ليس بعادة . فقال : لا بد من زرولكم مع نوابكم تشرفون ، فأكثر الناس عافوهما وأخرجوها كشوفاتها مع الدلال يعرضوها للبيع وخرج إلى نعمان من لا مراد له في البيع مع نايه صحبة عبيد العين ليكشفوا الخراب وينظفوا . انتهى .

انقطاع الماء عن مكة وتعمير العين سنة ١٢٤٢

قال الغازى في تاريخه نقلأً عن كتاب «بغية الراغبين» : ثم إنه في سنة اثنين وأربعين وألف انقطع الماء عن مكة بالكلية لخراب حدث بالدبول بأسباب السيول ، ومكث الناس نحو شهر في ضيق عظيم ، فأرسل والي مصر في ذلك الوقت محمد علي باشا وأمر بتعميرها فعمرت وصرف على ذلك مبلغ وافر حتى صلحت .

ثم بعد ذلك بقيت هذه العين تارة تقل بقلة الأمطار وتارة تزيد بزيادتها إلى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف .

وفي هذه السنة حدث سيل عظيم ، وتخرّب منه بعض الدبّول وشح الماء عن مكة أيامًا قائلًا فعمّر ما تخرّب من الدبّول وجرى الماء إلى مكة بأحسن حال ، واستمر إلى سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف .

ثم قل الماء في العين ، خصوصاً في شهر شعبان وآل إلى الانقطاع ووصل إلى مكة الوزير الأعظم السيد محمد شروانى باشا ، والياً على الأقطار الحجازية وحين رفع إليه خبرها ، أمر الوزير المذكور فوراً بثلاثين ألف قرش من جيده الخاص ، وعين جماعة ل القيام بغایة الاهتمام وقال : عمروا واصرفاوا ، ولو زاد المصرف ما زاد ، ولو لم تأتمر الدولة بذلك ، فأنا المكلف والمخاطب بتلك الهمة رجع للعين رونقها الأول ، ومات الوزير المذكور في الطائف ، ثم بعد موته اجتمع جماعة من علماء مكة المكرمة بشريف أمير مكة ذلك الوقت دولة المرحوم سيدنا الشريف عبد الله باشا ، وهم : الشیخ عبد الرحمن سراج مفتی مكة ، والشیخ عبد الله الشیبی فاتح بیت الله الحرام والشیخ عبد الرحمن جمال والشیخ عبد القادر خوقیر وغيرهم ، وعلووا على جمع المال ، من أهل البر والإحسان لإصلاح عین عرفات وإصلاح عین حنین وإجرائها لاعانة عین عرفات فوق الله معهم أصحاب الهمم العالية الراجين ثواب الله سبحانه ، منهم : المرحوم الشیخ أحمد أفندي المشاط فإنه دفع من عنده مائة جنيه ، وجمع من تجار الهند بجدة مبلغًا ، وصادف وجود أشخاص كرام مثل الحاج عبد الواحد الشهير بوحданة الميمن ، وال الحاج عبد الله عرب الميمن فساعدوا على هذا العمل الخيري أحسن مساعدة وعمروا ما تيسر لهم تعميره إلى أن جرى الماء على مكة واستراح الناس قليلاً ولكنهم علموا وتحققوا أن آلامهم لا تقطع وتحتاج العين إلى نفقات هائلة .

أول جمعية لجمع الإعانات لعمارة عین مكة سنة ١٢٩٥

قال الغازى في تاريخه : ثم في سنة خمس وتسعين ومائتين وألف ، رغب الشهeman الكريمان المتقدّم ذكرهما وهمما الحاج عبد الواحد وحدانة ، وال الحاج عبد الله عرب وبعض جماعة معهما في القيام بهذا العمل الخيري وأن يقوموا به كل القيام ويجمعوا لذلك الإعانات من كل الجهات الإسلامية فوصل الحاج عبد الواحد وال الحاج عبد الله المذكوران ومعهما أشخاص ، يترجمون ويوضّحون الكلام الميمى إلى دار دولة أمير مكة ذلك الوقت وهو المرحوم المبرور الشهيد سيدنا الشريف

الحسين باشا يستأذنوه في هذا العمل الخيري فرحب بهم دولة الأمير وأظهر لهم المعنوية من همتهم ورغبتهم في هذا العمل الخيري والمهم ، غير أنه أخبرهم بأنه حيث أن الحكومة مرتبة سنويًا ألف جنيه عثماني لعين زبيدة فربما أنها لا تأذن لأحد بالتدخلة في هذا العمل وأن الأمر يحتاج إلى مذكرة مع الولاية وكان الوالي في ذلك الزمن هو دولة راشد باشا ، ووعدهم بما ذكرته فخرجو من لدى الأمير المشار إليه شاكرين لطفه وذهبوا أيضًا إلى الوالي وذاكروا في هذا الأمر ، ثم اجتمع بدولة الأمير وأخوه وتذكرا معه فاتفقوا على الاستئذان من الدولة العلية سوية ، واستأذنا فعلاً وتحصلوا على الإذن فصدر الأمر من المقامين العاليين بتشكيل لجنة فيها من الأشراف والأهالي وأفضل المجاورين كفضيلة المرحوم الشيخ الهندي رحمة الله فتشكلت اللجنة وشرعوا في الكتابة فتبرع دولة الأمير الخطير المذكور بمبلغ سبعمائة وخمسين ريالاً بميدانياً ، وتبرع دولة الوالي بمائتين وخمسين ريالاً بميدانياً ، وتبرع جملة من التجار والأهالي كل على قدر استطاعته وكتبوا إلى جميع الجهات الإسلامية خصوصاً مصر والأقطار الهندية ، واهتموا بهذا الأمر كل الاهتمام وقاموا به أحسن قيام ، وشرعوا في العمل بهمة عالية وسافر بعضهم إلى الهند لجمع الإعلانات لهذا العمل الخيري .

ونظموا اللجنة بمكة رئيسها مفتى الأحناف بمكة المكرمة ، فضيلة المرحوم عبد الرحمن سراج رئيساً فحررياً ليسوق المسلمين لهذا العمل الخيري .

وكتبوا الكتبات المشوقة لهذا العمل وأعلنوا ذلك في الجرائد بحملة من اللغات ويرأسهم بالنظر للعمل والصرف المرحوم الحاج عبد الواحد وحدانة ، فإنه كان أمين الصندوق وكانت مباشرة الأعمال بنظر الأفضل الكرام بعد الاستشارة والمداولة في اللجنة المذكورة ولا يعملون عملاً إلا بقرار منها فاجتمع في الصندوق مقدار عظيم وساعدتهم الحكومة المحلية على هذا العمل الخيري أتم مساعدة ولم تجعل لها عليهم يداً أصلًا إلا بالمساعدة عند الاحتياج منهم إليها ، وطلبو من الهند مهندسين وصناعاً وخرجوا بهم إلى عرفة وذرعوا وقايسوا وحققوا أن المسافة بين مكة وبين عين زبيدة من وادي نعمان تتفق على سبعة عشر ألفاً من الأمتار وأن تقديم العمل من عين زبيدة من جهة عرفة أفعى فاجهدهوا في ذلك وشرعوا في الأعمال وحفرموا وبثروا من أسفل الدبل من بعد حدود عرفة إلى جهة وادي نعمان نحو ستمائة ذراع بنا فيها عدة خرزات دفنت بعضها وأبقوا البعض لسقيان العربان

وكان شروعهم في العمل من مكة بتنظيف الدبول ، وتعمير ما تخرّب منها ، حتى وصلوا إلى المفجر وأوصلوا الماء إلى مني بالآلة النارية من المفجر ونحتوا لأجل ذلك بعض الجبال ، ولم يزالوا في عملهم حتى وصلوا إلى عرفة وبنوا في عملهم هذا عدة حربزات في طريق مكة وبازانات بمكة منها بازان الشعب ، وبازان سوق الليل وبازان القشاشية وبازان أجياد ، وبازانين بحارة المسفلة ، وبازان بحارة الباب ، وبازان الشامية وبازان بسوق المعلا يسمى بازان التمارة ، وعمروا ما كان حراباً وزادوا عدد موارد الماء بالبلدة وقطعوا الجبل الطويل الكائن بأول مكة وهو الريع المعترض وسط الطريق المشهور بريع الرسام وبنوا به دبلاً طويلاً يجري فيه الماء إلى حارة جرول ، وبنوا في حارة جرول بازانًا عظيماً ، يسقي الناس منه وكذلك أجروا عملاً آخرًا من جهة العين الأصلية بمكة وهي عين حنين فإنهم استغلوا فيها واجتهدوا في إصلاح عين الزعفرانة ، والشحاحيد المعينة لعين حنين . انتهى .

صفة جريان عين زيد في الأرض

قال الغازى : وفي كتاب « دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج » لصادق باشا أمين الصرة : وقد صار إصلاح عين زيد في سنة ألف ومائتين وست وتسعين ، لأنه قد حصل فيها قبل أوان الحج بعض أهدم وجرى ترميمه في غاية الإتقان من أهل الخيرات حتى صار ماؤها يجري في قناة مبنية من المنيع إلى مكة كقناة الوابور عرضها من الأعلى متراً يل تارة يزيد ، وفراغها من خمسين سانتى إلى ستين ، وعمقها متراً ونصف وارتفاع الماء عن قاعها سبعون سانتى ، مغطاة بناء من الحجارة وبالغطاء فتحات بقدر خمسين سانتى أو أكثر لأجل الملك ، منها وهذه الفتحات متبااعدة عن بعضها بنحو العشرة أو العشرين متراً على حسب الواقع وجانبها أحواض أخرى لشرب المارين ، وأحواض أخرى لشرب الآدميين ، وسطح القناة تارة يكون مساوياً لسطح الأرض وتارة مرتفعاً عنها إلى سبعة أمتار على حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها كما شاهدت جميع ذلك بعرفات حيث تمر بجانب جبل الرحمة من الجهة الشرقية من عرفات متوجهة إلى منى ثم إلى مكة وهناك نصب من جملة صهاريج متعددة وفي سنة ألف ومائين وسبعين وتسعين أرسل من مصر إمداداً خمسة وعشرون ألف جنيه مع أحد معاوني الداخلية وبرفقته أحد المهندسين المشهورين لمشاهدة العمارة الحاربة بقناة العين مع كونها قد انتهت

تقريباً، وشاهدت القناة مبنية بناءً متيناً من مكة إلى عرفات، وفي عام آخر وجدت تعميرها صار إكماله حتى إن الماء كثراً يمكّن وجهاتها . انتهى .

قال العلامة الزواوي : ومكثت اللجنة التي كان رئيس عملها المرحوم الحاج عبد الواحد الميموني تعامل بعزم وهمة نحو ثلاثة سنين ، ثم حصل الضعف في عملهم شيئاً فشيئاً والماء جارٍ يمكّن أحسن جريان وكان صندوق عين زبيدة ذلك الزمان عامراً بالفقد المتواترة عليه بالإعلانات دواماً من جهة الهند وغيرها ، واستمر كذلك إلى أن حدثت أمور طفيفة مخالفة لتعليمات اللجنة من أمين الصندوق ثم تدخلت الحكومة المحلية في أمر النقود الموجودة في صندوق عين زبيدة بتناول شيء منها احتاجوه وصرفوه في بعض التعميرات الازمة لها فلما بلغ أهل الهند أخذ ذلك المبلغ من صندوق العين لغير أعمال العين وقفوا عن إرسال الإعلانات وكان ذلك سبباً لاستياء هيئة اللجنة حتى أوقفوا الأعمال ، ثم استعفى الرئيس وأكثر أعضاء اللجنة وسافر الحاج وحدانة بعد ذلك بنحو عامين إلى الهند .

تشكيل لجنة ثانية للعين

قال الغازي في تاريخه : وتشكلت لجنة جديدة كان الرئيس عليها والعامل فيها سعادة المرحوم صادق بك مرة والرئيس الفخرى هو المرحوم الشريف حسين بن يحيى واستولى على ما بقي في صندوق العين ، وكان ذلك مبلغاً وافراً لأنه يقال : إنه كان الموجود في الصندوق عند الأخذ منه نحو سبعة وخمسين ألف جنيه وكان يصرف منه عليها .

ثم ترأس بعده المعلم الشقيري وحجب وغيرهم ، وبقي عملهم كذلك والماء يمكّن تارة يقل وتارة يكثُر وعين عرفة كذلك دواماً العمل واجتهدوا زيادة في تنظيف دبoli عين حنين ، التي منها الزعفران وغيرها وكان أكبر عامل فيها هو المرحوم الفاضل الشيخ عبدالقادر خوqير ، بل كان يرجع العمل فيها على العمل في جهة نعمان ويصرح بأنها هي عين مكة الأصلية ، وكان له جملة من المساعدين في فكرة ذلك وحصل النفع العظيم من أعمالهم ، ثم انقطع العمل من الجهتين ، وبقي جريان الماء على عادته ، يزيد تارة مع توارد الأمطار وأخرى عند قلتها وقد حصل النقص الظاهر في سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف في عين زبيدة من جهة وادي نعمان وانقطع من جهة وادي حنين ، وكان ذلك بسبب قلة الأمطار فأمر أمير

مكة ذلك الوقت الشريف عون الرفيق باشا بإخراج صرفية ، وكان الرئيس في ذلك الوقت على القمبسون ، وهو المرحوم السيد سلطان الداغستانى ، فخرجوا وبخوا وقدموا في دبل العين نحو أربعة عشر ذراعاً وحصل من عملهم ذلك بعض فائدة أيام قلائل .

جمع إعانت جبرية للعين

قال الغازي في تاريخه : ثم اشتد الحال وقل ماء العين في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف وكان أمير مكة ذلك الوقت دولة الشريف علي باشا فأمر بتشكيل قومسيون تحت رئاسته بمكة وقومسيون بالطائف ، وجمعوا إعانت جبرية من مكة وجدة والطائف ، وكبوا إلى الآستانة العلية بطلب إعانة زبيدة من جميع الولايات واجتمع عندهم بمكة نحو عشرة آلاف جنيه ، على ما قبل واجتمع بالآستانة العلية نحو ستة وثلاثين ألف جنيه ، وأخرجوها صرفيات لتنظيف الدبoli والتقدم في وادي نعمان بالحفر والتعمير ووصل من الآستانة العلية مهندسون وهم : نشأت بك وتوفيق بك وغيرهم ووصل معهم شيء مما اجتمع من الإعانت بالآستانة العلية يقال : إنه نحو عشرة آلاف جنيه فاشتغلوا بهمة قوية في وادي نعمان ، وكانوا يخرجون في كل شهر نحو خمسة أو ستة أو سبعة رؤساء من المعلمين كل رئيس يترأس على جملة من المعلمين والعمال وأتباعهم وتكلف مصرف كل رئيس وأتباعه نحو مائتين إلى ثلاثة جنيه حتى تقدموا في نعمان إلى جهة أم العين التي هي منابعها الأصلية نحو سبعين ذراعاً ، وعمرروا أيضاً في نفس مكة عمارات كثيرة نقبوا فيها بعض دبoli بمكة وبرعوا جميع الدبoli بمكة ، ونظفوا وأصلحوا ما كان مهندماً منها ، وعمرروا دبلاً في الشامية من عند القصر المشنشن إلى المقسم الذي كان عند باب الزيادة وأصلحوا البازان الذي في الشامية ، وأوحدوا خرزة بين الشامية والقرارة وصرفوا في أعمالهم هذه مصاريف كبيرة .

ثم وصل في أول سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف مهندس ومحتش للبحث عن أحوال تعمير عين زبيدة وكيف صرفاً مبالغ الإعانت التي اجتمعت من مكة وجدة والطائف والذي وصلهم من إعانت الآستانة وخرج المفتش المذكور إلى وادي نعمان ، وكان معهه الشاب النبيه السيد هاشم بن المرحوم السيد السلطان الداغستانى فوصلوا إلى شداد للكشف ورأى الأعمال الظليلة بنعمان ، ثم وضع

خربيطة عظيمة من أم عين زبيدة بقرب بلاد السبحي من شداد إلى مكة ونظمها أحسن تنظيم وأبقاها في قومسيون عين زبيدة وأخذ نقلها معه إلى الآستانة العلية ويقال إنه ذرع المغارب من عين زبيدة في وادي نعمان ، من بعد شغل المرحوم الحاج وحدانة ثم الشقيري إلى موضع أم عين زبيدة فوجده ثلاثة آلاف وخمسماة وسبعين ذراعاً .

أحوال العين أيام تولية الشريف الحسين بن علي

ملك الحجاز الأسبق

قال الغازى في تاريخه : ثم في أواخر سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف تعين أمير على مكة المكرمة دولة الأمير الخطير الصالح العادل دولة سيدنا الشريف حسين بن المرحوم الشريف علي بن محمد بن عون أدام الله دولته وخلد بالإقبال صولته وجعل الخير والبركة في أعماله وأنجاله الكرام ولا يزال مظهراً لكل خير وإحسان فإنه بمجرد وصوله إلى مكة المكرمة صرف أفكاره في الإصلاحات وتقدّم أحوال البلاد الطاهرة واجتهد في الاهتمام بكل ما فيه صلاح سكانها وراحتهم وما ينفع للوافدين إليها من كل فرج عميق فمما كان مهماً عنده أمر إصلاح عين زبيدة من جهة وادي نعمان ومن جهة حنين ، وعنده العلم الوافي بما كان من أحوالها في الأزمان السابقة وما وقع من العناية بها أيام أعمامه الكرام خصوصاً زمن عمه المرحوم الشهيد حسين باشا وهم الحاج وحدانة فإن دولته كان من العاملين في ذلك القسميون أحسن الأعمال وكان من أعضائه وعنته الإطلاع التام بما كان منه ، ويعلم أنه لو استمر على حالته الأولى وتحسن بعض التحسين ولم يحصل عليه التعدي لكان نفعه دائماً قوياً مستمراً نافعاً من غير تكليف على الدولة بشيء ما .

تشكيل لجنة ثلاثة للعين

قال الغازى في تاريخه : فلذلك صمم «أي الشريف الحسين بن علي على ملك الحجاز الأسبق» على تشكيل هيئة جديدة لهذا العمل الخيري ، واتفق في ذلك مع والي الولاية ذلك الوقت وهو دولة كاظم باشا واجتمع رأيهما عليه ، وأن

تكون اللجنة على حالها أول أمرها في زمن الحاج وحدانة ، متشكلة من الأفضل من كل جنس وأن تكون هيئتها حرفة مطلقة التصرف ليس للحكومة المحلية معارضتها ولا التداخل فيها ولا في أحوالها وشؤونها بوجه ما ، بل عليها مساعدتها ومعاضدتها فشكل دولته اللجنة المذكورة في أوائل شهر حرم الحرام سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف فانتخبوا من العلماء والساسة والمخاوريين من كل من هو مشهور بالعفاف والاستقامة والديانة ، وكونه ذا معارف في الجهات الإسلامية ومشهوراً لديهم بالغنى والعفاف فتشكلت الهيئة المذكورة من عدة من أهل مكة والمخاوريين ، وعدد من تجار الأتراك وعد من علماء القازان ، ومن علماء بخارى وتجارهم ومن علماء الهند وتجارهم ومن علماء الجارى وتجارهم وبعد أن عيّن لهم الحكومة رسمياً أخذوا في تحرير الكتب إلى الجهات ، واستنهاض هم أولى الشروة والخير ، يملؤوا يد الأعنة والمساعدة في ذلك بكل جهة ، ونشروا المقالات على صفحات الجرائد فأخذت الإعنانات تنهال وتتأتى من ذوي الهمم العلية والنفوس الأبية ، خصوصاً من جهات الهند ومصر والجاري .

دنفت الهيئة الموقرة تبتدئ في الأعمال ، فشرعوا في تبرير دبول مكة والدبول المتقدمة إلى جهة عين حنين ، وكلما قدم التبرير زيادة في المسافة حصلت الزيادة في الماء وغزرت مادته وقوى جريه ، حتى قطعوا من أول وقت شروعهم إلى غاية شهر ربيع الأول من العام الثالثين والثلاثمائة والألف من زمام الشغل في وادي حنين ، الذي كان التبرير متنهما إليه ، بعد الأعمال المتقدمة زمن الحاج وحدانة ومن عمل بعده ، مقداراً زائداً على أربعة آلاف ذراع بذراع العمل المعماري وعلى ألف ذراع في جهة وادي نعمان وأمثال ذلك في البلدة ، وكانت الخرزة التي انتهتى عمل المتقدمين عندها تسمى الهاشمية وكان مدة عمل هذه اللجنة التي تيسر لها فيه هذا العمل العظيم من تبرير هذا المقدار في نعمان ومثله من جهة حنين وأمثال أمثاله في البلدة ومنها إلى وادي نعمان ومن الإصلاحات والنعميرات العظيمة النفع ، كما سيدرك ذلك مفصلاً كله لا تتجاوز ثلاثة سنوات .

ثم في الثالث والعشرين من ذي الحجة الحرام آخر السنة المذكورة جاء سيل عظيم ، ودخل الحرم الشريف وأمتألاً المسجد بالماء والتراب ودخل سيل آخر أيضاً في دبلي عين زبيدة أعلى عرفات إلى قريب مني ، وسد الدبلي بالأتربة حتى انقطع الماء عن مكة المكرمة ، ولكنه بحمد الله تعالى لم يضيق الحال كثيراً على أهل بلد الله

الحرام وسكانه والموجودين فيه من الحجاج وكان ذلك بأسباب تقدم حصول أمطار بمكة المكرمة وجاتها وجود شيء من المياه في حفر الجبال والمسابق وغيرها ، وكون صهاريج البازانات وصهاريج البلدة ممتلئة بالماء ووجود قليل من الماء في دبل عين الرعفران .

وكان الصندوق في ذلك الوقت فيه مبلغ وافر من النقود ، ففي الحال أخرجوا عملة بكثرة ييرحون الدبوبل من مواضع عديدة لم تمض مدة سبعة أيام إلا والماء جار في الدبوبل ، ووصل إلى مكة المكرمة ، وانتفع الناس به .

خراب العين وانقطاع الماء عن مكة سنة ١٣٢٨

قال الغازى في تاريخه : وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف جاء سيل عظيم من وادي رهجان ، وهجم على وادى نعمان بقوه ، ودخل في دبل عين زبيدة وهدم عدة من الخرزات القديمة التي هي من أعمال هبات لجان عين زبيدة المقدمين ، وانصب ماوه في نفس دبل العين ، حتى اختعلت بمائها ووصل إلى مكة بقوة نحو يومين ، ثم وقف بالكلية لسبب انسداد كثير من الدبوبل في عرفة وما بعده إلى جهة مكة بالتراب فلما بلغ دولة أمير مكة ذلك خرج هو وأولاده وطلب خيامه في وادى نعمان وأمر هيبة عين زبيدة بالاستعداد وأخرج الصرفيات المتعددة ورأى الحراب الذي وقع ومن سوء الخط كان صندوق عين زبيدة في السنة المذكورة خالياً عن النقديه إلا الشيء اليسير الذي لا يجوز خلو الصندوق عنه ، ولذلك تلطف دولة الأمير الخطير حفظه الله بهيمة لجنة عين زبيدة ، وصرح لهم بأن لا يهتموا من جهة المصرف وأنه متকفل بتدبير ذلك بأى طريق كان وألزمهم العمل والهمة بكل جهدهم فقاموا أحسن قيام واجتهدوا كل الاجتهاد وأخرجوا عدة صرفيات للتبريع والشغل من كل جهة وحصلت نهضة من الأهالي والمحاورين فتبرعوا بالإعانات على قدر استطاعتهم وتبrey كل من الموسرين بقدر همته واستطاعته واجتمعت إعانات جزئية بحسب البلدة وسكانها واستمر دولة الأمير في وادى نعمان نحو عشرة أيام ثم رجع إلى مكة أيامًا ثم عاد ثانية حفظ الله بنفسه واستمر مدة قائماً على العمال والأشغال ومن المعلوم أن العمل بحضوره يتضاعف عمما لو كان غائباً عنهم وكان دولته حفظه الله يأمر بذبح الذبائح من الإبل والبقر للعملة الذين يستغلون في التبريع

فالبعض من جيئه الخاص والبعض من طرف لجنة عين زبيدة بأمره وإشارته حتى كان العمل مستمراً ليلاً ونهاراً، وحين رأى الناس عنابة دولته حفظه الله وطول مكثه في وادي نعمان وتحمله هو وأبنائه الكرام والأشراف حرارة الشمس والشدة العظيمة لأجل راحتهم خرجن أفراجاً للعمل وبذل العموم والخصوص ما في وسعهم من مال ونفس ولم يرجع أخيراً حتى حرى الماء إلى مكة المشرفة وكان يوم وصول الماء إلى مكة عيداً عظيماً على الناس وصارت السنة الأهلية والمجاورة وكل ساكني مكة تلهج بالدعاء للدولة الأمير من صميم الفؤاد ولهجت الصحف بالثناء على غيرته وحميته.

وفي اليوم الثاني عشر من شهر حرم الحرام من عام الثلاثين والثلاثمائة والألف حدث بجيء سيل عظيم من وادي نعمان ورهجان ودخل الفري الكبير الذي في باطنها عدة خرزات من آخر أعمال اللجنة التي كانت في زمن الحاج وحدانة ومن أعمال من عمل بعده وكذا هذه اللجنة أيضاً فإنها أحدثت قريباً منه عدة خرزات وبقيت حفرة هذه الفري المذكور كبيرة مسلطة على جميع الخرزات فدخلها السيل وعلا خرزة منها كانت منخفضة ومنها سقاية الأشراف العادلة سكان الماء وغيرهم حتى دخل في دبول عين زبيدة وسدتها بالتراب ومنع جريان الماء إلى عرفة وانقطع الماء عن مكة بالكلية فحيث ذر ك أمير مكة حفظه الله بخيله ورجله ووصل إلى وادي نعمان وكشف على الخراب ورجع ثانية يوم إلى مكة، وأمر لجنة عين زبيدة بإخراج صرفية بعملة كثيرة للعمل المذكور وأن يهتموا به أعظم اهتمام فقاموا بذلك واجتهدوا كل الاجتهد حتى ما مضت عشرة أيام إلا والماء جاري في الدبول ووصل إلى مكة وفرح الناس بوصوله واستقروا منه ولم يزل عملهم في التبرير والتعمير إلى أن رجعت الأشياء إلى مجاريها وكان ذلك بعد نحو شهر وزيادة.

ثم إن هيئة لجنة عين زبيدة لما رأت دوام البلاوي والمصائب على عين زبيدة وبماريها بأسباب أفرية وادي نعمان المقدم ذكرها وأن الكائن تحت لا تزال السيول تدخلها وتخرب في الدبول ولا يزال الناس في تعب عظيم من ذلك استحسنت رفع الحال وإيصاله إلى دولة الأمير وطلب رأيه العالى في طريق رفع هذه المضار وحرروا له مذكرة في هذا المخصوص فمن حين وقع نظره على المذكورة المذكورة اهتم لذلك فخرج دولة الأمير بنفسه وأولاده وجملة من الأشراف

والعربان الذين يعتادون أمور العين ويعرفون أشغالها وخرج أيضاً لجنة عين زبيدة وحملة من الأعضاء وخرج بمعيتهم المفاري الخزميين وحملة من الدواوين وخرج جملة من المهندسين والمعلمين وكشفوا كشفاً دقيقاً وتحققوا به لزوم تقديم العمل في دفعضرائر التي توراد على ديل عين زبيدة لسد الحفر وجميعها والسعى في عمل سد قوي مانع لضرر السيول عن دبوب عين زبيدة واستحسنوا العمل فيه بالبقر فاشترى دولته من جيده الخاص عدداً من البقر لشغل السد وما يحتاجه وساعد بجمع الأعمال من جيده الخاص تبرعاً منه لهذا العمل الخيري العظيم مدة خمسة عشر يوماً حتى يحصل لصندوق عين زبيدة شيء من النقدية يكفيهم للعمل المذكور فأشار الجميع بإعانته طفيفة من أهالي البلدة وأمر بدفع ما كان قد اجتمع عنده إعانته من أهالي البلدة الطاهرة ، برسم المدرسة الخيرية إلى صندوق عين زبيدة ليصرف ذلك لهذا العمل المهم ، وأمر اللجنة بالشرع في العمل المذكورة مقدمين الأهم فالأهم وأن يديروا عملهم في تبريع الدبوب بما يتوارد إليهم من أهل الخير بنفس البلدة الطاهرة التي أشار دولته بجمعه وبما يصلهم من الخارج وأخرجت العملة للدفن في الأفرية ثم لتبريع الدبوب أيضاً في زمام الشغل وهكذا .

وقد تقدم عملهم الذي وقفوا عنده من جهة عين مكة الأصلية التي هي عين حنين وتوضيحيه أن اللجنة من أول أمرها لما رأت انقطاع الماء عن مكة من جهة عين حنين بأسباب وقوف الأعمال فيها مدة طويلة وتوارد السيول على الدبوب وبمحاري الماء فيها حتى أخرتها وملأت دبوبها بالأتربة الكثيرة وحصل المجموم في ديل الزعفرانة الكائنة عند مدرج الغوريات فاندك الدبل بالتراب وانقطع ديل المعصم وأخبيس ماوه في أعلىه عند أول حربزة وراء السد حتى صارت سوراً لقريش استحسنست هيئة اللجنة المذكورة عند أول شروعها في الأعمال في أول سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف تبريع طريق ديل الزعفرانة الذي كان اشتغل فيه المرحوم الشيخ عبدالقادر خوqir ومن كان معه ، ثم ترك العمل فيه بالكلية فعززواه وعينوا من يعتدون صلقة وأماتته وهنته وهو الشيخ خليفة بن نيهان على شغل العين جهة حنين وأرسلوا معه العمال والصناع واستمر عمله ذلك إلى آخر سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف وجرى الماء في ديل الزعفران ، وعمروا ديل المعصم حتى اتصل بالزعفرانة عند حربزة تقابل جبل القويرات واستمر الماء منحدراً إلى ديل عين عرفة يصل ماء الزعفرانة إلى حربزة جديدة بنيت في بطن البستان الشهير بستان بنونه الذي هو قبال دكة المنجني ثم منها يجتمع في حربزة أيضاً في البستان

المذكور وهي قديمة يجتمع فيها ماء عرفة وماء حنين، وينحدر الجميع في بحرى واحد إلى البلدة في التشمة المعمرة قديماً في حارة المعابدة، فحرى عمل الشيخ خليفة ومن معه بهمة عظيمة.

اكتشاف دبول بعض العيون ومساحة ما بين بعضها

قال الغازي في تاريخه : ووجدوا في أعمالهم «أي الشيخ خليفة ومن معه» عدة دبول لعدة عيون شحاحيد مبنية بالبناء الملوكي الجيد ، والكل منه دفن بالأتربة وقد قطعها السيل فبرحوا وعمروا منها ، في هذا العمل وهذه المدة القصيرة ثلاثة دبول : دبل الزعفران ودبول المعصم ودبول ثقبة ومساحة ما تبرح وأصلح من دبل عين الزعفرانة من بستان بنونة إلى آخر الخرزة الظاهرة الكائنة في الخريق تتوف على أربعة آلاف متر ، والخرزة التي هي في الخريق بعدها ب نحو سبع خرزات تحت الأرض هي لدبول الزعفران ومساحة ما تبرح من محل اجتماع المعصم بالزعفران إلى نهاية خرزة وراء السد ، التي هي مورد لقريش ألفان ومائة وخمسة وسبعين متراً وقد كشفوا إلى جهة الأممية أربعين خرزة في باطن الأرض ومساحة ما تبرح من دبل ثقبة ، من محل اجتماعه بالزعفرانة إلى آخر الحفريات الظاهرة خلف السد الصغير تسعمائة وخمسة وعشرون متراً وبنوا في جهة حنين حين عملهم ذلك سبع خرزات بمددة ظاهرة أحدها مكتوب عليها اسم بنهاني وذلك غير إصلاح وترميم خرزات آخر فجملة ما تعمر من الخرزات الظاهرة جهة حنين نحو اثنى عشرة خرزة .

وأما الخرزات المعمرة في الدبول ولم تظهر على وجه الأرض فتوف على المائة خرزة ثم وقفوا العمل في جهة حنين على نية العود إليه عند السعة ، وقدموا العمل من جهة وادي نعمان لكون منابع الماء في وادي نعمان أكثر والعمل فيه أولاً أصلح وتقديموا أيضاً في أعمالهم جهة الوادي المذكور نحو ألف ذراع بناها ثمانين عشرة خرزة والمسافة بين الخرزات متفاوتة ما بين عشرين ذراعاً إلى ثلاثين وأربعين إلى سبعين ذراعاً ، وكل ذلك بحسب الاقتضاء وذلك غير الخرزتين العظيمتين التي فرع في حفر فريها وتعمير بعضها ، بعض أهالي البلدة بنظر دولة الأمير حفظه الله وهما على منفذ واحد في السفل وكان ذلك الموضع ضيقاً شديداً ، يصعب العمل فيه على العمالة صعوبة شديدة ، وذلك لزم الحال فيه إلى حفر فرى عظيم واسع طول

خمس وأربعين متراً في عرض سبعة وثلاثين متراً يكون مربع ذلك ألفاً وستمائة وخمسة وستين متراً ولم ينزل بتناقص على حسب عادة الحفرات كلما نزلوا مقدار ذراعين فصلوا منه دكة بمقدار ذراع لوقوف العملة عليها يسمى ذلك ركازاً إلى أن وصل في أسفله إلى عرض سبعة عشر ذراعاً وأما الطول فهو على حاله خمسة وأربعين ذراعاً وذلك متصل بأسفل الدليل عند منابع الماء وعمقه في باطن الأرض يزيد على ثلاثة وعشرين متراً، وبنوا فيه الخرزتين اللتين طلع بهما كالمشارتين على وجه الأرض وقد صرف في هذه الحفرات وبناء القصبات ما ينوف على ألف جنيه وذلك غير عمل أهل البلدة المتبرع به منهم مجاناً وغير ما صرفه دولة الأمير من جيده الخاص . انتهى ما في بغية الراغبين بمحذف واختصار .

استعمال العرب لمواسير المياه

كان إيصال المياه ، في الأزمان السابقة ، من مجاري الماء إلى داخل البلدة ، بواسطة شق الأرض وبناء القنوات والدبوس والمجاري فيها وفي عصرنا هذا أي في العهد السعودي من سنة (١٣٢٠) ألف وثلاثمائة وسبعين تقوياً شاع استعمال مواسير المياه لإيصال ماء عين زبيدة في شوارع مكة وأرقتها إلى داخل البيوت وطبقات المنازل كما هو الحال في الملك والأقطار الأخرى .

ويعتقد الناس أن عمل المواسير هو من اختراع الإفرنج فقط في هذا العصر وهو كذلك في ظاهر الأمر ولكن الحقيقة اختراع المواسير هو من عمل العرب فقط ، ثم تركوا هذا الأمر واهتدى إليه الإفرنج في هذا العصر ، وشاع استعمالها شيئاً ذائعاً .

ودلينا على أنا العرب هم الذين استعملوا مواسير المياه قبلناً هو ما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه ، فقد قال في الجزء الثاني عند ذكر ما عمل في المسجد من البرك والسباعيات ما نصه :

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي قال : حدثنا عبد الرحمن بن حسن ابن القاسم بن عقبة بن الأزرق عن أبيه قال : كتب سليمان بن عبد الملك بن مروان إلى خالد بن عبد الله القسري أن أجر لي عيناً تخرج من الثقبة من مائتها العذب الزلال حتى تظهر بين زرم وركن الأسود ويضاهي بها رغم ماء زرم .

قال : فعمل خالد بن عبد الله القسري البركة التي بضم الثقة يقال لها : بركة القسري ، ويقال لها أيضاً بركة البردي «بفتح أوله وثانية» يبْرَّ ميمون ، وهي قائمة إلى اليوم بأصل ثير فعملها بحجارة منقوشة طوال وأحكمنها وأنبط ماءها في ذلك الموضع ثم شق لها عينًا تسكب فيها من الثقة وبني سد الثقة وأحكمه .

والثقة شعب يفرغ فيه وجه ثير ثم شق من هذه البركة عينًا تجري إلى المسجد الحرام ، فأجرأها في قصب من رصاص حتى أظهرها في فواره تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام فلما أن جرت وظهر ما ذكرها أمر القسري بجمر فتحرت بعكة وقسمت بين الناس وعمل طعاماً فدعوا عليه الناس ، ثم أمر صائحاً فصاح : «الصلاحة جامعة» ثم أمر بالنبر فوضع في وجه الكعبة ، ثم صعد فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس احمدوا الله تبارك وتعالى وادعوا لأمير المؤمنين الذي سقاكم الماء العذب الزلال النقاخ ، بعد الماء الملح الأجاج ، الماء الذي لا يشرب إلا صبراً «يعني زمزم» .

قال : ثم تفرغ تلك الفسقية في سرب من رصاص يخرج إلى وضوء كان عند باب المسجد بباب الصفا في بركة كانت في السوق قال : فكان الناس لا يقفون على تلك الفسقية ولا يكاد أحد يأتيها وكانوا على شرب ماء زمزم أرغب ما كانوا فيه .

قال : فلما رأى ذلك القسري صعد المنبر فتكلم بكلام يؤنب فيه أهل مكة فلم تزل تلك البركة على حالها حتى قدم داود بن علي ابن عبد الله بن عباس مكة حين أفضضت الخلافة إلى بني هاشم فكان أول من أحدث بعكة هدمها ورفع الفسقية وكسرها وصرف العين إلى بركة كانت بباب المسجد . قال : فسر الناس بذلك سروراً عظيماً حين هدمت . انتهى من الأزرقي .

ثم جاء في هامش الأزرقي عند هذا الكلام ما نصه :

وزاد الفاكهي فيما ذكر الأزرقي قال : فكان ذلك السرب الرصاص على حاله حتى قدم بشر الخادم مولى أمير المؤمنين في سنة ست وخمسين ومائتين فعمل القبة التي إلى جانب بيت الشراب وأخرج قصب خالد هذه التي من رصاص التي كان عملها سليمان بن عبد الملك فأصلحه وجعله في سرب الفواره التي يخرج منها الماء من حياض زمزم تصب في هذه البركة التي بباب المسجد انتهى .

فعلم مما تقدم أن مواتير الرصاص بحرى الماء كانت معروفة عند العرب قبل عصرنا هذا بثلاثة عشر قرناً أي من منذ ألف وثلاثمائة سنة .

استعمال أنابيب المياه بمكة المشرفة

نقول : ولد كان ابتداء استعمال مواتير المياه بمكة المشرفة في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين تقريباً ، فتمتد هذه المواتير من بحاري عين زبيدة إلى المنازل في مختلف الحرارات والشوارع وتصل هذه المواتير الممتدة في تحت الأرض إلى أعلى طبقات النور والمنازل كما أنها تتدنى من باطن الأرض إلى أعلى جبال مكة ، ليأخذ سكان هذه الجبال الماء من هذه المواتير ، ولقد ارتاحت الناس بهذه الحالة أشد الارتياح فجزى الله تعالى العاملين والمخلصين خير الجزاء .

أنابيب الماء في التدفقة

لما دخلت نظم التدفقة وأنابيب الماء وشيدت المنازل العالية ذات الأدوار العديدة في رومه استشاط سفيكاً الحكيم الروماني غيظاً ونقم عليها وأعلن سخطه على رؤوس الملاّقائلأ : إنها خطر وتهجم على الأخلاق وتهديم للفضيلة وتحسر على الماضي ، وأبان كيف أن الأقدمين كانوا يعيشون أحرازاً نبلاء تحت سقوف من القش ، في حين أن العصرىين عبيد أرقاء تستر زلتهم قصور عمادها المرمر والرخام وجدرانها المنقوشة بالذهب الوراهج . اه .

انظر : الصور ٢٨٣ لسقاء يحمل تنتكتين من الماء - يستقي بالزفة ، و ٢٨٤ لسقاء آخر يحمل قرية من الماء ، و ٢٨٥ لبعض السقاوؤن يستقون من بازان سوق الليل ، ٢٨٦ لسقاء وحماره يحمل أربع تنتكات من الماء .

الاستقاء بالقرب وبصفائح الشك

جاء في كتاب التراتيب الإدارية في الجزء الثاني ما نصه : في سنن النسائي عن بن مسعود كان النبي ﷺ يأمرنا بالصلوة فما يجد أحدنا ما يتصدق به حتى ينطلق إلى السوق فيحمل على ظهره فيجيء ... الحديث .

ثم صدر أمر رسمي بمحكمة المشرفة في أول محرم ١٣٨٢ بعدم السقاية بالقرب في جميع البازانات بمحكمة المكرمة ، بل على كل سقاء أن يستفي بالزفة وهي أن يحمل الماء في برميل أو تكتين يجعل بينهما عودا ثم يحملها على كتفه وينهب بها إلى البيوت بعد أن يملأها بالماء وبذلك بطل الاستقاء بالقرب والاستقاء بالقرب معنوم به من آلاف السنين في جميع بلدان العالم فسبحان مغير الأحوال .

بازان القاضي

بازان القاضي الواقع في درب منى على يمين الناھب إلى منى على عين جبل الرخم عمقه نحو (٣٠) متراً ويشمل على نحو (٧٠) درجة ويترافق ارتفاع الدرجات في ما بين (٢٥) ، (٣٠) سنتيمتراً ومحاط بسور عرضه (٦) أمتار وطوله (١٥) متراً وعشرين سنتيمتراً وارتفاعه متراً وله باب من جهة الغرب وتحته مجرى ماء عين زبيدة تجري فيها الماء إلى داخل مكة حتى اليوم ووسطه وأسفله مبني بعقود وكذلک بعض جداريه ليحفظ تساقط الحجارة والصخور الرخوة من الوقوع في المجرى لعدم استيرادها وقد حفر على الصخر الصماء منذ عام (٩٦٩) هجرية وهذا بازان عمل على نفقة ابنة السلطان سليمان وسقف البازان مكشوف والماء يجري من باطن الأرض إلى ذلك البازان .

انظر: صورة رقم ٢٨٧ ، المؤلف يقصد من بازان القاضي مجرى عين زبيدة تحت الأرض ، قبيل منى ١٣٧٦ هـ

انظر: صورة رقم ٢٨٨ ، المؤلف عند بازان القاضي مجرى عين زبيدة تحت الأرض ، قبيل منى سنة ١٣٧٦ هـ

بازان حبس الجن

ثم بعد حوالي (٥٠٠) متراً على ما يقابل البازان المذكور ، على اليمين أيضاً ، من طريق الإسفلت ، توجد بركة قديمة كبيرة الوضع ، تعرف بحبس الجن ، يقارب عملها بازان القاضي المذكور محاط بسور ، وبازان حبس الجن هذا مبني بوسطها من مقر البركة إلى أعلى بترتان أي حائطان مضلعان عرض كل منها نحو ثلاثة أمتار وعرضه أكثر من مترين الحائطين وبين جدرانه من الجهات الأربع قطع من الحجارات الضخمة لحول كل حجر نحو مترين وأكثر والعجيب من هذه البركة ومن حجارتها التي بنيت لها عظيمة جداً لا يقدر على حمل الواحدة منها عشرة

رجال بل في نظرنا يستحيل رفعها بواسطة الرجال والله تعالى أعلم . إننا لنقف مندهشين من بنائه وسفف البازان مكشوف والماء يجري من باطن الأرض إلى ذلك البازان .

وهناك بركة أخرى مثل بازان القاضي وهي قبله وإنها لبركة عجيبة أيضاً يعلم من كل ذلك ، ما كان الأقدمون يكلفون أنفسهم في سبيل توفير المياه والراحة بسكن بلد الله الحرام .

انظر: صورة رقم ٢٨٩ ، المؤلف ينظر إلى البركة العظيمة التي يرجع عهدها إلى نحو ألف عام ومعه بعض الناس قبيل مني وفي ظهرها

انظر: صورة رقم ٢٩٠ ، بئر الجن كما يقوله العوام وهو في طريق مني على يمين الصاعد إليها

انظر: صورة رقم ٢٩١ ، فوهة البازان قبيل مني مجرى عين زبيدة ، سنة ١٣٧٦ هـ

ما عملته هيئة عين زبيدة سنة ١٣٣٥ بمكة المكرمة

قال الغازي في تاريخه : وفي أوائل سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف شرعت هيئة عين زبيدة في إخراج الصرفيات الالزمة إلى وادي نعمان ، والتقدم في تنظيف القناة إلى الأمام وبناء الخرزات التي ظهرت فانتهت من بناء خرزتين بالأحجار والنورة يبلغ طول الخرزة الواحدة من ظهر القناة المدفونة تحت الأرض إلى وجه الأرض ثلاثة متراً وأتمت بناء خرزتين أيضاً بقيتا من العام الذي قبله واتخذوا لها الاحتياطيات الالزمة من البناء حولها خوفاً من السيل الذي يمر من بين الخرزات في بطん الوادي من دخوله في بطん القناة وسده وشرعوا في تخليط موضع جعله أنهاراً للوزام الصرفيات التي تخرج إلى نعمان و MAVI للعمال يأowون فيه من شدة الحر والبرد لأن أنهارها القديمة أصبحت بعيدة جداً عن موضع الاستقبال الآن ، نظراً للتقدم إلى الأمام سنتياً وأحرروا بناء البعض منه وسيتم إن شاء الله تعالى تدريجاً حسب الظروف .

صدر أمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود بعمير العن سنة

١٣٤٤

قال الغازي في تاريخه : وفي السادس عشر من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف دهم السبيل في وادي نعمان قناة عين زبيدة ودخل فيها وحرب منها ثلاثة خرزات وانقطع الماء عن الوصول إلى مكة المكرمة زهاء ثلاثة شهور فأصدر جلاله الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن السعود بعمير ما حرب من جيشه الخاص وحضر أعضاء هيئة عين زبيدة على التعمير عن ساعد الجد ، وبذل الهمة في إجراء العمل فشرعوا العمارة بجد واجتهاد وهمة ونشاط إلى أن سهل الباري بعمير ما حرب ووصلت المياه إلى البلدة الطاهرة وسقت العموم وذلك في شهر جمادى الثانية سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف ويجموع ما صرف في هذا التعمير ألفين وثلاثة وعشرين جنيهاً إنكليزياً وهذا عدا ما صرف على جند الإحران الذين قاموا بالمساعدة الفعلية في كل يوم وكان يبلغ مائة وخمسين كذا في «الخلاصة المفيدة لأحوال عين زبيدة» للفاضل الأديب الشيخ عبدالقادر ملا قلندر أمين صندوق عين زبيدة - وفيها أيضاً - المبلغ الموجود بصندوق عين زبيدة لغاية سنة ١٣٤٥ مائة وأربعة وعشرون ألف وثمانية وسبعون قرشاً أميرياً واثنتا عشرة باره ونصف أميري لا غير . اهـ . انتهى من الغازي .

البرك الواقعه بمكة وما حولها

قال الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه ما نصه : الفصل الثاني في البرك الواقعه بمكة المكرمه ، قال في تحصيل المرام في ذكر البرك : وأما البرك ففيها أي بركه عده برک :

(منها) بركان عند باب الملاع متلاصقان على يسار الخارج من مكة إلى الملاع جددنا في زمن الناصر حسن صاحب مصر في سنة سبعمائة وتسع وأربعين ذكره القرشي . قلت : لم يبق لهما أثر وقد أدركنا واحدة منها معطلة يسمونها بركة المصري والآن ملفوقة وكانت في مقابلة بركة الشامي وبينهما الطريق .

(ومنها) بركان على يمين الخارج إلى الملاع أحدهما بقصق سور باب الملاع بستان الصارم وكانتا معطلتين فعمرت إحداهما سنة ثمانمائة وثلاث عشرة وملقت من العين ذكره القرشي . قلت : هي الآن عمار موجودة تسمى الآن بركة الشامي وبالبستان اسمه الكمالية بجانبها . انتهى .

أقول : لم يق لها أثر وقد أدر كناتها معطلة والآن مدفونة .

(ومنها) بركان عند مولد النبي ﷺ بسوق الليل بستان المسلماني على ما ذكر ولا وجود لهما الآن .

(ومنها) بأسفل مكة بركة يقال لها بركة الماجن . انتهى .

أقول : هي الآن عمار ملائمة وبجانبها بستان للشريف علي بن المرحوم مولانا الشريف عبد الله يستقي منها ، وقد رفع الشريف على جدارتها الأربع في سنة (٨٤٨) بحيث لا يقدر أحد على النزول إليها . وكان الناس قبل ذلك ينزلون فيها ويغسلون منها ، وكثيراً منهم كانوا يغرقون ويعطرون فيها ، وأما الآن فسلمت نفوس الناس عن العطب والهلاك .

وقد عمرت ونظفت هذه البركة في سنة ثمان وأربعين وثمانمائة (قال ابن فهد) : وفي سنة ثمان وأربعين وثمانمائة عمر السيد حسن ناظر الاسكتدرية البركة بأسفل مكة المعروفة ببركة الماجن وأخرج ما كان فيها من التراب ، ورفع جدارتها الأربع . انتهى .

وفي تحصيل المرام قال القرشي : وبحرم مكة مما يلي منى وعرفة عدة برك (منها) البركة المعروفة ببركة السلم ، ولم يعرف من أنشأها ، وجددها الأمير المعروف بالملك نائب السلطنة بمصر ، وعمر العين التي يصل إليها الماء منها ، وهذه العين بجراها من مني وذلك في سنة سبعمائة وخمس وأربعين (يقول) مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي : إن بركة السلم رأيناها في عام (١٣٧٧هـ) وكانت جافة ليس فيها قطرة ماء ، وهي واقعة على يسار الذاهب إلى مني قبيل مسجد البيعة .

وبطريق مني مما يلي المزدلفة في طريق عرفة عدة برك معطلة عمر بعضها نائب السلطة في دولة الملك أشرف شعبان صاحب مصر وبعضها عمرها إقبال الدين المستنصر العباسي في سنة ستمائة وثلاث وثلاثين . انتهى .

وقال الفاسي في شفاء الغرام : وبعرفة عدة برك وغالبها الآن ممتليء بالتراب ، حتى صار ذلك مساوياً للأرض بعضها من عمارة العجوز والدة المقتدر ، وذلك خمس برك وتاريخ عمارتها سنة خمس عشرة وثلاثمائة وبعضاً عمرها المظفر صاحب إربل في سنة أربع وستين وخمسمائة وفيما بعدها وبعضاً عمرها إقبال الشهابي المستنصر العباسى في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وعمارتهم للبرك المكتنفة بعين عرفة أيضاً واسم إقبال باق في بعض البرك التي حول جبل الرحمة ، وعمر بعضها الملك نائب السلطنة بمصر ، ثم عمر بعضها في دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر . انتهى .

وأول من اخند الحياض بعرفة ، وأحرى عليها العين عبدالله بن عامر بن كرز .
كذا في أسد الغابة ، وقد جددها السلطان سليمان وجددت بعده مراراً وهي الآن
عمار مملوقة من عين عرفة . ذكره في تحصيل المرام . انتهى من الغازي .

الآبار التي بحثت وما حورها

قال الغازي في تاريخه : الفصل الثالث في ذكر الآبار التي بحثت قال الشيخ محمد الصباغ المكي في «تحصيل المرام» : قال القرشي في «البحر العميق» : ذكر الأزرقي شيئاً من خبر آبار الجاهلية والإسلامية بحثة وحرمتها ، وليس يعرف الآن مما ذكره إلا النادر وجملة ما احتوى عليه سور مكة من الآبار ثمانية وخمسون بئراً ، ومن الآبار المعروفة التي ذكرها الأزرقي البتر التي برباط السدرة حفرها هاشم بن عبد مناف وقيل قصي .

قلت : رباط السدرة كان من باب السلام إلى باب النبي ، ثم قال القرشي :
وكان هذه البتر شارعة على المسعي .

ومنها بتر بالمدرسة الأفضلية ، وبتر بالميضاة الصرغتمشية وبرباط الخليفة وبرباط الفعلية والمدرسة المنصورية عند باب الحزورة ، حفرها المهدى وفي دار الملاعبة ومدرسة المجاهدية وبرباط كلالة بالمسعي وبالمطهرة الناصرية ، عند باب بني شيبة وبمطهرة الأشرف شعبان بالمسعي ومنها عند حمام سوق الليل ، لعلها بتر عبد شمس وبقربها بتر لأبي مغامس وعندها مسجد وبقرب ذلك أيضاً بتر ، وبتران بالمعلا بشعب عامر أحدهما في بستان هذا الشعب والأخر بقم الشعب ، وبتر في البستان الذي عند باب المعلا ، وبتر أم الفاغية عند سبيل ابن ظهيرة ، وبتر عند

مسجد الراية وهي بئر جبير بن مطعم . انتهى من شفاء الغرام للفاسي . ثم قال الفاسي : وبأجياد عدة آبار ثم سردها ، ثم من جملة الآبار التي بأسفل مكة ، بئر يقال لها : بئر النبي والناس يستشفون بماء هذا البئر . قال الفاسي : ولعلها البئر السنبلاة بئر خلف بن وهب الجمحي الذي ذكرها الأزرقي ، وقال : إن النبي ﷺ بصق فيها وإن ماءها حيد يشفى من الصداع .

ومنها بيسيل وادي إبراهيم بئر عند باب إبراهيم ، وبئر برباط الموفق ، وبئر في وسط السوق ، يقال : إنها من عمارة عبد الله بن الزبير ، وبئر آخر بالسوق يقع بين باب الملاع ومنى ، فستة عشر بئراً فمنها قرب باب الملاع لأم سليمان عند ترتيبها وتنسب أيضاً للملك المسعودي صاحب مكة وبئر الطواشي عند طرف المقبرة من أعلىها وبئر بالستان الذي أنشأه القائد سعد الدين ، وبئر في البستان الذي أمامه جهة منى ، وبئر بين هذين البستانين إلى جهة شعب البياضية ، وبالعايدة بئر آدم عليه السلام ، علي بن الناھب إلى منى وليس على حادة الطريق ، وبئر يقال لها البياضية ، وبئر المعروف بئر ميمون بن الحضرمي وهي التي الآن بالسيل المعروف بسيل الست ، بطريق منى ، قال الأزرقي : وكانت آخر بئر حفرتها الجاهلية قال : وعن مجاهد في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَأْتِكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ قالوا : زمم وبئر ميمون ابن الحضرمي .

ومنها البئر المعروفة بصلائل ، قال الأزرقي : وهي البئر التي بضم شعب البعثة عند العقبة أي عقبة منى ، والناس يسمون هذه البئر بئر مشهر ، ويسمونها بصلائل وهي قريبة من العقبة . وذكر الأزرقي أنها من الآبار الإسلامية وسميت بصلائل بن أوس بن محسن . رواه الفاكهي .

قال الفاسي : وأما الآبار التي بعثة فهي خمسة عشر ، وقال الأزرقي : وأما الآبار التي بالمردفة ثلاثة ، وأما الآبار التي بعرفة فهي آبار كثيرة ، قال القرشى والتي فيها الماء الآن ثلاثة ، وأما الآبار ، التي بظاهر مكة من أعلىها فيما بين بئر ميمون الحضرمي والأعلام ، التي هي حد الحرم ، في طريق وادي نخلة ، فهي خمسة عشر بئراً .

وأما الآبار التي بأسفل مكة من جهة التعميم فهي ثلاثة وعشرون بئراً بمادة الطريق ، منها : بئر الملك المنصور صاحب اليمن عند سبيله تعرف بالزكية ، ومنها الآبار المعروفة بآبار الراهن الكبير ، وبعض هذه الآبار من عمارة المقتدر العباسي ،

وبقرب الشبيكة آبار آخر في الراهن الصغير ، وهي ثلاثة آبار ، وبقرب هذه الآبار بئر يحيط ذي طوى ، على ما ذكره الأزرقي في تعريف ذي طوى . انتهى . وقد عمر هذا البئر في سنة ألف ومائة وواحد .

قال السنجاري في «منائع الكرم» : وفي سنة (١١٠١) أمر الصنحقي محمد ييك بناء بئر طوى ، فبني عليه طاحن بقبة صغيرة ، وبني إلى جانبها مسقفاً للبواه ومطاهير ومسجدًا ، وجعل هناك صفة منته ، وعين لها معلوماً وجراية للخادم المقيم بها لجلبه الماء جزاه الله خيراً . انتهى .

وبأسفل مكة أيضاً بئر يقال لها : الطنباوي ، وبأسفل مكة مما يلي بباب الماجن عدة آبار ذكر هذا القرشي . انتهى ما في تحصيل المرام .

وذكر العلامة السيد الزواوي في بغية الراغبين أن الآبار التي بنفس مكة المكرمة داخل البلدة الظاهرة أي الموجودة الآن تزيد على خمسين بئراً والتي منها حوالي المسجد الحرام سبعة آبار : واحدة عند باب السلام الكبير ، وواحدة عند باب السلام الصغير ، وواحدة عند باب القطي ، وواحدة في المحكمة الشرعية ، وواحدة عند باب الدرية ، وواحدة في زاوية السمان ، وواحدة عند باب الزيادة ، بقرب دكان الفزار ، ادخلوه في وقف عبدالشكور ، ودفنوها ، وصارت دكاناً يوجر ، وفي حارة جرول ستة آبار : واحد أمام مسجد جرول ، وواحد ذو قبة وهي بئر طوى الشهيرة المأثورة ، وواحدة عند الإنشاءات ، وواحدة بئر الهندي ، وبئر العتبة ، وبئر عند بيت الجنيد ، الذي يجرول . وفي حارة الباب ثلاثة آبار : واحد عند مسجد سيدنا خالد ، رضي الله عنه الشهير بمسجد الراية ، وواحد عند بيت قمرى ، وبئر في الخندريسة ، وبحارة الشبيكة خمسة آبار : بئر المظعون ، وبئر عند القبور ، وبئر عند باب الداودية ، وبئر بحوش الآغاوات بسوق الصغير ، وبئر في المحلة عند الحلقة ، وبحارة الشامية عند المدرسة السليمانية . أقول : وبحارة الشامية قريب البازان عند الفرن بئر وماه بغاية الملوحة ، وبحارة المسفلة عشرة آبار : بئر في حوش ناظرين ، وبئر في بيت بكري أح مدوه ، وبئر في زاوية سيدنا أبي بكر الصديق ، وبئر عند بيت أبي خطمة ، وبئر بحوش الغزة ، وبئر في حوش المداح ، وبئر عند باب السيد كوشك ، وبئر وراء بيت السيد كوشك ، وبئر في زاوية المغاربة ، ويقال له : رباط سيدنا عثمان ، رضي الله عنه ، وبئر عند بركة ماجن ، وبحارة أحياط سبعة آبار : بئر تسمى بئر الحمام ، وبئر في المصافي ، وبئر عند بازان

أجياد ، وبئر في فرن الميري ، وبئر الغسالة ، وبئر بليلة ، وبئر الطججية . وبحارة القشاشية أربعة آبار : بئر في زقاق الحجر ، وبئر في زقاق حرم ، وبئر عند بيت البو ، وبئر في زقاق بحرة ، وبحارة الغزة ثلاثة آبار : بئر في سوق الليل ، وبئر خلف بيت الإمارة الجليلة ، وبئر قدام بيت الملاوي ، وبحارة شعب عامر بقرين : بئر غيلما ، وبئر بالبرحة ، وبحارة السليمانية ثلاثة آبار : بئر عند المسجد ، وبئر عند بركة الشامي ، وبئر في الشرشورة ، وذلك خلاف الآبار الموجودة خارج البلدة ، وهي كثيرة . انتهى من الغازي .

ثم قال الغازي : وفي العدد (١٣٠) من جريدة «أم القرى» التي تصدر بمكة، ذكر بعض آبار مكة نقلها هنا بنصه وهو :

عدد	(الآبار التي على يمين الصاعد إلى عرفات)
١	بئر غيلمة ، عن يمين الصاعد إلى عرفات أمام المعلا .
١	بئر العواحي ، الكائنة بالبستان عند حوض أبي طالب .
٢	بئران بداخل البياضية ، أحدهما عن يمين الداخل إلى الديوان ، والآخر في المقابل .
٣	ثلاثة آبار فرع البياضية ، أحدهم بواجهة البستان عن يمين الصاعد ، والثاني في مقابلة ، والثالث في واجهة البستان .
١	بئر عند المهدلي ، وله درج ينزل عليها إلى الماء وهي متعدة جداً .
الآبار التي في داخل منى	
١	بئر عند حمرة العقبة ، معدة لسقيا العموم .
١	بئر بداخل شعبة حرب ، وهي غزيرة المياه .
١	بئر عند بحر الكبش عليها مزرعة .
١	بئر في بستان حامد الفرشي .
١	بئر في وسط سوق العرب على يمين الصاعد وهي كثيرة الاستعمال للحجاج .
(الآبار التي على يسار الصاعد إلى عرفات)	
١	بئر الشرشورة وهي ملاصقة للمعلا .
١	بئر في الجعفرية في داخل الحوش .
٢	بئران في بستان الجبرتي .

بتر في الشيبة .	١
بتران في بستان بنونة منها سقيا البستان .	١
الغسالة متسعة مشهورة بهذا الاسم .	١
الزبيدية بجوار بتر الغسالة .	١
الجرفانية وهي من بلاد الشيخ يوسف قطان .	١
بتر عند الحامل بطريق منى .	١
بتر مقابل المهدلي وهي بدرج متسعة .	١
بتر عند مسجد العشرة في زوايا الجبل .	١
(آبار على يسار الصاعد إلى مزدلفة)	
بتر خلف الصهريج العمومي عند البستان .	١
بتر خلف السيل المصري في شعبة حرب .	١
بتر مقابل الخراية مقابل محطة المصري .	١
بتران بشعبية المعتصم بالقرب من وادي محسر آخر منى .	٢
(آبار مزدلفة)	
أربعة آبار خلف بازان عين زبيدة مقابل المشعر الحرام .	٤
بتر أمام دكاكين الحلوانية ولها بتر ظاهرة .	١
بتر عرفات تحت جبل الرحمة عند بركة المصري مشهورة .	١

انتهى من الغازي .

العيون التي بأطراف مكة

ويختتم الغازي في تاريخه كلامه عن عين زبيدة وحنين بذكر العيون التي بجهات مكة ، شرفها الله تعالى ، فيقول : وفي الأرج المسكي والتاريخ المكي للعلامة علي بن عبد القادر الطبراني ، وفي زماننا بجهات مكة عيون كثيرة بنيت من قرب ، فمنها بالقرب من عين عرفات : عين الحمدية ، وعين العابدية ، وعين اليونسية (فالأولى) منها منسوبة لمولانا السيد محمد بن عبد المطلب بن حسن (والثانية) منسوبة لمولانا السيد فضل بن مسعود (والثالثة) منسوبة إلى القائد أحمد بن يونس وزير مكة المشرفة .

ومنها عين الأحمدية ، وببرود ، وهما بالقرب من الجعرانة (الأولى منها) منسوبة لمولانا السيد أحمد بن عبد اللطيف (والثانية) تنسوب لمولانا السيد فضل بن مسعود .

ومنها الحسينية ، وهي مما يحاذى آخر مكة ، وهي منسوبة لمولانا السيد حسين بن حسن .

وفي حدود الثلاثين بعد الألف ظهرت عين مقابل بستان القاضي حسين المالكي بأرض العابدة ، فأصلحها القائد ريحان بن سالم ، وزير مكة وحاكمها ، وكان ماؤها تغلب عليه الملوحة ، واستمرت مدة ، ويقال إنها لحقت بعين عرفة وحنين . انتهى .

وفي الرحلة اليمانية : وبوادي نعمان عين اسمها «سمار» للأشراف ، وعين اسمها «الشرايع» شرقي مكة ، وفي وادي نعمان أيضاً من جهة جنوب بمكة عينان ، إحداهما الحسينية والثانية العابدية للأشراف ، وعينان بوادي ملكان للأشراف أيضاً . انتهى من الرحلة .

نقول : إن كل ما تقدم من أول مبحث عين زبيدة وغيرها إلى هنا ، نقلناه من تاريخ الغازي رحمه الله تعالى ، الذي لم يطبع إلى الآن ، وقد نقلناه بترتيب كتابه حرفاً حرفاً بدون تصرف فيه ، ما عدا عنوانين للمباحث ، فقد وضعناها من عندنا لسهولة المطالعة والفهم ، وقد آثرنا نقل هذا المبحث القيم من تاريخ الغازي دون غيره ، لأن تاريخه لأن تاريخه حاوياً في جميع التواريخ في غالب المباحث والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمأب .

الخلاصة المفيدة عن عين زبيدة

لقد أتينا فيما تقدم بالتفصيلات التامة الوافية عن عين زبيدة ، حتى لم يبق موضوع للمزيد من الكلام . بقى علينا أن نذكر هنا خلاصة وافية وزبيدة نافعة كافية مما تقدم ، بحيث يسهل على القارئ الكريم فهم تاريخ عين زبيدة ، وبحيث يمكن له أن يتخيّل ويتصور كيفية مجرى هذه العين المباركة ، من منبعها إلى أن تصل مكة ، شرفها الله تعالى وغفر لزبيدة ورحمها رحمة الأبرار ، وأسكنها فردوس جنته ، وسقاها من حوض النبي ﷺ ، ونحن معها إن شاء الله تعالى بمحض فضله ورحمته جل جلاله ولا إله غيره . فنقول وبالله التوفيق :

اعلم : أن عين زبيدة تطلق على عينين : (الأولى) عين نعمان وهي على يمين عرفات بينهما نحو ... كيلو متر تقريباً ، وبعدهم يسمىها «عين عرفات» لأنها تأتي من طريقها فنسبت إليها ، فعين نعمان تتبع من ذيل جبل «كرا» بفتح للكاف والراء المهملة ، في متنه وادي نعمان فتصب في قنة إلى موضع يقال له «الأوخر» من وادي نعمان (والثانية) عين حنين وهي على يسار عرفات إلى جهة الطائف ، أي إلى ما فوق الشرائع بنحو ... كيلو متر تقريباً . وكانت عين حنين أول ما أجرتها زبيدة رحمها الله تعالى ، فلما وصلت إلى مكة قامت بإجراء عين نعمان بعرفات . وعين حنين تتبع من جبل عال يقال له «طاد» بقرب الشرائع جهة الطائف .

وهاتان العينان النضاختان أتت بهما زبيدة رحمها الله تعالى وجزاها عن الإسلام وال المسلمين خير الجزاء إلى مكة المكرمة من منابعها الأصلية ، في سنة (١٧٤) أربع وسبعين ومائة من الهجرة ، وزبيدة هي بنت جعفر ابن المنصور زوجة هارون الرشيد واسمها أمة العزيز وستي ترجمتها . ولا يعرف أحد مقدار التعب والصعوبات التي تكبدها في سبيل إيصال الماء إلى «مكة» بلد الله الأمين ، ولا المصارييف والنفقات العظيمة التي لا تحصر إلا من ذهب بنفسه إلى وادي نعمان ، ووصل إلى موضع حنين ، وعاين ارتفاعات الأرض وانخفاضها ورأى الجبال والصخور التي أجرروا الماء من بينها ، وعملوا في حفرها وتكسيرها بالأدوات اليدوية من غير أن تكون لديهم آلات ميكانيكية ، وأدوات حديثة فنية ، ومفرقعات ودناميات مما كانوا يعتمدون إلا على الله تعالى وإلى قوة إيمانهم وإخلاصهم وتقواهم ، « وإنما الأعمال بالنيات » وقد قال الأقدمون في أمثالهم : « همة الرجال تقلع الجبال » . ولشعراء العرب بعض أقوال في واد نعمان كقولهم :

أيا جبلي نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلى نسميتها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت على كبد حراً تحملت همومها

ولذكر من أعمالهم الجبارات العظيمة الخالدة شيئاً على سبيل المثال لا الحصر ، ليتصور القارئ الكريم الصعوبات التي لاقوها حتى وصل الماء إلى مكة المشرفة : (الشيء الأول) بئر زبيدة ، ويسمىها العام بـ «حبس الجن» لكون النزول إليها مخوف لعمقها والتاريخ التي فيها وهذه البئر واقعة على يمين الذاهب من مكة إلى

منى من جهة خط الإسفلت الذي خلف منى بينها وبين الجبل الغربي الذي عندها أقل من خمسين متراً.

وعمق هذه البئر من وجه الأرض إلى الماء ثلاثة وعشرون متراً، أي يقرب من خمسين ذراعاً، وينزل إليها بدرج طويل عددها ثلات وسبعون درجة.

فزيادة رحمة الله تعالى قد أوصلت عين نعمان من فوق عرفات إلى هذه البئر أي إلى قرب مكة فكان الناس يستقون من هذه البئر.

أما عين حنين فقد أوصلتها زبيدة إلى داخل مكة فكانت حاربة بوسطها دائمًا.

والسبب الذي أوقت زبيدة عين نعمان إلى هذه البئر التي وراء منى بقرب مكة هو تغدر وصوتها إلى نفس البلدة بسبب أن الماء يجري تحت الأرض بعمق ثلاثة وعشرين متراً، أي نحو خمسين ذراعاً والأرض كلها صخرية جبلية يتغدر حفرها فاكتفت بإيصال عين نعمان إلى هذا المكان مع جريان عين حنين إلى داخل مكة.

ثم لما قل جريان عين نعمان ويست العيون والآبار وحصلت شدة بمحنة بسبب الماء، عرض ذلك على خليفة المسلمين السلطان سليمان خان، فسمعت بهذا الخبر ابنته المسماة «فاطمة خاتم سلطان» فالتمس من أبيها السلطان سليمان المذكور أن يأذن لها في إيصال الماء من بئر زبيدة التي بأعلى مكة خلف منى على نفقتها الخاصة اقتداء بزبيدة رحمة الله تعالى فأذن لها بالقيام بهذا العمل الخيري الجليل باسمها الخاص ونفقتها الخاصة فأسندت أمر القيام بهذه الخدمة إلى أشهر الرجال البارزين من الأمراء فقدموا إلى مكة شرفها الله تعالى بالمال والرجال والأدوات وأحضاروا المهندسين والبنائين والحرفيين والخادمين والمحاربين والقطاعين والعمال من الآستانة ومصر والشام وحلب واليمن وغيرها، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة (٩٦٩) تسعمائة وتسعمائة وستين من الهجرة.

فأول ما عملوه تنظيف الآبار وإخراج الأتربة منها وحفرها ليكثر ماؤها، وكذلك تنظيف دبoli ومجاري عين نعمان من فوق عرفات إلى أن وصلوا بئر زبيدة التي خلف منى.

ثم رأوا أن إيصال الماء، من هذه البئر إلى بحري عين حنين عند بستان بنونة الواقع بالشيبة يحتاج إلى حفر أفعى ذراع بذراع البناء أي إلى حفر كيلو متر واحد تقربياً وهذا عمل ليس بالهين لأنه يحتاج أن ينزلوا في حفر الأرض إلى عمق خمسين ذراعاً والحفر لا يمكن إلا في الجبال الصلب الصخرية القوية جداً فأرادوا أن يتراجعوا ويصرفوا النظر عن إيصال الماء إلى مكة من بئر زبيدة لولا أنهم رأوا أن تركهم العمل لا يليق باسم السلطان خليفة المسلمين.

فشرمو عن ساعد الجد ، وتوكلوا على الله بخلوص النية ، وقاموا بهذا العمل الجبار فكانوا يخرون وجه الأرض إلى أن يصلوا إلى الحجر الصوان والصخر الصلد ثم يوقدون عليه النار بالحطب بمقدار مائة حمل منه ليلة كاملة ، ثم يكسرن الصخور والحجارة العظام بالحديد ولكن لا ينكسر منه إلا القليل بسبب أن قوة النار تكون من فوق لا من تحت وهكذا كانوا يكسرن الجبال والصخور والحجر الصوان إلى أن وصلوا بالماء إلى بئر القاضي المسمى بيازان القاضي .

وهذا البازان هو (الشيء الثاني) الذي نذكره على سبيل المثال كما قلنا فيما تقدم . وهذا البازان المسمى بيازان القاضي هو يشبه تقربياً بئر زبيدة المسمى بـ «حبس الجن» المتقدم ذكرها والظاهر والله تعالى أعلم أن قاضي مكة شيخ الإسلام القاضي السيد حسين الحسيني ناظر المسجد الحرام ، الذي صدر الأمر السلطاني بأن يكون ناظراً ومشرفاً على مشروع إيصال الماء ، لما قام بإكمال عمل إيصال الماء إلى مكة بعد موت رئيس مدير العمل الأصلي الذي كان يده تنفيذ المشروع والعمل نسب إليه هذا البازان فقيل له : «بازان القاضي» .

وهذا البازان واقع عند قهوة الشستة «بشينين معجمتين مشددتين بعدهما تاء مربوطة» وهو واقع على يسار الساعد إلى من قبل بئر زبيدة فإذا استقبل الإنسان من البازان جهة عرفات أي الشرق كان جبل حراء على شماليه وجبل الصدر في الشرق وبين البازان وجبل حراء نحو كيلو متر واحد ونصف كيلو متر وبينه وبين الجبل الذي أمامه في جهة الشرق نحو مائتي متر .

وعمق هذا البازان من وجه الأرض إلى الماء كعمق بئر زبيدة التي تقدم الكلام عليها أي نحو ثلاثة وعشرين متراً أي ما يقرب من خمسين ذراعاً ، وينزل إليه بدرج طويل عددها ثلاث وبسبعين درجة أي أن عدد درجاته كعدد درجات بئر زبيدة أيضاً وبين هذه البئر وبين بازان القاضي المذكور كيلو متر واحد أو أقل .

ثم أوصلوا الماء من هذا البازان إلى أعلى مكة أي إلى جهة بستان بنونة المذكور ، وهنا التقى هذا الماء الوارد من عين نعمان من عرفات بالماء الوارد من عين حنين فصارا يجريان معاً من مكان بستان بنونة في قناة واحدة وجري واحد حتى يدخلان إلى بطن مكة المشرفة أكثر الله خيرها وبركاتها .

فكان وصول الماء إلى مكة من بئر زبيدة في أواخر ذي القعده سنة (٩٧٩) تسع وسبعين وتسعماه هجرية ، أي أن هذا العمل الجبار وشق الجبال والصخور والأحجار دام عشر سنوات تماماً وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً وعيداً عظيماً وقد عمل قاضي القضاة السيد حسين الحسيني المذكور احتفالاً كبيراً ووليمة عظيمة في بستانه في الأبطح دعا فيه خلقاً كثيراً من العلماء والأعيان والأكابر وغيرهم وذبح من الغنم والإبل والشياه عدداً وفيراً وتصدق كثيراً على الفقراء والمساكين .

ثم أرسل البشائر العظمى إلى السلطان وإلى «فاطمة خاتون سلطان» فأنعمت عليه وعلى غيره الإنعامات الوفرة وعملت خيرات وصدقات كثيرة شكرأ على ما أنعم الله تعالى عليها ، من إيصال هذه العين إلى البلدة الطاهرة «مكة» على نفقتها الخاصة .

قال العلامة القطبي في تاريخه عن مكة ، وكان رحمه الله تعالى حاضراً وقت عمل إيصال الماء : إن الأمير إبراهيم الذي كان قائماً بأمر العين ، صرف مقدار خمسمائة ألف دينار ذهباً تقريراً حتى حفر وقطع ألف ذراع . اهـ .

فعليه تكون النفقات التي صرفت في إيصال الماء من بئر زبيدة إلى أن وصل إلى بستان بنونة أي إلى أن اتصل ماء نعمان ماء حنين نحو واحد مليون دينار ذهباً وليس ذلك بقليل .

كما أن شق الجبال والصخور القوية وحفر الأرض إلى عمق خمسين ذراعاً لمسافة أكثر من كيلو واحدة ليس من السهولة واليسر في زمن ليس فيه أدوات كهربائية ولا آلات ميكانيكية ، بل كان تكسير الجبال والصخور بطريقة بدائية ، بإيقاد الحطب ليلاً ونهاراً حتى لقد ذكر الإمام القطبي في تاريخ مكة أنهم ثابروا على إيقاد الحطب على الجبال والصخور لشق طريق للماء إلى أن فرغ الحطب من جبال مكة فصار يجلب من المسافات البعيدة وغلا سعره وضاق الناس بذلك . اهـ . وقد قدمنا تفصيل كل ذلك في أوائل البحث فراجعه إن شئت .

فانظر رحمك الله إلى قوة إيمانهم ويقينهم وعلى إخلاصهم في إتقان العمل وإلى حبهم العظيم في خدمة بلد الله الأمين مكة المشرفة والعمل على راحة أهلها وحجاجها وبذلك خلد الله أسماعهم ويترحم عليهم العباد ودام ثوابهم بهذه الصدقة الجارية فلا ينقطع إلى يوم المعاد فرحمهم الله تعالى رحمة واسعة وجراهم عن المسلمين خير الجزاء فلا نعمة تعدل وجود الماء ولا يعرف نعمة ذلك إلا من فقد الماء ، لهذا قال الله عز شأنه في آخر سورة الملك : ﴿فَلَمَّا أَرَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَا ذُكِرَ كَمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ .

نعم يأتينا به الله تعالى بفضله ورحمته وبه واحسانه إنه بعباده لطيف خبير .

واعلم : أن عين نعمان وعين حنين ، تجري كل واحدة منها على حدة في القنوات من منبعهما حتى تصلا إلى أعلى مكة فوق محلة المعابدة أي إلى بستان بنونة «بضم النون الأولى وتشديدها» المسمى قديماً بستان القاضي ، وهو المعروف الآن «بالشيشية» الذي فيه قصر سمو ولي العهد المعظم الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود فإذا وصلتا إلى أعلى مكة في محل المذكور اجتمعتا في جري واحد ودخلتا معاً إلى نفس البلدة ثم توزعان بواسطة القنوات المبنية والمواسير الرصاصية أو الحديدية في أطراف البلدة ليصل الماء إلى كل محلة وحارة وهذه المواسير الرصاصية لم تستعمل في مكة إلا في العهد السعودي فقط ، أي في سنة (١٣٧٠) سبعين وثلاثمائة وألف هجرية تقريباً .

ولعين حنين فروع كثيرة تمدها بالماء كالزعفران والبرود والثقبة وغيرها كما سيأتي بيانها أما عين نعمان فليس لها فروع .

وهنا يجب علينا أن «نعطي القوس باريها» فترك المجال لصديقنا العزيز الأستاذ محمد نور قمر علي ، رئيس قسم توزيع المياه بمكة المشرفة ليتكلم بقلمه عن خلاصة عين زبيدة لأنه الرجل الوحيد الذي يعلم مسالك ومجاري العين في داخل البلدة وخارجها حق العلم ويعرفها حق المعرفة قال أمد الله تعالى في حياته :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضره الفاضل الأستاذ الشيخ طاهر كردي الخطاط الموقر .

بعد التحية والاحترام لقد طلب مني فضيلتكم أن أكتب لكم تعريفاً مختصرأً حول عين زبيدة فعليه أفيدكم حسب اطلاقي في بعض النسخ من توارييخ مكة

المكرمة ومن استمراري في عمل توزيع مياه عين زبيدة لمدة سبعة وعشرين عاماً متواصلأً أقول : في أوائل دولة بنى العباس بلغت زبيدة ، زوجة الرشيد عن خراب عيون مكة المكرمة فاستأذنت الرشيد وأمرت بإجراء عين حنين إلى مكة ومنبع هذا العين ذيل جبل طاد في طريق الطائف يجري ماؤه إلى أرض حنين التي وقع فيها القتال بين النبي ﷺ وبينبني هوازن وهو بقرب وادي يدعان من أودية عرفة فاشترطت زبيدة حائط حنين وأبطلت المزارع والنخيل الموجودة بها وبنت القنوات وشققت الجبال وجعلت لها الشحاحيد في كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند هطول الأمطار وجعلت له القنوات متصلة إلى مجرى عين حنين ليحصل منها المدد للعين وصار بعد هذا التعمير كل شحاذ منها عيناً لها اسم خاص كعين (مشاش) وعين (ميمونة) وعين (الزعفران) وعين (البرود) وعين (الصرف) وعين (ثقبة) وعين (الخريات) وسميت هذه العيون كلها عين حنين التي أوردتها السيدة زبيدة إلى مكة المكرمة وهي عين زبيدة الأصلية لمكة ثم أمرت بعد إيصال عين حنين إلى مكة بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة ومنبع هذه العين بذيل جبل كرا وينصب من ذيل جبل كرا في قناة له إلى الأوخر من وادي نعمان فعملت منها القنوات إلى عرفات وأدبرت القنوات بجبل الرحمة محل الموقف الشريف وجعلت منها المجاري إلى البرك التي بأرض عرفات ، ثم توجه عمل القنوات من عرفة إلى مكة من الطريق الخلفي لنبي إلى بئر زبيدة المعروفة عند أهل مكة بجس الجن وإلى هذا الموقع يتنهى عمل السيدة زبيدة لعين نعمان ؛ حيث لم تتمكن من إيصال عين نعمان بعين حنين لصلاية الحجر وصعوبة إمكان قطعه لطول مسافته التي يبلغ ألفي ذراع من الذراع العماري وعرضه خمسة أذرع وعمقه حسین ذراعاً حتى يصل إلى منسوب ماء عين نعمان ولهذا تركت العمل إلى بئرها المشهور بئر زبيدة وبقيت كذلك عين نعمان لعرفة ومدخلة ومنى ، وعين حنين لمكة ، وفي أوائل عام ٩٤٩ هجري اجتمع القاضي عبد الباقى المرحوم ، قاضي مكة يومئذ والأمير خير الدين سنجق وعرض أمر إيصال ماء عين نعمان إلى عين حنين ، إلى مسامع السلطان سليمان خان ، فسمعت فاطمة هامن كريمة السلطان المشار إليه بذلك الخير فالتمست من السلطان أن يأذن لها في ذلك العمل الخيري فأذن لها بذلك فحملت السلطانة هذا الأمر دفتر دار ديوان مصر ، الأمير إبراهيم بن تكر ، ووصل المذكور في اثنين وعشرين من شهر ذي القعدة عام ٩٦٩ واتصل بأمير مكة في ذلك الوقت الشريف حسين بن نحي كما اتصل بشيخ الإسلام مولانا القاضي

حسين الحسيني وقام ب مباشرة عمل التنظيف أولاً حسب الاستشارة، ثم بدأ في عمل قطع القطعة الباقى من بغر زبالة إلى دبل عين حنين، الواقع بستان بنونة المعروف الآن بستان سمو سيدي الأمير فيصل ولـ العهد بالشيشية وذلك في نهاية عام ٩٧٠، وكان عمله شاقاً جداً كما يبيننا بذلك نفس العمل، وقد قام بهذا العمل الجبار إلى أن توفاه الله في الثالث من شهر رجب من عام ٩٧٤ ثم تولى العمل الأمير قاسم بيك تحت إشراف قاضي القضاة حسين الحسيني المذكور واستمر في مباشرة العمل إلى أن توفاه الله في أول رجب من عام ٩٧٩ ثم تولى مباشرة العمل مولانا شيخ الإسلام القاضي حسين الحسيني، وأتم عملها في عشرين من ذي القعدة من عام ٩٧٩، ووصل ماء عين نعمان للسيدة زبالة إلى مجرى ماء عين حنين التي هي عين مكة الأصلية للسيدة زبالة رحمها الله وأسكنها الفردوس الأعلى إنه بمحب الدعاء، وأما من أمر ماء عين حنين قد توقف ماوتها من زمن بعيد بسبب السيول التي دمرتها وسدت بماريها، وكان آخر إصلاح جرى فيه عام ١٣٢٨، والآن لا يصلنا من ماء عين حنين أو فروعها شيء سوى جزء يسير من أحد فروعه، وهي الزغفرانة وأحيط فضيلكم أن معالم هذه الجماري موجودة كلها، وبالبعض منها استغلتها الأيدي الجبارية التي لا تخشى الله، هنا مع تقديم عجزي وقصوري لكترة أعمالى التي لا يخفاكم فأرجو المغفرة إذا لم يوفى غرضكم المنشود والله يحفظكم سيدى .

١٢٧٧/٥/٢٤ حرفی

رئيس قسم توزيع المياه. بحث

محمد نور قمر علی

انتهى ما كتبه الشيخ محمد نور قمر على سلمه الله تعالى آمين .

(واعلم) أن بعض الناس يظن أن عين زبيدة بمحكمة آتية من بغداد، عن طريق
الله لكنك لست الأئم كذلك فهذا بعد الاحتمال جداً.

والذي جعلهم يظنون هذا القلن هو أن زبيدة زوج هارون الرشيد رحمها الله تعالى قد بنت في طريق الحجج في زمنها من بغداد إلى مكة كثيراً من البرك والآبار

والمصانع والمنازل ، تملأ كل هذا من ماء المطر وغيره للحجاج ، وأهل تلك الأماكن لهذا يقولون أن زبيدة أنت بالماء من بغداد إلى مكة .

فهنيئاً لزبيدة هذه الصدقات الجارية من وقتها إلى ما شاء الله أحسن الله إليها وأسكنها فسيح جناته بفضله ورحمته .

عن حجتها زبيدة

هي أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور وهي زوجة هارون الرشيد وابنة عمّه ، وأم الأئمّة محمد بن هارون الرشيد ، وفي ابن خلkan : قال الطيري في تاريخه : أُعرس بها هارون الرشيد في سنة خمس وستين ومائة وكانت وفاتها سنة ست عشرة ومائتين في جمادى الأولى ببغداد رحمها الله تعالى وتوفي أبوها جعفر بن المنصور في سنة ست وثمانين ومائة رحمه الله تعالى انتهى من ابن خلkan

وزبيدة هي صاحبة عين الماء بمكة الشهيرة باسمها «عين زبيدة» وهي التي أمرت بمحفر الآبار وعمل البرك والصهاريج العظيمة في طريق الحج من بغداد إلى مكة المشرفة .

وقد ذكرنا الكلام على عين زبيدة تلك العين التي خلدت ذكرها إلى اليوم وصار الناس يترحمنون عليها ما شرب الماء شارب بمكة .

جاء في تاريخ القطبي عنها ما ملخصه : زبيدة اسمها «أمة العزيز» كان جدها المنصور يرقصها وهي طولية ويقول : «أنت زبيدة» فاشتهرت بها ، وكانت من أهل الخير ولها مآثر عظيمة إلى الآن ، منها : إجراء عين حنين إلى مكة المشرفة ، وأصرفت عليها خزائن الأموال إلى أن جرت إلى مكة المشرفة ، وهي وادٌ قليل الأمطار بين جبال سود عاليات خاليات من المياه والنبات وصفها الله تعالى بأنها وادٌ غير ذي زرع فنقبت «أم جعفر زبيدة» الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحال إلى أرض الحرم ، وأنفقت على عملها ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب .

فلمات عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها وأخرجوا دفترهم لإخراج حساب ما أصرفوه من عهدة ما تسلموه من خزائن الأموال ، وكانت في قصر عال مطل على الدجلة فأخذت الدفاتر ورمتها في بحر الفرات وقالت : تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شيء من بقية المال فهو له ، ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه ثم ألبستهم الخلع والتشاريف فخرجوا من عندها حامدين شاكرين ويفي لها هذا الأثر العظيم في العاملين رحمها الله تعالى وأسكنها الفردوس في أعلى علين . انتهى .

ولقد ذكرنا عن عين زبيدة فصلاً خاصاً فيما تقدم ولا نريد هنا إعادة الكلام .

والحقيقة أن عملها هذا كان عظيماً جباراً ، يذكره الناس لها إلى ما شاء الله ، وما تعاقب الحجيج إلى بلد الله الأمين عاماً بعد عام وكثير من الناس يعتقد أن عين زبيدة مكة متصل ببغداد بالفرات ، ولكن لا صحة لذلك مطلقاً بل وغير معقول ذلك ، وإنما جاء هذا الوهم مما عملت أيضاً في طريق الحج من بغداد إلى مكة من الآبار والصهاريج والبرك ، فكانوا يقولون : إن زبيدة أوصلت الماء من بغداد إلى مكة ومن هنا جاء الوهم فظن بعضهم أن الماء وصلت في قنوات وبخاري تحت الأرض من بغداد إلى مكة . والحقيقة هي كما ذكرنا .

جاء في تاريخ ابن خلكان ما نصه : قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في « كتاب الألقاب » : أنها « أي زبيدة » سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرواية عندهم بدينار ، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بمحطة الجبال وتحت الصخر حتى غلغلته من الخل إلى الحرم ، وعملت عقبة البستان ، فقال لها وكيلها : تلزمك نفقة كبيرة . فقالت : اعملها ، ولو كانت ضربة فأس بدينار وإن كان لها مائة حارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن ، وإن اسمها أمة العزيز ، ولقبها جدها أبو جعفر المنصور « زبيدة » لبضاضتها ونضارتها ، انتهى منه .

قال ابن كثير في تاريخه : كان لزبيدة من الجمال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شيء كثير ، وروى الخطيب أنها حجت بلغت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف درهم . توفيت زبيدة ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشر ومائتين .

ثم روى البغدادي عن عبد الله بن المبارك ، أنه قال : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقالت : غفر لي في أول معمول ضرب في طريق مكة . قلت : فما هذه الصفة ؟ قالت : دفن بين ظهرينا رجل يقال له بشر المريسي ، زرفت عليه جهنم زفراً فاقشعر لها جسدي ، فهذه الصفة من تلك الزفرا .

وورد أنها رؤيت في المنام ، فسئلتها عما كانت تصنعه من المعروف والصلوات ، وما عملته في طريق الحج ، قالت : ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله ، وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعها في المسجد . انتهى من تاريخ ابن كثير رحهمما الله تعالى .

ويذكر القطبي في تاريخه أن زبيدة رحمها الله تعالى بنت عمكة دارين جهة باب إبراهيم وذلك سنة (٢٠٨) ثمان وثلاثين من الهجرة .

وصف الخراساني لزبيدة رحمها الله تعالى

روى المسعودي وهو من أهل القرن الثالث الهجري ، في أواخر الجزء الثاني من تاريخه عند ذكر خلافة القاهر بالله عن العلامة بأخباربني العباس محمد بن علي العبدلي الخراساني الأخباري ، أنه قال : خلا بي القاهر فقال : أصدقني أو هذه وأشار إلي بالحربة فرأيت والله الموت عياناً بيبي وبينه ، قلت : أصدقك يا أمير المؤمنين . فقال لي : أنظر يقوها ثلاثة ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : عما أسألك عنه ولا تغيب عن شباباً ، ولا تحسن القصة ولا تسجن فيها ولا تسقط منها شيئاً ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين قال : أنت علامة بأخباربني العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس فمن دونه قلت : على أن لي الأمان يا أمير المؤمنين ، قال : ذلك لك . قلت :

أما أبو العباس السيفاح ، فكان سرياً إلى سفك الدماء واتبعه عماله في الشرق والغرب من فعله واستنروا بسيرته .. إلى آخر ما ذكره في وصف أمراء المؤمنين حتى جاء في وصف زبيدة ، فقال عنها ما يأتي :

كان أحسن الناس في أيام الرشيد فعلاً أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور لما أحده من بناء دور السبيل بمكة ، واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف إلى هذه الغاية ، وما أحده من الدور للتسهيل بالسفر الشامي وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف .

ثم قال المذكور عن زبيدة أيضاً بعد بضعة أسطر ما يأتي :

وكان من فعلها وحسن سيرتها في الجد والهزل ، ما برزت فيه على غيره ، فاما الجد والآثار الجميلة التي لم يكن في الإسلام مثلها . مثل حفرا العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لمائتها في كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر ، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة ، فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصي ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والتغور ، وإنفاقها الألوف على ذلك ، دون ما كان في وقتها من البذر وما عُمِّلَ الفاقه من المعروف والخاصب .

وأما الوجه الثاني مما تباهى به الملوك في أعمالهم وينعمون به في أيامهم ، ويصونون به دولهم ، ويدون في أفعالهم وسيرهم : فهو أنها أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجواهر ، وصنع لها الرفع من الروشى ، حتى بلغ الشوب من الروشى الذي اتخذ لها حسين ألف دينار ، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري ، يختلفون على الدواب في جهاتها ، وينهبون في حوانجها برسائلها وكتبهما ، وأول من اتخذ القباب الفضة والآبنوس والصندل ، وكلاليهما من الذهب والفضة ملبسة بالروشى ، والسمور والديساج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق ، واتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر وشمع العنبر ، وتشبه الناس فيسائر أفعالهم بأم جعفر . انتهى من الكتاب المذكور .

نـجـحةـ الـوزـيرـ الجـوـادـ الأـصـفـهـانـيـ

الوزير الجواد الأصفهاني هو : جمال الدين أبو جعفر بن علي بن أبي منصور ، وزير صاحب الموصل أتابك زنكى بن آق سنقر ، في الثلث الأول من القرن السادس للهجرة ، فلما قتل الملك المذكور استوزره سيف الدين غازي بن أتابك زنكى ، وفوض إليه الأمور وتدبير الدولة .

قال ابن حلكان : فظهر حينئذ جود الوزير المذكور ، وانبسطت يده ، ولم ينزل يعطي ويندل الأموال ، ويبلغ في الإنفاق حتى عُرف بالجواد وصار ذلك كالعلم عليه ، حتى لا يقال : إلا جمال الدين الجواد ، ثم قال : وأثر آثاراً جميلة ، وأجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم ، من مكان بعيد ، وعمل الدرج من أسفل الجبل إلى أعلىه ، وبنى سور مدينة الرسول ﷺ وما كان خرب من مسجده ، وكان يحمل

في كل سنة إلى مكة شرفها الله تعالى وإلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من الأموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة سنة كاملة .

إيصال عين العزيزية بعين زبيدة

وفي زماننا هذا قد ازداد سكان مكة المكرمة زيادة عظيمة عن ذي قبل ، بسبب كثرة الوفدين والمقيمين بها من الأقطار الإسلامية وبسبب ازدياد العمran وبناء البيوت حول مكة المشرفة على الطراز الحديث ، وهذا يقتضي إقامة الحدائق في بعض البيوت المستلزمة لتوفير المياه لها ، فرأى ملك المملكة السعودية عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، أن يمد عين زبيدة بعين أخرى ضماناً لأهل هذه البلدة المقدسة في سقياهم وسقايا حدائهم . وفي أواخر سنة (١٣٧١) ألف وثلاثمائة وإحدى وسبعين هجرية وصل الماء من عين العزيزية إلى مكة المشرفة واختلطت بعين زبيدة .

ولما كان صديقنا الفاضل الشيخ محمد نور قمر علي رئيس قسم أمراض عين زبيدة بمكة المشرفة هو أدرى بمثل هذه الأمور وخبرأً بعيادة مكة المكرمة ، فقد طلبنا منه كتابة نبذة عن هذه العين الجديدة التي وصلت إلى مكة المشرفة في السنة المذكورة ، التي تسمى عين العزيزية نسبة للملك عبدالعزيز آل سعود رحمة الله تعالى وأحسن جزاءه فكتب الشيخ محمد نور المذكور هذه النبذة الآتية عن العين العزيزية . وإليك نص كتابته حيث يقول حفظه الله تعالى :

عين العزيزية بمكة

في المبحث التقادم تكلمنا عن عين زبيدة بما فيه الكفاية ، والآن نريد أن تحدث عن عين العزيزية فنقول وبالله تعالى التوفيق :

إن ازدياد السكان بمكة المشرفة وكثرة المهاجرين عليها من كافة الأقطار ، وورود الألوف المؤلفة من حجاج بيت الله الحرام في موسم حج كل عام ، جعل مكة المطهرة تشعر بنقص في الماء خصوصاً في وقت الحج .

فبعد ذلك أحس جلاله الملك المرحوم عبدالعزيز آل سعود بحاجة البلدة الطاهرة إلى عين جديدة تساعد عين زبيدة في مد مكة بما تحتاجه من المياه العذبة الصافية ، وتساعد أيضاً في ازدهار حركة العمران فيها . ففي أوائل عام (١٣٧٠)

هجرية أصدر أمره الكريم بالبحث عن عين قريبة من مكة المكرمة ، تكون مياهها حلوة صافية فوقن الله تعالى رجاله المخلصين إلى شراء عين تسمى : العين الجديدة ، وتقع في الجانب الشمالي من مسيل السيل المنحدر من وادي النخلة الشامية ، والذي يمر من وادي المصيق إليها وهي تبعد عن مكة المكرمة بمسافة ستة وأربعين كيلو متراً .

ولم يمض شيء من الوقت حتى صدر أمر جلالته المطاع إلى معالي الشيخ محمد بن لادن ، مدير الإنشاءات الحكومية ، بإيصال ماء عين الجديدة إلى مكة المكرمة .

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر شوال عام (١٣٧١) هجرية وصل الماء إلى مكة المكرمة ، وجرى لوصوله احتفال عظيم حضره معالي الشيخ محمد بن لادن ، ومدير إدارة عين زبيدة ، وجمع غفير من الموظفين والأهالي .

فعمت البشري جميع الأهالي ، وحصل السرور العظيم لكافة سكان هذه البلدة والواهدين إليها ، فأخذت الألسن تلهج بالدعاء الصالح لفاعل هذا الخير العظيم مولانا جلاله الملك المعظم .

ومن شدة سرورهم لهذا العمل الخالد تقدمو إلى المسؤولين باقتراح يقضي بأن تحمل هذه العين اسم جلاله الملك المعظم تخليداً لذكرى هذا العمل النبيل الذي أسداه إلى شعبه الوفي ، وعلى الواهدين إلى هذه الديار المقدسة فما كان من المسؤولين إلا أن استجابوا لهذا الطلب ، فسميت بالعين العزيزية وستبقى إن شاء الله حاملة هذا الاسم الكريم إلى ما شاء الله ، فجزى الله الملوك خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته إنه سميع مجيب الدعاء .

بلدة حول عين العزيزية بمكة المكرمة

إن عين العزيزية قبل سلخ ملكيتها باسم مولاي المرحوم جلاله الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود كانت تسمى بعين الجديدة ، وإن مشرعة هذه العين وزرعته واقعة في الجانب الشمالي من مسيل السيل المنحدر من وادي النخلة الشامية ، والتي تمر من وادي المصيق إليها ، وعند صدور أمر مولاي المرحوم جلاله الملك على سعادة الشيخ محمد بن لادن بإيصال ماء عين الجديدة إلى مكة المكرمة من مسافة ستة وأربعين كيلو متراً بدأ سعادته العمل فيها باذلاً جهده العظيم لتحقيق رغبة الملك المفدى في عام ١٣٧٠ .

وفي شوال من عام ١٣٧١ وصل الماء إلى مكة المكرمة وعلى أثره صدر الأمر السامي إلى إدارة عين زبيدة بأخذ الماء الكافي من العين الجديدة وعلى أثر ذلك وردت إلى مذكرة برقم ٢٨٠/١٣٧١ ١٣٨٤ للاتصال مع سعادة الشيخ محمد بن لادن لأخذ الماء الكافي من العين الجديدة، وبعد الاتصال تقرر الحضور في عصر اليوم الثاني لفتح الماء. ويوم ٢٩/١٣٧١ في الساعة الحادية عشرة حضر رئيس إدارة عين زبيدة الشيخ عابدين خوجة ، وسعادة الشيخ محمد بن لادن وبعض الموظفين من كلا الطرفين لمشاهدة فتح الماء وأمر سعادة الشيخ محمد بن لادن بفتح الماء إلى خرزة دبل عين زبيدة الواقعة في المعابدة بقرب القصر الملكي ، وبذلك حصل السرور العظيم لجميع سكان هذه البلدة والوافدين إليها في ذلك الوقت ولهجت السنة الجميع بالدعاء الصالح لرائد هذا الخير العظيم مولانا جلاله الملك العظيم .

ومن السرور الذي وصل إلى قلوب أفراد الشعب في ذلك الوقت هتفوا قائلاً للمسؤولين : إن هذا العين لا بد من أن يحمل اسم جلاله الملك عبدالعزيز تخليداً لذكرى هذا العمل النبيل الذي أسداه إلى شعبه ، وإلى الوافدين إلى هذه الديار المقدسة فما كان من المسؤولين إلى أن يجيبوا هذا الطلب وسميت في ذلك الوقت بعين العزيزية وستبقى حاملة اسم هذا الملك العظيم إلى أبد الآبدين إن شاء الله ، فجزاه الله عنا خير الجزاء وأن يسكنه في جنات النعيم . اهـ .

تعريف موجز عن إيصال ماء عين العزيزية بمكة المكرمة مع بيان المسافات .

أولاً : إنشاء خزان نمرة ١ على جانب مزرعة الجديدة وتسلیط مياه العين على الخزان المذكور ، ثم سحب المياه من الخزان بواسطة أنابيب مقاس اثنا عشرة بوصة ١٢ إلى خزان نمرة ٢ الذي أنشأ بربع الوزراء والمسافة من خزان نمرة ١ إلى خزان نمرة ٢ خمسة عشر كيلومتراً ، ثم سحب المياه من خزان نمرة ٢ إلى سد العدل بمكة ، بواسطة الأنابيب المشار إليها أعلى ، والمسافة من خزان ٢ إلى سد العدل ثلاثة كيلو متراً ومن سد العدل إلى الحديقة التي أمام باب القصر الملكي بالمعابدة من الناحية العليا ، والمسافة من سد العدل إلى الحديقة كيلو متراً واحداً تقريباً ، ثم إخراج فرع بوصة ١٢ من الحديقة إلى خرزة دبل عين زبيدة بجوار خرزة سوردة البرج بقرب الحديقة ، وفيها يختلط ماء عين العزيزية بماء عين زبيدة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تتصل بعض أنابيب الماء لداخل البلدة بخط بوصة ستة المتر من

الحديقة إلى قرب مركز شرطة الحجون ، وبذلك تعمم ماء عين العزيزية في داخل البلدة ، وخصوصاً في الأماكن المرتفعة التي كانت لم تصلها الماء من عين زبيدة لأنخفاض منسوبها كما أخرج فرع آخر من المفرق الذي يعد من سد العدل بخمسة كيلو مترات تجرياً متوجهاً إلى خزان المعصم الكبير الذي يغذي منى ومزدلفة منها . والمسافة من المفرق إلى خزان المعصم ثلاثة كيلو مترات . وخزان المعصم أنشأ من ضمن هذا المشروع ، ثم سحب خط بوصة ١٢ من خزان المعصم متوجهاً إلى منى ، ومنه إلى الجمرة الوسطى ، والمسافة من خزان المعصم إلى الجمرة الوسطى خمسة كيلو مترات ، وبذلك قد تعمم الماء في جميع التواحي ، منى ومزدلفة كما أنشئ خزان من ضمن هذا المشروع . منى ، تحت الخزان الجبلي الكبير وأخذت له فرع خط بوصة من الخط الرئيسي من منى . اهـ .

مسافة عين حنين ، العين الأصلية لكة من منبعها إلى درجة الصفا :

المسافة من ذيل جبل طاد إلى الخنقة ستة عشر كيلو متراً .

المسافة من الخنقة إلى القهوة التي أمام مشرعة عين الشرائع ثمانية كيلو متراً .

المسافة من القهوة التي أمام مشرعة عين الشرائع إلى درجة الصفا بمحكمة ، اثنان وثلاثون كيلو متراً (٣٢) .

مسافة عين نعمان من منبعها بذيل جبل كرا من جهة شعب العشرة إلى

درجة الصفا:

المسافة من داخل البلدة من درج الصفاء إلى قهوة الطائف بعرفة بقرب سوردة الكسار اثنان وعشرون كيلو متراً (٢٢) .

المسافة من قهوة الطائف بعرفة بقرب الكسار إلى العنير الجديد (المستودع) بنعمان ستة كيلو مترات (٦) .

المسافة من العنير الجديد بوادي نعمان إلى بئر آل الحسن الكبيكي الواقعة بأول وادي نعمان من جهة ذيل جبل كرا ستة عشر كيلو متراً (١٦) .

المسافة من بئر آل الحسن الكبيكي إلى ذيل جبل كراء التي بها شعب العشرة ثلاثة كيلو مترات (٣) .

انتهى جميع ما ذكره الشيخ محمد نور قمر علي عن العين العزيزية بمحكمة . فله منا مزيد الشكر والثناء .

القضاء والإفتاء بمكة

لا نريد في هذا الفصل سرد أسماء قضاة مكة ومقاتلاتها ، منذ بدء الإسلام إلى اليوم ، وإنما نذكر بذلة صغيرة عن جهة تعينهم ، وما لا يخفى أن ولاة الأمور هم الذين يعينون القضاة في البلدان من عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى يومنا هذا ، وكان سلاطين آل عثمان يرسلون قضاة لمكة من استانبول .

فقد قال الغازي في تاريخه ما نصه :

وفي سنة ٩٤٣ (تسعمائة وثلاث وأربعين) ورد أول قاض مكة من الروم (أي من قبل سلطان الترك) ولم يزل القاضي يصل من الروم إلى زمتنا هذا ، وكان قبل ذلك قضاة مكة منها ، كبيت آل الطيري والظهيرين والنورين . ذكره الطيري في الاتحاف اهـ .

ثم ما زال الأمر كذلك حتى زوال حكم الأتراك من الحجاز سنة (١٣٣٤) وقيام حكم الشريف حسين بن علي ، رحمة الله تعالى في هذه السنة فكان تولي القضاء على مكة بأمر الشريف المذكور ، ثم بعد زوال حكمه وتولي آل سعود على الحجاز ، صار تولي قضاء مكة بأمر ملك المملكة العربية السعودية .

ومن أشهر المحاكم بمكة وأقدمها المحكمة الشرعية الكبرى ومقرها بباب الريادة ، وبها ثلاثة قضاة غير رئيسهم الذي هو رئيس المحكمة وجميع المحاكم مرجعها ديوان واحد يسمى «ديوان رئاسة القضاة» .

قال الأستاذ أحمد السباعي في كتابه تاريخ مكة : أما القضاء فكان يتولى منصبه في مكة علماء الأتراك الذين تتدبهم الدولة التركية وكانت أحکامهم مرتبطة بمشيخة الإسلام في الآستانة فكان القاضي يمثل سلطة الأتراك الدينية ويرأس الحالات التي ينصب فيها أمراء مكة ، ويعقد المراسيم الخاصة بذلك ، ويتولى تقديم المخلع السلطانية إلى الأمير . اهـ .

وقد ذكر الأستاذ السباعي في كتابه المذكور البيوت الشهيرة بالعلم من أهل مكة .

وأما وظيفة الإفتاء فقد ذكر في كتابه المذكور أيضاً ما ملخصه :

كانت أمور الفتوى ، في هذا العهد ، أي «عهد العثمانيين الأول» تسند إلى بيوت العلم من المكيين بتأييد من الدولة العثمانية بخلاف وظيفة القضاء ، فقد اختص العثمانيون أنفسهم بها ، فكان الناس إذا لم يقتنعوا بمحكم القاضي التركي بلجأوا إلى استفتاء المفتى في قضائهم ، فإذا أتفى في صالحهم استندوا على فتواه ورجعوا بها إلى مجلس القاضي ، وكان لكل منهب من المذاهب الأربعة مفتى خص ويرأسهم مفتى الحنفية ، لأن السلطان على منهب أبي حنفة ، وأول من تولى رئاسة الفتوى في عهد العثمانيين هو الشيخ قطب الدين الحنفي المكي .

ومما يناسب هذا المقام ما ذكره القلقشندي في كتابه صبح الأعشى :

إن أول قاضٍ كان في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، استقضاه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، في خلافته فمكث سنة لا يأتيه أحد في قضية . انتهى .

وهذا لا يستغرب في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فلقد تغلغل الدين والتقوى في نفوسهم ، وسرى العدل والإنصاف فيهم سريان الدم في الشرابين والأوردة ، وفي المثل «لو أنصف الناس استراح القاضي» .

ومن أحسن الحكم والوصايا ما كتبه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في القضاء لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو ما ذكره صاحب كتاب جواهر الأدب وهذا نصه :

«أما بعد» فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس في وجهك وعدلك وبجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يتأس ضعيف من عدליך . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق . واجعل من ادعى حقاً غائباً أو بيته أبداً يتلهي إليه ، فإذا أحضر بيته أخذت له بحقه ، وإذا استحللت عليه القضية ، فإنه أفنى للشك وأجلى للعمى . المسلمين عدول بعضهم على بعض إلا بجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب

فإن الله تولى منكم السرائر ودرأً بالبيانات والأيمان وإياك والقلق والضجر والتآذى بالخصوص والتذكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام .

ولقد جاء في كتاب صبح الأعشى للقلقشندى بالجزء الثاني عشر بصحيفة (٢٤٠) صورة المرسوم السلطاني لأحد العلماء بتوليه قضاة مكة المشرفة ، أحيبنا نقلها هنا لما فيها من الفوائد الحمة ، والظاهر أنه مرسوم صادر عن سلاطين مصر قبل حكم الأتراك .

قال القلقشندى رحمة الله تعالى عن صورة المرسوم ما نصه :

وهذه نسخة توقيع بقضاء مكة المشرفة :

الحمد لله الذي أنفذ الأحكام بالبلد الحرام وأيد كلمة الشرع في بلده ومن شهده يد الركن والمقام ، وجعل الإنفاق الجزيل حول حجر إسماعيل متسبق النظام .

نحمده حمدًا حسن الدوام ، ونشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له شهادة عبد قائم بحقها أحسن القيام ، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبد ورسوله السامي من ولد سام ، والذي قام الله حتى ورمت منه الأقدام ، وأسرى به من مكة إلى السماء مررتين: في اليقظة والمنام ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، أئمة الصلاة والصيام وسلم تسليماً .

وبعد : فإن وظيفة القضاء بمكة المعظمة هي أجل منصب بتلك الأباطح ونورها في الجبين لاتح ، فإن الشرع نشأ منها والوحى أنزل فيها ، فزهيت البطائع وظهرت النصائح ، وأطربت الصوادح ، وأسكنكت النواحى وغمرت المنائج وانتشرت المصالح فمن ولي الحكم بها وعدل بذلك هو العدل الصالح ، وكيف لا وماء زمزم شرابه وأستار البيت تمسها أثوابه ، وعلى الله أجره وثوابه ، وفي ذلك الجناب الشريف كرم جنابه وإذا دعا الله عند الملتم جاءه من القبول حوابه .

ولما كان فلان هو فرع الدوحة المثمرة ، وحصل من العلوم الشرعية المأدة المؤففة وله البحوث التي (هي) عن أحسن الفوائد وغير الفرائد مسفرة ورضي أهل

الحرم ، لما جبل عليه من خير وكرم (تمسك) بالعروة الوثقى والقوى الأنقى فلا جرم .

فلذلك رسم ... لا زال ...

فليكن في ألم القرى كالوالد المشق على الورى وليتمسك من القوى بأوثق العرا ، وليخش رب هذا البيت إنه سمع يسمع ويرى ووفد الله قطعوا إليه المراحل في السرى ليصافحوا كفه المصنم عنيرا ، وليقض بين الخصوم بالحق فمثله من درا الباطل قد جعله الله جار بيت عالي النرا ، وفي أرض شرف الله جبارها وقلس غيرانها ، فعنها : غار ثور وغار حرا ، لأن النبي ﷺ كان يتبع في غار حرا ، وأوى إلى غار ثور لما هاجر مؤيداً مظفراً ، والوصايا كثيرة وملاكها تقوى الله ، فليتمسك بها من أمام وورا ، والله تعالى يجعل نهاره منوراً وليله مقمراً عنه وكرمه . انتهى من صبح الأعشى .

فانتظر رحمك الله إلى المراسيم السلطانية لتعيين القضاة سابقاً وإلى المراسيم لتعيينهم في عصرنا الحاضر ، تجد فرقاً كبيراً في الصورة والإنشاء فسبحان من بيده ملوكوت السموات والأرض .

وعلى سبيل الاستطراد نقول : إن ابن بطوطة ذكر في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) أن قاضي الاسكندرية عماد الدين الكندي ، وهو إمام من أئمة علم اللسان كان يعتم بعمامة حرقت المعاد للعمايم قال : لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامه أعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب . انتهى .

قال العلامة ابن حليلون في مقدمته عن القضاة عند الكلام على الخطوط الدينية الخلافية ، ما يأتي : وأما القضاة فهو من الوظائف الداخلية تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتدعيع وقطعاً للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة ، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجها في عمومها ، وكان الخلفاء في صدر الإسلام ي Ashton به بأنفسهم ولا يجعلون القضاة إلى من سواهم وأول من دفعه إلى أميره وفوذه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبي الدرداء معه بالمدينة وولى شريحاً بالبصرة وولى أبو موسى الأشعري بالكونفة .

إنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم ، وإن كان مما يتعلّق بهم لقياهم بالسياسة العامة ، وكثرة أشغالها ، من الجهاد والفتورات وسد التغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية ، فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستختلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على أنفسهم ، وكانت مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسبة أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك .

وأما أحکام هذا المنصب وشروطه معروفة في كتب الفقه ، وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية ، إلا أن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ، ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدرج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى .

واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم ، استيفاء بعض الحقوق العامة لل المسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفة ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويع الأيمان عند فقد الأولياء على رأي من رأاه والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليصل له الوثوق بهم ، وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتتابع ولاته .

وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم ، وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تcumع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدى ، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ، ويكون نظره في البيانات والتقرير واعتماد الإمارات والقرائن ، وتأخير الحكم إلى استحلاء الحق ، وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود ، وذلك أوسع من نظر القاضي .

وكان الخلفاء الأولون ي Ashtonون بها بأنفسهم ، إلى أيام المهدي من بنى العباس ، وربما كانوا يجعلونها لقضائهم ، كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي إدريس الخوارزمي وكما فعله المؤمن ليحيى بن أكثم والمعتصم لأحمد بن أبي داؤد ، وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف ، وكان ليحيى بن أكثم يخرج أيام المؤمن بالطائفة إلى أرض الروم ، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بنى أمية بالأندلس .

فكان تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلافاء أو من يجعلون ذلك له ، من وزير مفوض أو سلطان متغلب ، وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود ، في الدولة العباسية والأموية بالأندلس ، والعبيدية بمصر والمغرب راجعاً إلى صاحب الشرطة وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحکام القضاء قليلاً ، فيجعل التهمة في الحكم مجالاً ، ويفرد العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، ويقيم الحدود الثابتة في محالها ، ويحكم في القوْد والقصاص ، ويقيِّم التعزير والتَّأديب في حق من لم ينته من الجريمة ، ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في الدول ، التي تنوسي فيها أمر الخلافة ، فصار أمر المظالم راجعاً إلى السلطان ، كان له تقويض من الخليفة أو لم يكن ، وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها : وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ، وبماشة القطع والقصاص حيث يتَّبع ، ونصب لذلك في هذه الدول حاكِم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية ، ويسمى تارة باسم الولي وتارة باسم الشرطة ، وبقي قسم التعزير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً ، فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدِّم ، وصار ذلك من توابع وظيفته ولولاته ، واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك ، وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة ، لأنَّ الأمر لما كان خلافة دينية ، وهذه الخطة من مراسيم الدين فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالخلف أو بالرق أو بالاصطنان من يوثق بكتفاته أو غناه فيما يدفع إليه .

ولقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري الذي ولاه القضاء بالكوفة كتاباً قياماً تدور عليه أحکام القضاة ، وفيه يقول :

أما بعد فإنَّ القضاء فريضة مُحكمة وسَة مُتَّبعة ، فافهم إذا أدى إليك فإنه لا ينفع تكلم بمحق لا نفاذ له ، وآس بين الناس في وجهك وجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يأس ضعيف من عدליך . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلتك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإنَّ الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف

الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينةً أمداً يتنهى إليه ، فإن أحضر بيته أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه ، فإن ذلك أنقى للشك وأجلى للعماء ، المسلمين عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زوراً وظنينا في نسب أو ولاء فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان ودرأ بالبيئات ، وإياك والقلق والضجر والتائف بالخصوم ، فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر ، والسلام . انتهى كتاب عمر.

انتهى كل ذلك من مقدمة ابن خلدون .

القاضي يحكم بحسب الظاهر

أحكام القضاء في جميع المسائل الدينية من نحو الأموال والمناقح راجعة إلى نفس القاضي ، وهو أدرى بما يجب عليه وما يلزم منه ونحن إنما نعقد هذا البحث لبيان معنى حديث مروي في الصحيحين يتعلق بالمحاكمة ، وهو هذا :

قال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون أحن بحجه من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ ، فإما أقطع له قطعة من النار». رواه البخاري ومسلم عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها .

ومعنى الحديث : لعل وصف بعضكم أحن أي أبلغ في تقرير مقصوده من بعض من لا يقدر على إظهار حجته لسوء منطقه وعجزه ، فمن حكم له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ ، فالنبي ﷺ إنما يحكم بالظاهر وبحسب ما يسمع ، لذلك قال في مسألة أخرى : «إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشتق بطونهم». رواه أحمد والبخاري .

ونحن كم رأينا بعض الناس من هم حق واضح إذا جلس أمام القاضي أو المحاكم لا يقدر على إظهار ما في نفسه ، بل يعجز عن إثبات حقه ، بينما خصمه يغلبه ببرأة جنانه وطلقة لسانه ، وهو ظالم لا حق له في شيء .

إن بعض الناس أوتي ذرابة اللسان ، وقوة الجنان ، وإن لم يكن متعلماً ،
وي بعضهم أوتي ضعفاً في النطق وعيّاً في اللسان ، وحياءً زائداً في المجالس
والمجتمعات ، وخوفاً ورهبة في التحاكم .

وصرح هذا الحديث : أن بعضهم يأخذ ما لا حق له فيه ، من طلاقة لسانه ، وحسن تقريره فمن أخذ شيئاً لا يستحقه حاسبه الله عليه ، فليتق الله ربه .

إنشاء المحكمة الشرعية الكبرى

المحكمة الشرعية الكبرى. المحكمة المكرمة لم نعلم متى أنشئت وظهرت في
الوجود، وقد كانت موجودة في عصر الحكومة العثمانية التركية ، والذي يظهر لنا
والله تعالى أعلم بعثة أنها أنشئت منذ ثلاثة قرون تقريباً ، أي منذ كثرة الدعاوى
والشكاوي وقت الأمانة في الناس ، فرأى الدولة التركية العثمانية لا بد من إنشاء
محكمة رسمية تدون فيه المحاكمات ، ولا يعد أنها أنشئت في زمن إنشاء جميع
المحاكم في جميع البلاد الإسلامية تبعاً للتطور . والله تعالى أعلم .

مكتبة الكبرى - الشريعة المحمدية

من سنة (١٢٠٥) هجرية إلى سنة (١٣٨٤) هجرية.

لقد كتبنا خطاباً في غرة شهر شعبان سنة (١٣٨٤) هجرية لحضره صاحب الفضيلة العالمة الجليل الشيخ سليمان بن عبد رئيس المحكمة الشرعية الكبيرى. بمكة المكرمة ، نسألة عن تاريخ إنشاء هذه المحكمة ، وعن أسماء قضاها في العصور السابقة، فورد لنا منه ، حفظه الله تعالى وأدام توفيقه ، الجواب الآتي نذكره بنصه ، وهو هذا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حضره صاحب الفضيلة الشيخ محمد طاهر الكردي المحترم ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : إشارة إلى خطابكم المؤرخ في ١٣٨٤/٨/١هـ والذى ترغبون فيه الإفادة عن تاريخ تنظيم المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة وعن أسماء قضاها من ذلك التاريخ وعن مدة من تولى رئاستها لكي تكتبوها عن ذلك في تاريخكم المزمع إبرازه إلى حيز الوجود ، ونحيط

فضيلتكم أنتا لم تجد إلى ذلك سبيلاً، فيما قبل عام ١٢٠٤هـ، أما بعد ذلك
فإليكم ما وصل إليه معلومنا نحو طلبكم.

من عام ١٢٠٥ إلى عام ١٢٠٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد
أفندي.

من عام ١٢٢٨ إلى عام ١٢٣٠ تولى رئاسة المحكمة الشيخ فضيلة الشيخ
محمد تقى الدين.

من عام ١٢٣٠ إلى عام ١٢٣١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حافظ
محمد حامد.

في عام ١٢٣٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عمر أفندي زاده.

في عام ١٢٣٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد قدسي.

من عام ١٢٣٣ إلى عام ١٢٣٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ دري زاده
ال الحاج محمد عابد.

من عام ١٢٣٦ إلى عام ١٢٣٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حمد الله
بن عزت زاده.

من عام ١٢٣٨ إلى ١٢٣٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عثمان لطفي
أفندي.

من عام ١٢٣٩ إلى عام ١٢٤٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد
صادق أفندي.

من عام ١٢٥١ إلى عام ١٢٥٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد إبراهيم
خليل.

من عام ١٢٥٤ إلى عام ١٢٥٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد
حسين أفندي.

في عام ١٢٥٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ يحيى توفيق أفندي.

من عام ١٢٥٧ إلى عام ١٢٥٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد مصطفى
عاصم.

من عام ١٢٥٩ إلى عام ١٢٦٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سعيد أفندي.

من عام ١٢٦٠ إلى عام ١٢٦١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد طاهر أفندي.

من عام ١٢٦٢ إلى عام ١٢٦٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى نوري.

من عام ١٢٦٣ إلى عام ١٢٦٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى حامد.

في عام ١٢٦٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد عماد الدين.

في عام ١٢٦٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد توحيد.

في عام ١٢٦٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ إبراهيم أدهم.

في عام ١٢٦٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سعد الله.

في عام ١٢٧٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد مصطفى حمدي.

في عام ١٢٧١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ علي رضا.

في عام ١٢٧٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد شمس الدين.

في عام ١٢٧٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد رشدي.

في عام ١٢٧٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد عزت.

في عام ١٢٧٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ سيروز حسن.

في عام ١٢٧٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد شمعي.

في عام ١٢٧٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد شمس الدين.

في عام ١٢٧٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد قدرى.

في عام ١٢٧٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حافظ محمد.

في عام ١٢٨٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد توفيق.

في عام ١٢٨١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد خالد.

في عام ١٢٨٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد أمين بيك الحريزو.

- في عام ١٢٨٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد أمين أفندي .
- في عام ١٢٨٤ إلى عام ١٢٨٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد بيكل ثم مصطفى نظمي .
- في عام ١٢٨٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى نظمي .
- من عام ١٢٨٧ إلى عام ١٢٨٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سعيد أفندي .
- في عام ١٢٩٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عزت زاده محمد حفيظ محمد رضا .
- في عام ١٢٩١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد عفيف أفندي .
- في عام ١٢٩٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد نوري أفندي .
- في عام ١٢٩٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ إبراهيم أدهم أفندي .
- في عام ١٢٩٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حسن صبرى أفندي .
- في عام ١٢٩٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد ثروت أفندي .
- في عام ١٢٩٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى فائق أفندي .
- في عام ١٢٩٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ كرام الدين .
- في عام ١٢٩٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد أمين أفندي .
- في عام ١٢٩٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى رشدي .
- في عام ١٣٠٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عمر فهمي أفندي .
- في عام ١٣٠١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى النيب .
- في عام ١٣٠٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد أمين .
- في عام ١٣٠٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ بغدادي زاده عبد الرحيم .
- في عام ١٣٠٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سعيد أفندي .
- في عام ١٣٠٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ يونس وهي أفندي .
- في عام ١٣٠٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد أحمد عطا الله شكري .

- في عام ١٣٠٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد شكري .
- في عام ١٣٠٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حسين رشدي .
- في عام ١٣٠٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد ضياء الدين .
- في عام ١٣١٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الله صائب أفندي .
- في عام ١٣١١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد عاصم أفندي .
- في عام ١٣١٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سالم أفندي .
- في عام ١٣١٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ كمال الدين أفندي .
- في عام ١٣١٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد نظيف أفندي .
- في عام ١٣١٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الكري姆 أفندي .
- في عام ١٣١٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد عارف أفندي .
- في عام ١٣١٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد فؤاد أفندي .
- في عام ١٣١٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى نعيم أفندي .
- في عام ١٣١٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد هاشم بن عثمان .
- في عام ١٣٢٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد هاشم أفندي .
- في عام ١٣٢١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الله كمال الدين أفندي .
- في عام ١٣٢٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ إبراهيم حقي أفندي .
- في عام ١٣٢٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد جمال الدين .
- في عام ١٣٢٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد رفعت أفندي .
- في عام ١٣٢٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مفتى زاده أحمد نظيف .
- في عام ١٣٢٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حسين فهمي أفندي .
- في عام ١٣٢٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حافظ عثمان نوري .
- في عام ١٣٢٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى بن الدين الألوسي .
- في عام ١٣٢٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عمر خلوص .

- في عام ١٣٣٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ علي رضا .
- من عام ١٣٣١ إلى عام ١٣٣٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أسعد شكري ثم عمر فخر الدين .
- من عام ١٣٣٢ إلى عام ١٣٣٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ سليمان رشدي .
- من عام ١٣٣٣ إلى عام ١٣٣٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد حلمي .
- من عام ١٣٣٤ إلى عام ١٣٣٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ صالح صدقى .
- من عام ١٣٣٦ إلى عام ١٣٤٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أسعد دهان .
- من عام ١٣٤١ إلى عام ١٣٤٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الله أبو الخير ميرداد .
- من عام ١٣٤٣ إلى عام ١٣٤٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد المرزوقي .
- من عام ١٣٤٩ إلى عام ١٣٥٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد كمانخي .
- من عام ١٣٥١ إلى عام ١٣٥٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد قاري .
- من عام ١٣٥٧ إلى عام ١٣٦٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد زكي البرزنجي .
- من عام ١٣٦٥ إلى عام ١٣٦٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد يحيى أمان .
- في عام ١٣٦٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ سالم شفي .
- من عام ١٣٦٧ إلى عام ١٣٧١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الحميد حديدي .

من عام ١٣٧١ إلى عام ١٣٨٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الله بن دهيش .

في عام ١٣٨٣ إلى عام ١٤٠١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ سليمان بن عبيد .

هذا ومن عام ١٣٨٣هـ توليت رئاسة هذه المحكمة ، وتكلمت في الوقت الحاضر من رئيس ومساعد وخمسة أعضاء وملازمين وأرجو الله تعالى أن يجعلني من الذين يقولون بالحق وبه يعدلون وأن يعافيني من هذا العمل العظيم الخطر ، وأن يسلبني عن هو أكفاء مني في الوقت القريب العاجل إنه سميع مجيب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

في ١٧/١٠/١٣٨٤هـ

رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة

سليمان بن عبيد

هذا هو نص مذكرة فضيلة الشيخ سليمان بن عبيد رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة في وقتنا الحاضر وهو من أفضلي علماء بحد من أهل الدين والاستقامة كما أن سلفه فضيلة الشيخ عبد الله بن دهيش من أفضلي علماء بحد أيضاً وقد تولى ابنه الشيخ عبد الملك بن دهيش رئيساً مساعدًا لمحكمة مكة المكرمة من عام ١٣٨٢هـ إلى عام ١٤٠٣هـ . وإن من يتأمل الأسماء الواردة في هذه المذكرة يجد أن غالبيهم من الأتراك تعينهم الدولة العثمانية التركية رؤساء للمحكمة الشرقية بمكة ، ثم من بعد زوال حكم الأتراك من الحجاز وغيرها من البلدان العربية أي من سنة ١٣٣٤ هجرية بحد أن رؤساء المحكمة الشرعية بمكة المشرفة كلهم من أهلها ، كما هو ظاهر من هذه المذكرة القيمة المعبرة .

إنشاء المحاكم المستعجلة

أما المحاكم المستعجلة فقد كان أول تأسيسها وإنشائها في عهد الشريف حسين بن علي بعد أن استقل بالحجاز فإنه رحمة الله تعالى أصدر أمره بتأسيس محكمة جديدة بمكة تسمى : «محكمة المواد المستعجلة» وذلك في السابع عشر من رجب سنة (١٣٣٦) ست وثلاثين وثلاثمائة ألف هجرية ، وانتخب لرؤاستها

المرحوم الشيخ سالم شفي . ثم في شهر صفر سنة (١٣٣٧) صدر أمره أيضاً بتأسيس محكمة مستعجلة بمدنة ، وانتخب لرئاستها السيد عبد الله خيار .

وقد وضع في قانون ونظام المحاكم المستعجلة إحدى عشرة مادة للسير بمقتضاهما ذكر كل ذلك الشيخ عبد الله الغازى رحمه الله تعالى في الجزء الثالث من تاريخه ونحن لم نقله منه حتى لا يطول الكلام .

ويوجد الآن في هذا العصر بمكة المكرمة ثلاث محاكم مستعجلة .

واعلم بأن الإفتاء من الوظائف الشرعية يجب المحافظة عليها . وإليك نص المذكرة التي رفعها إلى الحكومة المصرية العالمة الكبير والعلم الشهير في جميع الأقطار الإسلامية فضيلة الشيخ محمد بنحيت مفتى الديار المصرية سابقاً المتوفى في عصرنا الحاضر ، رحمه الله تعالى وهذه المذكرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية في سنة (١٣٤٦) ولما كانت في حجم رسالة صغيرة أحبينا نقلها هنا زيادة في الفائدة وهي هذه :

مذكرة :

من حضرة مولانا الأستاذ الأكبر صاحب الفضيلة الشيخ محمد بنحيت مفتى الديار المصرية سابقاً رحمه الله تعالى مقدمة مجلس الشيوخ المصري ببيان أن وظيفة الإفتاء وظيفة شرعية دينية يجب على ولي الأمر أن يوظف فيها من يليق لها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

حضره صاحب العزة وكيل مجلس الشيوخ .

أرجو عرض ما يأتي على نظر مجلس الشيوخ الموقر :

إنه تقدم باقتراح طلب إلغاء وظيفة الإفتاء بالديار المصرية ، ولما لإقرار هذا الاقتراح من المضار الكثيرة ، أردت أن أعرض للمجلس أن وظيفة الإفتاء كوظيفة القضاء من أهم مصالح المسلمين وتعد في شريعة الإسلام من الفرائض الدينية التي يجب على ولي الأمر مراعاتها ، ونصب من يقوم بها من هو أهل لها من العلماء وإن لم يقم ولي الأمر بذلك كان آثماً .

والأصل في ذلك أن جميع الخطط الدينية كانت للنبي ﷺ وحده فلما كثر المسلمون أقام من ينوب عنه في تلك الخطط فجعل من قبله ولاة وأمراء وقضاة ومتين ، وغير ذلك مما اقتضاه نظام الحكم في عصره ﷺ ، ثم تبعه في ذلك الخلفاء الراشدون واستمر العمل على ذلك إلى يومنا هذا .

وكل وال يملك في ملكه جبائية الخارج ، وتعيين الحكم وغير ذلك تكون تلك الخطط في مملكته من وظائفه يعين فيها من ينوب عنه في كل منها . ولذلك لما ذكر ابن خلدون الخطط الدينية المختصة بالخلافة ، وترجع إلى الخطط الملوكيّة السلطانية عدّ منها الفتيا وجعلها من مصالح المسلمين وجعل مراعاتها من الواجبات على ولی الأمر (انظر ص ١٨٢ من مقدمته) .

وقال الجلال الدواني في شرحه العقائد العضدية ، ص ٦٨ : يجب على الكفاية تفصيل الدلائل ليتمكن معه من إزالة وإلزام المعاندين وإرشاد المسترشدين ، وقد ذكر الفقهاء أنه لا بد أن يكون في كل حد مسافة القصر شخص متصرف بهذه الصفة ، ويسمى «المتصوب للذب والمنع» ويحرم على الإمام إخلاء مسافة القصر عن مثل هذا الشخص ، كما يحرم عليه إخلاء مسافة العدو عن العالم بظهوره الشريعة والأحكام التي تحتاج إليها العامة . اهـ.

وهذا هو المسمى بالمفتي الآن . قال في الحواشي الجديدة : مسافة العدوى التظلم إلى القاضي لأجل عدم حضور المخصم لبعد حكم الشرع في هذه المسألة أن المخصم إذا كان في موضع أو ابتكر إليه يحضر مجلس القضاء ، ويجب خصمه وبيت في منزله ، فالقاضي يحضره بخط الإحضار ، فالمقصود هنا أنه يجب على الإمام نصب من هو عالم بظواهر الشريعة والأحكام ليرجع إليه الناس في حوالتهم الشرعية في هذه المسافة بأن يذهب الناس إليه بكرة ويرجعون إلى منازلهم مساء اهـ . وقال صاحب النهر : والأصح أن الإفتاء غير مكروهه لمن كان أهلاً ، وعلى ولی الأمر أن يبحث عنمن يصلح للفتوى ، ويعن من لا يصلح ، ونقل عن بعض الشافعية أنه إن لم يكن غيره عليه وإن فهو فرض كفاية . اهـ .

وليس من ضروريات إقامة ولی الأمر مفتياً وتوظيفه شرعاً ، أن يكون لهذا المفتى مرتب من بيت المال «المالية» بل المفتى عامل للمسلمين ، قد جبس نفسه لعملهم ، فيجب أجره من مالهم فإن أخذه من بيت المال فليس له أن يأخذ من الناس شيئاً ، وإن لم يكن له مرتب أخذ أجره من يستفتنه .

وعلى ذلك لا يلزم من إلغاء مرتبه وحلفه من ميزانية الدولة إلغاء الوظيفة التي يجب على ولـي الأمر أن يقيم فيها من يليق لها ، وأنا لا أظن أن المجلس يوافق على أن المفتي يأخذ أجره من يستفتـه ، ويرى المجلس الموقر أنـي لا أدفع عن راتب الوظيفة ودرجـه في الميزانية أو حـلفـه منها ، وإنـما أنا أـبيـن حـكمـ الشـريـعـةـ فيـ وـظـيفـةـ الفتـياـ ذاتـهاـ ، كـإـحـدـىـ الخـطـطـ الـديـنـيـةـ الـتـيـ يـجـبـ عـلـىـ ولـيـ الـأـمـرـ أـنـ يـنـصـبـ فـيـهـاـ مـنـ يـقـومـ بـهـاـ نـيـابـةـ عـنـهـ .

أهمية وظيفة الإفتاء :

إن وظيفة الإفتاء من أهم الوظائف التي يلزم أن تكون قائمة دائمة ، بالديار المصرية لوجهه :

أولاً : أن جميع وزارات الحكومة وتبعـهاـ ، كـالـحـافـظـةـ وـنـوـهـاـ ، يـرـجـعـونـ إـلـيـهـ ، فيما يتعلق بالمسائل الشرعية ، لأن فتاواه باعتباره موظـفاـ يكونـ لهاـ الصـبغـةـ الرـسـمـيـةـ ، فيـصـحـ لـلـحـكـوـمـةـ أـنـ تـعـتـمـدـ عـلـيـهـ ، وـتـرـجـعـ فـيـهـ فـيـمـاـ يـتـعـلـقـ بـتـلـكـ الـمـسـائـلـ إـلـيـهـ .

ثانياً : أن كثـيرـاـ منـ القـضـاـيـاـ الـمـدـنـيـةـ الـتـيـ تـنـظـرـ بـالـحـاـكـمـ الـأـهـلـيـةـ تـحـتـاجـ الـحـكـمـةـ الـتـيـ تـنـظـرـ بـهـاـ الـقـضـيـةـ إـلـيـهـ تـتـنـورـ فـيـ حـكـمـهـاـ بـفـتـوىـ شـرـعـيـةـ ، وـلـكـنـهاـ لـاـ تـطـلـبـ ذـلـكـ بـصـفـةـ رـسـمـيـةـ ، فـحـيـنـتـذـ يـلـجـأـ الـخـصـومـ إـلـىـ الـحـصـولـ عـلـىـ فـتـوىـ شـرـعـيـةـ بـمـاـ ذـكـرـ ، وـيـقـدـمـونـهـاـ لـلـلـحـكـمـةـ كـمـسـتـدـ ، فـلـوـ لمـ يـكـنـ بـالـدـيـارـ الـمـصـرـيـةـ مـفـتـ موـظـفـ يـمـكـنـ أـنـ يـأـتـيـ كـلـ وـاحـدـ مـنـ الـخـصـمـينـ بـفـتـوىـ شـرـعـيـةـ تـوـيـدـ طـلـبـاهـ ، وـلـاـ يـعـدـ وـجـودـ مـفـتـ يـكـونـ بـحـراـ فـيـ ذـمـتـهـ يـعـطـيـهـ مـاـ يـطـلـبـهـ ، فـوـجـودـ مـفـتـ موـظـفـ يـعـطـيـ لـفـتـواهـ الـصـبغـةـ الـرـسـمـيـةـ تـرـفـعـ الـإـشـكـالـ وـيـكـنـ لـلـمـحـكـمـةـ الـتـيـ تـنـظـرـ بـالـقـضـيـةـ أـنـ تـعـتـمـدـ عـلـيـهـ وـتـسـتـيرـ بـمـاـ فـيـهـ .

ثالثاً : أنـ المـفـتـيـ الـذـيـ يـقـيمـهـ وـلـيـ الـأـمـرـ فـيـ مـصـرـ لـيـسـ مـرـجـعاـ فـيـ الـفـتاـوىـ للـمـسـلـمـينـ فـقـطـ ، بلـ لـغـيـرـهـ مـنـ الـمـلـلـ الـأـخـرـىـ ، يـرـجـعـونـ إـلـيـهـ فـيـ فـتاـواـهـ ، وـيـعـمـلـونـ بـهـاـ فـيـمـاـ يـتـعـلـقـ بـالـمـوـارـيـثـ وـالـأـوقـافـ .

رابعاً : أنـ الـمـوـادـ الـتـيـ يـقـعـ فـيـهـ الـخـلـافـ بـيـنـ الـأـسـرـ ذـوـاتـ الـشـرـفـ وـالـعـمـادـ بـالـقـطـرـ الـمـصـرـيـ ، لـاـ يـرـيدـونـ أـنـ يـلـجـأـوـنـ إـلـىـ الـقـضـاءـ ، شـرـعـيـاـ كـانـ أـوـ أـهـلـيـاـ ، حـفـظـاـ لـكـيـانـ تـلـكـ الـأـسـرـ ، فـيـلـجـأـوـنـ إـلـىـ فـتـوىـ الـمـفـتـيـ الـمـوـظـفـ بمـصـرـ وـالـخـلـافـ الـذـيـ يـمـسـ عـلـىـ هـذـاـ الـوـجـهـ أـكـثـرـ بـكـثـيرـ مـاـ يـمـسـ أـمـامـ الـجـهـاتـ الـقـضـائـيـةـ خـصـوصـاـ فـيـ قـضـاـيـاـ الـأـوقـافـ وـالـمـوـارـيـثـ ، فـضـلـاـ عـلـىـ أـنـ أـكـثـرـ الـخـصـومـاتـ أـمـامـ جـهـاتـ الـقـضـاءـ يـطـولـ

مدتها ، وربما يموت الخصمان فتقوم ورثهما مقامهما ، ولا تنتهي تلك الخصومة ، وإن انتهت بعد اللثيا والتي ، فلا تنتهي إلا بعد أن يختسر كل من الخصمين كل شيء حتى الجلد والسقط ، ويعلم ذلك لمن يرجع إلى فتاوى المفتين السابقين .

خامساً : أن مفتى الديار المصرية ليس مرجعاً للمصريين فقط في فتاواه ، بل هو مربع لمختلف الأقطار ، لا فرق بين البعيد منها كالهند والقريب كالشام ، فإن أكثر هذه الأقطار ترجع فيما يشكل عليها من الأحكام الشرعية أو فيما يختلف فيه علماؤها إلى فتوى مفتى الديار المصرية ، ويكون قوله الفصل في ذلك ، وهذا مما يجعل لمصر فخرًا وشرفاً على سائر الأقطار الأخرى ، وبجعل المجلس حريصاً كل الحرص على إيجاد وظيفة الفتوى ، لو لم تكن موجودة فكيف لا يحرص على إيقائها حيث كانت موجودة ؟ فإلغاء وظيفته هدم لمرجع عامل منظور إليه بعين الاحترام من سائر المسلمين .

سادساً : أن مفتى الديار المصرية بمقتضى وظيفته وعمله هو شيخ لعلماء الحنفية ، ومعن ناظراً أصلياً على أوقاف كثيرة وناظراً حسبياً كذلك ومرتبط به وظائف كثيرة في مصالح الأزهر وأوقافه . ففي إلغاء وظيفة الفتوى تعطيل لكل هذه المصالح ، وهذا لا يلتم مع المصلحة العامة ووجب للإرتباك بلا مرر .

النتيجة :

يعلم مما أوضحتنا أن وظيفة الإفتاء وظيفة من الوظائف الدينية ، التي يجب علىولي الأمر أن ينصب فيها من يقوم بها ، كوظيفة القضاء . وقد جعلتها الشريعة الإسلامية من الفرائض الدينية ، ومن أهم المصالح الإسلامية ، وأنها وظيفة لها الأهمية الكبرى على الوجه الذي فصلنا .

وما أظن أن المجلس بعد الذي أوضحتناه يوافق على إلغائها ، ويخالف ما قضا به الشريعة الإسلامية ، خصوصاً مع ما لهذه الوظيفة من الأهمية وشرف المنزلة .

والذي أرجوه من المجلس أن يسن قانوناً ، يحتم فيه مراعاة توفر الشروط الشرعية ، فيمن يوظف في تلك الوظيفة ، ويقطع عرق المحسوبية والأغراض ، التي تؤدي إلى أن يوظف فيها ، من لا يليق لها ولا تليق له ، ويحط من كرامتها ويضع احترامها ، ولكل عالم سيرة وسيرته بنزاهة أو غيرها .

ومهما تكون عند أمرئ من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تعلم

كما إنني أرجو أن يلغى بالنظر إلى وظيفة الإققاء ، تقيد الموظف فيها بسن مخصوص ، فإن من شرط المفتى إن لم يكن مجتهداً أن يكون قادراً على استنباط الأحكام في الحوادث المتتجدة ، من أصول الشريعة وأدلتها الأربع ، وكلما كان الموظف فيها أكبر سنًا وأغزر علمًا وأوسع اطلاعًا كان أوفر عقلًا وأكثر وقاراً وحلماً . وإنني مع ثقتي بنظر المجلس الموقر لهذا الأمر الخطير بما يليق به من كامل العناية أقدم لعزتكم وافر شكري واحترامي وفقنا الله لما فيه السداد والرشاد إنه هو الرؤوف بالعباد .

القضاء في عهد الخلفاء الراشدين

قال الحضرى رحمة الله تعالى في محاضراته «تاريخ الأمم الإسلامية» عن القضاء ، في عهد الخلفاء الراشدين ما يأتي :

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة ؛ لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات ، على حسب القانون الشرعي المأبوز من الكتاب والسنة ، فكان الخلفاء يشارون هذا العمل بأنفسهم ، ويستفتون في الحكم ، إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء ، ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطرب الخلفاء للاشغال بالجيوش وتدييرها ، فوضوا هذا العمل إلى من في مكتبهم الاستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاة إلا من عهد عمر بن الخطاب فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ، ووضعه لهم أنموذجاً يسيرون عليه ، واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين .

ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم في الحكم ، فلم يعرف عن أحد منهم ، في ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به ، وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعاية ، ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم في قضائهم ، فكان تعينهم من الخليفة رأساً ، وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولي فلاناً قضاء بلده ، وعلى الحالتين التعين صادر من الخليفة ، وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرثون منه .

ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاة ما كتبه علي بن أبي طالب إلى أحد عماله : «ثم احتر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ، من لا تضيق به

الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ، ولا يشرف نفسه على طمع ولا يكفي بأذني فهم إلى أقصاه أو قفهم في الشبهات وآخنهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، وأخيرهم على تكشف الأمور وأصرهم عند اتضاح الحكم ، من لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له في البذر ما يزيل عليه ، وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطاه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك » .

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتهم إذا أشكل عليه أمر ، وأهم ما كان يدعوه إلى ذلك أن سنة رسول الله ﷺ لم تكن مجموعة في كتاب ، بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثاني جزءاً ، وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر ، فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عنده غيره ، وبذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله ﷺ ، ولم يجمعوا هذه الفتاوى ولا الأقضية في كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوى والأقضية .

لم يكن القاضي في أحكامه موكلأً إلى الاجتهاد الصرف ، كما يظن بعض الباحثين ، و يجعل ذلك من عيوب القضاء ، وإنما كان موكلأً إلى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات ، حقيقة أن ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية ، وليس هذا عيناً في القوانين التي يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها و يجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

الاجتهاد للقاضي ، والحال ما ذكرنا أمر لا بد منه ، ولذلك أعده المتقدمون من الشروط المتحتمة . لم يكن تعين القضاة مانعاً للخلافاء من نظر أي خصومة تعرض عليهم ، وقد حصل ذلك من الخلفاء ، في آنات كثيرة ، فكان القضاة كانوا نواباً للخلفاء .

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له ، لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه ما دام التنفيذ في يد القاضي فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم ، وينظر لنا ما

قرأنا من أخبارهم أنهم قلماً كانوا يحتاجون للتنفيذ، لأن من حكم عليه كان يادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين.

ويظهر لنا أن قضاء القضاء في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية، أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأننا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصاً أو جلد بسکر ولم يلغنا أن قاضياً ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفتها، وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة ولم يلغنا أيضاً أن قضاة الأمصار كانوا يبنرون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى، وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات.

انتهى من الكتاب المذكور.

القضاء في عهد الأمويين

جاء في أواخر الجزء الثاني من كتاب «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية» للشيخ محمد الخضري رحمه الله تعالى : لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة (أي الدولة الأموية) على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرسلتهم إلى تسجيل الأحكام . قال محمد بن يوسف الكوفي في كتاب الذين ولوا مصر ص (١٠) : اختص إلى سليم بن عذر - قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان - في ميراث فقضى بين الورثة ، ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيخوخة الجندي . قال : فكان أول القضاة بمصر سجل سجلاً بقضائه .

ولم يكن القضاة يتقيلون برأي في أحكامهم إذ لم تكون إذ ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ، ويختمن العمل على مقتضاه ، فكان الأمر راجعاً إلى القضاة أنفسهم أو إلى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين في أمصارهم .

كان توبه بن نمر لا يملك شيئاً إلا وذهب ووصل به إخوانه وأفضل به عليهم فلما ولّ القضاء بمصر في عهد هشام بن عبد الملك كان يرى أن يمحّر على السفه والمبذرة ، فرفع إليه غلام من حمير لا تحوّي يده شيئاً إلا وذهب وبتره ، فقال توبه : أرى أن أحجر عليك يا بني . قال : فمن يمحّر عليك أيها القاضي ؟ والله ما نبلغ في أمالنا عشر معشار من تبنّيك فسكت توبه ولم يمحّر على سفهيه بعد .

فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية في اختيار الآراء التي يقضون بها ، وأحياناً يطلبون من المخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها ، كما كتب عياض بن عبد الله الأزدي قاضي مصر من قبل عمر بن عبد العزيز إليه يسأله في أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب إليه أن يجعلها للشريك وحده . وقال : فإذا وقعت الخلوود بين أهل الشرك في الميراث أو غيره ، وضربت مداخل الناس التي يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة .

وبذلك كانت الأحكام تختلف بعضها بعضاً في الأمصار المختلفة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد ولم تلتفت الدولة إلى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضي به قضاتهم ، أو يحمل مجتهدي كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر ، مستمددين من أصول الدين لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض ثمام حريته في الحكم بما يراه .

وكان يضاف إلى القضاة مراقبة أموال اليتامي ، وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن خديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فإنه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً ، وكان عنده وقال الكندي : فجرى الأمر على ذلك .

وكانوا يتولون الأحباس ، وأول قاض مصر وضع يده على الأحباس توبة بن غر في زمن هشام بن عبد الملك وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدي عليها ، حفظاً لها من التواء والتوارث فلم يست توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيماً ، وكان ذلك سنة (١١٨) أول إنشاء ديوان الأوقاف . مصر بذلك كان اختيار القضاة يرجع غالباً إلى أمراء الأنصار ، فهم الذي يعينون من يقوم بالقضاة بين الناس ، وأحياناً كانوا يتولون من قبل المخلفاء أنفسهم ، وقاضي حاضرة الخلافة يختاره الخليفة ، وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا أرى في اختيارهم ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يمحوجههم إلى مد الأيدي إلى السحت .

رأيت أن عبد الرحمن بن بحر كأن يتولى القضاء مصر ، ومعه القصاص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاة مئتي دينار ، ومن القصاص مئتي دينار ورزقه

في بيت المال مئتي دينار ، وكان عطاوه مئتي دينار ، وكانت جائزته مئتي دينار ، فكان يأخذ ألف دينار في السنة .

ورأيت في الكندي أمراً بصرف مرتب قاض ، في عهد مروان الثاني ، هذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال ، أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه أشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة (١٣١) عشرين ديناراً وأكباوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء للليلة خلت من ربيع الأول سنة (١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدماً». انتهى من محاضرات الخضري .

القضاء في العهد العباسي

جاء في كتاب «مثلي عليا من قضاء الإسلام» تأليف الأستاذ محمود الباجي ، ما نصه : أحرز القضاء في العهد العباسي على استقلاله الكامل ، وخرج عن نفوذ الخليفة وسلطان الملك ، ولعبت في عاصمة المملكة الإسلامية ، وفي عواصم البلاد التابعة لها أسماء كثيرة من أئمة القضاء وشيوخ الحكم وسجل المؤرخون صفحات لامعة من صنوف العدالة وأنواع الإنصاف ونقل رواد الأمم الغربية حوادث عن سير المحاكم الإسلامية تعتبر - لولا التعصب الأعمى - من بين الشواهد الكثيرة على الأمجاد الإسلامية في كل نواحيها .

وفي خلافة الرشيد ، تعددت الروايات القضائية ببغداد وأعطي لأبي يوسف لقب «قاضي القضاة» لأول مرة في الإسلام ، ومنح السلطات المطلقة لانتخاب قضاة أقسام العاصمة ، ومدن الأقاليم ، وفرض أبو يوسف زياً خاصاً يرتديه رجال الحكم ، وارتقت جرایة القاضي إلى (٢٧٠) ديناراً في السنة يساوي بسعر اليوم (مليوناً ونصف مليون) وكانت في العهد الأموي ألف دينار في السنة .

وقد تردد القضاة في عهد المنصور بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد الشيباني ، وهم من أئمة الدين الأعلام وعبد الله بن وهب وسفيان الثوري والغوث بن سليمان .

تدخل القاضي أبو يوسف لما قُلد قضاء الجماعة ، لإصلاح نظم السجن ، والترفيه عن حالة نزلائه فوجه رسالة إلى الخليفة الرشيد جاء فيها :

«فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدتهم ، وصبر ذلك دراهم تجاري عليهم في كل شهر ، فإنك إن أحررت عليهم الخبر ذهب به ولاة السجن .. وول ذلك رجلاً من أهل الخبر ، بثت أسماء من في السجن ، من تجاري عليهم الصدقة شهراً فشهر . ويقعد ويدعو باسم رجل ، رجل ، ويدفع ذلك إليه في يده ..

وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء ، وفي الصيف قميص وإزار ، ويجري على النساء مثل ذلك ، وكسوتهم في الشتاء قميص و McKenzie وكساء ، وفي الصيف قميص وإزار و McKenzie . وأنهوا عن غل السجين ، إلا إذا خيف فراره ، وعن ضربه إلا إذا أقيمت عليه حد . وأذنوا له ، إذا كان عليه ديون ، أن يخرج فيخاصم» .

لقد بلغ القضاء في أحکامه ومؤسساته ونظام ترافقه ، ووسائل تنفيذه في العهد العباسي ، شأواً بعيداً في الرقي والازدهار . وبلغ من تفاؤل القضاة ما رواه أسد بن الفرات من أن «أبا يوسف كان ينظر بين خصمين بمحضره هارون الرشيد ، فتوجه القضاة على أحدهما فحثا الرشيد وأقبل يبصره نحو أبي يوسف حتى أندفعت القضاة . ثم قال : «هكذا أفعل أنا وسائر من معى حتى قضاء أبي يوسف» ولا غرابة فيما أخذته بعض المحاكم الغربية اليوم عن هذا التقليد الإسلامي ، من الوقوف ورفع الأسلحة عند الشروع في النطق القضائي .

ولن كان الإجلال يصدر فيمحاكم الغرب ، عن الجيش وال العامة فهو في محاكم الإسلام يصدر عن الخليفة الإمام وعن خاصته من الوزراء والكتاب .

كان من نتائج استقلال القضاء وتنظيمه أن استطاع الجمهور من شعوب الخلافة الإسلامية بسط رقابه الشديدة على أداة الحكم وأنواع الأحكام ، وأصبح الرأي العام يعلق على الأقضية التي تصدر ولو كان متعلقتها حرة ماء تحطمها امرأة .

وقد روی الحسن بن زياد : قال : «كنا يوماً يباب أبي يوسف ونحن ننتظره إذ أقبل من دار الرشيد وهو يتسمّ فقال : حدثت مسألة في دار أمير المؤمنين اليوم ، رفع إليها أن قاضياً بأمرئية اختص به جاريتان في جرتيين وقد استقيا ماء من بعض المراضع ، فوضعتا جريتيهما لتسريحها ، فسقطت حرة كل واحدة على حرة صاحبتها فانكسرتا فاختصمتا إلى القاضي فقالت كل واحدة منهمما : سقطت حرة هذه على جرتني فانكسرت . فجعل القاضي ينظر إليهما ، لا يعرف المدعية منها

من المدعى عليها ، فقال للقيم : «أَخْرَهُمَا عَنِي ، فَأَخْرَهُمَا ثُمَّ صَاحَتَا فَأَدْنَاهُمَا ثُمَّ أَذْنَ بِتَأْخِيرِهِمَا ثُمَّ قَالَ لِلقيمِ : اذْهَبْ وَاشْتَرْ لَهُمَا جَرْتَينِ وَأَرْحَنِي مِنْهُمَا ، وَعَلَقَ الْجَمْهُورُ الْأَرْمَنِيُّ عَلَى الْحُكْمِ : بِأَنَّ الْقَاضِيَ لَمْ يَحْسَنْ أَنْ يَحْكُمَ فِي جَرْتَيْنِ حَتَّى غَرَمَهُمَا .. وَقَالَ الْقَاضِيُّ : سَبَحَانَ اللَّهِ ، أَوَّلًا يَرْضَى الْجَمْهُورُ أَنْ يَحْكُمَ فِيمَا أَحْسَنَ ، وَأَغْرَمَ فِيمَا لَا أَحْسَنَ .

وَبَلَغَتِ الْقَضِيَّةِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِيَغْدَادِ .

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ زِيَادَ : فَقَلَّا لِأَبِي يُوسُفَ : كَيْفَ الْجَوابُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؟
قَالَ : «إِنْ كَانَتِ الْجَارِيَتَانِ وَضَعْنَا الْجَرَةَ فِي مَسْتَرَاحِ الْمُسْلِمِينَ ، فَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا جَاعِلَةً جَرْتَهَا فِي حَقِّهَا ، غَيْرَ جَانِيَةٍ عَلَى صَاحِبَتِهَا وَإِنْ كَانَتَا وَضَعْنَا الْجَرَتَيْنِ فِي غَيْرِ مَسْتَرَاحِ الْمُسْلِمِينَ ، فَكُلُّ وَاحِدَةٍ جَانِيَةٍ عَلَى صَاحِبَتِهَا ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ قِيمَةً جَرَةً صَاحِبَتِهَا» .

وَإِنْ كَانَتِ إِحْدَاهُمَا فِي مَسْتَرَاحِ وَالْأُخْرَى فِي غَيْرِ مَسْتَرَاحِ ، فَالْيَتِي فِي غَيْرِ الْمَسْتَرَاحِ جَانِيَةٌ عَلَى الْيَتِي فِي الْمَسْتَرَاحِ .

بلغ من نفوذ القضاء ، في العهد العراقي الشأن الذي يحكى به الحسن بن أبي مالك ، إذ يقول : «سمعت أبا يوسف في مرضه الذي مات فيه يقول : والله ما زنيت قط ، ووالله ما حررت في حكم قط ، ولا أخاف على نفسي إلا من شيء كان مني . فقلت له : ما هو ؟ قال : كان هارون الرشيد يأمرني أن آخذ قصص الناس فأقرأها ثم أوقع لهم فيها محضره . فكنت آخذها قبل ذلك يوم فتصفحها ، فجمعتها مرة فتصفحتها فإذا فيها قصة لنصرياني ظلم من هارون الرشيد ، أمير المؤمنين في ضيعة في يده يزعم أنه غصب عليه إياها فدعوت له : هذه الضيعة في يد من هي ؟ قال : في يد أمير المؤمنين . فاردت تقريب الأمر عليه ، فقلت له : من يبيع ثمارها ؟ قال : أمير المؤمنين قلت : ومن يجمع غالاتها ؟ قال : أمير المؤمنين . وجعلت كلما أردت منه أن يذكر خصماً غير أمير المؤمنين رد الخصومة فيها إلى أمير المؤمنين فجعلت قصته مع قصص الناس ، فلما كان يوم المجلس جعلت أدعوا بالناس رجالاً رجالاً ، حتى وقعت قصة النصراني بيدي ، فدعنته فدخل فقرأ قصته على أمير المؤمنين ، فقال : هذه الضيعة لنا ورثناها عن المتصور فقلت للنصراني : قد سمعت الذي قال ، أفلك بيته على ما تدعى ؟ قال : لا ، ولكن خذ لي بيته ، قال : فقلت لهارون : أختلف يا أمير المؤمنين ؟ قال :

نعم . فحلف ، وانصرف النصراني . قال أبو يوسف : «فما أخاف على نفسي إلا من هذا» .

قال الحسن : فقلت : وأي خوف في هذا ؟ وقد فعلت الذي فعلت . فقال : من تركي أن أقعده معه في مجلس الخصم .

فهذا المقياس الصغير لنفوذ القضاء ، نستطيع أن نقيس عليه المدى بعيد ، الذي وصل إليه الاستقرار الحكمي ، وخضوع الناس جميعهم إلى القضاء المستقل عن جميع السلطات ملكاً وحكومة وشعباً .

ويستطرد المؤرخ الصimirي ، في سرد ذيول هذه القصة الرائعة ، فيقول : «وقد أديب الشيخ النصراني قائلًا : استفه كشربة سويف .. وترى وجه أمير المؤمنين ، حين قول خصمه ، حتى قال أبو يوسف : هلكت وهلك الرجل ، ولكن الخليفة أطرق قليلاً ثم قال : «سبحان الله ولا بد من الإنفاق» .

توسيع قضاة هذا العصر في الاجتهاد المطلق ، وعلى رأسهم القاضي أبو يوسف ، وقد قال يحيى بن خالد : «لا يكون بلوغ مثل أبي يوسف للدرجة الاجتهاد المطلق موضع تردد ، ولم يتخلّف عن درجة أبي يوسف أبداً إذا جمع الفقيهي ، وسورة بن الحكم ، وأبو العباس الطوسي ، والقاضي عبد الله غاثم الرعيني ، والفضل بن حاتم ، والفضل بن عياض ، ويحيى بن معين .

ومن رأي أبي يوسف في الأخذ بالإقرار قوله :

«من ظُنِّ به أو تُوَهِّمَ عليه سرقة ، أو غير ذلك ، فلا ينبغي أن يعزز بالضرب والتوعيد والتخويف ، فإن من أقر بسرقة أو بحمد أو بقتل وقد فعل ذلك به فليس بإقراره ذلك بشيء ولا يحيل قطعه ولا أخذنه بما أقر به . وعن عمر أنه قال : ليس الرجل بمحامون على نفسه إن أجمعته ، أو أخفته ، أو حبسته أن يقر على نفسه .

وكذلك لا يعتبر إقرار الرجل عمما وجب عليه فيه الحد ، ما لم يردهه ، ثم يسأل عنه ، هل به لم ، هل به جنون ، هل في عقله شيء ينكر ، فإن لم يكن في عقله شيء من ذلك وجب عليه الحد» .

فهل يختلف رأي أبي يوسف عن أحدث رأي جنائي ، يحسبه الجاهل من نعم العصر الحاضر ؟ وهل في عرض قضاة البحث اليوم المجرم على الاختبار العقلي

لمعرفة مدى مسؤوليته بالجريدة ، إلا أخذ بالإجراء الذي قرره أبو يوسف ، في السنة الثانية للهجرة ؟ توفي عام (١٨٢) .

ومن رأيه : عدم قبول شهادة كبار الدولة .

وقد رد يوماً من الأيام شهادة الفضل بن الريبع ، وزير الخليفة الرشيد ، فعاتبه الخليفة في ذلك يسأله : لمِ رددت شهادته ؟ فقال أبو يوسف : « سمعته يقول لك : أنا عبدك ، فإنْ كان صادقاً فلا شهادة للعبد . وإنْ كان كاذباً فكنزلك ... » .

انتهى من الكتاب المذكور .

تقسيم سحنون القضاء إلى درجات

جاء في كتاب « مثل عليا من قضاء الإسلام » تأليف محمود الباقي ، المطبوع بتونس سنة (١٣٧٦) هجرية ما يأتي :

كان القضاء قبل ولادة سحنون خاضعاً لمبدأ التوحيد والتجمع ، وكان يجري في حكمه وحيدة يديرها القاضي بمعاضدة كتابه وعديله . واستمر الأمر كذلك إلى عام (٢٣٤) أربع وأربعين من الهجرة ، الذي انتخب فيه سحنون للقضاء . وقد أصبح هذا النظام ملائماً لحالة البلاد ، وامتداد العمران في أطرافها ، وتزايد عدد السكان وانتشار الحضارة ، وتلاشي سلطة المحكمين من رؤساء القبائل وكبار العشائر ، وشعور الشعب بقوه واستقلال قضائه ، ونزاهة ونفوذ حكامه ، واكتظاظ المحكمة بالقضايا وامتلاء رحابها بالمتقاضين ، وتنوعت الأقضية بما حدث من النشاط في الحركة التجارية والتبادل الاقتصادي بين عاصمة البلاد وبين ما افتحه العرب والأفريقيون من الجهات والأقاليم . وكان لزاماً أن يتاسب جهاز القضاء مع الوضع الذي أصبحت عليه مملكة فنية تخطو نحو الرقي والازدهار .

فلما ولد سحنون القضاء ، وجد نفسه تجاه هذه الحالة الجديدة ، وشاء أن يساير حركة التنظيم التي تناولت النواحي الإدارية والعسكرية والمالية ، ولم تبق إلا الناحية القضائية تنتظر المصلح الجريء والعالم المجتهد كما أدرك أن خصومه من الرجعين الذين يتوقع منهم مقاومة عنيفة لبرامج الإصلاحية ومناهضة جباره لانقلابه الخطير ، قد تشتت شملهم ، وضعفت قوتهم ، وبذلك أقدم غير هياب ولا متربّ ، وأعلن سلسلة برامج الإصلاحية .

قسم سجنون القضاء إلى ثلاثة درجات :

الدرجة الأولى : درجة القضاء الفوري (أو دائرة صاحب المظالم) وهذا النوع من القضاء عهد إلى دائرة حكمية يرجع لنظرها من حيث الموضوع كل القضايا التي لا تزيد أهميتها المالية على عشرين ديناراً في خصوص المادة المدنية .

ويرأس هذه الدائرة قاض له خبرة خاصة بالأحوال التجارية والصناعية ويعتاده الناس في معاملتهم وتعارفوه في صفقاتهم كما له حذق زائد ومهارة واسعة في التوفيق وإصلاح ذات البين وله احترام في نفوس الناس .

وتقضى هذه الدائرة قارة ومتقلقة فـهي تتبع الخصومة ، وتتنصب في أشهر أسواق العاصمة وأكثرها حركة ونشاطاً ، فـهي غير مقيدة الاختصاص بالنسبة لمرجعى النظر السرائي والشخصي والقضايا التي تتجاوز أهمية موضوعها المالي العشرين ديناراً ترفع إلى الدائرة العليا ... وقد تلقى هذه الأحداث بمزيد من الغبطة والابتهاج وحمد الناس لسجنون ابتکاره العظيم وأقبلوا على التقاضي لدى دائرة الفور حيث وجدوا فيها السرعة التي ينشدونها والقرب الذي يريدونه .

وجاء من بعد سجنون كثير من القضاة فأقرروا الدائرة الفورية ووسعوا في مشمولات أنظارها الحكمية ، فأصبحت على عهد عيسى بن مسکين قاضي القبروان تنظر في القضايا التي تبلغ أهميتها المالية مائة دينار . وكانت في ذلك العهد مستندة إلى لیاقه القاضي سليمان بن سالم الكندي .

أما في عهد سجنون فقد أسنداً قضايا الدائرة الفورية إلى كفاءة الفقيه الكبير حبيب بن نصر التميمي الذي توفرت فيه شروط الحنكة والدرأة والنشاط .

ولا تنظر دائرة القضاء الفوري في المخالفات والجحود التي تستوجب التعزير ولا في الجنایات التي تستوجب إقامة الحدود .

الدرجة الثانية : درجة القضاء البلدي (أو دائرة صاحب الحسبة) وهذه الدائرة ترجع لنظرها كل المخالفات التي ترتكب ضد المصالح العامة ، والصحة العامة والنظافة والطرق العامة ، والمؤسسات ذات الصبغة العمومية كالمساجد والمعابد والمعاهد ، وضد الأخلاق الفاضلة وحقوق التجاور والتتساكن كما يرجع لنظرها إجراء الرقابة على المكاييل والموازين ومتروضات الأسواق من أطعمة وأشربة وعلى نظام العرض والطلب وعلى راحة السكان وأمنهم .

وقد كانت هذه الدائرة قبل عهد سحنون خارجة عن أنظار كبير قضاة الملكة ويتولّها قضاة يقع تعينهم من الأمير ويكونون مسؤولين إليه وحده وهو الذي يجري رقابته عليهم ويأمر بعزلهم.

فلما أستد القضاء إلى سحنون رأى أن في خروج القضاء البلدي عن نظره مساساً باستقلال القضاء عن الإدارة والإمارة وسبباً لحدوث ارتباكات لا تسلام مع منهبه القضائي فبادر بالطالية بضم هذا النوع من القضاء إلى سلطته الخاصة ومشمولات أنظاره وتم له ذلك، فأحرز القضاء بهذا الاتصال على كمال استقلاله وعظيم نفوذه.

وأمكّن للإمام أن يحدد مرجع نظر هذه الدائرة بغاية الدقة وأن يرتب لها أعوانها ويقرر لكل عون منطقة نفوذه التالية وماله من حقوق وامتيازات وما عليه من تكاليف وواجبات واستطاع أن يستبدل الأقدمين من رجال تلك الدائرة بآخرين محززين على الثقة والتزاهة ورضي العموم والخصوص.

وبهذا أدت دائرة القضاء البلدي واجبها الخطير على أكمل وجه وساعد بفضلها النظام والأمن بين المتساكين وأصبحت البلاد الإفريقية التي تعج ب مختلف العناصر والأجناس تنافس العواصم الشرقية (ولا أقول الغربية) في ازدهارها وعمرانها ونظامتها وأمنها.

ولقضاء وأعوان هذه الدائرة وقائع وحوادث لا تكفي لتسجيلها المؤلفات الضخمة.

الدرجة الثالثة : درجة القضاء العالي (أو محكمة قاضي القضاة) وتنظر دائرة القضاء العالي أصلحة في الجنح المستوجبة للتغيرير ، وفي الجنایات المستوجبة للحدود ، وتنظر أيضاً فيما هو خارج عن اختصاصات دائرتي المظالم والحسابية .

ويتولى أمر هذه الدائرة القاضي الذي يتخبّه رجال العلم ويعينه الأمير الشرعي، ويتساوى في التقاضي أمامهما الملك والراعي والجاهل والعالم والعظيم والحقير.

وقد أصبح لهذه الدائرة في عهد سحنون من الجلال الرائع والعظمة الهائلة ما أخضع لها حملة التيجان وأرعب أولي المكانة والشأن وغدت الأقدام ثبت أمام العروش المنعنة وتترلزل أمام بيت القاضي وحول سدته التالية الخشنة .

وشاء سحنون أن يتخذ بيت قضايه في احضان المسجد الجامع وبين أحد أحجنته الخارجية فجعل عليه بذلك المهابة والإكبار وأفاض عليه من روحانية العبادة وجلال التجدد والنسك ما جعله يتعد عن المادة ويقترب من الناموس الأعظم حتى أدى ذلك إلى تشجيع الصعلوك على مقاضاة الأسيداء والكبار، ومجالسهم الجنب بالجنب ومجادلتهم الكلمة بالكلمة.

وقد ابتكر سحنون خطة الكتابة العامة لدائرة القضاء العالي، وأسندها إلى مزاحمه العلامة القاضي سليمان بن عمران زعيم الكوفيين والمرشح الثاني لولاية القضاء الأفريقي، وقد سحنون أن يصيّب بذلك التعيين ثلاثة أهداف:

الأول: إرضاء أتباع المذهب الكوفي في شخص زعيمهم.

الثاني: الاستفادة من مواهب سليمان وغزير علمه.

الثالث: تر فيه على القضاء (فعلاً فقد اتّخَبَ بعد ذلك في منصب القاضي الأكبر).

ولم يتردد سليمان في قبول ما عرضه عليه سحنون حرصاً على زيادة الارتقاء من منهله الذي لا ينضب، ومعينه الذي لا يغور، ورغبة في ممارسة ما عرف عن سحنون من شدة التعري وقوّة البداهة وبراعة الاستنتاج.

كما أحدث سحنون ديوان التسجيل وأناطه بعهدة عالمين فقيهين يتوليان تسجيل الأحكام والاعترافات والشهادات في مجلس القاضي وبين يديه.

أحدث سحنون نظامي الاستقدام الشخصي كتابة و مشافهة ، والاستقدام الجيري (ولو أنه لم يضطر كثيراً لاستعماله).

وكان إذا استدعي كبير في المثلول بين يدي القاضي يأمر عون المحكمة بسحبه ووضع حبل في عنقه إن اقتضى الحال ذلك وعمد ذات مرة إلى إذاعة منشور في أطراف المملكة يستنفر فيه جيشاً من الفتيان والشبان ليقدموا عليه وينفذوا أمره.

كما أحدث طريقة على الغائب (وهي التي جرى عليها في الظروف الأخيرة، عمل المحاكم التونسية).

كما أحدث الجدول اليومي المعه لضبط أسماء المتقاضين بحسب أسبقيتهم في الحضور وأوجب أن لا يخرج نظام الأسبقية إلا إذا حضر مضطراً أو ملهوف فيكون له حق الأولوية ، وكما قرر أن يجري القضاء في بيت المحكمة بمحضر

الكاتب وشاهد التسجيل والخصوم ونوابهم (باستثناء أمراء بني الأغلب الذين كان لا يقبل عنهم نواباً).

لم يكن سحنون بتقاضى أي راتب أو حراية ، في مقابلة قيامه بـأمورية القضاء وكان يتلقى من إيراداته الخاصة التي تبلغ غالاتها السنوية خمسمائة دينار وكان الأعوان والكتاب يتلقاون رواتبهم من مال الجزية .

وقد نجم عن زهد الإمام في الجزایات وعطایات الدولة والملوك أن صرّح يوماً أمیر القیروان تصریحاً سجله التاریخ بمداد الفخر ، حيث قال : «إن سحنون لم يركب منا دابة ولم يأخذ منا رزقاً ولم يتعرض لنا بسداد حاجته فلم يخافنا ..» .

ومن إصلاحات سحنون تحرير إيداع الأمانات بدار القضاء ، وتسمية أمناء توضع تحت أيديهم الأمانات على نظام واحتياطات خاصة وبشروط معينة .

يمكن أن نقارن بين مذاهب سحنون الأفريقية في الإصلاح القضائي ومذاهب الإمام أبي يوسف يعقوب العراقي ، وأن نفاخر بما أقدم عليه قاضينا العظيم ومن جاء بعده من التغييرات الجوهرية التي جعلت أدلة الحكم هنا وهناك تسابر إلى أبعد حد ما بلغته المملكة الإسلامية من رقي وحضارة واتساع وامتداد .

وقد رأينا كيف كانت القیروان تنافس دار الخلافة الإسلامية في أزهر عصورها وأقوى عهدها في ابتكار المنهج الحكيمية وإقامة القضاة الأعلام ومنح السلطات الكاملة للمؤسسات القضائية وتأليف المصنفات الضخمة عن فقه القضاء علمًاً وعملاً وعن الواقع والحوادث وقد تعددت المحاكم في عاصمة القیروان كما حدث ذلك في بغداد وأمتازت القیروان ، بأنها عقدت لرجالها لواء قيادة الجيوش ، وولاية القضاء في شخص رجل واحد وهو : القائد القاضي أسد بن الفرات فاتح صقلية وصاحب الآراء الفذة في الكتاب والسنّة والمحتجد الموفق . انتهى من الكتاب المذكور .

صور ما كتبه الخلفاء والسلطانين ملئ بولونه القضايا

صورة ما كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضايا
كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري :
بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعه ، فافهم إذا أدلني إليك فإنه لا ينفع تكلم بمحق لا نفاذ له آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطبع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حراماً أو أحل حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

الفهم الفهم عندما يتجلج في صدرك مما لم يلتفك في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبهما إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بيته أمداً يتنهى إليه ، فإن أحضر بيته أخذت له بمحقه وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفي للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا بمحلوذاً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو قرابة فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم الشهادات ، ثم إياك وانقلق والضجر والتاذى بالناس ، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فإنه من يخلص نيته فيما ي فيه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكتفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه ، هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام عليك . انتهى من كتاب البيان والتبيين .

ما كان يكتبه ولاة الأمور عند تولية أحد القضايا

جاء في الجزء الرابع عشر من كتاب «صبح الأعشى» للقلقشلندي الذي فرغ من تأليفه سنة (٨١٤) أربع عشرة وثمانمائة من الهجرة ، ما يأتي :

« وهذه نسخة تقليد »

الحمد لله الولي الحميد الفعال لما يريد نحمده على ما أولاًنا من إحسانه فهو المولى ونحن العبيد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة توصلنا إلى جنة نعيمها مقيم ، وتقينا من نار عذابها شديد أليم وأشهد أن محمداً عبده رسوله النبي الكريم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المشتملين على الطاعة والقلب السليم ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فإن مرتبة الحكم لا تعطى إلا لأهلها والأقضية لا ينتصب لها إلا من هو كفاء لها ، ومن هو متصرف بصفات الأمانة والصيانة والعفة والديانة ، فمن هذه صفتة استحق أن يوجه ويستخدم ، ويترقى ويقدم .

ولما علمنا من حال فلان الفلاياني الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة فإنه قد حوى المعرفة والعلوم والاصطلاح والرسوم وجمعت فيه خصال حملتنا على استتابه وقوتنا على نيابة استغنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا .

فليياشر ذلك متمسكاً بجعل الله المتين فإنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر الحسينين لهم وليرجتهد في إقامة الدين وفصل الخصومات ، وفي النظر في ذوي العدالات والتلبس بالشهادات وإقامة البينات ، فمن كان من أهل العدالة نزها وإلى الحق متوجهاً ، فليراعه ويقدمه على أقرانه ، ومن كان منهم خلاف ذلك فليقصه ويطالعنا بحاله ولينظر في أمر الجموع والمساجد ، ويفعل في ذلك الأفعال المرضية ، ومن أموال الأيتام يصرف منها اللوازم الشرعية فمن بلغ منهم رشيداً أسلم إليه ما عساه يفضل له منها ، ويقرر الفروض ، ويزوّج الحاليات من الأزواج والعدد والأولياء من الأزواج الأكفاء ويندب لذلك من يعلم ديانته ويتتحقق أمانته ويتخير لكتابة الصكوك من لا يرتاب بصحتها ولا يشك في دياناته وخبرته ، وينظر في أمر المتصرفين ومن عنده من المستخدمين ، فمن كان منهم على الطريقة الحميدة فليحرجه على عادته ولبيقه على خدمته ومن كان منهم بخلاف ذلك فليستبدل به وليقصه .

هذا عهدي إليك وحجتي غالباً عند الله عليك فاعلم هذا واعمل به .

وكتب ذلك عن الإذن الكريم الفلاياني وهو في محل ولائيه وحكمه وقضائه ، وهو نافذ القضاء والحكم مافيها في التاريخ الفلاياني (ثم يكتب المحاكم علامته والتاريخ) وحسبنا الله ونعم الوكيل . انتهى من صبع الأعشى .

ثم ذكر صاحب الكتاب المذكور بضعة نسخ لتقاليد الولاة لم ذكرها اكتفاءً
بما قدمناه .

صورة ما كتبه الملك الأفضل على ابن السلطان صلاح الدين بن أبي ملك مص

للشيخ زين الدين بن بندار بوليه القضاة وذلك سنة خمس وسبعين
وأربعين هجرية والكتاب من إنشاء الصاحب ابن الأثير الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم هـ رب أوزعني أنأشكر نعمتك التي أنعمت علي
وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين هـ .

من السنة أن تفتح صدور التقليدات بدعاء يعم بفضله ويكون وزاناً للنعم
الشاملة من قبله وخير الأدعية ما أجراه الله على لسان نبي من الأنبياء أو رسول من
رسله ، وكذلك جعلنا من هذا التقليد الذي أمضى الله قلمنا في كتابه وصرف
أمرنا في اختيار أربابه ، ثم صلينا على رسوله « محمد » الصادع بخطابه ، الساطع
بشهابه الذي جعلت الملائكة من أحزابه وضرب له المثل بقاب قوسين في اقتراه
وعلى الله وصحبه الذين منهم من خلفه في محراه ، ومنهم من كملت به عدة
الأربعين من أصحابه ، ومنهم من جعل ثواب الحياة من ثوابه ، ومنهم من بشر
أنه من أحباء الله وأحبابه .

(أما بعد) فإن منصب القضاة في المناصب بمنزلة المصباح الذي به يستضاء ، أو
بمنزلة العين التي عليها تعتمد الأعضاء وهو خير ما رقمت به الدول مسطور كتابها
وأجزلت به مدخول ثوابها وجعلته بعد الإعجاب كلمة باقية في أعقابها ، وقد
جعله الله ثانى النبوة حكمًا وأورثها علمًا والقائم بتتنفيذ شرعها ما دام الإسلام
يسمى لا يستصلاح له إلا الواحد الذي يعد حفلاً في محفظه وإذا جاءت الدنيا
بأسرها خفت على أمرته .

وقد أح لنا النظر مجتهدين وعونا على توفيق الله معتضدين وقدمنا قبل ذلك
صلوة الاستخاراة وهي سنة متبوعة وبركة في الأعمال موضوعة لا حرم إن أرشدنا
في أثرها إلى من صرخ الرشد فيه بأثره وقال الناس : هذا هو الذي جاء على فترة

من وجود أنظاره وهو أنت أيها القاضي (فلان) مهد الله جنبك وجعل التوفيق من
صحبك وأنزل الحكمة على يدك ولسانك وقلبك ، وقد قلناك هذا المنصب بمدينتك
مصر وأعمالها وهي مصر من الأمصار تجمع وجوهاً وأعياناً ، وقد رسم بأنه
كرسي مملكته عزٌّ وبياناً ، وعظمت سلطاناً ، ولما قلناك هو علمنا أنه سيعود
وهو بك غض طري ، وأن ولايته نيت منك بكفرٍ فهي بك حرية وأنت بها
حرى ، فمن طلبها من الناس فإنها لم تكن عنده مطلوبة ، ومن انتسب في وجاهته
إليها فليست وجاهتك إليها منسوبة وما أردت بها شيئاً سوى تحمل الأثقال وبيع
الراحة بالتعب في الأشغال ، وتعريف النفس لضائقة الضيم والحييف ، والوقوف
على الصراط الذي هو أدق من الشعراً وأحد من السيف ولكنك في خلال ذلك
تشتري الجنة بساعة من ساعاتك وإذا رعيت مقام ربك فقد أرصلته لرعاياتك
وليس في الأعمال الصالحة أقوم من إحياء حق وضع في لحده أو رد حق مطلت
الأيام برد فاستخر الله تعالى وتول ما وليناك بعزيزه لأنك بها شامة ولا تأخذها في
الله ملامة وهذا زمان قد تلاشت فيه العلوم وغفت رسوم الشريعة حتى صارت
كالرسوم ومشت الأمة المطيطاً وخلفها أبناء فارس والروم ، وإذا نظر إلى دين الله
وجد وقد خلط أمره خلطًا ونخطا رقاب الناس من هو حديير بأن ينخطا وآذنت
الساعة بالاقتراب حتى كاد أن يستوي ما بين السباقة والوسطي والمتصدي لحفظه
يعد نقله بنقلين ، وفضله بفضلين ويؤتيه الله من رحمته كفلين وحق له أن يتقدم
على السلف الصالح الذي كان كثيراً رشد، حسناً هديه وقصده وكان قريباً
برسول الله ﷺ فإن أولئك لم يؤتوا من جهالة ولا حرموا من مقالة ولا حدث في
زمانهم بدعة وكل بدعة ضلاله ونحن نرجو أن يكون ذلك الرجل الذي وزن
بالناس فرجح وزنه وبسب القرون الأولى وإن تأخر قرنه ولقد ألبسنا الله بك لباساً
يقي جديداً وإياك ثم إياك أن تقف معنا موقف الاعتزاز وما نخشى عليك إلا
الشيطان الناقل للطياع في تقاليب الأطوار ولطالما أقام عابداً من مصالاه وغره
باتتساك حيله ودلاه ولما كانتك عندنا أضرينا عن وصيتك صفحأً وتوسناً أن
صدرك قد شرحه الله فلم نرده شرحاً ، والذي تضمنه تقليد غيرك من الوصايا لم
يسفر إلا عن نقاب خطى الأقلام ، وقصر أقوالها عن المماثلة من مراتب أولى التعليم
ويبين العلماء الأعلام ولا يفتقر إلى ذلك إلا من ثقل منصب القضاء على كاهله
وقضى جهله بتحريمه عليه وفرق بين عالم أمر وجاهله ، وأما أنت فإن علم القضاء

بعض مناقبك وهو من أوانسك لا من غرائبك لكن عندنا أربع من الوصايا لا بد من الوقوف فيها على سنن التوقيف وإبرازها إلى الأسماع في لباس التحذير والتخويف .

فالأولى منها وهي المهم الذي زاغت عنه الأ بصار و هلك من هلك فيه من الأ بار ولربما سمعت هذا القول فظننته مما تجوز في مثله القائلون وليس كذلك بل هو نباً عظيم أنتم عنه غافلون ، وستقصه عليك كما فوضناه إليك وذلك هو التسوية في الحكم بين أقوالك وأفعالك والأخذ من صديقك لعدوك ومن يمينك لشمالك وقد علمت أنه لم تخلي دولة من الدول من قوم يعرفون بطيش الحلوم ، ويعترون بقرب السلطان وهو ظل عليهم لا يلهم وإذا دعوا مجلس الحكم حملهم البطر والأشر على الامتناع عن مساواة الخصوم ولا يفرق بين هؤلاء وبين ضعيف لا يرفع يداً ولا طرفاً ولا يملك عدلاً ولا صرفاً ونحن نبرأ من مخالفة الدرجات في حكم العزيز الحكيم ولعن الله الذين نسخوا آية الرجم بما أحدثوه من التجبية والتحريم ، وقد بسطنا يدك بسطاً ليس له انقباض ، ولا عليه اعتراض ، وأنت القاضي الذي لا يكون اسمك منقوضاً فيقال فيه أنك قاض .

وإذا استقللت بهذه الوصية فانظر فيما يليها من أمر الوكلاء القائمين بمجلس الحكم الذي لا ترد أحداً منهم إلا خلياً لوبأ أو خادعاً خلويأ ، وإذا اعتبرت أحوالهم وجدوا عذاباً على الناس مصبوياً ولا يتم لهم إلا في ست القضايا ونعمها ولا ينحوون في شيء منها إلا نحو إيمانها وترجمتها فأرجح الناس من هذه الطائفة المعروفة بنصب الحبالة ، التي تأكل الرشاء وتخرجها في مخرج الجمالية وظهر منها مجلسك الذي ليس بمجلس ظلم وزور وإنما هو مجلس عدل وعدالة ، ومن العدل أن يخلو بين الخصوم حتى يكافح بعضهم بعضاً ، والمهل في مثل هذا المقام لرعاي الرعاية لما يقضى ، وإن كان أحدهم أحن بمحاجته فكله إلى عالم الأسرار وإذا حكمت له بشيء من حق أخيه فلا تبال أن يقطع له قطعة من النار .

و كذلك فانظر في الوصية المختصة بالشهاداء فإنهم قد تكاثرت أعدادهم وأهمل اتقادهم ، وصار منصب الشهادة يسأله وسؤاله من الحرام لا من الحلال ، وأصبح وهو يورث عن الآباء والأولاد والوراثة تكون في الأموال . والشاهد دليل يمشي القضاء على منهاجه ، ويستقيم باستقامته ويعود باعوجاجه ، فائف كل من

صورة ما كتبه الملك الأفضل على ابن السلطان صلاح الدين بن أبوب ملك مصر

شانتك منه شانية أو رايتك منه راية ، وعليك منهم بما تخلق بخلق الحياة والورع وأخذ بالقول الذي على مثلها فاشهد أو فدع .

وأما الوصية الرابعة فإنها مقصورة على كاتب الحكم الذي إليه الإيراد والإصدار وهو المهيمن على النقض والإمراء ، وينبغي أن يكون عارفاً بالحلي والرسوم والحدود والرسوم وأن يكون فقيهاً في البيوع والمعاملات والدعاوي والبيانات ومن أدنى صفاته أن يكون قلمه سائحاً ، وخطه واضحًا وإذا استكملا ذلك فلا يستصلاح حتى يكون العفاف شعاره والأمانة عيشه والحفظ والعلم سورة وسواره وهذا الرجل إن خلوت به فامض يده فيما يقول ويفعل واستسم إليه استامة الواقع الذي لا ينجل والله يختار لنا ذلك فيما بناه من المراسدين و يجعل أقوالنا ثماراً يانعة إذا كانت الأقوال من الحصائد .

وبعد أن بوأناك هذه المكانة وحملناك هذه الأمانة فقد رأينا أن نجمع لك من تنفيذ الأحكام وحفظ أصولها وأن لا تخليك من النظر في دليلها ومدلولها فإن الترك يوحش العلوم من معهود أماكها وينهاب بها من تحت أفعال خزائنها ومنصب التدريس كمنصب القضاء آخر يشاً من عضده ويكثر من عدده فتولي المدرسة الفلانية عالماً إنك قد جمعت بين سبعين في قراب وسلكت ياسين إلى تحصيل الشواب وركبت أعز مكان وهو تنفيذ الحكم وجالست خير جليس وهو الكتاب .

ونحن نوصيك بطلبة العلم وصيبيين ، إحداهمما أعظم من الأخرى وكلتاهمما ينبغي أن تصرف إليهما من اهتمامك شطراً ! فال الأولى : أن تتخو لهم في أوقات الاشتغال وتكون لهم كالرائض الذي لا يسط لهم بساط الراحة ولا يكلفهم مشقة الكلال ، والثانية : أن تذر عليهم أرزاقهم ذرار المسامع وتنتزلهم فيها على قدر الإفهام والقرايح وعند ذلك لا تعدم منهم منع في كل حين ، ويسرك في حالتيه من دنيا ودين والله يتولاك فيما ينويه صالحة ويوافقك للعمل بها لا لأن يكون في قلبك سانحة .

وقد فرضنا لك في بيت المال قسماً طيباً مكسبه هنيناً ما كله ومشربه لا تعاقب غداً على كثيره وإن حوسبت على فتيله وتفيره والمفترض في هذا المال ينبغي أن يكون على قدر الكفاف لا على نسبة الأقدار ورب متخصوص فيما شاءت نفسه من مال الله وما رسوله ليس له في الآخرة إلا النار والدنيا حلوة خضرة تلعب بذوي الألباب وعلاقتها بتجدد الأيام فلا تنتهي الآراء منها إلا إلى آراء ومن

أراد الله به خيراً لم يسلك إليها وإن سلك كان كمن استظل بظل بشحرة ثم راح وتركها ونحن نخلص الضراوة والمسلمة في السلامة من تباعتها وأن نوفق لرعي ولالية العدل والإحسان إذ جعلنا من رعاتها وهذا التقليد ينبغي أن يقرأ في المسجد الجامع بعد أن يجمع له الناس على اختلاف المراتب ما بين الأبعد والأقرب والعراقيب والنواب والأشائب وغير الأشائب ول يكن قراءته بلسان الخطيب وعلى منبره وليقل هذا يوم رسم بمحيل صيته واغتصاض حضره ثم بعد ذلك فأنت مأخوذه بتصفح مطلوبه على الأيام وإثباته في قلبك بالعلم الذي لا يمحى سطره إذا محيت سطور الأقلام.

واعلم أنا غداً وإياك بين يدي الحكم العدل الذي تكف لديه الألسنة عن خطابها ، وتسقط المخواج بالشهادة على أربابها ولا ينجو منه حيئذا إلا من أتى بقلب سليم ، وأشفع من قول نبيه : لا تؤمن على اثنين ولا تولين مال يتيم ، والله يأخذ بناصية كل منا إليه ، وبخرجه من هذه الدنيا كفافاً لا له ولا عليه ، والسلام .
انتهى من كتاب حسن الحاضرة للسيوطى .

فانظر رحمك الله تعالى إلى ما كان يكتبه ولاة الأمور للقضاء عند توليتهم فإذا تأملت هذا الكتاب الملكي للقاضي تجد أنه يحتوي على عدة مسائل وهي :
١) افتتاح المكتبة بدعاء من القرآن الكريم شامل للحمد والشكر والثناء على الله تعالى .

٢) ثم الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه الطاهرين .

٣) ثم كيفية انتخاب القاضي بعد الاستخاراة الشرعية كما هو السنة في كل الأمور .

٤) ثم نصيحة القاضي بمراعاة منصب القضاء وأداء الأمانة الملقاة على عنقه .

٥) ثم توصية القاضي بأربع وصايا كل منهم أهم من أختها :
فالأولى : مختصة بنفس القاضي في تسوية الحكم بين الناس .

والثانية : مختصة بتطهير الحواشي من يلزمون مجلس القضاء ، حتى لا يعاملون الناس بالخدع والخبل وأخذ الرشوة .

والثالثة : مختصة بانتقاء و اختيار الشهود الذين بهم يظهر الحق من الباطل فلا يقبل شهادة من يتوسم فيهم الشك والريبة .

والرابعة : مختصة بكتاب القاضي نفسه وهو ما نسميه اليوم بكتاب الضبط فيجب أن يكون من أهل العلم فقيها حسن الخط جيد لإنشاء أمينا عفياً .

٦) ثم يتضمن هذا الكتاب الملكي للقاضي توليته القضاء مع إسناد تدريس العلم إليه ، ليجتمع له تنفيذ الأحكام مع مذاكرة العلوم فإن آفة العلم ترك الاشتغال به فانتظر رحمة الله إلى هذه الحكمة الدقيقة من ولادة الأمور مع قضائهم .

٧) ثم توصيته بطلبة العلم بوصيتين :

الأولى : النظر في أمر تعليمهم بسهولة وراحة بحيث لا يتطرق إليهم السآمة والملل .

والثانية : إجراء الأرزاق عليهم ليرتاح بالهم عن الاشتغال بأمور المعيشة حتى يتفرغوا لطلب العلم .

٨) ثم تخصيص راتب طيب من الحال للقاضي على حسب ما يكتفي به دون تقدير ولا تبذير حتى يتفرغ للقيام بأداء وظيفته فيرتاح قلبه من الانشغال بأمور المعيشة .

٩) ثم الأمر بقراءة الكتاب الملكي بهذا التقليد على الناس في المساجد والجوامع ليظهر عندها ما عهد به الملك للقاضي فيعرف الناس ما لهم وما عليهم .

١٠) ثم تحذير القاضي من مخالفة الشرع وتذكيره بأنه سيقف بين يدي أحكم المحاكمين يوم القيمة ويسأله عن الصغيرة والكبيرة ، ثم الخاتمة بالدعاء والتوفيق والسداد ، وأن يأخذ الله بناصيحتهم لطريق الخير والرشاد .

هذا هو ما يتضمن المرسوم الملكي لقضاة زمانهم في ذلك العصر الأنور في القرن الخامس الهجري .

فانتظر الفرق العظيم في تقليد القضاة بين عصرهم وعصرنا وكتابتهم وكتابتنا وصيغة مرسومهم وصيغة مرسومنا ، والفرق بين أحوالهم وأحوالنا ومعاملاتهم ومعاملاتنا .

اللهم عفوك وغفرتك وفضلك وإحسانك فلا قدرة لنا على اتباع صراطك المستقيم إلا بتوفيقك وإحسانك وفضلك فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

صورة مأكثبه ملك الأندلس للعلامة محمد بن سليم بولاية القضاة

جاء في كتاب «مُثل عليا من قضاء الإسلام» تأليف الأستاذ محمود الباقي، ما يأتي : في فجر اليوم الخامس عشر من شعبان عام ثلاثة وخمسة وخمسين خرج أمير المؤمنين الحكم المتصر بالله ، ملك الأندلس إلى ديوانه لتصريف الشؤون اليومية، ودخل عليه والي قرطبة لتلاؤه تقريره الليلي . وجاء في التقرير أن قاضي الملكة منذر بن سعيد في حالة احتضار . وارتبك الأمير واستوى واقفاً وجعل يضرع إلى الله أن يوفقه إلى اختيار خلف يطمئن إليه في إقرار الحق وإقامة العدل ثم أمر باستدعاء شيخ الشريعة ورجال العلم . ولما اكتمل الجمع أعلمهم بأنه دعاهم ليأخذ رأيهما في اختيار من يخلف منذر بن سعيد . وفيما هم يعدون خصاله ويدركون مجالسه وأخباره ، إذ ورد الإعلام بموته فاتفق المجتمعون على انتخاب محمد بن السليم لما هو معروف به من الفضل والعلم والفهم ، وحسن النظر في الأمور ، وجميل الخلق .

أمر الأمير بتحرير عهد الولاية لحمد بن إسحاق بن السليم ليتلى في جامع قرطبة وينهى للقاضي المنتخب فكتب العهد على الصورة الآتية :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابٌ أَمْرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحَكَمُ الْمُتَصَرُّ بِاللَّهِ حَمْدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ السَّلِيمِ، وَلَا هُوَ خَطْطَةُ الْقَضَايَا، وَإِخْتَارَهُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَرُفِعَ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ عِنْهُ فِي تَفْيِذِ الْأَحْكَامِ غَيْرِ مُلْطَقِ يَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلِسَانِهِ إِلَّا بِالْعَدْلِ».

ورسم له في كتابه رسوماً بدأ فيه بأمانة الله عز وجل إليه وجعل الله الشهيد بها عليه أمره بتقوى الله العظيم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وأن يجعل كتاب الله أمامه ينظر فيه نظر المتفكر المعتبر . فإنه عهد الله الذي بعث به نبيه ﷺ فأحل حلاله وحرم حرامه وأمضى أحکامه وفارق الأمة على أنهما لن يضلوا ما اتبعوه فهو العروة الوثقى والطريق المثلث ، والنهاج المنير ، ودين الله القوي .

وأمره أمير المؤمنين أن يقتدي بسنة رسول الله ﷺ التي بها عملت الأئمة وعليها اتفقت الأمة . فالحق معروف والباطل مكشوف ، وبينهما مشتبهات فيها يحمد التوقف ، وعنهما يشكر التثبت ففي كتاب الله تعالى اسمه وسنة نبيه ﷺ

أصل الدين وفرعه ودليله وتأويله ومن يرد الله به خيراً يوفقه للاقتاء بهما، والاقتباس منها.

وأمره أن يصلح سريرته فيها يصلح الله علانيته وأن يرأ من الموى فإنه مضلة عن طريق الحق ، وأن يجعل الناس في نفسه سواء إذا جلس للحكم بينهم ، حتى لا يطمع فيه الشريف ولا يأس منه الضعيف وأمره أن يعتبر أمره وما قوله ، فيعلم أنه راكم طريقاً متتهاها إلى الجنة أو إلى النار ، ليس عن أحدهما مصرف ولا من بينها موقف . فحق لمن أراد النجاة أن يستكثر من الحسنات ، ويعن دينه من أراد أن يؤنسه في الشبهات . ويعلم أنه حاكم في ظاهره محکوم عليه في باطنه تطوى كل يوم صاحفته على ما أودعها حتى ينظر فيها غداً بين يدي الله عز وجهه ^{﴿يَوْمَ تُوفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسِبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾} فمن حاسب نفسه في الدنيا كان أيسر حساباً في الآخرة .

وأمره أن يتحفظ في حين وقوع الشهادات عنده ، فلا يقضى بين المسلمين منها إلا بما أقامه به التحقيق على السنة العدول ذوي القبول وإن استراب من شهادة أحدهم وقتاً ما أن يبحث عنها فإن ثبت أنه ارتضى ، أو شهد بالموى فعليه أن يسقط شهادته ويخلع عدالته تنكلاً له ، وتشدیداً لمن خلفه وأن يحمل على الناس معارض الوکلاء على الخصومات ويطرح أهل اللدد الظاهر منهم ، ولا يحمل فضل حجاجهم عنهم لا يقوم بهم .

وأمره أن يحترس بأموال اليتامي ولا يولي عليهم إلى أهل العفاف عنها ، وحسن النظر فيها وأن يجدد الكشف والامتحان عن أموال الناس والأحباس واليتامي ويمتنع من قبالتها إلا على وجوهها ، مما لا بد منه من التنفيذ فيها ، وطلب الريادة عند ذري الرغبة في قبالتها .

وأمره أن يختبر كاتبه وحاجبه وخدمته ويتفقد عليهم أحواهم إذا غابوا عن بصره .

وأمره أن لا يعجل في أحكامه فمع العجل لا يؤمن الزلل وأن يرفع إلى أمير المؤمنين ما أشكل عليه الفصل فيه ليصدر من رأيه ما يعتمد عليه إن شاء الله والله يسأل أمير المؤمنين التوفيق عنه وفضله .

وكتب يوم الاثنين النصف من شعبان سنة (٣٥٣) .

التوقيع

الحاكم المستنصر بالله

انتهى من الكتاب المذكور .

نبذة عن بعض قضاة المسلمين في العصور المقدمة

لما كان أمر القضاء صعباً خطيراً فإن كبار العلماء في العصور المقدمة كانوا ينفرون من تولي القضاء نفوراً تاماً وذلك خوفاً من عدم إقامة العدل بين الخصمين كما يرضى الله ورسوله فإنه لا بد أن يميل الإنسان على أحد الخصميين أو أن يميزه بشيء أو أن يقبل فيه توصية بعض الحكماء والوزراء مثلاً، أو أن يقبل رشوة أو هدية أو يساوم في نجاح القضية بنفسه أو بواسطة بعض الكتبة خصوصاً في آخر الزمان الذي يكون فيه من العجائب ما يكون إلا من عصمه الله تعالى عن الخطأ والزلل وقليل ما هم . ومن هنا قال رسول الله ﷺ : «قاضيان في النار وقاض في الجنة ، قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ، وقاض عرف الحق فحار معتمراً أو قضى بغير علم فهما في النار». رواه الحاكم .

وأيضاً لا بد للمحكوم عليه أن يكون خصماً للقاضي ، خصوصاً في هذه الأزمنة وذلك من الجهل بالأحكام وقلة الإذعان للحق وإلى هذا يشير الشاعر بقوله :

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدل

ولكن هناك طائفة من فحول العلماء وكبار الزاهدين الأتقياء من ينطبق قول الله تعالى : **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)** قد تولوا القضاء فقضوا بين الناس بما أنزل الله فلتشرف بذكر نبذة يسيرة من سيرتهم الحميدة بين الناس للعظة والاعتبار ولتنقل شيئاً من عدفهم ونصرتهم للحق وشدة ورعهم وزهدهم من كتاب «مُثُلُّ عَلِيًّا مِنْ قَضَاءِ إِلَسَامٍ» تأليف الأستاذ محمود الباجي والمطبوع سنة (١٣٧٦) من الهجرة فقد جاء فيه ما ملخصه :

سيرة القاضي حماس بن مروان رحمه الله تعالى

لم يترك الأمير زيادة الله وسيلة من وسائل الإذاعة إلا اخزنها لإشعار العموم بأنه اختار لقضاء الجماعة بالقبروان العالم الزاهد الورع أبو القاسم حماس بن مروان بن سماك الهمذاني خلفاً عن محمد بن أسود الصديقي الظالم المستبد وأقيمت الأفراح في كل النواحي ابتهاجاً بزوال عهد بغرض واستهلال عهد عدل واستقرار ، وبالغ بعض الكبار في إظهار السرور فذبح الذبائح ومد الولائم وأطعم الفقراء .

بينما كان الشعب القيرياني في أعياده وولاته كان القاضي حماس في بيته يتتحدث إلى خادمه قائلاً: أي شيء يا أمّة الله تأكله الليلة .. وترد عليه الخادمة بأن البيت لا يحتوي على أي شيء من الطعام بارداً أو طبيحاً ، وأن دقيق الشعير نفد ، ونفذ كذلك التمر والرغيف . ويستدعي القاضي ابنه سالماً ، ويأمره بأن يحمل الفأس ويسعى في بيته ويشتري بشمنه خبزاً وزيتاً ، وينهب الابن وبيع فأس المنزل ويشتري الخبز والزيت طعاماً لأهل البيت وتفرغ الأسرة من صلاة العشاء ويقبل كل فرد منها على نوافل الليل ، فينهمك في العبادة والصلوة ، وحتى جوهرة الخادمة الصالحة تأوي إلى ركتها تصلي وت بكى وتدعى إلى طلوع الفجر ، ويتهي حماس من صلاته ويطوف على أهلها فإذا ابنه سالم يتهدج في بيته ، لتواره دوي ، وإذا ابنه محمد يتلو قرآن الفجر في صوت غالبه الخشوع والتأثر ، والعجوز أمهما مستغرقة في تسبيح وتكبير ، والخادمة جوهرة تتهل وتدعى .

ويرفع حماس يديه إلى السماء يحمد الله ويصرخ قائلاً: «يا آل حماس ألا هكذا فكونوا» .

لم تترك مشاكل القضاء لحماس الوقت الكافي ليذرر موارد عيشه ، فكان يضطر لنسخ الكتب بالليل ، ويعبعها للإنفاق من أيامها ، لأنه أصر على أن لا يأخذ من خزينة الملك ولا من بيت المال أي مبلغ أو عطاء في مقابلة قيامه بالقضاء . واضطربت قلة ذات اليد لفصل خادمه الفاضلة عن المنزل ، خشية عليها من الجوع والاحتياج ، وبكت جوهرة على فراق سيدها ، وذهبت عند سيد آخر ، وأقبل الليل فرأى أهلها يسرعون إلى النوم دون أن يقوم بعضهم بصلة الليل ، وفرت تحت جنح الظلام عائنة إلى بيت سيدها حماس ، ولما سألهما عن سبب عودتها أجابته بأنه سلمها إلى قوم كفراً ، فأنكر عليها هذا الادعاء لأنه إنما

أسلمها إلى قوم مسلمين وردت عليه بأنه لا يقومون الليل معتقدة أن من لا يقوم الليل كافر.

رغم أن حماساً رب ديوانه على أحکم صورة ، وعهد إلى موسى بن القطان بالقضاء المركزي يعضده أبو عبد الله الضراب ، وعهد إلى العلامة عبدالرحمن الورقة بقضاء المظالم ، وأبي العباس إسحاق بن إبراهيم الأزدي بقضاء التخوم ، ورغم انتسابه لفصل القضايا كامل النهار فقد أعلن أنه يقبل التقاضي في أي مكان وعلى آية حالة ، وفي بيته وفي المسجد الجامع لا يغلق بابه دون أي متظلم ولم يستطع الليل أن يقيم ستاراً بينه وبين المقاصرين لأن بيته يبيت في يقطة مستمرة ، ولأن ابنه سالماً لا يغمض عينه ، كامل الليل ، ويجب كل طارق أقبل على المنزل .

وعرض عليه ابن الصابق أن يبعث له ببنفة ومرکبة وخدامة وحاجب ، فأبى وهدد بالاستقالة وألح عليه بوصفه كبير وزراء المملكة أن يريح نفسه من نسخ الكتب ليلاً ويوفر ذلك الوقت للناس ويأخذ كفافه من المال ، فأصر على الامتناع قائلاً : إنني لا أرتفع عن أكون خديم المسلمين إلى درجة أن أكون مأجوراً على خدمتهم .

حاول رجل من أهل درب ابن الريبع أن يبني دكانه لصق بباب داره ليجلس عليها في الأمسية متضرراً عودة مواشيه من المزرعة وبقراته من المرعى . ومنعه جاره بحججة أن الطريق لعموم الناس ، وليس له أن يستأثر بمكان منه خاصة نفسه .

واشتدت المناقشة بين الجارين ، وقررراً أن يتحكما للقاضي وكانا لا يعرفان حماساً ولم يجتمعوا أو يتذمروا لديه وتحركا إلى مجلس القضاء ، وفيما هما يسألان عنه ، إذ لقيهما شيخ وقرر يحمل قلة ماء فسلاه فقال : ما تريدان ؟ قالا : تحاكم في مسألة . قال : تحاكم كما ثالثكم هو القاضي . قال له المدعى : ولم لم تضع قلتك على الأرض ؟ قال : لأن الأرض مملوكة للمارقة ، فلا أضيق عليهم . فقال له المدعى : قد قضيت في خلافنا ، وقال في نفسه : إذا كان القاضي لم تسمح نفسه بوضع قلته بالطريق فكيف يحكم لي بأن أبني دكانة في الطريق ؟ وانصرف ورجع عن محاولة واعتذر لجاره .

هذا الحكم يرويه عن القاضي حماس أبو الفضل البرزلي وينقله عنه المؤرخون ونقله نحن عن هؤلاء ، وفيه عبرة وموعظة ، وفيه ورع وعدالة وهو لعمر الحق صورة حية لما كان عليه القاضي حماس من التربية الكاملة ، ولما كان يعطيه من

المثل السامية على حسن السلوك وكمال الاستقامة راهب بالليل وقائم بالعدل في النهار ، وفيما بين ذلك ناسخ للكتب ينقلها ويبيها للناس ، ليأكل من ثمنها ويتحرى حقوق المسلمين في البيت وفي الطريق وفي نفسه وأهل بيته ومع ذلك يطأوله الوزير ابن الصايغ لحمله على أن يقدمه على نفسه في الرسائل الرسمية فيأتي حماس ويرفض أن يتوجه كتبه بذكر اسم الوزير ويصر على أن يقول : «من قاضي القضاة حماس بن مروان إلى الوزير ابن الصايغ سلام الله وبركاته ويليه الخ ..». وهنا ينقلب التواضع إلى ثورة وشم وتحدي صوتاً لناموس القضاء وذوداً عن كرامته وحرماته .

هذا هو القاضي الإفريقي الأزره حماس بن مروان الذي وجد أحد زائريه قطعة نقد فضية في سقيفته ، فسلّمها إليه فأرجعوا إليه حماس قائلاً : ما يملك حماس ولا آل حماس صفرأ ولا بيضاً .

وهذا هو الذي ميز بعض كتبه ووضعها في مكان خاص وقال لابنه سالم و محمد : «إذا مت فيبعا هذه الكتب وجهزاني منها ، لأنني نسختها بخطي ، وأبقيت عليها ل يوم موتي ». .

وهو تلميد سحنون وعن مدرسته تخرج في العلم وأخذ الزهد والسلوك عن جبلة بن حمود ومدرسته .

وبصفة منشور الولاية الذي أصدره زبادة الله بن الأغلب ، بأنه «أولاًه القضاء لرأفته ورحمته وعلمه بالكتاب والسنة» .

رحمه الله وأعظم أجره ورفعه إلى مقام الصديقين والشهداء والصالحين وألهمنا الاقتداء بصلابته وورعه .

وأن تتحمس لما كان عليه حماس من خلال وسجايا ف تكون أهلاً لميراث أمجاده واستقبال إيماعاته وإمداده . إنه سميح مجيب . انتهى من الكتاب المذكور .

سيرة القاضي سحنون رحمه الله تعالى

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : قال القاضي عياض يروي هذا المجلس التاريخي : دخل على سحنون أحد رجاله وهو في مجلس قضائه وأعلمته بأن القائد ابن الربع قائد جيوش الأقاليم الجنوبية ، جاء تعلو هامته أكاليل النصر ، وتدق من حوله الطبول والجيش يهتف باسمه هتافاً يصم الآذان ، والغنائم والتحف النادرة

تقدم موكيه الحاصل وقد أمر الخليفة محمد بن الأغلب أن تقام أقواس النصر للقائد المتتصر ، ويخرج الناس للقاءه وإنه كان فيما جاء به حرائر من النساء قد أخذنهن أسيرات .

واضطرب القاضي ، وقال : «أيعلم ابن الربيع إلى تأثير الحرائر من النساء ، إن ذلك لا يقع وأنا قاضي المسلمين وولي الضعفاء ».

ودخل ابنه محمد وأدرك ما عليه أبوه من الغضب والثورة، فقال: ما عساك
تصنع يا أبي والسلطة التنفيذية تحمي ظهر ابن الريبع والملك لا يجاهره بالمقاومة وقد
عاد من ساحة القتال يجرّ ذيول الانتصار؟

فَكَرِّ الْإِمَامِ سَحْنُونَ فِي الْأَمْرِ ، ثُمَّ دَعَا أَعْوَانَ دِيْوَانَهُ وَأَمْرَهُمْ بِأَنْ يُرْكِبُوا حَالًا
وَيَنْهِيُوا إِلَى أَطْرَافِ الْبَلَادِ وَيَنْفِرُوا إِلَيْهِ وَبِأَمْرِهِ الْأَلْفُ شَابٌ مِّنَ الْفَتَيَانِ الْأَقْوَيَاءِ
الْأَشْدَاءِ ، وَيَتَهَجَّزُ كُلُّ فَتَى بِسَلَاحِهِ وَصَدْعَ الْأَعْوَانِ بِالْأَمْرِ وَتَوَغَّلُوا فِي دَوْاخِلِ
الْبَلَادِ ، لِتَجْنِيدِ كَاتِبِ الْعَدْلِ وَالسَّيْرِ بِهَا إِلَيْهِ . وَاجْتَمَعَ الرِّجَالُ وَوَضَعُوا نُفُوسَهُمْ
أَجْسَمًا وَأَرْوَاحًا تَحْتَ أَمْرِهِ ، عَلَى أَنْ يَمْوتُوا إِذَا اقْتَضَى الْحَالُ ، فِي سَبِيلِ الظَّاعَةِ
الْوَاجِبَةِ لِلْحَاكمِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالْحَامِي لِحُمَّى شَرِيعَتِهِ وَبَعْدَ أَنْ اسْتَعْرَضُهُمْ اخْتَارُهُمْ
مِائَةُ رَجُلٍ وَأَيْقَى الْآخَرِينَ جِنْدًا احْتِيَاطًا ثُمَّ أَمَرَ الْمَائَةَ الْمُخْتَارِينَ أَنْ يَقْوِيُوا تَحْتَ طَلَبِهِ
إِلَى اللَّيْلِ وَأَقْبَلُ اللَّيْلِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا عَنِ الْمَأْمُورِيَّةِ الَّتِي سَتَنْاطَ بِعَهْلِهِمْ .

فرغ سحنون من صلاة المغرب بمسجد عقبة الجامع وأحاط به الرجال
المت tobخون ، وأفضى إليهم بالأمر الآتي :

«إني قياماً بالواجب الشرعي أمركم بأن تمضوا حالاً إلى دار القائد ابن الريبع وتضربوها عليه فإذا فتح الأبواب أبلغوه سلامي وإني عزمت عليه أن يخرج الحرائر اللواتي سباهن، وإياكم أن تنكروه من غلق الأبواب في وجوههم فيجتمع هو وحراسه ومن معه من الرجال، ويدافعوكم ويضي الأمر إلى إراقة الدماء وإن هو لاطفكם ومانعكم وترد على إذني، فاشغلوه حتى يلعن من شيوخكم، فإذا انتهوا إلى الباب الأوسط نادوا: «أيها الحرائر المسيئات اللاتي أتي بهن إن القاضي يأمركن بالخروج إليه» فإذا خرج الحرائر عن آخرهن فإنكم تحضرونهن إلى مجلسي.

ذهبت كيبة القاضي جماعات وأحاط رجالها بدار القائد وطرقوا الباب وأبلغوه أمر القاضي فتعاصل وحاول المقاومة فقبضوا عليه ودخل الرجال السبعة واستخرجوا السبايا وحملوهم إلى سجنون فأمر بإيداعهن بدار الحفظ.

ركب ابن الريبع لفورة وقد قصد قصر الأمير برقاده فوجد الأبواب مغلقة وقضى ليلة تحت جدران القصر حتى أصبح ودخل إلى محمد بن الأغلب وقد شق ثيابه واستسلم للبكاء وسأله الأمير خبره، فأعلمه بما حدث وتسلل إليه أن يحميه من الإهانة التي لقيها من سجنون وأن يأمره برد سباياه وأجاره الأمير، ووجه رسالة مستعجلة إلى سجنون يأمره فيها برد ما أخذ للقائد ابن الريبع وما إن تلى سجنون رسالة الأمير، حتى ثار غضبه وقال: «والله لا إله إلا هو إن أخرجتمن من داري حتى أعزل عن القضاء، ويعلم الله أن لا نظر لي على رجلين من المسلمين، ثم دعا ولده محمدًا وكتب له رسالة نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَيَا قَوْمَ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاهِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ لا حرم أن ما تدعوني إليه ليس له لي به علم وأنا أدعوك إلى العزيز الغفار ﴿لَا حَرَمَ أَنْ مَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دُعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ثم سلم الرسالة وسجل ولايته إلى ابنه وأمره بأن يرفعهما إلى الأمير ويقول له: «جعل الله ابن الريبع شفيعك يوم القيمة».

كان الأمير يتضرر عودة مبعوثه إلى القاضي، على آخر من الجمر وكان رجال سجنون يتوقعون على إثر تحرير رسالة الرفض واتصال الأمير بها مع التصريح الشفوي الذي نقله إليه محمد بن سجنون وسجل الولاية المشعر بالاسقالة أن الأمير سيمضي في الانتصار لقائده إلى أبعد حد، وأنه ربما يأمر بعزل سجنون وإلقاء القبض عليه، وإيداعه السجن.

وكان سجنون يقوم بتصفية أوراقه وتحرير وصاياه وإعطاء التعليمات الأخيرة لابنته خديجة فيما يخص الأمور العائلية وكان النسوة المسبيات يتظاهرن ساعة الخلاص والرجوع إلى أهلهن وبيوتهم وقد أصبحن تحت سلطة مثل الشريعة، وقاضي المسلمين ولا حول لأحد ولا طول عليهم وابتعه الناس بانتظارهم إلى رقاده يتربون ما تصدر به الأوامر في هذه المعركة الرهيبة التي يصطدم فيها العدل ورجله الفذ والقوة في شخص القائد المتصر، ويقع الأمير في مأزق غير نافذ فهو إذا

أغضب قائدك فقد أغضب الجيش وعرض عرشه لحركة تمرد وانفصال ، وإذا
أغضب قاضيه فقد أغضب الله وخشي سخط الشعب .

وصل وفد القاضي إلى الأمير وأبلغه محمد بن سحنون الرسالة وعزم الاستقالة
وسجل الأحكام وأبلغه نطق والده فقرأ الرسالة ثم دخل إلى بيته وبعد ثلاثة أيام
قضها في مغابة نفسه والتدبیر في الموقف وبقي فيها محمد بن سحنون والقائد ابن
الربيع في انتظار القرار الأخير وتطلع فيها شعب القبوران ومن ورائه قاضيه لما تسفر
عنه الحالة من أحداث .

خرج أبو العباس بعد احتجابه واستدعى القائد ابن الريبع وعرض عليه أن
يطلب منه ما شاء غير رد النسوة إليه ومطاولة سحنون ورضي القائد بذلك .

واستدعى بعد ذلك محمد بن سحنون ، وقال له :

«اقرأ على أيك السلام وقل له جازاك الله عن نفسك وعن المسلمين خيراً

في عام ١٣٠٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حسين رشدي .

في عام ١٣٠٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد ضياء الدين .

في عام ١٣١٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الله صائب أفندي .

في عام ١٣١١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد عاصم أفندي .

انتهى من كتاب «مثلي عليا من قضاة الإسلام» وقد تقدم في مبحث «القضاء في العهد العباسي» أن القاضي سحنون رحمه الله تعالى هو الذي نظم القضاء وقسمه إلى درجات ، فارجع إليه إن شئت .

سيرة القاضي عيسى بن مسكين رحمه الله تعالى

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : اعتماداً على الصالحيات الواسعة ، والنفوذ الخارق للعادة إلى تمنع به القاضي عيسى بن مسكين ، واعتبرها شرطاً في قبوله خطة القضاء ، وأوجب إبراهيم بن الأغلب قبولها والتسليم بها ألف القاضي ديوانه على الصورة الآتية :

القاضي المركزي ، عبد الله بن محمد بن المفرج المعروف بابن البناء .

قضاء الحسبة ، أبو القاسم الطوزي .

القضاء المستعجل ، سليمان بن سالم وإبراهيم بن خشاف .

الأوقاف والتركات ، أبو بكر بن اللباد .

الوثائق والسجلات ، ابن زرياب .

وكان شديداً على أعضاده حريصاً على الإخلاص للعمل والموظبة وتأمين راحة المتقاضين ولم يكن ابن زرياب قد أدرك صلابة رئيسة في الحق ، وأنه يخفي وراء وداعته وبساطة حركاته ، وزهد نفسه وتواضعه العجيب شدة لا تعرف المودة في الواجب وقوة لا تلين أمام المقاومات .

انصرف الناس من صلاة الصبح وأقبل على بيت القضاء الشيخ عيسى بن مسكين قاضي القضاة ، والقاضي المركزي وقاضي الحسبة ، والقاضي الفوري والكتبة ، وتختلف كاتب السجلات ابن زرياب وحضر الخصوم وامتلأت الرحاب وارتفعت الشمس ، وتكرر سؤال عيسى مستعلمًا عن حضور ابن زرياب وفتح السجلات وأمر بالنظر في القضايا وتصريف الشؤون الحكيمية دون إطالة أو تناقل ، ثم طلب من رجال الديوان أن يراجعوا سوابق قضية الشيخ أبي سعيد التميمي الذي حضر مبكراً رغم شيخوخته وأجابه الرجال بأنهم لا يعرفون نظام السجل ولا يقدرون في غير محضر ابن زرياب أن يهتروا إلى مراجعته وأطرق القاضي وقد ظهر عليه الغضب وعبس وقطب وكثير تطلعه إلى باب المحكمة ، ثم استدعي

الشيخ أبا سعيد ، ليعتذر له عن تأخير البت في قضيته فوجده انصرف متبعاً بأبنائه وشهوده كما انصرف خصوصه .

بعد انتظار طويلاً حضر ابن زرياب وكان مرتدياً أفعى ثيابه ويسبقه عبق ماء الورد والياسمين وحالاً دعاه القاضي واستجوبه عن سبب تأخيره إلى ذلك الحين فاعتذر بأنه ذهب ليشهد عقد نكاح عند أبي القاسم محمد بن عبدوس نظراً لما تربطه به من علاقة متينة وصداقة متينة .

وأجاب ابن زرياب مؤكداً أن حضور عقد النكاح هو السبب الوحيد الذي قضى عليه بالتخلف .

وقف زملاء ابن زرياب القضاة يتبعون المناقشة الدائرة بينه وبين القاضي ابن مسكين وتم الإعتذار للمختلف فاقتصر على الاعتذار بحق ابن عبدوس عليه ، واضطراره إلى إجابة دعوته والحضور بمنزله .

وارتفع بعد ذلك صوت القاضي مقرراً أن ابن زرياب في إجازة المسلمين وأنه عطل ما استؤجر عليه ، واشتعل بحضور عقود الأنكحة ، وهو بذلك قد أحل بالأمانة التي في عنقه واستحق السجن التأديبي ، ثم أمر باقتياده إلى السجن ونفذ الأعنوان أمر القاضي وأودعوا ابن زرياب السجن .

وبعد صلاة العصر حضر حارس السجن يحمل رسالة إلى القاضي استغفر فيها ابن زرياب من ذنبه وأعطي عهداً بأن لا يختلف عن واجبه مهما كانت الدواعي وتقدم الشیخان ابن البنا وابن اللباد يطلبان الصفح عن زميلهما ، والاكتفاء بما ناله من تأديب وأمر القاضي بأن يفرج عنه بعد صلاة العشاء .

ومن ذلك اليوم إلى أن استعفى ابن مسكين من خطبة القضاء لم يختلف واحد من رجال الدواوين القضائية عن عمله إلا بعد قاهر .

قال ابن اللباد لرئيسه عيسى بن مسكين : إنه كان يخشى أن يتدخل إبراهيم بن الأغلب في صالح بن زرياب نظراً لما لهذا الأخير من الخطوة في البلات الأغلبي وضحك عيسى ورد عليه بأنه لم يقبل القضاء إلا بعد أن قدم للأمير شروطاً قبلها وحرر بشأنها عهد كتابي وهذه الشروط تتضمن أن للقاضي حق تقديم استقالته مرة في كل شهر ، وأنه يحمل الأمير وبني عممه وجنده وبطانته وفقراء المسلمين في الحق في درجة واحدة وأنه يكوم معفى من الدعوات الخاصة للحضور بمجلس

الأمير أو لتقديم التهاني والتعازي ، أو للتدبّع والاقبال ، وأن الأمير لو تدخل لفائدة محسوبة ابن زرياب لكان ذلك داعياً لمراجعة وثيقة العهد ، والوقوف عند منطوقها وإذا ما أصر رغم ذلك على التداخل فإن القاضي يضطر لتقديم استقالته مع الإصرار على عدم الرجوع في ذلك .

جلس ابن اللباد وابن البنا وابن زرياب بعد الفراغ من الصلاة بتحديثون عن رئيسهم عيسى بن مسكين. بمناسبة عزمه على الاستففاء من مهام القضاء فقال ابن البنا : إن أمر هذا الرجل غريب . فهو لم يأخذ درهماً من بيت المال ولا من خزينة الأمير ، منذ أن تقلد القضاء ، ولا يعيش إلا من دقيق الشعير الذي يأتيه من منزله بالساحل يخبيه بنفسه ، ومن بقل وحضر تأتيه من البدية وربما بقي اليومين والثلاث بلا طعام في انتظار دقيقه وبقوله . وإنني أعرفه وقد أقام برقادة تسع سنين لم يأكل التين إلا مرة واحدة ، ولم يأكل البطيخ إلا مرة أخرى ، وإنني ذهبت لمنزله فلم أجده فيه من المدخرات سوى آنية زيت وآنية خل . ورأيت في كوة البيت قارورة مختومة من نوع القوارير المستعملة في البلاط الأغليسي فسألته عنها وتجاهل السؤال ، ثم ألححت عليه فأجابني بأنه كان في مجلس الأمير إبراهيم وأصابته رياح في جوفه ، وأدرك الأمير ألمه فأعطاه تلك القارورة وفيها الدواء الشافي ، ولكنك فزع إلى الله أن يغنه عن استعمالها فلم تعاوده الرياح ولا الألم . ومن هذا الزهد استمد ابن مسكين قوته واستحقاح احترام الأمير ورجال الدولة وقوادها .

وتساءل ابن زرياب عن سبب استفاداته ، وهو لا يخشى مضائقه ولا يشكوا حرجاً ، فقال ابن اللباد : إن عيسى يريد أن يتفرغ للعبادة والعلم ، وقد كبر سنه وحن إلى مسقط رأسه ليستأنف حياته تحت زيتونته المباركة ، وفي ظلها السارف ، منصراً للصلة وتلاوة القرآن وقراءة الحديث ، كما كان شأنه قبل أن يكرهه الأمير على قبول القضاء ويستقدمه إلى القبور .

وقال ابن زرياب : كأني أنظر إليه يوم أن استقدمه الأمير إلى القبوران جلس بجانب حمديس الأشعري ، وسأله الأمير قائلاً :

ما رأي الشيخ في رجل جمع خلال الخير وأراد الأمير أن يوليه القضاء ويلم به
شعت الأمة فامتنع من القبول ؟

وقال عيسى : يلزمك أن يلبي .

وقال الأمير : فإن أصر على الامتناع ؟

وأجاب عيسى : يجبر على ذلك : وإذا اشتد في الامتناع يجلد حتى يقبل .
وقال الأمير ضاحكاً : قم يا عيسى فأنت هو .

وكأنني أنظر إلى الأمير وقد قرب سيفه من نحر عيسى لحمله على القبول ،
وابتعد حمديس الأشعري لكي لا يصييه دم الشيخ .

ولعل من المناسب أن نلقي على محادثة أعضاد ابن مسكين ، بما رواه عنونه ابن
دبوس ، قال : جئته يوم جمعة لا يناسبه حيث يتفرغ ذلك اليوم من مهام القضاء ،
فقرعت عليه الباب ففتح منه مصراعاً ، ووقفت فإذا هو مؤتزراً بكسائه يغسل
جبته ، فقال لي : يا أخي ، ما جاء بك ؟ قلت : أردت إيناسك ، وأراك مشغولاً ،
فاتركني أستقي لك الماء وتغسل أنت أو تستقي وأغسل أنا . فقال : يا أخي ،
أقعدت بلا شغل . ورد الباب ، ورجع إلى عمله وانصرفت .

فهل أدركنا مصدر قوة مواطتنا ابن مسكين ، وصلابته في الحق والواجب ... ،
ونحن القضاة المساكين لیت لنا الشيء القليل من نفسية وخلال ابن مسكين .
انتهى من الكتاب المذكور .

سيرة القاضي أحمد بن القاضي أبي حرز

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : ولما توفي أبو حرز الكناني الذي استقل
بقضاء الجماعة ، بعد وفاة زميله أسد بن الفرات ، كثير على الأمير زيادة الله بن
الأغلب أن يختار خلفه وأن يجدد الرجل الذي يسد فراغ القاضيين أي حرز الكناني
وأبي عبدالله أسد بن الفرات ، لذلك التجأ إلى استشارة شيوخ العلم وقاده الرأي ،
وعقد لذلك مؤتمراً ساماً دعا إليه الكثير من هؤلاء وأولئك ، وعرض عليهم الأمر
فوقعوا في الحيرة التي وقع فيها الأمير نفسه ، وأصرروا على عدم تعين من يتولى
قضاء المملكة ، أو تقديم التوصيات التي تسمح بتعيينه ، وخرج الأمير من موقف
المؤتمرين ، وأمر بأنه لا يسمع لأحد منهم بالانصراف إلا إذا تم اختيار القاضي ،
ورغم هذا الملكي الحازم فقد أصر المؤتمرون على مواقفهم .

وانسحب الأمير إلى مجلسه الخاص . وبقي المؤتمرون في أماكنهم ودخل وقت
الصلوة وأجمع الحاضرون على تقديم العلامة أحمد بن القاضي أبي حرز للصلاة بهم
وكان الأمير يتضرر ذلك وعندما علم من حراسه وحجابه بإمامه أحمد بن أبي حرز
دخل على القوم وخطب فيهم قائلاً :

«يا وجوه البلاد وأعيان المملكة : إني رضيت لدینکم من رضيتم أتّم لدینکم
وإني أعلن انتخاب إمامکم أحمد بن أبي محرز لولاية القضاء الإفريقي».

قام الإمام أحمد واعتراض اختياره للقضاء واعتذر عن ذلك بأنه لم تتوفر فيه الكفاءة المطلوبة . وتمسك الأمير برأيه فاشترط ابن أبي محرز على الأمير أن لا يقبل أي تدخل في شؤون القضاء من جانب رجال البلاط الأغلبي وأن لا يعتمد أي وكيل يستمد وكتالته من سلطة الإمارة وصرح الأمير بأنه قبل شروط ابن محرز ، وسجل ذلك على نفسه أمام المؤمنين علانية . وبعد حين أفضى الأمير لرجال الدولة ببيان خطير ، معلقاً به على ولاية ابن محرز قال فيه :

«لا أبالي ما أقدمت عليه يوم القيمة . وقد قدمت عليه بأربعة :

١) بناي المسجد الجامع بالقیروان .

٢) وبنائي قنطرة باب أبي الربيع .

٣) وبنائي حصن سوسة .

٤) وتوليتي أحمد بن أبي محرز قضاء أفرقيا» .

تخاصم واحد من أهل القیروان مع رجل يهتم به كبير وزراء الدولة علي بن حميد في دار من دور مدينة القیروان بالسماط الأعظم ، فلما نشب الخصومة رأى القاضي أحمد أن يعلقها حتى يتم القضاء في أصل النزاع فطبع على الرجل الذي يعني به الوزير .

ومضى الرجل إلى الوزير مستجداً به ، ليفك عنه العقل وفرع المتصوّع له إلى القاضي ، وهو جالس في مجلس قضايته بجامع القیروان وأخبره بذلك وثار القاضي لهذا التحدّي وضم ديوانه ، ومضى إلى داره وأحل سجل ولايته ، ومضى إلى القصر القديم الذي يسكنه الأمير زيادة الله بعد الزوال ، وكان الأمير نائماً وطلب القاضي من كبير الحجاج (مسرور) أن يستأذنه عليه ، واعتذر الحاجب بأن الوقت لا يسمح له بالاستئذان ورد عليه القاضي بأنه يعتبره قد منعه من باب الأمير . وأجابه الحاجب بأنه يرجوه أن لا يلحّه للمنع ولا للاستئذان ، واضطرب القاضي لقرع باب القصر .

وخرجت والدة زيادة الله فازعة فقال لها : «القاضي أحمد يستأذن على الأمير لأمر دهمه ..» .

وذهبت الوالدة إلى مقصورة زيادة الله ، وهو نائم على سريره فحركت حلقة الباب . فقال زيادة الله : من هذا ؟
قالت : «الوالدة» .

قال : «وما جاء بك ؟» .

قالت : «القاضي بالباب ، ذكر أنه أتى في أمر دهمه» .

فأذن له بالدخول عليه وسلم القاضي على الأمير وقص عليه القصة ، ثم قال : «هذا سحلك فإن أردت أن تعافيني فإن الله تعالى يجزئ متوبتك» وتلطف معه الأمير وأمره بالانتظار ، ثم اغتسل ولبس ثيابه وركب وتبغ القاضي ، فركب دابته وتسيرا حتى دخلا من باب أبيي الرابع ، ووقفا بالقرب من الجامع ، وسأل الأمير عن دار النزاع التي طبعها القاضي ، ولما أرشد إليها ختم على بايه بطابعه الملكي ، ثم التفت للقاضي وقال : «هل أرضيناك أيها القاضي العادل ؟ ...» . واستأنده إثر ذلك في العودة . وعاد إلى قصره .

وسمع كبير وزراء ابن حميد بما فعل الأمير فخشي ، وندم على ما صدر منه ، وود أنه مات قبل أن يتخرج مرکره عند الأمير .

وشاع الأمر بين أهل القمرون فازداد احترامهم للقاضي وتعظيمهم له .
انتهى من الكتاب المذكور .

سيرة القاضي سليمان الغافقي رحمه الله تعالى

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن ملك الأندلس إلى سليمان بن الأسود الغافقي بقضاء ماردة ومنحه من الفوز ما شجعه على قبول القضاء . وذات يوم أقبل أحد التجار الإسرائيلىين وادعى لدى سليمان أنه عرض الجارية للبيع ، ورغبتها الأمير محمد بن أمير المؤمنين ، واشتط عليه في الثمن فلم يكن من الأمير إلا أن دس بعض غلمانه ففروا بالجارية ، وأحضر القاضي بعض من عاين الحادثة من الجمهور وتلقى شهادتهم ثم استقدم الأمير وسأله رد الجارية ، فأنكر الأمير ولج القاضي في الأمر بالرد ، ولج الأمير في الإنكار ، وأقسم القاضي لئن لم يقع إحضار الجارية ليركتن إلى الخليفة ويستعفيه من قضائه . وفعلا ركب القاضي دابته متوجهاً إلى قرطبة ، فخشى الأمير عاقبة الأمر ووجه يعلم

القاضي بوجود الجارية عند بعض فتيانه ، ولم يكن يعرف ذلك ، وحضرت الجارية وسلمها القاضي إلى صاحبها.

مات عبد الرحمن وولي الخلافة من بعده ابنه محمد ، وحضر قاضي ماردة يهنته بالخلافة . وما إن سلم عليه ، حتى تذكر الخليفة موقف القاضي منه ، في قضية الجارية ، وما أظهره من الصلابة في الحق ، والإنصاف في الحكومة فاختاره لقضاء الجماعة بقريطة ، وسماه قاضي القضاة ، وكان ولایة القصر قد أستندت إلى (بدرون الصقلي) الأثير لدى الخليفة ، ومستودع سره ، وصاحب الرأي الأخير في استشاراته .

تقدمت امرأة عجوز ، بين يدي القاضي سليمان طالب الوالي بدرورن برفع يده عن دار تملكتها فكتب لها أمراً بالحضور ، وختم عليه وأشار على المرأة بتسلمه إلى الوالي ، ففعلم لها بدرورن بأنه في خدمة الخليفة ولا يستطيع مواجتها يومئذ فأمر القاضي بالقبض عليه واقتاده إلى مجلس القضاء ، ولم يبرح المجلس إلا بعد إنصاف المرأة .

ها هو هاشم بن عبدالعزيز يصف لنا دخول الوالي على الخليفة بعد انصرافه من مجلس القاضي ، قال هاشم : «إنى لقاعد يوماً بين يدي الأمير إذ دخل بدرورن الصقلي باكياً . فقال له : ما دهاك ؟ فقال له : يا مولاي عرض لي الساعة مع القاضي ما لم يعرض لي مثله قط ، ولو ددت أن الأرض انضمت على ، ولم أقف بين يديه . قال : وما ذاك ؟ قال : دست عليّ امرأة طالبني في دار في يدي ، فأغفل ما كتت إذ جاءتني بطاعق القاضي و كنت أنت أمرتني بما تعلمه فاعتذررت إليها ، وقلت : «أنا اليوم مشغول بشغل الأمير أعزه الله ، وساكتب إلى القاضي ، وأستعلم ما يريد» ثم إنني أقبلت إلى القصر ، وقد أتيت بباب القطرة ، فإذا برسول من أعون القاضي بادر إلى فضرب على عاتقي ، وصرفني عن طريقي إليه ، فدخلت عليه في المسجد الجامع ، فوجده غضبان فنهرني وقال : «عصيتكني ولم تأخذ طابعي» . فقلت له : «لم أفعل ، وقد عرفت المرأة بوجه تأخيري» ، فقال لي : «ورب هذا البيت لو صبح عندي عصيائلك لأدبتك» . ثم قال لي : «أنصف هذه المرأة» . فقلت : «أو كل من يخاصمها عن» فأبى علي إلا أن أتكلم ، فلما رأيت صعوبة مقامي ، أعطيتها بدعواها ، ونجوت بنفسسي ، أفيحسن عندك يا مولاي أن يركب مني قاضيك هذا المركب ، ومكاني من خدمتك مكانني ؟» .

ورد عليه الخليفة يقول : «اخفض عليك يا بدرؤن ، فمحلك مني معلوم ، وسل به حوايجك بحبك إليها ، ما خلا معارضة القاضي في شيء من أحكامه . فإن هذا باب قد أغلقناه ، فلا نحيب إليه أحداً من أبنائنا ولا من إخواننا ولا من أبناء عمّنا فضلاً عن غيرهم . والقاضي أدرى بما فعل ، ولست أحيد عن الشعار الذي اتخذه والدي ، والمبدأ الذي قامت عليه دولته ، واطمأن له الشعب ، ومنح الامتنان والثقة إلى النفوس» ومسح بدرؤن عينيه وانصرف .

انتهى من الكتاب المذكور .

سيرة القاضي محمد بن السليم رحمة الله تعالى

في فجر اليوم الخامس عشر من شعبان عام ثلاثة وخمسة وخمسين خرج أمير المؤمنين ، الحكم المتصر بالله ، ملك الأنجلس إلى ديوانه لنصريف الشؤون اليومية ، ودخل عليه والي قرطبة لتلاوة تقريره الليلي . وجاء في التقرير أن قاضي المملكة منذر بن سعيد في حالة احتضار . وارتباك الأمير ، واستوى واقفاً ، وجعل يضرع إلى الله أن يوفقه إلى اختيار خلف يطمئن إليه ، في إقرار الحق ، وإقامة العدل . ثم أمر باستدعاء شيخ الشريعة ورجال العلم . ولما كمل الجموع أعلمهم بأنه دعاهم ليأخذ رأيهم في اختيار من يخلف منذر بن سعيد . وفيما هم يعددون خصائصه ، ويدركون مجالسه وأخباره ، إذ ورد إلى الإعلام عمّوته فاتفق المجتمعون على انتخاب محمد بن السليم لما هو معروف به من الفضل والعلم والفهم ، وحسن النظر في الأمور وجميل الخلق .

فأمر الأمير بتحرير عهد الولاية لمحمد بن إسحاق بن السليم ، ليتلئ في جامع قرطبة ، وينهي للقاضي المنتخب فكتب العهد على الصورة الآتية : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب أمر به أمير المؤمنين ، الحكم المتصر بالله ، محمد بن إسحاق بن السليم ، ولاه خطة القضاء واختاره للحكم بين جميع المسلمين ..» إلى آخره .

ولقد ذكر نص هذا الكتاب في أوائل البحث فراجعه إن شئت .

ثم جاء في الكتاب المذكور بعد نص الكتاب بولاية القضاء ، ما نصه : ليس من السهل أن يملا القاضي الجديد الفراغ العظيم ، الذي تركه سلفه المنذر بن سعيد ، فالشعب القرطي قد تعود مفاجآت عجيبة في المذاهب الحكيمية وأسانيد

القضاء ، ووسائل الإقناع ، والصلابة في الحق والنفوذ الخارق للعادة . وتتدر في مجالسه وأسماره وأسوقه بوقائع المنذر وخطبه وأجوبته ، ودخل ذلك في نطاق الحياة العامة . وأصبح جزءاً منها ، وكان المنذر حتى في صلاة الاستسقاء ، ومواقف التدلل والخشوع والاستكانة ، يأتي بالجديد المبتكر فيكي الجماهير ، ويحرك المشاعر ، ويهمن على القلوب ناهيك أنه وقف يوماً ينطلب للاستسقاء فتوجه للجماهير وقال : سلام عليكم ، ثم التفت إلى الناحية الأخرى من موقفه ، وقال : سلام عليكم ، ثم سكت كالذى أرتعج عليه ، ثم اندفع يقول : ﴿سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلاح فإنه غفور رحيم﴾ . وانهل يقرع الأسماع بزوابجر وعظه إلى أن هاج الناس بالبكاء ، وضجوا بالاستغفار ، وقالت السماء كأفواه القرب .

إن هذا الفراغ الذي تركه المنذر ليس من اليسير أن يملأه ابن السليم في زمن قصير ومع ذلك فقد استطاع أن يحرز على ثقة الناس واحترامهم . وحدث أن حضر الأمير الحكم يوماً إلى مجلس القضاء متتكراً ، فوجد رجلاً يرتعد ولا ينهض من كبوة إلا ليقع في أخرى فسألوه عن شأنه فذكر له أنه جاء يستعدي على خصم له ، واستهول الوقوف بين يدي القاضي ، ولو كان مدعياً بحق . فقال له الأمير : أو يعزى ما تجده في نفسك من خوف لسوء أخلاق القاضي وفضاضته وغلظ قلبه؟ قال: لا ، ولكن لهاته وقوفة فراسته ، قال الأمير : وكيف ذلك؟ قال الرجل : إن الناس يتحدثون أنه يدرك الحق والمبطل ، من مجرد عرض الدعوى والإدلاء بالجواب . فقال الأمير : وأنت ألك وثوق بمحقك؟ قال الرجل : في بعض المدعى فيه ، وشجعه الأمير على الإدعاء بكامل ما في نفسه ، فتمثل بين يدي القاضي ، ووسط دعواه ، والأمير يستمع من قريب فأطرق القاضي ثم خاطب الشاككي ، يضايقه يضايقه بالتحريرو والأسئلة ، حتى ألجأه إلى تعديل الدعوى ، وصرفه ليمعن في تحرير دعواه ، ثم يرجع إليه . وهكذا انصرف الأمير متعجبًا من فراسة قاضية ابن السليم وكثيراً ما صرخ الحكم المنتصر بالله بأن أكبر مصيبة تحدث في المملكة هي أقل خطراً من مصابها بموت قاضي القضاة . وإن وفاة القواد والوزراء لا تتأثر لها الحياة العمومية تأثيرها بفقد القاضي العادل .

ويذكر المؤرخون أن عهدي المنذر بن سعيد ومحمد بن السليم سادهما شعور بالانتصار ، وتشجيع على المطالبة بالحق قبل أي كان تعلقه . وقد أمكن الفصل

في عدة قضايا ، كان الحكم نفسه طرفاً فيها أو أهله ، من عائلة الخلافة وبطانة الدولة أطرافاً فيها .

إنه لم يتفق فيما أعلم أن شهدت الدنيا عهداً ، كهذا العهود الإسلامية المباركة ، فعحليفة المسلمين ينسن في المزيع الأخير من الليل يضرع إلى الله ، ويفزع إليه ليوقفه في اختيار قاضي المسلمين ، ثم يجمع مجلس المشورة من غده ، ويستشيرهم في أمر ذلك الاختيار ولا يصدر إلا عن رأي أجمعوا عليه ، ثم يحرر عهد الولاية فإذا هو دستور قويم ، يضع أسمى المبادئ ويسن أجل المناهج ، ثم يقف متذمراً مع أفراد الرعie ، متطلعًا إلى ما يجري حول مجلس القاضي ، وما يقوله الخصوم عنه ، ثم يكي بين يديه أقرب الناس منه وأشدتهم سلطاناً عليه ، يشكرو أمر القاضي فيسترضيه بكل شيء عد صادمة القاضي أو نقض ما أبرمه أو التداخل في أوامره وأحكامه . إنها عهود زاهرة فتحها الإسلام وارتقت بها البشرية إلى أسمى المقامات وعرف بها الإنسان حقه في الحياة ، وواجبه فيها ، وتفاني جميع الأحياء ظلال الأمن والطمأنينة وشعروا بالعزّة من وراء الإنصاف والكرامة من وراء العدل والازدهار نتيجة النظام المطلق ، ورقابة الضمائر الطاهرة ، والقلوب النقية .

ثم وهل تعود تلك العهود الزاهرة ؟ وهل يرجع القضاء في كل أطراف الدنيا استقلاله ونفوذه وظهوره وجلاله ؟ وهل يتاح لخصومه اليوم أن يهيمن على نزاعاتهم قضاء قوي لا هواة فيه ولا حور ، ولا تلکؤ ولا استعجال وقضاة مقيسون تحميهم ملائكة الحق ، وبخافون يوماً يرجعون فيه إلى الله ، ثم ينتبهم بما كانوا يفعلون ؟ إن أمم العالم سائرها ترجو ذلك وتمناه ، وإنه لا سبيل لإدراك تلك العهود ، إلا بالتضحيّة العامة ، تضحيّة أصحاب السلطة بنفوذهم لفائدة نفوذ القضاء ، وتضحيّة القاضي بشهوانه وأعوانه وميوله ورفاهيته ، لفائدة الحق ، وتضحيّة الخصوم بكبرائهم وغثوارهم وشرفهم لفائدة الإنصاف . وتكون نتيجة هذه التضحيات حتماً الطمأنينة للجميع . والعمان والأمن للكافرة .

انتهى كل ما تقدم من الكتاب المذكور .

وجاء في الجزء الثاني ، من كتاب «حسن الحاضرة» للإمام السيوطي ، رحمه الله تعالى ، في ذكر قضاة مصر ، كثيراً من أسماء القضاة وأحوالهم ، ونحن نلخص شيئاً يسيراً حتى لا يطول بنا المقام ، وهو كما يلي :

لقد ولّي القضاء في أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه ، سليم بن عتّر التخيّبي وجعل إليه القصاص والقضاء جميعاً . وكان سليم بن عتّر أحد العباد المجتهدين ، وكان يقوم في ليلة فيختئ القرآن حتى يختتمه ، ثم يأتي أهله ، ثم يقوم فيغتسل ، ثم يقرأ فيختتم ، ثم يقرأ فيغتسل ، ثم يقرأ فيختتم ثم يأتي أهله ، وربما فعل ذلك في الليلة مرات ، فلما مات قالت امرأته : رحمك الله ، فهو الله لقد كنت ترضي ربك وتسر أهلك .

جاء في كتاب «حسن الماحضرة» للسيوطى ، ما يأتي :

لما تولى القضاء الشيخ عز الدين بن عبد السلام في حدود سنة (٦٣٩) تسع وثلاثين وستمائة هجرية ، تصدى لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحراز ، وأن حكم الرق مستصحب عليهم بيت مال المسلمين ، فبلغتهم ذلك ، فعظم الخطب عندهم ، واجترم الأمر والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً ، وتعطلت مصالحهم لذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستشار غضباً فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : يعقد لكم مجلساً ، ونادي عليكم بيت مال المسلمين فرفعوا الأمر إلى السلطان ، وبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملطفة فلم يفده فيه ، فانزعج النائب ، وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربه بسيفي هذا . فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، وشرح له الحال فما اكتثر لذلك ، وقال : يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم خرج ، فحين وقع بصره على النائب يسبت يد النائب وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعوه له وقال : يا سيدي إيش تعمل ؟ قال : أنا نادي عليكم وأبيعكم . قال : فقين تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين قال : من يقبضه ؟ قال : أنا فتم ما أراد ونادي على الأماء واحداً واحداً ، وغلالي في ثمنهم ، ولم يعهم إلا بالثمن الواقي ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير . واتفق له في ولايته القضاء عجائب وغرائب .

انتهى من الكتاب المذكور .

فرحم الله القضاة السابقين ، والعلماء العاملين وأئمة الدين ، ولو أردنا أن نذكر أمثال من تقدمت سيرهم وأحوالهم لاحتاجنا إلى مجلدات ، لأن بطون الكتب مشحونة بترجمتهم ، وفي القدر الذي ذكرنا كفاية للمتأمل الليب .

فالظاهر إلى أحواهم الحسنة وسيرهم العطرة ، وإلى أحوالنا السيئة وسيرتنا الموجة ، لرأى فرقاً عظيماً ، كالفرق بين السماء والأرض أو كالفرق بين الخل والخل . ولقد كان بعض فضلاء القضاة يتمثل بهذين البيتين :

ولبت القضاء وليت القضاء لم يك شيئاً توليته
وقد ساقني للقضاء القضا وما كنت يوماً متنته

نسأل الله اللطيف الخبير والعفو الحليم أن يعاملنا بعفوه وحلمه وفضله ، وأن يجعل حالنا إلى أحسن الأحوال ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه آمين ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله « محمد » وعلى آله وصحبه أجمعين .

تاریخ الفرمانات السلطانية وصورها

ومناسبة ذكر الفرمانات السلطانية نقول :

بدأت الفرمانات الشاهانية العثمانية من عام (١٠١٧) هجري الموافق لعام (١٥٩٧) ميلادي ، واستمرت في الصدور لغاية عام (١٣٢٤) هجري الموافق لعام (١٩٠٤) ميلادي وربما بعد هذا التاريخ بنحو خمسة أعوام لزوال حكم الأتراك عن جميع البلدان العربية ، وذلك بعد الحرب العظمى الأولى .

وهذه الفرمانات عبارة عن أوامر سلطانية ، كانت تصدر من الدولة العلية العثمانية للملك العربي ، من تولية الولاية والأمراء والقضاة وتعيين الوزراء ، وغير ذلك من مختلف الشؤون المهمة ، وبعد زوال حكم الأتراك صارت ولاة مصر تصدر الأوامر تارة باسم خديوي مصر (فلان) أو باسم سلطان مصر (فلان) ثم باسم ملك مصر (فلان) بحسب ألقاب ولاتها في كل زمن .

وهذه الفرمانات هي التي تسمى في عرفنا « بالمراسيم الملكية » وهي تكتب بخطوط عربية ممتازة ، وبيانشاء وعبارات خاصة ، وفي قالب جميل جداً ، وتكتب وتنقش بالذهب الحالص ، على ورق ثمين ممتاز في قطع كبير ، وتوضع في ظروف خاصة منهبة ، ويقوم بكل ذلك أشهر الخطاطين ومهرة الرسامين والمساعدين

لهم . وهذه الفرمانات تكون في الغالب مكتوبة باللغة التركية ، وربما وضعوا بجوارها عن يمين الكتابة خطأ عمودياً مقسماً هندسياً بدليعاً ، بين مساحة الفرمان بالستيمتر المربع ، لأن بعضها قد يبلغ أحياناً عدة أمتار في عرض يتاسب مع طولها ، وللأتراك عنابة خاصة وذوق ممتاز بالخطوط العربية ، وتقدير كتابتها حتى تقدم عندهم الخط العربي بجمع أنواعه تقدماً مطرباً فبلغ أقصى درجات الكمال ومتنهي البهاء والجمال ، وكذلك في النقوش والرسوم والتنبيب وكل صناعة دقيقة . ثم لما استقلت كل مملكة بذاتها وانتشرت الآلات الكاتبة صارت المراسيم الملكية غالباً تكتب بها بالحروف العادية بدون الاستعانة بالخطاطين ، وبذلك قضي على الخط العربي الجميل في بعض البلدان ، حتى كاد أن ينقرض فلم يحتفظ إلا بالاسم والميكل المتداعي ، وهذا مما يؤسف له أشد الأسف .

وتحتفظ دار الكتب العربية بمصر على جملة ألواح بروازية مذهبة لفرمانات الثمينة العثمانية ، كما تحافظ لديها بآلاف الخطوط العربية الجميلة بمختلف أنواعها ، وكذلك تحافظ «دار الحفظات» بمصر كثيراً من مثل ذلك ، ومن الوثائق السرية والمستندات التاريخية .

وإليك صورة بعض الفرمانات الشاهانية التركية :

صورة فرمان الإماراة من الدولة العثمانية للشريف حسين بن

علي أمير مكة

نذكر هنا صورة الفرمان (أي المرسوم الملكي) الوارد من الدولة العثمانية للشريف حسين بن علي ، لتوليه إمارة مكة المكرمة ، وكان ذلك في شوال سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية ، ثم في سنة (١٣٣٤) حارب الشريف حسين المذكور الدولة العثمانية ، واستقل بالحجاز ، ثم صار ملكاً على البلاد . وبهذا انتهى حكم الأتراك على الحجاز والبلدان العربية ، وذهبت الخلافة منهم ، كما انتهى بالشريف الحسين المذكور ، آخر أمير مكة من طرف الدولة العثمانية ، وبه أيضاً انتهى حكم الأشراف عن الحجاز حيث أن الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حارب الشريف الحسين المذكور ، وتم ضم الحجاز سنة (١٣٤٣) هجرية فصار ملكاً على البلاد العربية السعودية رحمهما الله تعالى .

ونحن نذكر هنا صورة الفرمان لإمارة مكة للشريف الحسين بن علي المذكور ، آخر أمراء مكة من الأشراف ، وأخر فرمان من الأتراك للعظة والاعتبار ، ولمعرفة كيفية عادتهم في كتابة الفرمانات السلطانية وإليك صورة الفرمان :

فقد جاء في الجزء الثالث من تاريخ العازمي نص عن الفرمان المذكور ما يأتي :

إنه لما تخلّى صاحب القدرة الأزلية ، القائل سبعانه للشيء كن فكان ، ناظم أمور الكون والمكان ، تغيرت عن إدراك أسرار حكمته عقول الخلاق والآلهان ، الذي جعل عتبة مرحمتنا مرجع المحتاجين ، وباب خلافة سلطنتنا متوكلاً لأصحاب العز والشأن ، وزين طغفاء مناشير إجلالنا الهمبابوني بوجوب الطاعة والانقياد لأجل أحکام الشرع المتين ، ودوام معالم الدين المبين ، ومeken الحق المعين أوامرنا العلية غاية التمكين ، وجعل مناقب دولتنا العلية ومفاخر سلطنتنا السننية حماية للدين المبين ، وإعلاء للواء شرع سيد المسلمين ، ولا سيما بالخدمة الشريفة للبلدين المنيفين ، منزل أنوار الوحي المبين ، ومهبط جناب جبريل الأمين المتضمنة الآية الكريمة باسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ و﴿فَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فشكراً بهذه النعم ، تختم على إحسان مكرمتنا الشاهانية ، إنالة أمانى وأمال كافة رعية سلطنتنا الملوکانية ، وخصوصاً تلطيف وتسريح الأشراف الكرام ، والساسة ذوي الاحترام ، المتصل نسبهم إلى العرق الأطهر ، الحائزين أعلى المناقب والمفاخر ، وبناء على ذلك ، ولو قوع انقضاض أمير مكة الشريف على باشا اقتضى الحال إلى إحالة الإمارة الشريفة المذكورة لذات من الأشراف ، ذوي الاحترام ، ومن حيث أن وزيري سمير السيادة ، الحائز النيشان العثماني والمجيدي المرصعين رافع توقيعي رفيع الشأن الملوکاني ، وناقل أمري بلیغ الآمال السلطاني ، حناب إمارة مآب سعادة اكتساب ، سيادة انتساب ذو النسب الظاهر ، والحسب الظاهر ، مستجتمع جميع المعالي والمفاخر كابراً عن كابر ، جمال السلالة الهاشمية ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز العصابة العلوية المصطفوية ، عمدة آل الرسول ، قرة عين الوراء البتوء ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى ، الشريف حسين باشا ، أدام الله تعالى إجلاله ، وأدام سعاده وإقباله ، علم لدينا أنه اتصف بالأوصاف الحسنة المدوحة ، وأبرز روابط خالص وجданه لطرف أشرف خلافتنا ، واستحق لياقة لإمارة الشريفة المذكورة ، تلاؤت أمواج بحر مكرمتنا الذي ليس له نهاية نحو ذاته

الماشية ، فأحلنا وفوضنا الإمارة الشريفة المذكورة إلى عهدة أهليته ، وأعطيته منشورنا فاپض السرور ، المشتمل على كمال البهجة والمحبوب ، وحسب شرائط الإمارة وموجب رضائنا ونخبة أفكارنا الشاهانية أمرنا المشار إليه أن يستقبل الحاج ذوي الابتهاج المتوجهين من سائر ممالكنا الشاهانية ، ويوصلهم إلى مكة المكرمة سالمين آمنين ، وبعد أدائهم مناسك الحج الشريف على الوجه اللائق أيضاً يشيعهم ويستكمل أسباب عزيمتهم بكل اعتناء ودقة إلى الشام ، وأن يكون الناظر على توزيع وتقسيم الصرة الهمابيونية ، المرسلة من طرف سلطنتنا السنوية إلى أربابها بواسطة المأمورين بموجب الدفاتر الموجودة ، وأن يستجلب من العلوم الدعوات الخيرية لجانبنا الشاهاني ، وأن يهتم في توفيق الأمور والمصالح الواقعه والخارية بالعدل والحقانية ، متحداً مع وزيرنا سمير المعالي الحامل للنيشان المرصع العثماني والمرصع المحيدى ، أحد ياوراتنا الكرام الشاهانية ، وإلى ولاية الحجاز وقوندان فرقتنا الهمابيونية ، كاظم باشا ، أدام الله تعالى إجلاله ، ويشمر عن ساعد الجد في حسن إيفائها وتسويتها ، وأن لا يمكن تعدي فرد من الأفراد على أحد ، بما يخالف الشرع الشريف ، وأن تكون حركته دائماً وفق الشرع القويم ، فيلزم على كل من الأشراف الكرام والسدادات ذوي الاحترام والعلماء والصلحاء والأئمة والخطباء وسائر من يأتي من كل فج عميق لزيارة البيت العتيق ، والأهالي والصغير والكبير والوضيع والرقيق ، وأن يعرفوا أن سيادة الشريف المشار إليه ، هو أمير مكة المكرمة وأن يحترموه ويوقروه ، وأيضاً يلزم على سيادة المشار إليه أن يعتنى مزيداً الاعتناء لرعاية أصحاب السداد والصواب بحسب درجاتهم ، وأن يداوم في الغدو والآصال بالدعاء للدّوام دولتنا العلية ، وارتقاء شوكتنا الملوکانية ، فاعلموا هذا واعتمدوا على علامتنا الشريفة . تحريراً في اليوم السادس من شهر شوال المكرم لسنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف ، اهـ من جريدة الحجاز . انتهى من الغازي .

صورة الفرمان السلطاني للشريف عون

وهذه صورة أخرى من الإنشاء نقلها من الجزء الثاني من تاريخ الغازي رحمه الله تعالى فقد قال فيه ما نصه : وفي ١١ ذي الحجة سنة ١٣٢٢ قرئ بمنى فرمان الإمارة المرسلة من قبل السلطنة العلية للشريف عون ، كما هي العادة كل سنة في التاريخ المذكور ، وهذا نص الفرمان السلطاني :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ سَرَهُ الْبَطْحَاءَ صَدْفَ دَرَةِ الْبَيْضَا، وَحَلَى بَهَا أَجِيادَ عَرَائِسِ الْمَصْنُوعَاتِ مِنَ الشَّرِى إِلَى سَدْرَةِ الْمَتَهِى»، وَصَيْرَ أَمَّ الْقَرَى حَتَّى نَبَىَ الْجَبَّابِيُّ وَصَفَّيِهِ الْمَرْتَضِيُّ، وَأَوْحَى إِلَى خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَرْفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، وَأَمْرَنَا أَنْ تَخْذَنَ مِنْ مَقَامِهِ مَصْلَى، وَتَوَجَّهَتِ الْوَفُودُ الْمُتَوَشِّحُونَ وَشَاحِ الْهَدَى، وَرَفَعُوا أَصْوَاتِهِمْ بِالْتَّهْلِيلِ وَالْتَّلِيَّةِ وَقَصَدُوا نَحْوَ النَّى، فَطَوَّيَ لَمَنْ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَصَلَّى بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ بِخَضْرَوْعِ الْقَلْبِ، وَانْتَهَى نَهْجُ الْقَرَبِيِّ وَالْزَّلْفِيِّ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ بَعَثَ رَحْمَةً لِلْوَرَى، وَعَلَى اللَّهِ وَصَاحِبِهِ الطَّيِّبِينَ الَّذِينَ طَهَرُوا الْكَعْبَةَ الْعَلِيَا مِنْ أَدْنَاسِ الْأَوْثَانِ، وَأَحْكَمُوا بَنِيَانَ الشَّرِيعَةِ الْمُصْطَفَوْيَةِ بِإِقْامَةِ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ، مَا حَنَتِ الْحَمَائِمُ بِتَسْبِيعِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقْدِيسِهِ جَلَّ وَعَلا. أَمَا بَعْدُ: فَهَذَا خَطَابُنَا الْمَخَاقَانِيُّ، وَكَابَنَا الْمَنِيفُ السُّلْطَانِيُّ، التَّافِذُ حَكْمَهُ بِعَنْيَةِ اللَّهِ الْمَعْنَى، فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ، مَطَاعِيًّا لِأَسَاطِينِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ، لَا زَالَ نَاسِرًا فَوَاعِنَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانِ، وَمَا بَرَحَ زَاهِرًا بَيْنَ حَدَائِقِ الْبَرِّ وَالْإِحْسَانِ، مَا سَجَعَتِ الطَّيُورُ وَرَتَعَتِ الْفَزَالَانُ، أَصْدَرَنَا مَنْطَوِيًّا بِفَرَائِدِ التَّحِيَّاتِ الرَّائِعَةِ، وَمَخْتَوِيًّا عَلَى قَلَائِدِ التَّسْلِيمَاتِ الْفَاقِهَةِ، مَظَهِرًا عَرَفَ رِيَاحِنَ الْمَحْبَةِ وَالْأَسْتِئْنَاسِ، وَمِهْدَأً لِمَبْانِي الْمَوْدَةِ الْمَحْفُوظَةِ عَنِ الْانْدِرَائِسِ عَلَى جَنَابِ الْأَمِيرِ الْأَجْمَدِ الْأَجْلِ الْأَوْحَدِ الْمَقْنَفِيِّ آثارَ أَسْلَافِ الْأَشْرَافِ مِنْ آبَائِهِ الْغَرِّ، صَنَادِيدَ آلِ عَبْدِ مَنَافِ وَأَجَادَدِهِ الْحَمِيدِيِّ السَّيِّرِ، الْجَمِيلِيِّ الْأَوْصَافِ، فَرعُ الشَّجَرَةِ الزَّكِيَّةِ النَّبُوَيَّةِ، طَرَازُ الْعَصَابَةِ الْمُصْطَفَوْيَةِ، الْمَتَمَنِيُّ إِلَى أَشْرَفِ جَرْنُومَةِ عَلَى عَنْصِرَهَا، وَالْمُتَسَبِّبُ إِلَى أَنْفَسِ أَرْوَاهُ غَلَاجُوهُرَهَا، زِيَدةُ سَلَالَةِ الزَّهَرَاءِ الْبَتُولِ، عَمَدَةُ آلِ بَيْتِ يَتِيَ الرَّسُولِ، الْمَحْفُوفُ بِصَنُوفِ عَوَاطِفِ الْمَلَكِ الْأَعْلَى، مِنْ أَعْاظِمِ وَزَرَاءِ سُلْطَتِهَا السَّنِيَّةِ، الْحَامِلُ الْنَّيشَانَ الْأَمْتِيَّزَ وَالْمَرْصُعَ الْأَفْتَحَارَ وَالْعَثَمَانِيَّ وَالْجَمِيدِيَّ وَزَيْرِيَّ سَيِّرِ الْفَطَانَةِ، أَمِيرُ مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ الشَّرِيفِ عَوْنَ الرَّفِيقِ باشاً، لَا زَالَتِ الْعَنْيَةُ الْرَّبَانِيَّةُ لِهِ مَلَاحِظَةُ وَالْكَلَاءُ الصَّمْدَانِيَّةُ عَلَيْهِ حَافِظَةً، نَهَى إِلَى نَادِيِ الشَّرِيفِ أَنَّ اللَّهَ جَلَ شَانَهُ وَعَزَّ بِرَهَانَهِ اصْطَفَانَا مِنْ بَيْنِ عَبَادَهِ خَلِيفَةِ الْأَنَامِ، وَأَعْطَانَا سَيفَ الْجَهَادِ، وَأَمْرَنَا بِتَأْسِيسِ رَكْنِ الْإِسْلَامِ، وَشَرَفَنَا عَلَى الْمُلُوكِ لِسَدَانَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرامِ، وَالرَّكْنُ وَالْمَقَامُ، وَزَيْنُ مَنْشُورِ سُلْطَنَتِنَا بِخَدْمَةِ رَوْضَةِ نَبِيِّنَا وَشَفِيعِنَا، عَلَيْهِ أَسْنَى التَّحْيَةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ، فَحَمَدَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَيْمَنِ الشَّكْرِ وَأَكْمَلَ الْحَامِدَ، وَتَحْلَى تَرَابُ عَرَائِسِ هَذِهِ النَّعْمَ منْ جَوَاهِرِ الْأَئْمَةِ، بِأَعْلَقِ الْقَلَائِدَ وَأَنْفَسِ الْفَرَائِدِ، فَلَا جُرمَ إِنْ وَجَهْنَا وَجَهَةَ النَّهَمَةِ الْوَاسِعَةِ، وَنَخْبَةَ الْهَمَةِ الشَّائِعَةِ، لِرَفْعِ رَaiَاتِ الشَّكْرِ

فوق القمة الشاسعة ، وصرفنا أزمة صريحتنا الجليلة إلى طريق إبقاء ما وهبنا الله منِّ
المواهب الجليلة ، وامتطينا صهوة مطاباً للإقدام في تنفيذ مصالح الشريعة ، جاريها
بحاري الجد والاهتمام لا سيما مهام الأوقاف المشروطة لفقراء الحرمين الحترمين ،
والأرزاق المعينة المضبوطة للشرفاء ، شرفهم الله تعالى في الدارين ، وللعياد العاكفين
في المقامين المكرمين ، وأرسلنا من شامل عنایاتنا على الرسم القديم ، في العام
السابق ، وهو عام إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، من أسس قواعد
الإسلام ، صبت على ضريحه سجال التحية والسلام ، كافة الأموال المحصلة من
ريع الأوقاف الموقوفة المربوطة ، والنقود المعروفة والوظائف المضبوطة ، التي
خصصت بلاذني الحرم وبثرب من سكن فيهما . واخترنا الجوار من حيث
المشارق والمغارب وحملتها مثبتة وأعدادها مفصلة ومقررة ، كما هو المسطور
والمرقوم في الدفتر المعلوم والمحظوم ، جميعها الدنائير النضار الحالصة الصافية من
النقود الرائحة في عامه البلاد الدانية والقاصية البلاد الدانية والقاصية ، وسلمنا تلك
الصور إثر ما وضع في الأكياس الموسومة بختمنا الشريف ، وفق للالتباس إلى يد
حامل ذلك المنشور السلطاني ، وناقل هذا المثال الخاقاني المتسبب لسدتنا السننية
عن خدام عتبنا العلي الخاقانية رئيس خدمة طيور السراي السلطانية ، الحامل
النيشان العثماني من رتبة الرابعة والمجيدي من رتبة الخامسة افتخار الأكابر
والأكارم عثمان أفندي زيد علوه وعمدة أصحاب التحرير والتقرير ، كاتب الدفتر
زيد قدره عندما قلدناهما تلك الخدمة الجليلة وأعطيتهما دفتراً مختوماً بختمنا المبارك
السلطاني لا زال عنواناً على صحائف مناشير الأمانى مخبراً عن المصارييف المعينة
متضمناً بالمواهب المقتنة فأمرناهما إيصال تلك الصرر إلى خزانة المديرية المأمورة
بالسعى مع الاهتمام على جري الأصول المؤسسة في سوالف الأيام في صرف
الصرر المقررة في مصارفها الحررة المقدرة على ما صرخ ونص عليه في الجريدة التي
هي في جيد الأمانة فريدة امثلاً لعموم قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿هُوَ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ واعترافاً من مشارب الأجور الجزيلة
قراح عندها ونهلها وتوزيعها إلى مستحقاتها من السادات والعلماء والضعفاء
ساكني مكة المكرمة وقاطني المدينة المنظمة المتسكين بأذياط سرادقات بيت الله
الحرام والمتشرفين بجوار نبينا شفيع الأنام ، عليه أفضلي الصلة والسلام ورسينا أن لا
يفض ختام أكياس هذه الميرة ، ولا توزع على أصحابها إلا بمعرفة المأمورين الذين
وجبت حضورهم ولا يستنسخ دفتر مستقل غير هذا الدفتر بل يعلم على اسم كل

من وصل إليه نصيه بالمداد الأحمر فإن غاب واحد منهم أو قضى نحبه ، ولم يوجد مسميات بعض الأسماء يعلم على اسمه باللغة حسبما يظهر ويحفظ حচصهم ونصيهم مفرزة حررة كي لا يحتال أحد لأنخذ الصرة المقررة ، بأن يؤدي نصيب من توفي أو غاب للأشخاص توافق أسماؤهم وألقابهم ونسبهم ، وتشابه الأسماء والألقاب والنسب والأنساب . هذا وقد أهدينا إلى حنابكم العالى ، مغرس شجرة المفاخر والمعالي ، صحبة حامل كتابنا اللطيف وخطابنا المنيف ، خلعة تشيريفاتنا البهية وإكساءاتنا السنية تجديداً لمراسم الموالاة وتأكيداً بمعاقد المصادفة فلا بد من استقبالها بتقديم مراسيم الإكرام والتعليم والتزيين والاكتساء بها عواتق الاحترام والتكرير ، وبذلك القدرة الكاملة والنهمة الشاملة ، في رعاية الرعية وصيانة الحجاج والمخاوريين والمسافرين والمقيمين من العنت والشقاوة لافتتاح الأمان والراحة وحراسة تلك الطرق والمسالك على ما يجب لأمراء الأقطار والممالك ، وإصلاح الصحبة وحسن جريانها كما هو المطلوب بعناية الصمدانية لحافظة الصحة العمومية واستجلاب الأدعية الصالحة من العلماء العاملين والسادات المهديين والفقراء الصالحين ، والمواظبة على الدعوات بمزيد التضرع والابتهاج لإعلاء أعلام دولتنا العالية وثبات أركان سلطنتنا السنوية ، إنه سبحانه له جدير بالسؤال وقدير على تبليغ الأعمال ، تعالت ذاته عن المضاهي ، وجل جوده عن التناهى وفضله حسب ما يجناهه لاذ ، وطوله كفاية من به استعاده وصلى الله على سيدنا محمد الذي تأسس قواعد شريعته البيضاء بأركان الموهاب الربانية ، ناشراً ظلال شدتها فوق الشرى ، واستهل بأرجاز لغورته الملائكة المقربون على العرش سرياً فسرباً ، على الله وعزته الذين فتحوا بسيوفهم البلاد شرقاً وغرباً ، ولمن تعهم من أمته إلى يوم الدين ، عجمًا وعرباً رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . تحريراً في ١٥ شعبان ١٣٢٢ هجري . انتهى من تاريخ الغازي .

بعض ما كان يكتبه السلاطين في تقليد إمارة مكتبة

يستحسن بنا أن نذكر شيئاً مما كان يكتبه الملوك والسلطين في تقليد إمارة مكة المكرمة للأشراف ، وذلك للإحاطة به ولمعرفة نوع الإنشاء الذي يوضع في قالب خاص من الألفاظ المنمقة فإن لك عصر صيغته الخاصة من الأدب والإنشاء ، فنقول :

ذكر الشيخ عبد الله الغازي رحمه الله تعالى في الجزء الثاني من تاريخه ناقلاً عن «صبح الأعشى» للقلقشلندي عند ذكر ما يكتب لأرباب الوظائف بالملكرة الحجازية صورة تقليد الإمارة التي كتبها الملك الناصر محمد بن قلاوون للشريف رميثة بن أبي نبي في سنة (٧٣١) إحدى وثلاثين وسبعمائة وهي :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَكِيمِ، فَالشَّرِيفُ مِنْ أَتَبَعِ أَوْامِرِهِ الْعَظِيمِ، فَالسَّعِيدُ مِنْ أَتَقَى غَضْبَهُ بِأَعْمَالِهِ الْزَّاكيَّةُ وَنِيَّاتِهِ الطَّاهِرَةُ الْكَرِيمَةُ، فَالْفَائزُ مِنْ سُلْكِ مَرَاضِيهِ فِي الدِّينِ لِيَأْمُنَ فِي الْآخِرَةِ، وَمِنْ أَخَافُ عَاكِفَ حَرَمَ اللَّهِ وَبَادِيهِ فَقَدْ بَاءَ بِالْأَفْعَالِ الْخَاسِرَةِ، وَمِنْ عَظِيمِ شَعَارِ اللَّهِ فَقَدْ رَفَلَ فِي حَلَلِ الْإِقْبَالِ الْفَاغِرَةِ، نَحْمَدُهُ عَلَى الْأَطَافِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، وَنَشْكُرُهُ وَنَرْجُوهُ وَمَا زَالَ يَنْجُحُ رَاجِيهِ وَيُزِيدُ شَاكِرَهُ، وَنَشَهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةُ مِنْ اتَّخَذَ الْحَقَّ نَاصِرَهُ وَأَوْدَعَ إِحْلَاصَهَا ضَمَائِرَهُ، وَنَشَهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ مِنَ الْحَرَمِ فَأَلْفَ القُلُوبَ النَّافِرَةَ وَفَعَّ مَكَةَ فَطَهَرَهَا مِنَ الزَّمْرَةِ الْكَافِرَةِ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ : مِنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَقَدْ آمَنَ، فَآسَى أَهْلَهَا وَنَفَوسُهُمْ بِالْأَمْنِ الْظَّافِرَةِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ نَبِيِّ الرَّهْرَاءِ الْعَتَّةِ الْزَاهِرَةِ، وَعَلَى صَاحِبِهِ التَّحْوِومِ السَّافِرَةِ وَسَلَمَ تَسْلِيماً كَثِيرًا، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْحُكْمَ بِالْعَدْلِ شَعَارُنَا، وَبِاللَّهِ افْتَدَأْنَا وَاقْدَارُنَا وَفِي الْإِحْسَانِ رَغْبَتَنَا، وَفِي كُلِّ عَنْقِ مَنْتَنَا نَصْفَحُ وَنَنْعِنُ، وَنَرْعَى مِنْ أَمْسَى قَدِيمِ الْمُحْرَةِ فِي وَلَايَتِنَا وَأَصْبَحَ، وَنَقِيمُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ لِحَفْظِ ذَلِكَ الْبَيْتِ الْأَصْلَحِ فَالْأَصْلَحُ وَنَقِيمُ مِنْ لَمْ يَزِلْ مَقْدِمًا إِلَى صَوَابِ الصَّوَابِ يَنْجُحُ فَيَنْجُحُ، وَنَنجِي مِنْ الْمُلْكَةِ مِنْ لَاحَ لَهُ مِنْهُجُ الْخَيْرِ فَسُلْكُهُ فَأَفْلَحَ، وَكَانَتْ مَكَةُ الْمُعْظَمَةِ هِيَ أَمُّ الْقَرَى وَالْبَلْدِ الْأَمِينِ الْجَزُلُ فِي الْقَرَى، نَشَأَ إِلَسْلَامُ فِي بَطْحَائِهَا، وَحَرَمَهَا اللَّهُ فَلَا يَنْفَرُ صَدِيقَهَا وَلَا يَعْضُدُ شَحْرَهَا، وَلَا تَخْلُ لَقْطَهَا إِلَّا لَمْنَشِدٌ، تَأْكِيدًا لِتَشْرِيفِهَا وَإِعْلَانِهَا، وَطَلَعَتْ شَمْسُ النَّبِيَّةِ مِنْ شَعَابِهَا، وَغَسَّلَتِ الْذَّنْبَ بِوَابِلِ سَحَابِهَا، فِيهَا زَمْزُمُ وَكَرَةُ جَبَرِيلٍ، وَفِيهَا بَدَا الْوَحْيُ وَالتَّنْزِيلُ، وَإِلَيْهَا أَعْنَتَ الرَّكَابُ، فَفِي كُلِّ أَبْطَحِ الْمَطْرِيِّ مَسِيرٌ وَمَسِيلٌ، فَكُمْ أَتَى إِلَيْهَا مِنْ سَائرِ النَّاسِ سَائِرٌ، وَكُمْ أَتَى إِلَيْهِ النَّاسُ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ، فَالرَّحْمَةُ مُسْتَقْرَرَةٌ بَيْنَ نَوَاحِيهَا، وَالْعَيْوَنُ تَمْلَى بِأَنْوَارِ تَلْكَ الْأَسْتَارِ حَتَّى تَجْتَلِيَهَا، وَالشَّفَاهُ تَتَشَرَّفُ بِتَقْبِيلِ ذَلِكَ الْحَجَرِ الَّذِي يَشَهَدُ لَهَا فِي غَدٍ وَيَقِيهَا، فَطَوْبَى لِتَقْيِهَا، وَسَحْقاً لَمَنْ أَخَافَ وَفَدَ اللَّهُ فِيهَا، وَنَحْنُ قَدْ بَصَرْنَا اللَّهَ بِخَدْمَةِ بَيْتِهِ الْحَرَمِ، وَحَرَمَهَا الْمُعْظَمُ، وَكَرَرَ إِلَيْهَا حَجَنَا وَكَرْمَهُ، فَلَلَّهِ الْحَمْدُ أَنْ كَرَرَ حَجَنَا وَكَرْمَهُ، وَمَا بَرَحَنَا نَقِيمُ فِي إِمَارَتِهَا مِنَ الْعَتَّةِ النَّبِيَّةِ كُلِّ

شريف النسب ، وكل من يكتسب فيها رضا الله تعالى ، وكل امرئ وما اكتسب ، فمن أصلح منهم أقمناه ، ومن حاد عن الطاعة وجحد النعمة أزلناه ، ومن أخاف فيه السبيل لم يجعل له إلى الخير سبيلاً ، ومن استقام على الطريقة توكلنا على الله ووليناه ، وكفى بالله وكيلا ، وكان فلانا هو الذي ما زالت خواطرنا الشريفة تقدمه على بني أبيه ، وختاره أميراً وبجتبه ، وربما سلفت من بيته هنات صفحنا عنها الصفح الجميل ، وما قابلناهم إلا بما يليق بمجدهم الحسنى الحسن الأصيل ، والإمرة ، وإن كانت بيد غيره هذه المدة ، فما كان في الحقيقة أمير عندنا سواه لأنه كبير بيته المشكور من سائر الأفواه ، والآن قد اقتضت آراؤنا الشريفة أن نقيمه في بلده ، أميراً مفرداً إليه يشار ، وأن نصفقه وأنه عندنا من المصطفين الأخيار ، وأن يجعل الكلمة واحدة ، ليأمن النزيل والجار ، ومتى تجاذب الأمر كلمتان فسد نظامه ، ومتى أفرد الحكم حست أحکامه ، ومتى توحد الأمر زال الاختلاف وزاد الائتلاف وأقبلت أيامه ، فذلك رسم بالأمر الشريف أن تفرض إليه إمرة مكة المشرفة ، على عادة والده ، فليقلد ما فوضناه من الإمرة والنوابية بمكة المعظمة ، شاكراً ما أنعم الله به عليه من مراضينا ، التي هي بحاجة لمن لم ينزل منها نصيباً موفوراً ، ولا فوز لمن لم يدرك منها حظاً كبيراً ، ولি�شرع في تمهيد البلاد من إزالة المظلمة ، وليطهرها من كل مجرئ على الله تعالى في البقعة المحرمة ، ولا يقرب من في قلبه مرض فيعيده ، ولا يرجع لمن فيه شقاق ظاهر في صفحات وجهه وفلتات فيه ، ولتعلم أن هذا بلد حرام ، حرمه الله يوم حلقة السموات والأرض ، وصير حج بيته على مستطيقه من الفرض ، وجعله للناس معاداً ومعاداً ، وقال ﷺ يوم عرفة : إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهر حكم هذا ، في بلدكم هذا ، فليمعن الدماء من أن تراق ، والأموال من أن تؤخذ بغير استحقاق ، والظلم في البلد الحرام حرام ، وبنو حسن أحق بالتتابع سنة الإسلام ، واتق الله لتلقاه بالوجه الأبيض والعمل الأغر ، واتبع سنة جدك فعلى اتباعها حُثٌ وأمْرٌ ، والق وفـد الله في البر والبحر بالحسنى فهم أضيفـه ، وأمن الحج ليتم نسـكه وطـوافـه . هنا تقليـدـنا لكـ أيـهاـ الشـرـيفـ فـطـبـ نـفـساـ بـمـرـاضـيـناـ ، وـصـفحـناـ عـمـاـ مـضـىـ ، وـمـنـحـناـ الرـضـىـ حـقـاـ يـقـيـناـ ، لـأـنـاـ تـحـقـقـ أـنـ إـلـهـانـ بـحـرـسـناـ وـيـقـيـناـ إـنـ شـاءـ اللهـ تـعـالـىـ . انتهى من تاريخ الغازي .

ونحن قد وقفنا على صورة هذا المرسوم الملكي المذكور ، في نفس كتاب «صبع الأعشى» للقلقشندي ، في الجزء الثاني عشر ، بصحيفة ٢٣٣ . وقد ذكر

أيضاً القلقشندي ، رحمة الله تعالى فيه صورة أخرى لتقليد إمرة مكة المكرمة لأحد الأشراف ، كما ذكر صورة وصية ملوكية لأحد أمراء مكة ، وصورة لتقليد قضاء مكة المشرفة لأحد العلماء . وذكر أيضاً مثل ذلك لتقليد إمارة المدينة المنورة وقضائهما ، وأن الإنسان ليأخذ العجب من هذا الإنشاء اللطيف والكلام البليغ ، ولو لا الخوف من إطالة البحث لنقلنا كل ذلك هنا . فسبحان مغير الأحوال ، ففرق كبير في المراسيم الملكية في الأزمان السابقة والمراسيم الملكية في زماننا هذا .

الاحتفال بتلاوة الأمر السلطاني بتقليد إمارة مكة

حيث ذكرنا ، فيما تقدم ، صورة الأمر السلطاني لإسناد إمارة مكة لأحد أشرافها ، نذكر الآن كيفية الاحتفال بتلاوة هذا الأمر الكريم ، الذي كانوا يسمونه «الفرمان» ، وهي كلمة تركية معناها «المرسوم الملكي» .

وقد ذكر كيفية الاحتفال به الأستاذ التنوبي في كتابة «الرحلة الحجازية» وهي كما يأتي :

ما بزعت شمس يوم الجمعة ١١ ذي الحجة سنة (١٣٢٧) سبع وعشرين وثلاثمائة وألف . يعني ، حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبيرة ، التي كانت عليها سرادقات سمو خديويينا العظيم (أي عباس باشا حلمي الثاني) خديوي مصر ، ودولة الشريف (أي الشريف حسين بن علي) وسعادة وكيل الولاية ، يتقدم كل فرقة موسيقية ، استعداداً للتشريفات بحملة تلاوة فرمان دولة الشريف . وفي الساعة الثانية العربية نهاراً ، اصطفت رجال المعية السنوية ، في الجهة اليمنى من الصيوان الكبير ، المعد للجناب العالى الخديوى ، وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته ، لمقابلة الوفد الحامل للفرمان والخلعة السنوية ، ثم سار إلى صيوان الجناب العالى ، وجلساً يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى إذا وصل الوفد إلى سلم المصطبة ، خفف الجناب العالى ومعه مولانا الشريف نحو السلم ، واستقبله الفرمان بتقبيله ، ثم قصد الكل الصيوان الخديوى وجنبه العالى في مقدمتهم . ولا يخفاك ما في هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف ، الذي يشير إلى علو مكانة جنابه الرفيع ، وأن مقامه هنا هو المقام الأول ، ومنزله هو المنزل فجلس ، حفظه الله ، في صدر المكان ، وعن يساره دولة الشريف ، ثم نائب الوالى ، ثم أنجال الشريف ، ثم عليه الأشراف ، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية ، وصاحبها

الفضيلة مفتى وقاضي مكة ، وكثير من علمائها وأعيانها ، ثم رجال العسكرية العثمانية ، وفي مقدمتهم سعادة ناظم باشا قوندان قوة الحجاز ، وجلس على يمين الجناب العالي دولة البرنس كمال الدين باشا ، ثم أصحاب السعادة : شفيق باشا وزعتر باشا وخيري باشا ، ثم موظفو المعاية السننية ، يليهم مستخدمو قوة الحمل الشريف المصري .

وهنالك توسط ساحة الصيون عزتلو مكتوبجي الولاية ، وأخذ في تلاوة الفرمان ، الذي كان يمسك بطرفيه اثنان من التشريفاتية ، فتلاه بالتركية ، وعندما أتى على لفظة الخلعة السننية التي قدمها جلاله السلطان « محمد الخامس » إلى دولة الشريف فكها أحد المهمدارين في غلافها الأطلس ، وألبسه إياها . وبعد تولاة الفرمان قام كاتب الشريف وتلا ترجمته المرسلة معه بالعربية ، وفحواها : إن مولانا السلطان ، حفظه الله لما يعلمه في دولة الشريف من أصالة الرأي وعلو الكعب في حسن الإدارة وكمال الدراءة ومحاسن الأخلاق ، واسع المعرفة وكريم السجايا ، ومحامد الخصال ، ومعالي الفضائل ، وجّه لدولته مركز الشرافة العظمى ، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج بيت الله الحرام ، والقيام بكل ما فيه راحتهم وصحتهم ، مع تأمين الطرق وتسهيل المواصلات والضرب على أيدي الخارجين من الأعراب عن الصراط السوي المستقيم . ولفت نظره إلى الدقة في صرف المرتبات ، وتوزيع الصدقات على أربابها بكل ضبط ، مع مساعدة لأموري الدولة من عسكريين وملكيين على أداء وظائفهم . وكان كلما ذكر اسم واحد منهم أليسوه كر كا ، حتى إذا أتت الحفلة أمر الجناب العالي ، فأديرت أكواب الشربات على الجميع ، وبعد شرب القهوة انصرف الشريف مودعاً من الجناب السامي بكل تجلة واحترام .

وما يجمل بنا ذكره تلك الألقاب التي وردت في هذا الفرمان ، موجهة من قبل صاحب الخلقة العظمى إلى دولة الشريف حتى تعرف مكاناته السامية . جناب الأمين الأجد ، الأجل الأوحد المتفاني آثار أسلافه الأشرف من آباء الغر صناديده آل عبد مناف ، وأجداده الحميدي السير الجميلي الأوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصبة العلوية المصطفوية المتتحي إلى أشرف جرثومة علا عنصرها ، والمتسب إلى أنفس أرومة غلا جوهرها ، زبدة سلاله الزهراء البتوول ، عمدة آل بيت الرسول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى في أعاظم وزراء سلطنتنا

السنن الحامل لنيشانى الافتخار المرصع العثماني والجىدي ، ووزيرى سمير الفطانة أمير مكة المكرمة الح ، وعلى هذا يجدر بنا أن نسوق إليك شيئاً من الألقاب التي كان يكتب بها إلى أمير مكة في عهد الدولة الجركسية ، فقد ورد في « صبح الأعشى » في رسم المكاتبنة إلى أميرها هذه العبارة : أَدَمُ اللَّهُ تَعَالَى نَعْمَةُ الْجَلِسِ الْعَالِيِّ ، الْأَمْرَيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِيِّ ، الْعَادِلِيِّ ، الْمَوْيَدِيِّ ، الْعَضْدِيِّ ، النَّصِيرِيِّ ، الْذَّخِيرِيِّ ، الْعُونِيِّ ، الْمَقْدِمِيِّ ، الْأَوْحَدِيِّ ، الْظَّهِيرِيِّ ، الزَّعْمِيِّ ، الْكَافَلِيِّ ، الشَّرِيفِيِّ ، الْحَسِيِّيِّ ، النَّسِيِّيِّ ، الْأَصِيلِيِّ ، الْفَلَانِيِّ (الْحَسَنِيِّ مِثْلًا) عَزَّ إِلَّا إِسْلَامُ وَالْمُسْلِمِينَ ، سَعْدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، جَلَالُ الْعَتَةِ الطَّاهِرَةِ كَوْكَبُ الْأَسْرَةِ الْزَّاهِرَةِ ، فَرَعُ الشَّجَرَةِ الْرَّكِيَّةِ ، طَرَازُ الْعَصَابَةِ الْعُلُوِّيَّةِ ، طَهِيرُ الْمُلُوكِ وَالسَّلاطِينِ ، نَسِيبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا زَالَ حَرْمَهُ أَمِينًا وَمَكِيَّا ، وَشَرْفُهُ يَسِّيْضُ لِهِ بِمُجاورَةِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا وَيَضِيءُ جَبِيَّنًا صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ مِنْ الْمَحْلِسِ الْعَالِيِّ تَحْمِلُ إِلَيْهِ سَلَامًا تَحْمِيلُ إِلَيْهِ الرَّكَابَ الْحَ . انتهى .

ذكرنا هذا ليحيط القارئ الكريم بعادات أهل العصور السابقة ، فيقارن ما نحن عليه بما كانوا عليه ، تذكرة لأولي الأ بصار . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلْفِ لِلَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأَوْلَى الْأَلْبَابِ﴾ .

ترجمة الفرمان السلطاني لتولية المشير كاظم باشا على الحجاز

لقد ذكرنا فيما تقدم ترجمة بعض الفرمانات السلطانية ، لتولية الأشراف إمارة مكة المشرفة ، ولنذكر هنا بعض الفرمانات عن تولية ولاة الأتراء في الحجاز ، فإن الوالي التركي وشريف مكة يشتهر كان في الحكم وإدارة الأمور . وقد ذكر إبراهيم رفعت باشا ، مؤلف كتاب « مرأة الحرمين » رحمة الله تعالى ، ترجمة فرمان تولية كاظم باشا ، الوالي التركي على الحجاز ، الذي تم إنشاء السكة الحديدية بالمدينة المنورة على يديه ، وجميع الفرمانات الصادرة بولاية الحجاز كانت على النمط الآتي ، وإليك ترجمة فرمان المشير كاظم باشا :

الدستور المكرم والمشير المفخم نظام العالم ، مدير أمور الجمهور بالفكر الثاقب ، متم مهام الأنام بالرأي الصائب ، مهند بنيان الدولة والإقبال ، مشيد أركان السعادة والإجلال ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى « ياورنا » الأكرم أحد مشيري سلطنتنا السننية المعظم ، سمير الدولة ناظر إنشاء السكة الحديدية

الحجازية ، الذي أُسندت إليه ولاية الحجاز ورئاستها فرقتها ، الحائز لوسام الافتخار المرصع ، والوسامين العثماني والمجیدي المرصعين « كاظم باشا » أَدَمَ اللَّهُ تَعَالَى إِجْلَالَهُ .

عند وصول التوقيع الشاهاني الرفيع الشأن ، يكون معلوماً أن أخص آمالنا الملكية وأغراضنا الشاهانية ، حسن انتظام الولاية الحجازية ، والحق في إدارتها والمحافظة على حقوق الأهالي والمساواة بينهم ، وإدامة الأمن والراحة لهم ، وما أنتك أيها المشير ذو دراية وخبرة ، وبصير بشؤون الحجاز ، وعرفنا صدقك في خدماتك السابقة ، وجهت أحسنان توجهاتي وغاية مكرامي الملكية ، وفوضت إلى عهد حضافتك ولاية الحجاز ورئاستها فرقته ، في اليوم الثاني من شهر شعبان المعظم لسنة ألف وثلاثمائة وستة وعشرين ، بمحض إرادتنا السنية الصادرة من ذاتنا الملكية ، وبمقتضى ذلك أصدرنا ومنحناك من ديواناً همایوني ، فرماننا هذا المتضمن لتلك المأمورية .

فيلزمك جلباً لرضانا وتحقيقاً لقصدنا الشاهاني ، أن تبذل مزيد العناء والإقدام باستكمال تأمين حقوق الأهالي ومحاربي الحرمين الشرفين ، خصوصاً كل ما تحصل به راحة الحجاج إلى بلد الله الحرام ، وزوار مدينة نبيه عليه الصلاة والسلام ، من التدابير الحسنة ، وتصرف في ذلك كل الجهد لاستجلاب الدعوات الخيرية لذاتنا الشاهانية من كافة الناس ، وذلك بالتمسك بالشريعة الحمدية الغراء ، وابذل وسعك في تحسين الأحوال المالية والخزينة النبوية ، وحافظ على جبائية الأعشار و« الويركوا » الذي كلفت به القبائل المختلفة ، وعونك في هذا مأموروهم الموظفون ، وإن ذاتنا الشاهانية لتنظر حمتك وجذرك في تسخير الأمور ، وتحقيق المصالح العامة ، وعرض الأشياء الالزامية على أستانتنا العلية ، تحريراً في رابع ذي القعدة الشريفة سنة ١٣٢٦هـ . انتهى من الكتاب المذكور .

أمر أمكتة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم

قال في كتاب تاريخ العرب وآدابهم ، تأليف إدورد فانديك وقسطنطين فيليبيس ، المطبوع بالمطبعة الأميرية بيولاق بمصر سنة ١٣١٠ هجرية ، ما نصه:

أما أمراء الحجاز الذين تولوا أمر البلاد، بعد ملوك قضاة، فهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم، وأول أمير منهم هو عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل، وهذه أسماؤهم مع تاريخ التملك:

العدد	الاسم	تاريخ التملك
١	عدنان	ولي الإمارة سنة ١٢٢ قبل الميلاد.
٢	معد	ولي الإمارة سنة ٨٩ قبل الميلاد.
٣	نزار	ولي الإمارة سنة ٥٦ قبل الميلاد.
٤	مضر	ولي الإمارة سنة ٢٣ قبل الميلاد.
٥	إلياس	ولي الإمارة سنة ١٠ بعد الميلاد.
٦	مدركة	ولي الإمارة سنة ٤٣ بعد الميلاد.
٧	خرميقة	ولي الإمارة سنة ٧٦ بعد الميلاد.
٨	كتانة	ولي الإمارة سنة ١٠٩ بعد الميلاد.
٩	النصر	ولي الإمارة سنة ١٤٢ بعد الميلاد.
١٠	مالك	ولي الإمارة سنة ١٧٥ بعد الميلاد.
١١	فهر وهو قريش	ولي الإمارة سنة ٢٠٨ بعد الميلاد.
١٢	غالب	ولي الإمارة سنة ٢٤١ بعد الميلاد.
١٣	لوي	ولي الإمارة سنة ٢٧٤ بعد الميلاد.
١٤	كعب	ولي الإمارة سنة ٣٠٧ بعد الميلاد.
١٥	مرة	ولي الإمارة سنة ٣٤٠ بعد الميلاد.
١٦	كلاب	ولي الإمارة سنة ٣٧٣ بعد الميلاد.
١٧	قصي	ولي الإمارة سنة ٤٠٦ بعد الميلاد.
١٨	عبد مناف	ولي الإمارة سنة ٤٣٩ بعد الميلاد.
١٩	هاشم	ولي الإمارة سنة ٤٧٢ بعد الميلاد.
٢٠	عبد المطلب	ولي الإمارة سنة ٥٠٥ بعد الميلاد.
٢١	عبد الله وهو والد النبي عليه السلام	ولي الإمارة سنة ٥٣٨ بعد الميلاد.

أمراء مكة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم

ونذكر هنا نبذة عن أمراء مكة ، زادها الله شرفاً وأمناً ورخاء ، قبل الإسلام، من «صبح الأعشى» باختصار ، ونذكر بعد الإسلام الجدول المبين فيه أسماء أمرائها من «الرحلة الحجازية» للبتوبي .

قال القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» ما نصه : اعلم أن مكة بعد الطوفان كان ملكها في عاد ، وكان بها منهم معاوية بن بكر بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان مع معاوية بن بكر (وهو عاد الآخرة فيما يقال) يعرب ثم غلبهم العمالقة عليها ، فلما غالب ابن قحطان بن عابر بن شايخ بن أرفخشذ بن سلم بن نوح عاداً على اليمن وفرق ملك اليمن في إخوته ، استولى على الحجاز وأخرج العمالقة منه وولي أخاه جرهم بن قحطان على الحجاز ، فبقي به حتى مات . فملك بعده ابنه عبد ياليل ، ثم ملك من بعده ابنه جرهم ، ثم ملك بعده ابنه عبد المدان ، ثم ملك بعده ابنه بقيلة ، ثم ملك بعده ابنه عبد المسيح ، ثم ملك بعده ابنه مضاض ، ثم ملك بعده ابنه الحارث ، ثم ملك بعده ابنه عمرو ، ثم ملك بعده أخوه بشر بن الحارث ، ثم ملك بعده مضاض بن عمرو بن مضاض .

قال ابن سعيد: وجرهم هذه هم الذين بعث إليهم إسماعيل عليه السلام ، وتزوج فيهم وكانت قبلهم جرهم أخرى مع عاد . قال في «الروض المعطار» : وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض ، وهو التاسع من ملوك جرهم المتقدم ذكرهم :

وصاهرنا من أكْرَمِ النَّاسِ وَالْإِدَّا فَأَبْناؤه مِنَا وَنَحْنُ الْأَصَاهِرُ

قال صاحب حمامة في «تاریخه» : وقد اختلف المؤرخون في أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبين إسماعيل ، في بعضهم يقول : كان الملك في جرهم ومفاتيح الكعبة وسداتها في يد ولد إسماعيل ، وبعضهم يقول : أن قيدار بن إسماعيل توجهه أخواه من جرهم وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز .

وأما سداته البيت ومفاتيحة فكانت معبني إسماعيل بلا خلاف ، حتى انتهى ذلك إلى نابت من ولد إسماعيل ، فصارت السداته بعده بجرهم ويدل على ذلك قول عمرو بن الحارث :

وَكَنَا وَلَاءَ الْبَيْتِ مِنْ بَعْدِ نَابِتٍ نَطَوْفُ بِذَاكِ الْبَيْتِ وَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ

وذكر في «الروض المطار» أنه كان مع جرهم بمكة قطورا، وجرهم وقطورا آخران، وكان منزل جرهم أعلى مكة بقعيقان فما حاز، ومتزل قطوراً أسفل مكة بأجياد فما حاز، وانتهت رئاسة قطوراً في زمن مضاض بن عبد المسيح المتقدم ذكره إلى السميدع. وكان مضاض يعشّر من دخل مكة من أعلاها، والسميدع يعشّر من دخلها من أسفلها، ثم يغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملك واقتلوه فقتل السميدع، واستقلّ مضاض بالأمر، وبقيت جرهم ولادة البيت نحو ثلاثة سنة، فأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها، واستحلوا حرمتها، وبلغ من أمرهم أن الرجل إذا لم يجد مكاناً يزني فيه أتى الكعبة فرنى فيها، ولم يتناهوا حتى يقال أن إساف بن سهيل زنى بتألة بنت عمرو بن ذؤيب في جوف الكعبة فمسخاً حجرين، ونصب ماء زمزم لكترة البغي، ودرست معالها، ثم جاء عمرو بن لحيٍّ فغير دين إبراهيم عليه السلام، وبذلك وبعث العرب على عبادة التماثيل، وعمر ثلاثة سنة وخمساً وأربعين سنة ويبلغ من الولد وولد الولد ألفين ... إلخ كلامه. انتهى من صبح الأعشى.

أما أمراء مكة بعد الإسلام : فقد أورد ذكرهم بإسهاب الأستاذ البتونني في كتابه «الرحلة الحجازية» نكتفي منه بذكر الجدول الذي وضع فيه أسماء من تولى مكة من بعد أن فتحها رسول الله ﷺ إلى اليوم ، وهو قد نقلها من السالنامة الحجازية المطبوعة بمكة سنة (١٣٠٦) بتصرف قليل ، كما صرّح بذلك في كتابه المذكور بصحيفة (٨٢) وهذا هو نص الجدول :

أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية
أحمد بن خالد		عتاب بن أسيد	٨
طارق بن المرتفع		الحرز بن حارثة	١٣
الحارث بن نوفل		قند بن عمير بن جدعان	
القرشي		نافع بن الحارث	
علي بن عدي بن ربيعة	٢٤	الخزاعي	
الحارث بن نوفل		خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة	
القرشي			

أسماء أمراء مكة تاریخ التولیة بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة تاریخ التولیة بالسنة الهجرية		
عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب ٦٤	عبد الله بن خالد بن أسيد ٦٤		
محيي بن حكيم عبد الله بن الربيير بن هشام	٦٤		
العوام (تولى الخلافة في مكة من سنة ٦٤ إلى سنة ٧٣) الحجاج بن يوسف الثقفي مسلمة بن عبد الملك بن مروان الحارث بن خالد المخزومي خالد بن عبد الله القسري نافع بن علقمة الكتاني محيي بن الحكم بن أبي العاص عمر بن عبدالعزيز بن مروان خالد بن عبد الله القسري طلحة بن دارد عبدالعزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد محمد بن طلحة بن	٧٣ ٧٥ ٧٥ ٨٧ ٩٧ ٩٧	نافع بن الحارث المخزاعي أبو قتادة الأنباري القثم بن العباس عتبة بن أبي سفيان مروان بن الحكم سعید بن العاص عمرو بن سعید المعروف بالأشدق خالد بن العاص المخزومي عبد الله بن خالد بن أسيد عمر بن سعید الأشدق الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عثمان بن محمد بن أبي سفيان الحارث بن خالد المخزومي	٣٦ ٣٩ ٣٩ ٦١

أمراء مكة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم

أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية
مروان بن محمد بن الوليد		عبد الله بن عبد الرحمن	
الوليد بن عروة		عروة بن عياض	
السعدي		عبد الله بن قيس بن خرمدة	
محمد بن عبد الملك بن مروان	١٣٢	عثمان بن عباد الله بن عبد الله بن سراقة	١٠١
داود بن علي بن عبد الله بن عباس		عبد العزيز بن عبد الله بن خالد	
عمر بن عبد الحميد		عبد الرحمن بن الصحاك بن قيس	١٠١
بن عبد الرحمن		عبد الواحد بن عبد الله	
العباس بن عبد الله بن معبد	١٣٦	إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي	
زياد بن عبد الله		محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي	
الحارثي		نافع بن عبد الله	
الهيثم بن معاوية		الكتاني	
العتكي المخراصاني		يوسف بن محمد	١٢٥
السرى بن عبد الله بن	١٤٣	الثقفي	
الحارث		عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز	١٢٦
محمد الحسن بن	١٤٥	عبد الواحد بن سليمان	
معاوية		بن عبد الملك	
السرى بن عبد الله		أبو حمزة الخارجي	
عبد الصمد بن علي	١٤٦	عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي	
بن عبد الله			
محمد بن إبراهيم	١٤٧		
الإمام			
إبراهيم بن يحيى بن	١٥٨		
محمد بن علي			

أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية
حمدون بن علي يزيد بن حنظلة إبراهيم بن موسى الكافر	٢٠٣	جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله عبيد الله بن القثم بن العباس	١٦٦
عيذا الله بن الحسن بن عبد الله		الحسين بن علي أحمد بن إسماعيل حماد البربري	١٦٩
صالح بن العباس بن محمد		سليمان بن جعفر الفضل بن العباس بن محمد بن علي	١٨٧
سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي محمد بن سليمان المذكور		محمد بن عبد الله بن سعید بن الغيرة عباس بن موسى عباس بن محمد الإمام عبد الله بن القشم	
الحسن بن سهل عيذا الله بن عبد الله بن الحسن	٢١٨	علي بن موسى موسى بن عيسى بن محمد بن علي	
صالح بن العباس بن محمد		داود بن عيسى بن موسى بن علي	١٩١
أشناس الجركسي محمد بن داود بن عيسى		الحسين بن الحسن بن علي الأصغر	
علي بن عيسى بن جعفر	٢٢٢	علي بن محمد بن جعفر الصادق	
عبد الله بن محمد بن داود	٢٢٩	عيسى بن يزيد الجلودي	
محمد بن سليمان بن عبد الله		هارون بن المسبب	٢٠٢
محمد بن المتصر			

أمراء مكة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم

أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية
أبي المهلب		إيتحار التركي	
مؤسس الخادم		عبدالصمد بن موسى	٢٤٧
ابن محارب	٣٠١	جعفر بن الفضل	
حافظ أبو الفضل	٣١٧	إسماعيل بن يوسف	
أبو طاهر القرمطي		عباس بن المستعين	٢٥٢
القاضي الشريف أبو جعفر محمد		محمد بن طاهر بن الحسين	
عيسى بن أبي جعفر		عيسى بن أحمد بن المنصور	٢٥٢
أبو الفتوح الحسين بن جعفر		محمد بن أحمد بن عيسى	
حسن بن جعفر	٣٨٥	علي بن الحسن الهاشمي	
أبو الطيب بن داود		الموفق طلحة بن المتوكل	٢٥٦
الشريف محمد بن حسن بن جعفر	٤٣٠	إبراهيم بن محمد بن إسماعيل العباس	
الشريف محمد بن جعفر	٤٥٥	أبو المغيرة محمد بن أحمد بن عيسى	
الشريف القاسم بن محمد	٤٨٤	أبو عيسى بن محمد الفضل بن العباس بن الحسين	
الشريف فليتة بن القاسم	٥١٨	هارون بن محمد بن إسحاق	
الشريف هاشم بن فليتة	٥٢٧	أحمد بن طولون	
الشريف القاسم	٥٤٩	محمد بن أبي الساج	
اللقب بعمدة الدين		عوج بن محلب	٢٧٩
الشريف عيسى	٥٩٧		
اللقب بقطب الدين			
الشريف مالك بن	٥٧٠		

أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية
صارم الدين ياقوت بن مسعود طعكين التركى وراجح بن قتادة (تدالوا الإمارة جملة مرات مكان بعضهما) الشريف الحسن بن علي بن قتادة الشريف جماز بن حسن بن قتادة الشريف راجح بن قتادة الشريف غانم بن راجح بن قتادة الشريف أبو غنى علي بن قتادة الشريف جماز بن شيخة الحسيني الشريف أبو غنى علي بن قتادة حيضرة ورميشه وعطيفة وأبو الغيث (تدالوا الولاية جملة مرات بالاتحاد والانفصال) ثقبة وعجلان ابنا رميشه (تدالوا الإمارة	٦٢٦ ٦٥٢-٦٣٠ ٦٥٢ ٦٥٢ ٦٥٢ ٦٥٢ ٦٥٢ ٦٨٨ ٧٠١ ٧٤٠	فلية الشريف القاسم الشريف قطب الدين عيسي الشريف داود بن عيسي الشريف مكثر بن عيسي الشريف القاسم بن مهنا الشريف مكثر بن عيسي الشريف القاسم بن مهنا الشريف بكر بن عيسي الشريف محمد بن مكثر الشريف قتادة بن إدريس عبد الله بن محمد الشائر بن موسى الشئى بن الحسن الشريف الحسن بن قتادة نور الدين علي بن عمر بن رسول	٥٧٠ ٥٧١ ٥٨٧ ٥٩٧ ٦١٧ ٦١٩

أمراء مكة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم

أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية
الحسن بن عجلان		جملة مرات	
الشريف أبو القاسم بن الحسن	٨٤٧	الشريف سند بن رميشه و محمد بن عطيفة	٧٦٤
الشريف برّكات بن الحسن بن عجلان	٨٥١	الشريف أحمد بن عجلان	٧٦٥
الشريف محمد بن برّكات	٨٥٩	الشريف عنان بن مقامس	
الشريف برّكات بن محمد وأخوه		الشريف عنان وأحمد وعقيل	
الشريف هزاع بن محمد بن برّكات		الشريف علي بن عجلان	٧٨٩
الشريف أحمد بن محمد بن برّكات		الشريف محمد بن عجلان	٧٩٧
الشريف برّكات بن محمد		الشريف الحسن بن عجلان	٨٠٩
الشريف حميسة بن محمد	٩١٠	الشريف رميشه بن محمد بن عجلان	٨١٨
الشريف برّكات بن محمد وأخوه		الشريف الحسن بن عجلان	٨٢١
الشريف برّكات ومعه ابنه محمد		الشريف برّكات بن حسن	٨٢١
الشريف برّكات بن محمد و ولداته		الشريف علي بن عنان بن مقامس	٨٢٧
الشريف أبو ثني بن محمد بن برّكات	٩٣١	الشريف الحسن بن عجلان	٨٢٨
الشريف حسن بن أبي ثني	١٠٠٣	الشريف علي بن	٨٤٥

أسماء أمراء مكة	تاريخ العولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ العولية بالسنة الهجرية
غالب		الشريف أبو طالب بن حسن	١٠١٠
الشريف محسن بن حسين	١١٠١	الشريف إدريس بن حسن	١٠١٢
الشريف سعيد بن سعد	١١٠٣	الشريف محسن بن أخي إدريس	١٠٣٤
الشريف عبد المحسن بن أحمد	١١١٣	الشريف أحمد بن عبد المطلب	١٠٣٧
الشريف عبدالكريم بن محمد	١١١٣	الشريف مسعود بن إدريس	١٠٣٩
الشريف سعد بن زيد	١١١٣	الشريف عبد الله بن حسن	١٠٤٠
الشريف عبد الكريم بن محمد	١١١٣	الشريف محمد بن عبد الله مع زيد	١٠٤١
الشريف سعيد بن سعد	١١١٦	الشريف نامي بن عبد المطلب	١٠٤١
الشريف عبدالكريم بن محمد	١١١٧	الشريف زيد بن حسن	١٠٤٢
الشريف سعيد بن سعد	١١٢٣	الشريف سعد بن عبد الله بن زيد	١٠٧٧
الشريف عبد الله بن سعيد	١١٢٩	الشريف بركات بن محمد	١٠٨٣
الشريف يحيى بن بركات	١١٣٠	الشريف سعيد بن بركات	١٠٩٤
الشريف مبارك بن أحمد	١١٣٢	الشريف أحمد بن زيد	١٠٩٥
الشريف عبدالله بن سعيد	١١٤١	الشريف سعيد بن سعد بن زيد	١٠٩٩
الشريف محمد بن	١١٤٣	الشريف أحمد بن	١٠٩٩

أمراء مكة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم

أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية
الشريف غالب بن مساعد ^(١)	١٢٠٢	عبد الله الشريفي مسعود بن سعيد	١١٤٥
الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد آل سعود	-١٢١٨	الشريف محمد بن عبد الله	١١٤٥
الشريف يحيى بن سرور	١٢٢٩	الشريف مسعود بن سعيد	١١٤٦
الشريف محمد بن عبد المعين	١٢٤٢	الشريف مساعد بن سعيد	١١٦٥
الشريف عبد المطلب بن غالب	١٢٦٧	الشريف جعفر بن سعيد	١١٧٢
الشريف محمد بن عبد المعين	١٢٧٢	الشريف مساعد بن سعيد	١١٧٣
(١) استمرت فترة إمارة الشريف غالب بن مساعد على مكة باسم الدولة العثمانية من سنة ١٢٠٢هـ حتى سنة ١٢١٨هـ حيث انتقل الحكم في مكة للكرمة في ذلك العام لأن سعود بعد دخول القوات السعودية للحجاز وضمه للدولة السعودية فأصبح الحجاز بكماله جزء من الدولة السعودية.		الشريف عبدالله بن سعيد	١١٨٤
وقد استمر حكم آل سعود للحجاز منذ أواخر عهد الإمام الشهيد عبد العزيز بن محمد بن سعود وطول عهد ابنه الإمام سعود والذي دام حتى سنة ١٢٢٩هـ		الشريف أحمد بن سعيد	١١٨٤
		الشريف عبد الله بن حسن	١١٨٤
		الشريف أحمد بن سعيد	١١٨٤
		الشريف سرور بن مساعد	١١٨٦

استمرت فترة إشارة الشريف غالب بن مساعد على مكة باسم الدولة العثمانية من سنة ١٢٠٢هـ حتى سنة ١٢١٨هـ حيث انتقل الحكم في مكة المكرمة في ذلك العام لآل سعود بعد دخول القوات السعودية للحجاج وضمها للدولة السعودية فأصبح الحجاج بكماله جزء من الدولة السعودية . وقد استمر حكم آل سعود للحجاج منذ أواخر عهد الإمام الشهيد عبد العزيز بن محمد بن سعود وطول عهد ابنه الإمام سعود والذي دام حتى سنة ١٢٢٩هـ حيث هاجمت قوات محمد علي الوالي العثماني على مصر القوات السعودية في الحجاج وأخذت المروب بين الطرفين تشتت عاماً بعد آخر حتى سقطت الدرعية في سنة ١٢٣٣هـ .

أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة	تاريخ التولية بالسنة الهجرية
الشريف علي باشا بن عبد الله	١٣٢٣	الشريف عبدالله باشا بن محمد بن عون	١٢٧٤
الشريف عبد الإله باشا بن محمد بن عون	١٣٢٧	الشريف حسين باشا	١٢٩٤
الشريف حسين باشا بن علي بن محمد بن عون	١٣٢٧	الشريف عبدالمطلب بن غالب	١٢٩٧
		الشريف عون الرفيق	١٢٩٩
		بن محمد بن عون	

انتهى الجدول وبعض ما فيه يخالف لما جاء في كتاب مرآة الحرمين وغيره من التواريخ .

هذا هو نص أسماء أمراء مكة الموجود في كتاب الرحلة الحجازية للبتوني . وأسماء أمراء مكة مذكورة أيضاً في تاريخ الغازي وفي الجامع اللطيف لابن ظهيرية وفي غير ذلك من التواريخ .

ولقد كانا نخب أن ذكر لكل أمير من أمراء مكة المدة التي مكثها في الحكم ، ونكتب نبذة عن ترجمته ، لكن ذلك يحتاج منا إلى بحث كثير ووقت طويل ، وليس عندنا من الفراغ ما نشغله في هذه المسألة .

هذا وقد علمت في نهاية أسماء أمراء مكة ، التي نقلناها هنا من الرحلة الحجازية ، أن الشريف حسين باشا بن علي بن محمد بن عون ، هو آخر الأسماء في الكتاب المذكور ، حيث أن مؤلفه قد حج في أيامه ، ثم توفي بعد ذلك ولم يعلم ما حدث فيما بعد ، ونحن تكملاً للموضوع وبياناً للحقيقة التاريخية ذكر ما يأتي باختصار :

إن الشريف حسين بن علي باشا المذكور ، صار بعد أن أجلى الأتراك من البلاد الحجازية ، واستتب له الأمر ملكاً على الحجاز ، ثم تنازل عن الملك لابنه الشريف علي بن الحسين في أثناء محاربته مع جلاله الملك عبدالعزيز آل سعود ، فبُويع لابنه الشريف علي ، وكان بجهة ملكاً على الحجاز ، في الخامس من ربيع الأول سنة (١٣٤٣) سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية . فعاد الملك علي

بن الحسين، في اليوم التالي إلى مكة وهي عاصمة ملكه ومحلي إقامته وحكمه . وبهذا يكون الشريف علي بن الحسين آخر حكام مكة وأمرائها من الأشراف .

ولم يلبث في الملك إلا قليلاً ، ثم حكم حلاة الملك عبدالعزيز آل سعود مكة وكان دخوله لها في ١٥ ربيع الأول من السنة المذكورة ، وبذلك يكون الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود حاكم مكة المكرمة وأميرها ، رحم الله الجميع رحمة واسعة .

فلما استقرت الأمور للملك عبدالعزيز المذكور صار يتقل ما بين مكة ومحلي موطنه الرياض ، فأناب عنه في الحكم على المحاز ابنه صاحب السمو الملكي «الأمير فيصل» ، وكان محل إقامته وحكمه مكة ، فبذلك صار أيضاً من حكام مكة وأمرائها .

ثم كثرت أشغال سمو الأمير فيصل «ولي العهد الآن» وأنصت إليه مهام الأعمال فكثرت أسفاره ، فأناب عنه في الحكم على الحجاز ابنه صاحب السمو الملكي «الأمير عبد الله» وزير الداخلية سابقاً ، وكانت إقامته ومحلي حكمه مكة ، فبذلك صار أيضاً من حكام مكة وأمرائها ومكث كذلك إلى سنة (١٣٧٧) .

ثم تولى بعده إمارة مكة سمو الأمير متعب بن عبدالعزيز آل سعود ، وذلك في العاشر من ذي القعدة سنة (١٣٧٨) هجرية ، ثم تولى بعده إمارة مكة سمو الأمير عبدالله بن سعود آل سعود وذلك في اليوم التاسع عشر من شعبان سنة (١٣٨٠) هجرية . ثم تولى بعده إمارة مكة سمو الأمير مشعل بن عبدالعزيز آل سعود في الحادي عشر من شهر رمضان سنة (١٣٨٢) ، ثم تعين بعده سمو الأمير فواز بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة ، ووكيله أخيه سمو الأمير أحمد بن عبدالعزيز^(٢) .

انظر: صورة رقم ٢٩٢ ، الحدث عبدالعزيز رحمة الله يوم تسليمه مدينة جدة من الحاج عبد الله علي رضا

(٢) ثم عين الأمير ماجد بن عبد العزيز آل سعود أميراً لمنطقة مكة المكرمة ونائبه الأمير سعود بن عبد الحسن بن عبد العزيز آل سعود ، وعین سمو الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود نائباً لوزير الداخلية .

ولاة مكة من الأتراك

تقديم ذكر أمراء مكة من العرب والأسراف منذ عهد رسول الله ﷺ إلى الآن . وهنا نذكر ولاة مكة من الأتراك من قبل الدولة العثمانية التي حكمت الحجاز والبلدان الإسلامية ثم زال حكمها عنها بعد الحرب العظمى التي انتهت في سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة .

فأمير مكة من الأسراف وواليها التركي من قبل الدولة العثمانية كانا يحكمان مكة والجاز ، كل منها في ما يتعلق باختصاصه ، وذلك في العهد العثماني ، فلما استقل الحجاز أصبح لملك حاكم واحد فقط ، يتصرف في جميع شؤونها وشؤون غيرها من البلدان الحجازية .

ولم نر أحداً من المؤرخين ذكر ولاة مكة من الأتراك سوى المؤرخ الشیخ عبدالله الغازی ، فإنه ذكر أسماءهم في آخر الجزء الثالث من تاريخه المسمى «إفاده الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» وإليك نص كلامه :

قال الغازى رحمه الله تعالى : (الفصل الثاني في ذكر ولاة مكة المشرفة من طرف الدولة العثمانية) ...

إعلم أنني تبعت كثيراً ذكر ولاة مكة المشرفة من طرف الدولة العثمانية ، من بعد ما فتح السلطان سليم مصر ، فما وجدت أحداً ذكره مستوعباً غير ما ذكر صاحب «السالنامة الحجازية» أسماء الولاية فقط مع ذكر تاريخ ولايتمهم إلى سنة (١٣٠٤) أربع وثلاثمائة وألف هجرية .

وذكر العلامة الحضراوي في تاريخه ، الولاية الذين تولوا ولاية مكة بعد خروج الدولة المصرية من الحجاز إلى سنة (١٣٠٠) ثلاثة وألف من الهجرة ، فذكر أولاً ما في (السالنامة) ثم ما ذكره الحضراوي ، ثم ما وجدناه من تحريرات بعض المعاصرين في ذكر الولاية إلى سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف ، وهذه السنة هي سنة انتهاء ولايتمهم . وإليك جدولًا بأسماء ولاة مكة المشرفة :

عدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية المحرجة	ملحوظات
١	ترك حسين بك	٩٢٣	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٢	علي بك	٩٣٢	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٣	أوز دمر باشا	٩٦٢	كان الحجاز ملحقاً بمصر

ولاة مكة من الأتراك

عدد	اسم الوالي التزكي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
٤	خوش كلدي بك	٩٦٧	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٥	عثمان باشا بن أوز دمر باشا	٩٧٣	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٦	قاسم بك	٩٩٦	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٧	محمد بك	١٠١٢	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٨	محمد بك	١٠٢٠	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٩	حسين باشا	١٠٢٠	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٠	محمد باشا	١٠٣٣	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١١	كورجي محمد باشا	١٠٣٥	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٢	آيدين باشا	١٠٣٨	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٣	مصصى بـ	١٠٤٠	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٤	دلاور بك	١٠٤٦	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٥	مصطفى بك	١٠٥٢	
١٦	قيطلس بك	١٠٦٠	
١٧	محمد بك	١٠٦٦	
١٨	مصطفى باشا	١٠٦٦	كان مقره سواكن
١٩	سليمان بك	١٠٦٧	
٢٠	عماد الدين أفندي	١٠٧٥	
٢١	يوسف بك	١٠٧٧	
٢٢	محمد بك	١٠٧٨	
٢٣	حسين باشا	١٠٧٩	
٢٤	محمد سعيد باشا	١٠٨٢	
٢٥	أحمد باشا	١٠٩٥	
٢٦	تبردار سليمان باشا	١٠٩٦	
٢٧	كخدا إسماعيل باشا	١٠٩٦	لم يصل
٢٨	ايكتجي دفعـة سليمان باشا	١٠٩٧	
٢٩	محمد بك	١٠٩٨	

التاريخ القويم

العدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية المجرية	ملحوظات
٣٠	أحمد بك	١١٠٣	
٣١	بيقلبي باشا	١١٠٤	
٣٢	مصرلي أحمد بك	١١٠٧	
٣٣	سليمان باشا	١١١١	
٣٤	حسن باشا	١١١٩	
٣٥	محمد محسن باشا	١١٢٠	مدفون بجدة
٣٦	خزينة دار إسماعيل	١١٢٢	
	آغا		
٣٧	إبراهيم باشا	١١٢٢	
٣٨	كتخدا خليل باشا	١١٢٦	
٣٩	حسن باشا	١١٢٦	
٤٠	وزير علي باشا	١١٣٤	مدفون بجدة
٤١	جاوش باشي بكر	١١٣٤	
	باشا		
٤٢	إسماعيل باشا	١١٣٦	
٤٣	إيكتنجي دفعه بكر	١١٣٧	
	باشا		
٤٤	صدر أسيق محمد	١١٤٠	
	باشا		
٤٥	وزير أبو بكر باشا	١١٥٨	
٤٦	يكن مصطفى باشا	١١٥٩	
٤٧	وزير عثمان باشا	١١٥٩	
٤٨	صدر أسيق محمد	١١٦٣	لم يصل
	باشا		
٤٩	إيكتنجي دفعه عثمان	١١٦٣	مدفون بجدة
	باشا		
٥٠	كتخدا مصطفى آغا	١١٦٣	
٥١	أبو بكر باشا	١١٦٥	لم يصل

ولاة مكة من الأتراك

العدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
٥٢	صدر أسبق سيد محمد باشا	١١٦٥	مدفون بجدة
٥٣	صدر أسبق عبدالله نائل	١١٧١	مدفون بالمعلاة
٥٤	وزير سعد الدين باشا	١١٧٢	
٥٥	مصطفى باشا	١١٧٣	
٥٦	صالح باشا	١١٧٥	
٥٧	سيد أحمد باشا	١١٧٩	
٥٨	وزير محمد راقم باشا	١١٨١	
٥٩	صدر أسبق حمزة باشا	١١٨٣	
٦٠	خليل باشا	١١٨٨	مدفون بجدة
٦١	دفتر دار عثمان باشا	١١٨٩	
٦٢	بابلسي أحمد باشا	١١٩١	
٦٣	مصطفى باشا	١١٩٩	
٦٤	أغريوزي محمد باشا	١٢٠٠	مدفون بعرفات
٦٥	بو ليلي أحمد باشا	١٢٠٠	
٦٦	محمد عزت باشا	١٢٠٣	
٦٧	صدر أسبق قوجه يوسف	١٢٠٧	مدفون بالمدينة
٦٨	شيخ زاده إبراهيم باشا	١٢١٥	
٦٩	محمد طوسون باشا	١٢١٦	مدفون بجدة
٧٠	محمد شريف باشا	١٢١٧	مدفون بجدة
٧١	أبو مراق محمد باشا	١٢١٨	
٧٢	جلبي أحمد باشا عثمان	١٢٢١	

العدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية المحرية	ملحوظات
٧٣	مصرلي طوسون باشا	١٢٢٧	
٧٤	مصرلي إبراهيم باشا	١٢٣٢	
٧٥	لاز على باشا	١٢٥٦	لم يصل
٧٨	تاتار عثمان باشا	١٢٥٧	مدفون بجدة
٧٩	شريف باشا	١٢٦١	
٨٠	حسيب باشا	١٢٦٥	
٨١	أكاه باشا	١٢٦٧	
٨٢	دللو عزت باشا	١٢٦٩	
٨٣	كامل باشا	١٢٧٠	
٨٤	محمد باشا	١٢١٣	
٨٥	دللو نامق باشا	١٢٧٢	
٨٦	كوتاهية لي علي باشا	١٢٧٥	
٨٧	حقي باشا زاده	١٢٧٨	
	عزت باشا		
٨٨	وجيهي باشا	١٢٨١	مدفون بالطائف
٨٩	معمر باشا	١٢٨٤	
٩٠	خورشيد باشا	١٢٨٧	
٩١	فريقي قاسم باشا	١٢٨٨	
٩٢	محمد رشيد باشا	١٢٨٩	
٩٣	شووانى رشدى باشا	١٢٩١	
٩٤	دولللو تقى الدين باشا	١٢٩١	
٩٥	حالت باشا	١٢٩٤	
٩٦	ناشد باشا	١٢٩٦	
٩٧	صفوت باشا	١٢٩٧	
٩٨	عزت باشا	١٢٩٨	
٩٩	عثمان باشا	١٢٩٩	
١٠٠	جميل باشا	١٣٠٤	

ولاة مكة من الأتراك

عدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
١٠١	دولللو صوت باشا	١٣٠٤	

إلى هنا انتهى الجدول بأسماء ولاة الأتراك ، ثم قال الغازي ، رحمة الله تعالى ، بعد انتهاء هذا الجدول ما نصه :

وقال العلامة الحضراوي رحمة الله تعالى ، في تاج توارييخ البشر في ذكر ولاة مكة وحده من الباشوات ، من طرف الدولة العثمانية بعد خروج الدولة المصرية وانقضاء مدتھم من الحجاز ، ما يأتي :

أول من سمي بوكالي جدة هو «ال الحاج عثمان باشا » وكان أصله من أهل القرم ، فسس الناس وسكن جدة ، وسير أمره لتعمير المأثر ، وانتظام خدمة الحرم المكي حتى أنه أمر بعمارة مسجد الحير عبدالله بن عباس بالطائف ، وجدد قبته بعد تخريبيها سنة (١٢٦٠) هجرية ، وبنى قبة السيدة خديجة ، وأمر بترخيص المسجد الحرام ، وبنى قبة أمنا حواء وقبرها ، وعمر قلعة الطائف وقلعة رابغ ، وبنى سور الملاة الخيط بالمقبرة وعمر سور جدة وجمة مأثر .

وكان ابتداء ولاية هذا الباشا سنة (١٢٥٧) فمكث يسوس الناس ، ويتألف أهل مكة ويكرمهم ، إلى أن توفي سنة (١٢٦٠) بجدة ودفن بها .

ثم تولى بعده «ال الحاج محمد شريف باشا » كان سابقاً شيخ الحرم النبوي بالمدينة المنورة ، فجاءته الأوامر السلطانية بالتوجه إلى مكة المشرفة ، وكان رجلاً جيداً صالحًا خيراً يحب الفقراء والعلماء .

ثم ذكر الحضراوي في تاريخه المذكور ، بنذة عمما فعله الوالي الحاج محمد شريف باشا ، وذكر أيضاً عمما قام به من الأعمال كل والتركي تولى مكة فرداً فرداً . ولقد أردنا أن ننقل هنا نص كلامه ، لكن رأينا أن نقتصر كلامه ولنلخصه في جدول كالجدول السابق الذي في تاريخ الغازي ، فإن ذلك أجمل في المنظر وأكثرفائدة للقارئ الكريم ، فالتطويل مما يوجب السآمة والملل ، ومن أراد الوقوف على زيادة البيان فعليه بطالعة التاريخ المذكور .

وإليك الجدول الذي رتبنا فيه خلاصة كلام الحضراوي رحمة الله تعالى .

جدول بأسماء ولاة مكة وحده من الأتراك

ملخصاً كل ذلك من تاريخ العلامة الحضراوي المسمى «تاج توارييخ البشر» الذي هو مذكور في الجزء الثالث من تاريخ الغازى :

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
١	ال حاج عثمان باشا	تولى سنة (١٢٥٧) وبقي والياً إلى أن توفي بمدة سنة (١٢٦٠) وهو أول من سُمي بواли جدة ، وكان يسوس الناس سياسة حسنة .
٢	ال حاج محمد شريف باشا	تولى سنة وفاة المذكور ، وبقي والياً حتى توفى بينما سنة (١٢٦٤) عن ثمانين سنة ، وكان رجلاً فاضلاً صالحًا يحب الفقراء والعلماء .
٣	ال حاج محمد حسيب باشا	تولى بعد وفاة المذكور ، ثم عزل سنة (١٢٦٦) فتوجه إلى الآستانة وقد قام بأعمال جليلة بمكة ، وكان أحياناً يدور بنفسه في شوارعها لفقد الأحوال .
٤	أكاه محمد باشا	قدم مكة وتولاهما بعد المذكور سنة (١٢٦٦) وقد بني مع الشريف عبدالمطلب القلابع التي في طريق المدينة ، ثم عزلته الدولة العثمانية .
٥	أحمد عزت باشا	الأزرقلي تولى آخر سنة (١٢٦٦) ومكث والياً إلى أوائل سنة (١٢٧١) ثم عزلته الدولة العثمانية لعدم اتفاقه مع أمير مكة الشريف عبدالمطلب .
٦	كامل باشا	تولى بعد المذكور ، كان من دهاء الرجال لكنه لم يكن متتفقاً مع أمير مكة الشريف عبدالمطلب فعزله الدولة في أواخر سنة (١٢٧٣) .
٧	المشير محمود باشا	تولى بعد المذكور ، وكان من قبل والياً للأقطار اليمنية فلما جاء مكة قضى حوائج أهلها وصرف لهم جرایاتهم ، ثم عزل في سنة (١٢٧٤) .
٨	محمد نامق باشا	قدم مكة في السنة المذكورة ، وفي أيامه وضع دائرة لقناديل بأروقة المسجد الحرام ، وفي مذته حصلت

ولاة مكة من الأتراك

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
٩	علي باشا الكهيلي	الفترة بين أهل جدة ومن فيها من التصارى . قدم مكة سنة (١٢٧٦) وكان كثير الطواف ، وكان يحب توفير المال للخزينة ولذلك ثار عليه بعض الجندي فهمموا على مدرسته ، عزل سنة (١٢٧٨) .
١٠	عزت باشا	تولى بعد المذكور ، وكان يلقب بالموسوس فإنه كان يتوضأ بخمسة أباريق ، وفي مدته غلت الأسعار وحصل الرباء ، عزل سنة (١٢٨١) .
١١	محمد وجيهي باشا	تولى بعد المذكور ، كان يحب تعمير القلائع فعمّر قلعة مكة وقلعة الطائف والأبراج ، توفي بالطائف سنة (١٢٨٣) عن ثمانين سنة .
١٢	محمد معمر باشا	قدم مكة في السنة المذكورة ، كان كثير التواضع يطوف وحده كآحاد الناس ، وكان لا يعرف أن يسوس الأمور لذلك قدم استقالته للنوبة فولته على أنقرة .
١٣	خورشيد باشا	قدم مكة في أوائل شهر شوال سنة (١٢٨٧) ، كان عالماً فاضلاً يحب أهل العلم ، عمر قلعة الطائف وجعل فيها مسجداً عزل سنة (١٢٨٨) .
١٤	قاسم باشا	دخل مكة في السنة المذكورة بموكب جميل وضررت له المدافع ، كان فاضلاً يعقوب أهل الرشوة والغش وانتبه للأسعار فرخصت في مدته الأسعار جداً عزل سنة (١٢٨٩) .
١٥	محمد رشيد باشا	قدم مكة في شعبان من السنة المذكورة ، وفي أيامه غلت بعض أسعار الحاجيات ، وهو الذي جدد سور مقبرة العلا عزل عن مكة سنة (١٢٩١) .
١٦	محمد رشدي باشا الشروانى	قدم مكة في آخر جمادى الثانية من السنة المذكورة ، وهو داغستانى الأصل ، كان يحب العلماء وأهل الخير ، توجه إلى الطائف وتوفي هناك في السنة المذكورة .

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
١٧	محمد تقى الدين باشا	قدم مكة في آخر شوال سنة (١٢١٩) كان من أهل حلب وكان عملاً تولى هنالك الإققاء، ثم حصل منه طمع في أهل مكة فعزل سنة (١٢٩٤).
١٨	محمد حالت باشا	قدم مكة في آخر شهر القعدة من السنة المذكورة، كان فاضلاً دينياً يحب أهل العلم ويكرم أهل الفضل، توفي بجدة سنة (١٢٩٦).
١٩	محمد ناشد باشا	تولى بعد المذكور فأقام أكثر من سنة واحدة ثم طلب الإقالة حيث لم يتفق مع أمير مكة فأعفته الدولة سنة (١٢٩٧).
٢٠	محمد صفت باشا	تولى بعد المذكور وحج سنة (١٢٩٨) وكان عاقلاً وحازماً، ولما لم يتفق مع شريف مكة عزلته الدولة العثمانية.
٢١	أحمد عزت باشا	وقد سبق ذكره حين تولى لأول مرة وهذه المرة الثانية لولايته مكة ، قدم إليها في آخر شهر ذي الحجة سنة (١٢٩٨) ثم طلب بنفسه الإقالة من الدولة .
٢٢	عثمان نوري باشا	كان أولًا بالطائف ثم ولته الدولة على مكة فعرف كيف يدير الولاية بعزم وحزم ، وقد سبق ترجمته في فصل مستقل ، ثم عزلته الدولة سنة (١٣٠٤) .
٢٣	حسين جميل باشا	وهو ابن نامي باشا ، وصل مكة في أوائل سنة (١٣٠٥) ، مكث بمكة نحو أربعة أشهر ثم عزلته الدولة .
٢٤	صفوت باشا	وقد تقدم ذكره عند توليه للمرة الأولى على الحجاز وهذه هي المرة الثانية ، مكث قليلاً ثم عزلته الدولة .
٢٥	نافذ باشا	قدم مكة سنة (١٣٠٦) وكان فاضلاً محباً للخيرات وقد أزال كثيراً من المنكرات والمكوس وغير ذلك ، ثم عزلته الدولة .
٢٦	إسماعيل حقي باشا	ويعرف بصاحب النقن الطويلة ، وفي مدته حصل بعض الفتن بسبب مسألة الرقيق ، فعزلته الدولة

ولاة مكة من الأتراء

العدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
٢٧	عثمان نوري باشا	العلية .
٢٨	أحمد راتب باشا	المقدم ذكره ، كان بخلب فوصل مكة بعد تعينه والياً عليها سنة (١٣٠٩) وقد كتبنا ترجمته في فصل خاص ، ثم عزلته الدولة أيضاً .
٢٩	حسن حلمي باشا	تولى ومكث بمكة سنة وشيتاً ثم عزل سنة (١٣١١) .
٣٠	كافظ باشا	وصل مكة سنة (١٣١٢) وبقي بها نحو سنة وشيتاً ثم عزلته الدولة .
٣١	فؤاد باشا	قدم مكة مستهل رمضان سنة (١٣٢٦) وكان المذكور قومدان فرقه الحجاز العثماني ، ثم إنه في
٣٢	كامل باشا	سنة (١٣٢٧) عزلته الدولة .
٣٣	حازم بك	تولى بعد المذكور ثم عزلته الدولة .
٣٤	مصطفى ذهني باشا	وصل مكة من اليمن في جمادى الآخرة سنة (١٣٢٩)
٣٥	رشيد باشا	وكان قد خرج لاستقباله أمير مكة وأعيانها ثم في
٣٦	أحمد نديم باشا	سنة (١٣٣٠) عزلته الدولة .
٣٧	وهيب باشا	تولى مكة بعد المذكور فوصلها وقد استقبلوه استقبلاً

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
٣٨	غالب باشا	<p>صدرت إليه الأوامر السنوية بالتوجه مع المجاهدين ، من أهل الحرمين ، الذين اجتمعوا لحرب الكفار ، إلى قبة السويس ، فتوجه مع من معه إلى هناك (وهذا أيام الحرب العظمى) .</p> <p>تعين غالباً على الحجاز فوصل من الآستانة إلى المدينة المنورة بطريق السكة الحديدية الحجازية ، وكان معه نحو خمسة آلاف من الجنود التركي النظامي ، وذلك في إمارة الشريف حسين بن علي ، الذي قام على الأرض فيما بعد واستقل بالحجاز ، فخشى الشريف حسين نفوذ غالباً باشا وسلطته بجيشه النظامي ، فحضر العريان على القيام بالفتنة وقطع الطريق ، فبقي غالباً باشا بالمدينة المنورة نحو شهرين ، ثم جاء إلى مكة صحبة الشريف علي بن الحسين ، وكان غالباً باشا يتوجس خيفة من الشريف حسين ، وأنه سيقوم ضد الأرض ، فما كان من الشريف حسين إلا أن حلف له أنه من المخلصين في حب الدولة العثمانية ، فصدق الوالي غالباً باشا ، ثم طبع إلى الطائف مع جند الحجاز ، وبقي هناك إلى أن قام الشريف حسين بالثورة ضد الأرض في التاسع من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف ، وقد حاصر الطائف الشريف الأمير عبد الله بن الشريف حسين أربعة أشهر حتى نفذت الأطعمة ، فسلم البلدة غالباً باشا إلى الشريف عبد الله ، فهذا أرسله مع الجنود الأرض أسراء إلى والده الشريف حسين بمكة ، فأرسلهم الشريف حسين من مكة إلى جهة وسلمتهم إلى الحكومة الإنكليزية ، وهي أرسلتهم إلى مصر . فيكون غالباً باشا المذكور هو آخر ولاة الحجاز ، من طرف الدولة العثمانية .</p>

انتهى كل ما ذكرناه من آخر الجزء الثالث من تاريخ الغازي .

نقول : إنه ينتهي بالواي غالب باشا المذكور حكم الأتراك من الحجاز بل من كافة البلدان الإسلامية ، كما ينتهي حكم الأشراف من الحجاز بالشريف الحسين بن علي ، رحمة الله تعالى ، ملك الحجاز الأسبق ، حيث حكم الحجاز الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمة الله تعالى ، سنة (١٣٤٣) ثلاثة وأربعين وثلاثمائة ألف هجرية . فالأمر الله من قبل ومن بعد .

وتفسير كلمة «باشا» وكلمة «بك» مع الأسماء المذكورة ، كالاسم «غالب باشا» والاسم «أحمد بك» ، مما كلامتان من الألقاب الحكومية التركية ، تعطيه بعض الرجال الأكابر والوزراء ، وكلمة باشا أكبر من كلمة بك ، وهذه الكلمة بكسر الباء وسكون الكاف . وهاتان الكلمتان مشهورتان في زماننا ومن قبل زماننا لا تحتاجان إلى تفسير ، وإنما نحن فسرنا معناهما ليعرفهما أهل الأجيال المتقدمة .

التعليم في مكة المكرمة

نذكر هنا نبذة صغيرة عن أمور التعليم بمكة المكرمة ، في الزمن الحاضر ، أي منذ أوائل سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية ، أما ما قبل هذا التاريخ فنحن لم ندركه ، ولم نر شيئاً من المؤلفات في ذلك ، مع اعتقادنا أنه لا يخلو زمن من الأزمان عن التعليم في جميع البلدان ، فنقول وبالله تعالى التوفيق : إن سكان مكة المكرمة لم يكن يتجاوز عددهم مائة ألفاً ، مع الأغرباء المحاورين فيها ، وربما كان أقل من العدد المذكور ، وذلك من سنة (١٣٠٠) من الهجرة وما قبلها . وكان حدود السكن في مكة المشرفة وامتداد البيوت فيها كما يأتي : تمتد البيوت من المسجد الحرام إلى المعلا فقط أي إلى مقبرة الملا ، وقليل من العرب يسكنون فوق ذلك أي في محله العبادة . وتمتد البيوت من المسجد الحرام أيضاً إلى المسفلة ، أي إلى بركة ماجن فقط ، وتمتد البيوت أيضاً من المسجد الحرام ، عن طريق الشبيكة ، إلى حارة الباب وإلى ربع الرسام إلى (بستان) الشريف عون التي بعد هذا الربيع بقليل ، ويتفرع من ربع الرسام طريق إلى حرول ، وهذا مسكن التكارنة يبنون العشاش ويسكنون فيها ، وبعضهم يبنون عشاشهم بجهة المسفلة ويسكنون فيها مع بعض فقراء المندوب ، وبعضهم يتخد مسكنهم من الصنقة ، وهي عبارة عن

اتخاذ أعماد الخشب ، ثم يسمرون فيها صفات التشك بعد فتحها وإصلاحها ، فيجعلون من الصندقة جدران بيوتهم وسقوفها ، ويفتحون فيها الشبابيك و يجعلون فيها الأبواب ، كل ذلك من التشك وأعماد الخشب ، ثم يطئونها من الداخل بالحصير المسمى عندنا (الحسف) .

وتمتد البيوت أيضاً من المسجد الحرام إلى أجياد . ومن هنا يعلم أن رقعة مكة ومساحة المسكون منها كانت قليلة صغيرة ، وما اتسعت إلا بعد سنة (١٣٦٠هـ) .

وكان التعليم في سنة ألف وثلاثمائة وما قبلها في الحرمين الشريفين وما حاورهما من المدن والقرى ضعيفاً جداً ، وذلك في عهد الأتراك العثمانيين ، فكان في مكة المكرمة ، التي هي أعظم مدن الحجاز ، المدرسة الرشدية وهي أحسن مدرسة في وقتها ، وكان التعليم فيها باللغة التركية وقليل باللغة العربية . ولقد دامت هذه المدرسة بمكة إلى سنة (١٣٣٤) هجرية ، وهي السنة التي انتهى فيها حكم الأتراك في الملك العربية ، حيث في هذه السنة أخرج الشريف الحسين بن علي ، رحمة الله تعالى الأتراك من الحجاز ، وتولى هو حكم الحجاز ونودي به ملكاً عليها ، وكان مع المدرسة الرشدية التركية بعض المدارس الأخرى الابتدائية ، أنشئت بعد سنة (١٣٠٠) . كما كانت بمكة بعض الكاتيب الصغيرة لتعليم القرآن الكريم وحفظه ولتعليم القراءة والكتابة ولتعليم مبادئ الإملاء والحساب .

ومن هنا يعلم أن الناس كانوا في جهالة إلا القليل ، وهم الذين يشغلون الوظائف الحكومية والأعمال التجارية . وكان جميع الأشراف بمكة والمتعلمون من أهل البلاد ، يعرفون اللغة التركية قراءة وكتابة ، وما زالت البقية منهم يعرفونها إلى يومنا هذا ، وكانوا في الوظائف الحكومية وأعمالهم التجارية ، يستعملون أقلام القصب أي البوص ، ويكتبون بالحبر الأسود فقط ، وكانت عندهم الدوایات المختلفة وأدوات الكتابة ، وكانوا ينشفون الحبر ، من فوق الأوراق والدفاتر برملي ملون أحمر وأزرق وأصفر ، يأتي خاصاً لهذا الأمر من الخارج ، ثم لما اخترعوا الورق النشاف ، كانوا ينشفون الأوراق بهذا الورق النشاف ، فلما ظهرت في الأسواق أقلام الريش ، بفتح الياء التحتانية جمع ريشة ، وهي من بعض المعادن صاروا يستعملونها ، وتركوا استعمال أقلام القصب . وداموا على هذا الحال إلى سنة (١٣٤٢) هجرية ، فلما شاع استعمال أقلام الجيب

بعد هذه السنة المذكورة ، ترك الناس استعمال أقلام القصب وأقلام الريش واستعاضوا عنها بأقلام الجيب والخبير الأزرق ، وهذا من سنة الكون في التطورات . وإليك المدارس التي كانت موجودة في ذلك الوقت :

(١) المدرسة الخيرية للشيخ محمد بن حسين الخطاط ، وهو من علماء مكة المشرفة . وقد توفي ببلاد جاوه سنة (١٣٢٢) هجرية ، وكان رحمة الله تعالى ، عالماً فاضلاً يحب نشر العلم والمعارف ، ولم تقف متى أسس مدرسته المذكورة ، والذي يظهر لنا أنه أسسها حوالي سنة (١٣١٥) هجرية ، والله تعالى أعلم ، وهذه المدرسة هي التي حولها الشريف الحسين بن علي ، بعد أن استقل بالملك ، فسمتها المدرسة الراقية .

(٢) والمدرسة الفجرية .

(٣) ومدرسة الزراعية ، وهي التي أنشأها الشريف الحسين وأحضر لها أستاذة من بيروت ، ولكنها لم تدم .

(٤) والمدرسة الصولية .

(٥) ومدرسة الفلاح . وب يأتي بعد هذه المدارس الكتاتيب التي كانت موجودة إلى آخر عهد الشريف الحسين بن علي رحمة الله تعالى .

(٦) أما المدرسة الأندونيسية الموجودة في وقتنا الحاضر والتي مقرها الآن بمحلقة القرارة ، فهي مدرسة أهلية حديثة فقد تأسست في سنة (١٣٤٦) هجرية ونرجو لها دوام التوفيق . وها نحن نتكلّم عن الكتاتيب أولاً ، ثم عن مدرستي الفلاح بمكة وجدة ، لعظيم نفعهما للبلاد ، إلى يومنا هذا ، فنقول وبما الله تعالى التوفيق ومنه نستمد العون والسداد ، إنه هو الفتاح العليم والعزيز الحكيم .

أسباب انتشار الكتاتيب في الزمن السابق

والذي نراه في كثرة انتشار الكتاتيب ، لتعليم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة ، في مكة وفي غيرها منذ قرن مضى ، سببها راجع لأربعة أمور :

الأول : قلة السكان وعدم انتشار التعليم العالي في البلاد .

والثاني : قلة مصاريف الكتاتيب ونفقاتها ، إذ يكفي للكتاب الواحد أستاذ أو أستاذين ، ولا يحتاج لخادم ، لأن التلامذة في الزمن السابق كانوا يقومون بالخدمة ،

كما كان أجوادهم في القراءة والكتابة يساعدون أستاذهم بتعليم إخوانه ، وكانوا يسمونه العريف أو رئيس الفرقة .

والثالث : وهذا أمر مهم جداً ، لم يكن في الزمن السابق تأخذ الحكومة من الغريب الذي يريد الإقامة في بلد رسمياً سنوياً على إقامته ، بل كان الغريب إذا أراد الإقامة بأحد الحرمين الشريفين لا يمنع من ذلك ، ولا تطالبه الحكومة بدفع رسم على إقامته . ومن هنا كان بعض فضلاء الأعراب ، كالصريين والسودانيين والمغاربة يقيمون في مكة أو في المدينة ويفتحون الكتاتيب لتعليم أبناء البلاد القراءة والكتابة ، وتحفيظ القرآن الكريم ، وبعض علمائهم يرغب في التدريس بالمساجدين الحرامين بمكة والمدينة ، فيحضر في دروسهم كثير من الناس حلقات حلقات فيتفنون بعلمهم .

والرابع : وهذا أمر مهم أيضاً ، إذا أراد فتح كتاب أو فتح مدرسة لا يحتاج إلى استئذان من الحكومة ، بل إنه يجد من جميع أهل البلاد مساعدة وإقبالاً وتقديراً .

وكان منذ صدر الإسلام كتاتيب لتعليم الصبيان القراءة والكتابة والقرآن الكريم والخط والإملاء والحساب بمكة المكرمة . ونذكر بعض الكتاتيب وأسماء أصحابها من وقنا عليهم أي من أول سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية تقريباً ، وهي كما يأتي :

(١) كتاب الشيخ سليمان التوري رحمة الله تعالى .

(٢) كتاب الشيخ سليمان فرج الغزاوي الخطاط رحمة الله تعالى ، فلما فتحت مدرسة الفلاح بمكة ، توظف فيها خطاطاً ، وبقي فيها حتى ماته .

(٣) كتاب الشيخ عبد الله حمدوه السناري ، رحمة الله تعالى ، فلما فتحت مدرسة الفلاح بمكة انتقل إليها فكان فيها مديرًا حتى مات .

(٤) كتاب الشيخ حسن السناري وهو ابن حالة الشيخ عبد الله حمدوه السناري المذكور ، فلما فتحت مدرسة الفلاح بمكة انتقل إليها ، فكان رئيس قسم تحفيظ القرآن الكريم ، ولم نر قط من هو أشد حزماً وصرامة وقسوة على تلامذته ، مع عظيم صلاحه وتقواه ، وحفظ القرآن العظيم لا يصلح إلا عند مثله ، فإنه لا يعرف المزاح ولا اللعب رحمة الله تعالى رحمة الأبرار .

(٥) كتاب الشيخ فرج بن عبد الله السوداني رحمة الله تعالى .

(٦) كتاب الشيخ إبراهيم خلوصي الحلواني ، كان محله في باب الزيادة ، وكان يعلم الخط والإملاء والحساب ، وكانت له معرفة تامة بعلم الحساب ، حتى ألف فيه رسالتين فريدتين ، وفقه الله تعالى ، آمين .

هذا وكان بمكة كثيرون من الكتاب في محل المسفلة وفي محل جرول بعض أهل السودان والتကارنة ، كما كان في المسجد الحرام بعض الكتاب أيضاً ، أما العلوم الأخرى فكان فيه كثيرون من كبار العلماء من أهل مكة وغيرها ، وحلقات دروسهم كانت عامرة مليئة ، نسأل الله تعالى أن يصلح أحوالنا بفضله ورحمته .

وجميع البلاد الإسلامية على اختلاف السنن أهلها وألوانهم كانت عامرة بالكتاب منذ صدر الإسلام إلى اليوم وبالخصوص البلاد المصرية والبلاد الغربية .

وهنا نبدأ بذكر شيء عن وجود الكتاب منذ صدر الإسلام ، وذكر بعض المدارس الأهلية الشهيرة بمكة المكرمة في زماننا فنقول وبالله التوفيق :

التعليم في المسجد الحرام وعلماؤه

لما كان المسجد الحرام هو المنتدى العام بمكة المكرمة للعبادة والتعليم ، لا بد لنا أن نذكر ما كان له من الأثر العظيم في انتشار العلوم الشرعية والعلوم العربية في عصرنا الحاضر ، وما أدركناه وعرفناه فيه منذ طفولتنا ونشأتنا . أما ما كان له من الأثر في العبادة ، وما كان فيه من أهل الصلاح والتقوى والولاية بالمعنى الصحيح ، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان والله الحمد ، ولا تزال العبادة فيه قائمة منذ بدء الإسلام إلى يوم القيمة .

أما من الناحية التعليمية فيه ، فنقول وبالله تعالى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم :

المسجد الحرام أخرج من رجال الدين والعلم والصلاح ، منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا ، الشيء الكثير الوفير ، وكان لهم من الشأن والبروز ما لا يطلعنا القلم لطوال بنا البحث ، ولكن لا بد من ذكر بذلة هنا ، إننا قدمينا أن الأطفال كانوا يتذمرون في المسجد الحرام القراءة والكتابة والخط والحساب ، ثم منعوا من ذلك صيانة للمسجد الحرام من لعبهم ، وهم أطفال صغار لا يعرفون حرمة

المساجد تمام المعرفة ، واعتماداً على ما ظهر في أطراف المسجد الحرام من الكتاتيب وبعض المدارس.

أما تعليم العلوم الدينية والערבية من التفسير والحديث والفقه ، على المذاهب الأربعية ، وعلوم البلاغة والنحو والصرف وغير ذلك ، فقد كان المسجد الحرام هو عط الآمال في ذلك ومنبع العلوم والعرفان ، إذ لم يكن بمكة المشرفة مدارس ومعاهد للعلم غيره إلى أن ظهرت مدرسة الصولية بحارة الباب ومدرسة الفلاح بالقشاشية وغيرها ، وذلك من بعد سنة (١٣١٥) ألف وثلاثمائة وخمس عشرة هجرية . ولقد كانت حلقات الدروس في المسجد الحرام كثيرة ، ويدأ التدريس فيه من بعد صلاة الفجر وانفلاق نور الصباح إلى بعد صلاة العشاء ، ولا يقل طلاب كل حلقة من الدروس عن أربعين طالباً ، وبعض الحلقات يبلغ طلابها مائة نفس .

وكان فيه من دروس المشايخ ما يأتي ونذكرهم بدون ترتيب :

- ١) درس السيد زيني دحلان .
- ٢) درس السيد عبدالله زواوي .
- ٣) درس الشيخ عمر باجنديد .
- ٤) درس الشيخ سعيد يمانى .
- ٥) درس الشيخ علي مالكي .
- ٦) درس السيد صالح شطا .
- ٧) درس شيخنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي .
- ٨) درس شيخنا الشيخ زيدان الشنقيطي .
- ٩) درس الشيخ عمر حمدان .
- ١٠) درس الشيخ محمد العربي الجزائري .
- ١١) درس الشيخ عباس مالكي .
- ١٢) درس الشيخ جمال مالكي .
- ١٣) درس شيخنا الشيخ عيسى رواس .
- ١٤) درس شيخنا الشيخ أحمد ناضرين .
- ١٥) درس السيد علوى مالكي .
- ١٦) درس السيد أمين كتبى .

- ١٧) درس الشيخ حسن مشاط .
١٨) درس الشيخ عبد الله خياط .
١٩) درس الشيخ عبد الله بن عمر بن دهيش رئيس المحاكم الشرعية بمكة المكرمة .
٢٠) درس الشيخ يحيى أمان .
٢١) درس الشيخ سالم شفي (فتح أوله وكسر ثانيه) .
٢٢) درس الشيخ محمد نور سيف .
٢٣) درس الشيخ أحمد قاري .
٢٤) درس الشيخ حسن يمانى .
٢٥) درس الشيخ محمد أمين فودة .
٢٦) درس الشيخ محمد الطيب المراكشي .
٢٧) درس السيد بكر جبشي .
٢٨) درس السيد إبراهيم النوري .
٢٩) درس الشيخ عبد الحميد حديدي .
٣٠) درس الشيخ عبد الله حداوي (بكسر الحاء المهملة) .
٣١) درس السيد محمد المرزوقي أبو حسين .
٣٢) درس الشيخ بكر باصيل .
٣٣) درس الشيخ محمد نور فطاني .
٣٤) درس الشيخ سراج ششة ، بكسر الشين المعجمة الأولى وفتح الثانية وتشديلها .
٣٥) درس السيد محمد حامد المصري ، وكان هذا أول مدير لمدرسة الفلاح بمكة المكرمة عند بدء تأسيسها .

بعض هؤلاء المشايخ أحياء ، وففهم الله تعالى للخيرات ، وبعضهم قد ماتوا ، رحمهم الله تعالى رحمة الأبرار ، فقد أدركتنا أكثرهم ، وهم من علماء مكة الفضلاء ، الذين قد نفع الله بهم المسلمين ، ولا نريد ذكر من سبقونا بالإيمان ، منذ سنين طويلة ، من علماء مكة المكرمة من القرون السابقة ، فإن ذلك مما يطول شرحه ، وربما ننسى بعضهم ، فنكون بذلك نسيء إليهم من غير قصد . الحاصل جزى الله تعالى أمرتنا خير الجزاء ، وبارك في حياة من بقى وزادهم توفيقا وإحساناً آمين .

ولكل من هؤلاء العلماء عدة مؤلفات من علوم شتى وإن منهم من تخصص بالتدريس في المسجد الحرام ، ومنهم من كان يدرس فيه وفي المدارس والمعاهد ، ومنهم من كان يشغل القضاء ، جزاهم الله تعالى خير الجزاء .

فالمسجد الحرام كان ولا يزال منبع الدين والعلم والتقوى والصلاح ، وكان عامراً حقاً بدروس العلماء الأعلام ليلاً ونهاراً منذ قديم الأزمان ، كانوا يقدون إلينا من جميع الأقطار الإسلامية ، كمصر الشام واليمن والعراق وحضرموت والمغرب وببلاد شنقيط ، حتى في عهد الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي حكم الحجاز في سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية . وقد خصصت الحكومة السعودية مرتبات للمدرسين في المسجد الحرام ، فهذا المسجد الشريف لا يخلو في كل وقت من نشر العلم فيه إلى اليوم وإلى قيام الساعة ، ولو أنه في وقتنا يعده التدريس فيه قليلاً بالنسبة للأزمان السابقة ، التي رأيناها . ويوجد بعض علمائنا تأليف خاصة في ذكر علماء مكة المشرفة وتراثهم .

هذا ما تذكرناه من علماء مكة المشرفة ، من أول قرنتنا هذا ، الرابع عشر الهجري إلى اليوم ، أما العلماء الذين تقدموا قبل هذا القرن فقد ذكرهم غيرنا في بعض المؤلفات رحهم الله تعالى ، وهناك اليوم بعض العلماء من لا يحبون الظهور ولا التدريس كالشيخ عبدالله غازي صاحب تاريخ مكة المخطوط رحمه الله تعالى ، والسيد محمد أحمد شطا ، والسيد عبدالرحمن حمزة المرزوقي ، والشيخ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش ، والشيخ صالح جمال الحريري ، والشيخ عبدالله دردوم ، والشيخ علي يمانى وغيرهم ، وفق الله تعالى الجميع للخيرات والأعمال الصالحة آمين .

أول بعثة تعليمية حكومية بـ مكـة

لم يكن إرسال البعوث من الطلبة إلى الخارج ، للتعليم في شتى أنواع العلوم والفنون والصناعات ، معروفاً عندنا فقط ، بل كان بعضهم إذا سافر إلى مصر أو غيرها ، يأخذ معه ولده الناشئ الذي قد تعلم مبادئ العلوم ، وبعد أن يكون له من العمر فوق الخمس عشرة سنة ، وكان هذا يقع نادراً جداً ، فممن سافروا مصر للتعليم السيد طاهر الدباغ رحمه الله تعالى فقد تعلم في مدارس الاسكندرية ، ثم حضر إلى مكة المكرمة في سنة (١٣٢٨) ألف وثلاثمائة وثمان وعشرين هجرية .

والشيخ أحمد زهر الليالي ، فإنه كان في الأزهر الشريف بالقاهرة في سنة (١٤٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية ، وكذلك مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي الخطاط فقد أخذته والله رحمة ، إلى مصر ، وذلك في سنة (١٤٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية بعد أن تخرج من مدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، أخذته فجعله في الأزهر الشريف بالقاهرة . ولا تذكر الآن غير هولاء الثلاثة ولا يبعد أن يكون هناك غيرهم . إن الناس عندنا ما كانوا قد اعتادوا مفارقة أبنائهم وإرسالهم إلى الخارج للتعليم ، ثم اعتادوا ذلك بالتدرج شيئاً فشيئاً بعد سنوات ، حتى إن بعضهم اليوم يرسل أطفالهم إلى الخارج للتعليم ، ولكن نحن لا نستحسن إرسال الأولاد إلى الخارج إلا بعد نشأتهم في أوطنهم ، وأخذ الشهادة الابتدائية على الأقل ، وذلك حتى لا ينسوا عاداتهم القومية .

فأول بعثة حكومية سافرت من مكة المكرمة إلى مصر للتعليم، وكانت في سنة (١٣٤٦) ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية، وذلك في أوائل عهد الحكومة السعودية. ونحن كنا قبل هذه السنة بسنوات في مصر نتعلم في الأزهر الشريف، وكانت هذه البعثة مؤلفة من أهل مكة ومن غيرهم، وحيث أنها أول بعثة من عندنا، فلا بد من ذكر أسمائهم، وهم كما يأتي:

البلدة	الأسماء	عدد	البلدة	الأسماء	عدد
المدينة	السيد ولي الدين	١٣	مكة	السيد محمد شطا	١
	أسعد		مكة	عبد الله باحنظل	٢
المدينة	حجزة نايل	١٤	مكة	محمد باحنظل	٣
المدينة	إبراهيم عي الدين	١٥	مكة	جعيل داود	٤
	برادة		مكة	فؤاد وفا	٥
المدينة	محمد سعيد النغفران	١٦	مكة	عمر قاضي	٦
جدة	عمر نصيف	١٧	مكة	محمد رضا	٧
جدة	جميل متولي	١٨	مكة	صادق دحلان	٨
جدة	محمد عبد الرواف	١٩	مكة	عبد الله باخطمة	٩
جدة	عبد الرحمن البسام	٢٠	مكة	حسين الخطيب	١٠
جدة	عبد القادر محاسب	٢١	مكة	عبد الله الفضل	١١
جدة	عبد الله ناظر	٢٢	المدينة	السيد أحمد العريبي	١٢

البلدة	الأسماء	عدد	البلدة	الأسماء	عدد
نجد	عبد الله المعر	٢٧	نجد	يوسف المهاجري	٢٣
نجد	حمد العبدلي	٢٨	نجد	مهنا المعيد	٢٤
نجد	عبد الملحق	٢٩	نجد	إبراهيم المهاجري	٢٥
نجد	عبد الله الطريقي	٣٠	نجد	عبد العزيز المعر	٢٦

هذه الأسماء والشخصيات الخالمة ، هي أول بعثة سعودية أرسلت من مكة المشرفة إلى مصر المحروسة ومعذرة إن نسينا بعضهم لمرور سنوات طويلة على ذلك ، ثم تقطارت البعثات من عندنا إلى بعض البلاد العربية والإفريقية ، وما زالت البعثات من مملكتنا ترسل إلى الخارج إلى يومنا هذا ، ولو لا خوفنا من تطويل الكلام لطلبنا من وزارة المعارف إعطاءنا أسماء أعضاء جميع البعثات مع صورهم وشيئاً من ترجمتهم ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى بذل جهود وتحصيص وقت ونحن ولا نملك ذلك .

ولصديقنا العزيز الأستاذ صالح الحريري رسالة خاصة في هذا الموضوع اسمها (من وحي البعثات السعودية) قد أتى على بعض البعثات وأسماء أعضائها إلى سنة (١٣٦٨) ألف وثلاثمائة وثمان وستين هجرية ، مع تسجيل صور أعضائها ، فعسى أن وزارة المعارف تقدره وتشجعه وتمدّه بأخبار البعثات فيما بعد ، مع بيان أسمائهم وإعطاء صورهم الفوتوغرافية ليعمل الأستاذ صالح الحريري رسالة ثانية للبعثات تكون ملحقة بالرسالة الأولى . والله الموفق للصواب .

أول بعثة تعليمية أهلية بمكّة

لقد ذكرنا فيما تقدم أن المحسن الكبير الحاج محمد علي زينل ، هو مؤسس مدارس الفلاح أدام الله عليه النعم والصحة والعافية وأمده بالترفقات والأعمال الصالحة . هذا الرجل ، رضي الله تعالى عنه وعنا لم يغفل يوماً واحداً عن مدارسه ، التي أسسها منذ نشأتها إلى يومنا هذا ، وإنه حفظه الله تعالى ، وأمده بالخيرات ، يحب مسيرة التطورات الحديثة ، المدوحة في كل وقت وحين . إنه غفر الله لنا وله ، وبارك لنا في حياته الغالية ، لم يكف بمسائل التعليم في مدارسه فقط ، بل أراد أن يضرب للأمة بأسرها المثل الأعلى في التضحية والإتفاق على تعليم الدين والعلوم العربية والفنون النافعة ، فأمر حفظه الله تعالى ، القائمين بأمر

مدرسة الفلاح بمكة المكرمة في سنة (١٣٤٨) ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين هجرية أن يتربويا بجموعة أشخاص من طلبتها المتخرجين منها فارسلوهم إليه ، إلى مقر عمله التجاري في يومي بالهند ، كبعثة أولى على نفقته الخاصة ، فأرسلوهم إلى الهند في السنة المذكورة ، وكان ذلك في عهد الشيخ عبدالله حموده السناري ، رحمة الله تعالى .

فكان من أعضاء هذه البعثة الأهلية : السيد إسحاق عزوز ، السيد حسن كبي ، السيد سامي كبي ، الشيخ حمزة عجاج ، الشيخ محمد عبدالمجيد ، وغيرهم من لا تذكرهم الآن ، ولا زالت هذه المدرسة ترسل إلى اليوم في كل عام ، بعثة من متخرجيها إلى معاهد العلم في الخارج ، فجزى الله تعالى الحاج محمد علي زين مؤسس مدارس الفلاح عن نشر العلم خير الجزاء ، وأسبغ نعمه ظاهرة وباطنة ، وجعله في الدنيا والآخرة من أهل الفوز والسعادة والصلاح آمين .

ذكر الأطباء من أبناء مكة المكرمة

لم يتعلم أحد من أبناء مكة المكرمة ولا من أبناء الحجاز فن الطب ، في الأزمان المتقدمة ، فلم يكن أحد منهم طيباً في البلاد الحجازية ولا في غيرها ، وكان الأطباء في الحرمين الشرفين في العهود السابقة ، إما من الأتراك أو من المصريين أو من السوريين فقط ، فلما تولى الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمة الله تعالى على الحجاز ، وانتشر التعليم في جميع المملكة العربية السعودية ، وأرسلت البعثات إلى خارج المملكة للتعليم تخصص بعض أبناء البلاد في فن الطب والجراحة في مختلف الأمراض ، فتخرج كثير من أبناء البلاد في فن الطب ومارسوا أعمالهم في نفس ملكتنا .

لقد كنا طلبنا من سعادة وكيل وزارة الصحة أن يخبرنا بأسماء الأطباء السعوديين في عصرنا الحاضر ، فأرسل لنا مشكوراً كشفاً بأسمائهم وهو كما يأتي :

الإسم	الم الجنسية	المؤهلات
صاحب المعالي الدكتور يوسف الهاجري	Saudi	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة .
صاحب السعادة الدكتور يوسف الحميدان	Saudi	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة .

الاسم	المؤهلات	الجنسية
الدكتور هاشم صالح الدجاجي	دبلوم أمراض المناطق الحارة من لندن. أخصائي أسنان من جامعة دمشق.	سعودي بال الجنس
الدكتور أحمد محدث الجاني	دكتور في الطب كلية الطب سوريا (دمشق).	سعودي بال الجنس
الدكتور سيف الدين الشيكيلي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة فؤاد الأول.	سعودي بال الجنس
الدكتور محمد أمين مقيم	بكالوريوس طب وجراحة من باكستان.	سعودي بال الجنس (الهند)
الدكتور سليمان عبدالقادر فقيه	دبلوم الأمراض الباطنية العامة من جامعة عين شمس .	سعودي (مكة)
الدكتور محمد فرج الله ورنہ	بكالوريوس في الطب والجراحة جامعة الإسكندرية .	سعودي (مكة)
الدكتور عبدالعزيز كامل كردي	بكالوريوس في الطب والجراحة من جامعة القاهرة .	سعودي
الدكتور عبد الستار العلمي	دكتور في طب الأسنان .	سعودي
الدكتور هشام سلمي	دبلوم في الطب من الجامعة الأمريكية.	سعودي بال الجنس
الدكتور أحمد شاهد الطباع	دكتور في الطب من المعهد الطبي العربي السوري .	سعودي بال الجنس
الدكتور واصل رسلان	اختصاصي الطب من جامعة برلين بألمانيا.	سعودي بال الجنس
الدكتور أحمد عارف الشلي	دكتوراة في الطب من الجامعة السورية بدمشق .	سعودي بال الجنس
الدكتور بشير صقر	دكتوراة في الطب من الجامعة السورية بدمشق .	سعودي بال الجنس

ذكر الأطباء من أبناء مكة المكرمة

الاسم	المؤهلات	الجنسية
الدكتور حيدر الحجار	دبلوم طب وجراحة من جامعة فؤاد الأول .	سعودي بال الجنس
الدكتور حسين محمد شوكل	أخصائي أمراض النساء والولادة من جامعة عين شمس.	سعودي
الدكتور محمد عبداللطيف ملك	دبلوم جراحة وطب بكالوريوس معانية بجامعة لاهور .	سعودي بال الجنس
الدكتور سعيد عبدالله رياح	دكتور في الطب الجامعة السورية .	سعودي بال الجنس (دمشق)
الدكتور هاني الحمصي	شهادة دكتور في طب الأسنان وجراحتها المعهد الطبي العربي السوري .	سعودي بال الجنس
الدكتور محمد شريف كبد الدين الخيري	أخصائي أنف وحنجرة من جامعة لندن.	سعودي بال الجنس
الدكتور محمد عبد العزيز غير طاشكendi	دبلوم مخصص في العيون من جامعة الإسكندرية .	سعودي بال الجنس
الدكتور رمضان سعد البكري	بكالوريوس طب وجراحة وبكالوريوس علوم .	سعودي بال الجنس
الدكتور سعد الطوخى	دبلوم تخصص في العيون من جامعة القاهرة .	سعودي بال الجنس
الدكتور أحمد عبد العزيز داغستانى	بكالوريوس طب وجراحة من مصر .	سعودي
الدكتور سعيد سبع مجاهد	أخصائي الطب من جامعة تولوز ودبلوم الصحة من نفس الجامعة .	سعودي بال الجنس
الدكتور عبد القادر حسان	أخصائي طب وجراحة من جامعة القاهرة .	سعودي
الدكتور محمد محسن خان	أخصائي أمراض صدرية من لندن.	سعودي بال الجنس
الدكتور محمد شفيق أبو	بكالوريوس صيدلة من جامعة القاهرة.	سعودي

الإسم	المؤهلات	الجنسية
الدكتور أحمد إبراهيم زاهر الدكتور محمد مهدي الباقي	أخصائي أمراض نساء وولادة من الإسكندرية . أخصائي جراحة من جامعة عين شمس .	سعودي بال الجنس سعودي
الدكتور توفيق التميمي	خريج كلية علوم على درجة بكالوريوس في الطب والجراحة من جامعة عين شمس .	سعودي بال الجنس
الدكتور محمد إبراهيم العمارة	أخصائي أمراض باطنية من جامعة الإسكندرية .	سعودي
الدكتور صالح زكي مصطفى	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة فؤاد الأول مصر .	سعودي بال الجنس
الدكتور سراج صالح ملاحكة	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة .	سعودي
الدكتورة ملك روحي الرومي	شهادة في الطب ودبلوم في الصيدلة . بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة .	سعودية سعودي
الدكتور محمد عطاء الله صديقي .	M.B.B.S من جامعة الكهونز	سعودي بال الجنس
الدكتور أحمد علي عبد العزيز الباكستاني	أخصائي جراحة من جامعة الإسكندرية .	سعودي
الدكتور محمود عمر فطاني	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة عين شمس .	سعودي
الدكتور جلال محمد آشي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة عين شمس ودبلوم في المناطق الحارة .	سعودي
الدكتور شيخ زين العابدين	أخصائي جراحة .	سعودي
الدكتور عبدالله عبدالكريم أركوبه	أخصائي أشعة .	سعودي

ذكر الأطباء من أبناء مكة المكرمة

الوزارات	الجنسية	الاسم
طب وجراحة من مصر .	سعودي	الدكتور حسن بهاء الدين قرملة
دبلوم أمراض النساء والولادة من دبلن يانجلترا .	سعودية بالتجنس	الدكتورة لطيفة مسعود
بكالوريوس الطب والجراحة من الجامعة المصرية.	سعودي	الدكتور أسامة محمد الراضي
بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة.	سعودي	الدكتور محمد سعيد الشورى
أخصائي أسنان من جامعة الإسكندرية.	سعودي	الدكتور عبدالله سلتي متاع
بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة القاهرة.	سعودي	الدكتور عبد اللطيف كامل كردي
بكالوريوس طب وجراحة من جامعة عين شمس .	سعودي	الدكتور محمود علي الرفاعي
أخصائي أسنان .	سعودي	الدكتور عصام محمد علي خوقير
خريج كلية طب أسنان من جامعة بغداد .	سعودي	الدكتور أحمد هاشم الدين المدنى
خريج كلية الطب بالقصر العيني .	سعودي	الدكتور محمد سعيد مصطفى بدر الدين
أخصائي أنف وأذن وحنجرة من جامعة عين شمس .	سعودي	الدكتور أمين عبدالله سراج
بكالوريوس طب وجراحة جامعة عين شمس .	سعودي	الدكتور محمد أحمد العيشي
بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة الإسكندرية .	سعودي	الدكتور صديق محمد الخواخ
بكالوريوس في الطب والجراحة من جامعة القاهرة .	سعودي	الدكتور جليل محمد خطاب
طب وجراحة اختصاص عيون من	سعودي	الدكتور محمد عبدالوهاب

الاسم	المؤهلات	الجنسية
محروفي . الدكتور عباس أحمد فراز	جامعة عين شمس . متخصص طب وجراحة من جامعة الإسكندرية . طب وجراحة من جامعة القاهرة .	سعودي
الدكتور عبد الله إسحاق الهاجري . الدكتور عبدالهادي قاري عبد الله طاشكendi.	سعودي سعودي	سعودي
الدكتور غلام قادر فريشي	بكالوريوس طب من جامعة استنبول تركيا. خريج كلية الطب الأميرية ببنجاب باكستان .	سعودي بالتجنس
الدكتور سندى ياسين مجيت . عمر أسعد	دكتور طب وجراحة الأسنان من الجامعة السورية . هذا الاسم لم يذكر في كشف أسماء الأطباء الذي ورد إلينا من وزارة الصحة لكن نحن ذكرناه .	سعودي بالتجنس من المدينة المنورة
الدكتور حسن نصيف	» » » » » من مكة المكرمة	من مكة المكرمة
الدكتور حامد هرساني	» » » » » من مكة المكرمة	من مكة المكرمة
الدكتور عبداللطيف صلاح جمجم . الدكتور عبدالرحمن كشميري . الدكتور عبدالرحمن النجاوي .	» » » » » من جدة » » » » » من جدة » » » » » من جدة	من جدة من جدة من جدة
الدكتور رشاد كلكتاوي الدكتور سلطان زرمي الدكتور عبدالكريم مجشى	» » » » » من مكة » » » » » من مكة » » » » » من مكة	من مكة من مكة من مكة

ذكر الأطباء من أبناء مكة المكرمة

هذه الأسماء التسع الأخيرة سقطت سهواً من كشف وزارة الصحة ، ونحن
وضعنها فيه .

لقد ذكرنا أسماء أطبائنا الذين تخرجوا من كليات الطب ويزاولون هذه المهنة
الشريفة النافعة ، والآن أحيبنا أن نذكر هنا أيضاً من يدرس الطب من أبناء بلدنا
الطاهرة المقدسة ، ولم يكملوا إلى اليوم دراساتهم ، فهم أطباء المستقبل ، إن شاء
الله تعالى ، وإليك أسمائهم في هذا الجدول :

الأسماء	عدد	ملحوظات
علي محمد شطا	١	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في القاهرة
رشاد حكيم	٢	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في القاهرة
صافي عقيل جفري	٣	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في القاهرة
يحيى عبدالله حجازي	٤	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في القاهرة
عصام قدسي	٥	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في القاهرة
عبدالعزيز مظهر	٦	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في القاهرة
مسعود سجيفي	٧	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في القاهرة
خديجة الفردوس	٨	من مكة المكرمة ، تدرس الطب الآن في القاهرة
مملوح بديع	٩	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في الباكستان
حسن حسين عبدالغنى	١٠	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في الباكستان
أحمد فهمي بكر	١١	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في الباكستان
صديق محمد سندى	١٢	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في الباكستان
نوال محجوب شيخ	١٣	من مكة المكرمة ، تدرس الطب الآن في الباكستان
صالح سبجي	١٤	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في ألمانيا
طلال بخش	١٥	من مكة المكرمة ، يدرس الطب الآن في ألمانيا

هذا ما بلغنا عمن يدرسون الطب من أبناءنا الآن في الخارج ، نرجو لهم حياة طيبة ، ومستقبلًا زاهراً ، وخدمة موقعة لبلادهم ، وربما كان هناك غيرهم لكن لم يلغنا عنهم شيء حتى نذكرهم هنا ، فنرجو منهم المغفرة .

الدكتور عبد القادر عبد الجيد

الدكتور عبد القادر عبد الجيد ، هو مصرى فاضل ، يشتغل عندنا بمكة المكرمة مستشفى الراھر ، وهو وكيل مدير المستشفى . إنه طبيب نطايسى ماهر ، يحمل شهادة بكالوريوس الطب والجراحة ، يقصده الكثير من المرضى لمهارته وإخلاصه ودماثة أخلاقه ، ونحن نذكره هنا رغم أنه ليس من أطباء بلادنا ، عرفاناً بجميله وقديرأ لخدماته لنا خاصة ، وخدماته لملكة المكرمة عامة . لقد حدث علينا مرض قوي مفاجئ في منتصف سنة (١٣٨٣) هجرية بتصلب في شرايين المخ ، مع مرض السكر ، بصورة قوية ، فأحضره إلينا بعض أصحابنا ، فقام بمعالجتنا بإخلاص وأمانة مدة ستين ، وما زال يعالجنا إلى وقتنا الحاضر ، أي إلى سنة (١٣٨٥) هـ من نفس المرضين المذكورين حتى من الله تعالى علينا بالشفاء ، بفضله ورحمته مع تكرار سؤاله عنا بالتليفون إن لم يحضر بنفسه .

فتحن اعتزافاً وتقديرأ لخدماته واستقامته التامة ، نسجل اسمه الكريم مع شكرنا له ، سائلين الله عز وجل أن يديم عليه الصحة والعافية والنعم الوفية ، وأن يوفقه لخدمة الناس عامة ، وأهل الحرمين خاصة ، وأن يسعده وذريته في الدارين ، إنه سميع بحيب .

كما نشكر صديقنا الفاضل الدكتور عباس كرارة المصري طبيب الأسنان في عنایته التامة بمعالجة أسناننا ، وخدمته لنا بإخلاص تام ، أكثر الله تعالى من أمثالهما ، وأدام عليهمَا نعمه ورضاه ، آمين .

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبائها في وقتنا الحاضر

أحبينا أن نذكر هنا بعض المؤلفات المطبوعة وغير المطبوعة للعلماء والأدباء من أهل مكة المكرمة في وقتنا الحاضر فقط . وليس ذكر هذه المؤلفات من قبيل الحصر ، لأن حصر المؤلفات لحضراتهم تحتاج إلى الإتصال بهم جميعاً ، وليس في قدرتنا ذلك الآن لمرضنا ، وإنما أحبينا ذكر هذه المؤلفات للعلم بها في الجملة ، من باب ما لا يدرك كنهُ لا يترك جله ، فنسبي أن تلحظنا دعوة من أصحاب هذه المؤلفات القيمة ، فتسعد بها في حياتنا وبعد مماتنا - فنقول وبالله التوفيق - إليك جدولأ فيه بعض أسماء المؤلفات الحجازية وأصحابها ، من غير مراعاة في الترتيب :

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبياتها في وقتنا الحاضر

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
<p>كان رحمة الله تعالى مدرساً بالمسجد الحرام رداً من الزمن ، ثم انتقل من سنة (١٣٤٣) هجرية من مكة المكرمة إلى مصر القاهرة ، فاختارته مشيخة الأزهر العمور مدرساً في معاذهما ، وفي مسجد سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه ، فكانت حلقات دروسه عامرة بالطلبة والفضلاء ، وله كثير من المؤلفات بالقيمة :</p> <p>أما أخوه الشيخ محمد الخضر الشنقيطي ، فقد توفي رحمة الله تعالى ، بالمدينة المنورة في سنة (١٣٦٣) هجرية .</p> <p>ومنها : «إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام» .</p> <p>ومنها : «شرحه لموطأ الإمام مالك» .</p>	<p>فضيلة شيخنا العلامة الحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي توفي بالقاهرة بمصر ، رحمة الله تعالى ، في سنة (١٣٦٣) هجرية.</p> <p>أما أخوه الشيخ محمد الخضر الشنقيطي ، فقد توفي رحمة الله تعالى ، بالمدينة المنورة في سنة (١٣٥٤) هجرية .</p>	١
<p>ومنها : «نظمه في علم المعاني والبيان والبديع وكل ذلك مطبوع بمصر» .</p> <p>ومنها : «هدایة الرحمن لما ثبت في الدعاء المستعمل في ليلة النصف من شعبان» وهو مطبوع .</p> <p>ومنها : «منظومة دليل المسالك على موطأ مالك» وهو مطبوع .</p>	<p>ومنها : «إيراز الدر المصور على جوهر المكتون ، في علم البلاغة» .</p>	
<p>ومنها : «أنوار النفحات شرح نظم الورقات ، في الأصول» .</p> <p>ومنها : «شرح نفيس على منظومة في علم السيرة» .</p>		

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
ومنها : « زبدة المسالك للإجازة في روايات موطأ مالك ». .		
ومنها : « التحفة الحجازية منظومة في أحكام الإجازة ، مع شرحها ». .		
ومنها : « كنز المطالع في شرح ألفاظ الدرر اللوامع ». .		
ومنها : « الجواب المحرر في أخبار عيسى والمهدى المتظر ». .		
ومنها : « شرح على سلم الأخضرى في المنطق ». .		
ومنها : « إكمال السنة باتصال سند المصافحة المدخلة للحننة » وهو مطبوع .		
ومنها : « فتح القدير المالك في شرح ألفاظ موطأ مالك » غير تام .		
ومنها : « البهجة المرضية على شرح الألفية للسيوطى » غير تام .		
ومنها : « سواطع الجمان في علم التصريف » غير تام .		
ومنها : « مرتقى الوصول إلى علم الأصول » غير تام .		
ولشيخنا المذكور رحمه الله تعالى رحمة الأبرار ، مؤلفات عديدة ، غير ما ذكر ، وديوان قيم لم يشتهر ، فجزاه الله تعالى عن المسلمين خير جزاء . ولله غير ذلك من المؤلفات التي لا أحفظ اسمها الآن .		
وكان له أخ أكبر منه وأخ أصغر منه: فأخوه الكبير اسمه الشيخ محمد الخضر ، وكان مفي المدينة المنورة رديحاً من الزمن ، رحل عن		

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبائها في وقتنا الحاضر

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
٢	فضيلة الشيخ علي مالكي	<p>المدينة المنورة إلى الأردن، فمكث هناك بضع سنوات ، ثم رأى رؤيا يأمره رسول الله ﷺ في النام بالرجوع إلى المدينة المنورة مرة ثانية ، وأنه يموت بها بعد وصوله إليها بقليل ، كما حكى لنا ذلك بنفسه ، وقد كان فإنه بعد وصوله إلى المدينة بعدة أشهر توفي ودفن هناك ، رحمه الله تعالى . وكان علاماً زمانه ، له من المؤلفات القيمة : «استحالة المعية بالذات» وهو كتاب عظيم في التوحيد ، وله كتاب «لزوم الطلاق الثالث دفعة» وهما مطبوعان بمصر . وله غير ذلك .</p>

لا تذكر منها إلا ما يأتي :

- شرح على متن البخاري ، توفي رحمه الله تعالى ولم يكمله .

- شرح على متن خليل الفقهي على المذاهب الأربعية ، توفي رحمه الله تعالى ولم يكمله .

- رسالة في الاجتهد والتقليد المسماة : قمع أهل الربيع والعناد . وهي مطبوعة .

- رسالة في الطلاق البدعي . وهي مطبوعة .

أما آخره الثالث فاسمه الشيخ محمد العاقد له عدة مؤلفات ، منها منظومة القيمة المسماة «كشف العمى» .

وكلهم كانوا يحفظون القرآن الكريم بالقراءات ، رحمهم الله تعالى جميعاً .

١) مجلد كبير في الفتاوى .

٢) ديوانه الشعري الكبير .

٣) الدروس المنطقية .

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
<p>٤) الدروس البلاغية .</p> <p>٥) الإبانة عن أصول الكهانة .</p> <p>٦) رسالة في العمل بالمخاهم الأربعة .</p> <p>٧) رسالة في الشطحات الصوفية .</p> <p>٨) ثبت الأسانيد والمسلسلات .</p> <p>٩) اللواء المفقود في إثبات وحدة الوجود .</p> <p>١٠) السفينة العلوية .</p> <p>١١) مواعظ دينية وتوجيهات نبوية ودروس أخلاقية .</p> <p>١٢) النهل اللطيف في أقسام الحديث الضعيف .</p> <p>١٣) نيل المرام شرح أحاديث عمدة الأحكام .</p> <p>١٤) إبانة الأحكام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام .</p> <p>١٥) تعليق على رياض الصالحين .</p> <p>١٦) رسالة من نفحات رمضان .</p> <p>١٧) العقد المنظم في أقسام الوحي المعظم .</p> <p>١٨) فيض الخبر وخلاصة التقرير على شرح منظومة أصول التفسير .</p> <p>١٩) فتح القريب الجيب على تهذيب الترغيب والتزهيب .</p> <p>هذه المؤلفات أخبرنا بها ابن المؤلف ، حفظهما الله تعالى ، فبعضها مطبوع وبعضها غير مطبوع .</p> <p>١) التفسير الميسر ، للثلاثة أجزاء الأخيرة من القرآن العظيم .</p> <p>٢) مبادئ السيرة النبوية للمدارس الابتدائية .</p>	<p>فضيلة الشيخ عبد الله خياط إمام وخطيب المسجد الحرام .</p>	٤

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبائها في وقتنا الحاضر

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
5	فضيلة السيد محمد أمين كبي	٣) اعتقاد السلف . ٤) مقرر التوحيد للمدارس الابتدائية . ٥) أركان الإسلام الخمسة مع قسم من العبادات . ٦) الخطب في المسجد الحرام . وهي ثلاثة حلقات . ٧) دليل المسلم . كل هذه المؤلفات مطبوعة ، وما يأتي غير مطبوع هو : ٨) الوصايا العشر . ٩) مواقف حاسمة . ١٠) نور مجتمع أفضل . ١١) الإصلاح الديني في القرن الثاني عشر للهجرة .
6	السيد عبدالحميد الخطيب	١) تفسير الخطيب المكي ، مطبوع . ٢) رسالة جوهر الدين . ٣) مناجاة الله ، مجلدان . ٤) محاضرات الخطيب . ٥) إلى علوم المسلمين . ٦) أسمى الرسالات . ٧) الإمام العادل ، مجلدان .
7	فضيلة الشيخ حسن هو من مكة المكرمة ، وله من المؤلفات ما يأتي : مشاط .	١) إسعاف أهل الإيمان بوظائف شهر رمضان . ط . ٢) إسعاف أهل الإسلام بوظائف الحج

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
٨	فضيلة الشيخ حسين باسلامة	والحرام . ط . ٣) رفع الأستار في مصطلح الحديث . ط . ٤) التقريرات السنوية شرح البيقونية . ط . ٥) إنارة الدجى في مغازي أهل الورى . شرح منظومة الإمام البدوى الشنقيطي . وهى مطبوعة . ٦) الجواهر الثمينة في أدلة عالم المدينة في الأصول . وهذا الكتاب لم يطبع ^(٣) . ٧) بغية المسترشدين في حياة الأئمة الأربع المجتهدین . وهذا الكتاب مصدر مقدمة في الاجتهاد والتقلید وما يلزم الإنسان المكلف في هذا العصر أن يفعله . وهذا الكتاب لم يطبع . ٨) الفرائد البهية في الحدود المنطقية . وهذا الكتاب لم يطبع . ٩) رسالة في الفرائض تسمى (التحفة السننية في الأحوال الأربعينية) . وهي رسالة مطبوعة . ١٠) رسالة ثبت صغير يسمى الإرشاد في علم الإسناد . وهي رسالة مطبوعة .
٩	فضيلة السيد أحمد بن أبي بكر شطا توفي سنة (١٣٣٧) هـ رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة ، وهو والد السيد محمد شطا والسيد عبد الله شطا . لا ندرى هل له مؤلفات أم لا .
١٠	فضيلة السيد صالح بن	هو من مكة المكرمة - وكان يدرس في

(٣) طبع آخرأ بتحقيق تلميذه عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان .

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبائها في وقتنا الحاضر

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
المسجد الحرام جهة باب الزبادة- لا ندرى هل له مؤلفات أم لا .	بكري شطا توفي عام (١٣٦٩) هـ رحمه الله تعالى .	١
هو من مكة المكرمة ، اشتغل بالقضاء بعد التدريس ، لا ندرى هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ أحمد القاري . توفي سنة (١٣٦٩) هـ رحمه الله تعالى .	١١
هو من مكة المكرمة . لا نعلم هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ أسعد الدهان . توفي سنة (١٣٣٨) هـ رحمه الله تعالى .	١٢
هو من مكة المكرمة . لا ندرى هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ درويش العجمي . توفي عام (١٣٤٦) هـ رحمه الله تعالى .	١٣
هو من مكة المكرمة . لا ندرى هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ سعيد اليماني . توفي عام (١٣٥٢) هـ رحمه الله تعالى .	١٤
هو من مكة المكرمة . لا ندرى هل له مؤلفات أم لا ، وهو والد الشيخ حسن يمانى ، والشيخ علي يمانى .	فضيلة السيد عبد الله بن محمد صالح الزواوى . توفي سنة (١٣٤٣) هـ رحمه الله تعالى منفق الشافعية .	١٥
هو من مكة المكرمة ، له رسالة لطيفة مطبوعة عن تاريخ عين زبالة ، ولا ندرى هل له غيرها من المؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ عبدالرحمن سراج رحمه الله تعالى .	١٦
هو من مكة المكرمة . لم نطلع على مؤلفاته ولا على تاريخ وفاته .	فضيلة الشيخ يحيى أمان . زاده الله تعالى توفيقاً وعلماً .	١٧
هو من مكة ، وله من المؤلفات ما يأتي : ١) شرح من الإسقاطي من الفقه الحنفي . ٢) نزهة المشتاق ، شرح لمعن الشیخ أبي إسحاق الشیرازی فی أصول الفقه .		

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
٣) التيسير شرح منظومة التفسير للشيخ عبد العزيز الزرمي المكي . ٤) تهذيب الترغيب .		
هو من مكة المكرمة . تولى القضاء عليها في عهد الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى ، لا ندري هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ عبد الرحمن الدهان توفي سنة (١٣٣٧هـ) رحمه الله تعالى .	١٨
هو من مكة المكرمة . وله من المؤلفات ما يأتي : ١) تحفة الخلان في علم البيان ، وهي حاشية في جزء كبير .	فضيلة الشيخ محمد علي بن حسين المالكي المتوفى سنة (١٣٦٨هـ) رحمه الله تعالى .	١٩
٢) الحواشى النقية على كتاب البلاغة للشيخ محمد طوموز زملاته . ٣) فرائد التحوى الوسيمة شرح الدرة اليتيمة . ٤) تدريب الطالب في قواعد الإعراب على طريقة السؤال والجواب .		
٥) حاشية على كتاب التلطف شرح التعرف في علم الأصول والتصوّف .		
٦) تهذيب الفروق والقواعد السنّية في الأسرار الفقهية . وهو اختصار كتاب الفروق للعلامة القرافي .		
٧) شمس الإشراق في حكم التعامل بالأوراق .		
٨) انتصار الإعتصام . يعتمد كل منهـب من مذاهب الأئمـة الأعلمـاـم .		
٩) ردـعـ الجـهـلـةـ وأـهـلـ الغـرـةـ فيـ اـتـيـاعـ قولـ منـ يـردـ المـطـلـقـةـ ثـلـاثـاـ فيـ مـرـةـ .		
١٠) توضـيـحـ أـحـسـنـ ماـ يـقتـضـيـ وـبـهـ تـحـليلـ		

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبائها في وقتنا الحاضر

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
<p>المبترة يكتفي .</p> <p>١١) أنوار الشروق في أحكام الصنوف .</p> <p>١٢) تحذير المسلمين من لبس البرنيطة وزي الكافرين .</p> <p>١٣) طوالع الهدى والفضل بتحذير المسلمين عن الإعلام وقت الصلاة بضرب الناقوس والطبل .</p> <p>١٤) القواطع البرهانية في بيان إفك غلام أحمد وأتباعه القادريانية .</p> <p>١٥) الحواشى السننية على قوانين ابن حزمي .</p> <p>١٦) حواشى على الأشباه والنظائر .</p> <p>١٧) تقريرات على همع المواتع شرح جمع الجوامع .</p> <p>١٨) تقريرات على شرح الحلى لجمع الجوامع في الأصول .</p> <p>١٩) تقريرات على شرح الخضري على الألفية .</p> <p>٢٠) الجواهر السننية في تعميق حكمة الدين العلية .</p> <p>٢١) الكياسة في علم الفراسة .</p> <p>٢٢) التنتقيع في حكم التنتقيع .</p> <p>٢٣) المقال في رد سننة الصلاة بالتعال .</p> <p>٢٤) فتاوى النوازل العصرية .</p> <p>هو من مكة المكرمة ، وله من المؤلفات ما يأتى :</p> <p>١) تحفة الإخوان في علم البيان .</p> <p>٢) البر الصعيد في علم الوضع المفيد .</p> <p>٣) منسك إرشاد أهل الخبرة في مناسك الحج</p>	<p>فضيلة السيد عباس بن عبد العزيز المالكي . المتوفى سنة (١٣٥٣هـ) رحمه الله تعالى .</p>	٢٠

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
٢١	فضيلة الشيخ محمد العربي التباني الجزائري زاده الله توفيقاً وعلماً .	<p>والعمرة .</p> <p>٤) شرح على متن العروسي .</p> <p>٥) تقريرات على حاشية الجفري .</p> <p>٦) ديوان خطب منبرية ألقاها أيام الجمعة في المسجد الحرام .</p> <p>هو من مكة ، وله من المؤلفات ما يأتي :</p> <p>١) تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى وهو جزءان .</p> <p>٢) إتحاف ذوي التجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة .</p> <p>٣) حادثة أهل الأدب ، بأبحار وأنساب جاهلية العرب .</p> <p>٤) جموع ثلاث رسائل في القراءة عن الأموات .</p> <p>٥) نزهة الفتيان في تراث الشجعان .</p> <p>٦) تنبيه الباحث السري إلى ما في رسائل وتعليق الكوثري .</p> <p>٧) إسعاف المسلمين والمسلمات بمحوار القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات .</p> <p>٨) اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن بتزول المسيح ابن مرريم آخر الزمان .</p> <p>٩) خلاصة الكلام فيما هو المراد بالمسجد الحرام .</p> <p>١٠) إفاده الأخبار ببراعة سيد الأبرار .</p>
٢٢	فضيلة الشيخ عمر باجنيد . توفي عام (١٣٥٤هـ) رحمه الله تعالى .	<p>هو من مكة المكرمة . لا ندرى هل له مؤلفات أم لا .</p>
٢٣	فضيلة الشيخ عابد بن	<p>هو من مكة المكرمة . لا ندرى هل له</p>

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبائها في وقتنا الحاضر

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
مؤلفات أم لا .	حسين . مفتى المالكية ، توفي سنة (١٣٤١هـ) رحمه الله تعالى .	٢٤
هو من مكة المكرمة ، له بعض المؤلفات لم نطلع عليها .	فضيلة الشيخ عبدالحميد قلس . توفي عام (١٣٣٤هـ) رحمه الله تعالى .	٢٤
لا ندري هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ عمر بن حمدان المغربي .	٢٥
لا ندري هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ عيدروس البار . توفي عام (١٣٦٧هـ) رحمه الله تعالى .	٢٦
هو من مكة المكرمة . وله من المؤلفات ما يأتي :	فضيلة الشيخ جعفر بن بكر لبني . توفي سنة (١٣٤٢هـ)	٢٧
(١) تاريخ عوائل مكة . (٢) رسالة في جواز الإحرام من جدة . (٣) العقود الثلاثة ، شرح أرجوزة ابن شحنة في المعاني والبيان والبديع .	رحمه الله تعالى .	
هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ جمال المالكي . توفي سنة (١٣٤٩هـ) رحمه الله تعالى .	٢٨
هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .	فضيلة الشيخ بكر صباغ . توفي سنة (١٣٣٧هـ) رحمه الله تعالى .	٢٩
هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .	السيد حسين الجبشي (بكسر الحاء وسكون الباء) . توفي سنة	٣٠

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
٣١	(١٣٣٠هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لا ندرى هل له مؤلفات أم لا .
٣٢	فضيلة الشيخ عبد الله حذّاوي . توفي عام (١٣٧٠هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لا ندرى هل له مؤلفات أم لا .
٣٣	فضيلة الشيخ محمد المرزوقي أبو حسين . توفي عام (١٣٥٣هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . وكان رئيساً للمحكمة الشرعية الكبرى .
٣٤	فضيلة الشيخ محمد نور فطاني . توفي سنة (١٣٦٣هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة ، وكان تولى القضاء فيها .
٣٥	فضيلة الشيخ عيسى رؤاس . توفي رحمه الله تعالى في سنة (١٣٦٥هـ) هجرية .	هو من مكة المكرمة ، وقد قرأتنا عليه رحمة الله تعالى وكان من كبار الصالحين ، ولا ندرى هل له مؤلفات أم لا .
٣٦	فضيلة الشيخ أحمد ناصرين . توفي رحمه الله تعالى في سنة (١٣٧٠هـ) هجرية .	هو من مكة المكرمة . وقد قرأتنا عليه ، رحمة الله تعالى ، وتولى القضاء ، ولا ندرى هل له مؤلفات أم لا .

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبياتها في وقتنا الحاضر

العنوان	اسم المؤلف	عدد
وهو من مكة المكرمة، وله من المؤلفات ما يأتي: ١) كتاب الوقف الأهلي وشرعنته. ٢) كتاب أبو مسلم الخراساني وأثره في نشوء الدولة العباسية.	فضيلة السيد محمد أحمد شطا.	٣٧

هذا ما تذكرناه من علماء المسجد الحرام في عصرنا الحاضر ، فنرجو المعذرة من نسياناً اسمه ولم نذكره هنا ، فالنسىان من الأعذار الشرعية ، فرحم الله تعالى من مضوا إلى الدار الآخرة من العلماء الأجاد ، وبارك في حياة من بقي منهم وزادهم توفيقاً وعلماً آمين .

ولنختتم هذا البحث بالقصيدة الطيبة التي قالها فضيلة صديقنا العلامة السيد علوى مالكى ، المدرس بالمسجد الحرام اليوم ، أدام الله تعالى عليه توفيقاته ، وأدام عليه الصحة والعافية والنعم الراوية آمين ، وهي هذه :

فلله آباء مضوا نحو ربهم وقد خلفوا ذكرًا جليلًا موبدا
تحلوا بأخلاق الكتاب وسارعوا إلى الحمد ينسون الفخار مشيدا
لقد جاهدوا في الله حق جهاده وقد سلكوا سبل المكارم والمهدى
دعاة إلى الدين الحنيفي قادة بهم يقتدي من رام بجداً وسودداً
فسل مكة الغراء عنهم فإنها دروسهمو هن حوله حن منشدا
وكم طوقوا بالبيت ي يكون حوله تسجل في تاريخها الفضل مسندا
وسل زرمدا والركن والحجر والصفا عن القوم كم باتوا ينسون سجدا
وكم وقفوا بالبيت كم رفعوا يدا
وكم عبلوا خلف المقام وشاهدوا من السر نور الله يسطع مرشدوا
لقد خصّهم مولاهم وبحواره ففازوا بتضييف المثوبة سر마다
جزى الله من أجيالنا ذكر مجدهم ولا زال موفور الكمال مؤيدا
وصلى على المختار والآل من سموا

اتهي بعون الله تعالى الجزء الخامس

ويتلوه الجزء السادس ، وأوله :

بعض الأدباء والشعراء بمكة في عصرنا الحاضر

المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
٥	صيغة الدعاء بالمسجد الحرام لملك الحجاز سابقاً
٥	النوم في المسجد الحرام
٦	الشحاذة في المسجد الحرام
١٠	إيقاد في المسجدين الحرميْن
١٠	إيقاد الشموع في المدينة على عهده
١١	إيقاد المساجد بالزيت في عهد النبي
١٢	المصابيح في المسجد الحرام وإضاءتها بالزيت
١٥	تدرج الإنسان في الإضاءة
٢١	استعمال غاز الاستصبح
٢٢	بعض ما جاء من الوصف في آلات السرج والإيقاد
٢٧	مفارقة بين التقديل والتشمعدان
٣١	إضاءة المسجد الحرام بالقنديل الربيبة
٣٤	إضاءة المسجد الحرام بالأثاريك والكهرباء
٣٧	الحرائق في المسجد الحرام
٤١	عمارة المسجد الحرام بالقباب بشكله الحاضر في زماننا
٥٢	ما كتب على جدار المسجد الحرام من الخارج من جهة
المسعي	
٥٤	مقدار ما صرف في تجديد عمارة المسجد الحرام بالقباب
٥٥	عدد أساطين المسجد الحرام وقبابه وعقوده
٥٦	الحريق الثاني بقرب المسجد الحرام
٥٨	الحريق الثالث
٥٨	إطفاء الحرائق قديماً وحديثاً
٦٢	تحية المسجد الحرام: الطراف
٦٢	تحية المسجد الحرام وما يطلب في دعوته
٦٤	إدارة المسجد الحرام

رقم الصفحة	الموضوع
٦٨	مراقبة المسجد الحرام
٦٨	شرطة المسجد الحرام
٦٩	صورة بعض ما كتب على جدران أروقة المسجد الحرام
٧١	بناء درج أبواب المسجد الحرام قبل عصرنا الحاضر
٧٦	المساجد التي يعكّه
٧٧	مسجد الراية
٨١	مسجد خالد بن الوليد رضي الله عنه
٨١	مسجد الجن
٨٢	مسجد أبي قبيس
٨٥	بيان بمساجد مكة المكرمة
٩١	المقامات الأربع التي كانت في المسجد الحرام
٩٥	كيفية صلاة الأئمة في المقامات الأربع التي كانت سابقاً
٩٦	حكم صلاة الأئمة المتعددة في المقامات
٩٨	هدم المقامات الأربع التي كانت بالمسجد الحرام
٩٩	المزاول وال ساعات في المسجد الحرام
١٠٥	الساعات الكبيرة وساعة الجيب
١١٢	وضع المرولة في مكانها الجديد
١١٢	ما قيل في وصف آلات التورقية
١١٥	المسعي وما يتعلق به
١١٩	أصل السعي وحكمته
١٢١	بناء العقددين بالصفا والمروة
١٢٣	هدم درج الصفا القديمة وما كتب على عقده
١٢٤	درج الصفا والمروة
١٢٤	ترجمة عبد الصمد بن علي
١٣٠	الميلان الأخضران بالمسعي
١٣٢	تسوية أرض المسعي وتعبيتها
١٣٤	عزم الوالي التركي سابقاً على توسيعة المسعي
١٣٥	وصف الصفا والمروة

رقم الصفحة	الموضوع
١٣٨	ذرع ما بين الصفا والمروة
١٤١	تسقيف المسعى وفرشها بالحجارة أو تبطيطها بالحجارة
١٤٣	عرض المسعى
١٤٥	حالة المسعى قبل التوسعة السعودية
١٤٦	الخالقون بالمروة
١٤٧	موضع الشنق بالمسعى
١٤٨	حالة المسعى
١٥٢	تقسيم المسعى طولاً إلى قسمين
١٥٢	المسجد الذي في حدود الحرم
١٥٣	مسجد عائشة بالتعيم
١٥٥	الشميسى ومسجده
١٥٨	بحرة ومسجلها
١٦١	الجعرانة ومسجلها
١٦٤	مسجد ثمرة بعرفات
١٦٤	بدء بناء المساجد والجوامع في البلاد الإسلامية
١٧١	الفسطاط
١٧٢	بدء بناء مآذن المساجد
١٨٠	مبدأ عمل حاريب المساجد
١٨٢	وصف مسجد قرطبة ومنارته ومحرابه
١٨٤	عدد منارات المسجد الحرام سابقاً
١٨٩	ابتداء ظهور الحمل
١٩٤	الحمل العراقي
١٩٤	الحمل اليمني
١٩٥	الحمل الرومي
١٩٥	الحمل الشامي
١٩٦	الحمل المصري
١٩٧	مرتبات الأسراف والعربان والأهالي من الحكومة المصرية
١٩٨	سكنى مكة المكرمة وعدد بيوتها ودكاكينها

رقم الصفحة	الموضوع
١٩٨	الأغраб في مكة المشرفة
٢٠٠	المحكمة في جعل سكان مكة خليطاً من جميع الأجناس
٢٠١	بناء مراكز الشرطة بمكة
٢٠١	بناء القلاع والأبراج وبعض القصور الهمة سابقًا بمكة
٢٠٢	قلعة جبل أحيا
٢٠٢	قلعة جبل هندي
٢٠٣	قلعة جبل لعلج بالفلق
٢٠٣	قلعة حرول
٢٠٤	قلعة أحيا
٢٠٥	قلعة العابدة
٢٠٥	بناء الحصون على جبل أبي قبيس
٢٠٦	القلاء التي كانت بين مكة وجدة
٢٠٧	بناء المطبعة الأميرية
٢٠٧	بناء الحميدية
٢٠٨	بيت الحكم بالغزة
٢٠٨	بناء دار بناجحه بالمسعى
٢٠٨	بيت الجيلاني بالشامية
٢٠٩	بيت الشريف ناصر باشا بالقرارة
٢٠٩	الدار التي كانت بعرفات
٢١١	بناء درج المحجرون ودرج أبي طلب والمحك بطريق العمرة
٢١٢	ومندرج مني
٢١٤	بناء التكية المصرية ((أو المبرة المصرية))
٢١٤	بيت الشريف عبد الله بن محمد بالحلقة
٢١٤	القصور الملكية السعودية
٢١٥	القصر السعودي يعني
٢١٥	القصر السعودي عزدلفة
٢١٦	المسحراتية بمكة المكرمة
٢١٩	الثانع بمكة المكرمة

رقم الصفحة	الموضوع
٢٢٣	تأسيس أمانة العاصمة
٢٢٥	ترجمة سعادة الأستاذ عبد الله عريف ((أمين العاصمة))
٢٢٧	ترجمة الشيخ عبد الله بن صديق وكيل أمانة العاصمة
٢٢٨	معرفة أهل الصدر الأول بأمور البناء وإصلاح الطرقات
٢٢٩	بدء بناء بيروت بـمكة
٢٣٢	امتداد بيروت والمعماريات بـمكة
٢٣٦	تنظيف الشوارع وإصلاحها
٢٣٨	العلم المحازى
٢٤١	ترجمة خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه
٢٤٦	استعمال الطوابع البريدية في الحجاز
٢٤٩	طوابع البريد التي تحمل صورة الكعبة المعظمة
٢٤٩	بدء استعمال طوابع البريد في العالم
٢٥٣	جمع خطوط التوقيعات والإمضاءات
٢٥٥	تاريخ التقدّم منذ صدر الإسلام
٢٦٣	التقدّم المتداولة في الحجاز
٢٦٥	أسعار المبيعات بالجملة بالتقدّم الماشية
٢٦٦	أسعار المبيعات بالتفريقة
٢٦٧	ظهور التقدّم العربية السعودية
٢٧٠	استعمال الأوراق النقدية في المملكة السعودية
٢٧٥	أول استعمال عملة النقد وعملة الورق
٢٧٦	التعامل بالفلوس الورق
٢٧٦	التقدّم
٢٧٨	كلام ابن خلدون عن التقدّم
٢٨١	مقدار الدينار والدرهم الشرعيين
٢٨٣	بعض آثار مكة المكرمة
٢٨٤	الأثار التي كانت بـمكة
٢٨٥	بئر زرم
٢٨٥	بئر ذي طوى

رقم الصفحة	الموضوع
٢٨٦	بركة الماجن
٢٨٨	منى
٢٨٨	ذبح المدابي. يعني
٢٩٢	رحم الجمرات الثلاث. يعني
٢٩٤	إزالة الجبل الذي يظهر حجرة العقبة
٢٩٨	عمل مراحيل. يعني
٢٩٩	المجر وراء منى
٣٠٠	بناء المدرجات. يعني وال عمرة وغيرهما سابقاً
٣٠١	مسجد الخيف في منى
٣٠٧	موضع مصلى النبي ﷺ. مسجد الخيف. يعني
٣٠٨	مسجد المرسلات
٣٠٩	مسجد الكبش. يعني
٣٠٩	مسجد البيعة بقرب منى
٣١٥	مزدلفة
٣١٥	الشعر الحرام "مزدلفة"
٣١٨	البناء الذي كان على قرح
٣٢٠	الإيقاد. مزدلفة
٣٢١	مسجد مزدلفة
٣٢٣	اقتراحنا بشأن مسجد مزدلفة
٣٢٤	عرفات
٣٢٤	عرفة والوقوف بها
٣٢٨	حدود عرفات
٣٣٠	وصف ووقف الحجاج بعرفات
٣٣٤	الوقوف بعرفات
٣٣٦	الحج ووصف الوقوف بعرفات
٣٣٨	مسجد نمرة بعرفات
٣٤٣	مسجد الصخرات بعرفة
٣٤٥	كيفية الظلوع من مكة إلى عرفات

رقم الصفحة	الموضوع
٣٤٨	احتزاع السيارات واستعمالها
٣٤٩	درج جبل الرحمة بعرفات
٣٤٩	العنور على بئر قبيحة بعرفات
٣٥٠	عين زبيدة
٣٥٠	ماء مكة وعين زبيدة
٣٥٢	البرك التي أمر ببنائها أمير المؤمنين المأمون العباسي
٣٥٢	أول من اتخذ الحياض بعرفات وأحرى إليها الماء
٣٥٣	إصال زبيدة رحمها الله تعالى عين حنين إلى مكة
٣٥٤	إصال زبيدة رحمها الله تعالى عين نعمان إلى عرفات
٣٥٦	إحراء أمير المؤمنين المتوكل على الله جعفر عين عرفات إلى مكة
٣٥٦	تعمير مظفر الدين صاحب إربيل عين عرفات
٣٥٦	تعمير المستنصر العباسي عين عرفات
٣٥٧	تعمير الأمير جوبيان عين عرفات
٣٥٨	إحراء الملك الناصر محمد بن قلاطون عين ثقبة إلى مكة
٣٥٨	تعمير عين بازان سنة ٨١١
٣٦٠	تعمير عين حنين سنة ٨٣٥
٣٦٠	تعمير عين حنين وعين عرفات سنة ٨٧٥
٣٦١	صورة الكتابة التي على الحجر
٣٦٢	تعمير عين حنين وعين عرفة سنة ٨٩٣
٣٦٥	انقطاع عين حنين والعيون عن مكة المشرفة
٣٦٦	صدر الأوصياء السلطانية بإصلاح عين حنين وعين عرفات
٣٦٧	صدر الأوصياء السلطانية بإصلاح العيون
٣٧٠	وصول عين عرفات إلى مكة سنة ٩٧٩
٣٧١	بناء بقية دبول عرفات من الأبطح إلى آخر المسفلة
٣٧٢	تعمير عيون مكة وآبارها سنة ٩٨٢
٣٧٢	تعمير عين عرفات سنة ١٠٢٥
٣٧٣	انقطاع عين عرفات عن مكة سنة ١٠٦٦

رقم الصفحة	الموضوع
٣٧٣	تعمير عين عرفات سنة ١٠٨٤
٣٧٤	تعمير العين سنة ١٠٩١
٣٧٥	ما كسر من قنطرة العين سنة ١١٠٤
٣٧٦	تعمير عين عرفات سنة ١١٢٤
٣٧٨	صورة ما كتبه الشيخ عبدالقادر مفتى مكة
٣٨١	انقطاع الماء عن مكة و تعمير العين سنة ١٢٤٢
٣٨٢	أول جمعية لجمع الإعانات لتعمير عين مكة سنة ١٢٩٥
٣٨٤	صفة جريان عين زبيدة في الأرض
٣٨٥	تشكيل بحثة ثانية للعين
٣٨٦	جمع إعانات حجرية للعين
٣٨٧	أسوال العين أيام تولية الشريف الحسين بن علي
٣٨٧	ملك الحجاز الأسبق
٣٨٧	تشكيل بحثة ثالثة للعين
٣٨٩	خراب العين و انقطاع الماء عن مكة سنة ١٣٢٨
٣٩٢	اكتشاف دبوب بعض العيون و مساحة ما بين بعضها
٣٩٣	استعمال العرب لمواسير المياه
٣٩٥	استعمال أنابيب المياه بمكة المشرفة
٣٩٥	أنابيب الماء والتدفق
٣٩٥	الاستقاء بالقرب وبصفائح التلك
٣٩٦	بازان القاضي
٣٩٦	بازان حبس الجن
٣٩٧	ما عملته هيئة عين زبيدة سنة ١٣٣٥ بمكة المكرمة
٣٩٨	صدر أمر حلالة الملك عبد العزيز آل سعود بتعمير العين
	سنة ١٣٤٤
٣٩٨	البرك الواقعة بمكة وما حولها
٤٠٠	الأبار التي بمكة وما حولها
٤٠٤	العيون التي بأطراف مكة
٤٠٥	الخلاصة المفيدة عن عين زبيدة

رقم الصفحة	الموضوع
٤١٣	ترجمة زبيدة
٤١٥	وصف لخراصاني لزبيدة رحمها الله تعالى
٤١٦	ترجمة الوزير الجواد الأصفهاني
٤١٧	إيصال عين العزيزية بعين زبيدة
٤٢١	القضاء والإفقاء بمكة
٤٢٧	القاضي يحكم بحسب الظاهر
٤٢٨	إنشاء الحكمة الشرعية الكبرى
٤٢٨	رؤساء الحكمة الشرعية الكبرى بمكة
٤٣٤	إنشاء المحاكم المستعجلة
٤٣٩	القضاء في عهد الخلفاء الراشدين
٤٤١	القضاء في عهد الأمراء
٤٤٣	القضاء في العهد العباسي
٤٤٧	تقسيم سجنون القضاء إلى درجات
٤٥٢	صور ما كتبه الخلفاء والسلطانين لن يولونه القضاء
٤٥٢	ما كان يكتبه ولاة الأمور عند تولية أحد القضاة
٤٥٤	صورة ما كتبه الملك الأفضل على ابن السلطان صلاح
ال الدين بن أبيه ملك مصر	
٤٦٠	صورة ما كتبه ملك الأندلس للعلامة محمد بن سليم بولاية
القضاء	
٤٦٢	نبذة عن بعض قضاة المسلمين في العصور المتقدمة
٤٨٠	تاريخ الفرمانات السلطانية وصورها
٤٨١	صورة فرمان الإمارة من الدولة العثمانية للشريف حسين بن
علي أمير مكة	
٤٨٣	صورة الفرمان السلطاني للشريف عون
٤٨٦	بعض ما كان يكتبه السلاطين في تقليد إمارة مكة
٤٨٩	الاحتلال بتلواه الأمر السلطاني بتقليد إمارة مكة
٤٩١	ترجمة الفرمان السلطاني لتولية المشير كاظم باشا على
الحجاز	

رقم الصفحة	الموضوع
٤٩٢	أبناء مكة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم
٥٠٦	ولادة مكة من الأنوار
٥١٧	التعليم في مكة المكرمة
٥١٩	أسباب انتشار الكتاتيب في الزمن السابق
٥٢١	التعليم في المسجد الحرام وعلماؤه
٥٢٤	أول بعثة تعليمية حكومية بمكة
٥٢٦	أول بعثة تعليمية أهلية بمكة
٥٢٧	ذكر الأطباء من أبناء مكة المكرمة
٥٣٤	الدكتور عبدالقادر عبد المجيد
٥٣٤	أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأديبائها في وقتنا
	الحاضر